الشيخ محمد النبهان

شخصيته - فكره - آثاره

تأليف

محمد فاروق النبهان

مكتبة دار التراث
حلب




الإهداء

أهدي هذا العمل العلمي إلى روح الجد العزيز
المربّي الكبير
فضيلة الشيخ محمَّد بن أحمد النبهان رحمه الله

تعبيراً عن حبِّنا له.. ووفاءً لحقِّه علينا
وأداءً لواجب التعريف بشخصيّته وفكره وآثاره




مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيِّد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين :

يسعدني أن أقدِّم هذا الكتاب عن شخصيَّة المربّي الكبير الشيخ محمّد بن أحمد النبهان رحمه الله وفكره وآرائه وآثاره. فقد كان الشيخ من الشخصيّات الإسلاميّة المتميّزة بمنهجها التربوي الذي يعتمد على تزكيّة النفوس وطهارة القلوب ، وهذا المنهج مستمدٌّ من الفكر الإسلامي الأصيل المعتمد على القرآن الكريم والسنّة النبويّة الشريفة ، حيث استطاع الشيخ رحمه الله أن يجسّد هذا المنهج من خلال سلوكه الشخصي وأقواله وافعاله وتوجيهاته .

وخلّف الشيخ تراثاً تربوياً أصيلاً يلتقي مع الفكر الصوفي في معظم منطلقاته وأسسه التربويّة والروحيّة ، ويختلف عنه في ابتعاده عن الطقوس الطرقيّة المألوفة ، ممّا جعل هذا المنهج أكثر ارتباطاً بالنصوص الشرعيّة ، وأكثر حرصاً على الالتزام بمضامينها في مجال العقيدة والسلوك ، ولعلَّ هذه المنهجيّة هي أقرب لمنهجيّة المدارس الصوفيّة الأولى في القرون الثلاثة الهجريّة التي كانت الصوفيّة فيها صافية الينابيع بعيدة عن الشطحات والتأويلات المتكلّفة التي كانت مطيّة لانحرافات المتأخرين .

إن الهدف الذي كان يسعى الشيخ لتحقيقه هو حسن الخلق والتخلّق بأخلاق النبي ﷺ واتّباع ما أمر به في كلّ أمر من الأمور ، لأنّه كان يجد الكمال في ذلك ، لا طمعاً في ثواب ولا خوفاً من عقاب ، وإنّما محبّة لله ولرسوله والعمل بما جادت به الشريعة من كمالات .

وكان يردِّد في مجالسه أنَّ غفلة القلوب الناتجة عن تراكم المخالفات تجعل

القلب غير مؤهَّل لإشراق المعرفة فيه ، ولابدّ للمعرفة من تزكيّة النفوس ، لكي لا يكون في القلب أي حجاب عن الله .

ومن التفت قلبه عن الله فهذا دليل على الجهل والغفلة ، والالتفات غفلة في نظر العارفين والقلوب الغافلة يعيبها الصدأ ولابدّ لها من تصفيّة ونقاء وطهارة .

ولعلَّ من الأسباب التي أدَّت إلى اهتمام الشيخ بتصحيح صورة السلوكيّة الصوفيّة حتى تكون كما كانت في عهود ازدهار الحياة الروحيّة انغماس الطرق بالسلوكيّات الظاهرة والاهتمام بها ، وعدم الاهتمام بالتربيّة الروحيّة الحقّة التي تجعل القلوب مهيأة لتلقي توجيه الله بالاستعداد له والأدب مع الله في الظاهر بالاتّباع المطلق ، وبالباطن بالتسليم لله تعالى ، وأول خطوة في السلوك إلى الله هي تقوى الله ، والتقوى تحتاج إلى المحاسبة المستمرة لكي يكون العمل لله تعالى ، وليس لغيره ، فمن أصابه الغرور بسبب عبادته فقد حجب عن ربه .

ومن أبرز ما حرص عليه الشيخ التأكيد على أنَّ الزهد لا يعني الترك والإهمال والتخلي عن المال والانصراف عن العمل ، وإنَّما الزهد هو زهد القلب وعدم انصرافه إلى شؤون الدنيا لوجود مرغوب فيه أكثر أهميّة في نظر الزاهد ، وهو ما وعد الله به المتّقين في الآخرة من ثواب ونعيم ، وانصراف القلب لا يعني عدم العمل والكسب ، وإنّما يعني التحررّ من عبوديّة الدنيا تعلّقاً بالله تعالى ، فالعمل ليس مذموماً والدنيا ليست مذمومة ، وإنّما المذموم هو النهم في الدنيا ، والانشغال بها ، والزهد فيما يجب أن يكون مرغوباً فيه من أمور الآخرة .

ولابدّ أن تكون الغايّة من الطاعة هي الله ، ولا شيء آخر ، فإن اقترنت الطاعة بحظٍّ من حظوظ النفس أصيب صاحبها بالغرور ووقعت النفس في الرياء ، والرياء مدخل النفس إلى الصفات المذمومة كحب الحمد وإظهار العبادة والتفاخر بعمل الخير ولذَّة سماع المديح والثناء .

وقد حرصت خلال ترجمتي لحياة الشيخ والتعريف بفكره على تذكّر كلماته كما سمعتها بنفسي منه في مجالسه ومذاكرته ، ولم تأت في دراسة مكتوبة ، وهذا ممّا يجعل الحكم على الأشياء مختلفاً ، لاختلاف طبائع الناس في فهم

ما يسمعون ، وحاولت بجهد كبير أن أكون أكثر التصاقاً بشخصيّته ، من خلال استكشاف النسق العام لهذه الشخصيّة في محاولتها لتأسيس هذه المنهجيّة التربويّة المتميّزة.

من حق أي إنسان أن يرى شيئاً آخر وأن يفهم النص بطريقة مغايرة ، وهذا حق معترف به للآخرين ، إلاّ أنّه من الضروري ملاحظة النسق العام الذي يمثّل الخط البياني الذي لا اعوجاج فيه ، فالمواقف محكومة بظروفها المكانيّة والزمانيّة ، كما هي محكومة بطبائع المخاطبين ، وبخاصة في ظل مجتمع تغلب عليه قيم سائدة من العادات والتقاليد.

كنت أرى في شخصيّة الشيخ انفتاحاً عجيباً على قيم إنسانيّة ساميّة ، ولم أكن أجد ذلك التزمت في المواقف والتعنت في الآراء والانغلاق في مواجهة الآخر الثقافي والاجتماعي ، ويجب أن نفرّق بين سلوكيّات الكمال والدعوة إلى التزام الكمال وبين التزمّت الضيّق المقترن برفض الآخر ، فلم يكن الشيخ يرفض الآخر في أيّ موقف ، وكان من أكثر الناس التماساً لعذر الآخرين فيما هم فيه ، لا إقراراً لهم بما هم فيه على أنّه الكمال ، ولكن اعترافاً بحق الآخر في اختيار سلوكه ولو كان خاطئاً ، ومساعدته بالبيان على الارتقاء بمستوى اهتماماته وأفكاره وسلوكيّاته.

كان الشيخ يحبُّ الحياة البسيطة لا لأنّها الخيار الصحيح والوحيد للكمال ، ولكن لأنّه كان يميل إلى ذلك ، ولم يكن يرفض بالنسبة لغيره حياة الدعة والترف ، فذلك اختيار شخصيّ ، ويجب احترام خصوصيّات الأفراد في اختياراتهم.

من حق أي شخص أن يرى في أفكار الشيخ ما يترجّح لديه ، كمن يقرأ في لوحة زيتيّة معاني ودلالات مختلفة عن الآخرين ، ولكن ليس من الإنصاف أن يحكم على أفكار الشيخ من خلال قراءات ضيّقة ، وبخاصة بالنسبة للجيل الذي عاش مع الشيخ ، فهو المصدر الوحيد للمعرفة ، ولو كانت للشيخ كتابات لكان بالإمكان إعادة قراءة كتبه في كلّ حين ، وإعطاء الفرصة للجيل اللاحق للفهم بالقراءة الثانيّة والثالثة ، إلا أنَّ ذلك غير ممكن ، لعدم وجود تراث

مكتوب ، ولابدّ من الاعتماد على الوقائع الجزئيّة والأحداث والمواقف لاستكشاف النسق العام المنسجم مع شخصيّة الشيخ .

ولابدّ من مراعاة البيئة المكانيّة والزمانيّة ، فالمواقف ليست شيئاً منفصلاً عن البيئة المؤثرة في تكوين تلك المواقف ، كما أنه لابدَّ من مراعاة طبيعة المخاطب ، وكان الشيخ قادراً على أن يكون مخاطباً لكلّ الآخرين ، وكان يملك القدرة على التواصل النفسي والفكري مع زوّاره ولو كانوا يمثلون الضفة الأخرى ، فما ضاق بالآخر فكراً ، ولا حكم على أي إنسان بالانحراف والإلحاد ، وكان سبيله إلى هذا التواصل هو البعد الإنساني الذي كان المنطلق الأساسي لفكره الإصلاحي .

هذه ملاحظات أردت تسجيلها في محاولة لإلقاء الضوء على شخصيّة الشيخ كما هي وكما رأيتها وعشتها ، وكنت أشعر أنني قريب فكرياً منه ، بل كنت أشعر أنني أنهل من نفس الينبوع الذي أرى العذوبة في مياهه ، لا من الناحيّة العاطفيّة وإنّما من الناحيّة الفكريّة .

وفي هذه الدراسة التي قسّمتها إلى أربعة أبواب رئيسيّة ، خصّصت الباب الأول للحديث عن الشخصيّة والمكوِّنات والملامح ، فالفكر هو ثمرة شخصيّة إنسانيّة ، والشخصيّة نتاج مكوِّنات أساسيّة تسهم في صياغة ملامحها الذاتيّة سواء كانت ملامح ظاهرة أو ملامح فكر يصدر عنها ، ولا يمكن فصل الشخصيّة عن المكوِّنات الأساسيّة لها ، وكما أنَّ الجغرافيا تلوّن ملامح الشعوب وتصوغ لها خصائصها الذاتيّة وانفعالاتها السلوكيّة ، وقوة اندفاعاتها في لحظات الغضب فإن البيئة الاجتماعيّة تلوّن ملامح الثقافات وتضع لها قوالبها ، وتعمّق في ذاتها القيم الثابتة ، فتجعل منها ثقافات منغلقة أو متفتّحة ، ذات طبيعة أنانيّة أو إنسانيّة ، ولهذا فلا يمكن فصل الشخصيّة عن مكوِّناتها التربويّة والبيئيّة والقيميّة ، ولا يمكن فصل الفكر عن البيئة التي احتضنت ذلك الفكر وعمّقته وغذّته في أعماق الذات ، ولا يمكن للشخصيّة أن تتحرر كلياً من مكوِّناتها ، إلاّ بالقدر الذي يمكّنها من إيجاد التوافق بين الفكر والاستعدادت الذاتيّة وقابليّات التغيير ، وهنا تبرز قدرات الشخصيّة على

التوفيق بين ما كان وبين ما يجب أن يكون ، ولابدّ من وجود قنوات للتواصل بين الواقع والأمل المنشود ، ومن اليسير إحداث التغيير المطلوب في إطار النسق الأخلاقي المنسجم ، وهذا تغيير يجد استجابة سريعة لأنّه تغيير إلى الأفضل والأسمى ، فلا يقع الاصطدام بين القديم والجديد ، فالجديد هو امتداد تصحيحي تنشرح له النفوس وتطمئن له ولا تضيق به إلا في إطار مدافعة النفوس عن ذواتها وغرائزها ، وتزكيّة النفوس دعوة إلى الخير ونداء إلى الأفضل ، ولا يمكن لدعوة الخير أن تصطدم بالجدران الحديديّة ، فالشهوات الناتجة عن الغفلة لا تبني الجدران المحصَّنة ، وإنّما تقيم حواجز وهميّة لكيلا تسمع كلمة الحق التي سرعان ما تهدم عوائد الشهوات.

ولهذا فإنّ دراسة الشخصيّة تتطلب دراسة مكوِّنات تلك الشخصيّة سواء كانت مكوِّنات ذاتيّة أو تربويّة ، فالاستعداد الفطري ذاتي وسرعان ما تتحكم فيه البيئة أو توجهه ، وهنا يبرز دور المجاهدات النفسيّة التي تقوم بدور التصحيح ، لكي تكون الغرائز الفطريّة في قبضة العقل يتحكم فيها ، ويأتي دور الشرع لكي يوجه العقل نحو الاختيار السليم ، ولا يخلو أمر المجاهدات من وجود عنايةٍ سابقة ، فالمجاهدات جهد مادِّي ولابدّ له من استعداد سابق وهمَّة عاليّة ، ولولا وجود العناية في المجاهدات لمَا احتملها السالكون ، ولضاقوا بها ، نظراً لما فيها من جهد وتضحيات بملذات قائمة في سبيل غاية منشودة ، ولقد أحسن ابن عطاء الله في وصف الخصوصيّة بقوله :

«إذا فتح الله وجهة من التَّعرف فلا تبال معها وإن قلَّ عملك ، فإنَّه ما فتحها لك إلاّ وهو يريد أَنْ يتعرف إليك ، ألم تعلم أنَّ التعرف هو مورده عليك ، والأعمال أنت مهديها إليه ، وأين ما تهديه إليه ممّا هو مورده عليك».

ويتضمَّن هذا الباب المتعلِّق بالشخصيّة المجالس والمذاكرات والتعريف بالأصدقاء والإخوان ، وذلك لمعرفة ما يحيط بالشخصيّة ومدى تأثيرها في محيطها الاجتماعي وتأثرها به ، وبيان ذلك التفاعل بين المربّي والسالك ، والحديث عن محبيه وتلامذته جدير بأن يخصص له بحث مستقل ، فهم جزء من حياة الشيخ وهم أثره الذين يحملون فكره ، وكان لهم تأثير في مسيرته في

الدعوة والتربية ، كما كان لهم موقع متميز في نفسه ، فقد كان قويَّ الصلة بهم ، يحبُّهم ويأنس بهم ، يلقاهم في الصباح والمساء ، ويتابع أخبارهم ومشاكلهم بعاطفة من المحبة ، وكأنّهم أسرته القريبة ، وكان يريدهم أن يكونوا الأفضل والأكمل ، ويحبب إليهم الفضيلة ويحضُّهم على التعلّق بالكمال ، ويريدهم أن يكونوا إخوة متحابّين في الله متعاهدين على أن يعملوا الصالحات وأن يخلصوا النيّة لله تعالى . . .

أمّا الباب الثاني فقد خصَّصته للحديث عن فكر الشيخ وآرائه ومواقفه ، ومن اليسير استكشاف مصادر فكره والمكوّنات التي تسهم في رسم ملامحه ، ولاشك أنَّ شخصيّة الشيخ بمكوّناتها واستعداداتها الذاتيّة هي الركيزة الأولى لذلك الفكر ، الذي تبرز فيه القيم الإنسانيّة الرفيعة تغذّيها وتعمّقها المعاني الإيمانيّة التي كانت الرافد الأهم لفكر الشيخ ، ويتميز هذا الفكر بأصالته المستمدة من المعرفة بالقرآن ، وتمثله كمنهج قويم للحياة ، متكامل في توجيهاته ، قاعدته الأساسيّة هي إصلاح النفس بالتزكيّة والتربيّة والمجاهدة ، للوصول إلى الاستقامة التي تعتبر الهدف والغايّة ، فالدين له غايّة أساسيّة تتمثّل في تكوين ملامح شخصيّة محبة للخير متطلعة إلى الكمال ، تسعى في خدمة الآخرين ، تحاسب نفسها على كلّ أفعالها وتراقب الله في كلّ خطوة من خطواتها ، والطريق إلى هذا الهدف هو تمثل الإسلام بفكره وعقيدته وسلوكه ، وعدم الاهتمام بالطقوس الظاهرة التي غالباً ما تحجب الإنسان عن الغاية المرجوَّة منه من التحقق بمرتبة العبوديّة لله تعالى ، وكانت آراء الشيخ ومواقفه تمثل ذلك النسق المنسجم المتكامل الذي لا تكلّف فيه ولا تناقض ، فحياة الشيخ هي تجسيد لأفكاره وآرائه ، ولا نجد ذلك التناقض بين الشخصيّة وفكرها ، وبالتالي فإن آراء الشيخ ومواقفه يمكن أن تستمد من حياته الشخصيّة ، وهذا مما يعطي للفكر مصداقيّته في مجال السلوك .

لعلّنا نلاحظ أنَّ فكر الشيخ لا يختلف عن الفكر الصوفيّ في قضاياه واهتماماته وفي ملامحه ، وهذا أمر واضح ، فالشيخ يمثّل الصوفيّة الحقَّة في نقائها وصفائها ، ولعلَّه يذكّرنا بذلك الجيل الأول المؤسس للفكر الصوفي من

أمثال الطوسي والكلاباذي والحسن البصري والقشيري الذين قدّموا الفكر الصوفي في نقائه واستقامته وفضائله فضلاً عن التزامه بأحكام الشريعة وكراهيته للمظاهر الخارجيّة التي تتمثّل في سلوكيّات مخالفة للشريعة ومسيئة لنقاء التصوّف الداعي إلى طهارة القلوب والالتزام بالأخلاق المحمودة والتخلّي عن الصفات المذمومة.

كان الشيخ يركّز على الجوانب الإيجابيّة المفيدة، ولا يلقي بالاً للجوانب السلبيّة والتي كان يتجاهلها، وكان تجاهلها بحد ذاته يعتبر موقفاً منها، ودون أن ينكر على أصحابها، أدباً منه مع الآخرين، واحتراماً لخصوصيّاتهم واختياراتهم.

وقد شرحت آراءه ومواقفه المستمدّة من أحاديثه ومذكّراته أو من ترجيحاته لما يقوله الآخرون، وكانت له ترجيحات لأقوال أو اختيارات لمفاهيم، أو تصحيحات لكلمات أو تحقيق بعض القضايا وبيانها، وأحياناً كان ينفرد بفهم غير مسبوق، أو بإضافة جديدة، وكثيراً ما كان يضيف فهماً لأقوال السابقين حول شرح لكلمة أو توجيه لها، وكان يضيق بالأقوال الشطحيّة التي لا تقبل التأويل الذي يوافق ما عليه السلف من المعتقدات، وينصح اتباعه بالابتعاد عن الاهتمام بهذه الشطحات أو ترديدها، لأنَّ ضررها كبير، كما كان ينصح بعدم قراءة كتب من اشتهروا بهذه الشطحات، وبالرغم من حبه للإمام محي الدين بن عربي فقد كان ينصح بعدم قراءة كتابه الفتوحات المكيّة، لأنَّ ما فيه قد لا يفهمه العامة، لأنّه يكتب عن أحوال ذوقيّة لا يمكن فهمها إلا لمن عاش في نفس تلك الأحوال ذاتها، وعندما سئل مرة عما كتبه ابن عربي عن وحدة الوجود أجاب السائل بضرورة الابتعاد عن الانشغال بهذه الأمور التي تضر ولا تنفع، وكان يضيق بانشغال العامّة بالكرامات والشطحات والآراء المبهمة والألغاز كما كان ينهى عن مصاحبة المجاذيب وأصحاب الأحوال الذين لا يلتزمون بحدود الشريعة.

وفي الباب الثالث تحدّثت عن آثار الشيخ في المجال العلمي والثقافي والاجتماعي، انطلاقاً من الدور الذي قامت به الكلتاويّة في نشر الدعوة

الإسلاميّة والتربيّة الأخلاقيّة وتعميق القيم الروحيّة ، وأصبحت لفظة الكلتاويّة تعني مقر الشيخ وهي الرمز لفكره في حياته وبعد رحيله ، وعندما تذكر الكلتاويّة يراد بهذا الاصطلاح منهجيّة الشيخ وفكره وإخوانه ، وما زالت هذه الكلمة معبّرة عن هذا المعنى ، فإخوان الكلتاويّة هم جماعة الشيخ في أي مكان ، وهناك خصوصيّات للكلتاويّة ويجب أن تبقى وتستمر ، فالكلتاويّة باقية بفكرها النابض الحي المتجدد ، فإذا انعزلت أو ضيقت الخناق على نفسها أو كانت رمزاً من رموز التشدّد في المواقف والأفكار فهذا ممّا يجعل دورها يتراجع ، ولابدّ لها من أن تكون مدرسة فكريّة لأجل الغد إن أرادت البقاء والاستمرار ، فالأجيال اللاحقة تطل على المستقبل ، ولابدّ لأيّ فكر من مواكبة حركة المجتمع لكي يستمر عطاؤه عن طريق تجديد خلاياه بالهواء النقي الذي يعطي نضارة وإشراقاً لملامح الفكر.

والتاريخ هو المعلّم الأكبر للأجيال ، ولابدّ من تكوين مدرسة فكريّة مستمرة في عطائها ، ويمكن لمدرسة النهضة أن تحمل عبء العطاء المتجدد إذا أدركت المهمة المنوطة بها ، فالتراث الفكري ينمو بالجهد المتواصل لإغنائه ، وليست الغاية تكوين وعاظ ومرشدين ، وإنّما الغاية تكوين رموز للفكر والثقافة والإصلاح التربوي ، لكيّ يُسهموا في النهوض الثقافي والأخلاقيّ لتكوين نماذج للسلوك الاجتماعي تحظى باحترام المجتمع . .

ولا يمكن للتربيّة الإسلاميّة أن تكون أداة لتكريس الواقع بكلّ سلبياته ، فالواقع السلبي يجب أن يقاوم بالتصحيح الواعي المتفتّح ، وليس بالانغلاق والتزمُّت ، والتفتّح ليس نقيضاً للدين ، والجهل هو النقيض الوحيد للدين ، ويجب أن يقاوم الجهل بنور العلم والعقل ، والشريعة هي علم ، وهي أداة التصحيح في العقائد والسلوكيّات ، ولا يمكن للجهل أن يثمر سوى التخلف ، والدين هو أداة التحرر من التخلّف إذا أخلص علماء الدين لدينهم وتخلّصوا من سيطرة العوام على أفكارهم . .

وفي الباب الأخير تحدثت عن صحبتي للشيخ ، ودروس الصحبة ، وعن أثر تلك الصحبة في حياتي وفكري ، وكلّ ما اكتبه أجد فيه ملامح من تلك

الصحبة الأولى ، وأستطيع أن أقول أنَّ صحبة الشيخ كانت المصدر الأهم في حياتي ، وبخاصة في مجال القيم والاستعدادات ، ولا شك أنني رضعت الكثير دون أن أدري ، أحياناً يشدّني الشوق إلى ذلك التراث المدفون في كياني ، والذي لا أملك القدرة على التحرر منه ، لأنه أصبح جزءاً من كياني . .

لولا تلك الصحبة ما كنت ما أنا عليه . . بل سأكون شيئاً آخر ، وتعرّضت لمؤثرات وأفكار مغايرة ، ولكن كان أثر الشيخ هو الأقوى ، على الأقل اكتشفت ذلك النبع الصافي لذلك النموذج الروحيّ المشبع بالقيم الإنسانيّة ، لم أقرأ عن الشيخ وإنَّما عشت معه ، وعايشت ، هذا العالم الذي رأيته وترعرعت فيه وتشبعت بقيمه إذ لا يمكن لي بالأحرى أن أنكره أو أتجاهله ، قد أقرأ فكر الشيخ بطريقة مغايرة لقراءة غيري ، وقد يقرأ سواي ذلك الفكر بطريقة مختلفة ، وأنني اكتب عن الشيخ كما قرأته ، ويحزنني أن أرى قراءات مختلفة قرأت حياة الشيخ بطريقة حرفيّة ، ووقفت عند حدود دلالات الأحرف والألفاظ ، فجاءت القراءة ضيّقة الأفق لا تعبّر عن شموليّة الرؤيّة واتساعها . . .

ليس الشيخ هو ذلك الذي يرفض الجديد من الأفكار والعادات ويتمسّك بالقديم المتوارث ، وإنّما كان يرفض السيء المذموم الضار من الجديد كما يرفض ذلك من القديم ، ويحضّ على الأخذ بكلّ الأفكار الصالحة والثقافات الإنسانيّة التي تعزّز قيم الفضيلة في المجتمع ، وليس هناك جديد وقديم ، وإنّما هنالك حسن وقبيح ، وهناك نافع وضار ، وهناك محمود ومذموم ، كان إحساسه بالجمال رائعاً ومتميّزاً ، جمال الطبيعة وجمال الاستقامة وجمال النظافة وجمال الكلمة الرقيقة .

وحاولت في هذه الترجمة لشخصيّة الشيخ وأفكاره أن أعرف به ، ليس لمن عاصره وعرفه ، فهؤلاء يعرفون عنه ما أعرف ، وقد يتميّزون بمعرفة شيء لم أعرفه ويخصّهم ، وهذا هو الذي شدّهم إليه وجعلهم يختارون صحبته ، وإنّما أن أعرف به من لم يعرفوه من معاصريه أو من بعدهم ، إما لتصحيح ما عرف عنه بشكلّ خاطىء أو لتأكيد ما عرف به ، أو لترجيح رواية أو تصور على أخر ، ومع هذا فإنَّ شخصيَّته تبقى قابلة للفهم المتعدّد ، فكلّ من عرفه يرى صورة

ما عرف ، ويقيم الدليل عليها من أقواله وسلوكيّاته ، ولا خطورة في تعدّد الأحكام واختلافها فهذا أمر حتمي وظاهرة طبيعيّة ، فالإنسان يرى الصورة التي يحبها ، وقد يرى الصورة المعاكسة ، والحقيقة ليست في هذا أو ذاك ، وإنّما في كمال الصورة حيث تكون الملامح أكثر وضوحاً ، ولا يمكن إنكار أثر العاطفة الشخصيّة في تلوين الملامح ورسم القسمات ، فالمحب يرى صورة المحبوب أكثر جمالاً ممّا عليه ، والمبغض الحاسد يرى صورة قاتمة شاحبة ، وقد يرى الشحوب في الآخر وهي ليست شحوباً ، ولكن العين ترغب أن ترى ما تحب أن تراه ، ولم يكن الشيخ هو ما يراه المحبّون فقط ، ولم يكن ما يراه المبغضون الحاسدون ، وهم كُثر في حياته ، وإنّما هو في حقيقته.

وقد حاولت أن ارسم هذه الملامح كما رأيتها ، ولا أنكر دور العاطفة في بيان هذه الترجمة ، إذ لا يخلو باحث عن عاطفة ، هي التي تدفعه لاختيار دراسته، وإبراز الجوانب التي يحبها والتركيز عليها، وإعطائها الأهميّة الكبيرة، ولا أخفي حبي الكبير للشيخ وإعجابي به ، لا لصلة القرابة فقط ، ولكن لشخصيّته المتميّزة وخصاله الرفيعة ، فقد كان بالنسبة لي رمزاً للكمال في خصاله الرفيعة ، وكلما تقدم بي العمر وازدادت معرفتي بالحياة ازداد إعجابي به واكتشفت الجديد من خصوصيّات شخصيَّته، وكلّ فرد يخفي في داخله حواراً صادقاً مع ذاته في لحظات تأمله وفي خلواته الهادئة ، إنه الحوار الأصدق مع الذات ، حيث لا رقابة ولا حساب ، والإنسان أعرف الناس بذاته وبمواطن قوته وضعفه ، والحوار الداخلي هو أداة المعرفة الحقّة بطبيعة الذات ، والذين يخدعون أنفسهم في حوارهم الداخلي هم أسرى أوهام مرضيّة ، ويدل ذلك على جهل مخيف ، وفي لحظات ذلك الحوار يصارح الإنسان نفسه بعيوبه ، كما يصارح نفسه في عواطفه وأحكامه ، ويكون أكثر إنصافاً وصدقاً ، وفي ذلك الحوار تنبني عواطف الحب ومواقف الاحترام، والإنسان محب بطبيعته للكمال والسمو ، ويعجب بمن يجد فيه هذه الخصال ، كما يندهش بأصحاب الهمم العاليّة والخصال الرفيعة ، وكان الشيخ في حواري الداخلي هو الرمز الأكمل للشخصيّة الإنسانيّة في سموِّ رؤيتها وعلوِّ هِمَّتِها وترفعها عن صغائر الأمور.

تلك مقدمة لابدَّ منها بين يدي هذه الترجمة التعريفيّة ، أردت بها توثيق بعض الأشياء التي يمكن أن يطالها التحريف أو التشويه ، بتأثير المحبّين أو المبغضين ، فالمحبون يبالغون في إظهار محبتهم بذكر روايات مبالغ فيها ، والمبغضون يبالغون في نسبة روايات خاطئة بغرض الإساءة ، ولابدّ من الإنصاف والنزاهة والوقوف عند حدود الواقع ، وعدم الخوض في مبالغات لا طائل من ورائها .

فقد كان الشيخ رحمه الله شرعي المنهج ملتزماً في عباراته وأفكاره بما التزم به علماء السلف من أدب العبادة ، ولا ينسبون لأنفسهم شيئاً من خوارق العادات ويعتبرون الاستقامة هي الكرامة الأهم الجديرة بالالتزام بها ، من حق المحبين فعلاً أن يعبّروا عن محبتهم وتعلقهم بكلّ وسائل التعبير المشروعة والمحمودة .

كان الشيخ يكره التصوير ومنع أصحابه من اقتناء صورته أو حملها معهم أو تعليقها في بيوتهم ، لكيلا تكون تلك الصور مطيّة لسلوك مذموم أو لاستخدام خاطىء أو لتكريس عادات منافيّة للعقيدة ، وهذه ظاهرة دالة على منهجيّة الشيخ في التربيّة ، وليس المراد الصورة وإنّما ما يترتب على استخدامها السيء من آثار ضارة .

أرجو الله تعالى أن يجعل هذه الدراسة نافعة ومفيدة ، وأن تحقق الغايّة المرجوّة منها في التعريف بشخصيّة الشيخ وأفكاره وآثاره ، حيث تناولت فيها ما تيسر لي ذكره ممّا بقي عالقاً في ذاكرتي من حياته وأفكاره ، وأدرك أنَّ كلّ جهد يظل قاصراً عن بلوغ الكمال ، ويتطلع الإنسان إلى الأحسن الأكمل والأشمل ، إلا أنه لا خيار في قبول المتيسر ممّا هو ممكن بحسب الطاقة ، لعلَّ جهداً آخر يمكن له أن يكون أكثر سعة وشمولاً .

وأقدِّر كلّ التقدير كلّ من كتب من قبل ، فله فضل السبق والتشجيع ، وأخصُّ بالذكر فضيلة الأخ الشيخ محمّد هشام الألوسي المحب الصادق الذي كرس حياته لخدمة تراث الشيخ رحمه الله وأتمنى أن يتوسع في كتابة أثر الشيخ في العراق ، فذلك أثر جدير بالتوثيق والتعريف .

وأدعو الله تعالى أن يجزي الشيخ أجزل الجزاء عن جهاده المبرور وجهده المشكور ، فقد أزهرت في الأرض الخصبة غرسات تربيته وأصبحت ثمارها طيبة يانعة ، ونأمل أن يستمر عطاء هذه النخبة من أسرة الشيخ الروحية في كلّ مكان تحلُّ فيه ، وأن تتكاتف وتتلاقى وتتناصر لإعلاء كلمة الله التي تجري في الوجود كله لعمارة هذه الأرض بالعمل الصالح الذي ينفع الناس وينهض بأمرهم في ظلِّ رسوخ القيم الإنسانيّة التي تجعل الكون كلَّه كأسرة متحابة يسعى أقوياؤها لنصرة ضعفائها لتحقيق الأمن النفسي الذي يوفر شروط السلام بين الشعوب بما تشعر به النفوس من طمأنينة واستقرار . .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الرباط : فاتح رمضان المبارك/ ١٤٢٣ هـ **محمّد فاروق النبهان**




الباب الأول

الشخصيّة: المكوِّنات والمجالس

الفصل الأول : المكوِّنات والملامح .

المبحث الأول : المكوِّنات الأولى للشخصيّة .

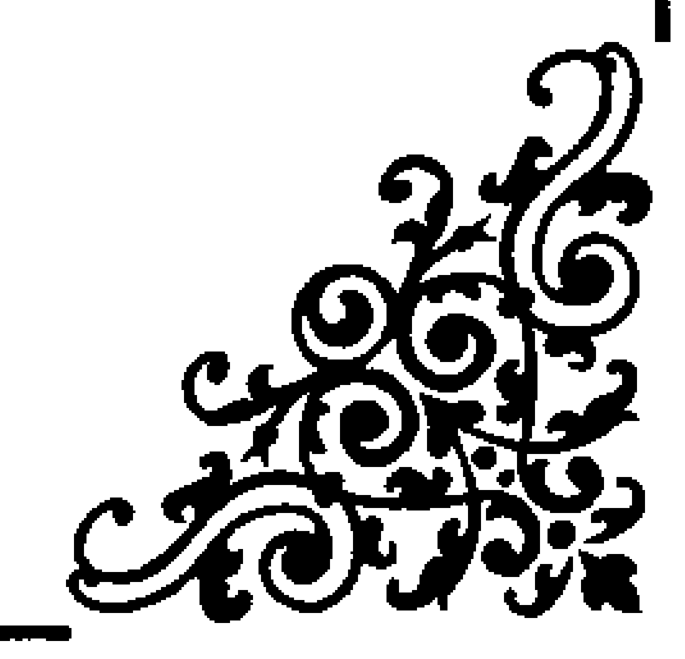
المبحث الثاني : شخصيّة الشيخ وخصاله .

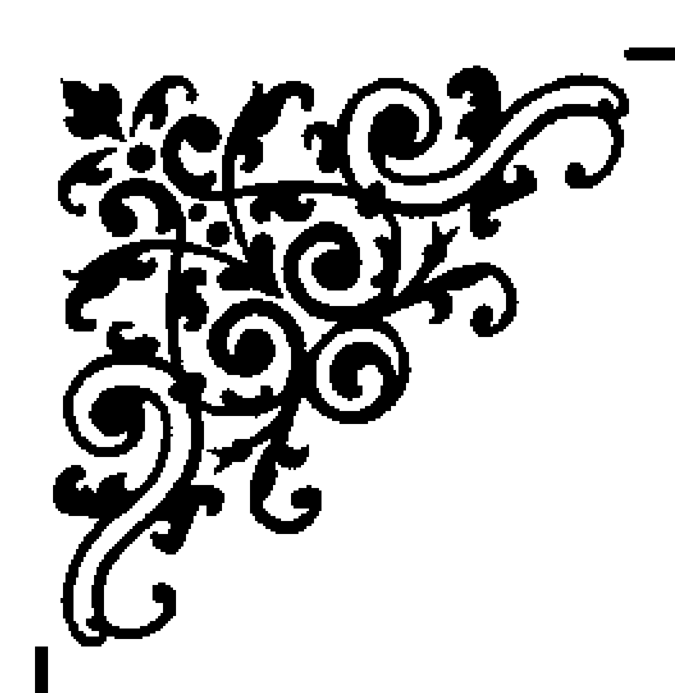
الفصل الثاني : العمل والكسب .

الفصل الثالث : المجالس وإخوان الشيخ .

الفصل الرابع : الأسفار والرحلات .

الفصل الخامس : وفاة الشيخ .




الفصل الأول
المكوِّنات والملامح

المبحث الأول
المكوِّنات الأولى للشخصيّة

ـ الإطار التاريخي: مدينة حلب في بداية القرن العشرين.
ـ الإطار الشخصي: الأسرة والمولد والطفولة.
ـ الإطار التكويني: العلم والتربيّة.

المبحث الثاني
شخصيّة الشيخ وخصاله

ـ ملامح الشخصيّة.
ـ العوامل المؤثرة في تكوين الشخصيّة.
ـ القدرة على التواصل.




الإطار التاريخي
مدينة حلب أوائل القرن العشرين

تقع مدينة حلب في شمال سوريّا ، وتبعد قليلاً عن الحدود مع تركيّا ، وكانت في أيام الدولة العثمانيّة البوابة الأولى الأكثر أهميّة للعالم العربي ، وهي الثغر الدائم الصامد في وجه الحملات الصليبيّة ، وهذه المدينة بقلعتها الأثريّة العريقة التي تتوسطها هي الصخرة القويّة التي كانت جيوش الغزو تصطدم بها وترتد إلى الوراء خاسرة مدحورة .

إن تاريخ حلب مليء بالمواجهات والتضحيات ، وبسبب ذلك بنيت أحياء المدينة حول القلعة ، من جهاتها الأربع ، ثم طوّقت بأبواب محكمة ما زالت حتى اليوم قائمة ، وأهمها باب الحديد وباب النصر وباب النيرب وباب الفرج وباب جنين وباب المقام وباب الأحمر ، وتمتد الأحياء الحلبيّة بين القلعة التي تتوسط المدينة القديمة والأبواب التي تحيط بالمدينة من كلّ الجهات ، ويطل باب القلعة الرئيسي على باب المقام الذي يقع خلف الأحياء الجنوبيّة ، كالأصيلة وباب النيرب وجنينة الفريق ، ومن الجهة الغربيّة من القلعة تقع الأسواق القديمة العريقة العجيبة في تنظيمها المتماثلة والمتداخلة في تركيبها ، والتي يقود بعضها إلى البعض الآخر ، وتبتدىء بسوق الزرب الذي يطل مدخله على القلعة ثم يتجه السوق نحو الغرب ، وتمتد الأسواق على طرفي هذا السوق ، ويقع التداخل في الأسواق الفرعيّة ، الصغيرة والكبيرة الضيقة والعريضة ، وكلّ سوق يختصُّ بسلعة معينة ، بحيث يتمكن صاحب الحاجة أن يبحث عن حاجته مباشرة ، ويجد عشرات الدكاكين تبيع هذه السلعة بأسعار موحدة تقريباً وكلّ زبون يذهب إلى التاجر الذي اعتاد أن يشتري منه ، فهناك

سوق للجلود وسوق للحبال وسوق للذهب وسوق للجوخ وسوق للقطن وسوق للسجاد وسوق للخضار وسوق للعطّارين ، وسوق للأحذيّة ، وتتوسّط هذه الأسواق خانات شهيرة تنسب لأصحابها أو للبضاعة التي تباع فيها ، وهي خانات ذات أبواب كبيرة ، وتمتد على أطرافها غرف متوسّطة الحجم ، وغالباً ما تتألف هذه الخانات من طابقين ، كانت تستخدم هذه الخانات لإقامة التجار الذين كانوا يقصدون المدينة لشراء البضائع المختلفة ، وبعض هذه الخانات واسع وله شهرة واسعة ، وأصبحت هذه الخانات من أبرز المراكز التجاريّة في المدينة ، وما زالت حتى اليوم تؤدّي هذا الدور التجاري .

وتضم احياء حلب أهم الحمّامات العامّة وأجملها ، وهي منتديات اجتماعيّة للحفلات ولقاءات الأسر ، وتقام حفلات الزواج في هذه الحمامات قبل أن تقام في الدور الحلبيّة الواسعة ، كما يتم التعارف بين الأسر والعوائل في اللقاءات الأسبوعيّة في الحمّامات العامّة ، وهناك تقاليد حلبيّة خاصّة في الحمّامات ، حيث تتناول الأسرة طعامها في الأماكن المعدّة لكلّ أسرة .

وتحظى المساجد بمكانة خاصة في هذه المدينة العريقة ، والمساجد ذات قدسيّة دينيّة واجتماعيّة وذات مهمة ثقافيّة وتعليميّة ، ومعظم الحلبيين يؤدون صلواتهم في مساجد الأحياء الكبيرة ، المجهزة بالسجّاد العجمي النفيس والزخارف الأثريّة المعتادة ، كالثريّات الثمينة ، ويحظى إمام المسجد وخطيبه بمكانة المربِّي والموجِّه والمعلِّم ، ويكون له دور الناصح والحكم في المنازعات ويستفتى في القضايا الشرعيّة ، كما يحتكم إليه في الخلافات الأسريّة والتجاريّة وفي قضايا الإرث ، ويقوم بدور إيجابي في حضّ الأغنياء على مساعدة الأسر الفقيرة ، وغالباً ما يتكفّل سكّان كلّ حي بالمحتاجين والعجزة والنساء الأرامل من سكّان ذلك الحيّ .

وبالإضافة إلى الدَوْر الثقافي والعلمي للمساجد ، فهناك مدارس شرعيّة في المساجد ، وتبنى هذه المساجد على شكلّ مدارس داخليّة محاطة بالغرف الصغيرة التي يسكنها طلاّب العلم من القادمين من الأرياف ، أو ممَّن أرادوا التفرغ للعِلْم ، ومدارس حلب كثيرة وعريقة ، وهناك عشرات المدارس

الشرعيّة ، كالمدرسة الخسرويّة والمدرسة الحلوانيّة والمدرسة الإسماعيليّة والمدرسة الشعبانيّة ، وهذه المدارس منتشرة في كلّ الأحياء ، وقد نجدها في حيّ الفرافرة الذي كانت تسكنه الأسر الثريّة ذات المكانة الاجتماعيّة أكثر ممّا نجدها في الأحياء الأخرى ، وكلّ مدرسة تنسب لبانيها ومؤسسها ، وما زالت هذه المدارس تؤدّي دورها العلمي في التكوين والتوجيه .

وتوجد في حلب أكبر المساجد وأجملها ، وتسمى الجوامع ، وأشهر الجوامع «الجامع الأموي الكبير» الذي يتوسط الأسواق القديمة وتطل معظم أبوابه على الأسواق المختلفة من الشّمال والجنوب والغرب والشرق ، ويؤدّي معظم تجار الأسواق القديمة صلاتهم في الجامع الأموي الذي يطلق عليه جامع سيدنا زكريا عليه الصلاة والسلام ويطلق الحلبيّون لفظة «المدينة» على تلك الأسواق القديمة ، والمدينة (بتسكين الميم) تعني تلك المنطقة التجاريّة المقفلة من الأعلى والمتّصلة ، وما زالت لفظة «المدينة» هي اللفظة المتداولة في المجتمع الحلبي .

«المدينة» هي مدرسة تجاريّة ، تخرّج منها كل تجار حلب ، ويعود الفضل إلى هذه المدرسة في تكوين العقليّة التجاريّة لدى الحلبيين ، وهذه المدرسة لا تعلم فنون التجارة فقط وإنّما تلقِّن القيم الأخلاقيّة في التعامل التجاري ، وأهم ذلك الصدق والأمانة والوفاء والالتزام بالكلمة وعدم الغش في السلعة وأداء الديون في مواعيدها ، والكلمة مقدّسة عند تجار المدينة ، فإذا اشترى بكلمة فالعقد ملزم ولا رجعة فيه ، وإذا باع فكلمته معتمدة وموثوق بها في وصف سلعته ، وإذا باع فإن ربحه محكوم بالتقاليد التجاريّة المعتادة فلا يتجاوز الربح المعتاد عند التجار ، وإذا خالف هذه الأخلاقيّة فسرعان ما ينعزل عن مجتمع التجار وينصرف الناس عن التعامل معه ، ويشيع في المدينة كلها خبر ذلك السلوك ، وكلّ تاجر من تجار المدينة له بطاقة مكشوفة يعرفها الجميع في التجارة وفي الصداقة وفي الزواج ، فإذا لم يكن صادقاً في تجارته فلا أحد يزوِّجه أو يرضى بتزويج ابنته من ابنه ، لأنَّ سلوكيَّته ليست صادقة ، وهذا لا يؤتمن في التعامل ولا يطمئنُّ إليه .

والويل كلّ الويل لمن يمتنع عن سداد دينه في موعده رغبة في أكل أموال الناس بالباطل ، فمن امتنع عن السداد بسبب كارثة أو خسارة أو غرم أو حريق وقف الجميع معه وساعدوه ، وخففوا عنه أعباء ديونه بالإبراء أو التأجيل ، وقد يعيدون له رأسماله إن كان من أهل الصدق والأمانة .

ومن اليسير علينا أن نكتشف الكثير من أخلاقيّة الحلبيين في مروءتهم معاملاتهم التي اشتهروا بها ، إنهم أهل دين ومروءة وفضيلة ، هكذا كانوا في بداية هذا القرن .

كان هناك النقاء والصفاء في طبائع الأفراد ، وكان هناك التماسك والتكافل في تكوين المجتمع ، وهذا التكوين الذاتي جعل حلب ذات طبيعة أخلاقيّة محببة إلى النفس ، وهي طبيعة مريحة .

كانت هناك الفضيلة هي التي تحكم سلوك الأفراد ، وتوجِّه هذا السلوك ، والأسر الحلبيّة يعرف بعضها البعض الآخر ، وهناك تداخل بين الأسر ، بسبب المصاهرات ، وبخاصة بين أبناء الحي الواحد ، وكانوا يفضّلون أن يقع التزاوج بين الأسر المتكافئة في الأحياء المتجاورة ، لأسباب متعددة ، أهمُّها توفّر الاحترام المتبادل القائم على معرفة كلّ أسرة للأسرة الأخرى وإمكانيّة حل كلّ المشكلات بالمودة والحوار ، وإذا وقع التصادم والخصام فلا حدود لآثاره السلبيّة وبخاصّة في الأحياء التي يغلب عليها التكوين القبلي والعصبية العشائريّة ، وغالباً لا يكون ذلك بالنسبة للأسر التي حظيت بقدر من العلم والثقافة ، تكون أكثر تهذيباً بتأثير الثقافة وطبائع التحضّر .

وتتميز الشخصيّة الحلبيّة بالحدة في معظم الأحيان والصراحة في إبداء الرأي والشجاعة في المواقف ، وعدم قبول أنصاف الحلول ، والدفاع عن الحقوق بكلّ قوة ، وعدم قبول المساومة فيما يمس الحقوق الذاتيّة ، وبسبب ذلك تعزّز شعور الشخصيّة الحلبيّة بالكرامة ، ولا يمكن للحلبيّ أن يفرّط في كرامته أبداً ، ولو خسر حياته وماله وأبناءه .

ولعلَّ سبب ذلك هو الطبيعة الجغرافيّة لهذه المدينة ، وقلة المياه التي

جعلت المدينة جافة وقليلة الأشجار ، وهذه الظاهرة أثرت على سلوك الحلبيين وجعلتهم أشداء في تكوينهم ، إذا صادقوا فهم في قمة الوفاء والإخلاص ، وإذا خاصموا فهم في قمّة الحدَّة والعنف والانفعال ، وقد اعتدلت هذه الطبائع بتأثير التربيّة والثقافة .

وهذه الطبيعة تظهر في الأحياء النائيّة الخارجة عن نطاق الأبواب ، بسبب ظاهرة الهجرة من القرى القريبة إلى المدينة ، وأهل هذه الأحياء النائيّة تغلب عليهم طبائع الحدَّة والانفعال ، وتسيطر عليهم النزعة القبليّة والتناصر العشائري ، والاعتزاز المبالغ فيه في قضايا الشرف سواء تعلق ذلك بسلوكيّة المرأة أو تعلّق ذلك بعادات الثأر والقتل المتبادل الذي لا نهاية له ، وهذه الأحياء تعتز بخصالها وتتمسّك بتقاليدها ، وتعتبر ذلك من خصوصيّاتها الأخلاقيّة ، وينظر هؤلاء إلى غيرهم من الأحياء الأكثر حضارة وثقافة نظرة استخفاف ، ويضيقون بقيمهم السلوكيّة ، ويأخذون عليهم ضعفهم وعدم تمسُّكهم بالقيم الموروثة .

هذا صراع قديم أشار إليه ابن خلدون في مقدِّمته عن طبائع البداوة والحضارة ، وطبائع البادية والمدن ، وأثر العمران في طبائع البشر ، ومن اليسير أن نجد في البوادي قيماً أخلاقيّة تختلف عن قيم المدينة ، في الشجاعة والكرم والمروءة والتضحيّة كما نجد أثر ذلك في سلوكيّات الأفراد وطبائع الشعوب .

وطبائع أهل حلب هي أقرب لطبائع المنطقة الشماليّة الشرقيّة من سوريّا ، ويدخل ضمن هذه المنطقة حلب والرقَّة وحماه ودير الزور ، والحسكة ، ومن اليسير أن نجد طبيعة المنطقة الوسطى والمنطقة الغربيّة مختلفة ، فالمنطقة الغربيّة التي تشمل المنطقة الساحليّة الممتدة إلى حمص ودمشق هي ذات طبيعة مختلفة ، وبالرغم من وجود مناطق ريفيّة واسعة فإنَّ سكَّانها يختلفون في طبائعهم عن المناطق الشماليّة والشرقيّة .

وأهل حلب لا يضيقون بطبائعهم بل إنهم يعتبرون الشخصيّة الحلبيّة هي النموذج الأفضل ، بسبب استقامة سلوكهم وتمسكهم بالوضوح والدفاع عن

الحق ، ولعلّهم بسبب ذلك نجحوا في مجال التجارة ، حيث ظل المجتمع الحلبي محافظاً على تقاليده وقيمه الأخلاقيّة .

ويتميز المجتمع الحلبي بالوفاء العجيب وهو مجتمع تشعر فيه بالوفاء المريح ، ولهذا المجتمع تقاليده العريقة في أفراحه وأتراحه ، وهي تقاليد مقدَّسة ذات مكانة في النفوس ، وهو مجتمع محافظ على تقاليده ، ولا يفرِّط في شيء من هذه التقاليد ، ويعتبر الخروج عنها مدعاة للنقد والتجريح .

والبيت الحلبي بيت دافىء بأهله ، وهو متماسك متداخل ، وهذا التداخل والتماسك يؤدّي إلى صراعات داخليّة مبعثها التماسك والدفاع عن الذات في مواجهة الآخر ، والأفراح في حلب صادقة وجميلة ، ويحبُّ الحلبيون الجمال ويتعشقون الفن والطرب والموسيقى والأصوات الجميلة ، وأمسيات حلب من أروع الأمسيات جمالاً وحياة ، وفي الليل ينتعش كلّ شيء بتأثير نسمات الهواء العليل ذات الطبيعة المحببة الجميلة .

والأسرة الحلبيّة متماسكة إلى درجة كبيرة ومتكافلة ومتناصرة وكلّما أوغلت في الأحياء الشعبيّة وجدت ذلك أكثر وضوحاً ، والدار واسعة وتضم الأب وأبناءه وأحفاده ، ومن المعيب أن يخرج أحد الأبناء من دار أبيه مهما كبرت أسرته .

ومعظم هذه الظواهر الاجتماعيّة التي كانت سائدة في بدايّة القرن الماضي تراجعت بتأثير الحياة الاجتماعيّة الجديدة التي بدأت مع تأسيس المدارس الحديثة والجامعات في تطوير ذلك المجتمع ، وتغيير النظام الاجتماعي فيه ، كما تطورت العادات والتقاليد والقيم السائدة .

لم تعد الأحياء متباعدة كما كانت في الماضي ، فقد بدأت الرحلة من الأحياء القديمة إلى الأحياء الجديدة التي بنيت خارج الأسواق القديمة ، وهجر سكان الأحياء القديمة دُورهم الواسعة في الأحياء المجاورة للقلعة إلى الأحياء القريبة التي كانت أراضي زراعيّة خارج المدينة ، كما أقيمت المدارس في كلّ الأحياء وبعد أن كانت الأميّة مسيطرة وسائدة في أيام الدولة العثمانيّة أصبحت الأميّة نادرة ، وأصبح الإقبال على العلم والثقافة كبيراً ، وبعد أن كانت المرأة

تعيش وراء القضبان تحت تأثير القيم الخاطئة بدأت تشعر بذاتيتها وأخذت تؤدّي رسالتها في التكوين والتربيّة ، وارتقت المفاهيم الدينيّة بتأثير التوعيّة والتوجيه ، وأصبحت المساجد تؤدّي دورها في تنمية القيم الروحيّة وتصحيح التقاليد الاجتماعيّة ، وبدأ المجتمع يتطلع إلى فهم أوسع للقيم الإسلاميّة المنسجمة مع القيم الدينيّة الأصيلة .

بدأ التغيير في كلّ شيء ابتداءً من سقوط الدولة العثمانيّة التي كان عهدها الأخير مطبوعاً بالتخلف الاجتماعي ، وبدأت المدينة تتنفس هواءها النقي بفضل ظهور روّاد قادوا العمل الوطني والتوعية الاجتماعيّة الذين نشروا العلم والثقافة .

وبالرغم من كلّ مظاهر التغيير فقد ظلَّت حلب محتفظة بخصوصيتها الأصيلة ، متمسِّكة بقيمها الإسلاميّة معتزَّة بعقيدتها ممسكة بمقود حركتها نحو المستقبل ، وما زال المسجد يؤدّي رسالته في ترسيخ القيم الإسلاميّة ، والإسلام في هذه المدينة هو الثقافة الشعبيّة العامَّة المسيطرة ، ولا يمكن لأي ثقافة أخرى أن تغلب ثقافة الإسلام أو أن تُضعف من عقيدة الأمة .

وبفضل هذه الثقافة حافظ المجتمع الحلبي على وجوده واستمراره ، واستطاعت هذه المدينة العريقة أن تؤدّي دوراً مهما سواء على مستوى العلاقات التي كانت تربط بلاد الشام بالدولة العثمانيّة أو على مستوى التجارة بين البلدان التي كانت خاضعة للدولة العثمانيّة .

وبالرغم من كلّ مظاهر التمسك بالموروث الديني والثقافي والقيم الاجتماعيّة السائدة فإنَّ المجتمع الحلبي هو مجتمع تعددي ، وهو مجتمع متسامح في إطار هذه التعدديّة ، ومن اليسر أن تجد التعايش الديني قائماً بين المسلمين والمسيحيين ، وهناك أقلّيات كثيرة في حلب كالأرمن وغيرهم من الطوائف المسيحيّة التي سكنت هذه المدينة ، ولا نجد ذلك التعصّب المذموم فالأحياء الإسلاميّة ممتدة عبر المدينة القديمة ، والأحياء المسيحيّة معروفة وممتدة ، والاحترام المتبادل قائم بين الطوائف الدينيّة وبين رجال الدين ، ولا نجد أي مظهر من مظاهر التوتر النفسي ، والجميع يمارسون عبادتهم بكلّ

حرّيّة ، والمسيحيون يحترمون المقدّسات الإسلاميّة ويراعونها .

الأسرة والمولد والطفولة :

يقع حي باب النيرب في الجهة الشرقيّة من المدينة ويمتدُّ من حيّ الأصيلة وباب المقام إلى أقصى الشرق حيث يبتدىء الريف بكروم الفستق التي تجاور هذا الحي وتحيط به من الجهة الجنوبية والشرقيّة ، وتسكن في هذا الحي أسر اشتهرت بالقوّة والبأس والترابط العشائري ، وعرف رجالها بالشجاعة وقوّة الغضب ، وتنتمي معظم هذه الأسر إلى عشائر فخورة بانتمائها ، وحريصة على هيبتها ، ولا تتسامح في حقوقها ، وتندفع بقوّة للدفاع عن كلّ فرد من أفرادها تناصره وتؤازره .

وكان سكّان القرى القريبة من حلب يفدون إلى المدينة حاملين معهم ما تنتجه أرضهم من محاصيل زراعيّة وما تجود به أغنامهم من ألبان وأجبان وأصواف ، ويشترون من أسواق المدينة ما يحتاجون إليه من ملابس وأدوات يستعينون بها على حرث أرضهم وتربية مواشيهم .

موطن الأسرة الأصلي :

وعلى مشارف المدينة الشرقيّة تقع مجموعة من القرى المتجاورة تربط ما بينها صلة القرابة والنسب ، وتشدُّها عصبيّة التلاحم للدفاع عن أفرادها ، وقد اشتهر أهلها بالبأس والقوّة والاعتزاز بانتمائها إلى أصل واحد ، وكانت في البداية تمثل وحدة قبليّة متكاملة تملك أراضي واسعة تحدّها من الغرب قرية جبرين ثم تتجه شرقاً لمسافة واسعة ، ويحدّها من الجنوب الأراضي التي يملكها سكان قرية السفيرة وأراضي تل عرن وتل حاصل اللتين ينتمي سكانهما إلى الأكراد .

وتعرف هذه الأراضي الفلاحيّة بأراضي الخضيرات الزبيديّة نسبة إلى كبير هذه الأسرة القبليّة «خضر الزبيدي» الذي اشتهر بالشجاعة والكرم والمروءة ، وحظي بمكانة متميّزة بين القبائل التي ينتمي إليها ، وأغلب الظن أنّه استوطن هذه الأرض المجاورة لمدينة حلب بعد خلاف مع أهل قبيلته الكبيرة ويقال بأنَّ أصول هذه القبيلة من شمال العراق ، ويقال أيضاً بأنَّ أصلها يعود إلى الأسرة النبهانيّـة التي حكمت «عمان» في شرق الجزيرة العربيّة وأقامت قلعة حصينة

ما زالت قائمة حتى الآن في الأراضي العمانيّة سمِّيت بقلعة جبرين ، ويقال بأنَّ الأسرة التي استوطنت الأراضي المجاورة لمدينة حلب سكنت قرية جبرين التي ما زالت حتى الآن قائمة بالقرب من إقامة قبيلة الخضيرات في الأراضي المرتفعة المطلة على جبرين.

ولما تُوفيَ خضر الزبيدي اقتسم أولاده الأربعة أراضيهم وسكن كلّ واحد منهم زاوية من زوايا الأرض التي يملكها أبوهم ، وهكذا انشئت أربع قرى متقاربة ، وسكن كلّ ابن مع أسرته في أرضه التي عكف على زراعتها والعناية بها ، وأصبحت أرض الخضيرات تضم أربع قرى ، قرية الدويرينة ويسكنها جنيد الحسن وقرية الصفّة ويسكنها نبهان وقرية التياره ويسكنها حسين المعروف بالحوت ، وقرية مير الحصين ويسكنها غانم.

وتكاثر الأولاد والأحفاد ، وأصبحت كلّ قرية مستقلّة بأمرها ، تتنافس مرّة وتتلاقى مرَّة أخرى ، كما هو الشأن في الحياة القبليّة ، واشتهرت قرى الخضيرات بالثروة والمال ، وكثرة المواشي والإبل ، وكانوا يخدمون أرضهم بيدهم ، ويسعى الأبناء لتنمية ثروة الأسرة وأحياناً كانت تقع مواجهات وانقسامات بين أبناء العمومة بسبب الخلاف على الأراضي والمصالح ، ويلتقون جميعاً على كلمة واحدة عندما يتعرَّض أحدهم لاعتداء عليه.

سكن نبهان في قريّة الصفّة ، وكانت أراضيها واسعة وخصبة ، وكلّف ولده «أحمد» أن يحمل ثمرات الأرض والمواشي إلى أسواق مدينة حلب القريبة ، فكان هذا الشاب يذهب في الصباح إلى المدينة ويعود في المساء حاملاً معه الأموال والسلع ، وتعرف خلال رحلاته السريعة إلى تجَّار حلب وأسواقها ، وعرف من أسرار التجارة ما جعله مؤهلاً لكي يستشيره أهل عشيرته في شؤون تجارتهم ، فكان يحمل السلع في كلّ يوم ، وأقام لنفسه مركزاً للتجارة في المدينة ، يباشر فيه مهمّة البيع والشراء ، ويتلقّى السلع من قومه ويبيعها لهم في المدينة.

وكانت كلمة «الخان» ـ كما أشرنا سابقاً ـ تعني ذلك المركز التجاري الذي يقوم بدور الوساطة بين المنتج والمستهلك أو بين المنتج والتاجر الأكبر ،

وكانت حلب مليئة في ذلك الحين بخاناتها ، وهي خانات في الأسواق القديمة (المدينة) لتجارة الأقمشة والسلع المنسوجة وخانات أخرى في الأحياء النائية عند مداخل المدينة لتلقّي السلع من المزارعين كالقمح والشعير والعدس والجلبان والحليب والسمن والألبان والمواشي والإبل، واشتهرت الأحياء الشرقيّة والغربيّة بخاناتها التي ما زالت قائمة، وكانت تؤدّي دوراً كبيراً في تجارة المواد الزراعيّة، وتخصّصت كلّ أسرة من الأسر الحلبيّة بتجارة خاصّة بها ، فهناك أسر اشتهرت بتجارة المواشي والأغنام ، وأسر اشتهرت بتجارة الألبان والأجبان ، وأسر ثالثة عرفت بتجارة الحبوب ، وتشمل القمح والشعير والعدس والجلبان.

انتقـال الأسرة من الريف إلى المدينـة :

أحبّ أحمد بن نبهان حلب وتعلّق بها وأصبح مشدوداً إلى حياة المدينة ، معجباً بالتجارة ، متطلّعاً إلى ممارستها ، وكان ذكيّاً صاحب شخصيّة قويّة ، وأدرك بحسّه الفطري أنَّ الفِلاحة مهما ارتقت أسبابها فإنّها لا توفّر له طموحه في الثروة والمال ، ولا تعده لحياة أفضل يتطلع إليها ، والفلاح مستضعف في المدينة مهما كان قوياً في قومه ، ولا يأخذ إلا القليل من حقه ، فإنه يبيع سلعه بأقلّ الأثمان وبما يسد به الرمق ويكفل له حد الكفاية ، ولابدّ من اقتحام عالم التجارة في المدينة ، فبدأ يتطلّع إلى حياة المدينة ، ويخشى من نظرات أهله وعشيرته ، فهم لا يريدون له هذا الانتقال ، فأبناء الريف يختارون حياتهم الريفيّة البسيطة على حياة المدن ، ويخشون من حياة المدن على قيمهم وتربية أبنائهم ، أقوياء بين عشيرتهم ، وضعفاء إذا انفصلوا عنهم ، ولابدّ لهم إن أرادوا حياة المدينة واختاروها من تدعيم مركزهم بعصبيّة قويّة تحميهم وتدافع عنهم ، فالمدينة بأسرارها وخريطتها تُغرق كل من يقتحم عالمها إذا لم يحسن السباحة في مياهها.

ولذا اختار أن يتزوّج من فتاة من أسرة حلبيّة وأن يسكن في حي يطلّ على قومه وأهله بحيث يراهم في صباح يأتون إليه بسلعهم ، ويكون عوناً لهم في تجارتهم ويكونون أعواناً له في التعامل مع الآخرين ، وكان يعرف أنّه لابدَّ في التجارة من قوة تحمي التاجر وتدافع عنه وترد عليه حقه.

وتزوّج أحمد من «آمنه الخشمان» وهي ابنة أسرة تسكن في حي باب النيرب المعروف بأسره التي تنتمي إلى عشائر ذات قوة وبأس ، وأصبح له أسرة من أهل زوجته تقف إلى جانبه في الشدائد ، ويقال بأنها أسرة شريفة تنتمي إلى بيت آل النبوة.

لم تكن هذه الأسرة من الأسر القويّة التي تحكم هذا الحي الحلبي المعروف بصراعاته وتنافس عائلاته القويّة ذات العصبيّة على زعامته ، ولم يكن للوافد من أبناء الريف أن يتزوج من تلك العائلات القويّة ، إلاّ بعد أن يأخذ موقعه في صفوفهم بقوته الشخصيّة وبمكانته الاجتماعيّة وبعائلته التي تقف خلفه في الشدائد والمواجهات.

لم تكن الدولة في أواخر القرن التاسع عشر قائمة ، كانت الدولة العثمانيّة تعاني من أمراض مزمنة ، وكان الولاة يحكمون بقوَّة ، ويقتلون خصومهم ويسرقون أموال الضعفاء من الناس عن طريق الرشوة والاغتصاب ، وكان لابدَّ من نظام العشائر لكي يقع التوازن بين القوى والتجمعات السكانيّة ، فكان زعيم العشيرة يحمي أبناء عشيرته ، فلا يقترب أحد من مصالحها وأبنائها ، ومن ليس له عشيرة فإنه يلتحق بعشيرة قويّة عن طريق الولاء والتبعيّة ، وكانت المصاهرات بين العائلات تهدف إلى القوة والتلاحم ، إما لمنع الاشتباك بين القوتين المتنافستين أو لتحقيق تلاحم عصبي بين قوتين لمواجهة طرف ثالث.

استطاع الشاب أحمد نبهان أن يأخذ موقعه الاجتماعي في الوسط الذي عاش فيه ، حيث فتحت له الأبواب وأصبح مرحَّباً به في كلّ مكان ، وإذ عقد صلات وصداقات مع الأسر العريقة ذات النفوذ ، وحقق نجاحاً واسعاً في مجال التجارة والمال ، وأصبح الكلّ ينظر إليه بإعجاب واحترام ، وأصبح بفضل تجارته الواسعة وشخصيته القويّة ودهائه يحظى بالاحترام.

كان «أحمد نبهان» يدرك أنه يحتاج إلى أبناء ذكور ، يقفون إلى جانبه ويدعمون مركزه الاجتماعي ، ويوجههم لتسيير أعماله التجاريّة التي اتسعت مع كثرة الأولاد في المجتمعات العشائريّة قوة وهم العصبيّة الأقوى ، التي تدافع عن نفسها بقوة رجالها ، ومن لا ولد له لا قوة له ، ومن لا قوة له فسرعان

ما تتساقط عليه الطيور الجارحة طامعة في زاده ، مهددة له إن تعرض لها بسوء .

مولده وطفولته :

وفي مطلع القرن العشرين اضيئت الأنوار في دار أحمد النبهان معلنة ولادة الابن الأول له ، ولا نستطيع الجزم بتاريخ محدد ، إذ لم تكن سجلات التوثيق قائمة ، ويرى البعض أنَّ الولادة تمت في شهر ربيع الأول عام ١٣١٨ هـ الموافق شهر تموز عام ١٩٠٠ ، والمهم أنَّ الولادة تمَّت في هذه الفترة الزمنيّة .

فرح «أحمد» فرحة كبيرة بولده البكر ، وسمّاه «محمّداً» وأقام في هذه المناسبة حفلة كبيرة لأبناء عشيرته وأبناء عمومته الذين وفدوا إلى داره مهنِّئين ومباركين ، أحسَّ أحمد بالاستقرار النفسي ، إذ أن حلمه قد تحقّق ، بعد قدوم المولود الذي كان ينتظره .

ثم أخذت الأسرة تكبر وتتسع ، ورزق أحمد بخمسة أبناء هم محمد وحسن وعليٍّ وعبد المجيد وجميل ، وثلاث بنات ، وبدأت مظاهر الترف تظهر على الأبناء ، إنهم يشعرون بقوّة عشيرتهم وعندما كانوا يزورون أبناء عمومتهم في قراهم القريبة كانوا يشعرون بالاعتزاز والتميّز ، أنهم أبناء المدينة ، وبالتالي صاروا يشعرون بأثر الحضارة في سلوكهم ، وعوائد الحضارة واضحة في حياتهم وفي أحاديثهم وفي اهتماماتهم .

ومن هنا راحوا ينفقون الكثير على مظاهر الحياة وأنماط العيش ، وفي الوقت ذاته فهم في المدينة مميَّزون باهتمامات قديمة وأصيلة في عشيرتهم ، كالفروسيّة وأخلاقيات الريف ، كالشجاعة والمروءة والسخاء .

وهذا ما جعلهم في نظر أصدقائهم من أبناء الأسر الأكثر حضارة في المدينة في موطن الاحترام .

عاش «محمد» حياة مترفة ، كان الابن البكر لأبيه ، والصديق المقرّب إليه ، والمرافق الذي يرافقه في كلّ زياراته ، إنه الأمل بالنسبة له ، ينظر إليه بإعجاب ويرى في وجهه ملامح الغد ، سيحمل عنه العبء كله ، وسوف يسند

إليه مهمّة التجارة والتصرف في الثروة ، وربما يكون أقدر من أبيه على تنمية هذه الثروة.

كان الأب يحلم كلّ يوم ، إنه الحلم الكبير. . . كان ينظر إلى ولده بحبّ وحنان. . يعطيه المال الذي يطلب ، ولا يضيق بطلباته مهما كبرت. . أليس هو الأمل المنتظر ؟!. .

كبر الطفل الصغير. . وكبرت أحلام الأب والأم وأخذ إخوته الصغار يتساءلون. . لماذا يحظى هذا الأخ المدلل بكل المحبة والرعاية. . كان أخوته يحبّونه ويجدون فيه ملامح في السلوك غير معهودة في أمثاله.

كان مشدوداً لأمر غريب. . كانت له اهتمامات غير معتادة في سلوك أمثاله. . كان كثير التأمل قليل الكلام محبّاً للفضائل كارهاً للرذائل ، أميناً في معاملاته صادقاً في لهجته مخلصاً لأصدقائه صريحاً في أقواله.

كان والده يصحبه في لقاءات عمله ، ويعلمه لغة التجارة ويلقنه مبادىء التعامل ، فيحاور والده ويناقشه ، فيضيق والده به ، ويدعوه إلى مزيد من الحرص على تعلّم أسرار التجارة.

أحياناً كان يفقده ويبحث عنه فلا يراه. . ثم يكتشف أنه في مجلس علم وذكر وعبادة في مسجد من المساجد التي اعتاد أن يؤدّي صلاته فيها.

أخذ الأب يتساءل بصوت هامس مع نفسه عن أسباب ما يفعله ابنه «محمّد» ، لماذا يتخلف عن مرافقته إلى مجالسه التي اعتاد أن يجلس فيها مع أصحابه المقربين ، ولماذا يجلس معه بجسده ، وقلبه معلّق بغير هذا المجلس. . لماذا لا يصادق من ينصحه الأب أن يصادقهم من أقرانه من أبناء الأسر الصديقة الذين اعتادوا أن يذهبوا في كلّ مساء إلى مجالس اللهو والطرب في أحياء المدينة التي اعتادت أن تنظّم مثل هذه المجالس.

تزاحمت الخواطر في فكر الوالد الحائر ، وأخذ يعيد النظر ويقلّب الأمور ، ويدعو أبناءه الآخرين الأصغر سنّاً ليشاورهم في سرّ ما لاحظه في سلوك أخيهم الأكبر من غرابة.

وجه الأب أبناء أصدقائه لكي يطوقوا ابنه البكر ويأخذوه معهم إلى مجالسهم الممتعة المملوءة بالحياة والشباب ، فيذهب معهم حتى إذا ما حان وقت الصلاة تركهم وذهب إلى المساجد ، حيث اعتاد أن يلقى صحبه المقرّبين ، يصلّون ويقرأون القرآن ويسبِّحون ويذكرون الله ، حتى إذا ما انتهى مجلس الذكر عاد إلى داره هادىء النفس ، متأمِّلاً في كلّ ما حوله ، مبتعداً عن مجالس اللهو ، ضيّق النفس بما يسمع من أقوالهم وتنابذهم وخصوماتهم .

انقطع الشاب عن هواياته التي اعتاد أن يلهو بها في طفولته ، كان يحبُّ الفروسيّة وركوب الخيل ، ويتفاخر بالخيول التي كان يملكها ويحتفظ بها ، وكان يشيد بعد ذلك بتلك الهواية المحببة إليه ، والتي تعلّم منها دروساً في علوِّ الهمَّة والمروءة وأخلاق الفروسيّة ، كانت الفروسيّة بالنسبة له خلقاً يكتسبه الإنسان ويأخذ نفسه به .

وعلى الفارس أن يمسك بزمام فرسه وأن يتحكّم بها ، والنفس كالفرس لابدَّ من ترويضها والتمسّك بمقودها ، وإلاّ جمحت النفس وانزلقت كما تجمح الخيول إذا لم يتمكن فارسها من ترويضها .

أحسَّ الأب بحزن عميق ، وأخذ يحاور ابنه بحنان وحب ، ويسأله عن سرِّه ، فلا يجيب ، وماذا يفعل الأب في مثل هذه المواقف ، هل يكون مع ابنه فيما اختاره لنفسه أم يقف في مواجهته لحمله على ما يريده له .

ووقف «محمّد» حائراً بين واجبه تجاه أبيه وأسرته[١] وبين قلبه الذي يناديه في كلّ لحظة نحو هدف آخر ، إنه صوت يسمعه في كيانه ، في نهاره وليله ، صوت يملأ عليه كيانه ، ويغرقه في هذا الفضاء الفسيح من التأمل . . إنه يسمع ذلك الصوت ، ولا يدري من أين يأتيه . . إنه يناديه : الرحيل . . الرحيل . . من عالمه إلى عالم جديد .

---

(١) تزوج الشيخ في بداية شبابه من ابنة عمه مريم النبهان ولم يتزوج غيرها ، وأنجبت له ابنان هما أحمد وعبد الله وخمس بنات ، وتوفيت زوجته عام ١٩٨٢ م . وتوفي ولداه في يومين متتالين في شهر ابريل عام ٢٠٠٣ ودفنا بالكلتاوية في جواره قدّس الله سره .

إنه لا يعرف الطريق ، إنه مشدود بكليّته إلى وجهة لا يعرف الطريق الموصلة إليها .

حاول أن يستجيب لنداء أبيه بالعودة إليه . . إلى حياة التجارة والعمل ، إلى حياة المتعة واللهو . . إلى حيث يبذل جهده لتحقيق المال والرفاه . . ولكن ليس هذا ممّا يغريه ويشدّه .

فتح له الأب الأبواب لكي يأخذ من أمواله ما يريد ، ولكنّه أوصد تلك الأبواب . . ولم يغره بريقها . . واكتفى بالقليل الذي يسدُّ به الرّمق .

* * *

الإطار التكويني
العلم والتربية

التحوّل إلى طريق العلم :

عندما ضاق الأمر بوالده ، وسدّت أمامه أبواب الأمل ، أمسك بيد ولده الشاب وقاده برفق إلى غرفة منعزلة ، وخاطبه بكلّ العواطف التي يملكها الأب نحو ابنه الأكبر ، وبكلّ الحب الذي بدأت ملامحه في كلماته الهادئة الرصينة ، وسأله عما يريده ويبحث عنه .

انهمرت دمعة سخيّة من عيني الشاب ، وقال لوالده بكلّ رفق وأدب : ممّا يؤلمني يا والدي ويحزنني أنني لم أحقق لك ما كنت تتطلع إليه وتنتظره منّي ، لقد حرصت بكلّ طاقتي على أن أكون الابن البار لك الذي يسعدك بعمله معك ، ولكن لا أقدر على ذلك ، ولا أشعر بكياني وذاتي في هذا الطريق ، وأبحث عن طريق آخر قد أجد صفاء قلبي فيه ، وقد شرح الله صدري للتفرغ لعبادته وسلوك الطريق إليه تعالى لمعرفته ومصاحبة الصالحين ممن تنفعني صحبتهم وتقودني مجالستهم إلى شهود منة الله عليَّ بما أكرمني به من نعمه وفضله .

وأخذ «محمّد» يحدث والده عما يشعر به في أعماقه من فضل الله عليه ، وأنه يريد أن يسلك طريقه إلى الله بالعلم والطاعة وطهارة القلب من التعلّق بمظاهر الدنيا .

فاضت عينا الأب بالدموع ، وأمسك برأس ولده برفق وضمه إلى صدره ، وقال له :

ألا تريد يا ولدي أن نحتكم إلى عالم كبير من علماء الشريعة ومن فقهاء الدين ، لعلَّه يدلّنا على الطريق الذي يرضيك ويرضيني .

وذهبا معاً إلى علاّمة مدينة حالب وشيخها الكبير المعروف بعلمه وورعه الشيخ نجيب سراج الدين ، وشرح الأب للشيخ الطريق الذي اختاره ابنه وتوجَّه الشيخ إلى «محمّد» ونصحه بأن يقسم وقته بين العلم والعمل ، وبذلك يحقق رغبته بطلب العلم ويلبِّي رغبة والده بالعمل معه في تجارته .

أطرق الشاب رأسه أدباً وحياءً من الشيخ وأجابه بأنَّ العلم الذي اختار طريقه يحتاج منه إلى أن يتفرّغ قلبه له ، ولا يمكن لقلبه الذي أحبَّ العلم وتعلَّق به أن يجتمع فيه حب آخر للعمل ، ولابدّ من التفرغ لطلب العلم .

وتعلق «محمّد» بمجالس العلم التي كانت تعقد في المساجد الكبيرة ، وأصبح يجالس العلماء الذين اشتهروا بالعلم والصلاح والتقوى والورع ، ثم انتسب إلى المدرسة الخسرويّة الشهيرة التي تقع قرب باب القلعة ، وكانت هذه المدرسة بالنسبة لمدينة حلب كالأزهر في مصر ، وتخرّج منها كبار العلماء ، ولم يكن يعترف بالعالم إلا إذا تخرج من هذه المدرسة الشرعيّة العريقة ، وكان كبار علماء حلب يدرسون فيها العلوم الشرعيّة ، وما زالت حتى اليوم تقوم بهذا الدور العلمي الرائد .

وفي هذه المدرسة انضمّ «محمّد» إلى أسرة جديدة لم يكن يعلم من أمرها شيئاً من قبل ، فلم يكن في أسرته علماء من قبل ، وكان الأطفال في المدينة يدرسون مبادىء القراءة والكتابة في الكتاتيب القرآنيّة التي كانت ملحقة بالمساجد ، ويتعلم فيها الطفل قراة القرآن مع أقرانه وأبناء حيِّه ، يجتمعون في قاعة واحدة ، ويجلس المعلم في موقع مرتفع يشرف عليهم ويعلمهم القرآن ومبادىء الكتابة والإملاء وقواعد الحساب ، وقلّما كان يتجاوز ذلك ، ويتلقّى أجره من تلاميذه كلّ يوم خميس ، وكانت هذه الكتاتيب موزعة في معظم الأحياء ، وتحلّ مكان المدرسة ، ولم تكن هناك مدارس في تلك الفترة التاريخية ، ممّا أدى إلى شيوع الأميّة في المجتمع ، وبخاصة بالنسبة للبنات ، وكانت لفظة «الشيخ» تعني معلم القرآن للأولاد ، و«الخوجة» معلمة القرآن

للبنات ، فإذا ختم الطفل القرآن أقيمت له حفلة تكريم واسعة ، ورافقه زملاؤه إلى داره بكلّ مظاهر الفرحة ، فتفرح الأسرة بطفلها الذي ختم القرآن ، وغالباً ما كان التعليم يتوقف بعد ذلك.

أمّا من يختار طريق العلم فعليه أن يلتحق بالمدرسة «الخسرويّة» ، فهناك علماء كبار وفقهاء مشهود لهم بالرواية والدراية وهم شيوخ ، ولكنهم ليسوا كشيوخ الكتاتيب القرآنيّة التي كان يقوم بها إمام المسجد ، والذي لا يتجاوز علمه القليل من الأحكام.

و«الخسروية» هي «أزهر» حلب ، فمن تخرَّج منها فهو عالم يحتجُّ بعلمه ، فإذا ذهب إلى الأزهر بعد ذلك فقد أصبح من علماء الأمّة ، وتفخر أسرته به ، وتفرح بما يضفيه على أهله من مهابة واحترام.

لم يكن «محمّد» عندما التحق بالخسرويّة يطمح بما يطمع به غيره من وظيفة في الأوقاف يسد بها حاجته للمال ، فقد كان المال متوفراً لديه ، ولم يكن يطمع في مكانة اجتماعيّة فقد كان طريقه معبداً لتحقيق هذه الغاية عن طريق أسرته وعشيرته ، ولعلَّ هذا هو السبب الذي جعل والده وأسرته لا يشجّعون اختياره لطريق العلم ، ويتساءلون فيما بينهم عن سرّ اختياره للعلم فلا يجدون جواباً سوى ما وجدوه في ولدهم من تعلّق بالعلم لا حدود له.

كان العالم في مدينة حلب يحظى بمكانة كبيرة من الاحترام ، وبخاصّة إذا ارتبط العلم بالعمل ، وتميّز سلوكه بالنزاهة والورع والتقوى ، إلاّ أنَّ معظم الأسر الثريّة وذات المكانة الاجتماعيّة لا تشجّع أبناءها على طلب العلم الشرعي ، وقد تشجعه على الالتحاق بالدراسة العلميّة كالطب والهندسة والقانون ، لأنَّ هذا العلم يأتي بالمال ، ويقود صاحبه إلى مناصب عليا في الدولة ، أمّا العلم الشرعي فلا يحقق الهدف الدنيوي ، ولا يؤهِّل صاحبه لحياة مرفهة ، وهذه ظاهرة كانت في الماضي واستمرت فيما بعد ، وما زال الناس يبحثون عن الشهادات التي تؤهّل صابحها للكسب المادي والترقي في وظائف الدولة.

وكانت المدرسة «الخسرويّة» من أقدم المدارس العلميّة ، ولم تكن هناك

معاهد أو جامعات ، ومن أراد العلم فهذا هو طريق العلم وهذه هي بوابته الأولى المعترف بها والمشهود بقيمتها .

وتجدر الإشارة إلى أن هناك مدارس أقل قيمة ، وهي مدارس كثيرة ، وغالباً ما يلتحق بها أبناء الريف الذين يبحثون عن العلم ، وتضم غرفاً خاصة للإقامة ، وهناك أوقاف ينفق منها على هذه المدارس ، وتعقد فيها مجالس للعلم ، يقوم بها علماء متطوعون ، يقرأون فيها كتب التفسير والحديث والفقه والأصول ، وهذه المدارس لا يعترف بها ولا بقيمة شهادتها ، إذ لم تكن الدراسة فيها منتظمة .

ارتدى «محمّد» ملابس العلماء ، وأصبح يعرف «بالشيخ محمّد» وكان المجتمع في ذلك الحين لا يعترف بالعالم إلاّ إذا ارتدى ملابس العلماء ، كالعمة والجبة ، أما العالم الذي لا يرتدي ملابس العلم فلا يعترف بعلمه ، ولو كان من كبار العلماء ، وتحظى الشكليات في مجتمع ذلك العصر بأهميّة كبيرة ، وعلى العالم أن يعتز بعلمه ، ومظاهر العلم تتجلى في الالتزام بزيّ العلماء ، ولا يقبل من العالم أن يخلع ملابس العلم مهما كانت الأسباب .

وما زالت هذه الظاهرة قائمة في بعض المجتمعات أو البيئات الضيقة ، وبالرغم من التطور الحاصل في المفاهيم فقد استمرت الظاهرة معبرة عن أهميّة المظاهر في البيئة الشعبيّة ، بتأثير الموروث القديم من القيم والعادات ، وهذه الظاهرة ليست خاصة بملابس العلماء ، وإنّما نجدها في المظاهر والسلوكيّات الاجتماعيّة ، فالتجّار لهم ملابسهم ، والعلماء لهم ملابسهم ، والمتدينون لهم ملابسهم ، ويحظى الطربوش التركي الأحمر بمكانة في ذلك العصر ، فالعالم يضع العمامة البيضاء ، والتاجر المتدين يضع إطاراً أصفر على الطربوش ، وإذا جاء الطربوش خالياً من كلّ شيء فهذا لباس أهل المدينة .

ويختلف اللباس بحسب الأجيال ، فالأجداد لهم زيّهم الوطني الذي يلتزمون به ، ويختلف لباس الأبناء والأحفاد عن لباس آبائهم وأجدادهم ، وهذه قضيّة قيم سائدة يتعارف المجتمع عليها ويألفها ويلزم نفسه بها ، ومن اليسير أن نجد أنَّ ملابس العلماء في كلّ بلد عربي يختلف عن الآخر ، وهو

لباس وطني يعبر عن اختيارات اجتماعيّة وتقاليد سائدة.

حظي الشيخ محمّد بمكانة مميّزة بين أفراد أسرته وعشيرته، وأخذ والده يعامله باحترام وتقدير، لا بسبب ما التزم به من ملابس العلماء، وإنّما بسبب ما اشتهر به بين أسرته وأصدقائه من استقامة في السلوك ونزاهة في المواقف وصدق في الأقوال وترفّع عن الأطماع وزهد فيما يطمع فيه غيره، وهو بالإضافة إلى هذه الأخلاق كان محبباً إلى النفس بسبب نقاء قلبه وطهارة نفسه وإيمانه بربه والالتزام بطاعته في كلّ ما أمر به ونهى عنه، والتطلّع إلى الفضائل والكمالات، والتحلّي بالخلق الحسن.

أعجب اساتذته في المدرسة الخسرويّة بخلقه الرفيع وتمسكه بالقيم الإنسانيّة العاليّة، ورأوا فيه نجابة ذهنيّة وصفاءً نفسياً واستقامة سلوكيّة، وأخذوا يقربونه منهم، ويتحاورون معه، فيزدادون به إعجاباً وتقديراً.

كان بعيداً عن اللغو في الكلام والجدل العقيم، وكانت له خصال مثيرة للاهتمام، وأهمها أنّه يتحدّث بلغة غير مألوفة لدى زملائه من الطلّاب، فلا يشاركهم في همومهم المعتادة، ولا يتخاصم مع أحد منهم، فإذا أساء إليه أحدهم بكلمة أو نقد أعرض عنه، وإذا وجد أحدهم في ضائقة أو شدّة وقف معه بصدق وأخذ بيده.

كان مشهوراً بعفّة اللسان، فلا يجري على لسانه ما يجري على لسان أمثاله من سباب وشتيمة، وكان بعيداً عن الحقد الذي لا يعرف له مكاناً في قلبه، وبعيداً عن الطمع فلا مكان في قلبه لمال أو جاه ممّا يشغل سواه.

مفهوم العلم لدى الشيخ:

كان الشيخ يبحث عن العلم، ولكن ما هو العلم الذي يبحث عنه، لم يجد ما يبحث عنه في علوم النحو والصرف، ولم يجده في علوم الفقه والأصول والتوحيد، كان يبحث عن علم آخر يشعر معه أنَّ العلم يقوده إلى العمل، وينعكس أثره على السلوك، سموّاً وتخلّقاً وهمَّة.

وأخذ يبحث عن العلم الذي يريد من خلال ما يسمعه من أساتذته، فلم

يسمع الجواب الشافي لسؤاله ، وأخذ يبحث عن ذلك من خلال الكتب المقرّرة للدراسة والتحصيل ، فلم يجد الجواب .

وعكف على كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي رضي الله عنه يقرأه كلّ يوم ، كان سعيداً بقراءته لهذا الكتاب ، لعلَّه هو المعلم الأول الذي كان يلقّنه المفاهيم الأولى للعلم الذي يبحث عنه .

ووجد أنَّ العلماء اختلفوا في مفهومهم للعلم المطلوب والمحمود الذي يعدّ فرض عين ، وجاءت النصوص بالدعوة لطلبه ، وكان كلّ فريق من العلماء يدافع عن العلم كما يراه ذلك الفريق ، فقال المتكلمون إنّه علم الكلام لأنّه يُدرك به التوحيد وتعلم به ذات الله وصفاته ، وقال الفقهاء هو علم الفقه لأنّه يدرك به الحلال والحرام في العبادات والمعاملات وما يحتاج إليه الناس ، وقال المفسِّرون هو العلم الذي تدرك به معاني القرآن وأحكامه ، وقال المتصوِّفة هو العلم الذي يدرك به العبد حاله ومقامه من الله تعالى وهو علم الإخلاص الذي ترتقي به النفوس وتصفو به القلوب .

وبدأت النافذة المغلقة تتفتح أمامه عن عالم جديد لم يعرفه من قبل ، كان يشعر به في أعماقه ، ولا يجد أثره في محيطه ، ولابدّ من التوغل في هذا الفضاء الرحب من المعرفة التي أشعرته بالسكون القلبي وأمدّته برؤية معرفيّة جديدة .

والعلوم كما شرحها له الإمام الغزاليّ هي أصول لابدَّ منها ولا يمكن لطالب علم أن يجهلها ، فإن جهلها فقد ضلَّ طريقه ، وهي معرفة ما في كتاب الله وما في سنّة رسول الله وما أجمعت عليه الأمّة وما ورد عن الصحابة من آثار ، والعالم الذي يجهل هذه الأصول ولا يعلمها لا يسمّى عالماً بحال من الأحوال ، وقد ضلَّ من ضلَّ بسبب جهلهم بهذه الأصول .

أمّا علوم الفروع فهي نوعان ، ما تعلّق بشؤون الدنيا وهو الفقه ، والفقهاء هم علماء الدنيا وما تعلّق بشؤون الآخرة فهو علم أحوال القلب ، وما يعتريه من صفات محمودة ومذمومة ، وما يجري في القلب ينعكس أثره على الجوارح ، فتستجيب لدعوة القلب وتوجيهاته واختياراته .

ووقف الشيخ متأملاً في ملامح هذا العلم ، ولعلَّه العلم الذي يبحث عنه ، ويشعره بالسكون النفسي والطمأنينة التي يسعى إليهاوتلك هي الضالّة التي هجر عالمه الأول لأجلها ، إنّه الحب الجديد الذي يشدّه بقوة إليه .

إنّه يريد العلم الذي يقوده إلى المعرفة ، والمعرفة هي غاية العلوم ، والعلم الذي لا يقود صاحبه إلى المعرفة هو علم قاصر لا يؤدّي الغاية المرجوة منه ، وأول الطريق لهذه المعرفة أن يتحرر الإنسان من كلّ تعلق له بالدنيا وأن يتجرد من كل العوائق ، وأن يطهِّر قلبه من كل الكدورات وأن يكون ورعه ليس ورع الصالحين الذين يبتعدون عن الشبهات في مجال الحلال والحرام ، وإنّما يمتد هذا الورع لكي يشمل الإعراض عن كل ما سوى الله مما تتعلّق به النفس ويميل إليه القلب .

اتجهت أبصار الشيخ خارج نطاق مدرسته وبعيداً عن أساتذته ، إنهم في المدرسة يدرسونه علوم الدنيا ، وهو يريد أن يعرف علوم الآخرة ، العلوم التي توصله إلى ربه ، لكي يتحقق بعبديته لله تعالى ، وبدأت رحلة البحث عن الشيخ المربي الذي يأخذ بيده ، ويرتقي به في معارج السلوك ، إلى مرتبة المعرفة .

البحث عن الشيخ المربي :

اشتهرت مدينة حمص بجمال طبيعتها ونقاء هوائها ، وصفاء فطرة أهلها ، وما زالت حتى اليوم محتفظة بخصوصياتها الإنسانيّة ، ويخترقها نهر العاصي الذي يضفي على أهلها تلك الجماليّة المحببة إلى النفس في التربيّة والتوجيه والمزاج الهادىء والطبيعة المعتدلة .

ويتوسطها جامع خالد بن الوليد الصحابي الجليل الذي قاد جيوش الفتح بعبقريّة فريدة وحقق بهم أعظم الانتصارات ، وبفضل بركته على هذه المدينة التي تقع في وسط سوريا كثر الصالحون فيها وامتد عطاؤهم إلى المناطق الشماليّة في مجال التربيّة الروحيّة .

واشتهر الشيخ سليم خلف الحمصي بالولاّية والصلاح والورع وترأس الطريقة النقشبنديّة عن جدارة ، ولمّا توفِّي خلفه في مشيخة الطريقة ابنه الشيخ

أبو النصر بن سليم خلف ، وكانت له زاويّة مشهورة في حمص ، واشتهر أمره في مدينة حلب وفي المناطق الريفيّة التابعة لها ، وكان صاحب سرٍّ مشهود به .

التقى الشيخ محمّد وهو المتعطّش إلى سلوك طريق القوم بالشيخ الوافد من حمص ، فانجذب إليه وتعلّق به وأحبّه ووجد فيه المربي الذي يبحث عنه ، وقرّبه الشيخ منه وبادله الحب بعد أن وجد في سلوكه الصدق في الطلب .

ازداد تعلق الشيخ محمّد بشيخه أبي النصر ، ولازم مجالسه ، وتمسّك بصحبته ، وأعطى هذه الصحبة حقها من الأدب مع الشيخ والتخلّق بأخلاق الصوفيّة الحقّة ، والالتزام بآداب السلوك ، وأول خطوة في ذلك أن يعرف السالك حقيقة المقامات والأحوال وطبيعة المواجيد والواردات ، والالتزام بالشريعة والابتعاد عن الشطحات المعبرة عن ضعف السالك وعدم التحكم في مواجيده .

والتصوف تربيّة خاصة ، وتقوم على أساس الأحوال ، ولا يرث الأحوال إلا من صحح الأعمال ، ولا يتم تصحيح العمل إلا بالتوبة وهي أول مقامات السالكين ، والتوبة هي الرجوع عما هو مذموم من الأعمال إلى ما هو محمود منها ، ولكي تتحقق التوبة فلابدّ من علم سابق يورث حالاً ، والأعمال مواريث الأحوال ، فمن لا حال له فلا يثمر علمه استقامة في السلوك ، والأحوال مواهب تأتي سريعة كالبروق ثم تغيب مخلفة وراءها ذلك الأثر الذي يعقبه العمل ، وهو الثمرة المرجوّة .

فإذا أحسن السالك التوبة بعد محاسبة نفسه ومراقبتها فلابدّ له من مقام العبد ، وهو مقام هام من مقامات السالكين وقد تحدث القرآن الكريم عن مقام الصبر ، ومدح الصابرين بأنهم يوفون أجورهم بغير حساب ، ولابدّ من مقام الصبر من حال يهيىء السالك للصبر على ترك الشهوات والملذات ، وذلك بتقوية وتغذية القوة العاقلة على القوة الغريزية في حالتي الشهوة والغضب ، ولابدّ من تنمية الباعث الديني في مواجهة الباعث الغريزي ، فإذا قويت بواعث الدين تراجعت بواعث الشهوات ، وتحقق الالتزام بأحكام الشرع وما يدعو إليه من القيام بالطاعات وترك ما يدعو إليه الهوى من المنكرات .

لم يتوقف «الشيخ محمّد» عن حدود الذكر المعتاد في الطريقة كما تقضى بذلك تقاليد الطرق وإنّما بدأت مجالسه ومذاكراته مع إخوانه تحظى بقدر واسع من الاهتمام ، وأصحبت دروسه في المعرفة والتربيّة والمجاهدة والسلوك والمقامات والأحوال تعطي لمجالس الطريقة وأذكارها حياة معرفيّة جديدة.

مرحلة المجاهدة:

بدأ الشيخ محمّد بتزكيّة نفسه عن طريق المجاهدات التي ألزم نفسه بها ، والمجاهدة في نظر الصوفيّة هي بدايّة الطريق إلى الله ، ولابدّ في المجاهدة من السيطرة على النفس والتحكم في قواها الغريزيّة ، فحظ النفس في المعصيّة ظاهر وجليّ وحظها في الطاعة باطن وخفيّ ، ولابدّ من مداواة ما هو خفي بالمجاهدة ومقاومة الصفات المذمومة في النفس واستبدالها بالصفات المحمودة ، وهذا الأمر لا يتحقق إلا بأمرين ، إمّا الجود الإلهي الذي يكرم به بعض عباده ممن تولاهم بالعنايّة والرعايّة كالأنبياء وإمّا أن يتم ذلك بمجاهدة النفس ، لكي ينحجب القلب عن العلائق الدنيويّة ، ويقبل بكليته على الله تعالى ، فمن أقبل على الله تعالى تولى الله تعالى قلبه ، وتكفل بهدايته وأنار سرَّه بنور الرحمة ، فكان في موطن الرعايّة والعنايّة الإلهية.

وبدأ الشيخ طريقه بالخطوات التاليّة:

الخطوة الأولى:

قطع علائقه بالدنيا وبكلّ ما يشغل قلبه من الانشغالات الخارجيّة من مال وأسرة وجاه وأصدقاء ، وطريق ذلك هو الخلوة ، وتبتدىء الخلوة بالعزلة لكي يتقي الناس ، ويبتعد عن مداراتهم ، ولكي يحفظ قلبه ، فلا يدخله عن طريق السمع والبصر ما يعكر صفوه ، وانطلاقاً من هذا المبدأ فقد اعتزل الناس وانصرف إلى العلم ، ولابدّ من العلم في مرحلة السلوك الأولى لكيلا يضل طريقه ، والسلوك إذا بني على غير العلم والالتزام بالشريعة فسرعان ما يؤدّي إلى الغرور والانحراف والضلال ، وتحقيقاً لهذا الهدف انصرف الشيخ عن كلّ الانشغالات الدنيويّة وزهد في المال والجاه ، وقنع بالقليل الذي يكفيه لحياة

بسيطة ، فكان يأكل قليلاً من الخبز اليابس ويلبس الملابس الخشنة البسيطة ، ويحاسب نفسه إذا طالبته بما هو أكثر من ذلك ، فكان يكفيه القليل من الطعام ، مع وفرة الطعام إذا أراده ، ولكنه اختار طريق المجاهدة لفطم النفس عن مطالبها الغريزيّة ، وقد نتساءل عن سر ذلك ، وسنجد الجواب لكلّ ما نتساءل عنه في كلام الإمام الغزالي الذي كان الشيخ يعكف في عزلته على قراءة كتابه «الإحياء» ، ويقول الإمام الغزاليّ بأنّه لا يمكن إصلاح القلب لسلوك طريق الآخرة ما لم يمنع السالك نفسه عن التنعم ، فإنَّ النفس إذا لم تمنع من المباحات طمعت في المحظورات[1] ، وطريق المجاهدة عند الغزالي يختلف باختلاف السالك ، والأصل فيه أن يترك كلّ واحد ما به فرحه من أسباب الدنيا فالذي يفرح بالمال أو بالجاه أو بالقبول في الوعظ أو بالعز في القضاء والولايّة أو بكثرة الاتّباع في التدريس والإفادة فينبغي أن يترك ما به .

الخطوة الثانية :

الأنس بالخلوة والابتعاد عن الناس ، وهي مرحلة امتدت سنوات من حياته ، وفي هذه المرحلة تتجه النفس إلى الخلوة بعد أن تشعر بالأنس بالله ، فمن وجد أنسه بالله نفر من الخلق وضاق بهم ، وكان الشيخ يتحدث كثيراً عن هذه المرحلة من حياته في السلوك ، ولابدّ بعد العزلة من الخلوة ، لأنَّ النفس إذا تزكت شعرت بسكون القلب ، وأنست بالله تعالى ، ولا تشعر بالوحشة في خلوتها ، والخلوة هي صفة أهل الصفوة من السالكين ، وقد اختار الشيخ جامع الكلتاويّة الصغير المنعزل الذي يقع فوق رابيّة تطل على باب الحديد وقبو النجارين وحي البياضة المتفرع من شارع القلعة ، ولا أحد يدري لماذا اختار هذا الجامع المنعزل الصغير القديم ، الذي أصبح فيما بعد منارة ثقافيّة عظيمة الأثر في حياة مدينة حلب ، وقد اختار الشيخ هذا المكان على أي مكان آخر ، وحافظ على وفائه لهذا الجامع ، فلم يغادره فيما بعد حيث بنى فيه غرفة صغيرة وحماماً صغيراً ، وجعل أرض الجامع حديقة غناء جميلة مليئة بالزهور

---

(١) انظر الإحياء ج٣ ص٧٣ .

والورود ، وكان يحرص على العناية بهذه الحديقة بنفسه ، ويستقبل في غرفته المتواضعة إخوانه المحبين ، يقرأ في الصباح في كتبه ويستقبل في المساء إخوانه ، ويعتكف في هذا المسجد فلا يخرج منه ولا يخالط أحداً إلا العدد القليل من محبيه ، وكان في بداية سلوكه قليل الكلام يغلب عليه الصمت ، يقوم ليله بالتهجّد والعبادة ويقضي نهاره بالتأمّل وقراءة القرآن.

الخطوة الثالثة:

استحضار القلب في الصلاة والأذكار ، وتركيز الذهن في الله تعالى ، عن طريق ترديد كلمة: الله الله الله ، إلى أن تصبح كلمة الله جارية على اللسان من غير ترديد أو تكلّف ، مع توجيه الهمّة إلى الله تعالى ، وعندئذ ينجذب القلب إلى الله ، وينكشف للسالك ما يعجز العقل عن إدراكه عن طريق الفطرة النقيّة من أنواع المعارف التي تنقدح في القلب الذي يعتبر كالمرآة التي تنطبع فيها الحقائق من غير حجب مانعة ، وتحصل صورة المعلومات في القلب كما تحصل صورة الشمس في الماء الصافية.

وفي هذه المرحلة من السلوك يصل الإنسان إلى مرحلة المعرفة بالله ، ومن أبرز علائم المعرفة بالله حصول الهيبة في القلب من الله تعالى ، وعندئذ يغيب السالك عن نفسه ويستولي عليه ذكر الحق في حركاته وسكناته ، فلا يشهد إلا الله فيما يصيبه وفيما يواجهه ، فالله هو المعطي وهو المانع وهو المبتلي وهو الرازق وهو الباسط ، وعندئذ تزول من قلبه الهيبة من الخلق ، فلا يخشى الطغاة والمتجبرين ، ويكون قريباً من الخلق لأنهم عيال الله ، يفتح قلبه لهم ، ويجند نفسه لخدمة المستضعفين ، ولا تحمله نعم الله التي أنعمها عليه سواء كانت مالاً أو سلطة أو جاهاً على أن يهتك أسرار محارم الله ، رحمة بهم ، وامتثالاً لأمر الله في رعايّة شؤونهم.

وكان الشيخ يتحدث في مجالسه عن حضور القلب ، ويعتبر ذلك من أهم ما تحققه مجاهدة النفس ، وحضور القلب هو ثمرة المجاهدة ، ولا يتحقق هذا الحضور إلا بإفراغ القلب عن كلّ ما هو ملابس له ، فيتحقق الإنسان بعبديته لله تعالى ، وهو طريق للفهم ، ومن ثمراته الأدب مع الله تعالى ، ويحذر من

غفلة القلب في الذكر أو العبادة ، فالغفلة تورث ظلمة وانقطاعاً ، وتكون حجاباً للسالك ، فلا تثمر عبادته الثمرة المرجوَّة منها ، ولا يشعر بالنور الذي يضيء القلب بعد الذكر.

والمجاهدة التي لا تثمر حضور القلب وصفاءه هي مجاهدة الغافلين المحجوبين عن ربهم بانشغالاتهم الدنيويّة.

الترقي في مراتب السلوك:

أول ما يجب على المريد أن يلتزم به في سلوكه أن يرعى حق الله تعالى في قلبه ، وأوّل خطوة في هذه الرعايّة أن يتحكم في جوارحه فلا يسمح لها بأن تتمرد على ما يجب أن تلتزم به من حقوق الله، وتتمثّل حقوق الله في أمور ثلاثة:

أولها:

الإيمان بالله وهذا يتطلب تصحيح العقيدة من كلّ السلوكيات والمعتقدات الفاسدة المتمثلة في الخضوع لغير الله ، فالله تعالى هو الخالق الذي يستحق العبادة ، ولا عبادة لغير الله ، وأول ما يجب على المريد السالك أن يعرفه كما يقول الإمام المحاسبي أن يعلم العبد أنه عبد مربوب ولا نجاة له إلا بتقوى سيده جل وعز ومولاه ، وأن يفكر في خلقه ، لماذا خلق ولماذا وضع في هذه الدنيا وأنَّ هذه الدنيا لم تخلق عبثاً ولم يترك سدى ، وإنّما خُلق في هذه الدنيا للبلوى والاختبار ، فإما أن يكون طائعاً أو عاصياً ، وأن العبد المربوب يجب أن يحرض على مرضاة ربه وأول خطوة في هذه الطاعة أن يتعلم ما في كتاب الله وسنة نبيه لئلا يضلّ طريقه ، فالعلم هو دليل السلامة ، والعلم يحتاج إلى ورع وتقوى ، ولا تتحقق التقوى إلا بمحاسبة النفس وأداء الفرائض والسنن طلباً للفلاح ، ولا فلاح إلاّ بالتقوى لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٠] والناس ليسوا سواء في رعايّة حقوق الله ، فمن نشأ على الفطرة الصافيّة والتزم بما أمر الله به ، فهو أقدر على رعايّة حقوق الله ، فإن وقع في الزلّة فسرعان ما يعود إلى الطاعة بالتوبة والندم ، ومن غلبه الهوى وفسد مزاجه واضطربت فطرته ، وضعف خوفه من الله فسرعان ما يسقط فريسة الغفلة

ويقسو قلبه ، ويصرُّ على تمرّده على حقوق الله ، وتجاهله لما أمره الله به من الطاعات .

ثانيها :

التمسك بالسنة في مواجهة البدع الضالة من المعتقدات والعبادات ، والبدعة في العقيدة مفسدة للعقيدة ، والبدعة في العبادات تقود إلى الضلالة والانحراف ، وعلى المربِّي أن يدفع السالك إلى طريق الاستقامة ، وأن يحضّه على التمسك بمنهج السلف الصالح وأن لا يسمح له بتجاوز ذلك في سلوكه ، ولا خشيّة على السالك في كل الأحوال التي يمر بها ما دام مراعياً حقوق الله الواجبة عليه ، ولابد من أن تعترض طريق سلوكه أحوال مفاجئة نتيجة الواردات التي تأتيه فجأة ، من فرح وحزن وخوف ورجاء وقبض وبسط ، وسكون وحركة ، وهي أمور طبيعيّة ، وسرعان ما تزول ، إلا أنّها يجب أن تخلف أثراً طيباً في السلوك يتمثل في مزيد من رعاية حقوق الله ، وبأداء ما أمر به والابتعاد عما نهى عنه ، والبدع ضارّة للسالك ، وبخاصة في مجال المعتقدات ، وبعض السالكين انحرفوا بسبب تلك البدع الفاسدة التي اعتقدوا بها .

ثالثها :

الابتعاد عن الرياء في أداء حقوق الله ، والرياء يتنافى مع الإخلاص ، ومن وقع فريسة الرياء في أداء عبادته افتقد أثّر هذه العبادة في قلبه ، فلا تترك بعدها ذلك النور الذي يضيء القلب ، والرياء هو أن يفعل العبد الطاعة مراعياً في ذلك نظرة العباد إليه ، طلباً من مرضاتهم عن أفعاله ، لكي يحمدوه في مجالسهم ، ويرفعون مكانته في قلوبهم ، ومعظم السالكين يقعون في حفرة الرياء وهي زلة كبيرة ، ولا يقدرون على الخروج منها ، فيضيع أجرهم عند الله ، ولا يشترط الرياء في الأقوال والأفعال ، فبعض السالكين تتجه قلوبهم لطلب المحمدة من الناس وارتفاع المكانة ، وأخطر أنواع الرياء أن يظهر خلاف ما يخفى في مجال العقائد ، فيظهر الإيمان ويخفى الكفر ، وفي مجال الواجبات ، فيؤدّيها أمام الناس ويتركها فيما بينه وبين نفسه ، وفي مجال السنن والنوافل ، يؤدّيها كاملة عندما يجتمع بالناس ويؤدّيها ناقصة عندما يكون مع

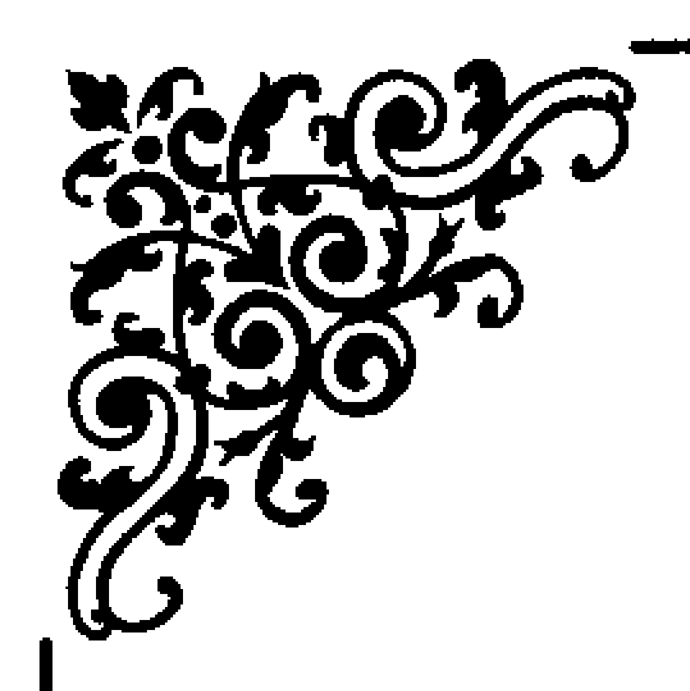
نفسه ، والرياء مرض في القلب ، يؤدّي إليه الرغبة في الرئاسة والمكانة والجاه العريض ، والرياء ينمو في النفس تحت تأثير الهوى المتمكّن من النفس ، ولا يمكن التحكم فيه إلا بالسيطرة على نوازع الهوى في النفس بالمجاهدة الصادقة التي تعتمد على صدق النيّة والرغبة في الطاعة ومعرفة عيوب النفس الأمّارة بالسوء والمتطلّعة إلى الدنيا .

كان الشيخ يرى في الصوفيّة سلوكاً نقياً من كلّ الشوائب ، ويرى فيها تجسيداً لقيم إنسانيّة عاليّة ، وكان يريد أن يجسد هذه المعاني التي أدركها بفطرته الصافيّة في حياته الخاصّة .

كان يريد الصوفيّة كما يفهمها هو ، وكما استمدها من القرآن والسنة ، كان القرآن هو مرجعه الأول الذي يغرف منه فهمه الواسع والغني لمعنى الصوفيّة ، وكانت السنة المتمثلة بالسيرة النبويّة الشريفة هي الهادي الذي ينير له طريقه ، وفي كلّ أحاديثه كان يركز على أهمية «الاتباع» والاتباع هو الأخذ بما ثبت في السنة من حياة النبي ﷺ ، نظراً لأنَّ النبي ﷺ هو مصدر الفضائل والكمالات في الوجود ، وحياته هي قمَّة ما تعنيه لفظة الفضيلة والكمال .

وكان يرفض من الطرق الصوفيّة كلّ المظاهر السلبيّة المنافية للكمال ، وقد دفعه هذا إلى التحرر من الطرق وتقاليدها وأعرافها المألوفة ، كان يريد الصوفيّة بسموِّها الروحي وبكمال رجالها وبمفاهيمها المعرفيّة وبقيمها الساميّة ، وكانت المعرفة في نظرة هي المعرفة التي تؤدّي إلى تعظيم الله في القلب ، وليس كمثله شيء وهو السميع العلّيم .

* * *




المبحث الثاني
شخصيّة الشيخ وخصاله

ملامح الشخصيّة
العوامل المؤثرة في تكوين الشخصيّة

العامل الأول : الاستعداد الفطري

العامل الثاني : الرياضة النفسية

العامل الثالث : البيئة الاجتماعيّة

- الانسجام بين الشخصيّة والفكر
- القدرة على التواصل مع الآخر
- الترفّع عن الصغائر




شخصيّته وخصاله

ملامح شخصيّة الشيخ :

كان الشيخ طيّب الله ثراه يتمتع بشخصيّة قويّة مهيبة ، وفراسة صادقة ، مبعثها صفاء قلبه ، وكان مجلسه مجلس مهابة واحترام ، وكان حديثه مؤثراً بسبب صدق لهجته ، فإذا جلس في مجلسه أحسَّ الجميع بالهيبة بالرغم من تواضعه الكبير وابتسامته الدائمة ، وقلما كان يغضب أو يثور إلا إذا رأى ما يمسُّ الدين فكان يغضب لله ، ويدافع عن العقيدة الإسلاميّة والقيم المستمدّة من الدين .

كان يغضب لله في المواقف العامَّة ، ولا يخشى لومة لائم ، ولا يهمه من كان أمامه ، وبخاصّة إذا كان من رموز السلطة ، فكان ينصحهم ويوجههم بالكلمة الطيبة ، فإذا لم تجد كلماته صداها في النفوس أعلن موقفه الصامد في الدفاع عن الموقف الذي يراه مناسباً ، ويعتبر أنَّ مهمَّة العالم في المجتمع أن ينصح ويوجه ويحمي شعائر الدين وقيم الفضيلة .

وكان إذا دخل أي مجلس عام أو خاص وقف الجميع احتراماً له ، وإذا تكلّم أنصت الجميع ، وإذا سكت أمسك الجميع عن الكلام ، إلى أن يبدأ بالكلام ، وكانت الهيبة هي الصفة الواضحة في مجالسه ، وهي هيبة احترام وليست هيبة خوف ، فلم يكن يملك سلطة التخويف ، ولا قوة السلطة ، ولم تسمع منه قط كلمة نابية أو مستهجنة أو خارجة عن حدود الأدب واللياقة ، وإذا سمع كلمة نابية تجاهلها وقد يغادر المجلس بأدب ولا يُشعر أحداً بالحرج .

كان الأكابر في نظر الناس يهابونه ويحترمونه وينظرون إليه من بعيد نظرة

الاحترام ولا يجرؤون على مخالفته ، وكان خصومه يخشونه ويظنون فيه التكبر والترفع ، فإذا اقتربوا منه وجدوه واسع الصدر في علاقته مع الآخرين متواضعاً من غير تكلّف ، يسع صدره لكلّ الناس ، ولا يحاسب أحداً على تقصيره ، ولا يعاتب ، والتواضع صفة راسخة فيه من غير تكلّف ، فهو مع الضعفاء والفقراء والمسنين والأطفال والأرامل والعجزة ، وهؤلاء يجدون في شخصيته العطف والحنان والمحبة والرعايّة ، وكان يتبسط مع هؤلاء ويباسطهم في الحديث ويمازحهم في الكلام ويسمع شكاويهم ، ولا يضيق صدره بما يطلبونه منه من عون ومساعدة.

ولم يفرّق في مجلسه قط بين قوي وضعيف وغنيّ وفقير وحاكم محكوم ولم يردّ ضعيفاً قط عن مجلس أو يضيق به ، وكان هؤلاء يحظون بكلّ الرعايّة العطف ، وإذا دعاه ضعيف أو فقير إلى داره فكان يجيب الدعوة بكلّ فرحة ، ويأخذ معه كبار إخوانه من أصحاب النفوذ الاجتماعي إلى دار ذلك الرجل الفقير في الأحياء النائيّة ، تطييباً لخاطره ، وإشعاراً له بالمكانة.

وما زلت استحضر عشرات المواقف التي رأيتها في سيرته التي تعبر عن شخصيّة متميّزة في تكوينها الخلقي ، وكنت أرافقه في كثير من زياراته لأسر فقيرة في الأحياء النائيّة ، أو لامرأة مسنة عاجزة كانت تدعوه وتجمع أبناءها لاستقباله والاحتفاء به.

رأيته مرات كثيرة يعتذر عن دعوة شخصيات ذات نفوذ اجتماعي ويضيق صدره بهذه الدعوات ، وتتفرج أساريره لزيارة أسرة فقيرة ويسرع لزيارتها ، لأشعارها بالرعايّة ، فكان هذا من خصوصيات شخصيته.

ورأيته مراراً يقف لمدة طويلة يسمع شكوى من طفل ضاق صدره بأهله أو ضاق صدر أهله بمطالبه ، فجاء يشكو للشيخ ممّا يعانيه من أمه وأبيه ، فيسمع من الطفل ما يؤلمه ، ويستدعي الأبوين ويوصيهما بأن يتسع صدرهما لمطالب ذلك الطفل وتفهم حاجاته.

وجاءه مرة أحد إخوانه يشكو إليه من همومه وآلامه بسبب ما يلاقيه من متاعب أطفاله الصغار الذين اقلقوا راحته في داره فطلب منه أن يحضر أطفاله

إلى داره لكي يقوم بنفسه برعايتهم ، فخجل الأب من نفسه ، وعاد إلى أطفاله يرعى شؤونهم.

كلّ ذلك رأيته وعشته بنفسي ، ولم أشعر قط أنَّ هذه المواقف متكلفة ، أو أنه يفعلها لكي ترتفع مكانته عند الخلق ، فهذا ممّا لا يخطر بباله ، فلم يؤدِّ أي عمل بتكلف ، أو لإرضاء أحد ، كان هذا هو خلقه ، ولا قوي ولا ضعيف في مجلسه ، ولا غني ولا فقير ، والكلّ سواء.

وعندما كان يموت أحد إخوانه الضعفاء ويترك أسرة وأطفالا ولا مال لهم ولا معيل ، كان يعتبر نفسه مسؤولاً عنهم ، ويرعى شؤون الأطفال الأيتام مادياً وتربوياً ويحظون منه بكلّ الرعايّة والحنان.

ولم يضق صدره قط بصاحب حاجة جاء إليه يطلب منه مساعدته لرفع الظلم عنه أو لمساعدته الماديّة أو لحل خلاف مع شريك في العمل أو لتحقيق صلح بين الزوج وزوجته والأب وأولاده ، وكان وقته يتسع لكلّ ذلك برحابة صدر ، ولم يعتذر قط عن أمر كلف به أو صلح طلب منه ، أو مفاوضة بين مختلفين ، وكان يقوم بكلّ ما يمكن أن يساعد الآخرين ، فإذا توقف حل الخلاف على أمر مادي تكفل بأن يدفع من ماله الشخصي ما ينهي الخلاف ، فإن كان في ضائقة ماديّة استدان من الآخرين وحل المشكلة.

كان يأتيه أحد إخوانه أو أي أحد ولو كان لا يعرفه من قبل ، فيشكو له من مرض أصابه أو أصاب زوجته أو أحد أطفاله ، فيتصل بالطبيب المعالج ويطلب منه تشخيص مرضه ويشتري له الدواء ، ويجري له التحاليل الطبيّة والصور الشعاعيّة ويتابع أمره بنفسه ، إلى أن يأخذ علاجه ، فيتكفل له بالعودة إلى موطن إقامته إذا كان في قريّة ، ولما أبلغ أنَّ بعض من يطلبون مساعدته ليسوا صادقين في أقوالهم ، أجاب: أخشى أن أتردد في مساعدة من كان صادقاً منهم ، وربما يكون بعضهم محتاجاً ولا يجد من يقف معه ، وكان يستدين ويساعد الآخرين.

وإذا جاءه من يطلب مساعدته لشراء قمح أو أرز أو زيت أو سكر أو ما كان ضرورياً لمعاشه ، اشترى له ما يحتاج إليه بما يكفيه لمدة معقولة ، ويطلب أن

يعود إليه إذا ما انتهى هذا المقدار من الطعام.

وكان يَرُدُّ على بعض من يجد في ذلك مشقة عليه بأنَّ الله تعالى قد سخَّره لخدمة هؤلاء المحتاجين، والخلق عيال الله، وأحب الناس إلى الله أنفعهم لعياله، وأنَّ هؤلاء لو أرادوا الاقتراض لما أقرضهم أحد، ولذلك كان يقترض لرفع الحاجة عنهم.

وما رأيت رجلاً يفعل الخير ولا يتكلفه ولا يضيق به، ويؤدّيه بعفويّة وتلقائيّة كما كان يفعل، وكان إخوانه يشفقون عليه، فيبتسم بفرحة ويقول هذا رزقهم سخرني الله لكي أقدمه لهم، ولا فضل لي في ذلك.

ولم أجد فيه قط كبراً على الناس أو ترفعاً على الضعفاء أو ضيقاً بمطالب المحتاجين أو تبرُّماً بما كان يلقاه أحياناً من مشقة في أداء هذه المهمة الإنسانية، وكان كل من يعرفه ويحضر مجالسه اليومية يرى ذلك فيه ويشاهده، وهو سعيد بكل ما كان يؤديه.

ولم يدخر مالاً قط في داره، فما يأتيه في كل يوم ينفقه، فإذا أنفق ما عنده كله قال بصراحة: ليس عندي مال.. وكان يردد في مجالسه أننا لا نتكلف وكان يكره التكلف في أي أمر من الأمور، والمال في نظره يؤدّي مهمة وخلق لغاية هي الإنفاق المشروع على الحاجات الضرورية.

كان كريماً بغير حدود وسخياً من غير تكلف، فلم يتكلف الكرم والسخاء، وكان ما يحتاج إليه في داره يأتي به، وما لا يحتاج إليه لا يأتي به، وما يحتاج إليه هو الضروري للحياة من الطعام والملبس والعلاج بالقدر الذي يحتاج إليه الإنسان، ولم يعرف إنفاق الترف وعوائد الترف في داره وعوائد حياته، وكان يضيق بهذه العوائد التي تصرف القلب عن عبادة الله.

ولم يشغله أمر المال قط، جمعاً وادخاراً، ولم يفكر فيه، فإذا جاء المال أنفقه في مصارفه الضرورية على النفس والأسرة والمحتاجين، وإذا غاب المال فلا ينبغي للقلب أن ينشغل بذلك، لأنَّ ذلك ممّا تولى الله أمر تدبيره.

وكان يقول دائماً في تعريف الإيمان بأنَّ حقيقة الإيمان تتطلب الامتثال لأمر

الله تعالى والاستسلام لقهره ، وأنه لابدَّ من إسقاط التدبير مع الله تعالى ، فالله تعالى هو المدبر للأمور ، وقيام العبد بالتدبير هو نوع من أنواع الشرك بالله ، فالله بحكمته هو الأقدر على اختيار الأفضل للإنسان ، والتدبير سابق على وجود العبد ، فكما كان تدبير الله قبل وجود العبد فكذلك تدبير الله سبحانه وتعالى للعبد بعد وجوده لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] والله هو الذي يتولى أمر تدبير مملكته والتصرف في شؤون عباده ، وليس للعبد أن يتولى تدبير شؤونه والتدبير يشغل القلب عن الله تعالى وهو الجانب المذموم فيه.

وكان يردد: أنَّ الإنسان عبد لله وأنَّ عليه أن يتحقق بعبديته ، فمن عرف نفسه بالفقر عرف ربه بالغنى ، وإذا عرف نفسه بالذل عرف ربه بالعز ، وإذا عرف نفسه بالضعف عرف ربه بالقوة ، وناداه: يا غني يا عزيز يا قوي.. وأنَّ ممّا يجعل العبد قادراً على تحمل الآلام علمه بأنَّ الله تعالى هو المتصرف في الوجود وهو صاحب الاختيار ، والله أرحم بالعبد من نفسه فكيف يتصور ألاّ يكون رحيماً بعباده وهو المتولّي لأمرهم بحسن الاختيار وحكمة التدبير.

وكان شديد التفاؤل بسبب إيمانه بالله ، مهما اشتدت المحن عليه ، ولم أره قط متشائماً من أمر أو حزيناً أو مغتماً في أقسى الظروف ، وكان الدنيا بكلّ أثقالها لا تعنيه ولا تساوي بالنسبة له شيئاً إذ كان مسلماً أمره لله راضياً بقضائه وقدره ، عظيم الثقة بربه ، وما يأتيه من ابتلاءات يتقبلها بهدوء نفس وكأنها جاءت لغيره ، وكأنها محمولة عنه ، ولا يضيق بها لأنها كما يقول ابن عطاء الله «مثل المدبر مع الله كمن بنى بناءً على شاطىء البحر كلما اجتهد في بنائه كثرت عليه الأمواج فتداعى هذا البيت ، والمدبر مع الله يبني مباني التدبير وتهدمها واردات المقادير ، وأنَّ العبد إذا انصرف لخدمة مولاه تكفل الله بأمره لأنه في خدمة سيده ، وكان يرى أنَّ التدبير من أمر الله وهو المختص بالتدبير ، وهو المنفرد بالحكم والتسيير ، وكان يردد هذه المعاني في أحاديثه ومذاكراته ، ويقول إنَّ المنع من الله كالعطاء بل إن المنع هو عين العطاء ، كلاهما من أمر الله ،

وليس من اختصاص العبد أن يتدخل في أمر مولاه ، إذا أعطاه شكر وإذا منعه صبر ورضي بما اختاره الله له .

ولم يكن أمر التدبير يشغله ، ولم يمنعه هذا الاعتقاد من الاشتغال بالدنيا ، والعمل والإنتاج ، وكان هذا من السعي الذي يكلف به العبد ، لا لأجل الرزق ، وإنّما امتثالاً لأمر الله في العمل ، أما الرزق فقد تكفل الله به ، والله هو الرازق وقد أمضى الله أمر الرزق في سابق القضاء ، ولم يذكر كلمة الرزق في مجال العمل والسعي ، فالأمر بالعمل والسعي فيه لا لأجل الكسب ، وإنما لأجل القيام بأمر الله ، وكان يردد في مجالسه الآية القرآنية : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ ﴾ [الطلاق : ٢ ـ ٣] وقد نسب الله الرزق إليه للإشارة إلى أن الله هو الرازق ، والعمل هو سبب للرزق ووسيلة له ، ولكن الرازق هو الله ، والمتكفل بأرزاق العباد هو الله ، وربط الرزق بالأسباب الظاهرة إشارة من الله إلى الأخذ بالأسباب ، لتطييب القلوب وتشجيعها على العمل والسعي .

واشتهر بالشجاعة في مواقفه دفاعاً عن الحق والتزاماً بالقيم الإسلاميّة ، وكان غيوراً على الحق ، لا يساوم فيه ولا يتنازل ، فإذا كان الحق مرتبطاً بنفسه كان يسقط حقه ولا يطالب به ، وإذا كان الأمر يتعلق بغيره كان يدافع عنه ، وإذا كان الأمر يمس العقيدة أو الأخلاق أو يسيء إلى الإسلام فهذا موطن شجاعته ، ولا حدود لغضبه من غير انفعال ، ولا تهاون في قضايا الدين والأخلاق ، ولا يقبل أي مساومة في أمور الدين ، ولا يخشى حاكماً مهما كان قوياً أو زعيماً مهما رسخت مكانته أو مركزاً من مراكز القوى الاجتماعيّة ، فالدين في نظره مقدس ، ولا يقبل التنازل في أي حق من حقوق الله ، ويصبح في أمور الدين كالمحارب الذي يدافع بكل وسيلة ، مهما كلفه ذلك من تضحيات .

وما زالت مدينة حلب تذكر مواقفه الشجاعة في وجه خصوم الدين الذين يسيئون لعقيدة الأمة وينتهكون حرمة الدين بكلمة أو عبارة أو موقف ، وكان

يعتبر نفسه في مواقف الدفاع عن الدين جندياً في معركة إلى أن يعود الحق إلى نصابه.

وما زلت أذكر حادثة وقعت في مدينة حلب في بداية الخمسينيات عندما تعرض صحافي بارز في مقالة نشرت في جريدة حلبية شهيرة للإسلام وأساء لعقيدة الأمة، وخرج الشيخ غاضباً لله في مسيرة باتجاه دار الحكومة وانضم إليها عشرات الآلاف من سكان حلب تأييداً لموقف الشيخ تطالب بمعاقبة ذلك الكاتب الذي أساء للدين.

العوامل المؤثرة في تكوين شخصيّة الشيخ:

لكل شخصية خصائصها الفكرية واختياراتها السلوكية وقيمها الذاتية، وهذه الخصائص تكون معالم الشخصية وتصوغ ملامحها العامة، وهذه الخصائص هي وليد مكونات ذاتية وتربوية وعوامل اجتماعية، وإذا أردنا استكشاف طبيعة الشخصية فلابد من دراسة المكونات المؤثرة في السلوك البشري.

وأهم العوامل المؤثرة في تكوين شخصية الشيخ رحمه الله ما يلي:

العامل الأول: الاستعداد الفطري:

وهذا العامل هو الأهم في تكوين الشخصية، وهو أمر لا يمكن إنكاره في التكوين وكما تخلق الأجسام مختلفة في ملامحها كالطول والقصر والنحافة والبدانية والجمال والقبح وملامح الوجه والجسد فإن النفوس تخلق مختلفة في استعداداتها، فالخلق (بفتح الخاء) يختلف عن الخلق (بضم الخاء)، فالخَلْق يرتبط بأشكال الجسم ولا يقبل التغيير، فالطويل لا يكون قصيراً والقصير لا يكون طويلاً، والقبيح لا يكون جميلاً، وبخلاف الخُلُق المرتبط بالنفس فيقبل التغيير والتبديل، فالبخيل يمكن أن يصبح كريماً بالتأديب والتعويد، والجبان قد يصبح شجاعاً بالتربية والتأهيل، وبعض الأفراد تستقيم طبائعهم بالجود الإلهي الذي يخص الله به بعض خلقه فتكون النفس مهيأة بحسب استعدادها للكمال، كمن خلقه الله على حالة من الكمال الخلقي، بحيث

يكون هواه منذ البداية متجهاً للاستقامة ، فلا يحب ما يتنافى مع الكمال ، وهذا هو الاستعداد الفطري المرتبط بنقاء الفطرة الأصلية التي يخلقها الله صافية محبة للاستقامة نفورة من الرذائل المسقبحة ، ثم يتجه المزاج الفطري بحسب المؤثرات الموجهة له ، نحو الاعتدال أو نحو التطرف ، فيعتاد الإنسان ما ترسخ لديه من خلال المحيط التربوي الذي يوجهه ويحدد له قيمه السلوكية .

والنفوس بحسب فطرتها مهيأة لاختيار سلوك الخير أو لاختيار سلوك الشر ، ثم يترجح الاختيار بالأثر التربوي والاجتماعي .

ومن المؤكد أنَّ الشيخ منذ طفولته الأولى كان يملك قابليات فطريّة وذاتية ترجح لديه سلوكيّات الاستقامة والالتزام بالقيم الدينيّة السليمة ، وهذا ما تشهد عليه سلوكيات طفولته وما كان يشعر به في أعماق ذاته من نفور من مجالس اللهو المعتادة لدى الشباب بتأثير الغرائز ، وقد دفعه هذا إلى التهرب من أصدقائه والبحث عن عالم يأنس به ويطمئن فيه وقد شرح الإمام الغزالي ظاهرة الاستقامة في السلوك بأنَّ ذلك يكون بأحد أمرين بالجود الإلهي الذي يجعل النفس تنقاد للحق والأخذ بأسباب الفضائل وأما بالمجاهدات والرياضات النفسية عن طريق حمل النفس على التخلق بالفضائل بقدر من التكلف في البداية إلى أن تتمكن في النفس .

إن مرحلة الحيرة والتردد التي سيطرت عليه في بداية شبابه هي نتيجة ذلك الصراع الداخلي بين محيطه الاجتماعي واستعدادته الفطرية ، فالمحيط يطوّقه بمغريات الشباب والمال والملذات . واستعداده ومزاجه يدفعانه نحو عالم جديد لا يعرفه وكان يبحث عنه ، ولكن لا يدري أين طريقه ووجهته .

العامل الثاني : الرياضات النفسيّة والمجاهدات :

وهذه الرياضات والمجاهدات التي رافقت رحلة الشيخ في المرحلة الأولى من حياته الروحية بدأت بعد أن اختار طريق التربية الصوفية واعتزل الناس لكي لا يشغل قلبه بقضاياهم ولا يضطر لمداراتهم ، ثم تعقبها الخلوة التي يشعر فيها بالإنس في خلوته ، وكان يأكل القليل من الطعام ويسهر الليل بالعبادة والأذكار وقراءة القرآن ، والغاية من كل ذلك إخماد القوة الغريزية والتحكم فيها

وإخضاعها لحكم الشرع ، ويلتزم في هذه المرحلة بحفظ آداب الشريعة والابتعاد عن مواطن الحرام ودرء الشبهات وحفظ الحواس من سماع ما يشغل القلب أو يعكر صفاءه ومحاسبة النفس على كلّ ما يصدر عنها من أفعال ، والتحكم في خواطر القلب لكيلا تأتيه الخواطر المذمومة ، وأن يلتزم بعهده مع الله تعالى في أداء حقوق الله .

وكان الشيخ طيب الله ثراه يتحدث كثيراً عن هذه المرحلة من حياته والتي دامت عدة سنوات ، وقد قضاها في ذلك الجامع المنعزل الهادىء البعيد عن الناس في الكلتاوية ، وكان رفيقه في مجاهداته النفسية صديقه الدكتور معروف الدواليبي الذي كان يشاركه حياة التقشف والمجاهدة قبل أن يسافر إلى فرنسا لمتابعة دراسته العليا .

وغاية الرياضة النفسية تحقيق طهارة القلب وتهذيب طبائع النفس والتغلب على قسوة القلوب بسبب ما تراكم عليها من حجب ، فالشهوات المسيطرة على الحواس تحجب النفوس عن التزام الفضائل ، وكلما سيطرت الرذائل تقلصت الفضائل ، وكلما التزمت النفس بالفضائل تراجعت الرذائل ، لأن الرذائل هي الأضداد الطبيعية للفضائل ، والرذائل موجودة في الحيوانات وهي أقوى فيها من الإنسان ، وما يميز الإنسان عن الحيوان هو التزامه بالفضائل ، ولا يمكن إخماد القوى الشهوانية في النفس كالرغبة في الأكل والشرب والجنس ، ولكن يمكن التحكم فيها والسيطرة عليها ، وإخماد تمردها ، وتتمثل الفضيلة في القوة الشهوانية في العفة والعفة تولد حسن المعاملة والألفة والصداقة والنزاهة وحب الخير للناس .

وعبر الأصفهاني في كتابه «الذريعة» في مجال حديثه عن أهمية المجاهدة النفسية أن خلافة الله تعالى في الأرض وعمارته لها لا يصلح لها إلا من كان طاهر النفس، ومن لم يكن طاهر النفس فلا يصلح لمهمة العمارة المرتبطة بالخلافة[1] .

وطهارة النفس لا تتحقق إلا بإصلاح القوى الثلاث للإنسان ، وهي القوة

---

(١) انظر الذريعة ص ٩٦ .

الفكرية ويميز بها بين الحق والباطل في الاعتقاد وبين الصدق والكذب في المقال ، والقوة الشهوانية وتصلح بها غرائز الإنسان وتطلعه للملذات فيتمكن من التحكم بها ، أما القوة الثالثة وهي الغضبية ويؤدي إصلاحها والتحكم بها إلى الحلم والتحكم في سلوكيات الغضب والحمية ، فلا يغضب إلا لله تعالى[1].

وكان الشيخ يرى في المجاهدة خيراً ويدعو إلى مجاهدة النفس ، ولا يجيز للداعية أن يتصدى للعمل الدعوي إلا بعد طهارة النفس بالمجاهدات ، لكي تصل كلمته إلى القلوب صافية نقية ، ويكون نصحه لله ، ولا مجال لحظ النفس فيما ينصح به الناس ، فالنفوس إذا تقابلت تصادمت ، أما من جاهد نفسه فإنه يتحكم في غرائزه ، فلا تبرز نزعته إلى الجاه والرياسة ، ولا يتعالى على الناس بسبب استقامته فيشعرهم بالمذلة والمهانة.

ولا شك أنَّ تلك المجاهدات النفسية أسهمت في صقل شخصية الشيخ وهذبت طبائعه وطهرت قلبه من أمراض القلوب ، وأهمها التحاسد والأطماع والأحقاد ، واستبدلت ذلك بصفات تميز بها واشتهرت شخصيته الذاتية بها ، وأهمها الألفة والتواضع والشكر والقناعة والزهد والأدب مع الله ومع الناس.

وحدد الإمام الغزالي غاية المجاهدة بما يلي :

أن يجد قلبه مع الله تعالى على الدوام ، ولا يمكن ذلك إلا بأن يخلو عن غيره ، ولا يخلو عن غيره إلا بطول المجاهدة ، فإذا حصل قلبه مع الله تعالى انكشف له جلال الحضرة الربانية وتجلى له الحق ، وظهر له من لطائف الله تعالى ما لا يجوز أن يوصف بل لا يحيط به الوصف أصلاً[2].

العامل الثالث : البيئة الاجتماعية :

ويشمل هذا العامل المحيط الاجتماعي الذي عاشه الشيخ في طفولته وشبابه الأول في المدينة والريف ، وتأثير القيم السائدة عليه ، وهذه القيم ترسخ في

---

(١) انظر الذريعة ص ١١٨.

(٢) انظر الأحياء ج٣ ص ٨٤.

النفس من خلال تأثير البيئة على الفرد ، ويتميز مجتمع الريف بخصائص معينة وقد تحدث ابن خلدون في مقدمته عن البداوة والحضارة وخصائص كل منهما في تكوين الإنسان ، واشاد بخصائص البداوة في مجالات الأخلاق والقيم ، وبخاصة فيما يتعلق بالسخاء والشجاعة والوفاء ، واعتبر البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر ، وسبب ذلك أنَّ أهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملذات وعوائد الترف والإقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها قد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر ، وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك ، حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في أحوالهم ، فتجد الكثير منهم يقذعون في أقوال الفحشاء في مجالسهم وبين كبرائهم وأهل محارمهم لا يصدهم عنه وازع الحشمة ، لما أخذتهم به عوائد السوء في التظاهر بالفواحش قولاً وعملاً[١] .

وكان الشيخ رحمه الله بالرغم من حياته في المدينة فقد كان الحي الذي عاش فيه في طفولته أقرب في قيمه وتقاليده وأخلاقه إلى حياة الريف ، من حيث تماسك أسره من خلال انتماءات عشائريّة واضحة وتقاليد مسيطرة في المدافعة والمغالبة والحميّة وطبائع البأس والاعتزاز بقيم الشجاعة والكرم والشرف ، ومدينة حلب ما زالت محتفظة بقيمها الأخلاقية العاليّة ، وبخاصة فيما يتعلق بقيم الشرف والمروءة والتماسك الأسري والاعتزاز بالفضائل .

ومن المؤكد أن الشيخ قد تأثر بهذه القيم ، وكانت واضحة في سلوكه وآرائه ومواقفه وكان يعتز بها ويدعو إلى التمسك بقيم الشجاعة والمروءة والشرف والفضيلة والترفع عن الصغائر والوفاء والتراحم ، وفي الوقت ذاته كان يدين القيم الخاطئة المتمثلة في العصبية والحمية وعادات الثأر وسلوكيات العنف والتناصر القبلي وتجاهل الحقوق الإنسانية للمرأة وأكل أموال الأيتام والضعفاء بالباطل ، والقسوة في العلاقات الإنسانية والتنابذ بالألقاب واستعمال الألفاظ غير اللائقة في الخصومات والمشاحنات .

---

(١) انظر مقدمة ابن خلدون ص ١٢٥ .

وكان يمدح قيم الريف الأخلاقية ويشيد بترفع أهل الريف في مواطن المخاصمات ، وكان ينكر قيم أهل الحضر وسكان المدن الذين تسيطر عليهم الأنانية ، فيغلقون أبوابهم في وجه الفقراء والمستضعفين ، ولا يتزاورون في الأتراح ، ولا يحمل القوي منهم الضعيف ، ولا يفتح الغني بيته للمحتاجين ، ويتجاهلون حقوق ذوي الأرحام عليهم ، ولا يبرون آباءهم وأمهاتهم .

ومن أوضح آثار هذه القيم على سلوكه وفكره اعتزازه الكبير بقيم الشرف ، والغيرة على سمعة المرأة ، والحرص على تربيتها ، وعدم التساهل في أي أمر يمس الشرف والمروءة ، والمرأة في نظره يجب أن تظل نقية السمعة طاهرة السلوك ، لا تخرج من بيتها إلا لحاجة ولا تخالط الرجال ، ولا تقترب من مجالسهم وأن تكون في أعلى درجات الحشمة في ملابسها وفي سلوكها وفي نبرات صوتها ، ويضيق بأي تساهل في هذا الأمر ، ويغضب لذلك أشد الغضب .

وفي الوقت نفسه كان يحب صفة الرجولة في الرجال ، ويضيق بالرجال الذين لا يعتزون برجولتهم ، ويرى أن الفروسية هي رجولة ومروءة وقيم عالية ، وكان يحب ركوب الخيول الأصيلة ويقتني بعضها ، ويتحدث في مجالسه عن أخلاق الفرسان ، ويشبه الرجل بالفارس والمرأة بالفرس الأصيل التي تعجب بالفارس الذي يحسن ترويضها والإمساك بمقودها ، فإذا فشل في ترويضها رمته أرضاً وتخطته بحثاً عن فارس متمكن يرضي كبريائها .

ومن الواضح أن العوامل المؤثرة في تكوين شخصيته سواء منها ما كان ناتجاً عن تكوينه الذاتي أو مجاهداته النفسيّة أو القيم الأخلاقيّة التي ورثها من بيئته الخارجية قد أسهمت بقدر متفاوت في تكوين ملامح شخصيته ، والاستعدادات الذاتية هي الركيزة الأهم في هذه المعادلة لأنها الأساس التي يقوم عليها البناء كله ، وهو تطلعه الذاتي للكمالات وحبه للفضائل وتعلقه بقيم أخلاقية عالية ، وكثيراً ما كان يردد في مجالسه العبارات التي تؤكد هذا التعلق بالمعالي ، ويقول ذلك البيت الشهير :

ومنذ كنت طفلاً فالمعالي تطلبي   وتأنف نفسي كل ما هو واضع

ولي همة كانت وها هي لم تزل علـي أنَّ لـي فـوق الطبـاق صـوامـع

ولـم تكن المعالي التي يتطلع إليها هي المكانة الاجتماعية أو الطموح المالي أو الجاه أو الزعامة ، فقد كان واضح الزهد في هذه المعاني ، وإنما يقصد المعالي التي تجسد الكمال الإنساني .

والراغب الأصفهاني على حق في حديثه عن الفضائل الإنسانية ، وأن جميع الفضائل على ضربين ، نظري وعملي ، وكل ضرب منهما يحصل على وجهين[1] :

أحدهما : عن طريق التعلم ويحتاج فيه إلى زمان وتدرب وممارسة ويتقوى الإنسان فيه درجة بدرجة ، وإنَّ كان بعض الناس يكفيه أدنى درجة ومنهم من يحتاج إلى زيادة ممارسة وذلك بحسب اختلاف الطبائع في الذكاء والبلادة .

وثانيهما : يحصل بفضل إلهي ، كمن يولد وهو صادق اللهجة وسخياً وجريئاً وآخر على عكس ذلك ، وقد يكون بالتعلم والعادة .

وهذا المعنى نفسه ذكره الإمام الغزالي في بحثه عن حسن الخلق ، وأن حسن الخلق يرجع إلى اعتدال قوة العقل وكمال الحكمة وإلى اعتدال قوة الغضب والشهوة وكونها للعقل مطيعة وللشرع أيضاً ، وهذا الاعتدال يحصل على وجهين[2] :

أحدهما : بجود إلهي وكمال فطري بحيث يخلق الإنسان ويولد كامل العقل حسن الخلق قد كفي سلطان الشهوة والغضب .

والوجه الثاني : اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة واعني به حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب .

الانسجام بين الشخصية والفكر :

أبرز ما يلاحظه الإنسان على الشيخ رحمه الله هو ذلك الإنسجام العجيب

---

(١) انظر الذريعة ص ١٢٤ .

(٢) انظر الإحياء ج٣ ص ٦٣ .

بين شخصيته وفكره ، ولا يمكن أن تفهم أفكاره إلا في إطار فهم شخصيته الذاتية ، ففكره هو ثمرة من ثمار شخصيته ، وكان يركز في أحاديثه على دور الشخصية في تكوين الفكر ، فالشخصية المتوازنة المتماسكة تولد فكراً متوازناً ومنسجماً لأن الشخصية هي منتجة الفكر وهي حاملة له .

ولا يمكن للفكر وحده أن ينهض إلا بوجود شخصية حاملة له مبشرة به من خلال رقيها وانسجامها وتوازن خصالها ، فالشجاعة ليست صفة خارجة عن نطاق الإنسان ، فالإنسان هو الذي يجسد هذه الصفة من خلال سلوكه ، ولا يمكن أن يتحدث عن الشجاعة إلا من كان شجاعاً ، ولا يمكن أن يصف السخاء إلا من كان سخياً ولا يمكن أن يدرك معنى الحكمة إلا من كان حكيماً وفاقد الشيء لا يعطيه للآخر ولا يقنع به.

والعلم لا يثمر العمل إلا إذا كانت النفس مستعدة لذلك ، فالاستقامة ثمرة ليست للعلم وإنما حبّ الذات لصفة الكمال ، فمن الكمال أحب الاستقامة ، ومن كان عاجزاً عن بلوغ الكمال فلا يمكنه أن يتعلق بالاستقامة ، لأن الاستقامة هي تعلق بالكمال ، ومن هذا المنطلق فقد كان يحرص على اختيار طلاب العلم من محبي الكمال وممن يتفهمون معنى الكمال ، فإذا أعطي العلم لغير أهله فسرعان ما يساء استخدامه ، فصغار النفوس لا يستطيعون حماية كرامة العلم ، وقد يستخدمون العلم للارتزاق به أو للتقرب به إلى الحكام أو للتزلف به إلى الأغنياء ، فيكون العلم مطية لشيء مذموم ، بخلاف أهل الكمال فأن حبهم للكمال يدفعهم للترفع عن صغائر الأمور ، فترتفع مكانة العلم في النفوس. فالعلم إذن يحتاج إلى من يحميه .

وكثيراً ما كان ينقد العلماء الذين يذلون علمهم باستخدامه كمطية لتحقيق مطامح دنيوية ، كالتقرب من الحكام أو لتبرير أخطاء الموسرين ، طمعاً في جاه أو منزلة اجتماعية ، ولذلك فلا ينهض بالعلم إلا من تعلق قلبه بالكمال ، وحبه للكمال يدفعه للتمسك به ، فيكون العالم رمزاً للكمال ومدافعاً عن الحق .

والكامل من الرجال يقود ولا يقاد ، فإذا تعلم العلم من أحب الكمال كان سبباً في هداية المجتمع إلى الحق والرشد ، لأنه يكره النقصان ، والعلم ينهض

برموز الكمال فيصقل شخصيتهم ويرتقي بمستوى تصورهم ، فإذا تعلم العلم سفهاء الناس من أهل الطمع والحسد والنفاق استخدموا علمهم للإساءة للآخرين ، فسقطت بذلك مكانة العلماء في المجتمع .

ومهمة المربي أن يصقل المواهب الذاتية وينميها لكي تكون في المستوى الأفضل ، ولا يمكن للمربي أن يوجد صفة من عدم ، فضعفاء الشخصية لا ينهض العلم بضعفهم ولأن عضلاتهم في أساسها ضامرة لا تقبل التنمية ولابد من البحث عن رموز الكمال في المجتمع ممن يحبون الكمال ويتعشقون الكمال فهؤلاء تنفعهم التربية وتتنهض بأمرهم ، وتصحح الهم مسارهم وتنمي فيها القدرات الذاتية .

كان الشيخ كثيراً ما يتحدث عن هذا المعنى ، ويحب الكمال ويحب كل من يحب الكمال ولو كان منحرفاً في سلوكه ، لأن حبه للكمال سرعان ما يدفعه للترفع عن الصغائر والالتزام بالحق والرضوخ له ، ولا يرضخ للحق إلا من كان محباً للحق ، ولا يخاصم للدفاع عن الباطل إلا من كان من الجهلة .

كان الشيخ يحب الكمال ويحب كل من وجد فيه صفة الكمال ولو كان مخالفاً له في الرأي ، ويحترم رموز الكمال والاستقامة ، كان يحب من توفرت فيهم صفات الرجولة ، والسخاء والعفة والحكمة والتواضع والانصياع للحق ، ويشيد بهم ، ويكره من وجد فيه صفة الجبن والجهل والتردد والكبر والعجب والبخل والحقد والحسد ، لأن هؤلاء لو أحبوا الكمال لما تخلقوا بالأخلاق المذمومة ، فالخلق المذموم مرفوض لذاته ، وهو صفة قبيحة ، والقبح في المحرمات ذاتي لأنه منافٍ للطبع والفطرة .

ولا يمكن للشرع الحكيم أن يقر نقصاً أو يحرم كمالاً ، كما لا يمكنه أن يمنع مصلحة للبشر ، والنفس تدرك بفطرتها من غير تكلف ما هو ناقص وما هو مذموم من الصفات ، فإذا أحبت النفس صفة ناقصة فهذا دليل على مزاج مرضي خاطىء تكرس في النفس بسبب اعتياد الأفعال المذمومة .

وكان يردد أن الأصل في النفس أنها تحب النور وتكره الظلمة ، والفطرة

خلقت بيضاء نقية صافية ، فإذا أحبت الفطرة الأشياء القبيحة فهذا دليل على خلل في الفطرة ومزاج خاطىء ومنحرف .

ومن اليسير ملاحظة ذلك الانسجام الكبير بين فكر الشيخ وشخصيته ، فقد كانت شخصيته تمثل فكره ، وما كان يدعو إليه كان يحبه ويدافع عنه ويلتزم به ويعتبره خلقاً له ولعل هذه الملاحظة هي الأهم في شخصية الشيخ وفي فكره ، فقد كان خلقه اليومي هو فكره الذي يدعو إليه ، وكان يكره من يفصل بين فكره وسلوكه ، ويعتبر ذلك من مواطن الضعف في الدعاة والمربين ، إذ لا يمكن للمربي أن يكون سلوكه نقيضاً لفكره ولما يدعو إليه .

القدرة على التواصل مع الآخر :

كانت شخصية الشيخ متميزة بخصال رفيعة ، سواء على مستوى الخصال الذاتية أو على مستوى علاقته مع الآخر ، كان الآخر بالنسبة له محترماً مهما كان الخلاف معه ، سواء على مستوى القيم أو على مستوى الأفكار ، فلم يكن يفرض على الآخر رأيه أو فكره أو منهجه ، بل كان يبحث عن القواسم المشتركة التي تجمعه به وهي القواسم الإنسانية .

وقلما كان يصطدم مع الآخر في حوار ، كانت وسيلته البيان وليس الجدال ، ولم يكن يحب الجدال ، بل كان يكره ذلك ، فإذا وجد من الآخر رغبة في الجدال أعرض عنه ، وهذا هو الحد الأقصى الذي كان يلجأ إليه لإيقاف الجدال .

أحياناً كان يجتمع مع مخالفين له في الفكر ، سواء كانوا من دين آخر أو من مدرسة فكرية مختلفة أو كانوا غير مؤمنين ، ولم يكن يحدثهم من منطلق يرفضونه ، وإنما كان يحاورهم بحكمة وهدوء من خلال تلك القواسم المشتركة الفكرية التي تجسد معاني الكمال والاستقامة .

لم يضق يوماً بحوار مع الآخر ، وإنما كان يضيق بالتزمت وعدم الرضوخ للحق ، ويصف من يرفض الحق بالجهل المطبق الذي يدل على ضيق في الأفق وضعف في الفهم .

وأهم خصاله مايلي :

أولاً : التفتح في الأفكار :

التفتح صفة تجسد القدرة على التواصل مع الآخر الذي يخالفك في الرأي ، والتواصل دليل على احترام الآخر ، ولولا ذلك الاحترام للآخر لما تحقق التواصل.

قد يظن بعضهم أن التفتح على الآخرين دليل على عدم التزام الإنسان بفكره الذاتي الذي يؤمن به ، وهذا خطأ كبير ، فالتفتح ليس نقيض الالتزام ، وإنما هو نقيض التزمت والجهل ، فالتزمت هو رفض للآخر وعدم القدرة على التواصل معه ، وهو دليل على ضيق الأفق ، فالمتزمت يرفض الآخر لأنه يخالفه في الرأي ، ولا يمكن أن يوصف التزمت بالفضيلة والتزمت لا يعني الورع والالتزام وإنما يعني ضيق الأفق.

ولا يمكن أن يوصف التفتح على الآخر بالضعف وقلة الالتزام ، فلا علاقة بين الالتزام والتزمت ، فالمتزمت رجل تنقصه المرونة في المواقف ، فلا يحتمل الآخر ، وبالتالي فإنه قد يرفض الحق إذا ظهر له على يد الآخر.

كان الشيخ معروفاً بقدرته على التواصل مع الآخرين ، على مستوى الصلات الشخصية أو على مستوى المواقف ، فلا يضيق بالآخر إلا إذا ظهر منه ما يدل على قلة الأدب في لهجته أو في عبارته أو في مجلسه ، فلم يكن يحتمل قلة الأدب ، لأن ذلك لا يليق بالإنسان ويعتبر قلة الأدب من ضعف التهذيب وقلة العقل وسيطرة الجهل.

ولم يكن الشيخ يوجه النصح للآخرين بطريقة مباشرة ، احتراماً لخصوصيات الآخرين فيما اختاروه لأنفسهم.

فإذا حضر مجلس من كان غير ملتزم بأداء الواجبات الدينية أو كان معروفاً بالفسق تجاهل ذلك ، ووجه كلامه إليه بكل عناية وأدب ، وشرح له حقائق الدين وما يدعو إليه من التحقق بصفات الكمال والابتعاد عن كل الأوصاف المذمومة ، ولم يشعر ذلك الرجل بالتقصير والذنب ، لأنَّ مهمة المرشد هي أن

يرتفع به من حيث هو إلى ما يجب أن يكون عليه من استقامة وهداية ، ولو أشعره بالذنب والتقصير لتوقف التواصل وأخفقت مهمة المرشد في الأخذ بيد المقصرين .

ثانياً : الترفع عن الصغائر :

اشتهر الشيخ رحمه الله بترفعه عن صغائر الأمور ، فلا يلتفت إلى ما لا يليق من المواقف ، ولا يرضى لنفسه أن تصدر عنه كلمة نابيّة بحق ، ولو كان عدواً له ، ولا ينتقم ولا يحقد ، لأنه يرى ذلك لا يليق بالرجال .

كان يقول في مجالسه بأنَّ الإنسان عليه ألا يرضى أن تصدر عنه الأفعال المذمومة ، لا لأنها تدخل ضمن الحرام ، ولكن لأن الإنسان يجب ألاّ تصدر عنه الأفعال الناقصة والمذمومة ، ومن أحب الكمال تعلق به ولا يرضى ما دونه من أنواع السلوك .

لم ينتقم الشيخ قط ممن أساء إليه ، وكان يحسن لمن أساء إليه ، ويكرر الإحسان ، ويقابل الإساءة بالإحسان إلى أن يغلب إحسانه على الإساءة ، فينقلب العدو صديقاً ويصبح البعيد قريباً ، ولم يكن في ذلك الخلق متكلفاً ، بل كان يصدر هذا الخلق عنه بصفة راسخة ودائمة وتلقائيّة ومن غير بذل جهد وتكلف ، ويقول بأن النفس يجب أن يصدر عليها ما يليق بها من فعل الكمال ، فإذا قابل الإنسان الإساءة بمثلها انتفى التميز ، ولا فضل لأحد على آخر لأنَّ كلا منهما صدر عنه من الأفعال ما ينافي الكمال ، فلا يحق للمسيء أن يدعي الكمال وقد رضي أن يصدر عنه الفعل الناقص .

وقد كان من عادة الشيخ أنه لا يتلفت لما يقال عنه من مدح أو ذم ، ويعلل ذلك بأنه أعرف الناس بذاته ، فالمادح يقول ما يرى من الأفعال المحمودة ، والذام يذم ما يعتقده نقصاً ، وهو معذور في ذمه ، ولو عرف الحقيقة وكان منصفاً لتغير رأيه ، فالمادح معذور والذام معذور ، وكلّ منهما يصف ما يرى ، وعليهما أن يبحثا عن الحق ، والجاهل يفرح بالمدح ولو كان المادح كاذباً ، وكأنه يكذب على نفسه بصفة ليست فيه .

كان يلتمس العذر لخصومه وأعدائه ، لأنهم يذمّون ما يعتقدون أنه خطأ ، ولو عرفوا الحقيقة لما كانوا ذامِّين ، ويمكن التغلب على الخصومات الناتجة عن الجهل بمعرفة الحقيقة ، ولكن لا يمكن التغلب على الخصومات الناتجة عن الحسد والحقد ، فهذه أمراض نفسية تجعل صاحبها أسير غشاوة مظلمة تمنعه من رؤية الألوان على حقيقتها ، ولابد من إزالة هذه الغشاوة بتزكية النفس وطهارة القلب ، لكي يبتعد الإنسان عن الصفات المذمومة التي تبعده عن الحق والنور والهداية .

ولم يكن في مجالس الشيخ ذلك الهمس المذموم عن الآخرين ، وكان يكره الغمز واللمز والحديث الهامس بالغيبة والنميمة ، وكأنه لا وجود للآخرين في مجالسه تعففاً عن الإساءة لأحد ، ويعتقد أن انشغال القلب بهذه الأمور الصغيرة دليل على الغفلة والظلمة ، فالقلوب تتكدر بما يدخل إليها عن طريق السمع والبصر ، وأفضل طريق لصفائها ألا تشغل نفسها ويعكر صفو الأمزجة بالأحقاد ومشاعر البغضاء .

ثالثاً : علو همته :

كان الشيخ عالي الهمة في اهتماماته وفي سلوكه وفي انشغالاته ، كان يشغل نفسه بهموم الآخرين من الضعفاء والمرضى والمسنين ، ولكنه لم يشغل نفسه بقضاياهم المادية ولا باهتماماتهم الدنيوية ، فذلك أمر خاص بهم ، ولا يليق الانشغال بالدنيا في مجالس المذاكرة والتربية ، فهذه مجالس غايتها التحليق في فضاءات روحية سامية ، لكي تتحرر النفوس من تعلقاتها الدنيوية التي تكدر صفاء القلوب بمرغوبات مادية .

كانت يده هي اليد العليا التي تعطي ولا تأخذ ، فكان الأكثر سخاءً وعطاءً ، ولا حدود لسخائه ، لا على نفسه ولكن على الآخرين المحتاجين ، فلم يكن يضيق بحاجاتهم أبداً ولو استدان من غيره ، ويكتفي لنفسه بالقليل الذي تدعو إليه الحاجة .

وقد أرهق نفسه بهذه الصفة ، وتحمل الأعباء الثقيلة ، ولم ينسب لنفسه

شيئاً مما كان يفعل ، ويعتقد أن الله تعالى أكرمه لكي يكون أداة للعطاء ، وما هي إلا أموالهم ردت إليهم.

كل ذلك كان يفعله بغير تكلف ولا منّة ، ولا يهمه إن علم الخلق بذلك أم لم يعلموا ، إذ كان عمله لله تعالى خالصاً لا رياء فيه ، ولا استجلاباً لمحبة الآخرين ، وإنما هي صفات راسخة في النفس تصدر عنها أفعال الفضائل من غير تكلف ولا روية.

وأكثر ما كان يؤلمه أن يجد فقيراً محتاجاً ولا يستطيع إعطاءه أو مريضاً متألماً ولا يستطيع إسعافه أو طفلاً باكياً ولا يستطيع إيقاف دموعه ، كان هؤلاء هم الأحبّ إليه والذين تشغله همومهم وتؤلمه أحزانهم ، فقد كان قلبه يتسع لهم ويحنو عليهم ، بالمساعدة والكلمة والابتسامة.

كان كبيراً في مواقفه واسع الصدر صادق اللهجة لم يخاصم عدواً وإن خوصم ، ولم يرد بإساءة ولو أسيء إليه ، ويلتمس العذر لكل من خاصمه ، ويمد يده لكل من عاداه ، ويحسن لكل الناس ولو لم يعرفهم ، ولم يشعر أحداً بأنه الأفضل والأتقى والأورع والأعبد ، ويحذر من خطورة التعالي على مرتكبي الخطايا الغارقين في مستنقعات الانحراف ، ويدعو لهم ويطلب الأخذ بيدهم ومساعدتهم على التخلص مما هم فيه بالتشجيع والأمل والنصيحة الصادقة المخلصة التي لا غرور فيها ولا استعلاء.

كانت همته عالية في مرحلتي المجاهدة والإرشاد ، كما كانت همته عالية في مرحلتي الطفولة والشيخوخة ، ويحض على أن تكون الهمة عالية بالنسبة لكل إخوانه ، لأن علو الهمة من الإيمان ، ولا يبلغ القمة المرجوة إلا من كان عالي الهمة ، ويعجبه أصحاب الهمم العالية ، ولو انصرفت همتهم إلى الأمور الدنيوية ، فصاحب الهمة العالية يريد أن يكون الأفضل بين زملائه في طفولته وبين رفاقه في المدرسة وفي دراسته وتجارته وعمله ، وكان يضيق بضعاف الهمة.

ولا حدود للآثار الإيجابية لعلو الهمة في تكوين الإنسان ، فهي مفتاح الشخصية القوية المؤثرة المتطلعة إلى الأفضل ، وعلو الهمة يتمثل في التطلع

إلى الكمال في كل شيء ، ولا يرضى ما دون الكمال ، ويؤلمه أن تنسب إليه صفات تتنافى مع علو الهمة .

وأصحاب الهمم العالية لا يحنون رؤوسهم طمعاً في المكاسب الدنيوية ، ولا يتملقون الأقوياء لكسب مادي أو معنوي ، وهم سادة حيثما كانوا ، في بيوتهم منعزلين أو في مجتمعاتهم ومناصبهم مقيمين ، والعلماء هم رموز الهمة العالية ، لأنه حملة رسالة ، فإن انحدرت همتهم كانوا عبيداً لمطامعهم ، يستذلهم الكبار ويحتقرهم الصغار ، وليس بهذا ينهض العلم ، وليس بهذا ترتفع مكانة العلماء في المجتمع .

كان الشيخ يحضّ طلاب العلم من إخوانه على أن يكونوا من أصحاب الهمم العالية لكي يكونوا سادة في مجتمعهم ، كما كان ينصح التجار أن يكونوا من أصحاب الهمم العالية ، فلا تذلهم أموالهم طمعاً في الاستزادة منها ، وكان يعجبه في الأطفال أصحاب الهمم العالية الذين يرفعون رؤوسهم فلا يخافون ويتطلعون إلى الأفضل في حياتهم .

* * *




الفصل الثاني

عمل الشيخ وكسبه

- تقاليد الأسرة
- الرزق والعمل
- موقف الشيخ من العمل
- أعماله في الفلاحة
- قرية الجابرية
- حياته في الجابرية
- علاقته بالفلاحين
- أهمية العمل الجماعي
- توجيهاته في العمل
- قرية الكيصومة
- قرية التويم
- الاهتمام بأبناء الريف
- مكانة التويم في قلبه
- دروس من القرية
- التويم مدرسة تربوية
- نتائج عمله في الزراعة
- الثروة الباقية




الفصل الثاني

العمل والكسب

كانت تقاليد العائلات الكبيرة أن تعيش الأسرة كلها في كنف الأب ، وألا ينفصل أحد من الأبناء عن الأب لا في داره ولا في عمله ، فدار الأب هي دار لجميع أبنائه ولو تزوجوا وأنجبوا ، وعمله هو عمل للجميع يساعده أبناؤه فيه ، ويبقى مال الأسرة واحداً ، لا يوزع ولا يقسم ، يأخذ كل ابن ما يحتاجه لحاجاته وحاجات وأسرته .

لم يكن الشيخ ليخرج عن هذه التقاليد وهو البار بوالده ، الأولى باحترام ما يريده الأب وما يسعده ، كان الأب يعمل في الزراعة والتجارة ، وله خان معروف باسمه ، وكروم للفستق وأملاك متفرقة .

ربما شعر الشيخ أن حريته في اختيار عمل مستقل له لا يسعد والده ، ولم تكن له حريّة مطلقة في الإنفاق من مال أبيه على مساعدة من يحتاجونه ، ولم تكن أخلاقياته تسمح له أن يتعامل كالآخرين في مجال العمل ، وما يتطلبه ذلك من ومجادلة ومشاحنة .

ولم ينفرد بعمل من أعمال الكسب عن أبيه ، وكانت له ديون عند آخرين ربما كان يتعامل معهم أو بسبب قرض لم يطالبهم به ، انطلاقاً من خلقه المتميز بالسماحة في حقوقه وهذه صفة استمرت ملازمة له في حياته كلها ، فكان يخجل أن يطلب حقاً من حقوقه أو يستعيد ديناً له في ذمة الآخرين ، ولم أسمعه يوماً يشكو من أحد بسبب دين له عليه ، أو يتحدث عنه بما يكره .

الرزق والعمل :

كانت قضية العمل منفصلة كلياً في ذهنه عن قضية الرزق ، ولم يتحدث قط عن الرزق في موطن حديثه عن العمل ، فالرزق من أمر الله ، الذي يرزق من يشاء بغير حساب ، والله هو الرازق لعباده وأن الرزق محسوم أمره ومقدر منذ الأزل ، ولا يجدر بالعبد أن يشغل نفسه بأمر الرزق وكان يردد الآيات القرآنية :

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٢ ـ ٣] .

﴿ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [البقرة : ٢١٢] .

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة : ٣] .

والآيات القرآنية واضحة الدلالة على أنَّ الله تعالى ضمن رزق عباده تطميناً لقلوبهم ، وربط الرزق بالأسباب لحثهم على العمل والكسب ، والرزق مقسوم منذ الأزل والعمل مطلوب لذاته وهو عبادة ، ولا ينبغي للعبد أن يشغل قلبه بأمر الرزق المضمون له والذي تكفل الله به ، وهذا لا يمنعه من السعي المحمود في الدنيا ، لأنَّ أمر الدنيا لا يستقيم إلا بالعمل والإنتاج والسعي فيها بما يؤدّي إلى عمارتها .

والعبد مطالب بحسن الأدب مع الله في طلب الرزق ، تعبيراً عن معنى العبدية لله تعالى ، والإلتجاء إليه ومناجاته والإجمال في الطلب بما يستدعيه حسن الأدب، فالله تعالى هو الأعلم بما يحتاج إليه العبد وما يكفيه وما تستدعيه الحكمة من توقيت الإجابة ، والله الذي تكفل برزق الطيور ودواب الأرض في الصخور والغابات والصحارى قادر على أن يرزق الإنسان ما يكفيه لاستمرار حياته ، وأن يعطيه ما يغنيه بشرط ألا يهتز يقينه بالله وألا يضعف إيمانه برزق الله له وألا يشغل قلبه بهذا الرزق ، وألا يشعر بالخوف من انقطاع الزرق ، فالتوكل على الله في قضايا الرزق أمر مطلوب وأدب مستحب ومندوب إليه ، ومن انصرف إلى ربه وانشغل بما أمره به من الطاعات وخدمة خلق الله فالله يتولى رزقه وكفايته .

ولم يتكلم عن الرزق والكسب بما اعتاد الناس أن يتكلموا بمثله ، ولم يشغله هذا الأمر مهما ادلهمت الأحوال وساءت ، ولم يتحدث عن غد إطلاقاً ، فكلمة المستقبل غير مستحبة في نظره يضيق عند سماعها ، ويتبرم من ترديدها ، وكأنها تصدم سمعه.

قضية الرزق كانت خارجة عن نطاق اهتمامه وتفكيره ، وكان يتحدث عن أغنياء شكوا إليه أمرهم ، وانهم يصابون بالذعر والخوف وينتابهم المرض والذهول وتشحب وجوههم لمجرد خاطر يخطر ببالهم أن يذهب مالهم ويصبحوا فقراء ، كان يعتبر ذلك من ضعف الإيمان بالله وعدم التوكل عليه ، ولو استنارت قلوب هؤلاء لأوكلوا أمرهم إلى خالقهم المتولي لأمرهم ، وسوف يتولاهم كما يتولى باقي خلقه ، وعاشوا سعداء لا أشقياء ، مطمئنين لا خائفين ولا وجلين ولا متهيبين.

كان يندد بأصحاب التدبير الذين يخططون ويدبرون ويرسمون لمستقبلهم ولا يؤمنون بأن المستقبل بيد الله وهو الذي يدبر أمره لخلقه ، والتدبير مع الله هو الجهل بعينه ، وما لهؤلاء المدبرين مع الله لا يفقهون معنى أن يتولى الله تدبير شؤونهم ثم يسلمون ذلك إلى ربهم.

لم أسمعه قط يتكلم عن مستقبل أسرته وأولاده ، لم يفكر قط في شراء دار لاستقراره أو لادخار مال لأجل أولاده ، أو لحسابات الربح والخسارة في أعماله. . . كان كل ذلك خارجاً عن نطاق تفكيره ، وكأنه لا شيء يشغله من أمور الدنيا.

رآني يوماً شارداً مهموماً وكنت في السادسة عشرة من عمري ، سألني عما أفكر فيه فقلت له :

ـ أفكر في مستقبلي وأخطط له.

أجابني بأسف وبلهجة حانيّة ودودة :

(لا يا ولدي. . لا تقل هذا ثانية. المستقبل بيد الله ، إن كنت صالحاً فسوف يتولى الله أمرك بالرعاية والتوفيق والسداد).

ما زال أثر تلك الكلمات القليلة التي لم أفهمها يومها ولم تصل إلى قلبي يوقظني في كل موقف من حياتي ، يعيد إلي الأمل والابتسامة في لحظات الإحباط والقنوط ، استعيد بها ثقتي بالله ، وأجد فيها البلسم الشافي الذي يمدني بالقوة والنشاط ، ما أجمل أن يشعر العبد بأن الله يتولى أمره ويرعى شؤونه ، إنه شعور بالقوة الذاتية ، إنه سلاح يقاوم به العبد ذلك الشعور العميق من الخوف الدفين في أعماق الذات الإنسانية .

موقف الشيخ من العمل :

العمل عبادة وهو أمر واجب ، أمر الله به عباده ، ولا مكان للكسل والتواكل والاعتماد على الغير في حياته ، كان قمة في النشاط لا يفتر أبداً ، ولا يتهيب من العمل أبداً ، وكأنه رسالة ، لم يكن يحسب الأمور بمعايير الربح والخسارة ، وإنما يحسبها بمعايير العمل النافع والضار ، فما ينفع الخلق فهو عمل مفيد ويجب عمله ، وما يضرهم فيجب الابتعاد عنه .

كان قلبه قوياً في العمل يقتحم كل الصعاب بغير تردد ، لا يفكر في حسابات الخسارة ، فما يجب من الأعمال يقوم به من غير تردد ، يدخل إلى الأرض المقفرة ، أرض الموات ، الأراضي الجافة التي لا ماء فيها ولا شجر ، فيحيلها بعد فترة من الزمن إلى جنات تجري فيها المياه من أقصاها إلى أدناها ، وكأنها أنهار ، ويزرع الأرض بالأشجار فتصبح بعد فترة بساتين مخضرة مزروعة بأنواع الفواكه والخضار ، ويحفر الآبار في أعماق الأرض فتخرج مياهها العذبة التي تجري في مزارعه ، فتحيي أرض الموات وتعمرها ويفرح وهو يراها كذلك ، ويمشي في حقولها سعيداً بما سعى إليه من عمران هذه الأراضي .

لست مبالغاً فيما أقول ، وأعرف أن إخوانه وأصدقاءه سيقرؤون ما اكتب ، ويعرفون جيداً أن ما أسجله هو القليل مما كان يفعل ، كانت ورشات العمل التي يبنيها كلها بإرادته وتوجيهه تعمل ليل نهار ولا تتوقف ، وعندما كانت كوارث الطبيعة كالفيضان تهدم ما بناه في الأرض من مظاهر العمارة ، يعيد البناء ، وكأنه لا شيء حصل ، فالعمل عبادة دائمة ومستمرة .

لم أجده يوماً في حالة يأس وإحباط ، وإنما كان في حالة ابتسامة دائمة وأمل بالله كبير ، كان القوة التي يشعر الجميع بها ، ويستمدون منه الشجاعة والثبات والمثابرة.

ونقطة القوة لديه هو الإيمان بالله والتوكل عليه والله هو الرازق ، وأما العمل فهو عبادة دائمة ، لا يرتبط بالربح والخسارة ، وإنما هو مسيرة مستمرة لا تتوقف ، لإحياء الأرض ، ولعل هذا هو السبب أنه لم يكن يحب التجارة والصناعة وإنما كان يحب الزراعة لأجل الأرض كي تكون جميلة ومزهرة وخضراء.

في بداية أمره وقبل أن يشتغل بالزراعة ، كانت باحة جامع الكلتاوية القديم حديقة رائعة تضم أجمل غرسات الورود والزهور ذات الأشكال والألوان المختلفة ، وتتوسطها بركتان واسعتان تخرج الماء منهما في أشكال هندسية رائعة ، ويشرف بنفسه على تقليم تلك الأغصان وتشذيبها ، ويمسك بمقصه ليقطع اليابس منها ويعيد المتطاول منها إلى فضائه الخاص به ، وتعقد جلساته الروحية وسط تلك الحدائق الغناء التي شهدها الجيل الأول من إخوانه ، وكنت لم أتجاوز السابعة من عمري ، كنت أرى وأشهد مجالسه الأولى بعد صلاة العصر يوم الجمعة حيث تفرش السجاجيد العجمية والفرش الأنيقة ، وتدار كؤوس الشاي على الحاضرين الذي يتحلقون حوله في دائرة واسعة ، يحضرها العشرات من إخوانه.

قرية الجابرية :

كانت قرية الجابرية هي المشهد الأول الذي ما أزال أذكره ، وما قبله لا أذكره ، كنت صغيراً ، والجابرية هي التي شهدت طفولتي الأولى ، واستمرت لمدة خمس سنوات تقريباً.

تقع الجابرية في الجهة الجنوبية من مدينة حلب على مسافة ساعتين مشياً على الأقدام ، عشرة كيلو مترات عن المدينة ، ويبتدىء الطريق إليها من حي الأصيلة وباب المقام وجامع الصالحين على مشارف المدينة ، ثم يبتدىء

الطريق الزراعي غير المعبد ماراً بقرية أم سعيد التي تتوسط المسافة ، ثم يصل المسافر إلى التل المشرف على عين مبارك ، حيث تقع قرية الجابرية الصغيرة قبل قرية الوضيحي.

وتقع القرية في أرض منبسطة واسعة لا أشجار فيها ، وهي الأرض البعلية التي تزرع بالقمح والشعير والعدس والجلبان ، وإلى الجهة الغربية من القرية تقع بساتين الجابرية ، وهي سبع بساتين رائعة الجمال يمر في وسطها نهر صغير هو من بقايا نهر قويق الذي يعبر مدينة حلب ، وتغذي هذا النهر الصغير ماء عين مبارك في أسفل تل الجابريّة والبساتين رائعة الجمال غزيرة العطاء ، تزرع فيها أشجار الجوز واللوز والفواكه المختلفة ، لتجعلها وكأنها غابات خضراء وتحاط بالبساتين كروم العنب وأشجار الزيتون ، ويخترق القطار الحديدي المسافر إلى دمشق وبيروت هذه البساتين ، ويتوقف في محطته الأولى في قرية الوضيحي.

كانت القرية ملكاً لأسرة الجابري ، وهي من أشهر الأسر الثرية المعروفة بمكانتها الاجتماعية وثرائها ، ولم يكن صاحبها قادراً على إدارة شؤونها ، فاستأجرها الشيخ من مالكها بكل ما فيها ، وما زلت أذكر ذلك الثور الكبير العريق الذي كان يحرث الأرض مع البغال ، ويأتي المزارعون من المناطق البيعدة بأبقارهم إلى الجابرية لكي يقوم ذلك الثور القوي الضخم بتشبيب الأبقار لكي تنجب منه ما يشبهه في الشكل والقوة والضخامة والأصالة ، وكان هناك كلب أسود عظيم الوفاء يقف عند الباب الخارجي يحرسه بأدب ، واصبح صديقاً للأسرة يعامل بكل الرعاية ، وينادي بأحب أسماء التودد إليه ، وتخصه الأسرة بأجود الطعام وأطيبه ، رعاية لأمانته ووفائه ، ما زلت اذكره وكأنني أراه أمامي واسمع صوته الهادىء وهمسه ، وإذا وجد غريباً فسرعان ما ينقلب إلى ثور هائج لا يسكت نباحه إلا بعد أن يأتي إليه أصحاب الدار وكانت هناك فرس أصيل اسمها «الدهمه» كان الشيخ يملكها من قبل ، وجاء بها إلى القرية ، كانت قد تجاوزت سن التمرد والشباب وأصبحت أكثر حكمة في سيرها وهدوءاً في جريها ، لا تخيف من ركبها ، ولو كان من غير الفرسان ، ولا تغدر به ولو

اكتشفت ضعفه أو صغره أو قلة حيلته في عالم الفروسيّة ، ولذلك أحببتها وصادقتها ولم تغدر بي أبداً بالرغم من اكتشافها أمري وأنني ما زلت صغيراً على الركوب ، ولما استبدلتها يوماً بغيرها رمتني أرضاً وكسرت يدي والزمتني الفراش .

رافقت الشيخ في رحلته الأولى إلى القرية ، كانت الأسرة كلها هناك ، كنت أسمع في الليل أصوات «الدياب» وهي تقترب من القرية تبحث عن الأغنام الضالة التي خرجت في الليل أو الأبواب التي لم يحكم أهلها إغلاقها ، فأخاف وأرتجف ، وأسمع في صباح اليوم التالي أخبار تلك الهجمات الإرهابيّة على معاقل الحيوانات البريئة المختبئة داخل أسوار القرية .

ذكريات مضت ، أكثر من نصف قرن ، وما زلت أذكر دقائقها التي رسمت لي لوحة في خيالي ، وهي أول اتصال لي بالعالم الخارجي ، وبخاصة في حياة الريف .

كانت القرية داراً واسعة ممتدة محاطة بالأسوار والقباب الطينية ، ويتوسطها بئر عميق تسحب المياه من جوفه بواسطة «مضخة حديدية» منصوبة على فمه ، وترفع المياه بواسطة مقود يرفع ويخفض فيتدفق الماء إلى الأعلى .

وكان هناك بابان للقرية ، الباب الغربي ويؤدّي إلى دار الشيخ المحاطة بسور حجري يحجبها عن الفضاء الشرقي الذي يسكن الفلاحون فيه ، ويضم بيوتاً وقباباً متصلة ، ويتوسطها إسطبل الدواب الذي يضم الثور الكبير وبغال الحرث والفلاحة ، وتمتلىء هذه الساحة الواسعة بالدجاج الذي يسير باستعلاء في هذه الساحة الواسعة باحثاً عن حبات القمح المنثورة في ثنايا التراب .

حياة الشيخ في الجابرية :

كان الشيخ يقضي معظم الصيف في الجابرية ، ترافقه أسرته ، ويسكن في داره الخاصة المطلة على المنطقة الغربية ، التي تتوسطها البساتين التي يمرّ القطار بالقرب منها ، في ذهابه وإيابه .

وكان يستقبل إخوانه في هذه القرية في كل يوم ، يقضون يوماً أو يومين

وهناك فريق يلازمه باستمرار خلال إقامته ، ويقضي معظم الفترة الصباحية في غرفته التي كان يستقبل فيها ضيوفه ، وتكون مجالس مذاكرة وتوجيه وتربية ، وإذا صلى العصر خرج من داره يرافقه إخوانه في طريق يمتد من القرية إلى الجهة الغربية حيث تقع فيها البساتين الخضراء ، ويمشي على رجليه غالباً من العصر إلى المغرب ، ويعود عند الغروب إلى القرية ليؤدي صلاة المغرب ، ويتناول عشاءه ، ثم يواصل مجالسه في المساء ، وقد تمتد لمنتصف الليل في ضوء القناديل الزيتية ، وأحياناً يختار الجلوس في ضوء القمر في ليالي الصيف والتي اشتهرت هذه المنطقة بهوائها الجاف العليل ونسماتها الباردة التي تشبه نسمات البادية.

كان إخوانه يزورونه في كل يوم ، حيث تخرج الحافلات القديمة من حلب عند العصر لتعيد أهل الريف إلى قراهم وبيوتهم ، بعد أن يقضوا حوائجهم في المدينة ، وتعود الحافلات إلى المدينة عند الصباح حاملة معها سكان القرى ، عابرة الطريق الترابية التي لم تكن معبدة في تلك الأيام ، فيأتي الإخوان في هذه الحافلات عند العصر ، ويقضون فترة المساء في القرية مع الشيخ ، ويعودون في رحلة الصباح إلى المدينة لمتابعة أعمالهم.

لم يضق هذا الشيخ يوماً بزيارة إخوانه وأحبابه ، كان يستقبلهم بحفاوة ويحتفي بهم ، وينزلهم على الرحب والسعة من غير تكلف ، يأكلون مما يأكل ، ويشربون مما يشرب ، وينامون في الأماكن المخصصة للضيوف ، يرافقونه في رحلة المساء إلى البساتين ويسهرون معه ويحضرون مجالسه في الليل ، ويستمتعون بنسمات الصباح الباردة ، فإذا عادت الحافلات إلى المدينة في الصباح حملتهم معها.

وفي يوم الجمعة تبتدىء مواكب الزوار من أحبابه الإخوان في القدوم إلى القرية منذ الصباح المبكر في حافلة خاصة كبيرة ، يقضون النهار كله في رفقة الشيخ ، المهيب الطلعة وهو يعدّ لهم خيمة كبيرة في مكان بجانب النهر تحت أشجار البساتين ، ويفرح وهو يشاهدهم ويستمتعون ويمارسون هواياتهم

المحببة من التسلق على الأشجار والجري في الممرات الخضراء والسباحة في النهر وركوب الخيل والرماية.

وغالباً ما كان الشيخ يغيب عن المكان ليترك لهم حرية الحركة والمتعة وإعطاء النفس حقها من الاستمتاع بمباهج الحياة مما يؤنس النفوس ويريحها ويخفف عنها من أعباء الهموم اليومية.

ما زلت أذكر مناظر أصحابه كانوا في قمة شبابهم يركضون في الحقول ويتسلقون الأشجار الكبيرة ويرمي بعضهم البعض الآخر في النهر، ويمتطي أحدهم فرساً فتندفع به بقوة فيصرخ خائفاً متوسلاً أن يمسكوا بمقودها، والشيخ ينظر إليهم من بعيد ويفرح بهم ويبتسم لما يراه، ويأتي إليه شاك فيشكو صديقاً له أخافه وأرعبه، فيفرح الشيخ، ويحضهم على المحبة والإيثار وأن تكون قلوبهم صافية نقيّة تحب في الله وتبغض في الله.

ويرتدي الشيخ ملابس الفروسية التي اعتاد أن يلبسها عند ركوب الخيل، ويقفز فوق فرسه وكأنه شاب في مقتبل العمر، ويردفني خلفه، ويوصيني أن أمسك به بقوة، ويعود إلى القرية بعد قضاء يوم جميل بين، وأشعر وأنا خلفه كأنني أمسك بالقمر بين يدي شعوراً بالفرحة وإحساساً بالبهجة.

وفي المساء يبتدىء مجلس الشيخ بالمذاكرة، لا تعارض بين ما وقع في النهار من متعة وأنس وبهجة وبين ما يكون في الليل من تربية وتكوين وإحياء للقلوب وتهذيب للنفوس، فهذان أمران لابدَّ منهما لكمال الحياة وجمالها، فالجلال والجمال كلاهما يمثلان الحقيقة في نظرتها الشمولية النهار والليل يترادفان، كل منهما يكمل الآخر، ولا يستقيم الكون إلا بعناقهما وولوج أحدهما في الآخر.

هذا جزء لابد منه لمعرفة ملامح شخصية الشيخ، فالحقيقة لا تتضح معالمها إلا باستكمال كل جوانب المعرفة بكل ما يحيط بها، ولابد في التربية من معرفة طبائع النفوس وما تنطوي عليه من قابليات.

علاقته بالفلاحين:

كل من كان في القرية كان من إخوان الشيخ ، لم يكونوا كذلك من قبل ، ولما عرفوه التزموا معه ، وساروا على نهجه ، ولما رحل عن القرية بعد سنوات لم يرحلوا مع القرية بل رحلوا معه ، واستمرت صلتهم به ، وكانوا يريدون أن يكونوا معه حيث كان.

لم يشعر يوماً أنه مالك الأرض وسيدها ، كما هو الشأن في كل من ملك شيئاً كان شعوره أنه يؤدي أمانة وكل من أؤتمن فعليه أن يؤدي ما أؤتمن عليه ، وأمانته أن يعمر هذه القرية بالجهد والعمل ، وأن تكون أسرة القرية متحابة متعاونة يسعى الكل لخدمة المجتمع ، وكان من حق كل من كان في هذه القرية أن يأكل من خيراتها بالمعروف وبما يضمن له حق الكرامة في العيش والسكن واحترام إنسانيته ، كان يريد أن يأكل الجميع فحق الحياة ثابت لكل إنسان.

أهمية العمل الجماعي:

وذات صباح جاءه إخوانه من الفلاحين العاملين في القرية يشكون له ما يعانون من مشقة بسبب ضيق المكان وقلة القباب المعدة للسكن ، تألم لحالهم وأدرك أنَّ ما يطلبونه هو حق ولابد إلا أن يكون معهم وفي اليوم التالي جمع كل العاملين في القرية ، وأخبرهم أنَّ إخواناً لهم لا يملكون مكاناً لسكناهم ، ودعاهم إلى اللحاق به في الربوة المطلة على النهر ، وقال لهم: من هذا التراب سنصنع اللبنات الذي تبنى به قباب القرية ، وشرع في صنع اللبنات الترابية حتى إذا ما تم صنعها وجف ترابها أمرهم بنقلها إلى القرية ، وبنيت بها القباب الجديدة ، وكان الكل يعمل بحماس ونشاط ، في الليل والنهار ، كان معهم في كل خطوة ، كان الكل يساعد الكل ، والكل يعمل لأجل الكل.

لم يكن من عادته أن يأمر إخوانه بشيء ، إذا أراد شيئاً بدأ فيه بنفسه ، وأخذ يعمل فيه بيديه ، وسرعان ما يسرع الكل إلى العمل بنشاط وحماس لا يتخلف أحد عن عمل عام ، لخدمة الآخرين ، ولابد من التكافل في الأعمال والتآزر في كل جهد ، ليكون العمل لله ، ومن كان في عون أخيه كان الله في عونه ،

والخلق عيال الله وأحبهم إلى الله أكثرهم خدمة لعياله ومن خدم أخاه سخر الله له من يخدمه في الأزمات والصعاب.

ومن العادات المألوفة في العمل الزراعي أن الفلاح يقترض خلال العام كله المال الذي يكفيه لشراء حاجاته الضرورية، فإذا كان آخر العام استرد رب المال من محصول الأرض ما أقرضه للفلاحين، فإذا لم يكف المحصول لسداد ما عليهم أذلهم بسبب ماله في ذمتهم من دين، وارتهن ما عندهم من دواب أو مواشي وقطع عنهم ما يحتاجونه لعامهم الجديد من مؤونة الطعام.

كان الشيخ يندد بهذه المعاملة غير الإنسانية، ويقول لمزارعيه: إذا لم تأتكم مواسم تكفيكم، فما أكلتم وما أنفقتهم هو حق لكم فلا تعيدوه إلي ولا تسددوه، ولا يمكن أن يضيع جهدكم.

وفعلاً لم يطالب أحد مزارعيه بأن يرد ديناً عليه، فإذا احتاج أحدهم لطعام أو كساء أو علاج أعطاه بلا تردد، وإذا أصيب بعجز أو كان عائلاً تولاهم بالرعاية وأعانهم على أمرهم.

كان يربح الكثير، ويعيد ما ربح على من يحتاجه، ولا يأخذ من ربحه إلا ما يكفيه لمصاريفه الضرورية التي لا ترف فيها، ولم يكن يعرف أي نوع من أنواع الادخار، ويضيق بهذه الكلمة، وينظر إلى المال نظرة السيد إلى عبده الذي يخدمه بإخلاص ويلبي حاجاته، ويؤكد على الدور الاجتماعي للمال في التخفيف من مظاهر الجوع في المجتمع، وأن مالك المال له الحق في أن ينفق منه على حاجاته ومطالبه ثم يوجه الباقي إلى المحتاجين الذين لا يجدون الطعام والملبس والسكن.

توجيهاته في العمل:

كان الشيخ يقضي الصيف وبعض أيام الربيع في الجابرية، فالربيع جميل في الريف حيث الخضرة والشمس الدافئة، والنفس تشتاق إلى ربيع الريف، لأنه يمثل الشباب والحيوية والتجديد، ويضيق بالخريف لأنه يمثل الغروب والشيخوخة والحزن، أما الصيف فهو شهر العطاء والثمار، وفيه ينضج كل ما

هو عسير يودع الناس أحلامهم الوردية قبل أن يداهمهم الخريف الذي تسقط الأوراق فيه.

وأول ما يلفت النظر في شخصية الشيخ هو حبه للحياة بكل جمالها، وتعشقه للطبيعة الخلابة واستمتاعه غير المحدود بجمال الريف ونسماته العليلة وأزهاره وثماره اليانعة، ولهذا لم يتبرم يوماً بالحياة ومشقاتها، ولم يستسلم يوماً لاحباطاتها وابتلاءاتها.

لم تكن الزراعة بالنسبة له مهنة وإنما كانت متعة يحقق بها ذاته، كان يريد أن يكون كل شيء جميلاً في مظهره نظيفاً في شكله متقناً في أدائه، وكان ينفق بغير حدود لكي يكون العمل متقناً لا نقص فيه ويكره الذين لا يتقنون أعمالهم والذين يهملون في أداء واجباتهم، ويعتبر هذا الوصف مما لا يليق بالإنسان.

ومما كان يعجبه في خلانه ومساعديه أن يكونوا رجالاً في مواقفهم حكماء في آرائهم ومن ذوي المروءة والشجاعة والسخاء، لا يهابون ولا يخافون إذا قالوا فعلوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا.

ولما أراد أن يغادر القرية أخذ يبحث عمن يسند إليه مهمة الإشراف على شؤونها، واختار من أهل القرية شاباً في مقتبل العمر، وربما يكون هو الأصغر سناً، وقد اختاره لما وجده فيه من خلق وشجاعة واستقامة، وأوصاه بأن يكون المسؤول عن شؤون القرية يدير شؤونها ويشرف على العاملين فيها.

وأوصاه عندما كلفه بهذه المهمة بأن يرعى حقوق الله في احترام حقوق الفلاحين، وأن يشعرهم بالكرامة وألا يسيء لأحد منهم، وأن يكون قريباً من قلوبهم وأن يعاملهم بالإحسان، وأن يترفع عما يصدر منهم من هفوات، وألا يظلم أحداً منهم، وأن يحترم كبيرهم ويراعي المستضعف منهم.

وفي أيام الموسم في بداية الصيف كان الشيخ يذهب إلى القرية يشرف على الحصاد والرجاد والدراس والذراية، وهي مصطلحات كنت اسمعها في ذلك الحين، وفي أيام الحصاد كانت القرية تمتلىء بالعشرات من العمال الذين يهجرون قراهم في هذه المناسبة للمشاركة في حصاد المواسم، قبل ظهور

ماكينات الحصاد ، وكان الشيخ يوصي وكيله بأن يكرم هؤلاء العمال وأن يعتني بطعامهم ومكان إقامتهم ، وألا يرهقهم فيما لا يطيقون ، وأن يلتمس أعذارهم في حالات المرض والشيخوخة وألا يكلف الأطفال ما لا يطيقون.

ثم ينقل الزرع المحصود إلى مكان يسمى البيدر ، الذي تجمع فيه المحاصيل الزراعية بسنابلها ، ويتم تجريد الحبوب من سنابلها بواسطة دراسة أسنانها حديدية تمزق السنابل إلى أن تصبح تبناً ناعماً ، ثم تفرز الحبوب من التبن بواسطة الهواء الذي يدفع التبن بعيداً وتبقى الحبوب.

كنت أقضى النهار المشمس في البيدر انتقل من دراسة تقودها البغال إلى أخرى ، واستمتع بركوب تلك العربة الخشبية المتهالكة ، ولما رآني الشيخ وقد أحمرت وجنتاي قال لي:

هل أدلك على أفضل من هذا يمتعك ويبعدك عن حرارة الشمس وأعطاني أربعة أغنام وطلب مني أن أرعاها في البستان على أن أعود قبل الغروب ، وقال لي: رعاية الأغنام تشعرك بالإنس معها ، وتمتعك بما تشعرك به من الإلفة ، وأخذت أصحو مبكراً لكي أرعى أغنامي ، ويسألني الشيخ عنها هل أطعمتها واخترت لها الأرض الخصبة ؟.

وذات يوم وبينما كنت أمشي إلى جانب النهر انزلقت إحداها وانغرست أقدامها بالأوحال وعجزت عن الحركة ، ووقفت حائراً متردداً أبحث عن منقذ يخرجها من ذلك الوحل ، وجاءني البستاني مسرعاً ، وأنقذ تلك الشاة المسكينة ، ولما جاء الشيخ حدثه البستاني بما وقع لتلك الشاة ، ابتسم الشيخ وقال لي بلهجة جادة:

«يا ولدي إذا وليت رعاية فأحسن الرعاية ، وكل راع مسؤول عن رعيته ، فإذا قصرت في رعايتها غاصت في الأوحال ، ولو أبعدتها عن تلك الأوحال لما تعرضت لذلك الخطر».

تلك كلمات كنت أسمعها في طفولتي المبكرة ، لم أكن أعيها في ذلك الحين ، ولا أدرك معانيها ودلالتها ، ولكن لا أدري كيف بقيت في ذاكرتي حية

ناطقة ، لم تعبث بها الأيام ، أذكرها في كل حين في كل موقف مشابه لذلك الموقف ، تنتصب أمامي وكأنني اسمعها من جديد.

وكان من عادة الشيخ عندما يخرج محصول الحبوب يذهب إلى البيدر ، ويجتمع رجال القرية حول المحصول ، ثم يتقدم أحد الرجال حاملاً بيده الكيل وهو إناء خشبي كبير تكال به المحاصيل ، وتوزع الحصص على أصحاب الحق ، كل بحسب سهمه وحصته ، ويحمل كل فرد محصوله إلى داره ، فإذا كان المحصول قليلاً لا يكفي لسداد دين المزارع يقول له الشيخ : خذ ما يكفيك لعامك هذا ، فنحن نملك ما يكفينا ، ومن حقك أن تأخذ ما يكفيك ولا تطمع فيما هو زائد عن حاجتك.

كانت فترة الجابرية هي الأجمل والأكثر صفاءً ، ربما بسبب قربها من المدينة أو بسبب بساطة العيش فيها ، كانت مجالسها جميلة ورائعة كان روح الأسرة الواحدة بين تلامذة الشيخ غالباً وواضحاً.

في تلك الفترة تعلمت الدروس الأولى في التربية ، ولم تكن دروساً نظرية ، إذ لم أكن أفهم الكثير من كلام الشيخ ، ولكنني مازلت احتفظ بالكثير من المواقف والذكريات ، وكنت أنهل منها الكثير من القيم والدروس التي كانت تغذيني وتعلمني.

وأهم ما كان يلفت نظري في هذه الفترة صدق الإرادة لدى الإخوان ، كانوا أقل عدداً وأكثر صدقاً ، ويغلب عليهم الصفاء ، حيث كانت الحياة بسيطة وميسرة.

انتهت فترة الجابرية وبقيت ذكرياتها ، وما زال العشرات من رموز هذه القرية ، وإخوانها يذكرون أيامها ، أراهم اليوم واذكرهم ، معظم الجيل اللاحق لم يعش أيام الجابرية ، كان بعضهم لم يولد بعد ، وبعضهم كان في مهد الطفولة الأولى ، ولم يكن الجامع قد بني بعد ، ولا المدرسة ، حيث انتقل نشاط الشيخ إليهما ، وانصب اهتمامه على إنشائهما.

وعاش تلك المرحلة الأولى الجيل الأول من الإخوان من أمثال أبو عمر

الدباغ وفوزي شمسي وأحمد الصغير ومحمد ربيع ومحمد المهندس وأديب حسون ورشيد الناشد ومحمد الشامي ووحيد العتر وعبد اللطيف العتر وحسان فرفوطي وعمر الططري وسليم التبان وناظم الفرا وظافر دباغ وزهير النعساني ومحسن بوادقجي وعبد الله عزو خشبه ومحمود الناشد.

قرية الكيصومة:

انتقل الشيخ إلى قرية الكيصومة التي تقع إلى الشرق من حلب، في الطريق المؤدي إلى الجزيرة ودير الزور بالقرب من «قرية مسكنه» وكانت الكيصومة قرية كبيرة ممتدة، ليس فيها بساتين وأنهار، بل هي أرض بعلية تسقى من ماء المطر، وتزرع الحبوب فيها.

اشتراها الشيخ، بالاشتراك مع آخرين، وكان يريد أن يقيم فيها مشروعات فلاحية واسعة ويخرج الماء من أعماق الأرض، لكي يجعلها سقوية، ولكن هذه القرية كانت لها مشاكل كثيرة، ولم يكن الشيخ يحب ذلك.

كان من عادته ألا يحب أي خلاف في شؤون العمل، وكان يردد أن البركة توجد في صفاء نية الشركاء والعاملين وحب بعضهم للبعض الآخر، وحرص كل فريق على مصلحة أخيه، وعندئذ يبارك الله في هذا العمل، ويدفع الأخطار المحيطة به، فإذا وقع أي خلاف أو سوء تفاهم بين الشركاء فسرعان ما ينسحب منه متخلياً عنه زاهداً فيه.

وقد أمضى الشيخ قرابة سنتين في هذه القرية، كان يمضي فترة من الربيع وفترة من الصيف فيها، وكان يستقبل فيها إخوانه وتعقد فيها مجالسه المعتادة، ولا أذكر الكثير من أيامها.

واذكر حادثة وقعت للشيخ أثناء عودته من هذه القرية إلى حلب، كان في سيارة أديب النعساني الشقيق الأكبر لزهير النعساني، وكان من المحبين للشيخ، ومعه في السيارة كل من فوزي شمسي وجاسم الفياض وأبو عمر الدباغ، وكان الوقت شتاءً والأمطار تهطل، فانزلقت السيارة وانقلبت، وأصيب الشيخ بكسر في يده، اضطر على أثرها ملازمة الفراش لمدة شهر،

وكان يستقبل زواره في داره التي انتقل إلهيا بحارة الباشا ، ولم يتوقف نشاطه خلال هذه المدة .

باع الشيخ القرية بعد ذلك ، واتجه بهمته إلى بناء الجامع وتوسعته وانصرف إلى هذه المهمة وأعطاها كل وقته ، وفي الوقت ذاته أقام مشروعات زراعية عدة لزراعة القطن ، ومشروع كبير في مدينة جرابلس المتاخمة للحدود التركية ، وأقيم المشروع على نهر الفرات ، وفي الوقت ذاته أنشأ مشاريع أخرى صغيرة في قرية تلعرن وقرية تل حاصل القريبتين من حلب ، وكان يزورهما في كل فترة لمدة ساعات فقط ، يشرف على العمل ، ويتابعه . ويتولى أمر الإشراف عليهما الشيخ أحمد اللبابيدي أحد إخوان الشيخ ، وكان متفرغاً لخدمة الشيخ ومخلصاً في ذلك .

استمر العمل لعدة سنوات ، إذ كانت المشروعات ناجحة وموفقة ، ولكن ما كان يكسبه لم يكن يكفيه لتغطية مصاريفه ، كان يأتيه الكثير وينفقه ، ولم يدخر شيئاً ولم يشك من ذلك ، كان ذلك هو اختياره ومنهجه .

لم يتكلف قط هذا السلوك ، لم يبحث عن الغد ، لم يكن يذكر كلمة الرزق ، ذلك أمر آخر ، كان يتكلم عن العمل كواجب ديني ، ويكره من لا يعمل ، ويضيق بالكسل ، ويندد بمن يعتمد على غيره ، ويدعو إلى الارتقاء بمستوى الهمم إلى أعلى درجات النزاهة .

كان يحب العالم الذي يعطي لا العالم الذي يأخذ ، العالم الذي يرفع شأن العلم لا العالم الذي يهبط بمستوى العلم ، وكان يعلم إخوانه أن يكونوا من أهل اليد العليا لا اليد السفلى ، ولم يضق بما كان ينفق أو يعطي .

لم تكن أعماله تشغله عن مجالسه التربوية ، ولم تكن الدنيا في قلبه ، وكان يديرها ويشرف عليها ، ولم يفكر فيها ، وكأنها ليست قضاياه ، لا يفرحه إن أقبلت ولا يحزنه أن أدبرت ، لا لأنه لا يريدها ، وإنما لأنه لا يريدها أن تشغل قلبه .

ويتحدث عن المال في خدمة صاحبه ومالكه ، وليس الإنسان في خدمة

المال ، فالمال خلق ليسعد صاحبه لا ليشقيه ، وصاحب المال عليه أن يوجه ماله لخدمة الآخرين ، وذلك ليخفف شقاءهم وفقرهم .

ولو أراد المال لجمع الكثير منه ، فقد كان مخدوماً في كل ما يريد إنجازه ، ومعاناً في أعماله ، وكان يستطيع أن يوفر الكثير منه إذا أراد ، وكان موفقاً في أعماله ومشاريعه الزراعية ، وكان قلبه قوياً في اقتحام مجاهل العمل والإنتاج ، ينفق بسخاء على الأرض ويحفر الآبار العميقة ويجدد مضخات الماء ، ويغذي الأرض بأحسن الأسمدة ، وكانت له خبرة واسعة ، يستشار فيها ، وكان يملك آلات الحرث والحصاد ، ولم يكن ينقصه شيء .

وعندما كان يتحدث عن الزهد كان يقول ليس الزهد ألا تملك ، وإنما الزهد ألا يتعلق قلبك بما تملك ، فقد تملك الكثير ولا يتعلق قلبك به ، وقد تملك القليل وقلبك معلق به ، فإذا زال ذلك القليل فقدت قلبك بفقده ، وعكرت صفاءه ونقاءه .

كان يتحدث عن علاقة الإنسان بأرضه وهي علاقة حب ، فمن أحب أرضه أعطته ومن بخل عليها منعته ، وهي كعلاقة الغارس بغرسه ، لابد من المحبة المتبادلة ، ولابد أن تشعر الغرس بعاطفة غارسها وحبه لها ، لكي تكون مطواعة له مستجيبة لأوامره ، تطيعه إذا أمرها ، وتمسك عن الجري إن أومأ لها ، وهذه العلاقة كعلاقة الزوج بزوجته لابد من تبادل الحب والعاطفة .

والشيخ لابد له أن يحب إخوانه ، إذا أحبهم أحبوه ، وإن بادلهم العاطفة بادلوه ، والشيخ الذي لا يحب إخوانه سرعان ما يعرضون عنه .

ويعلم إخوانه أن يتعاملوا مع الآلات والأدوات الجامدة بأدب ورفق ، فالحصادة مثلاً خلقت لخدمة صاحبها ، ولابد إلا أن يحبها ويتعامل معها برفق ويحرص على نظافتها ، والمحراث وكل الأدوات الأخرى .

وأكثر ما كان يضايقه أن يترك أحد إخوانه صابونة التنظيف وسخة بعد استعمالها ، ويقول له: احرص على نظافتها كما حرصت هي على نظافة

يديك ، وأعدها إلى ما كانت عليه ، وهي تحرص على نظافتها كما تحرص أنت على نظافتك .

قرية التويم :

لم تكن قرية التويم مجرد قرية ريفية أراد الشيخ أن يستثمر أرضها بهدف الكسب والربح ، وإنما كانت شيئاً أكثر وأعمق ، ليس المهم فيها أن نتكلم عن أرضها وآبارها وأشجارها ، وإنما المهم أن نتحدث عن أثرها في نفسية الشيخ ، كانت رمزاً جميلاً لعلاقة الشيخ بإخوانه .

كان الشيخ يحبها كأعظم ما يكون الحب ، ويرعاها كأروع ما تكون الرعاية ، ويحب أهلها ويقربهم إليه ، كان يحب كل شيء فيها ، لأنها بالنسبة إليه كانت موطن هجرته وقضى في رحابها أجمل سنوات عمره ، وكان يقضي فيها معظم الصيف ، وأصبحت المركز الأهم لإخوانه في الريف الكائن في المنطقة الجنوبية من مدينة حلب .

في البداية كانت قرية صغيرة تضم مجموعة عائلات ريفية ، أراضيها خالية من أي ماء أو شجر ، مجرّد أراض جرداء تزرع بالقمح والشعير ، تؤتي أكلها في أعوام الخير والمطر وتحبس خيرها في أيام الجفاف والعطش .

كانت بيوتها الطينية البسيطة متفرقة في أرجائها ، وتقع هذه القرية وسط قرى ريفية أخرى أكبر منها مساحة وأعز نفراً ، يملكون من خصب الأراضي ما لا تملك ، ومن الأغنام والإبل ما يجعل لهم التميز في المكانة والمنزلة .

وقد بدأت صلة الشيخ بهذه القرية محدودة ، ثم نمت بعد ذلك وتوسعت ، وتسكن في تلك المنطقة أسر وعشائر ذات نفوذ وشهرة ، وكانت البداية عندما اضطربت أحوال المدينة بعد انفصال الوحدة ، وانقسام المجتمع إلى مؤيد ومعارض ، وظهور منافسات غير محمودة ، واختار الشيخ أن يقضي معظم أوقاته في الريف الذي كان يحبه منذ طفولته ، ويحب ما يتحلى به مجالسه عن قيم الريف وأخلاقية القيم السائدة فيه ، وأهمها قيم الشرف والفضيلة والتعلق بالدين .

الاهتمام ببناء الريف :

وأهم ما كان يحرص عليه هو الاهتمام بإصلاح الريف ، وإعداد طلاب العلم من أبناء الريف ، للعودة إلى مناطقهم وقراهم للتوعيّة ونشر القيم الدينية ، وكان يجد في طبائع الأسر الريفية نقاء وصفاء ، وأراد أن يوجه اهتمامه لذلك الريف الذي يحتاج أهله إلى تعليم أبنائهم لكي يكونوا أداة للنهوض بالمناطق الريفية .

عندما بنى الشيخ مدرسته في الكلتاوية أرسل إلى أمراء الريف وزعماء العشائر وأبناء الأسر الكبيرة أن يرسلوا أبنائهم إليه لكي يعلمهم في مدرسته ، ويعيدهم إليهم علماء عاملين مخلصين ، ينشرون الوعي الديني في أهلهم وعشائرهم .

وكان يردد في مجالسه أن أمير العشيرة إذا صلح صلحت العشيرة بصلاحه ، وإذا صلح أبناؤها انعكس صلاحهم على أهلهم وقومهم ومن حولهم .

كان يقول : أريد من يرفع شأن العلم ، ولا أريد من يتسول بالعلم ، فمن أذل نفسه أذل العلم الذي يحمله ، ومن أعزَّ نفسه بنزاهته وترفعه عن الصغائر أعزَّ العلم ورفع من شأن العلماء في المجتمع .

وابتدأت مدرسته تستقبل في كل عام عشرات الشباب من أبناء الريف ، يتعلمون العلم ويلتزمون بالعمل ويعتزون بعلمهم ، ولا يحنون رأسهم طلباً لمنفعة دنيوية أو تملقاً لصاحب مسؤولية ، يرفعون شأن العلم بشموخ وإباء ، ويفرضون احترامهم في المجتمع باستقامتهم ونزاهتهم وثقة الناس بهم ، ويكون كل فرد منهم أمة ، بإيمانه بالله ، وبمواقفه الصادقة التي يدافع بها عن الحق وقيم الدين الصحيحة .

اختار الشيخ قرية التويم لإقامته ، وانطلاق دعوته ، إلى تصحيح العادات وتقويم السلوكيات وتزكية النفوس وإصلاح القلوب ، وكما اختار الشيخ «الكلتاوية» مقراً لنشاطه في الدعوة والتوعية اختار «قرية التويم» لكي تكون كلتاوية الريف في إشعاعها الديني والتربوي .

مكانة التويم في قلبه :

واتجهت الأنظار إلى تلك القرية الصغيرة ، وأصبح أبناء القرى المحيطة بها يتجهون إلى هذه القرية لحضور مجالس الشيخ ، والالتزام بمنهجه في التربية الروحية ، وهناك عشرات القرى الممتدة من حلب إلى منطقة «المدخ» أصبحت مشدودة إلى «قرية التويم» وتزاحمت الطرقات والدروب في كل صباح ومساء ، ومواكب طلاب الشيخ يتوافدون بكثافة كبيرة على القرية الصغيرة للالتقاء به والتنعّم بقربه وحضور مجالسه والالتزام بما يدعو إليه من الأخذ بآداب الشريعة وإصلاح القلوب من الأوصاف المذمومة وتصحيح العقيدة من كل انحراف .

وهكذا أصبحت كلتاوية الريف تنافس كلتاوية حلب في إشعاعها وأصبحت تنمو بقوة وسرعة كنسمات الليل تنتقل عبر السهول والوديان والجبال لا تتوقف ، فالدعوة إلى الله هي دعوة إلى ما يحيي القلوب ويوقظها من غفلتها ، وينبهها من سباتها ، ويعيدها إلى عالم النور والضياء حيث تشرق في القلوب محبة الله ، ومن أحب الله أحب خلق الله والتزم بالأدب في التعامل معهم .

لم تعد «التويم» أرضاً قاحلة كما كانت ، ولم تعد أرضها تشكو الجفاف ، فالشيخ لا يحتمل أن يرى الأرض تبكي عطشاً ، وتضيق بملامحها الشاحبة ، فلا شحوب في الحياة ، فالملامح الشاحبة هي علائم الشيخوخة ومقدمات للموت ، ولم يكن الشيخ يحب الاستسلام للضعف والخضوع لليأس والقنوط .

وهنا بدأت رحلته إلى البناء والتعمير ، وكما لا تعمر القلوب إلا بإصلاحها فإن الأرض لا تعمر إلا بمياهها وحراثتها وتغذيتها بالأسمدة وعلاج أمراضها بالدواء الذي يطارد الأوبئة .

وقد حفر الشيخ أكثر من عشرة آبار ارتوازية على أعماق كبيرة وأخذت المياه تتدفق كالأنهار عبر الأقنية والسواقي ، تسقي الأراضي وتحيي مواتها وتخرج منها ما في أحشائها من خيرات وثمرات ، وأصبحت «قرية التويم» جنة وارفة

الظلال ، يزرع فيها القطن في مواسمه ، وتجوب أرجاؤها قطعان الماشية ، وتحرث أراضيها بالجرارات الضخمة ، وتحصد محاصيلها بآلات الحصاد الكبيرة ، وتقام فيها ورشات الإصلاح التقني ، التي تشرف على تلك الأجهزة المتطورة .

كان الشيخ سعيداً بما كان يبنيه ، فالعطاء واحد ، والبناء واحد ، من استعد للبناء في تكوينه أخذ يبني في كلّ مكان ، ومن كان مؤهلاً للهدم والخراب لا وقت لديه للبناء ، ومن أراد إصلاح القلوب زرع كلمة الحب في كل مكان ذهب إليه ، وأنعش النفوس بما يبثه فيها من أمل وإشراق ، وأحيا القلوب اليائسة بعد إحباط ، وأعاد لها بسمة الحياة وإشراقة الشمس .

والذين يجدون سعادتهم في البناء لا يحتملون رؤية الهدم ، ويضيقون بكل من يسعى إلى الخراب ، والبناة تدفعهم هيئة راسخة في النفس لا يتكلفونها تصدر عنهم من غير تأمل وتفكير ، ولا يشعرون بأنهم يبنون ، ولا يمنون على أحد بما يفعلون ، وهم في خطواتهم لا يرون أنفسهم ، ولو رأوا أنفسهم لشغلوا بالحديث عن البناء ونسوا البناء .

ومن كلمات الشيخ أنه كان يقول : «إنَّ الشجاع لا يرى نفسه شجاعاً ولو رأى نفسه شجاعاً لشغل بشجاعته عن عدوه ، ولكن الشجاع هو الذي ينسى شجاعته ويراه الآخرون شجاعاً ، والسخي لا يرى نفسه سخياً وإنما يراه الآخرون سخياً ، ولو رأى نفسه بهذا الكلام لتكلف الأمر وشغل به ، والزاهد هو الذي لا يشغله زهده ، فإذا رأى زهده شغله زهده عن الله تعالى فكان زهده حجاباً له» .

ازداد اهتمام الشيخ «بالتويم» وأخذ يقضي معظم أيام الأسبوع فيها ، كان يعود لصلاة الجمعة في الكلتاوية ، ويلقي درس النساء في صباح السبت ، وبعد الظهر كان يعود إلى التويم بواسطة القطار الحديدي الذي يمر بالتويم ، ويتوقف إذا كان الشيخ فيه ، ويستقبل في داره التي كان ينزل فيها ضيوفه من أبناء القرى المجاورة ، الذين كانوا يفدون إليه في كل يوم ، ويحضرون مذاكراته .

وأحياناً كان يرافقه لفيف من جماعته من أبناء المدينة الذين كانوا يلازمونه ، ومن أبرزهم الحاج محمود الناشد الذي كان يرافق الشيخ في معظم تحركاته بسيارته التي كان يقودها بنفسه ، ويزودها بكل وسائل الراحة ، ويشرف على أعمال الشيخ ، وكان من أكثر الناس ملازمة له، ولا يسمع لأحد أن ينافسه في ذلك.

وذات يوم أبلغ الشيخ في مقره بالكلتاوية أنَّ «قرية التويم» بكل أراضيها ومبانيها قد غرقت بسبب الفيضانات الكبيرة التي تولدت من الأمطار الغزيرة القادمة من الحدود التركية حيث أغرقت كل المناطق المحيطة بمنطقة «المدخ» المعروفة بانخفاض أراضيها ، وقضت مياه الفيضان على كل المزروعات ولم تترك شيئاً ، وأصبحت القرية بحيرة يسير أهلها فيها عبر القوارب.

وذهل كل من كان في مجلس الشيخ ، سكت الشيخ برهة وقال «الله هو الذي يعطي والله هو الذي يأخذ. . والحكمة فيما اختاره الله» وتابع مذاكرته ، وكأنه لا شيء جرى.

وبدأ من جديد يعيد بناء ما هدمه الفيضان ، من غير أي كلمة تعبر عن التبرم بما وقع ، إذ كان راضياً بقضاء الله ، مسلماً أمره إليه جل شأنه ، حامداً له فضله ، لا سيما في كل المواقف العصيبة.

دروس من القرية:

في «قرية التويم» تكونت معالم مجتمع جديد ، كان الشيخ ينسج ملامحه بدقة لتكوين شخصية إسلامية متكاملة ، كانت القابليات موجودة والنفوس مهيأة ، ومن اليسير أن تجد في مجتمع الريف ما لا تجده في مجتمع المدينة من فطرة نقية ، تبحث عن ذاتها وكيانها ، وتشتاق لسلوكية الكمال.

لم يكن الشيخ في أي يوم من الأيام يبحث عن طموحات سياسية أو تطلعات قيادية ، كانت السياسة بالنسبة له منسية ومتجاوزة ، لم تخطر بباله يوماً ، ولم يفكر فيها لأنها مهمشة عنده ولذا لم يخالط رجالاتها ، وما كان يحب ذلك ، ولم يشجع أحداً من أصحابه أن يمارس السياسة ولم يناقش في مجالسه يوماً

أمراً من أمورها ، كان بعيداً كل البعد عنها وعن مزالقها.

ولم يفكر يوماً في قيادة شعبية أو زعامة ، كان يكره ذلك ، ويتهم من يفكر في هذا الأمر بالرجل الفارغ الذي يبحث عن ذاته من خلال الآخرين ، وعندما كان يرى أحداً من جماعاته يحب تنظيم إخوانه ويعرض عليه ذلك كان يضحك ويبتسم ، ويقول له : «دعك من الزعامات الفارغة ، اعمل لله وقل كلمة الحق وادع إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

التويم مدرسة تربوية :

في «قرية التويم» كانت هناك نواة لمدرسة تربوية في الريف ، لا تعني بالتكوين العلمي وإنما تعني بالسلوك الأخلاقي ، والريف فضاء يتسع لكل إصلاح ، لوجود قابليات نفسية تستجيب بسرعة لكلمة الحق ، ولم تكن أمية الريفيين لتمنعهم من أن يشعروا بإشراقة الحق ، ولم تكن أمية الريفيين لتمنعهم من أن يشعروا بإشراقة النور في كيانهم ، لأن قلوبهم صافية كصفاء الطبيعة ونقاء هوائها ، حيث لا يحدث ذلك التلوث الذي تثيره الغازات والزيوت المحترقة في سماء المدن ، فالهواء النقي تعتاده النفس وتستمع به وتضيق بما يلوثه من سلوكيات الأنانية.

ومن هنا فقد أحس الشيخ بسعادة وهو يرى أثر تربيته في سلوكيات إخوانه في الريف ، فانصرف إليهم واهتم بأمرهم ، وأصبح يقضي معظم أيامه في «التويم» ، حيث الجو النقي النظيف والفضاء الروحاني اللطيف.

قدّر لي أن صحبته يوماً من المدينة إلى التويم حيث كان يسافر في ساعة محددة بعد ظهر يوم السبت في كل أسبوع ، كان يرافقه عدد من إخوانه ، وكان القطار يمر بالقرى المختلفة ويعبرها من غير توقف ، في كل قرية كان يقف عشرات الرجال من إخوان الشيخ يلوحون له بالتحية ، وينتظرون بفرحة مرور القطار الذي يأخذه في طريقه إلى التويم ، وكأنهم على موعد معه ، كان منظراً مؤثراً وشيقاً يجذب الانتباه خصوصاً حين كان الشيخ يلوح بيديه لإخوانه بفرحة وابتسام.

وفي هذه الأثناء نظر الشيخ إلى وجهي ، ورأى دمعة محبوسة في عيني ، أمسكت بها لكيلا تنزلق على خدي ، ولكي لا يراها الشيخ ، حينها سألني عما يثيرني ، قلت له: أخشى مما أرى ، وأخاف منه ، وهناك من لا يرغب في ذلك ، ويرقب الأمور.

وبدأت خلافات صغيرة بين إخوان الشيخ ، بين عائلات متجاورة ومتنافسة ، كان الشيخ يمسك بمقود الأمور ولا يسمح بتجاوز مبدأ الأخوة والمودة والالتزام بالتسامح المتبادل وحل كل خلاف بالحوار الأخوي الهادىء ، وتدخلت أيادي خارجية ألهبت هذا الخلاف وعمقته ورسخت القطيعة بين أخوة الأمس.

وحزن الشيخ وتألم ، كان يريد لإخوانه أن يكونوا متحابين متعاونين ، تجمعهم الرغبة في إخلاص النية ، وإصلاح النفوس ، واشتد الخلاف وأصبح عميقاً ، وترك الشيخ القرية عائداً إلى المدينة ، وكان يحذر من تغير القلوب ، فإذا تغيرت وزالت المحبة منها تمسكت بالدنيا ، ووقع التزاحم والتدافع ، ولا شيء كان يؤلمه مثل هذا التدافع المذموم لأجل مطامع دنيوية.

وأدرك الجميع أن المطلوب هو إبعاد الشيخ عن إخوانه ، وإشغاله بما كان لا يحب الإنشغال به ، ووقعت مواجهة قاسية بين الجماعات المتخاصمة ، أدت إلى ابتعاد الشيخ عن القرية.

وعاد الشيخ إلى الكلتاوية كما كان من قبل ، وظل إخوانه في الريف على وفائهم له وملازمتهم لمجالسه ، ولم يحزن الشيخ أو يتألم بالرغم مما أصابه من أضرار كبيرة.

وسألته بعد ذلك عن سر هذا الابتلاء والاختبار ، وهو ابتلاء شديد آلمه وأحزنه.

أجابني بلهجة المؤمن بالله الراضي بقضائه:

«هذا الابتلاء ليس لي ، فأنا راض بقضاء الله وحكمته وتدبيره ، وإنما هو ابتلاء لإخواني ، فمنهم من يصبر عليه ومنهم من تتقلب قلوبهم ، وأخذ يردد:

يا مقلب القلوب ثبتنا على ما اخترته لنا ، واشرح قلوبنا لفهم أسرار حكمتك وتدبيرك» .

لم يذهب الشيخ إلى التويم بعد ذلك. . . عادت كما كانت من قبل. . غربت شمسها بعد يوم ربيعي جميل ، وأقبل الليل بظلامه الدامس ، ولم يبق سوى أطلال ملقاة هنا وهناك وذكريات قافلة النور حلّت قليلاً ثم ارتحلت وغابت خلف الأفق بكل ما تحمله من مشاعل الأمل والنور .

نتائج عمله في الزراعة :

لم يعمل الشيخ في الزراعة طمعاً في الكسب ، كان القليل من المال يكفيه لحياته ، وإنما كان يحب العمل بحد ذاته كواجب على الإنسان أن يقوم به تعبيراً عن احترامه لذاته ، وشعوراً بوجوده الإنساني .

فالآيات القرآنية تدعو المؤمنين إلى العمل والسعي في الأرض لابتغاء الفضل من الله تعالى ، قال تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة : ١٩٨] وقال تعالى : ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة : ١٠] .

ومن تعاليم الدين أن يسعى الإنسان في شؤون المعاش ، لكي يستغني عن الناس ، ولكي يكون صاحب اليد العليا وليست السفلى ويعطي ولا يأخذ ، يعف عن أموال الآخرين ، ويأكل من كسب يده ، والعمل من العبادة ، وهو عبادة إذا قصد بالعمل الاستغناء عن الناس ، والذين يفهمون أن العبادة هي قعود عن العمل يخطئون ، فمفهوم العبادة أشمل وأعظم ، وكل عمل في سبيل الله فهو عبادة ، وغايتها الأقرب الاستغناءعن الناس ، ومن مروءة الإنسان ألا يشعر بحاجته للآخرين ولو كانوا من أسرته الأقربين .

والعلماء هم أولى الناس بالاستغناء عن الناس ، ومن شعر بحاجته للناس أحس بالذل والهوان ، والعالم الذي يمد يده إلى الناس سرعان ما يفقد هيبته وشعوره بالكرامة ، والاستغناء عن الناس هو طريق السيادة ، ولا سيادة مع الشعور بالافتقار للناس .

ولا تعارض بين الاشتغال بالعلم والعمل ، والعلم الذي لا يشعر صاحبه بالكرامة والعزة والسيادة ليس علماً وإنما هو وسيلة معاش.

وغاية العمل هو تحقيق الكسب وجلب الرزق المقسوم الذي يرزق الله به عباده ، لأجل إغناء النفس ، وليست غايته الاكتناز والادخار ، فالمال ليس غاية بذاته وإنما هو وسيلة لتحقيق الكفاية ومساعدة المحتاجين.

ولم يكن الشيخ يشجع العلماء على التعيش بعلمهم والتنافس في الوظائف الإدارية وإنما كان يشجعهم على العمل المنتج ، في التجارة أو الصناعة أو الفلاحة ، وأي عمل في نظره يستحق الاحترام والعامل محترم ، وله أجر العمل وثوابه ، وليس في العمل درجات اجتماعية ، فالعامل يكرم لأنه كسب من جهده ، ومن افتقر للناس بسبب كسل أو ترفع فلا يستحق الاحترام وإلا إذا كان بسبب عجز مانع من العمل.

وكان يفضل الزراعة على التجارة ، لأن الزارع يحرث الأرض ويزرعها ويعتمد على الله ويتوكل عليه ، فيزرقه الله الكسب الحلال الذي لا شبهة فيه ، بشرط ألا يكون في عمله ظلم لجهد الآخرين واستغلال لتعبهم وشقائهم ، وكان يرى أن الأجر يجب ألا يقل عن كفاية الإنسان لحاجاته الضرورية ، فمقدار الحاجة مكفول ، وما يرتبط باستمرار الوجود الإنساني مضمون.

ومن أبرز شروط العمل المشروع التعامل بالإحسان ، لأن الله تعالى أمر بالعدل والإحسان ، والإحسان هو أن يرعى القوي حقوق الضعيف ، فلا يحاسبه بالعدل فقط ، وإنما بالإحسان إليه ، والتنازل عن بعض حقوقه في الديون إذا كان الضعيف معسراً وفقيراً.

وكان من عادة الشيخ عندما يشتري شيئاً أن يتنازل للبائع الضعيف عن الباقي ، ويقول له نحن أولى منك بأن نتنازل لك ، ويدعو أصحابه إذا اشتروا شيئاً من ضعيف أن يسامحوه في الباقي ، لأنه أولى بالزيادة في الكيل والميزان ، ويردد أن خير الرجال هم أحسنهم قضاءاً لحقوقهم ، وأكثرهم إنصافاً.

وأهم ما يجب أن يتحلى به الإنسان في شؤون كسبه أن يقصد من وراء ذلك ليس الكسب ، وإنما أن ينوي إعفاف النفس عن الحاجة والافتقار ، وألا يشغله أمر دينه عن أمر آخرته ، فمن شغلته دنياه عن آخرته خسر الدنيا والآخرة معاً ، وأسوأ الصفات التي يجب التحرر منها هو الطمع في مال الآخرين والطمع يدفع صاحبه للطمع في كسب الحرام.

وكان يحذر من الطمع في الأموال العامة التي تعود ملكيتها للمجتمع كله ، ولا يجوز الأخذ منها إلا بمقدار الحاجة ، لأنها أموال المسلمين قاطبة والطمع يلوث القلب ويجعله مظلماً.

ويتحدث في مجالسه عن التاجر الحق ، وهو الذي يلتزم بأخلاقية التجارة فلا يكذب ولا يغش ولا يطمع في أموال الناس ولا يذل نفسه ، ويتعامل مع الناس بالحسنى والوضوح والثقة ، ويندد بالتويجر الذي لا يحترم أخلاقية التجارة ، ويستدين ولا يحسن تقدير الأمور فيقع في المخاطر ويعرض نفسه للمساءلة.

لقد اختار الفلاحة لعمله ، وكان خبيراً بشؤونها ، مستمتعاً بما تخلفه في النفس من مشاعر التوكل على الله ، وكان يرى في كسب الفلاحة أنها بعيدة عن الريبة والشبهات.

لم يضق يوماً بالفلاحة أو يتجاوزها بالرغم من غدر الفلاحة بسبب الكوارث الطبيعية كالجفاف والفيضان وظهور الأوبئة في المزروعات ، ولم يختر طريق التجارة التي كانت ميسرة له بفضل خبرة معظم إخوانه بها.

وفي الفلاحة ربح الكثير وخسر الكثير ، ولم يبتهج لربح ولم يحزن لخسارة ، كانت الكفاية حاصلة ، والفضل مردود على المحتاجين.

الثروة الباقية:

كان معظم الناس يظنون أن الشيخ يملك الكثير ، وأقرب الناس إليه كانوا يعتقدون ذلك ، والقليل من إخوانه الذين يلازمونه كانوا يعرفون الحقيقة ،

وهي حقيقة لم تكن تهم الشيخ أو تجري على لسانه ، لم يقل يوماً: أنه يملك أو لا يملك ولم يسأله أحد عن ذلك.

وعندما انتقل إلى رحاب الله كان مديناً بالكثير ، ولم يكن كل ما يملكه يفي بذلك الدين... لم يكن يملك داراً لنفسه ، أو لأحد من أولاده ، ولم يترك لهم شيئاً ، ترك عقاراً ورثه من أبيه ، وظل محتفظاً به ، وترك قطعة أرض زراعية ، وكان عليه ديون ، وأوصى قبل وفاته بأن توفى ديونه مما يملك من هذين العقارين ولكن أصحاب الديون لم يقبلوا باسترداد تلك الديون.

أما الإرث الذي تركه لأسرته ، فهو ذلك الإرث العظيم الذي يزداد ولا ينقص ، مهما أنفقت منه ، فالأموال تذهب والعقارات تنقل ملكيتها ، أما الإرث الذي يدوم فهو ذلك الصرح العظيم من المكانة والسمعة ومحبة الناس ، ويكفي أسرته فخراً واعتزازاً أن يسمعوا صباح مساء ما يسعدهم من أفواه المحبين وأن يروا بعيونهم ابتسامات إخوانه من الذين يلازمون الكلتاوية ويزورون ضريحه في كل يوم.

وبالإضافة إلى هذا الإرث الكبير فهناك القاعة التي عاش فيها حياته ، ما زالت باقية في الدار التي كان يسكنها إلى جانب الكلتاوية ، بكل ملامحها وأشيائها ، لم يتغير شيء فيها ، فملامحها تدل على شخصية الشيخ.

كيف كانت ، وما أهم اهتماماته ، وأشياؤها تدل على اسلوب حياته.

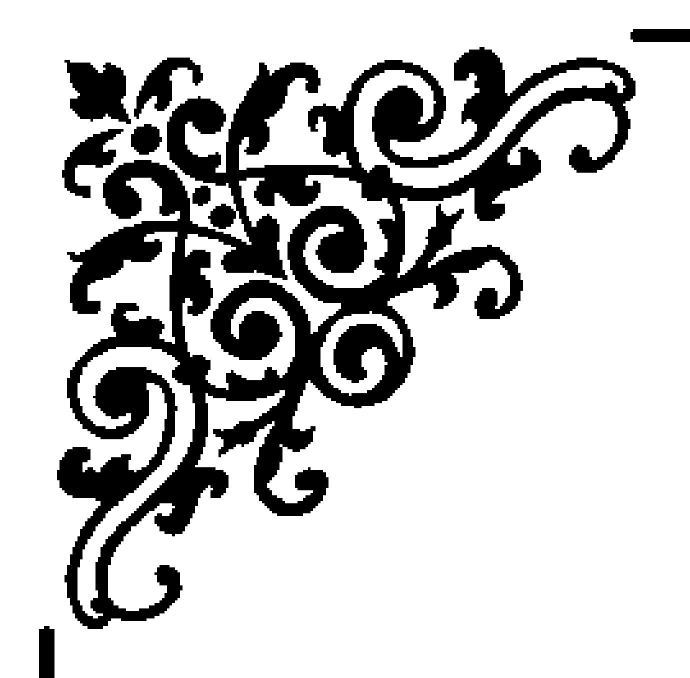
أهم ما كانت تضمه تلك القاعة مكتبة صغيرة تحتوي كتبه ، وكانت عزيزة عليه ، لم يفرط فيها ، وتضم أهم المراجع في التفسير والحديث والفقه والأصول ، وأما أشياؤه الأخرى فهي قليلة جداً ، وهي ما كان يحتاج إليه لاستعماله اليومي ، وأهمها سريره الذي كان ينام عليه ، وكنبة متواضعة كان يجلس عليها زواره ، وطاولة عادية صغيرة يضع عليها ما يحتاجه في كل يوم ، خاتم عقيق كان يلبسه بإصبعه ، ومقص صغير يقص به أظافره ، وزجاجة من عطر الورد كان يتطيب بها ، وكرسي يجلس عليه عندما يأتيه الحلاق فجر كل يوم جمعة ، ولوحات للمسجد الحرام وأخرى للمسجد النبوي ولا شيء غير ذلك.

كان يضيق بأي شيء آخر ، ولا يحتاج إليه ، وإذا جاءه شيء مهما كان يوزعه مباشرة ، فلا يحتمل أن يشغل نفسه بغير ما يحتاج إليه.

في غرفته تلك كان يستقبل كل زواره ، كباراً وصغاراً ، لم يفكر في إرضاء أحد فهذا هو كما يدل على نفسه ، وفي ضريحه في الكلتاوية توجد بعض ملابسه الخارجية التي اشتهر بها ، الجبة البيضاء في صفائها ونقائها. . وهناك العمامة أيضاً فضلاً عن مئات الأشرطة المسجلة من أحاديثه.

هذا هو إرثه وهو إرث لا تملكه أسرته ، وإنما يملكه كل إخوانه ومحبيه ، رحل الجيل الأول منهم ، وبقيت أجيال تتعاقب وتتوارث هذا الإرث العظيم.

* * *




الفصل الثالث
المجلس والإخوان

المبحث الأول
أصدقاء الشيخ

وفاؤه لأصدقائه
أهم أصدقاء الشيخ بحلب
أهم أصدقاء الشيخ خارج حلب
استقبال الشيخ للشخصيات الزائرة
التعريف ببعض زواره




أصدقاء الشيخ وإخوانه

وفاء الشيخ لأصدقائه :

اشتهر الشيخ رحمه الله بالوفاء لأساتذته والمحبة لأصدقائه وأصحابه والرعاية لإخوانه ومريديه ، وكان هذا من خلقه وسجاياه الراسخة ، وهذا يرتبط بتكوين شخصيته ، والوفاء خلق راسخ لا يأتي عن تكلف ، وإنما يصدر من صاحبه عفواً وبغير تفكير ولا إعداد .

كانت مجالسه اليومية خاصة بأساتذته وأصدقائه ومريديه ، وكان أساتذته يحظون بمكانة الاحترام في نفسه وفي نفس إخوانه ، فلم يصدر عنه قط ما يشعرهم بعدم الأهمية ، كان يخاطب تلامذته بالكلمة الطيبة المأثورة «أنزلوا الناس منازلهم» وكان يشرح معنى هذه الكلمة بما يعطيها بعدها الاجتماعي والأخلاقي ويضيف إليها ما يضفي عليها ملامح من أسلوبه في التربية فيقول: **«أنزلوا الناس منازلهم التي يرونها في أنفسهم لا كما ترونها أنتم ، فهم في قلوبهم يرون أنفسهم بمكانة عالية ، فأعطوهم هذا الشعور ، وأنزلوهم هذه المنزلة ولو كنتم ترونهم في منزلة دون ذلك ، فإذا فعلتم ذلك أشعرتموهم بالكرامة وأسعدتموهم وملكتم قلوبهم بهذا التكريم»** .

وهذا معنى دقيق ومعبر عن أسلوب الشيخ ومنهجه التربوي ، فكل إنسان يرى نفسه في مرآة نفسه في مكانة عالية ولا يرضى أن يكون في منزلة أقل ، وأنتم ترونه في منزله أقل من ذلك ، فلا تشعروه بما ترونه فيه من عيوب ، وأنزلوه المنزلة التي يرى نفسه فيها في موطن التكريم ، فقد يكون في مجتمعه

سيداً ، فأشعروه بالسيادة وقد يكون في أهله وعشيرته مكرماً فأشعروه بهذا التكريم تملكوا قلبه ، فيرتاح إليكم ويجد نفسه معكم.

ويكرر في هذا المعنى الكلمة المأثورة: «إن لَنَبُشُّ في وجوه قوم وقلوبنا تلعنهم» لأنّ العبد لا يملك أن يحاسب الناس على أفعالهم ، فقد يكون هذا الإنسان عند الله مقبولاً ومحبوباً فلا تحكموا على الظاهر ، فالباطن هو المعتبر ، والإنسان يجهل أمر الباطن ، وعليه أن تكون علائقه بالخلق قائمة على الاحترام والتماس العذر للناس فيما هم فيه.

ولم يشعر يوماً أحداً ممن يحضرون مجلسه من أصدقائه بما يسوؤهم ولو كان يعلم يقيناً أنهم يسيئون له أو يحملون عليه في قلوبهم أو ينكرون عليه منهجه ، فكان يتلقى هؤلاء بكل الترحيب والتكريم ، وقد يصبحون في يوم من الأيام من أقرب الناس إليه بسبب تكريمه لهم وإشعارهم بالمنزلة في مجلسه.

وكان يقول في ذلك: **اقتلوا حسد الحاسد وبغض المبغض بإحسانكم إليه والوقوف إلى جانبه في المكاره ، لكي تعلموه الخلق وتزيلوا من نفسه ما علق فيها من كدورات ومشاعر مظلمة.**

ويقول بأنه تعلم هذا المنهج من السيرة النبوية فقد كان النبي ﷺ لا يحرص على قتل الكافر ، وإنما يحرص على قتل كفر الكافر وحقد الحاقد بالإحسان إليه وإشعاره بالكرامة الإنسانية وتنزيله المنزلة التي يرى فيها نفسه ، وقد فعل النبي ﷺ ذلك عندما دخل مكه ، وأنزل زعيمها أبا سفيان منزلته اللائقة وقال: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، وهذا المنهج التربوي هو الذي جعل أبا سفيان يكتشف شخصيّة الرسول الكريمة ويعرف ما يشتمل عليه خلقه من سمو في المفاهيم ورفعة في الرؤية ، فالانتقام صفة مستقبحة وهي تدل على الضعف وليس على القوة ، والعافون عن الناس هم الأقوياء الذين تزكت نفوسهم ، وهؤلاء يكسبون ولا يخسرون ، ويرتقون ولا ينزلون.

ويستدل لهذا المنهج التربوي الراقي بوقائع تاريخية من السيرة النبوية التي تعتبر المرجع السلوكي الذي ترقى به المفاهيم وتسمو به بفضله سلوكيات المسلم ، ويرتفع عن الأحقاد والأنانية الضيقة.

كانت مجالس أصدقاء الشيخ تختلف عن مجالس إخوانه ذات الطابع التربوي ، ففي مجالس إخوانه وأصدقائه يغلب عليها الجمال ، فيسألهم عن أحوالهم ويشركهم في الحوار ، وقد يناقش معهم قضية علمية في التفسير والحديث والفقه ، ويلاطفهم بكل كلمات المودة ، ويسمع منهم كل ما يريدون قوله ، ويدعو إخوانه لتكريمهم وبخاصة إذا كانوا من العلماء زملاء الدراسة ، وقد يخصهم بجلسات خاصة يتناول معهم الحديث.

والعلماء مكرمون في مجلسه ، يجلسهم إلى جانبه ويشعرهم بوجودهم ، وقد يطلب من إخوانه الخروج من المجلس لكي يتمكن ضيوفه من التحرر من التكلف ، والحديث بحرية وطلاقة ، ولو بالمباسطات اللطيفة المعبرة عن طبيعته السمحة ، ولم يكن من عادته الانفعال أو الاكتئاب ، أو الشعور بالقلق ، فكان دائم الابتسام.

وكان أصدقائه يزورونه من غير ميعاد وفي المواعيد التي اعتاد الجلوس فيها ، وغالباً بعد العصر وبعد المغرب ، وبعضهم كان يأتي بميعاد سابق ، وغالباً ما يكون هذا لبحث أمر خاص.

أهم الأصدقاء بحلب:

ومن أبرز أصدقائه من العلماء كل من:

- الشيخ أسعد العبجي مفتي الشافعية والعالم الأصولي الكبير ، وأظنه كان أحد أساتذته ، وكان الشيخ يحبه ويحترمه وينزله في مجلسه المكان الأرفع ، ويخصه بالحديث ويحاوره في القضايا العلمية.

- الشيخ ناجي أبو صالح ، وهو من العلماء الذين يحظون بمكانة رفيعة ، وكان محباً للشيخ ، والشيخ يحبه وينزله المنزلة التي تليق بالعلماء.

- الشيخ حسن الحاضري ، وهو من أصدقاء الشيخ ، وكان يحب الزراعة ويشتغل بها ، وكان الشيخ يكرمه في مجالسه ويداعبه في الحديث.

- الشيخ محمد الغشيم ، وهو من أصدقاء الشيخ ومن العلماء الذين كانوا يدرسون في المدارس الشرعية.

ـ الشيخ عبد الباسط أبو النصر ، وكان يحظى بمكانة كبيرة في مجلس الشيخ ، نظراً لأنه ابن شيخه أبو النصر ، وكان الشيخ يحبه ويذكره بأيام الشباب وذكريات السلوك ، ويناديه بأحب الأسماء إليه وهو ابن شيخي ، وكان الشيخ عبد الباسط يحب الشيخ ويقدره ويعرف فضله .

ـ الشيخ محمد بلنكو مفتي حلب ، وكان الشيخ يحبه ويثني على شخصيته ونشاطه وذكائه ، ويشيد بخصال الرجولة والسخاء فيه .

ـ الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، وهو من العلماء العاملين المشهود لهم بالإخلاص والصدق والعلم وبخاصة في علم الحديث والتحقيق في كتب التراث الحديثي ، وكان صاحب ورع وفضل ، ويحظى بالاحترام ، وكان الشيخ يحبه ويقدره ويجد فيه الإخلاص والصدق والعلم .

ـ الشيخ أحمد البيانوني وهو من أسرة علمية كبيرة واشتهر والده الشيخ عيسى بعلاقته بشيخه أبو النصر ، وكانت لقاءاته بالشيخ أقل من الآخرين ، واشتهر بالتقوى والدين والورع .

ـ الشيخ أبو الخير زين العابدين ، وكان من أبرز أصدقاء الشيخ ومحبيه ، وينتمي إلى أسرة علمية عريقة في إنطاكية ، وهاجرت أسرته إلى حلب ، وكان أبو الخير عالماً متمكناً وخطيباً مفوها وصاحب مواقف مشهودة ، وكان يحظى بمكانة في مدينة حلب ، نظراً لعلمه وورعه وصلاته في مواقف الدفاع عن الإسلام .

ـ الشيخ عمر الريحاوي ، وهو من جلساء الشيخ ومن المحبين له ، وكان عالماً فاضلاً وشيخاً ورعاً .

ـ الشيخ عبد الوهاب سكر من مدينة الباب ، وكان من أقرب أصدقاء الشيخ إليه وأكثرهم حضوراً في مجالسه ، وكان الشيخ يحبه ويقدره ويحترمه ، نظراً لاستقامته وعلمه وورعه وتولى إدارة معهد العلوم الشرعية بحلب وهو المعهد المعروف بالشعبانية بحي الفرافرة .

ـ الشيخ عبد الله سلطان ، وهو من أصدقاء الشيخ والمحببين له ، ويسكن

في جامع الإسماعيلية ، وهو قوي الصلة بالشيخ والشيخ يحبه ويقدره ، وكانت له مزرعة خارج المدينة ، وكان الشيخ يزوره فيها ، ويجتمعان غالباً في مجالس خاصة .

ـ الشيخ أحمد المصري ، وهو من علماء حلب الذين اشتهروا بالورع والدين والصلاح والعلم وقراءة القرآن وتلاوة الأذكار ، وكان مديراً لمدرسة حفظ القرآن ، وكانت للشيخ معه جلسات علمية بقرآن فيها كتاب إحياء علوم الدين وكتب أخرى في التصوف مثل الرسالة القشيرية .

ـ الشيخ عبد الله سراج ، وهو من علماء حلب الكبار وهو ابن الشيخ الكبير نجيب سراج ، وكان الشيخ يحبه ويقدره ، فقد كان ورعاً وتقياً وعالماً في الحديث ، وله إخوان وتلامذة ، ويحظى بمكانة رفيعة ، وله دروس في المساجد الكبرى ويحضرها جمهور كبير .

ـ الشيخ محمد السلقيني وهو من كباء العلماء المشهود لهم بالعلم والصلاح والتقوى والورع ، وكان الشيخ يحبه ويثني عليه ، وكان يحظى بسمعة طيبة وطهارة قلبية وإخلاص متميز .

ـ الشيخ عبد الله حماد وهو من العلماء الذين اشتهروا بالعلم والخلق والتواضع والصلاح والورع ، وكان الشيخ يحبه ويحترمه .

وكان هناك علماء آخرون يزورون الشيخ للتشاور معه في قضية خاصة أو لأمر يهم المسلمين ، وكانت هناك اجتماعات لعلماء حلب تعقد في دار الشيخ ثم توقفت فيما بعد ، من أمثال الشيخ طاهر خير الله والشيخ عبد الله علوان والشيخ محمد علي الصابوني ، وعشرات غيرهم ، ممن كان الشيخ يرى فيهم صفة الإخلاص والصدق والنشاط والغيرة على الإسلام ، وكان هؤلاء أقرب من الآخرين لمنهجية الشيخ الروحية وكان الشيخ يسمع كلامهم ويتعاطف معهم ويثني عليهم .

ومما كان يزعج الشيخ أؤلئك العلماء الذي يثيرون القضايا الخلافية وينشرون الفتنة في المساجد بسبب مواقفهم الحادة والمتشنجة التي يتهجمون

فيها على علماء السلف أو يسيئون فيها لأئمة المذاهب الفقهية أو يشككون المجتمع في عقائده وثوابته تارة باسم البدعة وتارة باسم محاربة الصوفية وتارة باسم إحياء السلفية ، وكان يمكن لهم أن يحققوا أهدافهم بالتزامهم الموضوعية والنصح الصادق من غير أسلوب الجدال العقيم الذي يسيء إلى المشاعر الدينية.

وكان الشيخ أكثر منهم حرصاً على مقاومة البدع المنحرفة والالتزام بالمنهج الإسلامي الصحيح ، وما ينكرونه على الطرق الصوفية من تقديس للأضرحة وإيمان بالطقوس والتقاليد الخاطئة كان الشيخ ينكره ويدعو إلى تصحيح العوائد المنحرفة بالكلمة الطيبة التي لا تثير الشكوك في نفوس العامة ولا تزعزع إيمانهم الديني.

أهم الأصدقاء خارج حلب:

وهنالك فريق آخر من أصدقاء الشيخ ، كان يلقاهم في المناسبات يزورهم أو يزورونه ، يحترمهم ويحترمونه ، وكلهم أصحاب فضل وخلق ، ومن أشهرهم.

ـ الدكتور معروف الدواليبي وكان من أبرز أصدقاء الشيخ وأحبهم إليه ، وكان صديقاً في المدرسة الخسروية ثم رفيقاً في المجاهدات والرياضات النفسية ، ولم تتوقف الصداقة بتأثير اختلاف الطريق ، سار الشيخ في طريق التربية واختار الدكتور معروف طريق العلم وسافر إلى فرنسا للحصول على الدكتوراه في القانون الروماني ، ثم اشتغل في السياسة ، وكان من أعمدة حزب الشعب وتولى وزارة الدفاع والخارجية ثم تولى بعد الانفصال رئاسة الوزارة ، وادخل السجن في أيام الانقلابات العسكرية ، وعاش بعد ذلك في السعودية مستشاراً للملك ، ولم تنقطع صلة الشيخ به ، ولم تضعف ، كانت الثقة قائمة ومتبادلة ، وكان الشيخ يثق به ويدافع عن مواقفه ويشيد بنزاهته وشخصيته ووطنيته ، وتزوج شقيقه الأصغر علاء الدين من ابنه الشيخ الصغرى.

ـ الأستاذ مصطفى الزرقا ، وكان من أعلام العلم وأقطاب الفقه في العالم الإسلامي ، ومؤلفاته حظيت باهتمام كل الأوساط الأكاديمية ، وكان الشيخ

يحبه ويثني عليه ويثق باجتهاداته ويشيد بها ، ويصفه بأنه الفقيه ابن الفقيه ، فقد كان والده حجة في الفقه وجده كذلك ، وأسرة الزرقا أسرة علم وذكاء ومعرفة ، وبالإضافة إلى علمه فكان الشيخ يصفه بالنزاهة والورع والتقوى ، وتولى وزارة العدل في سوريا ، ويحظى بمكانة رفيعة في حلب ، وعندما كان يزور حلب كان يزور الشيخ ويحظى بكل الاحترام من إخوانه ، وكان شقيقه الحاج محمود من إخوان الشيخ ومن المحبين له والملازمين لمجالسه .

وكان للشيخ أصدقاء في معظم المدن السورية من العلماء المشهود لهم بالعلم والفضل والتميز والمكانة الاجتماعية ، كانوا يزورونه في حلب ويزورهم في أماكن إقامتهم ، ومن أبز هؤلاء ما يلي :

ـ السيد محمد المكي الكتاني ، الشريف الحسني المغربي الأصل ومن الأسرة الكتانية في المغرب العريقة بدورها العلمي والثقافي والديني والوطني ، وهاجر فرع من فروعها من أبناء سيدي محمد بن جعفر إلى بلاد الشام ، واشتهر السيد المكي بدوره الوطني والديني في مدينة دمشق ، وكان سيداً مرموق المكانة ، وشهدت داره اجتماعات هامة للعلماء وللسياسيين ، وكان كريماً مهيباً محترماً ، وكان الشيخ يحبه ويثني عليه ، ويشهد له بمعالم الشرف في سلوكه ، وكان التواصل بينهما قائماً والتشاور مستمراً في القضايا الإسلامية ، وأحياناً كان السيد المكي يزور الشيخ في حلب على رأس وفد من علماء الشام للتشاور وتوحيد الكلمة بين علماء دمشق وعلماء حلب ، وشهد مقر الشيخ في الكلتاوية لقاءات هامة بين علماء دمشق وحلب ، وكان علماء دمشق يعتبرون الشيخ هو صاحب الكلمة المسموعة في حلب ، ولا تتحرك المدينة إلا بحركته ولا تطيع أحداً إلا بأمره .

ـ السيد محمد المنتصر الكتاني وهو ابن شقيق الشيخ المكي ، وكان قد ترك المغرب وأقام بدمشق وعين أستاذاً للتفسير والحديث في كلية الشريعة بجامعة دمشق ، وحظي بمكانة علمية واجتماعية واسعة وشارك في النشاط الثقافي والسياسي في فترة الخمسينيات إلى أيام الوحدة ثم الانفصال ، وكان نشيطاً متحمساً كثير الحركة طموحاً وله علاقات اجتماعية واسعة على المستوى

الجامعي والاجتماعي ، داخل سوريا وخارجها وكان الشيخ يحبه ويقدره ، وكثيراً ما كان يزور مدينة حلب ويحل ضيفاً على الشيخ ويلقي كلمات طيبة في اللقاءات العامة وبخاصة بمناسبة عيد المولد النبوي الشريف الذي ينظمه الشيخ في جامع الكلتاوية ويحضره كل رجالات حلب وزعمائها وعلمائها وتجارها ، وكان الشيخ يحب الأسرة الكتانية ويشيد بنسبها الشريف ، ونشأ إخوانه على حب هذه الأسرة واحترامها ، وما تزال صلة المودة قائمة بين الأسرة النبهانية والأسرة الكتانية على مستوى الأبناء والأحفاد.

ـ الشيخ إبراهيم الغلاييني ، وكان من أعلام دمشق وعلمائها المشهود لهم بالعلم والتقى والصلاح والفضل ، وكان الشيخ يحبه ويقدره ويدعو إخوانه للتبرك به ، فقد كان تقياً صالحاً ، وكان من العلماء الذين تشعر بتقواهم وصلاحهم في أقوالهم وأفعالهم ، وقد استضافه الشيخ في قرية الجابرية القريبة من حلب التي كان يملكها الشيخ في بداية الخمسينيات ، وما زلت أذكر ذلك اللقاء الذي كلفني فيه الشيخ أن أقوم بخدمة العالم الصالح.

ـ الشيخ أبو الخير الميداني ، وكان رئيساً لجمعية العلماء بدمشق ، وكان واضح الصلاح والورع والتقى واشتهر بالعلم والفتوى ، وكان أهل الشام يحبونه ويحترمونه ويتبركون به ، وكانت تربطه صلة وثيقة بالسيد المكي الكتاني والشيخ إبراهيم الغلاييني وكان الشيخ يذكره في مجالسه ويشيد بصلاحه وتقواه وورعه.

ـ الشيخ حسن حبنكه ، وكان من أشهر علماء دمشق وأكثرهم جرأة وشجاعة وكان عالماً متمكناً وخطيباً مفوهاً اشتهر بالشجاعة في مواقفه والجرأة في دفاعه عن الإسلام ، وبالإضافة إلى هذا فلقد كان صاحب مدرسة علمية ، وله إخوان من علماء الشام المشهود لهم بالعلم والصلاح ، ويغلب على ظني أنه حضر في يوم وفاة الشيخ للمشاركة في تشييعه ، وألقى تلميذه الشيخ حسين خطاب كلمة التأبين باسم علماء الشام.

ـ الشيخ أحمد كفتارو ، وكانت تربطه علاقة مودة بالشيخ ، وهو من المربين الناجحين الذين تركوا أثراً واضحاً في المجتمع الدمشقي ، ثم تولى

منصب المفتي العام للجمهورية ، وهو صاحب طريقة صوفية ، وله اتباع وإخوان.

- الشيخ محمد الهاشمي التلمساني ، وكان من كبار علماء دمشق المربين الذين اشتهروا بفكرهم الصوفي وبتربيتهم للمربين ، وكان صاحب طريقة ومن أصحاب القلوب ، وكان تربطه بالشيخ صلة روحية قوية لا أعلم بدايتها وكيفيتها ، ولكن شعرت بأثرها ، وكان الشيخ يذكر لقاءاته بالشيخ الهاشمي ويشيد به في كل مناسبة ، كما كان الشيخ الهاشمي يذكر الشيخ في مجالسه ويعجب بمجاهداته وبما لمسه من الشيخ من صفاء روحي ، كان الشيخ الهاشمي مربياً صادقاً ويعرف جيداً مسالك الطريق ، ولابد أن لقاءهما الذي لم أشهده كان لقاء قمتين شامختين جمعت بينهما وحدة المنهج والطريق.

- الشيخ أحمد الحارون ، وكان من أعمدة الرموز الصوفية في دمشق التي اشتهرت بكراماتها وفتوحاتها ، وكان أقرب إلى الجذب ، ولم يشتهر بعلم ظاهر ، وإنما اشتهر بكراماته التي كانت تروى عنه ، وحضرت أحد هذه اللقاءات في منزله بدمشق ، وكان الدكتور أمين المصري المفكر الإسلامي المتخرج من الجامعات البريطانية والذي أصبح فيما بعد أستاذاً بكلية الشريعة حاضراً هذا اللقاء على مائدة إفطار في دار الشيخ الحارون بحي المهاجرين بدمشق.

استقبال الشيخ للشخصيات الزائرة:

كانت معظم الشخصيات العلمية التي تزور مدينة حلب تزور الشيخ في داره أو في مقره فيما بعد بمكتبه بجامع الكلتاوية ، وكنت في الفترة من العاشرة إلى التاسعة عشرة من عمري أرافق الشيخ في كل مجالسه وزياراته واستقبل ضيوفه وأقدم لهم الشاي الأحمر بكاساته المتميزة ، وأستطيع أن أتذكر كل الجزئيات في هذه الفترة من عام ١٩٥٠ إلى عام ١٩٥٩ ، وأعرف على وجه الإجمال حياة الشيخ كلها بعد هذه الفترة ، أما الفترة السابقة عن ذلك فلا أعرف عنها إلا القليل مما سمعته على وجه الإجمال من الشيخ نفسه ، ولذلك فقد يفوتني الكثير من المعلومات والأسماء والأخبار قبل هذه الفترة.

ومعظم استقبالات الشيخ كانت تتم من عام ١٩٤٦ إلى عام ١٩٥٦ في داره التي تغيرت أربع مرات خلال هذه الفترة ، ثم بعد بناء الجامع انتقل مكتبه إليه ، وأصبح يستقبل أصدقاءه وزواره فيه ، ويلتقي فيه بإخوانه ويقضي معظم وقته في غرفته التي دفن فيها فيما بعد في جامع الكلتاوية الذي يعرف بمدينة حلب بجامع النبهاني .

انتقال الشيخ من دار الأسرة إلى دار مستقلة :

قبل عام ١٩٤٦ كان الشيخ يسكن في دار الأسرة بحي باب الأحمر حيث تسكن الأسرة كلها في دار الوالد الحاج أحمد النبهان الذي كان حياً ، وكان أولاده الخمسة يسكنون معه في داره الواسعة المطلة على الحي التجاري المعروف ببرية المسلخ حيث توجد أكبر الخانات التي تباع فيها المحاصيل الزراعية ، وكانت التقاليد الاجتماعية تقضي أن يسكن الأولاد في دار الأب إشعاراً له بتقديرهم له ، وهو يشعر بالقوة والمنعة لوجود أولاده معه .

بعد وفاة الأب انتقل الشيخ بأسرته إلى دار مستقلة لمدة يسيرة في حي خان الحرير ، ثم استقر في داره بحي الكلتاوية قرب الجامع الذي أمضى فيه مجاهداته النفسية ، وأمضى قرابة خمس سنوات فيه ثم انتقل إلى دار أخرى واسعة قريبة من هذا الحي تعرف بدار الفاني ، نسبة إلى مالكها ، وكانت تضم داراً عربية واسعة من الداخل ، وغرفة مستقلة عند المدخل لاستقبال الضيوف منفصلة كلياً عن الداخل ، وأصبح الاستقبال يسيراً عليه ، إذ يمكنه أن يستقبل زواره بحرية ، دون أن يؤدي ذلك إلى إرباك الأسرة ، ثم انتقل مرة أخرى إلى دار حارة الباشا ، وهي دار واسعة جيدة ، وتضم غرفة خارجية لاستقبال الضيوف ذات باب مستقل يؤدي إلى الخارج .

ولما بدأ الشيخ ببناء الجامع وتشييد مدرسة ملحقة به أصبح يذهب كل صباح إلى الجامع للإشراف على بنائه ، وأخذ يمضي معظم نهاره فيه حتى المساء ، وعندئذ انتقل إلى دار جديدة مجاورة للمسجد ، وبقي كل من ولديه المتزوجين في الدار القديمة ، وهكذا أصبح الشيخ يمضي نهاره في غرفته في المسجد ، ويعود في المساء إلى داره المجاورة لذلك المسجد ، وهكذا أصبح

المسجد هو المكان المخصص لاستقبال الزوار من أصدقاء ومريدين.

خلال المرحلة السابقة كنت أقيم مع الشيخ في داره، وارافقه في كل خطوة من خطواته، في ليل ونهار، وأصلي معه كل الصلوات وكنت أقف إلى جانبه في الصلاة وحيداً على يمينه وتقف النساء في الصف الخلفي، واستقبل الضيوف وأقدم لهم الشاي، وأجلس مع الشيخ في كل مجالسه، وأرافقه إلى كل مكان يذهب إليه، لدعوة أو نزهة أو زيارة مريض، كما كنت أقوم بكل مهمة يكلفني بها خارج الدار، وكان يوقظني في كل صباح قبل الفجر، أصلي معه صلاة النافلة إلى أن يؤذن الفجر، فأصلي الفجر معه ثم يقرأ القرآن بصوت عال، وكانت الأسرة كلها تصلي جماعة وتنصت إليه وهو يتلو القرآن ويفسر الآيات، حتى إذا طلعت الشمس عدنا إلى النوم لفترة يسيرة.

كنت أذهب إلى المدرسة عند السابعة صباحاً وأعود عند الظهر، وكنت أرافق الشيخ في كل نشاطه اليومي، وإذا خرج في المساء خرجت معه ولم أكن أفارقه، كان بالنسبة لي هو الصديق والرفيق، ما ضقت يوماً بحياتي هذه، ولا تطلعت لصداقة خارج نطاق هذه الأسرة الكبيرة من الإخوان الذين كانوا في سن الشيخ أو أقل من ذلك، فكانوا هم أصدقائي، وكنت أضيق بمن كانوا في مثل سني، كنت أرى نفسي صديق الكبار وهم يرونني كذلك.

خلال هذه الفترة التي امتدت أكثر من عشر سنوات كنت أتابع كل شيء وأعرف كل شيء، وأسمع كل كلمة وتصلني كل همسة، أعرف الكبار والصغار، الأجداد والأحفاد، واطلع على أسرار كل فرد وكل أسرة، وكنت المقرب في المجالس والمحترم عند الجميع، يسعى الكل لإرضائي، ويحسدني الجميع على ما أنا فيه، أتشفع فيمن أخطأ، وأتوسط لكل صاحب حاجة، فيسمع كلامي، وتقبل شفاعتي.

في عام ١٩٥٩ غادرت حلب، وتركت كل شيء بحثاً عن العلم، واخترت حياة الغربة والقسوة، وأصبحت بعيداً سعيداً بما اخترته لنفسي، أنهل من معين العلم، يؤنسني الكتاب، وتغذيني كلماته.

وعندما أكتب عن مجالس الشيخ أكتب عن مجالس عشتها ورأيت

ملامحها ، وبقيت في مخيلتي صور تلك المجالس ، كما كانت ، برجالها وأشكالها والأحاديث التي تدور فيها ، وعندما أتحدث عن أصدقاء الشيخ ومريديه أراهم أمامي بملامحهم ، وكيف يجلسون ، وعن ماذا يتحدثون وبماذا يهمسون ، إنها لوحات زيتية جميلة ما زالت معلقة أمام مخيلتي ، لو رسمتها لجاءت صادقة معبرة عن واقع عشته . . بجماله وجلاله . . بصفائه وكدورته . . بجسده وروحه .

ما زالت صور أولئك الرجال أمامي منتصبة ، عندما أرى أحدهم وقد خطه الشيب وأخذ يتوكأ على عصاه تعود بي الذاكرة إلى صورة الأمس كما كانت قبل نصف قرن . . الشيوخ ماتوا والشباب ما زال بعضهم يمشي برفق وهوادة ، أراهم فأذكرهم ويرونني فيذكرون ملامحي الطفولية ، وينادونني باسمي المحبب إليهم في تلك الأيام ، وأناديهم كذلك بما اعتادوا أن يسمعوه مني في تلك المجالس .

وأرى دموعهم تنهمر على خدودهم فأحبس أنفاسي وأمسك دموعي ، وأعود إلى غربتي القاسية . . إلى الصمت الرهيب ، إلى صحراء الطموح حيث تموت المشاعر الدافئة والعواطف الناطقة ، ويدفع الإنسان ثمن أخطائه ، ولا يدري أن العمر قصير ولا يتحمل المقامرة فيه ولا المغامرة ، فما يذهب لا يعود ، وما يفوت مندوم عليه .

كانت دار الشيخ مفتوحة على الدوام لاستقبال زواره من ضيوف وأصدقاء وإخوان ، يأتون إليه من غير ميعاد ، فيستقبلهم ويخصهم بالتكريم ويشعرهم بالحب والرعاية ، كانوا يحبون مجلسه ويرغبون في زيارته ، وعندما انتقل إلى داره بقرب جامع الكلتاوية أخذ يستقبل في غرفته بالجامع حيث كانت الأمور ميسرة أكثر من الدار .

لم يكن حديثه مع ضيوفه وزواره حديث مجاملة ، كان حديثه عن محبة الله والأدب مع الله وآداب العبادة والنفس والقلب والكمال الإنساني والفضائل ، وكان هذا هو ما يشغله .

كان يستقبل الشخصيات التي تأتي لزيارته من علماء ومفكرين

واذكر من هؤلاء :

ـ الشيخ أبو الحسن الندوي ، المفكر الإسلامي المتميز والداعية الصادق ، والمعروف في العالم الإسلامي بكتاباته القيمة عن قضايا الإسلام المعاصرة ، وكان قد زار الشيخ في عام ١٩٥١ في داره وكتب في مذكراته التي نشرها أنه التقى يوم ٤/٨/١٩٥١ بالشيخ في بيته وقال عنه إنه رجل يمتاز بقوة إيمانه وتأمله في القرآن ، ويظهر أنه من طراز خاص يفتح عليه في الدين ويتكلم فيه عن يقين ، واعتبر هذه الزيارة مما يستحق التسجيل ، وكان الشيخ يذكر هذه الزيارة في مجالسه وأحاديثه ويثني على الشيخ أبي الحسن الندوي ، ويصفه بالإخلاص والصفاء ومن أصحاب القلوب ، واستنارة قلبه تعطي لآرائه العلمية نوراً وقبولاً ، وهذا مما يؤكد التواصل الروحي بين القلوب ، وهو تواصل لا ينفصم عراه ، ويزداد قوة ومتانة مع الأيام ، ولو بعدت المسافات ، وقلت اللقاءات ولقاء القلوب أصدق لقاء وأروع عناق .

ـ الشيخ أمجد الزهاوي ، علامة العراق ورئيس رابطة علمائها ، وكان من العلماء الأعلام المشهود لهم بالعلم والصلاح والورع، ولما عاد إلى العراق أخذ يحدث إخوانه من علماء العراق عن هذا اللقاء ويشيد بما سمعه من الشيخ من كلام، ويروي إخوان الشيخ في العراق بعض ما كان يردده عن الشيخ في مجالسه .

ـ الشيخ قاسم القيسي : مفتي العراق ، وكان من أعلام الفكر في مختلف العلوم الإسلامية ، ومن الشخصيات التي يفخر بها علماء العراق ، وقد اشتهر في مختلف العلوم ، وهو امتداد لعلماء السلف ، وقد اطلعت على رسالة أرسلها إلى الشيخ بعد لقائه به وكان يضمنها حبه للشيخ ، وختمها ببيتين من الشعر يبارك للشيخ بالعيد[1] ، ويعتبر لقاءه بالشيخ هو العيد ، وكان الشيخ يحبه ويثني عليه ويشيد بصفاء قلبه ، ويصفه بأنه من أصحاب القلوب ، وتعني هذه الكلمة أنه ممن غلب نور قلبه على ظلمة نفسه ، فأورثه الله ثوب التعلق بالله بالمحبة وإيثار الله على غيره .

---

(١) يا ماجداً جل قدراً أن نهنئه ... لنا الهناء بظل منك ممدود
الدهر أنت ويوم العيد منك وما ... في العرف أنا نهنيء الدهر بالعيد

ـ الشيخ محمد محمود الصواف ، وكان من أشهر علماء العراق العاملين المخلصين المجاهدين الذين ينطقون بكلمة الحق ولا يخافون ، ويواجهون الباطل ولا يتهيبون من رموزه ، كان يحب الشيخ وزاره عدة مرات وكان الشيخ يحبه ، وعندما تعرض لبعض المحن في بلده وقف الشيخ يناصره ويحض الشعب الحلبي على مناصرته ، وكان الشيخ يصفه بالإخلاص في مجال الدعوة ، واستمرت صلتي بالأستاذ الصواف بعد وفاة الشيخ ، نلتقي ونتزاور ونتحدث عن الشيخ رحمه الله.

ـ الأستاذ حسن الهضيبي ، وهو المرشد العام للإخوان المسلمين وزار مدينة حلب في عام ١٩٥٤ ، واستقبله سكان حلب بحفاوة كبيرة ، وكانت زيارة تاريخية، وأرسل الشيخ وفداً يمثله لاستقبال الضيف الكبير خارج أسوار المدينة، ثم ذهب الشيخ للسلام عليه والترحيب به ، وكان يرافق الشيخ جماعة كبيرة من مريديه ثم زار الأستاذ الهضيبي الشيخ في داره بحارة الباشا ، وكان يرافقه وفد يضم أكثر من عشرين شخصاً من قيادات الإخوان في مصر وسوريا وقيادة فرع الجماعة بحلب، وكان اليوم يوم جمعة إذ حضروا قبل الصلاة ومن دون موعد ، وكان الشيخ وقتها في الحمام المعتاد الذي يحرص عليه قبل الصلاة ، ومن عادة الشيخ ألا يستقبل أحد في هذا الوقت، واضطر الشيخ للخروج من حمامه الأسبوعي المعتاد لكي يستقبل الوفد الزائر ، واعتذروا من الشيخ لحضورهم من غير ميعاد سابق، وكان من ضمن الوفد الدكتور سعيد رمضان أحد قيادات الجماعة في مصر ، وكان الشيخ يثني عليه ، فقد كان قريباً من فكر الشيخ ومنهجه الروحي.

ـ السيد مالك بن نبي ، وهو مفكر إسلامي متميز ومبدع ، وهو من الجزائر ، وله مؤلفات قيمة عن الظاهرة القرآنية ومباحث في الفكر والحضارة وفي الاقتصاد ، واشتهر بأفكاره العميقة في تحليل واقع العالم الإسلامي وشروط النهضة ، وزار مدينة حلب والتقى بالشيخ ، وسمع منه ، واثنى على ما سمع ، ولابد أن الشيخ أضاف إليه البعد الروحي في تكوين الشخصية الحضارية ، بالإضافة إلى الشروط المادية والعقلية والتقدم العلمي ، وهو

«الجوانية» التي يدعو إليها الفيلسوف الكبير عثمان أمين ، وتشمل الجوانية ذلك البعد الإشراقي الذي يوقظ الشعوب لكي تكون مؤهلة للنهوض الحضاري .

ـ السيد يوسف بن هاشم الرفاعي ، وهو شخصية كويتية متميزة بمواقفها الإسلامية وتكوينها الروحي ، وكان وزيراً ونائباً عندما زار الشيخ بحلب عام ١٩٦٨ م ، ولما سافر الشيخ إلى الكويت استقبله أحسن استقبال ، وكان الشيخ يحبه ، ويقدر اهتمامه بالتربية الروحية والتزامه بالمنهج الصوفي ، وتنظيم مجالس للذكر والاستغفار ، والإشراف على مدرسة لتكوين طلاب العلم الشرعي .

ـ الشيخ عبد الحليم محمود ، الإمام الأكبر وشيخ الجامع الأزهر ، وهو شخصية علمية رفيعة ، وله دراسات وكتب في علم التصوف والسلوك ، وهو صاحب مذهب صوفي ، وهو حجة فيما يكتب وفيما يدرس ، وإخلاقه تعبر عن التزامه السلوكي بالتربية الصوفية، وهو رجل زاهد متعبد وله مواقف شجاعة ويعتز بشخصية العالم وهو مهيب رفيع التهذيب لم يلتق بالشيخ مطلقاً بطريقة مباشرة، وإنما كان يسمع عنه ، ويحبه وينقل عنه ويستشهد بأقواله ، وفي لقائي به في المغرب عام ١٩٧٣ طلب مني أن أحمل إلى الشيخ تحياته وأنه حريص على لقائه ، ولما بلغه نبأ وفاة الشيخ حزن عليه وقال لي بأنه كان يتمنى أن يلتقي به .

ـ الشيخ علوي مالكي ، عالم مكة وشيخها الكبير ، التقى به الشيخ في مكة أثناء قيامه بأداء مناسك الحج عام ١٩٦٥ وسمعت الكثير عن هذا اللقاء ولم أحضره ، ولابد أن الأرواح قد التقت والقلوب تعانقت ، وكان الشيخ يتحدث عن لقاء الأرواح ، ولم يكن يهتم بلقاء الأجسام ، فالأرواح لا يحجبها المكان والزمان ، أما الأجسام بسبب كثافتها فسرعان ما تكون محجوبة .

وهناك لقاءات كثيرة كانت تترك أثراً طيباً في نفس الشيخ ، وتقيم جسراً متواصلاً بينه وبين رفاق الطريق حيثما كانوا ، وفي أي أرض أقاموا ، كان الشيخ يحبهم ويحبونه ، وأحياناً يتبادلون التحية وتجمعهم محبة الله وتعشق الكمال ، ويعاهدون أنفسهم على أن يلتزموا بمنهج النبي ﷺ في سيرته وحياته ، ويحبون ما أحب ويكرهون ما يكره ، ويأخذون بسنته ما كان منها في

مجال البيان والتشريع أو ما كان مما يدخل ضمن حياته الشخصية ، ويرون في ذلك الكمال الإنساني الذي يجسد الفضائل .

كان الشيخ يتحدث في مجالسه عن الأرواح التي تتعارف قبل أن تلتقى أجسادها وتتعانق بالرغم من تنائي الديار وتباعد الأماكن ، وهذا هو اللقاء الأبقى والأخلد ، لقاء الأحبة في رحاب الله ، حيث لا تتنافر النفوس ولا تتزاحم على طلب الدنيا ، ولا تحجبها المطامع والأهواء ، فالعالم الذي كان يحبه الشيخ ويسعى إليه هو عالم بلا حدود ، وأخوة في الله صادقة ، وإخلاص النية وسمو إلى الأفضل ، والتزام بقيم إنسانية عالية .

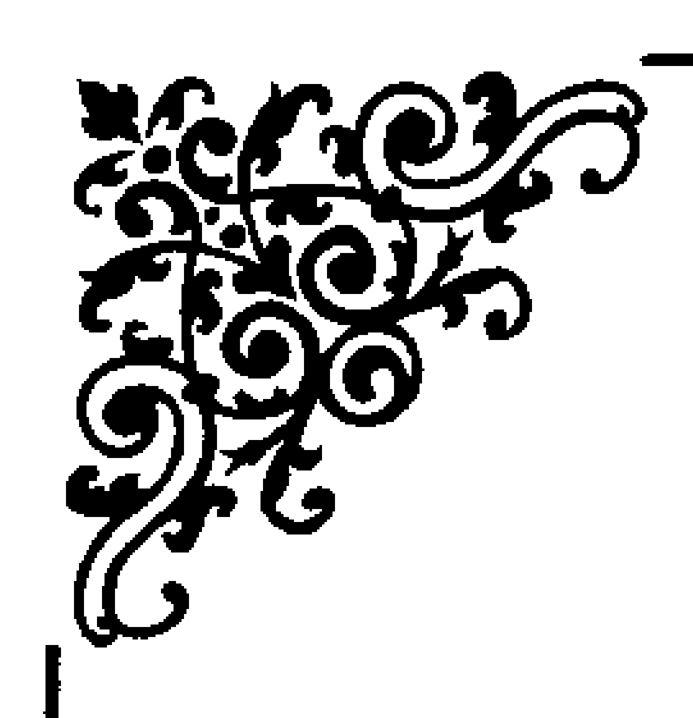
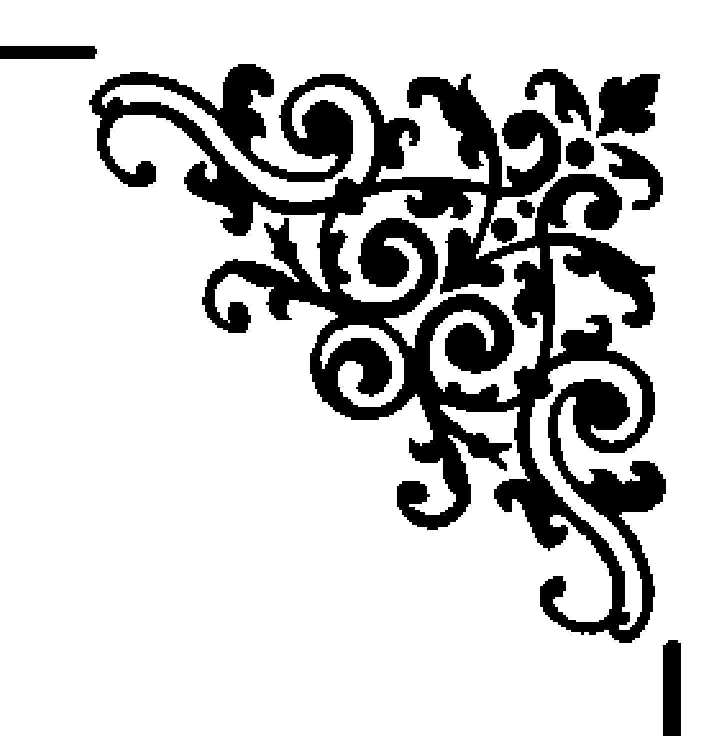
وكان يقول لإخوانه : **«كونوا معي بأرواحكم لا بأجسادكم ، كونوا حيث شئتم في أعمالكم ومنازلكم ، ولكن أن تظل قلوبكم معي بصفائها ونقائها ، بمحبة بعضكم وخدمة الضعفاء منكم وأن تفعلوا ذلك لا لغرض أو مصلحة ، ولكن قياماً بحق الله عليكم نحو الآخرين»** .

وكان يقول لهم : **«ليس المهم كثرة الصلاة والصيام ولكن المهم أن تثمر العبادة في قلوبكم طهارة واستقامة ونزاهة ومعرفة بالله تعالى ، ابحثوا عن الثمرة المرجوة من العبادة ، ولا تثمر العبادة إلا بالتزام آدابها تواضعاً لله ومحبة له وإيثاراً للآخرة على الدنيا»** .

كان زواره يخرجون من مجلسه وقد حملوا في قلوبهم أثراً من حديثه الذي يشرق في قلوبهم صفاءاً ونوراً ، ويوقظ في أعماقهم صحوة يقاومون بها ضعفهم الإنساني ، وتعيدهم إلى دفء المشاعر الفياضة التي تبعثها في النفس ينابيع الفطرة السليمة التي جعلها الله مرآة صادقة للتجليات الإلهية .

وأهم ما كان يدعو إليه في مجالسه تلمس نور اليقين في القلب ، ولا يتحقق نور اليقين إلا بالمعرفة ، وطريق المعرفة هو حفظ الحواس عن ارتكاب الآثام وحفظ القلب عن كل الخواطر السيئة التي تعكر المزاج وتبعد الإنسان عن القيام بصالح الأعمال .

* * *

المبحث الثاني
إخوان الشيخ

الفرع الأول: إخوان الشيخ ، أدب السلوك

- تعريف المريد وشروط السالك
- موقع الإخوان من نفس الشيخ
- المريد ومقومات السلوك

الفرع الثاني: أهم الأسر المرتبطة بالشيخ

اهتمام الشيخ بالأسرة

اهتمام الشيخ بطلاب العلم

الفرع الثالث: حرص الشيخ على تكوين إخوانه

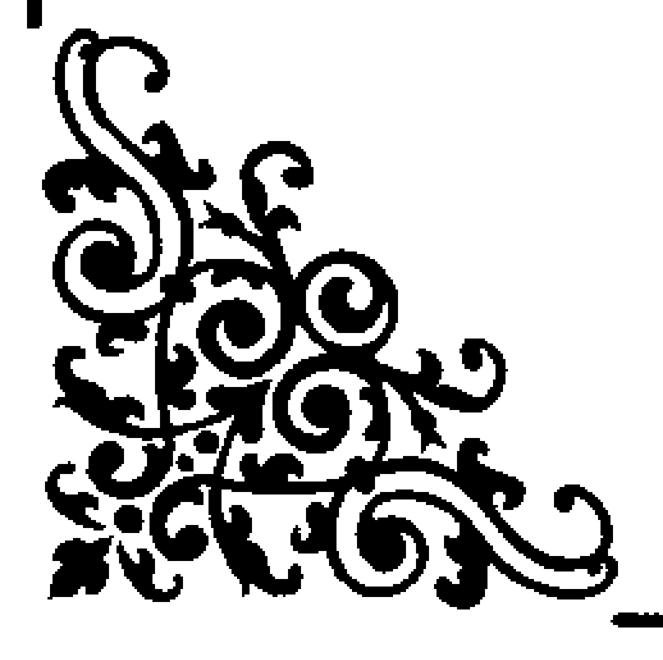
مجلس التلاوة في داره

مجلس التلاوة في الكلتاوية

مجالس العلم والتكوين الشرعي

مجالس العلم في الكلتاوية

الفرع الرابع: اعتماد منهج التآخي بين إخوانه




إخوان الشيخ

إخوان الشيخ وآداب السلوك :

اشتهرت كلمة «الإخوان» كمصطلح يعبر عن اتباع الشيخ من الملتزمين بمنهجه ، الذين يحرصون على حضور مجالسه ودروسه ، ويلازمونه باستمرار ، ويستشيرونه في أمورهم ، وكلمة «إخوان الشيخ» تطلق على هذه الطائفة التي تسمى بالمريدين ، وكلمة المريد هي المصطلح الذي يستعمله المربون ، وكتب التصوف مليئة بالمصطلحات المشتقة من هذه اللفظة ، وهي الورد والوارد والمريد والمراد وشروط المريد.

تعريف المريد وشروط السالك :

والمريد هو السالك الملتزم بالطريق ، وهو الذي يحل الوارد في قلبه ، بما يتضمنه من معان غيبية والوارد هو المعنى الذي يحل في القلب ، أو ما يرد على القلب من أحوال ، فتخلف وراءها حزناً أو فرحاً أو قبضاً أو بسطاً والورد هو الذكر الذي يلزم الشيخ به السالك ليقوم بأدائه كي يكون في حالة يقظة دائمة.

وهناك شروط للمريد لابد من الالتزام بها في السلوك ، وأهمها الصدق في الإرادة ، ومن علائم الصدق في المبدأ أن يكون مستعداً لسلوك الطريق بما يتضمنه ذلك من مشاق الطريق ووعورته ومجاهدة النفس وتحمل الشدائد والصبر على الابتلاءات والمحن والزهد في الدنيا والإعراض عما تطمع فيه النفوس ، والإمساك عن الملذات والسيطرة على الشهوات ، والتوبة عن كل سلوك خاطىء ، ومصاحبة الأخيار من الناس ، والالتزام مع المرشد الذي يقوم بدور التربية والإشراف وتقويم النفس وبعث الهمة.

وأهم صفة مذمومة في المريد هي ضعف الصدق في الإرادة ، وعدم الصدق يقطع المريد عن متابعة الطريق ، ومعظم السالكين ينقطعون عن السلوك لأسباب شتى ، أهمها عدم قدرتهم على تحمل مشاق المجاهدة وعدم القدرة على فطم النفس عن الأهواء والملذات وسيطرة الغرائز على الإنسان .

وهناك أسباب أخرى تقطع المريد عن مواصلة السلوك وأهمُّها الغرور الذي يصيب المريد بسبب ما يحقِّقه من مجاهداته من أحوال تشعره بأنه قد تخطى حظوظ النفس وملذاتها فيدفعه ذلك إلى التعالي والتكبر والعجب ، أو يدفعه ذلك إلى الانغماس في الملذات والبحث عن الشهوات ، وأحياناً قد يصاب بحالات نفسية تعكر مزاجه ، فيدفعه ذلك إلى سلوكيات التطرف والانفعال والتوتر ، فيقسو على نفسه بمجاهدات مذمومة ، أو بسلوكيات خاطئة وغير مقبولة فيتشدد في مواقفه وآرائه ويحرم على غيره ما هو مباح في الشرع .

وهذا كله مما يسيء للتصوف ويبعده عن حقيقة أهدافه ، ويكون مطية لاستغلال العامة والانحراف بهم عن المنهج التربوي السليم .

ولابد في البداية من وجود مرشد كامل عرف أسرار الطريق ومسالكه ووديانه ومنعرجاته ، ويقطع بالمريد مواطن الخطر ، لكي يصل السالك إلى ربه ، ملتزماً بأوامر الشرع وآدابه ، مستبدلاً صفاته المذمومة بالمحمودة ، تائباً عن كل سلوك محرم ، متطلعاً إلى يقين يشعره بالسكون والطمأنينة ويبعده عن القلق والوساوس والأوهام .

والسلوك منهج للتصحيح والتقويم في مجال السلوك إلى الأفضل والأحسن والأكمل ، والمجاهدة أداة لفطم النفوس عن الاستسلام للشهوات الغريزية ، ومهمة المرشد أن يقوم بهذا الدور الإصلاحي ، وأول ما يجب أن يتوفر فيه أن يكون صادق اللهجة مستقيم السلوك ملتزماً بأوامر الشريعة عالماً بأمور الدين ، ممسكاً عن المعاصي ، زاهداً فيما هو في أيدي الناس ، غير طامع ولا حاقد ولا حاسد ، يرعى حقوق الله ، ويحافظ على أسرار الخلق .

وأهم ما يجب أن يتحقق فيه المريد أن يشعر بصفة العبدية لله تعالى بالافتقار

إليه ، فإذا تحقق بهذه العبدية تحرر من كل شعور بالخوف من الخلق ، فالله هو مسبب الأسباب وخالقها ولا سلطة للعبد في ذلك مهما ارتقت مكانته ، فعباد الله تعالى سواء في منزلتهم الاجتماعية ويتفاضلون بعمل الصالحات ، ولا يتفاضلون بمال يملكه فريق أو سلطة يستبد بها حاكم أو مكانة يختلسها صاحب جاه ونفوذ يفاخر بها المستضعفين.

موقع الإخوان في نفس الشيخ :

والإخوان بالنسبة للشيخ المرشد هم أبناؤه وأحباؤه وأصدقاؤه ، أكرمه الله تعالى بأن يكون خادماً لهم وهادياً وموجهاً وناصحاً ، لا يمتاز عنهم بمكانة اجتماعية ولا بجاه يملكه دونهم ولا بمال يستغلهم به ، فهو واحد منهم يرى نفسه كما يرى الأب نفسه يحمل هموم جميع أبنائه ، إذا مرض أحدهم أسعفه وحمل همه ، وإذا افتقر مد له يد المساعدة ، وإذا تكدر مزاجه بسبب هموم الدنيا وأثقالها عليه شاركه في همه ، وشجعه وأعاد إلى نفسه ابتسامة الأمل وإشراقة الحياة ، وإذا مات كان الأب لأولاده تكفل بأمرهم ووقف إلى جانبهم ، وإذا سار في طريق الملذات والشهوات أمسك بيده وقاده بعيداً عن مواطن الزلل والانحراف وقدم له النصح الصادق لكي يعود إلى الطريق الصحيح ، وإذا أعرض عن ربه بسبب غفلة أيقظه وذكره بحقوق الله عليه.

هذا هو المرشد وهذه هي مهمته ، ولا يجوز أن يتصدى لمهمة الإرشاد إلا من كان مؤهلاً للقيام بهذه المسؤولية بنفس رضية من غير تذمر ولا تبرم ولا ضيق بالآخرين.

والسيد كما يقول الشيخ ليس من طلب السيادة وطمع في بلوغها ولبس جلبابها الأبيض ، وإنما السيد من اختار أن يكون خادماً للآخرين ، والآخرون هم من يجدون فيه السيادة ، وليس من رأى في نفسه السيادة.

المشيخة أمانة ومسؤولية وخدمة وليست سيادة ولا رتبة ، فمن أراد المشيخة للرئاسة والزعامة والمكانة فسرعان ما ينشكف أمره وينصرف عنه إخوانه ، ويجد نفسه في متاهة وضياع.

كان الشيخ يجسد هذه المعاني في سلوكه اليومي في كل ساعة ودقيقة ، وفي كل صباح ومساء ، لم تكن له حياة خاصة ، ولم تكن لأسرته حياة خاصة ، كان ملكاً لإخوانه ، كانوا يملكون منه ما تملك أسرته ، وقد تملك أسرته أقل مما يملكه إخوانه من وقته ورعايته.

كنت في طفولتي أرى ذلك وأعيشه يوماً بيوم، وما اكتبه أصف به الواقع كما رأيته ، وكما شهدته وعشته، كان كل رب أسرة مشغولاً بأسرته يربي أولاده ويرعى شؤونهم ويسهر على أمرهم، وكان الشيخ مشغولاً برعاية أسرته الكبرى، يسهر على أمر إخوانه ، يقف معهم في الشدائد ، يدفعهم إلى العمل والنجاح ، كانت داره مزدحمة صباح مساء بإخوانه من النساء ، يحضرون مجالسه ويصلون معه صلاة الفجر، في كل صباح ، ولم يفرغ منزله قط في ليل أو نهار من إخوانه.. كانوا جزءاً من أسرته، يعرفون كل الأسرار ويطلعون على كل الأخبار.

لم يضق الشيخ قط بإخوانه وما ضاقت أسرته قط برسالتها وبمهمتها ، كانت سعيدة بما اعتادت عليه ، احتراماً للشيخ ، وكانوا يدركون مدى هذه المهمة ، وعظم منهجها وقدسية رسالتها التربوية ويفرحون بما أكرمهم الله به من هذه الخدمة.

ومن حكمة الله تعالى أن القلوب تنشرح لما كلفت به ، فتنقاد إلى ذلك سعيدة هانئة ، وتسعى بكل طاقتها لأداء ما كلفت به راضية مرضية ، ولو خيرت لاختارت ما اختاره الله لها.

كان السيد النبهان سعيداً بما شرح الله صدره له من خدمة الخلق ، وكان إخوانه سعداء بشيخهم ، أوفياء له ، محبون صادقون ، وكان يمكن لأي فرد منهم أن يضحي بكل شيء في سبيل الشيخ ، وأن يخدمه بكل صدق وبسعادة ومن غير تردد ولا تكلف ، كان الشيخ سعيداً بهم وهم سعداء به.

لو نظرنا إلى جانب من الحقيقة لأخطأنا في الحكم ، فالأمور لها وجهان ، ولكي تعرف الحق عليك أن تنظر إلى الحقيقة كلها كما كانت ، ربما ينظر

البعض من منظار واحد إلى جهة واحدة ومن خلال نافذة واحدة ، وهذا يؤدي إلى خطأ في الفهم ، وعلينا أن نعيش الحقيقة كاملة ، لكي نحكم على الأمور ، وربما ينظر البعض إلى زاوية الإيجاب والعطاء ويتجاهل زاوية التضحية والصعوبات .

عندما كنت أحاور جدي الشيخ قدس الله سره يوماً عن بعض ما أشعر به من تضحياته ومواقفه كان يقول لي بلغة حانية مهذبة :

«يا ولدي هذه مرتبة أقامني الله فيها ، وأنتم لا تقدرون عليها ، من لهؤلاء المستضعفين؟ لقد سخرني الله لأحمل عنهم بعض همومهم ، وأخدمهم فيما أقدر عليه» .

وصدق الشيخ وكان علي أن أفهم جيداً ما يجب علي أن أفكر فيه ، لقد شرح الله صدره لما هو فيه ، وأعانه على ذلك. وكان سيداً ورائداً في الأحوال .

كان قلبه يتسع لجميع إخوانه ومريديه ، يحبهم ويرعاهم ، يسمع منهم آلامهم ويمسح دموعهم ويعين الفقير منهم ، ويساعد المحتاج ، ويطعم الجائع ، ويمسك بيد الصغير مشجعاً ، ويستر عيوب المخطئين ، وينصحهم سراً لكي تصل كلمته إلى قلوبهم ، ويطيب نفوس الأيتام والأرامل ، ويداعب العجزة والمسنين ، ولم يغلق باب داره أمام قاصد ولو جاءه بليل ، ويتجاهل جهل الجاهلين ويتسامى عن كل الصغائر ، ولا يعاتب مخطئاً من إخوانه ولو أساء إليه ، ويغض بصره عن رؤية ما لا يجب أن يراه من سوء الأعمال ، ويعفو عمن أساء إليه ، وكان يزهد فيما يطمع فيه الآخرون .

ذلك ثمن لابد منه ولابد للسيد إلا أن يدفع ثمن سيادته ، ترفعاً عن الصغائر وسعة في الصدر وزهداً في كل ما تتعلق به القلوب من رئاسة ومال وجاه .

كان الشيخ قمة في هذه المواقف ، وأشير ولا أفصل ، وأعرف الكثير الكثير مما يمكن أن يقال ، وإخوان الشيخ يعرفون جيداً ما أريد قوله ، أو ما يخطر ببالي .

لم أكتب ذلك عبثاً ، وإنما أردت بيان مسؤولية هذه المرجعية التي أعطاها

الشيخ حقها من غير تكلف ، فهي مسؤولية أخلاقية ودينية ، ولا يمكن لهذه المرجعية أن تعطي ثمارها إلا إذا أعطيت كامل حقوقها ، والذين لا يعطون لا يأخذون ، والذين لا يخلصون في هذه المهمة لا يفلحون والطامعون في مغنمها سرعان ما يخسرون ذاتهم ولا يشعرون .

وما أسوأ من يجعل الدين مطية لأهوائه وطموحاته ، فيسيء لقيم الدين الخالدة ، ويهدم دعائمه في النفوس ، ولابد من تحرير الدين من المفسدين باسم الدين ، من الجهلة والطامعين الذين يستغلون الدين كمطية لتملق عواطف العامة بالخطب الحماسية لتحقيق طموحات خاطئة ، ولابد من التوعية بحقيقة الدين ، لكي يرتقي وعي الأمة بكيانها وهويتها وثقافتها وملامح فكرها .

والدين نقاء وصفاء واعتزاز بالقيم والمثل العليا ، وتمسك بكرامة الفرد وحريته ودفاع عن الحقوق الإنسانية ودعوة إلى التحرر عن الجهل والتخلف ، والأخذ بأسباب التقدم لكي يشعر الإنسان بالكرامة والحرية .

ولا يمكن للدين أن يكون غير هذا أبداً ، فما ترفضه الفطرة يرفضه الدين ، وما يمس الكرامة لا يقره الدين ، ورفع المظالم هي غاية الدين ، وهذا هو الدين كما هو في حقيقته ، لا كما هو في مفاهيمه السائدة التي يتحكم في توجيهها رموز الطغيان في المجتمع ضد المستضعفين في الأرض .

هذا هو الفكر الذي رضعنا لبانه من الشيخ منذ الطفولة ، وتعلمناه من شخصيته وأحاديثه وسلوكه ، وما يخالفه أو يناقضه فليس من فكره في شيء ، وإنما هو فهم خاطىء كرسه واقع متخلف .

المريد ومقومات السلوك :

كان الشيخ يحدث إخوانه عن آداب السلوك ، وعن الطريق الموصل إلى الله تعالى ، وهو طريق إصلاح النفس ومجاهدة الأهواء والالتزام بظاهر الشريعة والتمسك بآدابها في العبادة والمعاملات ، ومما يقطع السالك عن ربه «جهله بآداب الطريق» وهو جهل يؤدي بالسالك إلى طريق مسدود بسبب ما يصيبه من

غرور ، ويرى نفسه أفضل من الآخرين ، ويمن على الله بعبادته وطاعته ، وهذا هو الجهل الحقيقي .

وهنا تأتي مهمة المرشد والمربي ، وتتمثل في التوجيه والتسديد ، والأخذ بيد المريد لكي يعبر البحار والمحيطات بسفينة آمنة يقودها ربان ماهر ، يتغلب بحكمته وإخلاصه على الأمواج المتلاحقة التي تواجه هذه السفينة في سلوكها إلى موانىء العبدية لله تعالى والتحقق بهذه العبدية بالافتقار إلى الله تعالى وحفظ حقوقه على خلقه .

والمرشد الذي لم يبحر من قبل ، ولم يختبر الطريق سرعان ما يغرق ويغرق كل من يركب في سفينته ، يغرقهم في المتاهات ، وتسيطر عليهم الجهالات والانحرافات ، ويجدون أنفسهم أسرى لتصورات خاطئة ومعتقدات منحرفة وشبهات تسري في دمائهم وتفسد شرايينهم .

ما أقسى ما يعانيه المريد على يد مرشد جاهل تصدى للإبحار وهو لم يعرف معالم الطريق ، وسرعان ما يصطدم مركبه في الجزر التي تتوسط البحار ولا ينتبه لها من لم يعرف طبائع النفس من المرشدين .

لم يرب الشيخ إخوانه على التزام الطقوس الصوفية ولم يدعهم إلى ذلك ، ولم يلزمهم بالأذكار والأدعية والأوراد ، فلا يعرف إخوانه ذلك ، ولم يأخذ عليهم عهداً بالالتزام بهذه السلوكيات ، وما كان يريد لهم الاستغراق في المواجيد والأحوال ، فلم يكن هذا منهجه ، كان طريقه البيان والتوضيح ، وإحياء القلوب بالأخلاق الحسنة وتصحيح العادات والارتقاء بمستوى القيم .

منهجه آداب متبعة ، وخلق رفيع وشريعة هادية وسعي في الدنيا من غير تعلق بها ، وتعلق بالآخرة من غير تجاهل لحقوق نفسه عليه ، ودعوة إلى الارتقاء بالهمم والعزائم وتحليق في فضاءات الكون لمعرفة عظمة الخالق المبدع .

لم يدع إلى فتوحات الكرامات وخرق العادات ولم يتحدث في مجالسه عن ذلك ، وكان يضيق بمن يتعلق قلبه بهذه المظاهر التي لا تدل إن وقعت على

كرامة صاحبها وتميزه عند ربه ، فالتفاضل معياره الخلق والعمل الصالح والصدق مع الله في الظاهر والباطن ، أما ما يتعلق به العامة من خوارق العادات فهذا دليل الجهل بالمعايير والجهل بحقيقة التصوف ، فخوارق العادات هو استدراج طريقة المجاهدات النفسية ، ويتعلق به أهل الغفلة ، أما أهل الكمال فكرامتهم هي الاستقامة على طريق الشريعة والتمسك بآدابها ، وتعلق القلب بالفضائل والكمالات .

ولم يكن يعجبه أن تتعلق قلوب بعض إخوانه بالمجاذيب الذين تجري على أيديهم خوارق العادات ، وكان يفضل استعمال خوارق العادات على استعمال لفظة الكرامات ، فالكرامات هي ثمرة الاستقامة في السلوك ، أما خوارق العادات فلا تدل على تميز عند الله ، ومن تعلق قلبه بخوارق العادات كان ذلك حجاباً له عند ربه ، والكامل يجب ألا تحجبه المظاهر عن الحقائق وكان يقول : المجذوب ناقص العقل ، ومن كان كذلك لا يصلح للاقتداء به ، ولو كان صافي القلب ، ومنتقص عقله لم تكن أعماله حجة في نظر الشريعة .

وغاية التربية الصوفية هي إحياء القلوب وعلاج أمراضها لكي تتمكن من فهم كلام الله ومعرفة عظمته ولا حدود للفهم ولا حدود لعطاء الإمداد ، قال تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف : ١٠٩] .

علاقته بإخوانه :

لم تكن علاقة الشيخ بإخوانه ومريديه علاقة معلم بطلابه ، يحدد لهم مواعيد الدروس ، ثم تتوقف الصلة وتغلق أبواب التواصل ، وإنما كانت علاقة رب أسرة بأبنائه وأحفاده، علاقة حب وود ، وكان يعيشون معه ويعيش معهم ، كان الرمز الكبير لاحترامهم ، كان معهم في منازلهم كرمز يسمعون صوته من بعيد ، ويربون أبناءهم على حبه ويتحدثون عنه في كل صباح ومساء ، وتجتمع الأسرة كلها على كلمته ، تقبل نصحه وتحتكم إليه في أمورها ، ويرونه قريباً منهم ، يختلفون في كل شيء ويلتقون على محبتهم له ، ويرحل كبيرهم إلى رحاب الله ، وتظل الأسرة متماسكة متحابة مجتمعة على تلك الصلة الروحية .

ما أروع ذلك التواصل الروحي ، ما زلت حتى اليوم وبعد أكثر من ربع قرن من رحيل الشيخ أرى أحفاد ذلك الجيل الأول الذي صاحب الشيخ يجتمعون في كل يوم جمعة في مسجده يستعيدون ذكريات آبائهم وأجدادهم ، ويجددون صلتهم الروحية بمن أحبوه في طفولتهم وتعلقوا به ، ورضعوا لبان ثقافتهم الروحية منه ، أراهم فلا أعرفهم ، سمعوا بالشيخ ولم يروه ، أو اجتمعوا به في حياته وكانوا في طفولتهم الأولى ، يذكرون كلمة من كلماته ، أو همسة خصَّهم بها ، أو دعاء ما زالوا يحفظونه في ذاكرتهم ، كل ذلك أراه في كل يوم وأسمعه فأتساءل عن سر ذلك التواصل بين الشيخ وأخوانه ، إنه عالم عجيب ذلك الذي ينطوي عليه الإنسان في تطلعاته ومشاعره.

أهم الأسر التي اشتهرت بانتمائها للشيخ:

لم تكن علاقة الشيخ قاصرة على رب الأسرة أو على فرد من أفراد الأسرة ، كانت الأسرة كلها تنتمي إلى الشيخ ، وكان هذا مما يوحد رؤيتها ويلم شملها.

اشتهرت أسر بانتمائها لمدرسة الشيخ التربوية ، كان كل أفراد الأسرة يشعر بهذا الانتماء ويفخر به ، فقد رحل الجيل الأول وخلفه الجيل الثاني ، وجاء الجيل الثالث والرابع. وما زالت الأجيال النبهانية تتلاحق لا سيما الطلبة وعصافبر الجنة يتخرجون من مدرسته التي أسسها ، وكانت حلماً يراوده وصارت حقيقة ناصعة.

كنت في حياة الشيخ أمثل جيل الأحفاد ، فقد كنت حفيداً للشيخ ، وكان هناك جيل الأبناء ، جيل الأجداد ، وكنت أعايش جيل الأجداد بالرغم من صغري ، بسبب مرافقتي للشيخ وكنت الوحيد في سني الذي أحضر مجالسه ، وعرفت من أسرار ذلك الجيل الأول وأخباره ما لا أعرفه عن جيلي ، ما زلت أذكر الأسماء والمواقف والمجالس بدقة بالغة.

ونسيت أسماء أبناء جيلي والأجيال التي جاءت بعد ذلك ، ذاكرة الأطفال لا تنسى لأنها ذاكرة خالية صافية لا يشغلها شيء ، ثم تضيق هذه الذاكرة

وتنسى الجديد فلا يعلق بها ، ويبقى القديم راسخاً لا ينسى ، وكأنه يتحدى الزمن.

أرى اليوم ملامح رجال عرفتهم منذ نصف قرن ، أناديهم بأسمائهم وأبنائهم ، وأسألهم عن أخبار الأمس البعيد ، وكأنه الأمس القريب ، ولا أذكر الجديد إلا بمشقة.

عرفت أسر بمدينة حلب بانتمائها للشيخ ، وما زالت وفية لهذا الانتماء ، فخورة به ، كنت أشعر أن تلك الأسر هي أسرتي الكبيرة ، ذات الفروع والممتدة عبر المدينة الواسعة ، في كل الأحياء الحلبية في الشرق والغرب والشمال والجنوب ، ذلك شعور رائع في النفس تحس بدفء الأسرة الواحدة وتماسكها ، لا تجمعها روابط دم وقرابة وإنما تجمعها ثقافة واحدة موحدة لرؤيتها تشد بعضها إلى البعض الآخر في نسيج متكامل منسجم الألوان ، وبالرغم مما تخلفه عوائد التمدن والتحضر والعمران من أثر في سلوكيات الأفراد من شعور بالتفرد والتميز والفردية فإن تلك الرابطة ظلت قائمة في حياة الشيخ ، وأخذت تضعف بعد ذلك.

سأذكر بعض الأسر التي ما زالت أسماؤها عالقة بذهني بعد نصف قرن تقريباً من معرفتي الأولى بها ، في بداية طفولتي وأعرف الأسر الأولى ولا أذكر الأسر التي انضمت إلى أسرة الشيخ فيما بعد ، بعد غيابي الطويل.

وأهم أسر المرحلة التي رافقت الشيخ فيها ما يلي:

١ ـ **أسرة المهندس** ، وهي أسرة تجارة ومال ، ومن أبرز رجالها الحاج محمد المهندس الذي كان يسكن في دار واسعة بخان الحرير ، وقد تزوج من ابنة الشيخ ، وهو تاجر كبير اشتهر بالنبل والخلق ، وله شقيق هو الحاج عبد الحميد المهندس وهو من رجال التجارة ، ومن إخوان الشيخ القدماء المشهود لهم بالمكانة الاجتماعية وأنجب الحاج محمد من ابنة الشيخ كلاً من سهيل وشمس الدين.

٢ ـ **أسرة باقي** ، وهي أسرة مشهورة بالتجارة ، وكانت من أوائل الأسر التي

اشتهرت بعلاقتها بالشيخ ، برجالها ونسائها وأطفالها ، وكان السيد محمد باقي من إخوان الشيخ القدماء ، واشتهرت شقيقاته بتلك الصلة ، وتربى ابنه السيد مروان باقي في رعاية الشيخ منذ طفولته ، بفضل توجيه أبيه وأمه له ، وهو اليوم من أبرز إخوان الشيخ الملتزمين بخط الشيخ ، هو وأخوته هشام وسمير ومحمد وأسامة ويعملون في مجال الهندسة والبناء ، كما اشتهر الحاج عبد الرزاق باقي وأسلاته لا سيما أنجاله رياض وواصف ومصباح ونجم الدين وإخوانهم بعلاقتهم بالشيخ .

٣ ـ **أسرة العتر :** وهي من الأسر التي اشتهر رجالها ونساؤها بانتمائها لمدرسة الشيخ ، وكانت تسكن في حي باب الأحمر في ذلك الحين ، وعميدها الحاج حسين العتر التاجر المشهور ، وأبناؤه وحيد وعبد اللطيف وعبد الرحمن وأبناؤهم عبد الرحيم وأشقاؤه وأبناء عبد اللطيف ، وما زالوا ملتزمين حتى الآن ، وكانت الأسرة مشهورة بتجارة الصايات الحلبية .

٤ ـ **أسرة الشامي** ، وعميد هذه الأسرة الشيخ الشهيد محمد الشامي الذي اشتهر بحبه للشيخ وتفانيه في خدمته والتعريف بمكانته وشرح أفكاره ودعوة شخصيات علمية لزيارة الشيخ ، وكان من أنشط إخوانه ، كان عالماً وخطيباً مفوهاً وشجاعاً في إبداء آرائه على المنابر ، وكان الشيخ يحبه ويدنيه إليه في مجالسه ، واستشهد في عام ١٩٨٠ في أيام الفتنة التي وقعت بحلب ، وكان ابنه الدكتور صهيب من المحبين المتفانين في خدمة الشيخ ، منذ طفولته الأولى ، وكان الشيخ يحبه لصدق همته ، وما زال حتى الآن من أبرز إخوان الشيخ الذين يفخرون بهذا الانتماء ، واشتهرت أسرته كلها بحب الشيخ ، الشيخ مصطفى الشامي والشيخ عبد العزيز الشامي النائب عن المدينة في مجلس الشعب وبقية أخوته .

٥ ـ **أسرة الدبّاغ** ، وكان عميدها أبو عمر الدبَّاغ المعروف بمواقفه الوطنية وشخصيَّته القويَّة ، وكان مرافقاً للشيخ في مجالسه الخاصَّة والعامّة ، ويشرف على تنظيم هذه المجالس وكان مهيب الشخصية ، واشتهر أبناؤه الستة بحب الشيخ وهم عمر وظافر وأنور وعبد القادر وعبد الوهاب وكامل وهم من التجَّار

المشهود لهم بالنزاهة والصدق ، ويعتبر الحاج ظافر من رموز إخوان الشيخ الذي يحظون بالاحترام والتقدير في مختلف الأوساط التجارية ، وتضم هذه الأسرة كلاً من عبد الغني الدبَّاغ وعادل الدبَّاغ وعمر الدبَّاغ ، وأولادهم. . .

٦ ـ **أسرة الصغير** ، وعميدها الحاج أحمد الصغير وهو صهر الشيخ ، وكان من أقطاب المال والتجارة والصناعة المعروفين بحبهم للأعمال الخيريَّة وبناء المساجد ، وكان من الملازمين للشيخ في مجالسه ومذاكراته ، وكان الشيخ يحبُّه ويقدِّره ، وتوفي في حياة الشيخ ، وأنجب كلاً من عبد الله وعبد الرحمن ومصطفى ومحمد ويوسف وهم أحفاد الشيخ. . .

٧ ـ **أسرة شمسي** ، وعميدها الحاج فوزي شمسي وكان من أبرز إخوان الشيخ وأكثرهم ملازمة له في مجالسه وأسفاره ويتميَّز بالفصاحة والشخصيَّة الواعية ، وهو من التجار المشهود لهم بالكفاءة والمنزلة الاجتماعيَّة ، وكان الشيخ يعتمد عليه في المهمَّات ويثق بحكمته ، وله عدّة أخوة منهم السيّد عبد الملك شمسي وطارق شمسي ومنير وعبد القادر ، أما أبناؤه فهم وليد وبكري ونجم الدين وبدر الدين وغيرهم.

٨ ـ **أسرة حسُّون** ، وعميدها الشيخ أديب حسُّون العالم الكبير الذي كان يلازم الشيخ في مجالسه ، ويلقي الكلمات باسم الشيخ في المناسبات العامة ، كما كان يلقي الدروس في الكلتاويّة ، وكان من السالكين المحبّين الذين يتمتعون بالأدب ومحبَّة الشيخ ويسير على منهجه في التربية ، وقد كتب كتاباً عن الشيخ «آلاء الرحمن على العارف النبهان» سجل فيه لمحة عن حياة الشيخ وكراماته ، واشتهر ابنه الدكتور أحمد حسُّون فيما بعد بالعلم والدعوة وعيّن مفتياً لحلب وانتخب نائباً في مجلس الشعب وهو من الرموز الإسلامية البارزة. .

٩ ـ **أسرة الحدَّاد** ، وعميدها الشيخ بشير الحدَّاد الذي كان من المحبِّين المخلصين ، أخلص وأسرته في خدمة الشيخ في الأشراف على الكلتاويّة ، وكان خطيب الكلتاويّة والغيور عليها. وكان أبناؤه من العلماء وهم محمّد وأحمد ومنير الذي تزوَّج من ابنة الشيخ ، ثم توفي في حادث مؤلم في السعودية مع أسرته ، وكان من العلماء الصادقين وتولّى خطبة الجمعة في الكلتاويّة.

١٠ ـ **أسرة الناشد** ، وكانت من الأسر التي اشتهرت بانتمائها لهذه المدرسة ، ووفائها لها ، وكان من أبرز رجالها الحاج محمود الذي كان متفرِّغاً لخدمة الشيخ يقود سيارته ويرافقه في كل تحرّكاته في سفر وحضر ، ويوفِّر له أسباب راحته ، كما اشتهر كلّ من الحاج رشيد والحاج يوسف وقد حافظ أبناء الحاج محمود على وفائهم للشيخ وملازمتهم للكلتاويّة ، وبخاصّة الحاج عبد العزيز والحاج محمّد وأخوتهما وفريد والطيِّب وأبنائهم أحمد وعبد الله ، واشتهرت هذه الأسرة بصناعة السكاكر باسم ناشد إخوان .

١١ ـ **أسرة أبو دان** ، واشتهرت هذه الأسرة بأدب رجالها مع الشيخ ، وكان الشيخ يحبُّهم ويقدّرهم ويثني عليهم ، ومن أشهر رجال هذه الأسرة الحاج عبد اللطيف والحاج محمد وناجي وعبد السلام وأبناءهم ، وبالرغم من عدم ملازمتهم للشيخ فقد كانوا معه بقلوبهم وأرواحهم ويستفيدون منه بفضل أدبهم ، ولم أجدهم يتكلمون في مجلس الشيخ أدباً .

١٢ ـ **أسرة التبَّان**، وعميدهم الحاج سليم التبَّان التاجر المعروف بالاستقامة والنزاهة والخلق الرفيع والتزام الأدب . . كان محبّاً صادقاً للشيخ ومثالاً للصدق، واستمرَّ أولاده وأحفاده على ملازمتهم لمجالس الشيخ ، وأهمُّهم محمَّد بن سليم وأبناؤه .

١٣ ـ **أسرة البوادقجي** ، اشتهر من هذه الأسرة الحاج محسن بوادقجي تاجر العطورات في سوق السويقة ، وكان من الملازمين لمجالش الشيخ ومن المحبِّين الصادقين ، وكان الشيخ يداعبه في المجالس ، وفي كل مجلس كان يطيِّب الأخوان بعطر الورد .

١٤ ـ **أسرة الحموية** ، اشتهر الحاج محمود حموية بحبِّه للشيخ وهو تاجر في السويقة ، وكان من قدماء إخوان الشيخ ، وملازمي مجالسه ، وكان يسكن في حي البياضة . . واشتمر أبناؤه في ملازمة المجلس بعد وفاة أبيهم ، وكان يمثل الجيل الأول .

١٥ ـ **أسرة لطفي** ، اشتهر من هذه الأسرة الشيخ محمد لطفي الذي كان يعمل في التجارة ثم تعلَّق بالعلم وتفرغ له ، وكان من ملازمي مجلس الشيخ

الذين يحظون بثقة الشيخ ومحبّته ، وكان أديباً متخلّقاً عميق الفكر ، وأسند إليه الشيخ إدارة مدرسته في الكلتاويّة لمدة سنوات .

١٦ ـ **أسرة العجم** ، عرف الحاج محمد عجم الشيخ ولازم مجلسه وتعلق به وكان من كبار تجار حلب المعروفين بالسمعة الطيبة والاستقامة والدين والخلق ، واشتهر بالورع في معاملاته ، وكان من المؤسسين لجمعية النهضة الإسلامية الخيرية ولمدارس النهضة التي كان يرعاها الشيخ ، ومن المعروفين بسخائهم في الأعمال الخيرية ، وكان الشيخ يحبه ويشيد بعقله وحكمته وسداد رأيه ، وبعد وفاته تابع ابنه الأكبر الحاج نادر عجم طريق أبيه في وفائه لمنهج الشيخ وتشجيعه لمؤسسات النهضة وبخاصة المدرسة الشرعية وتمويله لمشاريعها العلمية .

١٧ ـ أسرة الناصر ، اشتهر الحاج ناصر الناصر بملازمته لمجالس الشيخ وإخلاصه له ، وهو من التجار المعروفين بالنزاهة والاستقامة والورع ، وهو أحد المؤسسين لجمعية النهضة الخيرية التي كان يرعاها الشيخ ، واشتهرت أسرته بالتزامها بتربية الشيخ وبمنهجه ، وهو محب للشيخ وصادق في وفاته ، ويعتبر ابنه الدكتور نوفل من محبي الشيخ الملتزمين بمنهجه .

١٨ ـ **أسرة البيك** ، اشتهر الحاج عبده البيك بمحبة الشيخ وملازمة مجالسه ، وكان من الرجال الذين عرفوا بالشجاعة والرجولة والدين ، كان محباً صادقاً ومتفانياً في خدمة الشيخ ، كما اشتهر عدد من أفراد هذه الأسرة رجالاً ونساء وأطفالاً في ملازمة الشيخ منهم الحاج هيثم وأخوته ، وكان الشيخ يثني عليهم وحظي أطفالهم برعاية الشيخ ومحبته ، وكانوا قريبين منه وينتمي معظمهم إلى الجيل الثاني والثالث من إخوان الشيخ .

١٩ ـ **أسرة الأفندي**: كان الحاج أحمد الأفندي من محبي الشيخ ومن إخوانه المقربين ، ويتميز بالصدق والورع ، وهو زاهد في المال والجاه ، وهو من قدماء تجار السويقة وله فطرة نقية صافية ، وهو من المخلصين الأوفياء الملازمين لمجالس الشيخ ومذاكرته ، وهو يشرف على دروس يوم الجمعة التي يسمع فيها إخوان الشيخ مذاكراته المسجلة ، ولا يتخلف عنها حتى اليوم .

٢٠ ـ **أسرة فرفوطي** ، واشتهر من هذه الأسرة الأستاذ حسان فرفوطي الذي كان قريب الصلة بالشيخ والملازمين له ، والمنقطعين لخدمته ، وكان الشيخ يكلفه بإلقاء الخطب باسمه في الاجتماعات والمناسبات العامة ، ويتميز بالفصاحة في خطبه والقدرة على مخاطبة الجماهير ، وله مواقف مشهودة ، وكان الشيخ يحبه ويثق بحكمته ويكلفه بمهمات التواصل مع الآخرين. ومن أولاده: الدكتور طاهر.

٢١ ـ **أسرة حامد** ، وهي أسرة أصلها من أريحا ، وأبرز رجالها الشيخ نذير حامد العالم النحوي الذي عاش فترة من الزمن في الكلتاوية منقطعاً للعلم ، والتخصص في علوم اللغة العربية وحصل على الإجازة في الشريعة وهو رجل صالح وورع وأخوه أحمد منير حامد الذي كان من إخوان الشيخ الملازمين واشتهرب أسرة «حامد» برجالها ونسائها بمحبتهم للشيخ والتزامهم منهجه.

٢٢ ـ **أسرة قربللي** ، وأشهر رجالها الشيخ فاضل قربللي الرجل الصالح الورع الزاهد الذي يتبارك به ، لفطرته الصافية وصفاء قلبه ، وهو رجل متواضع وعلى خلق رفيع ، وهناك أخوه أسعد قربللي وهو من إخوان الشيخ والملتزمين بمنهجه.

٢٣ ـ **أسرة اللولو** ، واشتهرت هذه الأسرة برجالها ونسائها بمحبتهم للشيخ وملازمتهم له ، وأبرز رجالها الحاج محمد لولو الرجل الصالح الورع ، وهو من أشهر تجار الجلود والأحذية ، وهو من الجيل الأول ، وما زال مواظباً على دروس الشيخ بالرغم من شيخوخته.

٢٤ ـ **أسرة الططري** ، وأبرز رجال هذه الأسرة الملتزمين بمنهج الشيخ الحاج عمر الططري الرجل الصالح الوفي للشيخ ، وكان من أبرز اهتماماته في مجالس الشيخ أن يقدم الشاي الأحمر للشيخ ولا يسمح لأحد بأن ينافسه في هذه المهمة وهو من تجار باب النصر.

٢٥ ـ **أسرة الباذنجكي** ، وهي أسرة علم وصلاح وولاية ، وهي أسرة تجارة في سوق السويقة ، وأسرة اشتهر رجالها بالأمانة وخدمة الناس ومن أبرز أبنائها

الذين التزموا بمنهج الشيخ الحاج محمد بادنجكي الرجل الصالح الذي ترك تجارته وتفرغ لبناء المساجد ومساعدة الفقراء ، ويعود إليه الفضل في بناء جامع الرحمن أكبر مساجد حلب وأجملها ، وهناك الجيل اللاحق ومنهم عبد الرحمن البادنجكي الذي يواظب على دروس الجمعة بعد وفاة الشيخ.

٢٦ ـ **أسرة دانيال** ، ومن أبنائها الحاج حسن تاجر الجلود والأحذية وهو رجل صالح تقي ، ومتفرغ لخدمة أسرة الشيخ بعد وفاته ، وما زال حتى الآن ، ويقوم هو وأبناؤه بهذه المهمة وفاءاً للشيخ.

٢٧ ـ **أسرة السيد** ، ومن أبرز رجالها من إخوان الشيخ الحاج أحمد السيد ، الرجل المحب للشيخ والملتزم بخطه وتربيته ، وكان الشيخ يحبه ويثني على صدقه ونزاهته وأمانته.

٢٨ ـ **أسرة الحوت** ، وهي أسرة ترتبط بروابط القربى مع أسرة الشيخ ، وأبرز رجالها من الإخوان الشيخ عبد الرحمن صديق الطفولة للشيخ ، ثم ظهرت مجموعة كبيرة من أبناء هذه الأسرة الذين تربوا على يد الشيخ من العلماء الموثوق بدينهم ، من أبرزهم الشيخ محمود الحوت الخطيب المفوه الذي يخطب الجمعة في الكلتاوية وهو مدير دار النهضة الشرعية التي أنشأها الشيخ ، وهناك شقيقه الشيخ أحمد والشيخ عبد الباسط وعدد من علماء هذه الأسرة التي اشتهرت بانتمائها الصادق لمنهج الشيخ ، وهم يمثلون الجيل الثالث والرابع.

٢٩ ـ **أسرة الملاحفجي** ، ومن أشهر أبنائها الشيخ عمر الملاحفجي الرجل الصالح الذي كان الشيخ يحبه ويداعبه في مجالسه ، نظراً لصلاحه وتعلقه بالصالحين وإيمانه بالمجاذيب ، وحرصه على خدمة الناس ، وهو رجل دعوة وصلاح وحب للخير ، ويتبرك به.

٣٠ ـ **أسرة النعساني** ، ومن أبرز أبنائها المحبين للشيخ الحاج زهير النعساني التاجر ورجل الصناعة ، وكان من الملازمين لمجالس الشيخ والمحبين الأوفياء ، كان الشيخ يحبه نظراً لما يتميز به من صفاء وخلق ،

ويشعره بمكانته في قلبه ، ونشأ أبناؤه السبعة على حب الشيخ وتزوج ابنه الأصغر محمد من إحدى حفيدات الشيخ.

٣١ ـ **أسرة قمري**: أحبت هذه الأسرة الشيخ وتعلقت به ، رجالاً ونساءً ، والتزمت بمنهجه ، ومن أبرز رجالها الحاج عبد الحميد قمري وشقيقه الحاج أحمد ، وكلاهما كان من الرجال الصالحين الملتزمين بالسلوك الإسلامي ، والعمل الصالح ، ونشأ السيد عبد السلام ابن الحاج عبد الحميد في رحاب الشيخ وتعلق به ولازم مجالسه ، وكان في بداية شبابه ، وظل على العهد ، وتزوج من حفيدة الشيخ ، وأنجب كلاً من محمد وعبد الحميد وصفوان وخالد.

٣٢ ـ **أسرة عزّو خشبة** ، كان الحاج عبد الله عزو خشبة من أنشط إخوان الشيخ وأكثرهم حركة وكان باستمرار يقف مع مجموعة من الإخوان في الصف الأول الذي يحيط بالشيخ ويخدمه ، وينفذ توجيهاته ، ويملك طاقة كبيرة من النشاط والشباب والحماس ، كان طيب القلب ودوداً لإخوانه.

٣٣ ـ **أسرة الحمامي الرفاعي** ، كان الحاج محمد الحمامي الرفاعي من قدماء إخوان الشيخ ، كان تاجراً في خان الجمرك ، ويحب مجالس السماع ، وكان له صوت جميل ينشد فيه أجمل الأناشيد ، وقد تزوج من ابنة الشيخ وانجب عدداً من الأبناء.

٣٤ ـ **أسرة اللبابيدي** ، كان الشيخ أحمد اللبابيدي من قدماء الإخوان ، وكان متفرِّغاً لخدمة الشيخ ، ومحباً له ، ويعيش في الكلتاوية ويشرف على أعمال الشيخ ، كان زاهداً صالحاً ورعاً ، يخدم إخوانه بكل صدق ، وله هواية في أعمال الكهرباء والميكانيك.

٣٥ ـ **أسرة الصهريج** ، كان الحاج محمد الصهريج من إخوان الشيخ المحبين ، والملازمين لمجالسه ، وهو رجل فاضل ونبيل ومستقيم ، وكان طيب النفس أديباً ، يعمل بصمت ، ويخدم بإخلاص.

٣٦ ـ **أسرة السروجي** ، كان الحاج مصطفى السروجي من الإخوان الذين

تفرغوا كل يومهم لخدمة الشيخ في جامع الكلتاوية ، يعد له الطعام ويقدم الشاي للضيوف ويقوم بإخلاص بكل المهمات الخاصة ، وكان يقضي نهاره وليله في خدمة الشيخ ، ولا يتكلم إلا إذا سئل ، ولا يتدخل بأي أمر إلا إذا أمره الشيخ ، وكان الشيخ يحبه ويرتاح لخدمته ، وهناك أخوه الحاج محمد السروجي وكان من إخوان الشيخ القدماء.

٣٧ ـ **أسرة النجار** ، كان صالح النجار من قدماء الإخوان ومن أصدق المحبين واشتهر بتفانيه في خدمة الشيخ ، وكان يرافق الشيخ لخدمته ، وتوفي في وقت مبكر وحزن عليه الشيخ حزناً كبيراً ، وخلفه شقيقه هاشم النجار الذي كان ملازماً لمجالس الشيخ.

٣٨ ـ **أسرة ربيع**: كان الحاج محمد ربيع من قدماء الإخوان الصادقين المحبين الذين تأثروا بتربية الشيخ وظهر هذا على سلوكهم ، كان صالحاً ورعاً محباً ، هادئاً يحبه الكل لأخلاقه ، وتوفي في وقت مبكر.

٣٩ ـ **أسرة مخزوم**: كان الحاج مصطفى مخزوم من المحبين الصادقين الذين لازموا مجالس الشيخ بصدق ، وكان تعلقهم صادقاً وأعطوا الصحبة حقها من التزام الأدب والتخلق بالأخلاق الحميدة.

٤٠ ـ **أسرة كحيل**: كان الحاج ناصر الكحيل من المحبين الملتزمين الذين أعطوا الصحبة حقها من الالتزام بالأدب ، وكان لا يصلي الجمعة إلا في مسجد الشيخ لمدة ربع قرن بعد وفاته ، يؤذن لصلاة الجمعة كما اعتاد أن يفعل في حياة الشيخ إلى أن توفاه الله.

٤١ ـ **أسرة السالم**: اشتهر الشيخ نجيب سالم بمحبة الشيخ والالتزام بمنهجه ، وكان من مدينة أريحا ويحضر لمجالس الشيخ في حلب ، كان عالماً تقياً صالحاً ، وربى أولاده على محبة الشيخ ، وأصبحوا من أبرز إخوان الشيخ من العلماء منهم الشيخ عبد الله والشيخ نبيه والشيخ عبد المنعم ، ولهم الآن نشاط إسلامي جيد. في خدمة العلم ومجال الدعوة إلى الله.

٤٢ ـ **أسرة الفرا**: كان السيد ناظم الفرا من قدماء إخوان الشيخ المحبين

الملتزمين وكان الشيخ يكلفه بالأمور الثقافية والإدارية ، وهو رجل صالح ومخلص ومستقيم.

٤٣ ـ **أسرة لبنيه**: كان الشيخ نزار لبنية من الشباب المثقف الذي تحولت حياته من بيئة إلى أخرى مختلفة ، عرف الشيخ وتعلق به بطريقة عجيبة ، وسار في طريق المجاهدات والرياضات النفسية ، وكان يصوم بشكل دائم ، ويؤدي عبادته بكل خشوع ، ثم تابع دراسته بكلية الشريعة ، وسار في طريق الدعوة والإرشاد ، وكان من أكثر الإخوان مجاهدة لنفسه.

٤٤ ـ **أسرة عابدين**: كان الشيخ عمر عابدين آغا من أسرة ثرية ومشهورة وكان من أهل الصفاء الروحي والطهارة القلبية ، أحب الشيخ وتعلق به ، وزهد في الدنيا ولازم جامع الكلتاوية في الصلوات الخمس خلف الإمام. كان محباً لتلاوة القرآن ، آخذاً نفسه بآداب العبادات ، كثير المحاسبة لنفسه بعيداً عن الرياء ، كان يحب الشيخ بصمت وأدب. . وكان الشيخ يحبه ويثني عليه.

٤٥ ـ **أسرة القصاب**: كان الحاج علي القصاب من أقدم إخوان الشيخ ، ويعرف عن الشيخ ما لا يعرفه غيره من أحواله ومجاهداته ، وكان محباً شديد التعلق بالشيخ ، وكان يحكي في مجالس مرضه عن الشيخ ما لا يعرفه الآخرون ، وكان يبكي كلما رأى الشيخ. . وتوفي في وقت مبكر.

٤٦ ـ **أسرة الخلف**: كان الشيخ شعبان خلف شاباً في مقتبل العمر ، وكان يعمل في الزراعة وأحب الشيخ وتعلق به ، وكلفه الشيخ بأن يكون وكيله في الإشراف على أعماله الزراعية في قرية الجابرية ، كان شاباً قوياً يحب الفروسية ويخدم الشيخ بكفاءة وإخلاص ، وما زال حتى الان وفياً للكلتاوية.

٤٧ ـ **أسرة الدواليبي**: كان السيد علاء الدين الدواليبي الشقيق الأصغر للدكتور معروف الدواليبي من الشباب الذين تأثروا بتربية الشيخ وبمنهجه الروحي ، وسار على هذا المنهج ، وتزوج بعد ذلك من ابنة الشيخ الصغرى ، وأنجب كلاً من بدر وبهاء وغياث وإخوانهم.

٤٨ ـ **أسرة الرشواني**: كان الشيخ محمد الرشواني من الأطفال الذين ربتهم

أسرتهم على حب الشيخ ، وذهب مع أمه إلى الحج في رحلة الحج الكبرى التي رافق الإخوان فيها شيخهم ، وكلف الشيخ الطفل الصغير محمد أن يكون مع النساء لمساعدتهم ، ودخل محمد مدرسة الشيخ وتعلم فيها ، واختار أن يكون في خدمة الشيخ بعد وفاته ، يشرف على المسجد والمدرسة ويخدم إخوان الشيخ وأسرته.

٤٩ ـ **أسرة الصباغ**: كان المرحوم محمد الصباغ من أكثر إخوان الشيخ محبة له وتفانياً في خدمته والتزاماً بمنهجه ، وكانت له مصبغة ، انفجرت في وجهه ، وأحرقت اثنين من أطفاله ، واشتعلت النار في جسده ، فخرج على غير وعي منه إلى دار شيخه التي تبعد عشرين دقيقة عن داره والنار مشتعلة في ثيابه ، ولم يره الشيخ ، لقد فارق الحياة . . وحزن الشيخ عليه حزناً كبيراً.

٥٠ ـ **أسرة الخضر** ، كان الأستاذ أحمد مهدي الخضر ممن يحظون بمحبة الشيخ ، فقد كان محامي الشيخ والمدافع عنه ، وبخاصة في المحن والأزمات التي مرت به ، وكان من المحبين الصادقين المخلصين الذين يعملون بصمت لخدمة الشيخ ، وكان عالماً وفقيهاً وقانونياً ، وتولى وزارة الأوقاف . . كما تولى إدارة مدرسة الشيخ الشرعية .

٥١ ـ **أسرة السنكري**: وأبرز رجال هذه الأسرة عبد القادر سنكري ، الذي كان من قدماء الملازمين للشيخ الذين اشتهروا بالصدق، كما اشتهر عبد الرحمن سنكري بملازمة مجالس الكلتاوية بعد وفاة الشيخ . .

وهناك أسر وأفراد آخرون لا يقلون عن هؤلاء مكانة ومحبة ، كانوا يحبون الشيخ وكان يحبهم ، لم تسعفني الذاكرة أن أذكر أسماؤهم ، وبخاصة بالنسبة للجيل الجديد الذي صاحب الشيخ بعد غيابي عن حلب ، وأنني اعتذر منهم لأن من حقهم أن يذكروا ، وفاءً لهم ولكن لا خيار مع الذاكرة التي لا تستطيع الإحاطة بكل شيء ، لعل هذا أن يقع تلافيه فيما بعد ، فهناك الكثير مما يجب أن يسجل من الأفكار والمواقف والأشخاص ، وهناك أشياء قد تتعدد فيها الرؤية فما يقع في التراجم لابد من التماس العذر فيه للكاتب ، سواء من حيث نقص المادة العلمية أو فيما يتعلق بتفسير المواقف والآراء .

والكاتب في الترجمة لا يعبر عن الحقيقة المطلقة ، وإنما يكتب عن الحقيقة كما قرأها وفهمها ، ويمكن أن تتعدد المفاهيم ويختلف فيها الاستنتاج ، وبخاصة فيما يتعلق بالآراء والأفكار والمواقف.

واعترف أن فيما يتعلق بالإخوان هناك ثغرات تعبر عن فراغ فيما يتعلق بإخوان الشيخ في العراق وهذا يحتاج إلى بحث مستقل يمكن أن يقوم به إخوان العراق ، وهناك فراغ واضح فيما يتعلق بإخوان الشيخ في الريف ، وهناك فراغ فيما يتعلق بالنساء من إخوان الشيخ ، وقد سجلت ما شهدته في الفترة التي كنت قريباً فيها من مجالس الشيخ ، وفي حدود ما تذكرته ، ولعل الفراغ الأكبر هو ما يتعلق بطلاب العلم من خريجي الكلتاوية وهم كثر ، ولا سبيل للحديث عنهم أو ذكر أسمائهم ، لعلهم يكتبون ذلك بأنفسهم ، وهم أقدر مني على ذلك.

اهتمام الشيخ بالأسرة:

واخترت الحديث عن الأسر وليس عن الأفراد ، لأن علاقة الشيخ لم تكن خاصة بفرد واحد من الأسرة ، بل كانت علاقة بالأسرة بأكلمها ، من رجالها ونسائها وأبنائها وأحفادها ، وهذا ما جعل العلاقة أكثر متانة ووثوقاً ، فالتربية غايتها تخليق العادات والسلوكيات لكي تكون أكثر سمواً واستقامة ، والتزاماً بقيم السلوك السليم ، وهذا مما كان يؤدّي إلى أن انعكاس أثر هذه التربية على سلوك الأسرة كلها ، لكي تكون العلاقات بين أفرادها أكثر تماسكاً ومتانة.

كان الشيخ يدعو إخوانه لكي يكونوا قدوة لغيرهم ، وان يقدموا أنفسهم للآخرين بسلوكهم ، والآخر الأقرب هو الزوج والزوجة والأولاد والآباء والأخوات ، فإذا التزم أحدهم بمنهج الشيخ وأخذ بآداب السلوك فسرعان ما ينعكس ذلك على من حوله ، فيحاكونه فيما أخذ نفسه به ، ومشوا في نفس الطريق الذي سار فيه.

أحياناً يبتدىء الأمر بالابن وسرعان ما يلحق به الأب والأم ، وأحياناً يبتدىء الأمر بالزوج فتلحق به الزوجة ، وأحياناً يبتدىء الأمر بالأم فيلحق بها

أولادها ، ولا يلحق الآخر بمن سبقه إلا أن يجد فيه الصدق والاستقامة والتقوى وحسن الخلق.

وأكثر ما كان يلفت انتباهي أن أجد أماً عرفت الطريق وسارت فيه ، وأخذت تبذل كل جهدها لاستمالة أبنائها إلى هذا المنهج ، وتقنعهم بكل الحنان والعطف لكي يسيروا معها ، وتأتي بهم إلى مجالس الشيخ وقلبها واجف خائف يتضرع إلى الله تعالى بكل صدق الأمهات أن يشرح الله قلوبهم لمحبته وطاعته ، وأحياناً كنت أجد شاباً لم يبلغ سن العشرين بعد أشرق النور في قلبه فأثمر هداية وطاعة يمسك بيد أبيه والدمعة في عينيه يأتي به إلى مجلس الشيخ ، ويرفع رأسه إلى السماء داعياً الله تعالى بكل براءة وصدق أن يذيق والده حلاوة الإيمان وسكون اليقين ، وأحياناً كنت أسمع قصة فتاة في مقتبل العمر ، هجرت حياة المتعة والتبرج والسفور وشعرت بلذة الأنس الذي تطمئن به القلوب الراضية بقضاء الله.

واكتفي بهذا المقدار من التعريف بهذه الأسر التي تربت على حب الشيخ ، سواء أكانوا من الرجال أو النساء، كما تربى الأطفال منذ نعومة أظفارهم على عشق رمز وجدوا فيه الكمال والاستقامة والفضيلة حيث رضعوا هذا الحب ، واختاروا هذا المنهج ، ورحل الشيخ وبقيت الذكريات حية في النفوس ناطقة في كل موقف ، تحدثهم وتوحي إليهم بما يسعدهم من أحاسيس ومشاعر سامية إذ أحبهم لله وأحبوه لله.. فما أحبهم لشيء وما أحبوه لغاية.. فلم يكن بحاجة إليهم ولم يكونوا بحاجة إليه... هذا هو الحب لله.. هذه هي النزاهة التي يمكن أن تولد الحب الحقيقي وقد رحل الشيخ ورحل معظم إخوانه ، وبقيت ذكريات حلوه.. من الوفاء... لهذه المسيرة النورانية والسلوك الإنساني.

ونحن عندما نسجل أسماء هذه الأسر وأسماء أولئك الرجال فهذا حق من حقوقهم ، لأنهم جزء من تاريخ هذه المدرسة الفكرية العريقة التي أسهموا في بناء صرحها ، إنَّهم تراث نفيس يجب أن نحافظ عليه ، ومن حق أبنائهم وأحفادهم أن يقرأوا هذا السجل المشرق من الذكريات لذلك الجيل الذي بني وأعلى البناء وشاد هذا الصرح الكبير.

في كل زاوية من زوايا هذه المؤسسة القائمة اليوم باعمدتها توجد قصة جهاد وتضحية ما زلت أرى ملامح أولئك النفر الطيب من أنبل الرجال تتحرك أرواحهم كما كانت تتحرك أجسادهم ، أسمع همس كلماتهم وهم يتكلمون ، وأرى العرق يتصبب من جباههم وهم يبنون وأشم روائح الطيب وهي تعطر ذلك الفضاء الرحب من المكان الذي شهد أروع المواقف وأجمل الأيام.

أراهم وأنا أكتب.. فأصف وأرى ، وأسجل تلك الذكريات وتنهمر من عيوني دموع سخية تعبر عن التأثُّر العميق ، والانفعال الصادق وأشعر بالدفء يسري في كياني ، وأظن نفسي في حلم جميل ، لم يكن وهماً ما أرى ، ولم يكن حلماً من أحلام الليل... إنه جزء من ذاتيتنا وكياننا ، إنه الأمس بكل دقائقه ، الذي اشعل في قلوبنا تلك المشاعل المضيئة ، من الأحاسيس والعواطف. وحرك في ذواتنا أروع وأجمل الذكريات التي لا تمحى أبداً.

وقد سطرت هنا بعض ملامحها لكيلا تنسى ، فالتاريخ الذي لا تسجل أحداثه سرعان ما يموت كما تموت الأجساد ، ويفنى كما تفنى الأبدان ، والأمة التي لا تاريخ لها تشعر بالصقيع المرعب الذي تولده ليالي الشتاء الباردة ، وتبحث عن الدفء في الأساطير التاريخية التي تحفظها الأجيال وترددها على مسامع الأطفال ، لكي يشعروا بالأمن النفسي قبل أن تأخذهم سنة من النوم العميق ، وها أنذا أكتب ذلك إلى أحفادنا الذين لم يولدوا بعد ، فجيلنا ما زال يحفظ بقايا من الذكريات ، أما أولئك فسوف يبحثون عن تاريخ أجدادهم ، ولأنه تاريخهم وهو منهم وإليهم ، حتى يظل التواصل قائماً ، ولكي لا تنطفىء الشعلة المضاءة ، فزيتها يتجدد في كل يوم بما نضيفه في كل صباح إلى مخزونها من مشاعر الاعتزاز.

كنت أتأثر كل التأثر عندما كنت أزور ضريح الشيخ وأطوف في ذلك الفضاء المفعم بأريج من المشاعر والعواطف الدافئة ، وأرى شباباً لم أرهم من قبل ، يطوقونني ويحيطون بي وأتساءل عن سر ذلك ، إنني أراهم قريبين مني ويرونني كذلك ، إنهم لا يحيطون بي كشخص وإنما كرمز ، إنهم يجدون ذاتهم وكيانهم ، ويبحثون عن ملامح آبائهم وأجدادهم ، إنهم على حق فيما يحسون

به ، ولولا ذلك الدفء لما جاءوا ، إنه الإنسان في تكوينه كما أراده الله ، يبحث عن كماله الذاتي في حركته ، وأعظم كمال هو كمال الإحساس بالذات ، إنه الوهج الصادق الذي يأتي من بعيد ، يشعرك بالدفء الصادق وينير في قلبك القناديل المضيئة بعبق التاريخ روعة السنين.

أحس بذاتي بكل ما يحسون به ، واشعر بكل ما يشعرون ، والتمس لهم العذر ، وأشد على أيديهم ، إنني أعطيهم هذا الشعور وهم يعطونني ذلك.. شعور متبادل ، يحدثونني عن تاريخي وحياتي كما سمعوها في طفولتهم وأحدثهم عن تاريخهم كما رأيته وعشته وشاهدته فعلاً إنه عناق دافىء جميل.

تهيبت في البداية آن أكتب عن إخوان الشيخ ، خفت أن تخونني الذاكرة بعد نصف قرن من الزمن ، عشت بعيداً بجسدي عن تلك الأسرة الممتدة الواسعة ، كيف يمكنني أن أذكر الأسماء والوقائع والأحداث ، بل كيف أستطيع أن أرسم صور المجالس وأكسو ملامح الوجوه بما كان يلونها ويمنحها الحياة وينطقها بما كان يختلج في أحشائها وفجأة أحسست أن كل ذلك قد استيقظ كالمارد في كياني ، يحدثني ويومىء إلي ، بأنه حي تسري في شرايينه دماء الحياة.

لقد رأيت الملامح كما كانت ما زالت بشرتها لم تتغضن ، وكأنها لم ترحل من عالم الشهود إلى عالم الغيب ، حقاً ما زال صوتها كما كان ، يدوي في المسامع ، وكأنه لم تخرسه رعشات الفناء ، وما زالت أحداقها مفتوحة تقدح بالوهج والضوء وكأن الموت لم يوقف بريقها.

عاد كل شيء كما كان بالأمس البعيد.. شخوص وليست أشباحاً ، أحياء وليسوا أمواتاً يتحركون في فضاء الشيخ الذي يتوسط جمعهم ، بابتسامته الأبوية الحنونة التي لم تتوقف يوماً ، يدعوهم إلى الله ، ويحضهم على أن تصفو قلوبهم من الأكدار ، وتتزكى نفوسهم من التطلع إلى الآثام ، وأن يترفعوا عن التعلق بأعراض الدنيا الزائلة ، وان يحب بعضهم البعض الآخر ، وأن يتعاهدوا على رعاية حقوق الله في حياتهم الخاصة والعامة ، وأن يتسامحوا ويتحابوا وأن يكونوا إخواناً تشرق في قلوبهم ومضات الخير والفضيلة ، وأن يلتزموا بالاستقامة في معاملاتهم ، ويكونوا بررة لآبائهم محسنين لأسرهم رحماء

بأطفالهم وبكل المستضعفين في الأرض ، وأن يحتكموا إلى الله ورسوله فيما شجر بينهم من خلاف ، وأن يشعروا برقابة الله عليهم في كل عمل من أعمالهم ، ما ظهر منه وما بطن.

في كل صباح نداء موجه ، ودعوة مفتوحة ، لا لحفلة طرب وسماع ، ولا لقضاء إجازة بجوار غابة خضراء ، ولا للاستمتاع بمائدة شهية ، ولا للانغماس في الدنيا لتحقيق ربح مادي ، وإنما للمشاركة في عمل يرضي الله ورسوله ويخدم مصالح للمسلمين ، فمسجد يبنى بسواعد قوية لكي يكون منارة للدين تقام به شعائر الإسلام وتؤدى فيه الصلوات وتعقد فيه مجالس الذكر ، ومدرسة تشاد على التقوى لكي تكون مركز إشعاع ثقافي وعلمي لتكوين قيادات فكر ورواد معرفة ، تؤدي رسالتها في توعية الأمة والنهوض بأمرها ، وجمعية خيرية تطوف أحياء الفقراء والمستضعفين التي تضم رفات البؤساء واليتامى والأرامل الذي أنهك الجوع أجسادهم ، لكي تمسح عن عيونهم دموع القهر والإذلال ، ومؤسسات تأهيلية ذات طبيعة اجتماعية لإعداد الأسر الفقيرة لحياة تحفظ كرامتهم وتعينهم على تحمل أعباء الحياة ، ومعاهد تربوية لتكوين أطفال الغد الذين يشرق الأمل في ملامحهم ، وصروح تضاء مصابيحها ليلاً للتغلب على ظلمة ما يجري في فضائها من سلوكيات الغفلة واللهو ، فتنقلب بين عشية وضحاها إلى صروح هداية ونور ، يرفع فيها اسم الله ، وتصبح محجاً للمصلين القانتين العابدين ، ومسيرات مستمرة في كل مكان تنادي بمراعاة حقوق الله ، والالتزام بآداب الشريعة في العبادات والمعاملات والسلوكيات والمناهج التربوية والمظاهر الاجتماعية.

ذلك هو برنامج الشيخ اليومي الذي يسهر على الالتزام به ، لا يشغله عنه شاغل ، ولا تنسيه إياه ابتلاءات متجددة ومتواصلة تريد أن تصده عن هذا الطريق ، ويتحول من مكان إلى آخر ، ويمسك بيده غرسات الخير يزرعها بنفسه وجهده كل أرض ينتقل إليها ، فتنبت وتورق وتزهر ، وتطوق مسيرته أشجار النخيل المثمرة ، وتظلله أغصانها التي سقاها ورعاها فكانت له وفية وبه حفية.

اهتمام الشيخ بطلاب العلم:

حظي طلاب العلم بمكانة كبيرة في مجالس الشيخ ، وكان يتكلم كثيراً عن دور العلماء وهم ورثة الأنبياء في الدعوة إلى الله والنهوض بمستوى الأخلاق في المجتمع ، وتصحيح العادات والسلوكيات من مذموم إلى محمود ، والدفاع عن الحق والفضيلة ومحاربة الانحرافات والرذائل.

وكان يضيق بالعلماء الذين يلهيهم أمر المعاش عن القيام بالواجب وأداء الأمانة ، ويندد في مجالسه بعلماء السوء الذين يدافعون عن مصالحهم أو يسكتون عن كلمة الحق أو يداهنون الحكام للحصول على المناصب ، ويسميهم بعلماء المعاش ، ويقول: من باع دينه أو فرط فيه من العلماء لأجل المعاش لا عيّشه الله ، لأنهم خائنون «للأمانة» ، ويدعوهم للتعيش بغير العلم ، فالعلم رسالة ، وليس لأجل الوظيفة والتماس لقمة العيش ، وما ذل العلماء إلا عندما أذلتهم وظائفهم وأصبحوا مطية للحكام يبررون الأخطاء ، ولا يقولون كلمة الحق.

ويدعو إلى إعادة الاعتبار لدور المنبر في المساجد لكي يؤدي رسالته في مقاومة الباطل والنصح لله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويندد بالخطباء الذين لا يقولون كلمة الحق ، ويخافون على مناصبهم المادية ، حيث كان يريد العالم العامل بعلمه ، فالعمل هو ثمرة العلم ولا قيمة للعلم إذا لم يتبعه العمل.

لم يكن يحب العالم الذي يجري وراء الوظائف الحكومية طامعاً فيها ، ويحذر أصحابه من ذلك ، ويدعوهم إلى عدم تعلق القلب بهذه الوظائف مهما علت وكبرت ، فمن تعلق بها فسرعان ما تحجب قلبه عن الله ، وكان يغضبه أن يرى علماء المعاشات يجرون وراء المناصب ، يبيعون دينهم بدنياهم ، ويتملقون للعامة لاسترضائهم طمعاً في الجاه والشهرة.

كان يريد للعالم أن يكون سيداً في قومه بكل ما تعنيه كلمة السيادة من دلالات ، وأول شرط في ذلك أن يكون عفيفاً نزيهاً زاهداً فيما بأيدي الناس ،

لا يذل نفسه ولا يحني هامته ، يتكبر على المتكبرين ويتواضع للضعفاء والفقراء والمساكين ، يقول كلمة الحق في المجالس ولا تأخذه في الله لومة لائم.

لذا كان يرفع مكانة العلماء في مجالسه ، ويقربهم منه ، ويخصهم بالتكريم ، ويصحبهم معه ، ولا يسمح لأحد أن يتجاوزهم أو يتجاهل مكانتهم ، وإذا وجد عالماً فرط في كرامته أو صادق غنياً لغناه أو حاكماً لسلطته أو صاحب جاه لشهرته كان يغضب منه ، ويعتبر ذلك من تعلقه بالدنيا.

لم يكن عدد العلماء من إخوانه كبيراً في بداية الأمر ، بل كان معظم العلماء الذين يحضرون مجالسه يعتبرهم أصدقاءه ، وينزلهم مكانة التقدير ، ويخاطبهم بما يشعرهم بكرامة العلم ، ويحاورهم ويناقشهم ويباسطهم في الحديث ، ويدعو إخوانه لاحترامهم ، ولم يكلفهم بما لا يطيقون من المواقف والسلوكيات.

ثم بدأت مواكب العلماء تتكاثر في مجالسه على مرحلتين:

المرحلة الأولى: عندما التحق عدد من إخوانه بالجامعات ، بجامعة الأزهر وكلية الشريعة بعد افتتاحها بدمشق ، وانضم إليها عدد كبير منهم ، من أمثال نذير حامد ونزار لبنية وعبد الرحمن عتر وعبد البر عباس ومحمد لطفي ومنير الحداد ومحمود الفجال وصهيب الشامي وأحمد حسون وعلاء الدين علايا.

المرحلة الثانية: عندما افتتح مدرسته الشرعية بالكلتاوية ، في منتصف الستينات ، وأخذت تخرج الجيل الجديد الشاب من العلماء الذين اشتهروا فيما بعد ، وأصبح عددهم بالمئات ، وهم اليوم يحملون فكر الشيخ ويعرفون به ، ويمثلون الثمرة الطيبة لتلك الشجرة المباركة التي غرسها الشيخ وسقاها ورعاها إلى أن أصبحت أغصانها باسقة تثمر في كل عام جيلاً جديداً ينير الشعلة ويواصل الطريق ، ومن أبرز هذه المجموعة الشيخ محمود حوت والشيخ عبد الهادي بدله والشيخ محمد الرشواني والشيخ محمود الزين والشيخ أحمد الموسى والشيخ أحمد العيسى والشيخ أحمد الحوت والشيخ عثمان العمر والشيخ عبد الله السالم والشيخ نبيه السالم والشيخ علي العمر والشيخ

عبد الباسط حوت وفي الوقت ذاته كانت هناك مجموعة من الشباب الذي تربوا على يد الشيخ وتأثروا بمنهجه التربوي دخلوا إلى الكليات العلمية في الجامعة وتخصصوا في الطب والهندسة والأدب والعلوم والتجارة والحقوق ومن أبرز هؤلاء المهندس مروان باقي والمهندس فايز بري والدكتور نوفل الناصر والدكتور رياض باقي والأديب واصف باقي والسيد هشام الباقي والمهندس سمير باقي.

حرص الشيخ على التكوين العلمي لإخوانه:

لا شيء يندد به الشيخ في مجالسه كالجهل، كانت كلمة الجهل تتردد في مجالسه كالجرثومة القاتلة التي تحمل معها الأمراض والأوبئة، وكان يحذر من الجهل المطبق حتى أصبحت هذه الكلمة من المصطلحات التي يرددها إخوانه، وتدل على أقصى درجات الجهل ولا يقصد بالجاهل ذلك الذي لا يعرف القراءة والكتابة ومبادىء العلوم وأصولها، وإنما يقصد بالجاهل ذلك الذي لا يعرف الحقيقة، ويجهل أنه جاهل، فالجاهل الذي يعرف جهله يبحث عمن يعلمه ويبين له الأشياء ويصحح له الأخطاء، أما الجهل المطبق فهو مرض يحل بصاحبه ولو كان علامة الدنيا، يمنعه من سماع كلمة الحق ويصده عن سبيل الله عناداً وتمسكاً برأيه، كمن يرى عيوب نفسه وسوء طبعه فلا يعترف بذلك وينكر على الناس أن ينصحوه ويدلوه على الطريق المستقيم.

وعلى الجاهل أن يتعلم، فالعلم يقوده إلى معرفة حقيقة نفسه، فيتمسك بالحق ويعترف بأخطائه وعيوبه، ويقدم الشكر لناصحيه الذين دلوه على الحق والصواب، وأنقذوه من أوحال الجهالة والضلال، والجهل المطبق هو الجهل الذي يغلق القلوب، فلا تنشرح لسماع ما هو حق وشرع، وتنتصر لما هي فيه من سيء العادات.

وكان يحض أصحابه على ملازمة مجالس العلم والمعرفة وأهمها ما يلي:

أولاً: مجلس التلاوة في دار الشيخ:

ما زلت أذكر أول مجالس التلاوة القرآنية وكنت صغيراً لم أبلغ سن الحلم، كان الشيخ يصلي الفجر في داره في وقته، ويؤم أسرته، وكنت

أصلي معه وأقف إلى جانبه ، فإذا أنهى صلاته جلس لتلاوة القرآن ، وينادي أفراد الأسرة كلها لهذا المجلس ، فكان يقرأ القرآن بصوت عال ، ويقرأ في كتاب تفسير الجلالين ، حيث يقرأ الآية ، وينظر فيما قاله المفسر في تفسيرها ، فإذا وجد شيئاً شرحه لأسرته ، ثم تابع القراءة ، فإذا أشكل عليه أمر توقف من جديد ، وهكذا إلى أن تطلع الشمس.

كنت أحضر هذا المجلس كل يوم ، وكنت صغير السن ، وما أزال أذكر دقائق هذا المجلس المهيب الذي يلتزم الجميع فيه بآداب القراءة ، وكانت معظم قراءاته للقرآن تتم بحضور أفراد أسرته لا يتكلم أحد في هذا المجلس ، ويلبس النساء فيه ملابس الصلاة ، فلا تكشف المرأة عن رأسها ، ولا يلتفت أحد يمنة أو يسرة.

هذه هي أول مجالس التلاوة شهدتها بنفسي ، تلتزم فيها آداب التلاوة من التذكر والتفكر واستحضار القلب ، فإذا رأى أحداً من الجالسين قد أخذته سنة من النوم ، كان ينظر إليه من غير أي كلام ، وكأنه يعاتبه ، ثم يعاود القراءة إلى أن ينتهي مجلس التلاوة القرآنية.

مجلس التلاوة القرآنية في الكلتاوية :

رأيت مجالس التلاوة القرآنية تعقد في مسجد الشيخ «الكلتاوية» لم أحضرها ولم أشترك فيها ، وهي خاصة بإخوان الشيخ من الرجال ، كان يشرف عليها حافظ القرآن الشيخ بشير حداد ، وكان حافظاً مجيداً متقناً قل أن تجد من يحفظ القرآن مثله ، وكان من المحبين الصادقين العابدين وكان يتولى الأشراف على المسجد منذ معرفته بالشيخ ، وكانت أسرته كلها تشاركه في هذه المهمة ، وكان أميناً صادقاً نزيهاً محباً للشيخ ، وكان يؤم الناس في الصلاة ويخطب الجمعة. إلى أن تسلم المهمة من بعده ولده الشيخ منير.

كان الشيخ بشير يشرف على مجالس القراءة التي كانت تعقد بعد العصر ، ويحضرها من شاء من الإخوان ، في حلقة دائرية أمام المحراب في البناء الجديد للمسجد. . . كان يسمع ويصحح ويعلم كيفية الأداء ومبادىء التجويد

ومخارج الحروف ، ثم انتقل الشيخ بشير إلى العراق يعلم إخوان الشيخ في مدينة الفلوجة العراقية قراءة القرآن ، وكانت هذه المدينة تضم معظم إخوان الشيخ في العراق ، وتقام فيها مجالس الشيخ كما هي في الكلتاوية ، وما زالت كذلك حتى اليوم.

وفرح إخوان الشيخ بالفلوجة بالشيخ بشير وأكرموه ، وكان يحدثهم عن مجالس الشيخ الأولى في الكلتاوية وعن مجاهداته ومذاكراته.

مجالس العلم والتكوين الشرعي :

لم يتوقف اهتمام الشيخ بتكوين إخوانه على التربية الروحية وتصحيح العادات وتقويم السلوكيات وإحياء القلوب وإيقاظها من الغفلة ، ذلك أمر كان يقوم به بنفسه في مجالسه ومذكراته اليومية ، وإنما كان يريد لهم أن تكون ثقافتهم بأحكام الدين ومعرفتهم بالشريعة كافية لكي يعرفوا الحلال والحرام ويميزوا بين ما أمرت به الشريعة وما نهت عنه ، لا على وجه التفصيل وإنما على وجه الإجمال ، وهذا مما يعتبره من فروض العين لا من فروض الكفاية ، فمعرفة أصول الدين من الفروض العينية ، ولا يستقيم سلوك السالك إلا بمعرفتها والالتزام بها في طريق السير إلى الله.

ولم يكن مقبولاً أن يكون السالك ـ ولو كان مقلداً ـ جاهلاً بأحكام الطهارة والعبادة وأصول المعاملات اليومية ، وأول ما كان يحض أصحابه عليه من غير إلزام ولا إجبار أن يحضروا مجالس العلم ، وأن يتدارسوا أحكام القرآن وأن يحفظوا ما تيسر منه ، والقرآن هو البداية ، ولابد من على يد حافظ للقرآن يصحح القراءة ويعين على التلاوة الصحيحة.

وأول ما كان يدعوهم إليه الالتزام بآداب التلاوة ، وتعظيم الله تعالى ، واستشعار عظمة ما يتلوه من كلام الله ، وتصور تنزله بواسطة الوحي على رسوله ، ولذلك اشترطت الطهارة لكل من يلمس القرآن ، لكي يستشعر القارىء عظمة ما يقرأ ، ومن آداب التلاوة استحضار القلب أثناء القراءة فلا

يشغله عن القراءة شيء ، فالترتيل مطلوب والتدبر هو غاية القراءة ، ولا يحصل التدبر إلا بالفهم لمعاني الألفاظ ودلالاتها ، واستشعار أن العبد هو المقصود بخطاب القرآن ، وأن القصص والأمثال وردت في القرآن لتقريب المعاني إلى الفهم وحسن التدبر من أفعال السابقين.

مجالس العلم الشرعي في الكلتاوية :

بدأت مجالس العلم الأولى في الكلتاوية القديمة قبل التوسعة والتجديد ، وكان إخوان الشيخ يحضرون الدروس التكوينية لمعرفة أصول الدين التي لا تستقيم حياة السالك إلا بها، وكان يلقي هذه الدروس الشيخ أديب حسون الذي يحضر كل صباح بعد صلاة الفجر إلى الكلتاوية القديمة ويدرسهم في كتاب «تنوير القلوب» وهو كتاب يجمع بين الأحكام والآداب، وعنوانه يدل على ذلك.

ما زلت أذكره وهو يلقي دروسه العلمية ، ويشرح قواعد الدين ، وما زال حتى اليوم يتابع دعوته بإخلاص في «جامع أسامة بن زيد» ، القريب من الكلتاوية ، وهو من علماء حلب المشهود لهم بالأثر الطيب في مجال التربية والدعوة.

وبعد إنشاء مدرسة النهضة أصبحت الكلتاوية صرحاً من صروح العلم ، وبدأت مجالس العلم تتكاثر وحلقاته تزداد ، وانضم عدد كبير إلى قافلة العلماء الأوائل من أمثال الشيخ علاء الدين علايا والشيخ محمد لطفي والشيخ منير حداد والشيخ محمد الصندل والشيخ نذير حامد والشيخ نزار لبنية والشيخ عبد البر عباس والشيخ حسان فرفوطي ، ثم بدأت الأجيال الجديدة والشابة من خريجي الكلتاوية تغني هذه المجالس وتضاعف من النشاط العلمي ، وهم اليوم العمود الفقري لمدرسة الشيخ التربوية ، يواصلون رسالتهم العلمية بنشاط وفاعلية وإخلاص.

اعتماد منهج التآخي بين الإخوان :

كان الشيخ يتحدث في مذاكرته ودروسه عن الحب في الله والبغض في الله ، والمراد بالحب في الله أن يكون الحب لذات المحبوب لا لأمر يريد

المحب الوصول إليه من ذلك المحبوب ، فمن أحب الله أحب كل من يحب محبوبه ، وأبغض كل ما يسيء لذلك المحبوب ، وهذا هو البغض في الله ، فمن أحب في الله لابد إلا أن يبغض في الله ، ومن أحب الله أحب كل من يوصله إلى الله ، ومن أحب العلم ، أحب كل من يوصله إلى محبوبه وهو العلم ، فإذا أحب أستاذه فإنه يحبه لا لذاته وإنما لأنه يوصله إلى ما يحب وهو العلم ، ومن أحب المال أحب كل من يوصله إلى المال.

والحب في الله يولد الأخوة في الله ، فمن أحب الله أحب كل من يحب الله من أصحابه ، ويبغض كل من لا يحب الله ، والأخوة تحتاج إلى المجانسة لا إلى المجاورة ، فالإنسان يؤاخي من يجانسه في الطبيعة والعاطفة والسلوك ، ولا يؤاخي من يجاوره في المكان ، أو من يكون قريباً له في النسب ، لانعدام المجانسة.

وكان الشيخ يؤاخي بين إخوانه لكي يكون كل واحد مرآة لأخيه ، يكاشفه بعيوبه وينصحه ويشجعه ويأخذ بيده ويؤنس وحشته ويعينه على إصلاح خلقه ، والأخوة رابطة بين شخصين ، وتقتضي الالتزام بما تقتضيه تلك الرابطة من التزامات وواجبات ، والأخوة تولد الألفة والألفة ثمرة حسن الخلق ، ومن ساءت أخلاقه فلا يألفه أحد ، لسوء خلقه ، وأهم ما تعلمه التربية الروحية الالتزام بحسن الخلق ، لتحقيق التآلف بين المتجانسين في الطبائع.

ولا يمكن للتآخي أن يتحقق إلا إذا توفرت المحبة بين الطرفين ، وأن يكون قائماً على أساس المحبة الذاتية ، لصفة في المحبوب مطلوبة ، وأهمها استحسانك لطبائعه وسجاياه ، وعندئذ تتلاقى الأرواح وتتجاوب ، «فالأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف».

ومما اذكره من الروابط الأخوية هو مؤاخاته بين المتجانسين من إخوانه ، وهناك روابط إخاء كثيرة ، كان ينسجها بين إخوانه ، لكي يكون كل فرد عوناً لصاحبه وأخيه لا لتحقيق مطامع دنيوية ومطامع مادية ، ولكن ليتعاونا على طريق الحق ويتعاهدا على الإخلاص لله ، ويحفظ كل فرد منهما صاحبه في غيبته ، فلا يتخاصمان في أمور الدنيا ، ويتناصحان في الحق.

وكان يتحدث عن حقوق الأخوة والصحبة ، وأهمها أن يؤثر كل منهما الآخر بالنفس والمال ، وأن يمسك عن ذكر عيوبه ومساوئه ، وألا يكشف أسراره التي اطلع عليها ، وأن يذكر محاسنه ويتفقد أحواله ويقف إلى جانبه في الشدائد وأن يفعل كل ما يسره ويدخل الفرح إلى قلبه .

وإذا حدثه أحد بسوء عن أحد إخوانه كان يغضب ، ويقول لأصحابه ، انقلوا إلي ما يحببني بأصحابي ، ولا تملأوا قلبي بما يكدره ، ولو كان ما تقولونه هو الصدق ، وأحبكم إلي : من يعيد إليّ أصحابي إذا اعرضوا وهم كأولادي ، فالأب لا يسعده أن يسمع أي كلام يسيء لأولاده أو يبعده عنهم .

وبلغه مرة أن اثنين من إخوانه المقربين تشاجرا لأمر مادي بينهما ، حزن الشيخ وتألم ، ولمارآهما أعرض عنهما .

وكان الإخوان ينقسمون بطريقة عفوية إلى مجموعات متجانسة ، وكان يخص كل مجموعة باهتمامه ورعايته ، وفي مجلسه تزول تلك الحواجز ولم يكن يضايقه هذا إلا إذا وقع التصادم أو التنافر بين هذه المجموعات ، وعندئذ كان يتدخل لإنهاء ذلك التشابك ، ويعيد اللحمة بين إخوانه بدعوتهم إلى تصفية القلوب والتزام المحبة والإخاء .

لم يكن من اليسير تجاوز الطبائع البشرية وما يتولد عن التنافس من انقسامات واختلافات بين المجموعات ، وبخاصة مجموعة الشيوخ ومجموعة الشباب ومجموعة العلماء ومجموعة التجار ، وهذا أمر طبيعي ومألوف في التكوين النفسي للبشر ، إلا أن ذلك كان يتم في أضيق الحدود وفي إطار الاحترام المتبادل ، واحترام الشباب لمكانة الشيوخ واحترام التجار لمكانة العلماء ، واحترام أبناء المدينة للضيوف الوافدين ، ومراعاة قيم الفضيلة في السلوك الاجتماعي .

كنت أرقب كل ذلك باهتمام وأتعلم من مدرسة الشيخ ذلك الأفق العالي من التسامي عن الصغائر والترفُّع عن الاهتمام بما لا يليق من الأمور الصغيرة ، وكان يمشي ولا يلتفت إلى الوراء أبداً ، ويتجاهل ما لا يليق وكان في ذلك

يعلم إخوانه كيف يكون الكبير كبيراً ، لا بموقعه ولا بمنصبه ولا بمان
ولا بسلطانه ، وإنما يكون كبيراً بمواقفه وحكمته وترفعه عن الصغائر.

وموضوع الصحبة والأخوة كان يحظى بأهمية كبيرة في مذاكرته ، ويردد الحديث الذي رواه أبو هريرة «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل» ويقول: الصحبة الصحبة.. ابتعدوا عن قرناء السوء.. ويركز على أدب الصحبة ، وهي أن يعطي الصحبة حقها ، وحق الصحبة هو الالتزام بشروطه وآدابها الشرعية ، ويحذر من صحبة الأحمق الذي يفهم الأمور بطريقة خاطئة ولا يعترف بجهله ولا ينقاد للحق ، وإذا سيطر عليه الغضب يفقد صوابه ويخسر كل شيء.

لم يكن الشيخ حريصاً على زيادة عدد إخوانه ولم يفكر في هذا قط في مجالسه ، وإنما كان يريد تكوين نخبة مختارة في سلوكها لكي تكون قدوة لغيرها ، وأن تكون متماسكة متآخية متناصرة على الحق كل فرد منها يمثل أمة في إيمانه بالله وفي يقينه بنصر الله ويدعو إلى الله بحاله لا بمقاله ولا بفصاحته.

واستطاع الشيخ أن يقيم بين إخوانه جسوراً من روابط المحبة الحقيقية والاحترام المتبادل ، وكان يسعده أن يرى روح الأسرة الواحدة بين إخوانه ، على اساس متين من محبة الله والتسابق إلى العمل الصالح والرأي الناصح وإلغاء الفوارق المادية والاجتماعية وإقامة أخوة إنسانية دعامتها الإيمان بالله وعمل الخير ولم يكن يحب ذلك التفاضل في المنزلة الاجتماعية ، وإنما كان يحب التفاضل في التحلي بالأخلاق الفاضلة وتزكية النفوس وطهارة القلوب.

* * *




المبحث الثالث
مجالس الشيخ ومذاكراته

الفرع الأول: وصف مجالس الشيخ

أهمية الأدب في هذه المجالس

أنواع المجالس

لغة الشيخ وأسلوبه

الفرع الثاني: أهم ما يركز عليه الشيخ في تربيته

التوبة الصادقة

هجر قرناء السوء

محاسبة النفس

الفرع الثالث: صدق الشيخ في مذاكراته




مجالس الشيخ ومذاكرته

وصف مجالس الشيخ:

كانت مجالس الشيخ رحمه الله هي منبره الدائم المستمر الذي يخاطب به أتباعه ويوجههم من خلاله ، وهي مجالس مستمرة لا تتوقف أبداً ، في نهار أو ليل ، في حضر أو سفر ، لا يشغله عنها شاغل ولا يتوقف عنها مهما كانت الأسباب ، وكانت هذه المجالس تعرف بين أصحابه بالمذاكرة ، وهي المصطلح السائد الدال على حديث الشيخ.

فإذا شرع في الحديث سرى في المكان همس سريع الانتقال يعقبه تعاقب الإخوان والمريدين على المجالس ، ويجلس الجميع بأدب جم مطرقي الرؤوس وكأنَّ على رؤوسهم الطير ، يسمعون كلام الشيخ ، ولا تسمع أي همسة أو حركة ، ولا يتوقَف الشيخ عن الحديث إلاّ لأسباب كاستقبال ضيف جديد ، أو أمر طارىء أو انتهاء المجلس.

ومجالس الشيخ مهيبة يخيّم عليها الجلال ، ولا يطرح أي سؤال أو استسفار من الإخوان ، ويسترسل الشيخ في الحديث ويمتد المجلس لدقائق أو ساعات ، ولا يلتفت أحد يمنة أو يسرة ، ويجلس كل فرد في المكان الذي يختاره في مواجهة الشيخ ، وغالباً ما يكون الجلوس على الأرض أو على الكراسي والكنبات بحسب جلوس الشيخ ، ولا يهتم الشيخ بكيفيات الجلوس ، وإنّما يهتم بالتزام الأدب وعدم التفات القلب عن المجلس والانصراف بالكلية إلى المذاكرة ، ويتفاوت الأتباع في مدى أخذهم واستفادتهم ، وهم يتلقُّون حديث الشيخ بقلوبهم ، كما يتفاوتون في مدى تأثُّرهم ، فإذا صدر من أحدهم حال من الأحوال يؤدّي به إلى حركة نظر إليه الشيخ لكي يعود إلى هدوئه ،

وكان يعتبر الأحوال من علائم الضعف وعدم التحمّل ، إلاّ إذا كان حال بكاء وتأثّر .

ولا يجري في هذه المجالس أي حديث خارجي أو انشغال بأمر دنيوي أو التفات إلى قادم أو مجاور ، ولا ينسحب أحد من هذه المجالس إلا لعذر وبأدب كبير يستأذن به الشيخ .

وأحياناً يستفسر أحد الجالسين الشيخ عن فكرة، فيجيبه عليها، والاستفسار يدلَ على مدى استيعاب السائل للفكرة ، وأحياناً يكون السائل بعيداً عن روح الفكرة فيحدث انقطاع في الحديث ، إلى أن يعود المجلس إلى صفائه .

أهمية الأدب في هذه المجالس :

من أهم ما يميز مجالس الشيخ التزام الأدب فيها ، ويستفيد المريد من أدبه مع الشيخ أكثر مما يستفيده من أفكاره ، ويتحقّق أدب المريد بمعرفة النفس ، فالنفس ، هي موطن الجهالات والأهواء فمن عرف نفسه التزم بالأدب ، وكان الإمام ابن المبارك يقول: نحن إلى قليل من الأدب أحوج منّا إلى كثير من العلم ، ومن خصائص الأدب أنه يفتح القلوب ومن تقرَب إلى الله بأدبه منحه محبة القلوب وصرف عنه العيوب .

ويحظى الأدب في الفكر الصوفي بأهميّة كبيرة ، وهو أهم ما يميّز مجالس التربية الصوفية ، فالأدب يجب أن يرافق كل حركة من حركات المريد ، وهي الصلة بين الشيخ وإخوانه .

قال الإمام الطوسي في كتابه اللمع :

فالصوفية لهم آداب في سفرهم وآداب في أوقاتهم وأخلاقهم ، وآداب في سكوتهم وحركاتهم ، وهم مختصون بها عن غيرهم ، ويعرفون بها عند أشكالهم وعند أبناء جنسهم ، ويعرف بها تفاضل بعضهم على بعض ، وبهذه الآداب تميّز بين الصادقين والكاذبين والمدَّعين والمحققين[1] .

---

(١) انظر اللمع ص ١٩٦ .

وأكثر الناس أدباً في مجالس الشيخ هو الشيخ نفسه ، فهو رمز الأدب ، وهو الذي يعلمهم الأدب بفعله لا بقوله وبحاله لا بمقاله ، فهو القدوة لهم ، وهم له متَّبعون ، فإذا صدر عنه شيء أخذوا به من باب الاتِّباع ، والاتِّباع أصل من أصول التربية الصوفية .

والأدب ثمرة من ثمرات التربية ، وهي دالة على حسن الخلق ، فلا خلق مع انعدام الالتزام بالأدب ، ولا ينحصر الأدب عند الصوفية بترك الشهوات والتغلب على الأهواء والقيام بالواجبات الشرعية والعمل بالأوامر ، والابتعاد عن النواهي ، فهذه واجبات أولى لابدَّ منها ، وهي كطهارة الأجسام من النجاسات الظاهرة ، ولا تصح الصلاة فيها ، ولكن الطهارة الأسمى هي طهارة القلوب من الخواطر المذمومة والوفاء بالعهود والعقود وحسن الأدب في مواقف العبادة مع الله وعدم الالتفات إلى ما يشغل القلوب وما يعكرَ مزاجها من الصفات المذمومة والأهواء والشهوات ، وهذا الأدب هو أدب أهل الخصوصيَة ، وهو الأدب الذي يثمر المعرفة بالله وينير القلب بالسكون والطمأنينة .

ولا يمكن للمربّي في المنهج الصوفي أن يتصدى لمهمة التربية والإعداد إلا بعد أن يجاهد نفسه وتحقَق المجاهدة ثمرتها المرجوة في حسن الأدب ، والتحكم في الغرائز والسيطرة على الأهواء .

لم يتكلّف الشيخ يوماً الأدب ، كان الأدب بالنسبة له هيئة راسخة في النفس والسلوك في مجالسه الخاصّة والعامّة ، مع أسرته وإخوانه ومع الآخرين ، في حالتي الهدوء والغضب ، فهو أديب في حديثه وأديب في عباراته وأديب في نظراته وأديب في مجالسه ، لم يخرج قط عن نطاق الأدب ، حتى في علاقته مع نفسه ، عندما ينفرد بنفسه ، وكان يتحدَث عن أدب السالك مع نفسه في خلوته لأنَ الله معه يراقب حركاته وسكناته .

ولم يعتمد في تربيته لإخوانه ومريديه على الأوراد والأذكار ولم يحدَثهم عن الأحوال والمقامات ، وإنّما اعتمد على وجوب الالتزام بأحكام الشريعة كما جاءت في القرآن والسنة وإجماع الأمّة وهذه الاستقامة هي عين الكرامة ، ثم

اتِّباع النبي ﷺ في كل خُلُقٍ من أخلاقه لأنَّه يمثل الكمال الإنساني والفضائل في أروع صورها في أقواله وسلوكياته واختياراته الشخصية ، وأخيراً حفظ الحواس من السمع والبصر ، لئلا يؤدي ذلك إلى التفات القلب إلى ما يعكَر صفاءه ، فيكون ذلك هو الحجاب الذي يحجب القلب عن النور الإلهي في القلوب النقية الصادقة المهيأة لانطباع الحقائق فيها ، امتثالاً لقول الله تعالى :

ـ ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء : ١٩] .

ـ ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى : ٢٠] .

ولم يكن في مجالس الشيخ ما يكون في مجالس الطرق الصوفية من مظاهر وتقاليد ، بعضها مفيد وبعضها ضار ، والكثير منها ممّا يدخل ضمن البدع المذمومة التي تتنافى مع قيم الإسلام وتغيب مفاهيمه الراقية والسامية في سموّ السلوك والتطلع إلى الكمال ، وبخاصة فيما يتعلق بعادات الغناء والطرب والسماع على نفحات الدفوف والمواجيد المفتعلة فقد كانت مجالسه بعيدة عن هذه المظاهر وكان ينفر منها ولا يشجِّع عليها ويعتبرها من مظاهر غفلة القلب ، ولا شيء أضر على القلب من الغفلة ، وكانت كلمة «الغفلة» من المصطلحات التي تتردد في أحاديثه كثيراً في موطن الذم ، وكان يردد الكلمة التالية : «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا» ويريد بذلك التنبيه إلى خطورة الغفلة على يقظة القلب ، فالقلب الغافل عن الله محجوب عن أنوار الله ، وكان يخاطب إخوانه بأن يكونوا معه في قلوبهم لا بأجسادهم ، ويطلب منهم أن يكونوا مع الله كيف شاؤوا فإن الله لا ينظر في صورهم وإنما ينظر في قلوبهم ، فإن وجدها طاهرة نقيّة صادقة كانت موطناً لرحمته .

وبالرغم من هيبة مجالسه وجلالها فقد كان يباسط بعض إخوانه ممن اشتهروا بالطيبة والفطرة النقية والصفاء النفسي ، ويداعبهم بكلمة رقيقة ويسألهم عن أمرهم ويقرِّبهم من مجلسه ويخصُّهم بمحبته فيفرحون لذلك ويبتهجون .

واذكر رجلاً من أتباعه اسمه محمد زهرة وكان رجلاً طيباً يعمل في كروم الفستق يقلِّم أغصانها ، وكان يعرف القليل من القراءة ويحمل دائماً تحت إبطه «متن الأجرومية» الكتاب المشهور في علم النحو ، وكان يحاول أن يحفظه ويشتاق أن يدرس الفعل والفاعل والمفعول ، فكان الشيخ إذا رآه في مجلسه دعاه إلى قربه ، وأخذ يسأله عن حفظه لمتن الأجرومية فيحدِّثه عن حفظه لبعض سطورها ، فيشرح له الشيخ معاني تلك الجمل ، ويسمعها منه ببشاشة وتبسُّط ، كما كان يباسط أحد إخوانه وهو من الصالحين الاتقياء من أهل الفطرة النقية ومن أسرة مشهود بها بالولاية وهو الشيخ عمر الملاحفجي ، ويغلب عليه الصفاء والتعلق بالصالحين ، فكان الشيخ يبتسم إذا رآه ، ويسأله عن أحواله .

ثم يعود المجلس إلى جلاله وهيبته ، الشيخ يتكلم والكل منصت يتغذى بغذاء الروح ، وتمضي الساعات ـ وغالباً في الأمسيات ـ إلى النصف الثاني من الليل .

ما أروع تلك المجالس التي شهدتها في طفولتي الأولى عندما كنت في السابعة من عمري إلى سن العشرين ، ولم أتخلَّف عنها قط ، ولم أكن أفهم الكثير من أفكارها ، ولكنني كنت أشعر بالسكون النفسي المخيِّم على تلك المجالس الروحية التي تشعُ منها أنوار الحق ، فأرضع من لبانها ذلك الشهد المصفَى من القيم الإنسانية التي ما شعرت بنورها في نفسي فيما استقبلته فيما بعد في حياتي العلمية ، وكأنَّ ذلك الشهد هو المداد الذي غذَّى في كياني تلك الشعلة التي أنارت لي الطرق المظلمة ، وعبَّدت لي دروب العلم وطرائق التحصيل ، فكنت أشتاق إلى تلك الأيام كشوق الأطفال إلى الحضن الدافىء الذي احتواهم في ليالي الشتاء الباردة . . ذلك شوق يزداد في نفسي توهُّجاً مع تقدم الأيام وتوالي السنين .

كانت الجلسة تبتدىء بعد صلاة المغرب في دار أحد الإخوان ، ويحضرها عدد بين العشرين والثلاثين ، وتكون غالباً في دار واسعة تضم قاعة واسعة أو على سطح دار في ليالي الصيف الحلبية ذات النسائم الجميلة حيث يفرش السطح أو الفناء الخارجي بالسجاد العجمي والأرائك المريحة ، وتبتدىء

مجالس المذاكرة بعد أن يستقر أمر المجلس ، ثم يستعد الجميع لتلك المذاكرة الروحية بعد قضاء يوم من الأعمال الدنيوية في تجارة أو صناعة أو زراعة ، وكل من في المجلس خادم ومخدوم ، ويفرح بأن يخدم غيره ، وأن يوفر له أسباب الراحة ولو كان أقلَّ منه منزلة ، فلا تفاوت في مجالس الشيخ بين غني وفقير وقوي وضعيف وتاجر وعامل ، والكل يجد في خدمة الآخر تربية وتهذيباً وتقرُّباً إلى الله ، فهناك من يتفرَّغ لإعداد الشاي وتقديمه ، وهناك من يتفرغ لخدمة المجلس ومساعدة رب الدار ، جلسة أسرية جماعية تخيم عليها المحبة والإيثار ، والتآلف وخدمة الآخر ، لا تفريق بين أخ وآخر ، والكل سواء ، وأقربهم إلى الشيخ أكثرهم محبة لإخوانه وخدمة لهم ، ويجلس العلماء في مكان قريب من الشيخ ، تكريماً للعلم ورموزه ، وهذه من توجيهات الشيخ وأخلاقيات التربية الصوفية ، والتواضع صفة راسخةَ في هذه المجالس ، فلا مجال فيها للترفُّع والتكبر والعجب ، وهذه من أمراض القلوب ، والقلوب المريضة محجوبة عن الحق وأنوار الحقيقة .

ويتناقل الإخوان هذه المذاكرات الروحية ، ويروي الحاضر للغائب ما سمعه من الشيخ ، ويتذاكرون في معانيها ومفاهيمها ، ويحاسبون أنفسهم إذا حدث تقصير في سلوكهم أو تغيّر في قلوبهم ، ويعين بعضهم البعض الآخر على التواصي بالحق والرحمة ، فإذا غاب أحدهم عن هذه المجالس لغير عذر سارع إخوانه إليه يعينونه على أمره ، ويوقظونه من غفلته ، وأغلب ما يشغل المريد عن مجالس المذاكرة انصرافه إلى الدنيا وانشغاله بأمرها ، طلباً للربح وطمعاً في الكسب ، فيصرفه ذلك عن آخرته ، والدنيا شاغلة لمن يحبُّها ومستعبدة لمن يتعلَّق بها ، والويل لمن استسلم لبريقها وغرق في بحارها .

ولا شيء أحبُّ عند المريد الصادق من هذه المجالس الروحية التي تحرره من عبودية التعلق بأعراض الدنيا ، ويطير في الفضاء محلِّقاً يطل من علٍ على مستنقعات الدنيا ، ومنزلقاتها وما تورثه في النفس من ظلمة وكآبة وآلام وأحزان ، ويتطلع إلى الشاطىء البعيد الأخضر بأشجاره وزهوره ، وكأنّه يطلب الغوث والمدد يجتاز به تلك الموجات العاصفة والصحراء القاحلة .

إن هؤلاء الذين يبحثون عن المجالس الروحية والمذاكرة التي تحيي القلوب ويجدون فيها أُنسهم وسعادتهم لا يبحثون عن وهم وسراب ، وليسوا من ناقصي العقل والإدراك ، فهم رموز قوة في مجتمعهم ، وهم أصحاب دهاء وخبرة في مجال الدنيا ، لا يُشقُّ لهم غبار ، ولا يمكن أن يتهموا بالقصور والعجز والكسل ، فهم في النهار رجال تجارة ورواد في مجال اختصاصهم ، فما يدفعهم إلى هذه المجالس الروحية هو شوق غريزي إلى الدفء الذي يحسُّون به والشعور بالتحرر من عبودية الدنيا ، والتحليق في فضاء واسع يشعرهم بعظمة الكون والارتحال منه إلى خالق الأكوان.

إنَّ الشعور بالأنس والسكون والطمأنينة القلبية هو ثمرة هذه المجالس ، وإذ يثمر هذا الشعور استنارة في القلب ، وشعوراً بالتحرر من العلائق الدنيوية ، وسيطرة مطلقة على الخوف الذي يسكن أعماق النفس الإنسانية ، فلا يشعرون بالآلام الناتجة عن المحن والابتلاءات لأنهم يؤمنون أنَّ الابتلاء من الله فيزداد صبرهم ويفتح لهم باب الأمل ويغلق باب الأنس ، ويعملون ولا يخشون من الفشل والخسارة ، لأنَّ الرزق من الله ، وقد تكفَّل الله لهم بالرزق ، وضمنه لهم.

إنَّ النفسَ بطبيعتها تتطلَّع إلى الكمال ، وشوق النفس إلى الكمال شوق غريزي وفطري ، ولا تتحقق السعادة الكبرى إلاَّ ببلوغ النفس كمالها ، وكلما حققت شيئاً من هذا الكمال شعرت بالسعادة والسرور.

وكل مخلوق في الوجود يبحث عن كماله الذاتي ، لأنَّ الكمال يعني الانتقال من نقص إلى كمال ، والحياة نمو والنمو لابدَّ إلاَّ أن يتَجه إلى الكمال النسبي.

والنفس في حركتها الذاتية تبحث عن أسباب كمالها المادي والمعرفي ، فالغذاء سبب للكمال وتشتاق النفس إلى الغذاء ، والمعرفة كمال للنفس وتشتاق النفس إلى المعارف وتجد لذّتها وسعادتها في تلك المعارف.

أنواع المجالس:

تختلف المجالس بحسب طبيعتها وزمنها والحاضرين فيها، وتنقسم إلى قسمين:

أولاً: مجالس الدروس:

وهي مجالس ذات مواعيد مسبقة، ويحضرها من أُعدَّت لهم دون غيرهم، وقد يقرأ فيها كتاب، وتشرح أفكاره، وتبيَّنُ معانيه.

وتشمل الدروس ما يلي:

- درس النساء، وهو أقدم الدروس، ويتم هذا الدرس مرتين في الأسبوع، يوم السبت ويوم الأربعاء قبل الظهر، ويلقى في جامع الكلتاويّة، وتحضره مئات النساء وبدأ منذ وقت طويل، وربما استمر أكثر من ثلاثين سنة في حياة الشيخ، وما زال مستمراً حتى الآن في مواعيده، وتحضره النساء وتسمع دروس الشيخ مسجَّلة، وكل من كان يحضر هذا الدرس في حياة الشيخ استمرَّ في حضوره ويحضرن هذا الدرس كما كان، وبالتزام كامل الأدب أثناء سماع الدرس.

وكان الشيخ يحرص على درس النساء ويعتبر المرأة ركناً أساسياً في إصلاح المجتمع، لأنّها تربّي الجيل، وتعدُّه للمستقبل، فإذا صلحت المرأة صلحت الأسرة وصلح الأولاد، ولا يقلّ وفاء النساء للشيخ عن وفاء الرجال، ويحضر هذه الدروس سيدات فاضلات ملتزمات بقيم الإسلام وهن رضعن لبان هذه التربية من الشيخ مباشرة، وبعضهنَ خريجات من الجامعة وعلى ثقافة عالية، وهنّ ملتزمات بفكر الشيخ ومنهجه التربوي، وهو منهج لا يقبل فيه التساهل سواء في التزام الحجاب الكامل أو في روحية التربية على طريقة الشيخ، وبالرغم من أنَّ معظم النساء اللواتي أخذَن التربية من الشيخ مباشرة قد انتقلن إلى رحاب الله فإنَّ أولادهنَّ من الأبناء والبنات ممن لم يجتمعن بالشيخ في حياته قد رضعن من أمهاتهن حب الشيخ والالتزام بمنهجه التربوي والروحي والسلوكي.

- درس للعلماء ، وهو درس يحضره العلماء وطلاب العلم فقط ، ولا يحضره غيرهم ، ويقام هذا الدرس يوم الأحد بعد العصر ، وقد بدأ هذا الدرس في حياة الشيخ بطلاب العلم ، وما زال مستمراً في موعده ، ويحضره عدد كبير من العلماء وطلاب العلم من خريجي دار نهضة العلوم الشرعية التي أنشأها الشيخ في جامع الكلتاويّة ، ويسمع العلماء فيه دروس الشيخ المسجَّلة تعبيراً عن حبهم للشيخ وتعلّقهم بمنهجه ووفاءً له .

درس للأطباء والمهندسين ، وكان الشيخ يخصص لهؤلاء يوماً في الأسبوع يجتمع بهم ، ويوجههم بما يتلاءم مع تخصصاتهم ، ومعظم هؤلاء ممن تربوا في طفولتهم على أيدي الشيخ وتأثروا بمنهجه .

ثانياً : مجالس المذاكرات :

وهي مجالس دائمة ومستمرة ، ولا وقت لها في نهار أو ليل ، في حضر أو سفر ، والشيخ لا يفتر عن التوجيه والبيان والنصح ، وهذه رسالته في كل وقت ، ولا شيء يشغله عن هذه الرسالة ، ولا حديث آخر يستميله ، وكان من عادته أن يخرج بعد صلاة العصر من داره يرافقه بعض إخوانه إلى مزرعة أو بستان أو كرم يمشي لمدة كافية ، ثم يجلس مع إخوانه في مجلس المذاكرة إلى المغرب أو العشاء ، وكان هناك مزرعة لأحد إخوانه في المنطقة الغربية من المدينة وكان يخرج إلى هذه المزرعة في كل يوم بعد صلاة العصر إلى المساء ، ويجتمع إخوانه هناك ، حتى إذا جاء المساء عاد إلى داره ، وتنعقد مجالس المذاكرة في تلك الجلسات المسائية .

ولم تكن أمور الدنيا تشغله عن مجالسه ، وكان يضيق بها ، وكأنها تعكّر صفاءه ، ولا يريد التفكير فيها بالرغم من سعة أعماله ، فالعمل لديه أداء لواجب ، وكان يأخذ بالأسباب كأحسن ما يكون الاتقان ثم يلتفت إلى ربه ، وكأن الرزق لا يعنيه في شيء ، فالله هو الرزَّاق .

لغة الشيخ في مذاكراته :

لم تكن لغة الشيخ في دروسه ومذاكراته متكلَفة في أسلوب عرضها ،

وجزالة مفرداتها ، وإنما كانت لغة مبسّطة تخاطب الوجدان فتحدث الأثر فيه ، كانت تخاطب الإنسان العادي بلغته اليومية وبلهجته الدارجة وبالمفردات الشائعة ، كان يستطرد في بعض الأحيان بفكرة أو قصة أو مثال ليقرَب الفكرة من السامع ، ولكي تحدث الإقناع المطلوب.

ولم يكن يتحدَث عن القضايا الفقهية ، فتلك قضايا تدخل في اختصاص الفقهاء ورجال الإفتاء ، إلاَّ إذا سئل عن فتوى فيجيب السائل بالحكم الشرعي الوارد في الكتب الفقهية ، أحياناً كان يورد تفسيراً لآية فيبدي رأيه فيما أورده المفسرون ، وبخاصة بالنسبة للقضايا الخلافية في التفسير حول المسائل المرتبطة بالعقيدة ومفهوم الإيمان والتوحيد.

وكان يستعمل لغة الصوفية ، وهي لغة خاصة مليئة بالمصطلحات ذات الدلالات الخارجة عن نطاق اللغة إلى معان خاصة ومن مفرداتها: البصيرة والعطاء والمنع والغفلة والجلال والجمال والقبض والبسط والمعرفة وسجود القلب وصوم العموم وصوم الخصوص والوجد والمجاهدة والحق والحقيقة والشريعة والحجاب والفناء والغيب والأحوال والمقامات والصحو والسكر وأهل العناية وأهل الجذب والمشاهدة واليقين والستر والتجليات والتكوين والتمكين والترقي والرياء والشهوات الخفية ومقام العبديّة.

ولغته تدل على سعة إطلاعه على أمهات كتب التصوَّف ، فقد كان متمكناً من اللغة التي يستخدمها علماء التصوّف في كتاباتهم ، كما كان يستشهد في مذاكراته بأقوال رموز التصوّف المشهود لهم بالمكانة والتميز من أمثال الجنيد وإبراهيم بن أدهم والفضيل بن عياض ومعروف الكرخي وسهل التستري والسريُّ السقطي.

وفي دروسه العامة كان يكتفي بالتوجيه العام والنصح الصادق وتصحيح العقيدة والدعوة إلى الالتزام بالاستقامة ، أما في مذاكراته الخاصة فكان يتكلم عن المعرفة بعمق ، ويدخل في مسالك دقيقة من التحليل والبيان والتحقيق ، وكانت له مفاهيم عميقة في قضايا المعرفة والسلوك ومراتب الترقي والثواب والعقاب والابتلاءات ودلالات المقامات.

ولم يكن يستعمل كلمة الحلال والحرام ، وإنما كان يستعمل لفظة الكمال والنقصان ، ربما لأنّ التربية تهتم بالكمال واستبدال الصفات المذمومة بالصفات المحمودة ، ولم يكن في أسلوبه يستخدم أسلوب الأمر والنهي وإنما يستخدم لغة البيان والتعريف بأهمية السلوكية الإسلامية لتحقيق الإصلاح الاجتماعي ، ولم تكن المظاهر الخارجية تحظى باهتمامه ، وإنما كان يهتم بما تنطوي عليه القلوب من صفاء النية ونقاء الفطرة .

كان يحذر من الغفلة عن الله ويدعو إلى يقظة القلوب ، والتوبة في نظره ليست التوبة من الذنوب ، وإنما التوبة من الغفلة ، بحيث لا يبقى في القلب إلاَّ الله ، فالمؤمن يستحي من الله أن يرتكب الآثام لا لخوفه من النار ولا لطمعه في الجنة ولكن لأنَّه يستحي أن يفعل ما نهاه الله عنه ويترك ما أمره الله به ، وكان يدعو إلى عدم اليأس مهما ارتكب العبد من ذنوب ، فالخوف ليس من ارتكاب الإثم والوقوع في الذنب ، وإنما الخوف من الإصرار على الذنب والدفاع عن سلوكيات الإثم ، وهذا دليل الغفلة عن الله .

لم يعاتب إخوانه على إثم ارتكبوه أو ذنب اقترفوه وإنما كان يعاتبهم إذا لم يشعروا بالندم على ما صدر منهم ، ويغضب إذا أصروا على ذلك الذنب ، فالتوبة ليست كلمة تقال وإنما هي شعور قلبي بالندم والتزام داخلي بعدم التكرار ، وإذا وقع العبد في الذنب ثانية وثالثة فلا خوف عليه ما دام الندم قائماً في قلبه يوقظه ويقلقه ، ولابدّ من أن يثمر هذا الندم توبة صادقة لا رجعة فيها .

كانت لغة الشيخ هادئة مريحة واضحة ، لم يتكلَف ألفاظها ، ولم يتعهدها بالصياغة الأسلوبية التي تلقى بها المحاضرات الأكاديمية ، وإنما كان يعبر عن أفكاره بالأسلوب الذي يفهمه الجميع ، ويركّز على الكلمة التي يريدها محوراً لحديثه ، يكررّها ويوضح المعاني المرادة بها مستشهداً بوقائع وكلمات تؤيد ما ذهب إليه .

وكل المفاهيم تتركز على معاني القلب وصفاء القلوب وانشغالات القلب وكدورات القلب وغفلة القلب وقسوة القلب وتعلقات القلب ، واستنارة القلب وطهارة القلب ، وإقبال القلب على الله وحجاب القلب .

والله تعالى هو القصد وهو الغاية ، وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد ، ولا يمكن أن يكون الله في قلب العبد إلاّ بالمحبة والاتباع ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١] والمحبّة لا تترسَّخ في القلب إلاّ بعد المعرفة فمن عرف الله أحبّه وتعلّق به إلى درجة الفناء في الذات العليّة ، وكل محب صادق لابدَّ له من الفناء في المحبوب ، وهذا دليل صدقه في محبته ، فمن ادعى المحبة ولم يتبع المحبوب فيما يأمره به وينهاه عنه فهو مدّع وغير صادق في توجهه ، ولابدَ لوجود المحبة من وجود نسبة وتناسب بين المحب والمحبوب ، فالله يمثل الكمال ومن أحبَّ الكمال أحبَّ الله وتعلّق به لأنَّ الله تعالى يدعوه إلى الأخذ بأسباب الكمال ، ومن شروط محبّة الله تعالى ألاّ يكون القلب محبّاً لغير الله تعالى متعلقاً بذلك ، فالتعلق بالدنيا يضعف التعلّق بالله ، والتعلّق بالدنيا حجاب عن الله تعالى .

ثم يعود الشيخ إلى مريديه وإخوانه بدعوتهم إلى نبذ اليأس والقنوط والتغلب على الإحباط الناتج عن الغفلة والتقصير ، وتجديد الرجاء بالله تعالى ، والرجاء في سعته ، فالله تعالى يحب عباده أكثر من حبهم له ، وهو يريد لهم الكمال ، ويطلب منهم أن يتوجهوا بكليتهم إليه تعالى بالافتقار والذلَ والعجز ليلبسهم من هيبته ما يشعرون به من الغنى والعز والقوة ، ولابدَ من التحرر من الخوف واليأس بالتوجَه إلى الله بالرجاء الذي يدعو القلب إلى الطمأنينة والسكون .

أهم ما يركز عليه في تربيته :

وأهم ما يركز عليه الشيخ في مذاكراته ودروسه الصدق في الإرادة وكلمة الصدق تترَدَد كثيراً في أحاديثه ، وهي بداية الطريق فمن كان صادقاً في إرادته أعدَ العدة لرحلته إلى الله تعالى ، والذين يدّعون الصدق ولا يعدّون العدة فهم كاذبون في دعواهم ، فالصادق له علائم ، وأهمها إعداد العدة بكل ما يتطلبه ذلك من شروط وأهم هذه الشروط ثلاثة :

الشرط الأول : التوبة الصادقة :

والتوبة هي المقام السلوكي الأول الذي لا يمكن تجاوزه ، وجاءت الدعوة

إلى التوبة في قوله تعالى : ﴿أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [التحريم : ٨] ولكي يشعر العبد بحاجته إلى التوبة فيجب عليه أن يستعظم العبد ذنبه ، فمن رأى ذنبه عظيماً سرعان ما شعر بالندم عليه ، فمن استصغر ذنبه أهمل توبته ، والغافلون عن الله يستصغرون ذنوبهم بسبب الإعراض عن الله وتتراكم ذنوبهم وتتسخ ملابسهم البيضاء النقية ولا يشعرون بذلك إلى أن تصبح ملابسهم سوداء لا تبين فيها النقط السوداء الطارئة ، والتوبة الصادقة تشعر العبد المذنب بالندم القلبي على ما وقع منه من أخطاء ، ومن علائم صدق الندم أن يترافق هذا الندم مع تركه للأفعال التي ندم عليها والمزلاَت والشهوات ، ولابدَ للندم إلاّ أن يثمر التوبة .

الشرط الثاني : هجر قرناء السوء :

وهؤلاء القرناء يزينون للإنسان أفعال الشر ويشجعونه عليها ، ولا شيء أخطر على السالك من قرناء السوء ممن غلبت عليهم الغفلة وقست قلوبهم بسبب ارتكابهم للآثام ، والبيئة غير الصالحة تدفع الإنسان لمسايرتهم والأخذ بسلوكياتهم ، ولابدّ في الإصلاح الاجتماعي من إصلاح البيئة المحيطة بالفرد ، وتكون نواة اجتماعية تحمل لواء الاستقامة ، وتجد الدفء في تلك البيئة الصالحة التي تتناصر فيما بينها وتتكافل للتنافس على عمل الخير ، وترك مذمومات الأفعال والأخذ بمحاسن الأخلاق لتكوين الهيئات النفسية الراسخة في التزامها بالقيم الصالحة كالصفحة البيضاء ، ثم تتغير ألوانها بتأثير التربية والمحيط الاجتماعي، وهي قابلة لكل ما يطبع عليها من ألوان محمودة ومذمومة .

وكان الشيخ يتفقد أصحابه ، ويسأل عنهم ويزورهم في أماكنهم ويباسطهم في الكلام ، ويحمل عنهم همومهم وأحزانهم ، ويجدون في قلبه سعة لكل ما يقلقهم ويشغل بالهم ، وكانت غاية هذه المجالس الجماعية أن يشعر هذا المجتمع الصغير بدفء العواطف المحيطة به ، وأن يكون كل فرد فيه محصناً ضد كل أنواع الأوبئة والأمراض الاجتماعية التي تحيط به ، وأهمها الغفلة عن الله تعالى والتسابق في أمور الدنيا والتنافس غير الحميد على كسب الرزق والانصراف إلى الملذّات والشهوات .

ثالثاً: محاسبة النفس عن الأخطاء:

والغاية من المحاسبة أن تظلَّ النفس يقظة على الدوام ، لا تغفل فتدفعها الغفلة إلى الأخطاء والتجاوزات والآثام ، فلا ترعى حقوق الله فيما أمر به ونهى عنه من التكاليف الشرعية ، وأهم ما يجب على العبد أن يحاسب نفسه عليه أن يلتزم بأحكام الشريعة كما جاءت من غير تحريف أو تأويل وبخاصة فيما يتعلق بالمعتقدات ، فالله هو الخالق المتفرِّد بصفات الإلوهية ، لا يشاركه أحد في اسم من أسمائه أو صفة من صفاته ، ولا يشبه أحداً من خلقه في شكله وصورته ، والله هو الخالق لأفعال العباد وصفاتهم وما يصدر عنهم ، والدليل على الله هو الله وحده ، وتجب محاسبة النفس عن كل تقصير عن أداء الفرائض والواجبات التي أمر الله بها في كتابه العزيز وفي سنة نبيه صلوات الله عليه ، ولا يجوز التفريط أو التساهل في أداء أي واجب شرعي مُجمَعٌ عليه.

وكان الشيخ يردِّد إن من لم يؤتمن على أحكام الشريعة وآدابها لا يمكن أن يقع الاطمئنان إلى أي حال من أحواله ، لأنّ من علامات الصدق في السلوك أداء الواجبات والالتزام بالآداب الشرعية.

فمن التزم بهذه الشروط وأدَّى حقوق الله عليه فهو صادق الإرادة في سلوكه ، ومن فرَّط أو تساهل أو ادَّعى الأحوال والمقامات من غير التزام بحقوق الله فهو كاذب في ادعائه خائن للأمانة جاهل بحقيقة الدين صاحب دعوى ليست صادقة ولا أمينة.

وكان الشيخ يحض إخوانه على الصدق في الإرادة ، وهي الأساس في الطريق إلى الله ، فغير الصادق لا يستطيع السير ولو خطوة واحدة ، لأنّهُ لا يحتمل مشقة السفر ، ولابدَ في هذه الرحلة من التواصي بالصبر على ما يعترض طريق السالك من وعورة الدرب وكثرة المحن والابتلاءات وتجاوز الامتحانات والاختبارات.

ومداخل الشيطان إلى قلب السالكين كثيرة ، وأوسع هذه الأبواب وأخطرها باب الشهوات والملذَّات وهو الباب الذي لا يمكن إغلاقه إلا بالمجاهدات

والرياضات النفسية ، نظراً لأن الشهوات تقبل النفس عليها برغبة ونهم ولا تشبع منها ، فإذا استسلم السالك لها وانقاد لندائها فسرعان ما تمسك به ، وتطوِّق عنقه ، وقلما يستطيع التخلص من قبضتها والتحرر من قيودها ، فإذا انتصر عليها وأمسك بزمام نفسه ، وتجاوز أخطار شهواته وجد أمام الباب الثاني الأكثر خطورة على صفاء قلبه ، وهو باب الغضب ، والغَضوب تبقى نفسيته متوترة ، ولا يصفو قلبه بسبب كدورات ما يخلفه الغضب في سلوكه ، فيزداد حقده ، وتطوِّقه خواطر الشر ، وتدفعه لسلوكيات العنف والإساءة للآخرين ، فيسيء الظن في الناس ، ويزداد وهمه ، وتسيطر عليه الوساوس وتحركه اتجاهات خاطئة .

كان الشيخ رحمه الله يعلم أصحابه أن يكونوا دائمي اليقظة في ليلهم ونهارهم ، في عباداتهم ، ومعاملاتهم ، لكي يحكموا سيطرتهم على مداخل الشيطان إلى قلوبهم ، فيطاردوا تلك الأشباح التي تقتحم حصون قلوبهم بقراءة القرآن واستحضار الخشية من الله في قلوبهم ، والالتجاء إلى الله تعالى بفقرهم وذلهم ، لكي يمنحهم القوة والصبر على مواجهة دواعي الأهواء والغرائز الكامنة في أعمال النفس ، ولا يتحقق هذا إلاّ بالصحبة الصادقة لمن طهرت قلوبهم وتزكّت نفوسهم ، وشعروا بالطمأنينة والسكون ، وهؤلاء يتكلمون بحالهم لا بمقالهم وبأعمالهم لا بأقوالهم .

صدق الشيخ في مذاكراته :

أهم ما كان يؤثر في مجالس الشيخ ذلك الصدق في كلامه ، والصدق دليل علوّ الهمة وإيمان الداعي بدعوته ، وكان هذا الصدق يُوجد تلك الجسور المتصلة بين الشيخ وإخوانه ، وذلك التناغم العجيب بين المخاطِب والمخاطَب وبين المربّي والمريد ، فتزول الفواصل وتفتح الأبواب ، ويمتد اشعاع الكلمة فتخترق الحجب ، وتمكث في أعماق الذات ، وكأنّها بذرة من رحم استقرت ثم أخذت تنمو وتكبر إلى أن تصبح ذلك الوليد الجميل الذي يحمل قسمات أبويه .

ولا حدود لذلك التواصل الروحي بين الشيخ والمريد ، إنه التوحُّد

المقدّس لا لأجل مصالح مادية ولا لأغراض دنيوية ، ولكنه التوحُّد لرعاية حقوق الله ، والارتقاء بمستوى الرؤية الإنسانية لكي تكون شاملة وعميقة وراسخة.

وأجمل مافي هذه المجالس التي تمتد من العشاء إلى منتصف الليل من غير توقف أنّ القلوب فيها لا تلتفت يمنة ولا يسرة فضلاً عن الأجسام ، وتتجه بكليتها إلى الشيخ كما يتجه الطفل الرضيع في أشهره الأولى إلى ثدي أمه يمسكه بيديه يرضع لبانه ويشخص ببصره إلى وجه أمه ، ولا يحسُّ بمن يرقبه من قريب أو بعيد ، وكأنّ هذا الكوكب بسعته لا وجود له في كيانه وينتهي المجلس ، ويعود الكل إلى داره وهو في حالة من الغيبة عن عالمه المحيط ، لا يسمع صوت زوجة ولا ولد ، ولا تشدّه أعراض الدنيا وملذَاتها ، فقد كان في نشوة وسعادة روحية ، لا تدانيها لذّة أخرى مهما كانت.

ويتساءل الإنسان عن سر ذلك ، فلا يجد جواباً يغنيه ، ويسأل نفسه عن مفهوم السعادة وكيف يشعر بها ؟!.

وكان الحكماء والفلاسفة يتساءلون عن سرّ السعادة ، هل هي مرتبطة بالملذات الحسية أم بالملذّات المعنوية ، وأكدوا أنّ الملذّات الحسية تولِّد سعادة مؤقتة تتوقف بإشباعها ، ولا يبقى لها أثر ، بخلاف الملذّات المعنوية العقلية والروحية فإنها قد لا تجلب السعادة في البداية ، ثم سرعان ما تستجيب النفس إليها ، لأنها تسوق البدن من النقص إلى الكمال ومن السقم إلى الصحة ومن الجهل إلى العلم ومن الرذيلة إلى الفضيلة.

وعلَّل ابن مسكويه سبب ذلك أنّ النفس تشتاق إلى اللذات الحسيّة وتميل إليها ، وفي لحظة الشوق والميل إليها يستحسن الإنسان كل شيء فيها ولو كان قبيحاً في ذاته ، ولا يرى في تلك الحالة مواطن الخطأ والزلل في تلك الملذّات ، وعندما تأخذ النفس حظها منها تكتشف خطأ ما ارتكبته وقبح ما أختارته وتصاب بالندم والحسرة ، فتنقلب السعادة إلى شقاء ، بخلاف اللذات العقلية والمعرفية ، والروحية ، فإنّ النفس تضيق بها ولا تشتاقها ويختارها الإنسان كارهاً وصابراً ، ثم يكتشف فيما بعد لذتها وجمالها وشوقه

الفطري إليها ، لأنها تمثِّل الخير والكمال والفضيلة .

والفطرة النقية الصافية الطاهرة تشتاق إلى كمالها الذي خلقت عليه ، ثم صرفت عنه بتأثير التربية والبيئة ، فتعتاد ما هو مخالف لنقاء الفطرة ، فإذا اكتشفت طريقاً للكمال اشتاقت إليه وتعلّقت به واطمأنت له .

وقلب الإنسان هو مرآة للحقائق ، فإذا اتَّسخت المرآة بسبب السلوكيات المنحرفة أصبح القلب محجوباً عن النور الإلهي والقلب المحجوب عن هذا النور لابدَّ إلا أن يكون مظلماً ، كالليالي المظلمة التي يحجب عنها نور القمر .

وتتمثل مهمة الشيخ في إضاءة الشمعة في ليل مظلم ، فإذا شعرت القلوب بالنور يطل من بعيد عليها ويطارد ظلامها فسرعان ما تتعلَق به ، وتمسك بتلك الشعلة ، وتستزيد من نورها ، تطلعاً إلى الكمال الذي فطرت عليه .

وكثيراً ما كان يحذر إخوانه من الغرور والكسل والتوكل المذموم ، ويدعوهم إلى أن تكون همتهم عالية ، وأصحاب الهمم يقطعون الطريق بسرعة ، ويتجاوزون كل المشاق ، أما أصحاب الهمم الناقصة فسرعان ما يتوقفون في بداية الطريق عند أول حفرة تعترضهم أو هضبة تواجههم ، فيختارون الراحة على الجهد ، ويمكثون حيث هم في مواقفهم راضين بما هم فيه ، لا يدفعهم طموح إلى الأفضل ولا يشدهم نور أمل يتراءى لهم من بعيد .

* * *




المبحث الرابع
أسس منهجية الشيخ التربوية

- التزام الأدب في السلوك .
- التمسك بأحكام الشريعة .
- محاسبة النفس .
- مراقبة الله .




أسس منهجية الشيخ التربوية

ارتبطت التربية الصوفية بالتزام الأدب في السلوك ، والأدب مع الله أولاً وهو الأساس ويتمثل بأداء الواجبات والامتناع عن المحرَّمات والأدب مع الناس بالتعامل معهم بحسن الخلق والالتزام بالصفات السلوكية المحمودة والتوقف عن الصفات المذمومة ، فلا تربية صوفية مع انتفاء الأدب ، والصوفية إذا لم تقترن بالأدب فهي ليست صوفية ، لأن التربية الصوفية تهتم بحسن الخلق لقول النبي ﷺ في رواية أبي هريرة إنما بعثت لأتمِّم مكارم الأخلاق ولقوله ﷺ في رواية أبي هريرة: «إنَّ أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً».

وخصَّص **الإمام الغزالي** الجزء الأول والثاني من كتابه: **إحياء علوم الدين** لبيان الأدب في العبادات والعادات ، والأدب في العبادة أن تؤدي العبادة بالكيفية الصحيحة التي أرادها الإسلام ، ليس بشكلها الظاهري المتمثِّل في الالتزام بالأركان والشروط ، فهذا أمر مفروغ منه ويرتبط بالضوابط الشرعية التي شرحها الفقهاء ، وإنما بحقيقة العبادة ، وما يجب أن يرافق فعل الحواس من التزام بأخلاقية العبادة واحترام للفضيلة في كيفية أدائها ، وأول ما يجب في العبادة الطهارة والنظافة والخشوع وحضور القلب والالتزام بالمواعيد وعدم الرياء والتظاهر بالطاعة والخشوع للتقرب إلى الناس ومراقبة الله في أداء العبادة على الوجه الأكمل ، ومحاسبة النفس عن كل خاطرة مذمومة ونيَّة سيئة تفسد العبادة وتسيء لمفهومها ، فلا عبادة مع انتفاء الالتزام بآدابها وأخلاقياتها وسننها وأهدافها ، والعبادة التي تؤدَّى بغير الأدب المطلوب فيها لا تثمر ولا تزهر ذلك الأثر النوراني الذي أشرق في القلوب سعادة وسروراً ، ولم

يختلف الفقهاء في وجوب الالتزام بالأدب في أداء العبادات ، في الصلاة والصوم والزكاة ، والحج ، فمن أدى صلاته ولم يخشع قلبه فصلاته لا تثمر ذلك الصفاء الذي تحدثه الصلاة في نفسية العبد ، والزكاة التي يؤدِّيها المزكِّي ، مقرونة بالمنِّ والإذلال هي تكبّر وإجحاف ، والصوم الذي لا يقترن بالإمساك عن الفواحش والمعاصي والآثام ليس صوماً ، وإنما هو مجرَّد إمساك عن الطعام والشراب ، وهو قد يصح عند الفقهاء ولكنه غير كامل عند الصوفية لانتفاء أداء الصوم بالأدب المطلوب فيه ، والحج الذي لا تقترن أداء المناسك فيه بالهيبة من الله والتقرب إليه والإحساس العميق بعظمة الكعبة والسجود القلبي في كل خطوة أمام عظمة ذلك الرمز العظيم لبيت الله الحرام لا يمكن اعتباره حجاً مكتمل المعالم محققاً الغاية المنشودة منه ، ولابد من إخلاص النية لله تعالى في كل أداء نسك وعبادة والتفكر بأسرار العبادة واستشعار الذل بين يدي الله تعالى الخالق الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

أما الأدب في العادات فلا حدود له ، فآداب الضيافة تُدخل البهجة على النفوس وتجعل من سلوكية الطعام خُلقاً راقياً يُشعر النفس بسموِّها الإنساني ، وآداب الزواج تجعل العلاقة بين الزوجين أكثر قوة وتماسكاً ، وآداب الحديث تُحدث الألفة والمحبة بين أفراد المجتمع ، وآداب المعاملات التجارية تُوجِد الثقة بين المتعاملين ، وتقيم الاحترام بيهم ، وآداب الجوار تبني علاقات الأخوّة بين السكان ، وتجعل منهم خلية متعاونة على الخير ، وحسن التساكن ، وآداب الأسرة تجعل منها كتلة بشرية الأسرة متحابة متماسكة متكافلة متناصرة يسعى بعضها لخدمة الآخر ، وآداب السفر تجعل السفر متعة وتقيم بين المسافرين علاقة ود ومحبة وصداقة ، وآداب الأمر بالمعروف تجعل الكلمة مقبولة ، وتصل النصيحة إلى القلوب فتستجيب لها وتتأثر بها .

والتربية الصوفية التي لا تعلّم الأدب في السلوك ولا ترتقي بمستوى تفكير الإنسان ، ولا تنهض بهمَّته ، ولا تُصلح له معاييره في الفهم والسلوك ليست صوفية حقة ، وإنما طقوس متوارثَة ، ومجالس متعة وتسلية ، لا تختلف عن

المجالس الأخرى التي يعتادها الناس في حياتهم لقضاء أوقات فراغهم ، وعندما تفقد الصوفية صفاءها ونقاءها تصبح عصبية مذمومة تتناصر للدفاع عن أفرادها .

ولا يمكن لمجالس الصوفية أن تكون مجالس للسماع والإنشاد تقدم فيها موائد الطعام الشهية ، ولا تكون مجالس صفاء ومعرفة ورقي ، والمجالس لا تجمَّل بمشاعر الفرحة الناتجة عن الغناء والطرب والطعام وإنما تجمَّل بما يحس به كل فرد من سمو روحي يحرره من قيود الغريزة ويرتقي به إلى مستويات عليا من الإحساس بقيم الخير التي تغمر كيانه ، فيمتد فضاؤه الإنساني عبر المحيطات والبحار النائية ، فيجد في أعماقه الإنسانية الرحبة المشبعة بمشاعر التراحم والتكافل ، في رحلة إنسانية ، تحرر الإنسان من مطامعه وأحقاده وترتقي به إلى ربه ، فيشعر بعظمة الكون الفسيح ، ويسجد قلبه لله تعالى قيّوم الأرض والسماء الذي لا تأخذه سنة ولا نوم .

والأدب هو ثمرة حسن الخلق ، فمن حسنت أخلاقه كثر أدبه ، والتزم بطريقة عفوية من غير تكلّف بما يوجبه الأدب عليه ، من أداء واجباته على أفضل ما يكون ، نحو ربه ونحو مجتمعه المحيط به .

وأول ما يبتدىء به الصوفي الحق أن يجاهد نفسه ، وهو الجهاد الأكبر الذي يعجز عنه معظم الناس إلا من أنار الله قلبه بنور الإيمان وشرح صدره لِقِيَمِ الحق والفضيلة .

والأدب هو الثمرة المرجوَّة من كل ما تدعو إليه الصوفية ، ومن كل مجاهداتها ورياضتها ، والمعرفة التي تعتبر الغاية المرجوة لا تتحقق إلا بشرطها الأساسي وهو التزام الأدب والتحلّي به .

التزام الأدب في السلوك :

وأول خطوة في منهج الشيخ وفي تربيته هي التزام الأدب والتمسك به ، وكان يتسامح في كل شيء ما عدا «قلة الأدب» وأول كلمة قرأتها في طفولتي هي كلمة مكتوبة في لوحة معلّقة في غرفة الشيخ هي «**أدب يا هو**» ، وما زالت

اللوحة معلّقة بجانب ضريحه حتى الآن ، وأظنها ستبقى في مكانها ما دام الضريح قائماً. معبرة عن مكانة الأدب في صحبة الشيخ.

هذه الكلمة الصغيرة تُلخِّص منهج الشيخ وتعبِّر عن شخصيته ، وكان يطلب من إخوانه أن يكونوا كما شاؤوا في مظاهرهم ، فالأدب لا يكون في المظاهر الخارجية ولا في كلمات المديح ولا في تكلّف الأدب بكيفيات متصنّعة ، وإنما يتمثل الأدب في القلوب الذي تستشعر الأدب في كيانها ، ولا تلتفت يمنة ويسرة ، فالتفات القلب عن الحديث والمجلس بخاطرة خارجية منافٍ للأدب.

فمن أدى صلاته والتفت قلبه عن الصلاة إلى غير الصلاة فهو من قلة الأدب ، وقليل الأدب محجوب عن ربه ، ولو أدى الصلاة بأركانها وشروطها ، والالتفات حجاب عن جميع الأحوال ، سواء كان الالتفات لدنيا يصيبها أو لامرأة يحبها أو لولد يتعلق به أو لجاه يشده أو لمنصب يغريه أو لمشيخة يتطلع إليها ، وهذه الحجب تحجب القلب عن الأنوار التي تعقب الطاعات.

وكلمة «**انشغال القلب**» كانت تتردد كثيراً في مجالس الشيخ ، وكان يحذر من انشغال القلب ، والانشغال هو حجاب ، ولابد من التغلب على هذا الانشغال باليقظة الدائمة والصحبة الطيبة التي تشعرك بالصفاء ، ولا تعكر قلبك بما يكدره وينشر فيه الظلمة.

والخُلُق هو صورة الباطن ، ولا يُدركَ الباطن إلا بما يظهر على صاحبه من سلوك ، إذا كان الباطن جميلاً أثمر على الظاهر سلوكيات الأدب ، فكان أديباً مع الله ومع أسرته وأصدقائه وجيرانه وتلامذته كما التزم بالأدب في صلاته وزكاته وصومه وحجه.

فالأدب هو ثمرة ما يجري في الباطن ، فمن حسنت سريرته حسن خلقه ، وكما يحرص الإنسان على صورته الظاهرة المتمثلة بخَلْقه في ملامح جميلة ، كطوله وتناسق هيئته ، وكمال بدنه ، فإنه يجب أن يحرص على صورته الباطنة المتمثلة فيما تنطوي عليه سريرته من مكنونات مخبوءة وخواطر قلبية داخلية وصفات محمودة وممدوحة.

ولم يعتمد الشيخ في منهجه في التأديب على الأمر والنهي ، وإنما كان يعلمهم الأدب بسلوكه معهم ، وأدبه في مخاطبتهم والتلطف بهم ، واستمالة قلوبهم إليه بالإحسان إليهم والتجاوز عن أخطائهم وتجاهل السيء من سلوكهم وحفظ أسرارهم ، والاهتمام بأمرهم ، وإشعارهم بحبه لهم ، فكان معهم كالأب العطوف الذي يمسح عن عيونهم دموع همومهم ، ويفتح قلبه لما يثقل كاهلهم من آلام وأحزان ، وكان يناديهم بأحب الأسماء إليهم ، ويرعى أطفالهم الصغار إشعاراً لهم بالمحبة والرعاية ، لا سيما إذا مرض أحدهم زاره في مرضه وإذا أثقله همّ شاركه في ذلك الهم ، وإذا وجده حزيناً سأله عن أحواله وخفف عنه ما يحزنه .

لم ينتقد أحداً من أصحابه قط ولو ارتكب أكبر الأخطاء ، وكان يكتفي بإشارة عارضة يومىء بها إليه يعقبها نصح عام يفتح أمامه باب الأمل ويبعده عن اليأس لئلا يتسبب اليأس في انقطاع ينابع الخير في كيانه ، وكان يطوِّق من يستبد به الياس والقنوط بالدفء والمحبة والألفة لكي يعود إلى رحاب أسرته الروحية ، فلا ينقطع عنها بسيطرة اليأس على نفسه .

وكان قلبه يتسع لكل إخوانه ، محبة لهم وتعاطفاً معهم ، وكانوا يتعلمون منه الأدب لا من كلماته ولكن من خلقه وأدبه ، وكان يؤثرهم على نفسه ، ولا يغلق بابه دونهم أبداً ، فحياته ملك لهم ويعتبر أنَّ السيادة لا تتحقق إلا بالخدمة للآخرين ، والتعاطف معهم .

ولم أسمعه قط في مجالسه الخاصة وفي أحاديثه الشخصية يتكلم بسوء عن أحد إخوانه ، مهما صدر منه من أخطاء ولم يكن يسمح لأحد أن يتكلم عنهم بسوء في مجالسه ، فإذا تطفَل أحد بكلمة ناقدة عن أحد من أصحابه أعرض عن سماع تلك الكلمة الناقدة ، وكان يدعو إخوانه إلى أن يعيدوا إليه من أعرض ، وإلى أن يقرِّبوا إليه من ابتعد ، وأن يلتمسوا العذر لمن أساء مع الدعاء بالمغفرة لمن أخطأ ، وأن لا يحكموا على ظاهر الأمور فربَّ معصية تولَد ذلاً وانكساراً ورب طاعة تولّد غروراً واستكباراً .

وكان من أشد الناس حرصاً على ستر عيوب الآخرين ، وكان كل فرد يشكو

إليه همومه ، سواء في علاقاته بزوجته وأولاده وإخوانه أو في علاقاته مع إخوانه وأصدقائه ، ويكشفون له كل أسرارهم ، وما تنطوي عليه قلوبهم من خواطر واستعدادات ، فكان يسمع كل ذلك ، ويستر تلك الأسرار ، وكأنه لم يسمع شيئاً .

وأكثر ما كان يردده في المواقف الصعبة كلمة : «**يا مقلب القلوب**» يردده مرات . . . إلى أن يشعر بالسكون النفسي ، وكانت هذه اللفظة معبّرة عن حالات التحول والقلق .

ولم يكن ينسب لنفسه الأمر ولا النهي ولا التعليم ، وإنما كان يقول : أمرتنا الشريعة ونهتنا الشريعة ، وأدبتنا الشريعة وعلّمتنا ، لكي تصل رسالة التأديب إلى القلب صافية ، وتستجيب النفس لها بدون أي عوائق ، لأنَّ النفوس التي لم تصل إلى درجة الكمال قد تأبى التأديب والتوجيه ، وقد لا تقبل النصح والتسديد ، لأن من طبائع النفس البشرية ألا تستجيب لكلمة الحق ، وقد تتدافع النفوس وتتنافر ، ولابد للمربي أن يحترم مشاعر الآخرين ، ويراعي طبائع النفوس .

ولا يمكن للمربي الذي لم يتخلّق بخلق الأدب ، ولم يجسّد ذلك الأدب بكلامه وسلوكه وأفعاله أن يُوصل رسالته إلى الآخرين ، فالمربَي هو القدوة بالنسبة لإخوانه ، فإذا التزم بآداب الشريعة التزم أصحابه بذلك ، وصار لهم قدوة ومثلاً .

التمسّك بأحكام الشريعة :

يقوم الفكر الصوفي على دعامتين ، الشريعة والحقيقة ، والشريعة مرتبطة بالتكاليف والأوامر الشرعية التي أمر الله تعالى بها عباده ، والحقيقة معبِّرة عن مشاهدة آثار الربوبية ، ولا يستقيم أمر الحقيقة إلا بالانقياد لأحكام الشريعة ، فإذا وقع تجاوز الشريعة في البحث عن الحقيقة أدى الأمر إلى الانحراف والضلال .

ومعظم الذين سلكوا طريق الصوفية ولم يتقيدوا بأوامر الشرع ولم يلتزموا

بنواهيه ، ولم يعرفوا الحلال والحرام ضلّوا طريقهم ، لأن العلم يعني معرفة الشيء على ما هو به ، والجهل نقيض العلم ، فالعلم يثمر المعرفة والاستقامة ، والجهل يثمر الضلال والانحراف.

والعلم محمود في جميع الأحوال لأنَّه يثمر المعرفة ، وقد يذَّم العلم لا لذاته ولكن لصفة فيه ، كالعلوم الضارة للإنسان أو التي لا تفيده في حياته ، كعلم السحر وغيره من العلوم المذمومة ، فغاية العلم الثمرة ، وأول ثمرات العلم معرفة الله ، ولذا فقد رفع الله شأن العلم والعلماء ، قال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾.

والعلماء الراسخون في العلم هم العلماء الذين أوصلهم علمهم إلى معرفة الله ، والمعرفة تولَد اليقين بأنَّ كل الأشياء من الله تعالى ، هو مسبِّب الأسباب ، والبشر مسخَّرون من الله ، وهم وسائط تؤدي مهمتها بأمر الله ، ولا يجوز أن تحل الوسائط المسخَّرة في قلب العبد ، فالشكر لله والحمد لله ، لأنه هو المنعم والمتفضّل.

وكل ما يجري في الوجود فهو من الله ، فقد خلق الله الخَلق وأوجد لهم قدرتهم ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

والعبد لا يخرج عن كونه من مراد الله تعالى ، فلا يجري في الكون شيء إلا بإرادة الله.

وتجب معرفة العلوم الشرعية التي يحتاج إليها العبد ، وأهمها ما يتعلق بمعرفة الله تعالى وبمعرفة أحكام العبادات وأحكام الحلال والحرام في المعاملات ، لأن العبد يحتاج إلى هذه العلوم ، وعلى السالك أن يتمسّك بأحكام الشريعة ، وألاّ يخرج عنها ، لأنها تعصمه عن الخطأ ، وتبيِّن له معايير الاستقامة والكمال.

كان الشيخ يدعو إخوانه للتمسك بأحكام الشريعة كما جاءت في القرآن والسنة وإجماع المسلمين ومنهج السلف الصالح من الصحابة والتابعين ،

ولا تتحقق الاستقامة إلا بالتزام بأحكام الشريعة ، والاستقامة هي الكرامة التي يكرم بها أولياءه .

ولم يكن يحب الدخول في أمور الخلاف والجدل ، لا في قضايا العقيدة ، ولا في الأحكام الفقهية ، بل كان يكره الجدل ، ويدعو إلى الانصياع للحق ، والمسلم الحق هو الذي يبحث عن الحق ، وهو كمن ينشد ضالة يبحث عنها فإذا وجدها أمسك بها ، ولو كان الحق إلى جانب الآخر ، والجدال بين الفقهاء الذي يراد به الغلبة والنصر دليل على غفلة القلب وقسوته ، وهذه ظاهرة مَرَضِية يجب التغلُّب عليها بتزكية النفوس .

ويعتبر الاستكبار عن الانصياع للحق دليل ضعف ، والأقوياء من الرجال يرجعون إلى الحق عندما يكتشفون أن الحق قد اتضح لديهم ، وكان يكره الجدال في مجالسه ، لأنَّ الجدال دليل غفلة ويأتي بالأحقاد ، والنفس التي تزكَّت تبتعد عن الجدال وتدافع عن الحق .

وإذا أشكل عليه أمر فقهي يسأل العلماء من إخوانه عن آراء الفقهاء في ذلك ، أو يطلب منهم تحقيق هذه المسألة ، والاحتكام لرأيهم ، ولم يكن يحب الأخذ بالرخص والآراء الشاذَّة في المذاهب ، ويريد أن يكون مع الجماعة ، وكان دوماً ينشد العزائم في الأمور كلها .

وإذا ظهر له أمر مخالف لما عليه رأي المذاهب الشافعي ألزم نفسه بما اقتنع به ، ولم يأمر أصحابه باتباعه تاركاً لهم حرية ما يأخذون به ، وبناءً على هذا كان لا يصلي صلاة الظهر بعد صلاة الجمعة ، ويأمر أمام المسجد بأن يصلي الظهر بمن أراد ذلك .

وكان يحترم رأي المذهب ولا يحب الخروج عليه ومخالفته ، واذكر أنه كان يقيم صلاة الجمعة في مزرعة خارج المدينة ، وكان يصلي أصحابه معه الجمعة بأركانها وشروطها ، فلما أخبره أحد إخوانه العلماء أن جمهور الفقهاء يشترط العدد وإذن الإمام لإقامة الجمعة قال له: نوقف الجمعة في المزرعة ونعود إلى المسجد احتراماً لرأي جمهور الفقهاء .

ولم يكن يشجع الخروج على رأي المذهب ، أو الأخذ بالرخص ، ويريد الأفضل والأكمل ، لكي تظل هيبة الفقهاء قائمة في قلوب اتباعه ، فلا يجرؤون على مخالفة ما يقولون ، ويرى التمسك بالشريعة مما يعصم عن الخطأ والانحراف ، ولا يحب التأويل المخالف لما عليه جمهور المفسرين .

وكان يلتزم بالسنن والنوافل كما يلتزم بالفروض والواجبات ، في الطهارة والعبادة ، ولم يترك سنة مؤكدة أو غير مؤكدة قط ، ويؤدي السنن وكأنها جزء هام من حياته لا يختلف من حيث الأداء عن الواجبات ، ويتمسك بآداب الطهارة والعبادة من غير تكلّف .

لم يتخلَّف قط عن أداء صلواته الخمس جماعة في منزله مع أسرته أو مع إخوانه في المسجد أو في الأماكن الخاصة والعامة ، ولم أره يصلي الفرض منفرداً في حضر أو سفر أو صحة أو مرض ، وكان يقوم في أوقاتها ويؤم الآخرين ، ولم يترك صلاة الضحى أو غسل الجمعة بتأديتها أو صلاة التراويح والوتر بل كان يؤديها كلها وكانت الصلاة تقام بكل شعائرها وآدابها في أي مكان كان فيه ، وكأنها الأساس والركن الأول في حياته ، ويرفع الأذان وتقام الصلاة بكامل شعائرها وأورادها وأدعيتها .

وكان من عادته أن يخصِّص صباح يوم الجمعة للإعداد لصلاة الجمعة بكل آدابها ، يأتيه الحلاّق بعد صلاة الفجر إلى داره ، وعند الضحى يدخل إلى الحمَّام لمدة ساعة ، ثم يخرج ويرتاح لمدة نصف ساعة في سريره ، ثم يصلِّي صلاة الضحى ويقلِّم أظافره ، ويتناول طعامه ، ثم يخرج إلى الصلاة بأجمل هيئته ويصلِّي الصلاة في مسجده المعتاد ، ثم يستقبل إخوانه وأصدقاءه ، وبعد ذلك يعود إلى داره .

لم يتساهل قط في أدب من آداب الشريعة ، ويعتبر التمسك بآداب الشريعة كالتمسك بأحكامها ، ولا تؤدى شعائر الشريعة إلا بكامل آدابها ، في العبادة والنظافة والطهارة والصلاة والصوم وآداب الطعام وآداب المجالس وآداب العلاقات الاجتماعية ، وآداب الحديث وآداب الدعوة وآداب التلاوة وآداب الدعاء والاستغفار وآداب السفر وآداب الصحبة والصداقة والجوار .

ويؤكِّد في مجالسه أنَّ من يترك أدباً من آداب الشريعة لا يمكنه أن يدرك معنى الشريعة ، ولا يمكنه أن يصل إلى صفاء القلب ، ومثله في ذلك من يدخل بيتاً بلا سراج فما يفسده بسبب جهله أكثر مما يحسنه ، وأنَّ الذين أضاعوا الأصول حُرِموا من الوصول ، فمن أراد الوصول إلى الله فعليه أن يعرف أصول الشريعة وفروعها ، لئلا يقع في الأخطاء التي تدفعه إلى المزالق والضلالات ، ولابدَّ في البناء أن يكون قائماً على دعائم ثابتة ، وركائز صامدة فإذا كانت الدعائم والركائز ضعيفة فسرعان ما ينهار البناء أمام العواصف القاسية .

ولا تُفهَم أحكام الشريعة إلا بالتزام آدابها كاملة من غير أي تفريط بها أو تخطِّيها ، لأنَّ تلك الآداب هي روح الشريعة ، وهي الغاية منها ، والذين فرّطوا في الآداب زلُّوا وسيطرت عليهم مشاعر الغرور ، وانقادوا لأهوائهم ونزواتهم ، ثم أخطأوا في المجاهدات فقادتهم إلى الإحباط واليأس ، وأخطأوا في المقامات والأحوال فسيطرت عليهم الأفكار المنحرفة .

ولا يشترط في السالك أن يكون عالماً متمكناً في علوم الشريعة فهذا شرط غير ممكن ، ولكن لابدَّ له من معرفة الأصول المرتبطة بسلامة الاعتقاد عن طريق معرفة ما يجب على الإنسان أن يؤمن به من مبادىء الإسلام ، وأصوله ، والاحتكام إلى الله ورسوله ، والتزام الطاعة فيما أمر الله به ونهى عنه ، وأن يميز بين الحلال والحرام في أنواع السلوك فلا ينطق في قوله إلا بما أقرّته الشريعة ، ولا يسلك أي سلوك حرّمته الشريعة ، وما انحرف منحرف إلاّ بسبب جهله بأصول الدين ، وقواعد الإيمان .

فالصوفية التزام ومنهج لتحقيق الصفاء ، وليست مطيَّة لتبرير العجز والكسل ، وهجر آداب الشريعة ، وهي طريقة للتقرب إلى الله وليست مطية للشرك به والانحراف عن مبادىء العقيدة ، وهي تربية غايتها النهوض بالإنسان وليست مجرد طقوس وتقاليد تسيء للدين وتنشر في المجتمع قيم التواكل والتحاسد والتزاحم على المصالح المادية باسم القيم الروحية .

محاسبة النفس :

كان الشيخ يحضُّ إخوانه على محاسبة النفس كخطوة أولى وضرورية لتزكية النفوس وإصلاح القلوب ، انطلاقاً من قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ [الحشر : ١٨] والمحاسبة دليل اليقظة ، وعدم المحاسبة دليل الغفلة ، وغاية المحاسبة معرفة الربح والخسارة ، فإن وجد ربحاً استزاد من الأفعال الرابحة وإذا وجد خسارة تلافى أسبابها لئلا تتكرر خسارته .

وهناك واجبات أمَرَ الله تعالى بها ومحرَّمات نهى الله عنها ، وهناك فضائل ورذائل ، وهناك خير وشر ، ومحاسبة النفس في كل مساء تساعد على معرفة ما فعل في يومه ذاك ، من خير وشر ، والعبد مسؤول عما يصدر عنه ، ومحاسب ، ويجب ألا يضيِّع عمره فيما يضرُّه في آخرته ، وكان يطلب من إخوانه أن يحفظوا سمعهم وبصرهم ، وأن يمسكوا لسانهم ، فهذا هو طريق تزكية النفوس وطهارة القلوب ، فمن حفظ بصره من النظر إلى المحرمات ومن حفظ سمعه من كل كلمة سوء ومن حفظ لسانه من كل كلمة سوء فقد سار في الطريق الذي يقوده إلى ربه ويوصله إلى الجنة ، فالإنسان مسؤول عن فضول ما يرى وما يسمع وما يتكلم به .

كما يجب على العبد أن يحفظ بطنه من الطعام الحرام الملوَّث بحقوق الآخرين ، فكل طعام من مال حرام يحجب القلب عن النور الإلهي فلا يشرق فيها ، والمال الحرام هو كل مال تعلّق به حق لآخر ، كمال السرقة والغصب والرشوة وأكل أموال الناس بالباطل والزيادات الربوية الظالمة وأكل أموال اليتامى وأكل حقوق المستضعفين ، وكل مال مشبوه أو دخلِته ريبه .

وعلى العبد أن يحفظ لسانه ، فلا يتكلم عن أحد بغيبة أو نميمة أو يذكره بما يكره ، فمن تكلم عن الآخرين بما يؤذيهم فقد ارتكب إثماً عظيماً ، وعليه أن يعوِّد لسانه على الصدق وشهادة الحق ، وأن يحمد الله ويشكره ، وأن يذكره في كل وقت تعبيراً عن إحسانه لعباده بما أكرمهم به من نعم .

مراقبة الله :

إذا عرف العبد أنَّ الله تعالى يراه ويراقبه في كل أعماله ويعرف ما ينطوي عليه قلبه من خير وشر أحسَّ بأثر هذه الرقابة في سلوكه ، والتزم بما أمره الله به ، لأنه يستحي من الله تعالى أن يراه في مواطن المعاصي والشبهات .

والعبد عند ارتكابه للآثام يستحي أن يراه أحد في تلك الأماكن فكيف إذا شعر برقابة الله عليه ، فإنَّ حياءه من الله يزداد ، ويخشى الله ويهابه ، والإنسان لا يخاف إلا إذا ارتكب إثماً ، فما يخيف الإنسان هو الإثم .

والقلب إذا غلب عليه حب الله تعالى والتعلق به فإنه لا يلتفت إلى غيره من الخلق ، اكتفاء بما شُغِلَ به ، وإذا ضَعُفَ تعلّق القلب بالله تعالى فقد يلتفت القلب إلى الأهواء والملذّات الحية ، وهذا القلب إذا كان نقياً وطاهراً فإنّ تذكيره برقابة الله عليه يولِّد لديه شعورين ، الحياء من الله والهيبة منه ، وفي كلتا الحالتين تشعره الرقابة بوجوب رعاية حقوق الله عليه .

أما القلوب القاسية والمريضة فإنها لا تشعر برقابة الله عليها وإذا ذكِّرت بذلك أعرضت عن الحق ، وزاد انغماسها فيما هي فيه من الشهوات والملذّات .

وعندما يربى الطفل على الإيمان والعقيدة الصحيحة ، ويعتاد منذ طفولته أن يراعي حقوق الله في سلوكه ، ويستشعر في قلبه أن الله تعالى معه ويراه فإنه يشعر بأثر رقابة الله له ويستحي أن يراه الله في مواطن الإثم .

كانت هذه المعاني الراقية والسامية تثير في القلوب مشاعر روحية عجيبة ، كانت توقظ النفوس من غفوتها وتسقي القلوب بمياه عذبة من القيم العالية ، فيرتقي الإنسان من عالمه المدنَّس بالأوحال إلى الفضاء الأعلى الذي تتحرر فيه النفوس من عقالها وتحلِّق الأرواح في السماء فرحة سعيدة بلقاء ربها ، وما أجمله من لقاء .

وإن الأرواح لتشتاق كما تشتاق الأرض ، الأرض تشتاق لماء الحياة لأنها تجد فيها سبباً لعطائها ، فإذا عطشت الأرض أصفرَّت وتشقَّقت وساء منظرها ،

متطلعة إلى ماء الرحمة من السماء يعيد إليها بهاءها ويبعث فيها إرادة الحياة ، فتهتز طرباً وفرحة وسعادة ، وكذلك النفوس البشرية تحنُّ إلى أمطار الرحمة المبشِّرة ، التي تنهض بها إلى العوالم العلوية ، حيث الفضاء الفسيح الذي لا تقيِّده العقول ، ولا تحجبه نظرات قاصرة ، لا تدرك من الوجود إلا حيث تمتد قدرات العيون على الإبصار.

ولنتأمل قليلاً ملامح ذلك العبد المستضعف بقدراته المحدودة وهو يرى الله تعالى ينظر إليه ويراه ويحيطه برعايته ويتوَّلاه ، فيأتيه شعور غريب عجيب كالبرق السريع يدقُّ بابه ، يعانقه ويهمس في أذنه سرَّاً من الأسرار ، ويغادره كما جاء ، ويحاول أن يمسك به فلا يستطيع ذلك ، فقد سلَّمه الأمانة وهمس في سره بما جاء يحمله ، فينتاب ذلك السالك شعور عجيب ، لا يدري هل هو شعور الفرحة أو الحزن أم شعور الرجاء أو الخوف ، أو شعرو الهيبة أو الأنس ، فيصرخ أو يبكي أو يقفز من مكانه في الهواء كأنه يحاول أن يلحق بذلك الزائر الوارد ، ويعود إلى بيته وهو في حالة استغراق وذهول ، ويشعر في أعماق كيانه بأنس عجيب ، ويطوِّق بساعديه الدنيا المحيطة وكأنها في قبضته ، وتحيطه أسرته الصغيرة بالرعاية والحب ، فلا يلتفت إليها ، ويطوِّقه الحنين إلى ذلك الهمس العجيب الذي ملك عليه لبَّه ، ويتعلَّق به ، ويبقى مشدوداً إليه ، وتبتدىء رحلته الجديدة من عالم قديم أَلِفَ ظلماته إلى عالم جديد تشرق فيه الأنوار في قلبه ، فتحيل وحشته إلى أنس بربه ، ويشعر بالدفء العجيب يدعوه في كل ساعة إلى ذلك الحضن الروحي الذي يطوقه ويشد أزره.

تلك هي الأحوال التي يرتقي بها السالك سلالم السموّ إلى الله تعالى الذي ينادي عباده في كل لحظة أن يؤمنوا ولا يشركوا به أحداً ، وأن يعملوا الصالحات من الأعمال وأن يتواصوا بالصبر والرحمة.

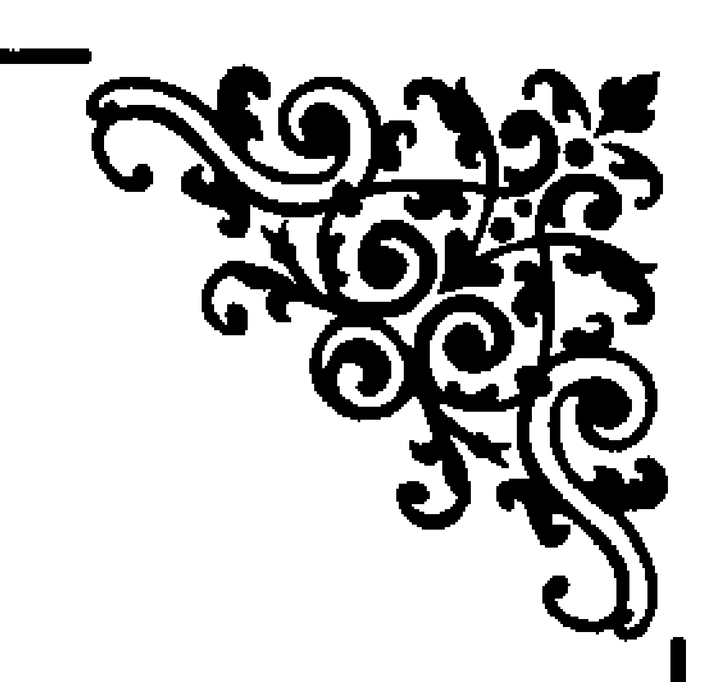
ذلك هو الخطاب الذي يوقظ القلوب من غفوتها ، ويطهِّرها من كل ما هو مذموم من الصفات والخواطر ، لكي يكون العبد مطية للخير ، وجسراً للفضائل ويسعى في خدمة الخلق وهم عيال الله ، يساعدهم ويناصرهم ويدعو للتآخي الإنساني ونبذ السلوكيات الخاطئة والأنانيات الضيقة.

وفي هذا المجتمع تُحَقِّق الإنسانية امتدادها وتَجِدُ فضاءها بعيداً عن الأقليميات الضيقة والمدافعات المذمومة والمغالبات التي تجسد تخلُّف القيم الإنسانية وتراجع المعايير الأخلاقية.

ما أروع ما كان الشيخ يقوله لأصحابه عن استشعار رقابة الله على قلوبهم وسرهم ، كان يقول ذلك بكلمات هادئة صادقة لا تكلّف فيها ، كل حرف يخرج بهذا الصدق والإخلاص ينبت في الأرحام ذلك الكم الهائل من المشاعر والعواطف ، وتستقر الكلمات في الأعماق وتحدث في القلوب ذلك الأثر العظيم من التأثير في السلوك ، إلى أن ينقلب ذلك الإنسان الأناني الجشع إلى رمز إنساني يفيض بالرقَّة والرحمة ، ويرفع شعار الإخاء والإيثار من غير تكلّف ، وكأن الدنيا غير الدنيا ، وكأن البشرية قد استحالت إلى كتلة متراصَّة متكافلة ، يحمل القوي الضعيف والغني الفقير ، وتزول الحجب والحواجز ، وتمتد الجسور فوق الوديان السحيقة رافعة شعار التواصل الإنساني ومبشرة بإنسانية جديدة ، تقدمها التربية الإسلامية كمنهج للإصلاح الاجتماعي والإقلاع من مطارات التخلّف إلى الفضاء الإنساني في هذه القرية الكونية التي ضاقت أحياؤها المجاورة بالمجازر الحربية المخجلة والمنازلات اللاأخلاقية التي أرعبت أطفال المهاد ورفعت شعارات الحروب على الرايات ، وأطلقت سهامها في كل مكان.

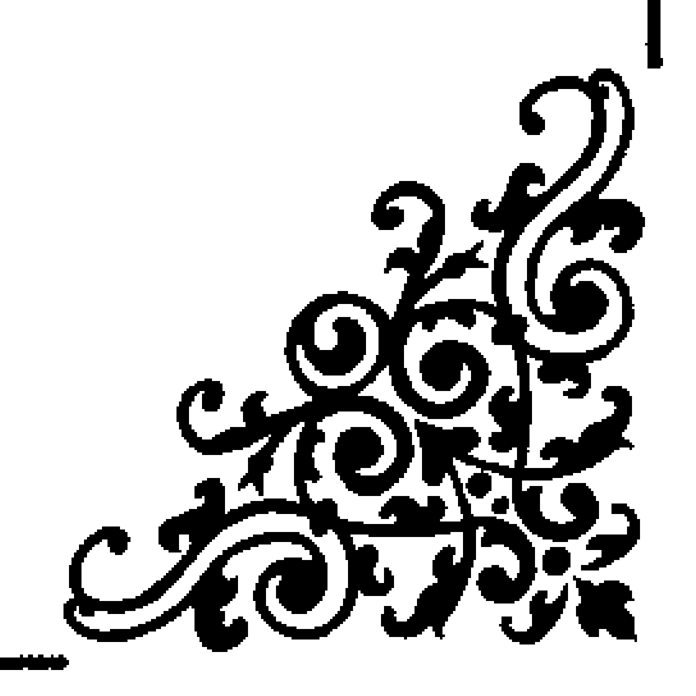
ولابد من العودة إلى تربية روحية ، تعيد النقاء والصفاء إلى ملامح عصرنا ، تهذِّب الطباع ، وتطوِّق الشر ، وتنشر الخير ، وتَعِدُ مجتمعنا المعاصر بسلام يحققه العدل ، وبأمن يحميه المستضعفون في الأرض ، الذين سيمكِّن الله لهم أمرهم ، وسينصرهم على رموز الشر.

* * *

الفصل الرابع
أسفاره ورحلاته

- زيارة القدس الشريف .
- زيارة العراق الأولى .
- زيارة العراق الثانية .
- زيارة الحج الثانية .

أسفاره ورحلاته

كان الشيخ يستخدم لفظة السفر والرحلة في مذاكرته بمعنى خاص غير المعنى اللغوي وهو يريد السفر إلى الله والرحلة إليه جل جلاله ، والسفر إلى الله هو الارتقاء من عالم الشهادة إلى عالم الغيب ، ومن عالم الأرض الحسي المشاهد والمحدود إلى ملكوت الله .

والمراد بالسفر هو الانتقال من مكان إلى آخر ، إمَّا لطلب العلم أو للبحث عن المال أو للتعرف على بلاد جديدة بقصد المتعة والبهجة ، وأحياناً يكون السفر للدعوة أو أداء مناسك العمرة والحج .

والسفر لابدَّ فيه من القدرة على مخالطة الآخرين ، ويكشف في السفر عن أخلاق الرجال ، ولابد فيه من الرفقة الصالحة ، والرفيق قبل الطريق .

تحدثه عن آداب السفر :

وكان الشيخ يتحدَّث عن آداب السفر وأهم هذه الآداب ما يلي :

- أن يكون السفر في طاعة الله تعالى ، لطلب علم أو لزيارة صديق ، أو لدعوة أو حج في سبيل الله ، والنية هي التي تحدد نوعية السفر ، إن كان مندوباً إليه أو مباحاً أو واجباً أو محرَّماً .

- اختيار الرفقة الصالحة التي تعين على مشقة الطريق ، والرفقة الصالحة ضرورية في السفر والحضر .

- اختيار الوقت الملائم للسفر ، لكيلا تفوته صلاة الجمعة ، ولم يكن يحب السفر في يوم الجمعة ، ويختار أياماً معينة لسفره .

ومن عادة الشيخ أن يوَدع أصحابه عند السفر بالدعاء لهم بأن يتولاهم الله

بالحفظ ، وأحياناً يؤذن عند وداع مسافر عن أهله ، وكان يوصي من يودعه بتقوى الله ورعاية حقوقه عليه ، ويقول بأن الصديق لا يعرف إلا عند السفر ، فالسفر يُسفِر عن أخلاق الرجال .

وأهم أسفاره ورحلاته ما يلي :

أولاً : رحلات داخل سوريا :

وكان يحب السفر ، ويُعِدُّ له عدته ، ويرافقه عدد من إخوانه في رحلاته ، وقد رافقته في عدد من رحلاته الداخلية إلى مدن الساحل اللاذقية وطرطوس وجبلة وبانياس وإلى دمشق وحمص ، وإلى مدينة القنيطرة وحمَّامات الحمَّة المشهورة على نهر الأردن . . زار ضريح إبراهيم بن أدهم في جبلة ومقام السيدة زينب وضريح الشيخ محي الدين بن عربي في دمشق ، وكان يأنس بزيارة الصالحين ، والتصدُّق على من يقوم بخدمتهم ، والتلطف معهم ، ولما زار دمشق زار ضريح مولاي خالد النقشبندي في حي المهاجرين ، وأقام فيه لمدة ثلاثة أيام برفقة عدد من إخوانه ، وكان سعيداً بذلك واختار هذه الإقامة على أي مكان آخر، ولم يكن يأنس بالفنادق الفاخرة والإقامات المريحة، ويختار الأماكن التي يشعر بالأنس فيها ، وكثيراً ما كان في حلب يختار زيارة جامع الصالحين في الجهة الجنوبية من المدينة ويقضي مع إخوانه يوماً كاملاً فيه ، وكان يلتزم بكل الآداب الشرعية في زيارته لأضرحة الصالحين ، يقف بعيداً عن الضريح لا يلمسه بيده ، يقرأ الفاتحة بصوت هامس ، ويدعو الله تعالى ، ثم يغادر المكان، ويدعو أصحابه للالتزام بالضوابط والآداب الشرعية من غير تجاوز لها .

وفي دمشق كان يزور أصدقاءه من علماء دمشق من أمثال السيد مكي الكتَّاني أو يزورونه في مقر إقامته كما يزور الصالحين ، ولم يزر سياسياً أو صاحب مال وزعامة في داره أو مكتبه أبداً .

وحضر في دمشق اجتماعات العلماء التي كانت تعقد في فترة الخمسينات في دار السيد مكي الكتَّاني غالباً ، وكان يحظى باحترام علماء دمشق ويثقون بحكمته وسداد رأيه ، وأحياناً كان يتوسَّط للتقريب بين الأطراف المختلفة . ويقول : «قوة العلماء في وحدتهم» .

وفي أيام الوحدة مع مصر وقع خلاف كبير بين علماء دمشق ووزير الأوقاف يوسف مزاحم الذي كان من المحبين للشيخ بشأن قانون الأوقاف ، وتطور الخلاف إلى درجة كبيرة ، وذهب الشيخ إلى دمشق بطلب من الطرفين ، وجمعهما في لقاء خاص ، واستمع كل من الطرفين إلى حجة الآخر ، إلى أن وقع التفاهم وزال سوء الفهم المتبادل .

وكان يرافقه في معظم هذه الرحلات الداخلية عدد من إخوانه ، منهم الشيخ محمد الشامي والحاج محمود مهاوش وأبو عمر الدباغ وفوزي شمسي والشيخ أديب حسُّون ومحمود الناشد وأحمد الصغير وجاسم الفياض .

ثانياً : رحلات تركيا ولبنان :

سافر الشيخ عدة مرات إلى لبنان ، بيروت وطرابلس وبعلبك ، وأمضى مرة مدة شهر في مدينة «سير» اللبنانية الصغيرة الواقعة بقرب طرابلس ، والتقى بعدد كبير من إخوانه في لبنان ، وكان يرافقه في «سير» كل من فوزي شمسي وأبي عمر دباغ وأحمد الصغير ، أما في زيارته إلى بيروت فكان يرافقه الحاج محمود مهاوش العراقي ومحمود الناشد وفوزي شمسي ، وأمضى بضعة أيام في مدينة «حمَّانا» وزار مدينة بعلبك بآثارها التاريخية .

وزار تركيا عدة مرات ، وأمضى عدة أيام في مدينة أستانبول وكان الحاج عمر الططري يتولَّى مهمة شرح المعالم الإسلامية في هذه المدينة نظراً لصلاته الأسرية بتركيا ، وكان يشيد بالروح الإسلامية لدى الشعب التركي وبعظمة تاريخ الإسلام في تلك البلاد ، كما زار مدينة انطاكية والاسكندرون وتركت هذه الزيارة في نفسه أطيب الأثر ، لما وجده لدى الأتراك من تعلق صادق بالإسلام وتمسك بالقيم السلوكية الإسلامية واعتزاز واضح بالعلماء وإقامة مجالس الذكر وتمسك بآداب الشريعة .

زيارة القدس :

زار الشيخ مدينة القدس عام ١٩٥٤ عقب المؤتمر الإسلامي الكبير الذي عقد في دمشق ، وحضرته شخصيات إسلامية كبيرة ، وبعد المؤتمر زار

المشاركون في المؤتمر مدينة عمّان وكانت ما زالت صغيرة ، ثم زار القدس والمسجد الأقصى وقبة الصخرة ، وكانت هذه الزيارة من الزيارات التاريخية التي كان يذكرها ، والتقى أثناء هذه الزيارة بشخصيات إسلامية كبيرة من أمثال أبي الحسن الندوي وأبي الأعلى المودودي ، وكبار علماء دمشق والأردن ومصر والعراق وفي طريق عودته زار المخيَّمات الفلسطينية وبعض المؤسسات التي تضم الأطفال اليتامى من أبناء الشهداء ، وكان شديد التأثر لما رآه من مآس إنسانية يعاني منها الشعب الفلسطيني المطرود من دياره ، وانهمرت الدموع من عينيه وهو يسمع مآسي المذابح التي قام بها الجيش الإسرائيلي ويرى آثار النكبة على وجوه الفلسطينيين.

الرحلة إلى العراق:

سافر الشيخ إلى العراق مرتين ، كانت الرحلة الأولى عام ١٣٨١ هجرية والثانية عام ١٩٦٩ م ولم أرافقه في أي منهما ، سمعت وصف هاتين الرحلتين من الشيخ نفسه ومن بعض إخوانه من العراق.

بدأت علاقة الشيخ بالعراق منذ عام ١٩٥٠ ، كان يحضر مجلسه أحد التجار العراقيين من الكبيسة ، وهو الحاج محمود مهاوش الكبيسي ، عرف الشيخ ولازم مجالسه ، ولم يفارقه لمدة تزيد عن عشر سنوات ، كان من إخوانه المحبين الصادقين ، كان له محل تجاري في خان النحَاسين بحلب ، ويشتغل في تجارة الأقمشة بين سوريا والعراق ، وكان من طلاب العلم الذي أخذوا علمهم عن كبار علماء العراق ، ويرتدي ملابس العلماء ، وكان يرافق الشيخ في كل يوم بعد صلاة العصر إلى المزرعة أو يحضر مجالسه المسائية ، ويسكن في حي العقبة ثم انتقل إلى حي سيف الدولة ، وانفرد بأنه كان يسجل أحاديث الشيخ وأقواله في دفتر معه لم أطلع عليه ، كنت أراه يكتب في دفتره كل ما يسمعه من الشيخ وأحياناً يسأل والشيخ يجيب ، ثم انضم إلى مجلس الشيخ الحاج جاسم الفيّاض من الأسر العريقة بمدينة الفلُّوجة ، وكان تاجراً ، ولازم مجالس الشيخ ، ولم يغادر حلب إلا بعد وفاة الشيخ.

أخذ الحاج محمود مهاوش يحدِّث إخوانه وأصدقائه في العراق عن

الشيخ ، وينقل لهم بعضاً من أقواله وأحواله وكيفية تربيته لإخوانه ويدعوهم لزيارة الشيخ في حلب ، بدأت الأفواج الأولى من الأخوة العراقيين تزور الشيخ وتسمع أحاديثه ، وتعود إلى العراق وتحدث بما سمعت ، وهكذا بدأت صلة الشيخ بالعراق ، وأصبح العشرات من علماء العراق يزورونه في كل عام ، من أبرزهم الشيخ قاسم القيسي مفتي العراق والشيخ أمجد الزهاوي علامة العراق والشيخ الداعية محمود الصواف والحاج محمد الفيّاض والعلامة الشيخ عبد العزيز السامرائي (مدير المدرسة الآصفية بالفلوجة) والشيخ عبد العزيز البدري وعشرات غيرهم . .

واشتهرت أسرة الفيَّاض بحبها للشيخ ، ومن أبرز أفرادها الحاج محمد الفياض والحاج إبراهيم والشيخ خليل والحاج يحيى الفياض الذي كان في مقتبل العمر واشتهر بصدق إرادته والشيخ أيوب الذي استشهد في طريقه لبغداد بعد أن حضر انتقال الشيخ إلى الملأ الأعلى ، ثم توالت وفود العراق على حلب ومن أبرزهم الشيخ هشام عبدالكريم الألوسي الشاعر المحب الذي ألف كتاباً سجَّل فيه حياة الشيخ وأقواله والتقى بأهم إخوانه ونقل ما سمعه منهم وما رووه له من حياته وفكره .

وصف الشيخ هشام الألوسي في كتابه عن الشيخ نبذة مختصرة عن رحلتي الشيخ إلى العراق ، وكان حاضراً كل اللقاءات وشاهداً كل المجالس ، وأصبح إخوان الشيخ في العراق أكثر من إخوانه في حلب ، وأنشئت مدارس في العراق ، ونظمت مجالس ، واحتفظ إخوان الشيخ بأفضل أشرطة التسجيل لأحاديث الشيخ ومذاكراته .

بدأت دعوة الشيخ بالعراق بالحاج محمود مهاوش الكبيسي ثم تبعه الحاج جاسم الفيَاض ، ثم توسعت بعد ذلك وبخاصة في مدينة الفلوجة التي تضم معظم إخوان الشيخ ، واشتهر إخوان الشيخ بالعراق بالصدق والتزام آداب السلوك والمحبة والإخلاص .

الزيـارة الأولىٰ :

ورحَّب أهل العراق بقدوم الشيخ ، واحتفلوا بذلك وفرحوا ، واستقبله

علماء العراق أجمل استقبال ، في كل مدينة ، وزار كلاً من بغداد والفلوجة والرمادي والموصل وسامراء والنجف وكربلاء وهيت وكركوك والكبيسة ، وما زالوا حتى اليوم يذكرون مجالسه وأحاديثه والأماكن التي زارها بكل اعتزاز، وتسابقت المدن العراقية للاحتفال به والتعبير عن فرحتها وبهجتها بقدومه.

أحبَّ الشيخ العراق وأهل العراق ، وكان إخوان الشيخ يحيطون به بكل المحبة والرعاية ، أحبهم لما وجد فيهم من صدق وإخلاص وتعلق بآداب الشريعة ، وأقبلوا عليه وعلى مجالسه بكليتهم.

استمرت زيارته الأولى مدة خمسة وعشرين يوماً ، قضاها الشيخ بين إخوانه ، وجدوا فيه المرشد الصادق الذي يدعوهم إلى الله تعالى ويحضهم على تزكية نفوسهم من الآثام وطهارة قلوبهم من الخواطر المذمومة ، والإقبال على الله بصدق النية والمحبة الناتجة عن المعرفة بالله ، فمن شعر بالقرب من الله بفضل القيام بحقوق الله عليه تولدت لديه محبة الله ، ومن أحب الله وصل إلى درجة الفناء فيه ، بحيث لا يشعر العبد بوجوده ، ويتجه بكليته إلى ربه ، ويلتزم بما أمره به ونهاه عنه.

لم يتحدث الشيخ في مجالسه العراقية عن شطحات الصوفية وانزلاقاتها في التجليات والأحوال التي تعتري القلوب، والتي تؤدي في الغالب إلى انحرافات في الأقوال والسلوكيات وادعاءات ضارة تشوِّش القلوب وتبعدها عن المعرفة ، ولم يجدوا في أقواله سوى الدعوة إلى الالتزام بأحكام الشريعة وآدابها.

وهذا هو منهج الشيخ وهذا هو تصوّفه ، فهو تصوّف يهدف إلى تزكية النفوس لا إلى سلوكيات الغرور ، ويدعو إلى تصحيح العقيدة بالتزام ضوابطها لا إلى تشويه العقيدة بادعاءات باطلة ومواجيد متكلَّفة.

أدرك العراقيون أنَّ صوفية الشيخ ليست صوفية الطقوس الطرقية والتقاليد الشكلية ، والمعتقدات الخفية التي تشوِّه صفاء السلوك وتسيء للفكر الصوفي ، وتهبط بمستوى ترتيبته إلى درجة مراعاة الخلق والتملُّق إليهم ونسيان الخالق وما يجب له من حقوق الإخلاص له.

لم يكن لمنهجية الشيخ أوراد محفوظة تردد في أوقات معلومة ، ولم يطلب من إخوانه يوماً أن يقوموا بأي ورد خاص به ، فالورد الذي يأمر به هو ورد الاستغفار الذي يؤدِّيه العبد عندما يريد أن يقاوم غفلته بذكر الله والتزام إتباع رسوله وحفظ سمعه وبصره مما يعكِّر صفاء النفس والقلب .

وليس في تربيته أسرار يدعيها أهل الأحوال في مواجيدهم ، فينطقون بما هو مستهجن من العبارات ، وبما هو منحرف من الأفكار ولا يلتزمون بحسن الأدب مع الله في عباداتهم ومعاملاتهم .

ولم يكن الزهد الذي يدعو إليه الشيخ هو زهد الظاهر بالتخلِّي عن الأموال والكسل عن العمل والاعتماد على الغير ، وإنما هو زهد القلب بعدم التعلق بالدنيا ، وإخراج حبها من القلب لكي يظل القلب صافياً لا تشغله دنيا ولا تدركه همومها ، ولا يعكِّر نقاءه ذلك الطمع المذلُّ لصاحبه .

وجد العراقيون شيخاً يعرف أمور الدنيا أكثر مما يعرفون ، يرفع هامته إلى السماء اعتزازاً بعلمه ويحني رأسه استشعاراً بعبديته لله تعالى وطاعة له وافتقاراً إليه ، يتكبر على المتكبرين من رموز القوة والطغيان والزعامة والسلطان ويتواضع بعفوية ومن غير تكلّف للمستضعفين في الأرض الذي خلقهم الله أعزَّة أحراراً .

ما أروع العلماء وهم يجسدون قيم السلوك الإنساني في حياتهم اليومية ، يقولون كلمة الحق في المجالس العامة ، ويزهدون فيما يطمع فيه الطامعون ، يتحالفون مع الضعفاء ضد الأقوياء ، ويناصرون الشعوب في دفاعها عن حقوقها الإنسانية ، ويمسحون الدموع عن وجوه البائسين .

هذا ما وجده أهل العراق في شيخهم القادم من حلب ، فازداد تعلّقهم بشخصه وحبهم له ، والنفوس البشرية إذا عرفت أحبت ، وإذا أحبت اشتاقت ، وإذا اشتاقت رحلت إلى حيث ما تحب .

عاد الشيخ إلى حلب . . وابتدأت مواكب المحبين والمشتاقين ترحل إلى حلب ، إلى الكلتاويّة ، حيث مقر الشيخ ، يمكثون أياماً ويعودون ، والشيخ

فرح بهم . . إنهم أبناؤه من العراق . . أحبهم كما أحبوه . .

الرحلة الثانية :

عاد الشيخ إلى العراق في رحلتيه الثانية وأظنها في أواخر عام ١٩٦٨ وذكر الشيخ هشام الألوسي العراقي في كتابه عن «السيد النبهان» ، أنها في العاشر من شهر تشرين الثاني عام ١٩٦٩ ، ووصف هذه الرحلة في كتابه بقوله : «في العاشر من تشرين الثاني سنة ١٩٦٩ ، وفي الوقت الذي كانت الطائرة تجوب سماء العاصمة العراقية كان المطار قد غصَّ بجموع المستقبلين من أنحاء البلاد لاسيما العلماء وطلبتهم الذين أضفوا على المطار بهاءً من العمائم البيض ، وكان يوماً مشهوداً أنشد فيه الناس «طلع البدر علينا» ، وحملوا الشيخ قدَّس الله سره من الزحمة إلى قاعة المطار فيما أعدَّ العراقيون موكباً وإذاعة ليسيروا به في شوارع بغداد قبل أن يصل رضي الله عنه المكان المهيأ للضيافة ، إلا أنَّ الرجل الذي تأبى عبديته «الطنطنات» رفض أن يشيع بموكب ، فعمد إلى سيارة متعبة شكلاً وحالاً فنحا بها جهة ضيّعها على مستقبليه ، بينما تفرق الموكب ، وبقيت سيارة إذاعة تعلن في المدينة هنيئاً لكم يا أهل بغداد لقد قدم اليوم إلى العراق العارف بالله الشيخ محمَّد بن أحمد النبهان .

لقد نزل في بيت من بيوت الله تعالى حتى إذا تفرَّق الجمع عاد إلى البيت الذي دعي إليه»[1] .

ووصف الشيخ هشام الألوسي الذي كان يرافق الشيخ في مجالسه وتنقلاته في الأيام السبعة التي قضاها الشيخ في العاصمة العراقية ، وما تضمنَّته تلك الزيارة من احتفالات تكريمية كبيرة في كلية الشريعة وجمعية التربية الإسلامية وغيرها ألقيت فيها الخطب والأشعار التي ترحب به كما وصف زيارة الشيخ لمقام سيدنا عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه وما أحدثته تلك الزيارة في نفوس الناس من فرح وهيام حتى كادوا أن يفقدوا عقولهم ، وحملوا الشيخ

---

(١) انظر كتاب السيد النبهان للمؤلف هشام عبد الكريم الألوسي ص ١٢١ ـ ١٢٢ .

على الأعناق وهم يهتفمون ويصرخون ، وكانت ساعة عظيمة من الأذكار والصلوات[1] .

وختم الشيخ هشام الألوسي وصفه للزيارة لقوله :

وكما احتفلت بغداد فقد عاشت المدن التي مر بها ربيعاً محمَّديّاً ، وقضى أهلها أعياداً فريدة في الفلوجة والرمادي وهيت وكبيسه والخالدية وديالي بما لا يسعه قلم واصف ، وهكذا كلما دخل مدينة أو خرج زف إياباً وذهاباً من المساجد والبيوت والشوارع ، فالخطب والأشعار مرافقة لحركة أقدامه ، ولا وطأت أرضاً إلا وأعقبت غرساً صالحاً وخضَاراً مباركاً لا تزال آثاره باقية[2] .

كانت زيارة الشيخ الثانية إلى العراق فتحاً عظيماً ما يزال أهل العراق يذكرون تلك الأيام بفرحة واعتزاز ، يذكرون كل مكان حلَ فيه وكل بيت دخله ، وكل طريق سار فيها ، وكل كلمة قالها وكل إشارة أَوْمَأَ بها ، إنه الحب بلا حدود ، إنه الإيمان الصادق ، إنها الشعلة التي أوقدها الشيخ بتلك الأرض الطيبة ، بلاد الرافدين العظيمة ، شعب الحضارات المتعاقبة .

أحب الشيخ العراق كما أحبته ، لو اختار الهجرة من أرضه لاختار العراق موطئاً لهجرته ، رأى في العراق صدق الرجال والهمم العوالي ورأى فيها القيم العظيمة التي أحبها في طفولته وتمسَّك بها ، وأهمها قيم الرجولة والشجاعة والمروءة والسخاء والشرف والوفاء .

ومن المؤسف أنني لم أرافقه في رحلتيه إلى العراق ، كنت في الكويت حيث سافر الشيخ من العراق إلى الكويت ، وقضى يومين فيها ، واستقبله السيد يوسف هاشم الرفاعي الرجل الصالح ، وكان وزيراً يومها ، وأعدَّت له الحكومة الكويتية ضيافة كريمة له ولمرافقيه في إحدى دور الضيافة ، ولم يكن

---

(١) انظر كتاب السيد النبهان للشيخ هشام الألوسي ص ١٢٢ .
(٢) انظر كتاب السيد النبهان للشيخ هشام الألوسي ص ١٢٢ .

من عادته أن ينزل في ضيافة الحكومات وأقام في منزلي ، وأقام مرافقوه في دار الضيافة.

كان يرافقه في زيارته القصيرة إلى الكويت الأمير ناظم العاص زعيم قبائل العبيد في شمال العراق ، وكان من إخوان الشيخ ومحبيه وملازمي مجالسه ، وكانت سمة الإمارة واضحة في شخصيته وملامحه ، عرف الشيخ وأحبه ولازمه ، كما كان يرافقه عدد من إخوانه من حلب والعراق.

سعدت بزيارة الشيخ إلى الكويت ، أحسستُ بالفرحة والبهجة ، حدثني عن سروره بلقاء إخوانه في العراق ، لم يسعده ذلك الاستقبال الحافل ، وإنما أسعده ما لاحظه من صدق أصحابه ومريديه ، وأهل العراق ليسوا أهل شقاق ونفاق وإنما هم أهل صدق ووفاء ، إذا أحبوا صدقوا ، وإذا عاهدوا وفّوا ، هم كنهرهم الخالد دجلة يعجبهم شموخ السجايا ، ويتدفق الخير في طباعهم كما تتدفق المياه في نهرهم العظيم ، لا يحبون النفاق ، يتمردون على الباطل دفاعاً عن الحق ، وهم أوفياء لعظمة تاريخهم ، لا يتنازلون عن مكرمة بناها أجدادهم ، شادوا في أراضيهم الخصبة مقامات الوفاء والمحبة لرموز بيت النبوّة ، وسقوا سراج العلم والمعرفة في كل مكان.

لم يسعد الشيخ بزيارة سابقة أو لاحقة كما سعد بزيارة العراق ، كان يحدثني عن إخوان العراق بسعادة وفرحة ، إذ بقيت بلاد الرافدين رمزاً للوفاء ، وزرت العراق بعد عشرين عاماً من زيارة الشيخ الأخيرة لحضور مؤتمر السلام في بغداد ، ورأيت الأرض الخصبة ما زالت رطبة وكأنها سقيت بالأمس ، ورأيت الشيخ في كل قلب وفي كل دار وعلى كل لسان.

لم يغب الشيخ عن العراق ، ما زال فيها بروحه ، ملامحه ما زالت هناك ، آثاره باقية ، مجالسه مستمرة ، الشيخ الحقيقي يستمر من خلال روحه وتوجيهاته في القلوب يوقد السراج ويضيء نوره بزيت محبة العبد لربه.

رحل الأوائل من إخوان الشيخ في العراق الحاج محمد الفياض ومحمود مهاوش الكبسي وجاسم الفيّاض وعبد العزيز البدري والشهيد أيوب الفيّاض الشاب التي استشهد في طريقه إلى الشيخ عندما بلغه خبر وفاته ، مات بعد أن

ودَع الشيخ على أبواب حلب في حادثة سير ، قال لي وهو يودعني قبل وفاته بدقائق: أريد أن أظل إلى جانب الشيخ في عالم النور وعالم اللطافة ، حيث لا موت ولا حياة ، ولا حجاب يحجب الأحياء عن الأموات.

وما زالت أنظار إخوان العراق مصوّبة ، إلى حلب الشهباء ، تشتاق بقلوب صادقة وتعانق النسمات القادمة من الغرب ، وتحملها ، أجمل مشاعرها وعواطفها.

وتذكَّرت ذلك الشاب الصادق الذي لم يتجاوز سنة السادسة عشرة من عمره الذي زار الشيخ قبل خمسين عاماً ، وأحبه وتعلّق به ، واشتهر بصدقه بين إخوان الشيخ الذين كانوا في سن والده ، وأبعدوه عن المجالس ، فكانوا يجدونه في كل مكان يذهبون إليه ، كان هذا الشاب هو يحيى بن حمد الفيّاض المحب الأول ، الذي أحبه إخوانه في العراق ، ثم بدأت الباقة الخضراء تنمو وتكبر ، وضمَّت الشيخ عايش الجروان والشيخ هشام الألوسي والشيخ حامد السخي والشيخ صلاح الفياض وعشرات غيرهم.

رحلة الحج الثانية:

أدَّى الشيخ فريضة الحج لأول مرة في مرحلة شبابه ، عندما اختار طريق العلم ، ولا أعرف الكثير عن هذه المرحلة من حياة الشيخ ، لأنني لم أشهدها.

وكان الشيخ يرغب في الحج للمرة الثانية ، وأعرب عن هذه الرغبة ، إلا أنَّ ذلك لم يتم إلا عام ١٩٦٥ ، لم أرافقه في هذا الحج ، كنت وقتها في القاهرة أتابع دراستي في قسم الدكتوراه ، ولم يتسير لي أمر مرافقته ، كان ذلك مما تألَّمت له فيما بعد.

في هذا العام عزم الشيخ على رحلة الحج ، وما أن علم إخوانه بذلك حتى سارع عدد كبير منهم لاستئذان الشيخ في مرافقته ، كان أمراً شاقاً من الناحية التنظيمية ، ولم يكن من عادة الشيخ أن يقول «لا» في مثل هذه المواقف ، هناك من هو قادر ويملك الاستطاعة البدنية والمادية ، وهناك من لا يملك تلك الاستطاعة.

كان الشيخ يعرف مشقة ذلك ، كانت أسرته كبيرة ، والتي تضم كل إخوانه ، وكلهم من المحبين ، ولا يمكن إقصاء أحد مهما كانت الظروف . . وابتدأ الإعداد للرحلة .

وارتفع النداء في القلوب يردد قوله تعالى : ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج : ٢٧] .

بلغ العدد خمسمائة رجل وامرأة من إخوان الشيخ ، كلهم يريد مرافقته في رحلة الحج هذه ، هناك من يملك الاستطاعة وهناك من يملك نصف الاستطاعة أو ربعها ، وهناك من لا يملك أي شيء ، ولم يكن من عادة الشيخ أن يفكر أو يدبر ، وكان يقول في مجالسه ومذاكراته بأن الله تعالى هو المدبر لشؤون مملكته ، وكما أن العبد قد سلّم لله أمر تدبير ما خلقه في الأرض والسماء من شؤون الكون فيجب التسليم له في شؤون الخلق ، والله تعالى هو قيوم الأرض والسماء والذين خرجوا عن التدبير وسلموا أمرهم لله ، تولاهم الله بالحفظ والتمكين ، والإنسان مطالب بألّا يشغل قلبه بشؤون التدبير فيما تولى أمره من شؤون خلقه ، وعندما يكون العبد في ضيافة الرحمن فالله يتولى تدبير الأمور .

ولما سألته يوماً عن إسقاط التدبير مع الله تعالى التي كان يكررها في مجالسه وأن الأخذ بالأسباب أمر شرعي لابدَّ منه ، ابتسم وأجاب وقال لي :

يا ولدي : «التدبير من أمر الله ومن شؤونه التي اختصَّ بها ، ولا يملك العبد القدرة على إسقاط تدبيره إلا بعد المجاهدات ، فمن لم يصل إلى درجة اليقين به وهي درجة قلبية فلا يجوز له إسقاط تدبيره ، لأنَّ قلبه مرتبط بالأسباب» .

كنت أتذكر هذه الكلمة في مواقف كثيرة من حياتي ، وإسقاط التدبير هو ثمرة الإيمان بالله والتوكل عليه ، فمن أقامه الله في الأسباب وجعل قلبه منوطاً بتلك الأسباب ، فمن الخطأ ألا يعمل عقله في الأسباب وألّا يُعد لها الإعداد الكامل ، فإذا لم يفعل فسرعان ما يندم ويضعف يقينه .

انطلقت رحلة الحج هذه من حلب بالحافلات مارة بدمشق وعمّان إلى أن وصلت إلى ميناء العقبة ، وهناك استقلت القافلة الباخرة إلى جدة ، كان الشيخ

خلال هذه الرحلة يطوف بالقافلة ، ويشرف على شؤونها ويساعد العاجز والمريض والمسن ، وكلّف الشيخ علاء الدين علايا بأن يشرف على شؤون النساء ، وكان من العلماء المشهود بالتقى والورع والاستقامة وكلف الطفل الصغير محمد الرشواني أن يدخل إلى أماكن النساء لنقل رغباتهم ، وإبلاغها إلى المشرفين على شؤون الرحلة .

كان كل واحد من إخوانه يقوم بمهمة خاصة ، يخدم بها إخوانه ، فريق كلفه الشيخ بالإشراف وفريق لنقل الأمتعة وفريق للعناية الصحية وآخر فريق لقيادة القافلة وتوجيه سيرها ، ومنهم فريق تفرغ للتوعية والتعليم من الرجاء والنساء ، وكان الشيخ يشرف على كل صغيرة وكبيرة ، يرعى الجميع ويساعد الجميع ويخدم كل إخوانه في الليل والنهار ، في السفر والإقامة .

وكان الكل يشعر أنه محمول ، والكل يشعر أنه خادم ومخدوم ، وأكبر الرجال مقاماً يخدم أخاه ولو كان أقل منه مكانة في نظر المجتمع ، والسيد هو الذي يخدم الآخرين ويحمل أعباءهم .

استُقبِلت القافلة في جده بالترحيب والتقدير ، ودعا المسؤولون في المملكة العربية السعودية الشيخ أن يكون في ضيافة الملك فيصل الرجل التقي الصالح ، شكرهم الشيخ وأبلغهم أنه منذ خرج من موطنه اعتبر نفسه في ضيافة الله ، ولا يمكنه أن يقبل أي ضيافة أخرى ، وأنه يريد أن يكون في هذا الرحلة عبداً لله تعالى وأن يشعر بهذه العبديّة في جميع المناسك . وقال كلمة : «ما كان للعالم الحق أن يقف على باب أحد ولو كان أميراً» .

بقي الشيخ مع إخوانه لم يفارقهم ولم يبتعد عنهم ، هم أسرته ، ولا يمكن لرب أسرة أن يغادر أسرته ويجد لذته في مكان آخر ، إلا إذا ضاق بهم أو ضاقوا به فازعجوه وأرغموه على مغادرتهم .

وأخذ الشيخ يعلّم أصحابه آداب الحج وأهمها :

١ ـ أن يستشعروا عظمة الله تعالى في هذا المكان العظيم وهيبته ، وأن يتذكروا أنهم غادروا بلدهم تلبية لنداء الله تعالى وإجابة له وطاعة لأمره ، وأن

يروا الله تعالى في كل خطوة من خطواتهم ، وأن يستحضروا هيبته في قلوبهم ، وأن يرددوا بقلوبهم قبل ألسنتهم «لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك» . . .

٢ ـ أن يبتعدوا عن الرفث والفسوق والجدال في سلوكهم الظاهر ، وفي خواطر قلوبهم ، وألا يقوموا بأي عمل يورث الأحقاد والضغائن في النفس ، وأن يلتزموا بحسن الخلق في كل ما يصدر عنهم .

٣ ـ أن يجرِّدوا قلوبهم من كل المشاغل الدنيوية ، وما تطمع فيه النفوس من الملذَات والشهوات ، وأن ينصرف اهتمامهم إلى تعظيم الله عن طريق أداء الشعائر والمناسك بتمامها وكمالها .

٤ ـ أن يُقبلوا على الله تعالى باستشعار تحققهم بصفة العبديَة وما تتطلبه من شعور الافتقار إلى الله والابتعاد عن مظاهر الزينة والتفاخر والتكاثر ، وأن يمد القوي يده لمساعدة الضعيف والغني لمساعدة الفقير والكبير لمساعدة الصغير .

٥ ـ أن يرفعوا أيديهم إلى الله تعالى بالدعاء الصادق والاستغفار مع استشعار الخشية من الله والرجاء فيه ، إظهاراً للعبودية والقيام بحق الربوبية .

كان الشيخ يخرج للطواف ، يرافقه إخوانه ، يؤدون مناسك الحج بالتزام كل الآداب ، وأهمها الأدب مع الله تعالى وأداء العبادات بكل شروطها الشرعية ، حتى اشتهر أمرهم في مكة ، وأخذ الحجاج يتساءلون عن هذه الطائفة التي أقبلت على الله بكل الصدق والإخلاص .

وأخذت الشخصيات المختلفة تزور الشيخ في مقر إقامته ، وتسمع كلامه ، وهو يتحدث عن آداب الحج وأدب العبادة .

وعندما كان يخلو مجلسه من الناس ليلاً كان يصلي ويتضرع إلى الله ، ويستغفره ويبكي كما اعتاد أن يفعل في صلاة تهجده ، ولم أره يبكي إلا في الصلاة وفي لحظات الاستغفار والدعاء .

وكان لسان حاله في الليل يردد أبياتاً سمعها كل من كان يحضر مجالسه ، وحفظتها منه منذ طفولتي :

وليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غِضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خراب
إن صح منك الود فالكل هيِّن وكل الذي فوق التراب تراب

كان يقول لإخوانه ، لكل عبادة ثمرة ، والحج عبادة ، ولابد من العودة بثمرة الحج ، فالحاج يجب ألا يصرف همه إلى رؤية الآثار الظاهرة ، وإنما يجب عليه أن يرى ببصيرته عظمة ما يعنيه الحج ، وما تثيره في النفس ، مناسكه في الإحرام والطواف والسعي والوقوف بعرفة من مشاعر وأحاسيس وعواطف تنعكس على السلوك ، فهو يقف بخشوع وآداب أمام بيت الله الحرام ، وعليه أن يرى الخصوصية ، ولا يمكن رؤية الخصوصية بالبصر وإنما بالبصيرة واستحضار الهيبة من الله تعالى.

وأهم ما ينبغي استشعاره أن يأتي إلى الحج لا بزاد من المؤونة والغذاء ، وإنما بمؤونة من العواطف والأشواق ، ولا يشعر العبد بالشوق إلا بعد التحقق بخصوصية الفهم عن الله والمعرفة التي يولدها الأدب مع الله تعالى ، والأدب ثمرة المحبة ، فمن أحب الله التزم بالأدب معه ، ومن التزم بالأدب وصل إلى المعرفة والفهم.

وما يجب على الحاج أن يلتزم به أن يأتي ربه متجرداً عن كل ما اعتاد عليه ، ويرتدي ملابس الإحرام المعبرة عن هذا التجرد والدالة على الافتقار إليه تعالى والتحقق بصفة العبديّة الخالية عن كل تطلّع داخلي إلى التفاخر بالنسب والمال والعلم والسلطة.

لم يكن الحج في نظر الشيخ رحلة من مكان إلى مكان ، ومجرد قيام بعبادة كبقية العبادات البدنية ، وإنما هو رحلة إلى الله ، وهذه الرحلة لابدَّ من إعداد العدة لها ، وأهمها التوبة عن كل ما اقترفته النفس من ذنوب ، ومن تقصير بحق من حقوق الله ، والتوبة ليست كلمة ، وإنما هي شعور قلبي بالندم على كل ذنب من الذنوب التي ترتكب في أوقات الغفلة ، والغفلة عن الله هي الذنب الأكبر فمن غفل عن الله ارتكب الذنوب والآثام ولم يشعر بندم وأسف ، وهذا دليل على موت القلب ، فالقلوب الحية تتألم لما يخالف فطرتها وما يعكر

صفاءها ، فإذا ماتت القلوب قست شرايينها ، ولم تعد تضخ الدماء النقية المشبعة بأسباب الحياة.

واستقبل الشيخ في مقره كبار علماء مكة ووجهائها ، وكبار الشخصيات الإسلامية التي حجت في ذلك العام ، كان الشيخ يخصهم بالتكريم ، ويرد لهم الزيارة في منازلهم ومن أبرز هؤلاء الشيخ عباس علوي المالكي والشيخ محمد العربي التباني والشيخ أمين الكتبي وغيرهم ، من أعلام مكة ، وكان إخوان الشيخ يحيطون به ويرحبون بضيوفه ويستقبلونهم أحسن استقبال.

ولمَّا وصل الشيخ وصحبه إلى المدينة المنورة تلا قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠].

وأمر أصحابه بأن يلتزموا بالأدب في مدينة الرسول الأكرم ﷺ ، وأن يكثروا من الصلاة على النبي ﷺ ، وأن يدخلوا المسجد النبوي للزيارة بأدب ونظام ، وألا يزاحموا أحداً وألا يتدافعوا ، وأن يأخذوا بأدب الزيارة كما ورد بها الشرع الحنيف ، ومنعهم من تقبيل يده ، وإظهار أي مظهر من مظاهر المشيخة ، احتراماً لرسول الله ﷺ.

ولما دخل الشيخ إلى المسجد النبوي فرّغ الحرس هناك الروضة الشريفة له ، وقف أمام الدوحة النبوية الشريفة بأدب واحترام وقد انتاب الجميع شعور من الخشوع والتأثر ، وأخذ الشيخ يردد السلام عليك يا رسول الله.. السلام عليك يا نبي الله.. وأطرق رأسه والدموع تنهمر من عينيه.

حالة من البكاء والتأثر لم يشهدها المسجد النبوي من قبل ، وأهم ما فيها التزام الأدب مع رسول الله ، ومن أبرز ثمرات ذلك الأدب هو حالة السكون والطمأنينة التي تحل بالقلوب ، فتشعرها بالسعادة والسرور ، وترى إشراقات النور تنبثق في أعماق النفس فتحلق تلك النفوس في قضاء الكون في رحلة عظيمة من الأكوان إلى المكون ، ومن عالم الشهادة إلى عالم الغيب ، ومن البصر إلى البصيرة ومن عالم الكثافة إلى عالم اللطافة ، حيث تتوالى التجليات وتشرق في القلوب معرفة ونوراً.

أمضى الشيخ قرابة شهرين في كل من مكة والمدينة ، وعاد بعد ذلك إلى حلب ، خرجت المدينة لاستقباله على مشارف المدينة قرب منطقة «أورم» حيث كانت مواكب المستقبلين تملأ الطرق المؤدية للمدينة ، ومعظم سكان حلب خرجوا لاستقبال الشيخ ، علماء المدينة وتجارها وعمالها ورجال الفكر والثقافة ، إذ كانت مسيرات الاستقبال تحمل الأعلام والرايات ، ويتقدمها شباب المدينة ، كل حي من أحياء المدينة شارك في هذا الاستقبال الكبير ، وتوقف موكب الشيخ عند باب المدينة في المزرعة التي اعتاد الشيخ أن يقضي أمسياته فيها ، وكانت في ملكية فوزي شمسي أحد إخوان الشيخ المقربين وشهدت هذه المزرعة أهم مجالسه وأروع مذاكراته .

صلّى الشيخ صلاة المغرب والعشاء ، وتفقد إخوانه الرجال الذين رافقوه ، وأوصاهم بالعناية بالنساء ، وامتطى سيارة أحد إخوانه ودخل المدينة برفقة سائقه فقط ، وذهب إلى الكلتاويّة وكانت خاوية ليس فيها أحد ، صلى ركعتين تحية للمسجد وشكر الله تعالى على نعمه ، وأخذ المستقبلون يبحثون عن الشيخ فلا يجدونه ، كانوا يريدون أن يدخل مدينة حلب بكل مظاهر الاستقبال المعتادة في استقبال عظماء الرجال ، وأراد هو أن يدخلها بكل ما تتطلبه صفة العبودية لله تعالى من إظهار الافتقار إليه والذل بين يديه وكان يردد الحكمة العطائية :

«استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك دليل على عدم صدقك في عبوديتك» .

وسألته فيما بعد عن سر ما فعل فقال :

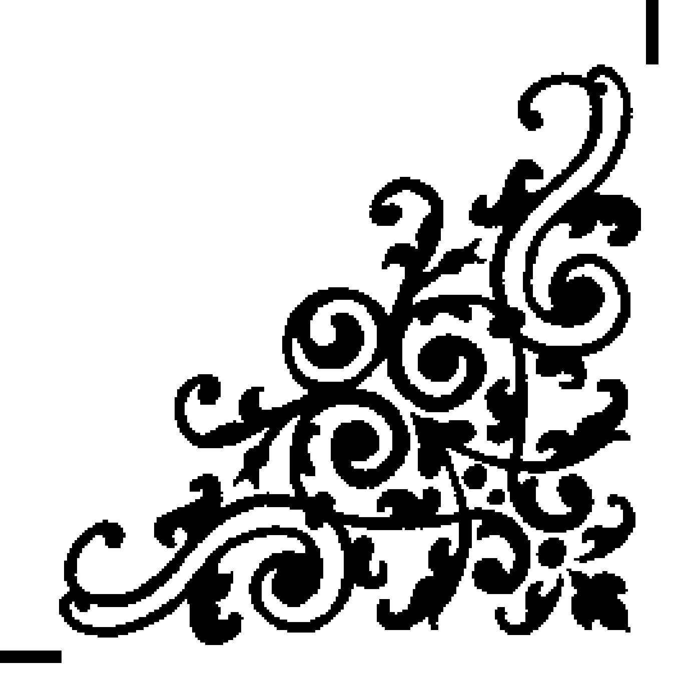
«يا ولدي . . هذا مقام الشكر لله تعالى ، ومن تجليات الشكر أن تتحقق بصفة العبديّة لله تعالى في هذه المواطن ، وأن تفرد الله في ملكه لكي يلبسك ثوب هيبته ، ويقبل منك ما قمت به من طاعته .

* * *




الفصل الخامس
وفاة الشيخ رحمه الله

- أمسيات صيف عام ١٩٧٤ .
- بداية العرض .
- الوفاة .
- أحزان الكلتاويّة .
- الخلافة .
- الضريح .

وفاة الشيخ

اشتهر الشيخ بقوة بنيته وسلامة صحته ، فلم يكن يشكو من مرض ، وقلما كان يصاب بصداع أو زكام أو آلام، ولم يكن يألف حياة المرض والاستسلام له .

كان يحب رياضة المشي ، ويخرج إلى المزارع لكي يمشي في دروبها ، ولم تكن ملامح الشيخوخة تظهر عليه ، كان يقاومها بقوة إرادته وبنشاطه الدائم ، ولم يتوقف نشاطه اليومي في الكلتاويّة في الصباح والمساء ، وكان يستقبل زواره وإخوانه ، ويتناول طعامه معهم في الكلتاويّة عند الضحى وبعد العصر ، ويشاركه في الطعام كل من كان في مجلسه .

بزوغ ملامح الإرهاق في السنوات الأخيرة :

في السنتين الأخيرتين من حياته بدأت ملامح الإرهاق تظهر عليه ، بسبب مرض السكر الذي كان يشكو من أعراضه ، وأهم أعراضه الانفعال ، ولم يكن من عادته الانفعال والغضب ، كان يكظم غيظه ويغلب عليه الحلم ، وكان هادىء العبارة ، صبوراً في المواقف الصعبة .

ولابدَ أن أحداث «قرية التويم» قد أزعجته ، ولكنه لم يكن يتحدث عنها ، وكنت في كل مساء أعود معه من الكلتاويّة إلى داره ، أو أزوره بعد عودته إلى الدار ، أو أراه في فترة الظهيرة في غرفته أثناء القيلولة .

كنت أحدثه في كل شيء ، وأحياناً أداعبه بكلمات محببة إليه ، فيأنس بذلك ، وكنت أحمل معي مجموعة من المطالب ، لبعض أفراد أسرته أو لبعض إخوانه ، التمس منه أن يأذن لهم بها ، فكان يقول لي بتحبب وود ، إذا اقتنعت بهذا فلاباس به . . ولم يكن أحد يناقشه في أمر ، لا لأنهم يخافون منه ،

ولكنهم كانوا يحترمون ما يقول . . وإذا اقتنع بأمر فسرعان ما كان يأخذ به .

عندما أعود إلى حلب من السفر كنت أزوره مباشرة فيفرح بقدومي ويعود إلى الدار في وقت مبكر عند الظهر والمساء لكي يسألني عن أحوالي ويطمئن عن أسرتي ، وإذا رأى زوجتي أجلسها إلى جانبه وأكرمها وسألها عن أبيها وحدثها عن جدها الشيخ أبو النصر شيخه في السلوك ، وأوصاني بها خيراً .

في كل أمسية كنت أجلس إلى جانبه على حافة الفراش الذي ينام عليه في فناء الدار العربية التي كان يسكنها ، النور خافت ونسمات الليل في أمسيات الصيف تداعب الوجوه . . أحدِّثه في كل شيء ويحدثني ، استفسره عن بعض الأمور ويجيبني . . ويشرح لي ما لا أعلمه من الأمور ، ويستخرج من ذلك العبرة ، ويختم ذلك بنصيحة أو كلمة نورانية تشعرك بسمو نظرته للأمور .

سألته يوماً في إحدى تلك الأمسيات عن سر ما وقع له من ابتلاءات فقال لي : هذا امتحان لكم وليس لي ، فأنا راض بقضاء ربي واختياره ، يا ولدي : لقد وجدت الخير كله في الابتلاء ، فالابتلاء يشعرني بعبديتي لله تعالى وبفقري إليه .

يا ولدي : أنا لا أطلب الابتلاء ولكن إذا أراده الله فأنا راض به وكيف لا أرضى بما رضي لي به حبيبي وقص عليَّ قصة سمنون المحب الذي خاطب ربه بقوله :

وليس لي في سواك حظ فكيف ما شئت فاختبرني

كنت أداعبه بكلامي فيبتسم ، وأمازحه فيأنس ، كان يعرف حبي له وكنت أعرف حبه لي ، ولم يتدخل قط في أمر من أموري الخاصة إلا إذا استشرته فينصحني ، ويوجهني بكلمات هادئة ولهجة محببة ، وكنت أحياناً أفضي إليه بما يجول في خاطري فيشرح لي الأمور ويعيد إلى نفسي الأمل والرجاء .

ذكريات صيف عام ١٩٧٤ :

عدت من سفري المعتاد في بداية صيف ١٩٧٤ ، رحبَّ بي أجمل ترحيب ، كان في الكلتاويّة ، عاد إلى البيت سريعاً ، وكنت أرافقه ، أمسكت

بيده وهو ينزل درج الكلتاويّة ، ولما استقر في غرفته ، قال لي : حدثني عن زيارتك للمغرب . . لقد أبلغني المغاربة الذين التقيت بهم أثناء تشييع السيد المكي الكتاني بدمشق أنك كنت في المغرب ، وألقيت درساً أمام الملك ، وأعجب الملك به .

حدثته بالتفصيل عن تلك الزيارة وعن الدرس ، قال لي :

إنني معك أينما كنت . . والأسفار لا تحجبك عني . . . أنا معك في شبابك كما كنت معك في طفولتك .

قلت له : أريد أن أعود إليك لكي أكون معك وفي خدمتك ، أجابني بلهجة حانية ودودة دافئة :

ليس المهم أن تكون معي بجسمك وإنما المهم أن تكون معي بقلبك ، والسفر ليس حجاباً ، والحجاب هو إعراض القلوب . .

ثم طلب مني أن آتيه بورقة فكتب :

«اللهم يسر ولا تعسر . . اللهم تمم بالخير . . يا كريم يا رحيم يا الله» .

ما زلت احتفظ بهذه الورقة حتى اليوم . .

في كل أمسية كنت أزوره ، مشتاقاً لتلك الجلسة المسائية ، فإذا تأخرت سأل عني . .

كانت هناك امرأة فقيرة محجبَّة تطرق الباب بعد مغرب كل يوم ، لا أحد يعرف عنها شيئاً ، ولم يسألها أحد عن اسمها وسكنها ، كان الشيخ يأمر أسرته بأن يعطوها طبقاً من الطعام يكفي لإطعام أسرة ، كانت تأخذ الطعام وتأتي في كل مساء تحضر الطبق الفارغ وتأخذ الطبق المملوء ، استمر الأمر لمدة سنوات وكان يحض أسرته على عدم سؤالها عن اسمها إذا أرادت إخفاء ذلك ويقول لهم لقد سخرنا الله لها فلا توقفوا رزقها .

وأوصاني بمتابعة طريق العلم ، والعمل هو ثمرة من ثمرات العلم ، والعلم لكي يعطيك ثمرته فأعطه كل ما عندك ، فإن أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً . . والعلم كله محمود ، لأنه يعرفك بالأشياء كما هي في حقيقتها لا في صورتها

الظاهرة ، والعلم الحقيقي يوصل إلى الله تعالى ، وليس هناك علم مذموم ، فصفة الذم تأتي من استعمال العلم في المواطن الضارة ، وأهم ثمرات العلم أن تدرك أن كل ما في الوجود من خالق الوجود ، وكل ما في الأكوان من حقائق تتلمّسها من خالق الأكوان ، وما يراه الإنسان من وسائط ما هي إلا أسباب مسخَّرة لخدمة الإنسان ، ولابد من الإيمان واليقين بأن الله تعالى مطَّلع على كل شيء ويعلم كل شيء ويسيّر الكون بحكمته وتدبيره .

وقال لي :

يا ولدي : ازرع الخير في كل مكان ، لأجلك لا لأجل الآخر ، لكي يكون الخير صفة من صفاتك ، فلا يليق بالإنسان أن يفعل الشر ، ولو مع من أساء إليه ، ولا تمنعك إساءته لك من مواصلة الإحسان إليه ، والله قد تولى أمر المحسنين ، وواجه حقد الحاقدين بإحسانك إليهم وتجاهل ما يصدر عنهم .

يا ولدي : إذا أحب الله عبداً ابتلاه لا لكي يؤلمه ويحزنه ولكن لكي يوقظه من غفلته ويسمع صوت عبده وأنينه مشفوعاً بالذل والانكسار إليه جل جلاله ، فيقرّبه منه ويحققه بمرتبة العبديّة لله تعالى ، فمن استعز بالله ألبسه الله ثوب هيبته .

يا ولدي ، ليس الزهد ألا تملك المال ، وأن تعيش في فقر مذل ، وإنما الزهد أن تتحرر من قبضة المال والسلطة والجاه فلا تكون عبداً لهم ، بل تخرجهم من قلبك ، لكي يكون الله في سرك ، ولا يكون له شريك في تفكيرك .

يا ولدي : ليست التوبة أن تترك المعاصي خوفاً من النار وإنما التوبة أن تترك المعاصي والآثام لأنك تستحي أن يراك الله تعالى في مواطن المعصية ، وهو الذي أنعم عليك بكل النعم الظاهرة والباطنة .

يا ولدي : مما يعينك على تحمل الابتلاءات والمحن أن تشعر بالأنس بالله وأن يشعرك هذا الأنس بالطمأنينة والسكون ، وينبثق النور في أعماقك فيشغلك عن همومك وأحزانك .

يا ولدي: خذ بكل الأسباب المادية لتحقيق نجاحك الذي تتطلع إليه، ولكن سلِّم أمر تدبيرك لمن هو أعلم منك بشؤون مملكته وأحوال خلقه وما يصّلحهم، وهذا هو الأدب مع الله، فلا يكون في هذا الكون إلا ما يريده الله.

كان جدي الشيخ العارف يوصيني في كل أمسية بكلمة طيبة، بحاله حيناً وبمقاله حيناً آخر، كلمات قصيرة، إشارات وإيماءات ومواقف، ولم يكن من عادته أن يأمر وينهي، وإنما يوضح ويبين ويعلم.

كنت أدرك أنه في كل كلمة يغرس في كياني غرسه، وفي كل إشارة يضيء في قلبي شعلة، كان الغرس يدفن في نفسي، لا لكي يموت، ولكن ينبت في فصل الربيع بعدما يُسقىٰ بماء الأمطار والآبار، وتشعر الأرض بدفء الشمس ونور القمر.

وذات يوم كانت الأمسية دافئة الكلمات واللمحات والعواطف، حدثته بما يسعده، فابتسم أجمل ابتساماته، كان فرحاً مسروراً لم أشهده من قبل بمثل ما شهدته في تلك الأمسية، تذكرت طفولتي عندما أردفني خلفه على الفرس في قرية الجابرية، وعندما حملني في حمَّامات الحمَّه المعدنية بين يديه يعلمني السباحة وعدت ذلك الطفل الصغير المدلل الذي لم يغادر طفولته الأولى.

بداية المرض:

قضيت تلك الليلة في داره، أسعدني ما رأيته في ملامحه من نضارة، أحسست بسعادته وفرحه، كان في الرابعة والسبعين من عمره، لم تكن تظهر عليه ملامح الشيخوخة، عند الفجر سمعته يصلِّي الفجر، ويقرأ ـ كما اعتاد أن يفعل ـ بصوت عال، وعند شروق الشمس نام من جديد، وعندما أفاق عند الضحى دخل الحمَّام، وتوضَّأ وعاد شاحب الوجه متعباً، أخبرتني عمتي أنَّ أرض الحمام مليئة بالدماء.. اقتربت من الشيخ وسألته عن حاله وصحته وهل يشعر بأي ألم؟.. أجابني أنه يشعر بإرهاق وضعف، وعرفت أنَّ نزيفاً داخلياً وقع له.

استلقى على ظهره في سريره.. وأغمض عينيه لمدة دقائق، وأدركت أنه فقد وعيه بتأثير الدم الذي نزف منه.. وقفت أمامه أتأمَّل ملامحه.. وانهمرت من عيني دموع سخيَّة، ولمَّا أفاق ورأى ملامح وجهي وآثار الدموع في عيني أمسك بيدي برفق، وقال لي: لا تخف أنا بخير.. سأقوم الآن..

اتصلت بأحد الأطباء وأبلغته بما حدث، قال لي: لابدَّ من نقله إلى المستشفى ـ هذا نزيف داخلي.. وقد يعاوده مرة أخرى..

أقنعته بضرورة أن يذهب إلى المستشفى للاطمئنان عليه، ارتدى ملابسه. وكأنه ذاهب إلى مناسبة اجتماعية، وخرج من داره، كان طريق الكلتاويَة قد امتلأ بإخوانه الذين وقفوا على جناب الطريق، تقدموا منه وسلموا عليه. سألهم عن أحوالهم.. واطمأن عليهم، وأوصى كل واحد منهم بوصية نحو من يخصه من أسرته وأصدقائه.

أمسكت بيده وهو يهبط درجات الكلتاويّة في طريقه إلى السيارة، أفلَتَ يده من يدي قائلاً: أنا أقوى منك، هل تصارعني.. أمسكتُ بيده مرة ثانية وطوَّقته بيديَّ ومَشَينا مسافة مائتي متر تقريباً إلى أن وصلنا إلى السيارة.

جلس إلى جانب السائق كما اعتاد أن يفعل دائماً، وسارت السيارة من الكلتاويّة والبياضة مخترقة المدينة من شرقها إلى غربها، ولما مرت السيارة أمام جامع الفرقان الشهير الذي كان من أجمل الملاهي الساهرة المطلة على المدينة، قال لي: هذا هو ملهى المونتانا الذي أكرمنا الله بأن يصبح مسجداً للعبادة والطاعة، وتوقَّفت السيَّارة أمام باب المستشفى، كان هناك عشرات من المحبين قد بلغهم الخبر، ووقفوا ينتظرون قدومه، واستقبله الأطباء بكل حفاوة، وأعدوا له مكاناً لإقامته.

لم تكن صحته تنبىء عن خطر يهدد حياته.. نزيف طارىء سوف يتوقف سريعاً. كان يحدث من حوله وكأنه في مجلس من مجالسه..

أعطوه الدم الذي فقده، واطمأنت النفوس، ولما دخلت غرفته في المساء

رأيت آثار الدم على وجهه ، أخبرني الطبيب أن نزيفاً جديداً في فمه بسبب انفجار شريان داخلي .

كانت ردهات المستشفى وممراته مليئة بإخوانه الذين بلغهم الخبر ، فجاءوا مسرعين للاطمئنان عليه .

جاءني الحاج فوزي شمسي والحاج محمد عجم والحاج ناصر الناصر وطلبوا مني أن نتحدَّث على انفراد ، ولما جلسنا قال لي الحاج فوزي شمسي : الأعمار بيد الله والأمل بالله كبير ، ولكن لو كتب الله الوفاة فأين سيتم الدفن ، فوجئت بما سمعت وكأنني لم أتوقع ذلك أبداً ، ولابد أنهم سمعوا من الأطباء ما لم أسمع .

قلت لهم والدمعة في عيني :

سيدفن في غرفته في الكلتاويّة وفي المكان الذي كان يجلس فيه وبقيت وحدي أفكر في الأمر .

هل يمكن أن ينتقل الشيخ إلى رحاب ربه بهذه السرعة؟ .

هل يمكن أن يكون الموت قريباً منّا ونحن لا نشعر به؟ .

لا . . لا يمكن أن يحدث ذلك . . الموت حق . . ولكن لماذا لا يتوقعه الإنسان ، ولماذا يستبعده ، ولماذا لا يفكر فيه على الدوام ؟!!

وتذكرت الشيخ وهو يقول في مجالسه :

زوروا المقابر لكي تعتبروا . . وزوروا دور العجزة والمعوقين لكي تحمدوا ربكم وتشكروه .

الرحيـــل :

ونام الشيخ بهدوء تلك الليلة ، واطمأن الجميع إلى أن الفجر قريب ، وطلع الفجر مبشراً ، ومضى النصف الأول من النهار وكانت الملامح مطمئنة ، سيعود الشيخ إلى بيته ، وخرجت من المستشفى وأنا مطمئن ، ولما عدت قبل المغرب سمعت من مأذنة جامع الفرقان المطلة على المدينة أول نداء حزين ينعي الشيخ . . .

دخلت المستشفى. . كان الصمت هو الكلام المعبِّر. . كانت الرؤوس مطرقة والعيون دامعة. . كانت الساعة الخامسة من مساء يوم السادس من شهر شعبان من سنة ١٣٩٣ هـ.

وحمل النعش في سيارة مكشوفة. . جلست إلى جانب السائق، وجلس الحاج عمر ططري إلى جانب النعش الأخضر. . ودخلت دار الشيخ وكانت مكتظة بالنساء. . ووقف والدي ابن الشيخ الأكبر أحمد على باب الدار يستفسر، ولا يعلم ولما سألني احتضنته وأجشهت بالبكاء. .

ولما رأت النساء خلف النوافذ ذلك ارتفع صوتهن بالبكاء والعويل، وعاد الشيخ إلى داره محمولاً على الأكتاف.

وارتفع صوت الشيخ أديب حسُّون من مأذنة الكلتاويّة ينعي الشيخ، وخلال دقائق امتلأت رحاب الكتاويّة بكل الطرق الموصلة إليها بمئات الإخوان الذين قضوا الليل كله في الكتاويّة، وهم لا يصدِّقون. .

ما أروع القرآن وهو يذكِّر المؤمنين بالموت، إنه ملاقيكم أينما كنتم، وكيفما كنتم، وحيثما كنتم، يذهب الرجال وتبقى الأعمال.

ويأتي صوت القارىء من بعيد يتلو قوله تعالى:

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠ ـ ٣١].

* * *

رحل الشيخ إلى رحاب ربه بعد أن أدى الأمانة بصدق وإخلاص، كان يردد في مجالسه أنَّ الموت انتقال من عالم الكثافة إلى عالم اللطافة ورحلة العبد إلى ربه، وهي رحلة حب، والمؤمن يشتاق إلى لقاء ربه، ويجب أن يكون في جوار الله.

والذين يكرهون الموت إنما يخافون من ذنوبهم أن يحاسبوا بها عند الله، أما الذين استعدوا للموت بما اعدوه من زاد الأخرة فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

أحزان الكتاويّـة :

وقف إخوان الشيخ في كل زاوية من زوايا الكلتاويّة ينتحبون ويبكون ، إنهم لا يبكون لموت الشيخ ، فالشيخ في رحاب من يحب ، لم يأنس بالدنيا يوماً لكي يحزن لفراقها ، ولم يتعلق بها يوماً لكي يحبها ويمسك بها ، وإنما كانوا يبكون مجالس تربية وتكوين كانوا يأنسون بها ، ويبكون وحدة كانت تجمعهم ، وقلباً رحيماً كان يتسع لهم ، وأباً حنوناً عطوفاً كان يحبهم ، وكيف لا يحزنون وهم يفتقدون من كان يرعاهم ويضمهم إلى صدره ويمسح دموعهم إذا حزنوا وتألموا .

لم تفتقده أسرته الصغرى ، وإنما افتقدته أسرته الكبرى الممتدة في كل الأحياء ، في حلب وفي الريف وفي بغداد والفلوجه وعشرات المدن والقرى . . كلهم أحسوا باليتم والوحدة والضياع . .

رحل الشيخ وبقيت ذكريات أيَّامه حيَّة في أعماق النفوس ، يتناقلها إخوانه ، ويلقِّنونها لأطفالهم وأحفادهم الذين لم يَرَوا الشيخ ، وإنما رأوا ملامحه من خلال ما سمعوه من آبائهم وأمَّهاتهم وذويهم .

خرجت حلب تشيّع الشيخ من الكلتاويّة إلى الكلتاويّة ، من غرفته التي كان يجلس فيها ويستقبل فيها إخوانه إلى غرفته التي ضمَّت جسده في أحشائها ، وكأنَّه طفل تأبى أمه أن تتخلَّى عنه ، فتُمسِكُ به ، وتضمُّه إلى صدرها في عناق أبديَ لا يتوقَّف .

جاءت الوفود من كل مكان ، تشارك في تشييع الشيخ ، وتُشيد بما شاد من شواهق الأعمال وروائع الرجال ، ولم يترك الشيخ كتاباً يحمل أفكاره ، وإنَّما ترك رجالاً يذكُرون آثاره ، ولم يترك داراً للسكن ، وإنَّما ترك داراً للعلم تضيء الليل بمصابيح الدعوة والفكر والثقافة .

عاشت الكلتاويّـة ثلاثة أيام وهي غائبة عن الوعي ، لا يصدِّق أحدٌ أنَّ الشيخ قد رحل إلى الرفيق الأعلى ، في رحلته الأبديَّة ، من عالم الكثافة إلى

عالم اللطافة كما كان يسميّه ، ومن ظلام الحجب البشرية إلى عالم النور والضياء.

خلافة الشيخ :

واجتمع الإخوان كلهم والمحبون من كل مكان في اليوم الثالث عند الصباح ، في الكلتاويّة ، وكلهم يبكي ذلك الرمز الكبير الذي أحبوه ، كانت جلسة خشوع وحزن ، وجلست أمامهم أهدِّىء من روعهم ، وأحاط بي الإخوان من كل جانب.

وفجأة وعلى غير توقُّع وإعداد نهض الشيخ محمد الشامي وفوجئت به وهو يأخذ الكلمة ، ويتكلَّم عن وفاة الشيخ وعن الأثر الذي تركه في النفوس ، ثم أخذ يتكلم عن الحفيد وعن العناية التي كان الشيخ يخصُّه بها منذ طفولته المبكِّرة ، وأعلن مبايعته لحفيد الشيخ لكي يكون الرمز لاستمرار مسيرة الشيخ ونهجه ، وأحضر ملابس الشيخ البيضاء التي اعتاد أن يلبسها ، العمامة والجبة ، وألبَسَها لذلك الحفيد الذي انهمرت دموعه بشدة ، وساد ذلك اللقاء شعور عارم من المشاعر الفيّاضة ، لم يكن الحفيد هناك فحسب وإنما كان الشيخ بروحه وكأنه يرعى ذلك اللقاء.

ثم انتقل الحفيد إلى دار الشيخ وكان غاصَّاً بالنساء من إخوان الشيخ ، وما أن رأوا الحفيد بملابس جده وهو يدخل عليهم حتى انتابتهم مشاعر فيَّاضة من التأثر والخشوع والبكاء . .

مرَّ ذلك الصباح وكأنه وميض يريق أضاء الكون من حوله وأنار ظلمات ذلك الفضاء الفسيح ، ثم توقَّف وغاب ، وترك أثره في النفوس أملاً ونوراً.

وما زال السراج مضيئاً بفضل ذلك الزيت الذي ينبع من أعماق ذلك السراج ، فتزداد شعلته مع مرور الأيام توهُّجاً تضيء ما حولها وتنير ، وتنشر الدفء في القلوب ، وكأنها فجر يتجدَّد كل صباح ويبشِّر بيوم جديد.

لم يكن من اليسير على أي أحد أن يَخلُفَ الشيخ رحمه الله ، فقد كان متميزاً

بخصوصيات فريدة ، كان قمة في خصاله الأخلاقية ، ولا يمكن لأحد أن يجلس في مكانه ، فقد كانت المهمة شاقّة وعسيرة ، ولها ثمن غال من التضحيات والاستعداد للعطاء المتواصل ، ولابدَّ أولاً من التغلُّب على كل النزعات الفردية والتحرر من كل الغرائز الأنانية ونسيان الذات لأجل الآخرين.

الذين يظنون أنَّ المهمة يسيرة مخطئون ، والذين يحسبون الأمر متعة وجاهاً جاهلون ، فليست المشيخة زعامة ولا جاهاً ، وإنما هي رسالة وتضحية ، فمن أرادها فعليه أن يستعد لها بكل طاقته ووجهته وأن يتخلق أولاً بأخلاقها ، وأن يكون مستعداً للتضحية بكل شيء في سبيلها.

لقد اختار الشيخ هذا الطريق ، وشرح الله صدره له ، واستعدَّ له ، وأدّى الأمانة ، وكان المثل الأعلى الذي يُحتذى به ، لم يتكلف هذا الطريق ، ولم يختره بنفسه ، وإنما شرح الله صدره له ، وهيأ له من أسبابه ما يجعله قادراً على هذه المسؤولية ، فالدعوة ليست كلمة تقال ، وليست نصيحة توجه وليست كتاباً يؤلف ، وليست خطبة تلقى ، وإنما هي حال لابدَّ له من الصدق مع الله والتحرر من كل الارتباطات الدنيوية ، والزهد في كل الأشياء المرغوبة لدى النفس ، وهذه حال لا تنال بالرغبة النفسية ، ولا بتكلف هذا الطريق ، وإنما تنال بما يلقيه الله تعالى في قلوب أوليائه وأحبائه من نور يضيء دروبهم ، ويحررهم من الغرائز الفطرية ، ويشدهم إلى محبة الله ويدفعهم إلى معرفته.

الضريح :

دفن الشيخ في غرفته التي كان يقيم بها ، وأقيم له ضريح مهيب في المكان الذي كان يجلس فيه ، لم يتغير شيء ، رحل الشيخ وبقيت كلماته ومجالسه كما كانت في أيام حياته ، إذ لم تتوقف المجالس والمذاكرات ، لا بقي الرمز كما كان وسيبقى بإذن الله.

كان الشيخ يتحدث دائماً عن الموت ، إنه رحلة من عالم الكثافة إلى عالم اللطافة . . رحلة أبدية ضرورية حتمية ، والمؤمن لا يخاف من هذه الرحلة ، ليست هي نهاية ، وإنما هي استمرار ، والمؤمن لا يخاف من الموت لأنه استعد لهذه الرحلة ، أما الذين يخافون من الموت فإنما يخافون من تقصيرهم

أن يلاقوا ربهم وهم غافلون عنه ، ولعلّ من حق هؤلاء أن يخافوا وأن يرتجفوا من لقاء الموت .

الغافل عن الموت يؤلمه ذكر الموت ويخيفه ، لأنه متعلق بالدنيا ، أما من استعد للموت فلا يخيفه ذكره ، لأنه سيلاقي الإنسان في يوم ما في ليل أو نهار ، في سفر أو حضر ، فلا مجال للفرار منه .

فالأحياء يحزنون لأنهم يجدون أنفسهم في ضياع بعد انطفاء السراج الذي كان يضيء دروبهم ، والأطفال يحزنون إذا غاب أبوهم أو أمّهم ، والمريدون يحزنون إذا غاب مرشدهم ، لأنهم يفتقدون دفء كلماته التي تمنحهم الطمأنينة والسعادة .

واليوم . . يستقبل ضريحه في كل صباح ومساء العشرات ممن عرفوه وأحبوه ، سواء عرفوه بطريقة مباشرة واجتمعوا به أو عرفوه من خلال آثاره ، يشعرون بالأنس وهم يزورونه ، فهذه الزيارة تريحهم ، ولا نجد في زيارة الشيخ تلك السلوكيات الخاطئة التي لا يقرها الشيخ ، فقد كان قدس الله سره يدعوهم إلى التزام الأدب في زيارة الصالحين ، ولا شيء غير الأدب ، فالأدب يمنع الزائر من المخالفات الشرعية ، ويطوقه بسياج من الاحترام والوقار ، فلا زيوت تضاء في الأضرحة ، ولا تقام فيها طقوس خاطئة ، ولا تنصب فيها حلقات للشطحات المذمومة ، كل ذلك كان الشيخ يكرهه ويحذّر منه ، لكي لا تكون زيارة أضرحة الصالحين مطية لعبث العابثين وانحراف الجاهلين .

وحافظ ضريح الشيخ رحمه الله على نظافته الظاهرة وطهارته الباطنة كما كان يحب أن تكون مجالسه في حياته ، والقيّمون على أمر الضريح مدعوون في كل وقت للحفاظ على تعاليم الشيخ الذي كان يرفض أن تقام الطقوس الخاطئة في الكلتاويّة ، وأن يكون الالتزام بكل تعاليم الشريعة وأحكامها وآدابها .

وضريح الشيخ ليس مكاناً لالتماس الحاجات لإشباع رغبات دنيوية ، وإنما هو رمز للوفاء لشخصية صوفية إسلامية متميزة بأخلاقياتها ، أغنت عصرها بما أضافت إلى صورة الإسلام من ضرورة الاهتمام بآدابه وروحانيته وأخلاقياته

التي تجعل التواصل بين الفكر والسلوك أمراً مطلوباً ، لتجسيد القيم المبادىء والمثل العليا.

والأجيال اللاحقة في وفائها لرموز الإصلاح والجهاد والفكر والتقوى لا تتعلق برُفاة الراحلين ولا بأجسادهم وإنما تتعلق بما تركوه في الذاكرة من آثار وبما خلَّفوه بعدهم في القلوب من محبة ، ذلك هو التراث الباقي الذي لا يندثر مع مرور الأيام ، بل يزيد إشراقاً وبهاءً هذا ما تبحث عنه الأجيال اللاحقة في سعيها للبحث عن مصادر ثقافتها وينابيع المياه التي تمد الأرض العطشى بأسباب الحياة لكي تنمو أغصان الخير في أعماق الذات الإنسانية.

ويقع الضريح في وسط الكلتاويّة ، ويطل من جهته الشرقية على الساحة الأمامية للمسجد التي تؤدي إلى الباب الخارجي ويطل من جهته الغربية على الساحة الواسعة التي تطل على المدينة القديمة ،. ويطل من جهته الجنوبية على المسجد والمدرسة الشرعية التي تقع خف المسجد وتمتمد أمامها الساحة الأمامية للمدرسة ، ويتوسط الضريح كل ذلك ، حيث يطل على القاعة المربعة التي دفن فيها الشيخ والتي أدخلت عليها التوسعة من جهة الجنوب ، وقد يطلق لفظ الضريح على القبر المرمري الذي يقع في صدر القاعة من جهة الشمال ، وللضريح بابان: الأول من جهة الشرق ويقود إلى الساحة الخلفية والباب الثاني يقود إلى المسجد كما يؤدي إلى الساحة الجنوبية التي تشرف على المدرسة.

ويوجد داخل قاعة الضريح حمَّام خاص مغلق ، كان الشيخ يستخدمه في حياته وتقع المئذنة خلف الضريح مباشرة ، وتوجد في خزانات القاعة بعض كتب الشيخ وبعض ملابسه الخارجية.

وهناك أيام خاصَّة لزيارة النساء ، وهي الأيام التي كان الشيخ يلقي فيها دروسه عليهن ، ويحرص إخوان الشيخ من النساء على حضور مناسبة الزيارة ، وسماع دروسه المسجَّلة ، ولم تتوقَّف هذه الدروس سواء للرجال أو للنساء.

وما زالت في قاعة الضريح اللوحات التي كانت موجودة في حياة الشيخ ، وبقي وكل شيء كما كان في حياته.

ويحرص إخوان الشيخ على زيارة الضريح بعد صلاة الجمعة في كل أسبوع ، وفي المناسبات والأعياد ، ويلتزمون جميعاً بآداب الزيارة ، كما جاء في الشريعة ، فلا يفعلون ما يخالف الشريعة ، سواء فيما يقولون أو فيما يسلكون .

* * *




الباب الثاني
فكره ومواقفه وآراؤه

الفصل الأول : مصادر فكره

المصدر الأول : تدبُّر آيات القرآن

المصدر الثاني : السيرة النبوية

المصدر الثالث : التعلّق الفطري بالكمال

الفصل الثاني : ملامح فكره

أولاً : عمق المعاني الإيمانية

ثانياً : رسوخ القيم الإنسانية

ثالثاً : إصلاح المفاهيم التربوية

الفصل الثالث : آراؤه الفكرية

خصائص منهجية

آراؤه في المفاهيم الاصطلاحية

الفصل الرابع : مواقفه من بعض القضايا العامة .




الباب الثاني
فكره وآراؤه ومواقفه

كان الشيخ رحمه الله صاحب مدرسة فكريّة متكاملة ، لم تكن اهتماماته منحصرة في التربية وتزكية النفوس وإنَّما كانت له آراء ومواقف واختيارات في قضايا كثيرة ، علمية وسلوكية وفقهية .

ومن اليسير استكشاف معالم هذه المدرسة من خلال تتبع أقواله ومعرفة مواقفه واختياراته ، ومن المؤكد أنَّه لم يكن مقلِّداً لغيره ، بالرغم من حرصه على الالتزام بالمذهبية الفقهية ، ولم يكن مجتهداً في قضايا الفقه مخالفاً بذلك آراء الجمهور ، وكان يفضّل التقليد في المسائل الفقهية لأنّ اهتمامه لم يكن الفقه وإنما هو التربية وإصلاح النفوس وإحياء القلوب بمحبة الله .

ومنهجه في ذلك واضح وبيِّن ، وهو مجتهد في هذا الجانب وليس مقلِّداً لغيره من أئمَّة التصوّف ، وكانت له اختيارات انفرد بها في مدرسته الصوفية ، فميّزت فكره بخصوصيات واضحة ، ولا يمكن لأحد أن يكتشف معالم فكره وخصوصيات مدرسته إلاَّ بالتتبّع الدقيق لحياته والمواظبة على مجالسه ومذاكراته ، فكل موقف مرتبط بسبب نزوله والأسباب المؤديّة له ، وتختلف آراؤه بحسب الزمان والمكان ، مراعاة لمقاصد الشرع وأهدافه ، ولا يفصل الحكم الفقهي عن غاياته المرجوّة منه ، ويعطي للبعد الأخلاقي دوراً مهماً في فهم وتوجيه المسائل الفقهية .

وتحضرني عشرات المواقف والاختيارات ، كان الشيخ فيها مراعياً مقاصد الشريعة فيها ، مبتعداً عن الآراء الفقهية التي لا تحقق تلك المقاصد ، ولعلّ

هذا هو السبب في اختلاف وجهات النظر في فهم طبيعة منهج الشيخ ، فهناك من يجد فيه طبيعة التشدّد في المواقف والسلوكيّات ، وهناك من يجد في ملامح مدرسته طبيعة التسامح والاعتدال ، وهناك من يجد فيه صورة الصوفيّ الملتزم بكل سلوكيات المدرسة الصوفية التقليدية ، وهناك من يجد فيه صورة الصوفي المتحرر من الطقوس الطرقية والأذكار المعتادة .

لم يكن الشيخ غير ذلك ، فهو هو ، في كل ما نُسِبَ إليه ، وما اشتهر به من مواقف واختيارات ، متمسِّك بالأصول ومتحرر من القيود ، يبحث عن الغايات والمقاصد ، ولا يقف عند حدود الضوابط الظاهرة ، يفهم الأحكام في إطار الأخلاق والفضيلة ، ولا يتجاهل ذلك في أيِّ حكم من الأحكام يلتزم بأحكام الشريعة في كل شيء ، ويرفض كل ما خالف ذلك ولو كان من أبرز المسلّمات في المدرسة الصوفية .

وله آراء واختيارات في الأحكام الفقهية هي جزء من فكره ، وامتداد لشخصيته ، وأهمها في شؤون المال والملكية والزكاة ، فلا حدود للصدقات في رأيه ، فما فضل عن الحاجة فهو للفقراء والمحتاجين ، فلا اكتناز لمال ولا ادِّخار لما زاد عن الحاجة ، وحق الفقير في المال ثابت كحقِّه في الحياة ، وما كان يجيز أن يمنع فقير من مال ، ولا أجر يقلُّ عن الحاجة ، فمقدار الحاجة ثابت بالوجود الإنساني ، وعلى الفقير أن يأخذ ما يكفيه ، فإذا لم يكفه الأجر لما يكفيه فمن حقِّه أن يأخذ ما يكفيه ، فإذا لم يكفه الأجر لما يكفيه فمن حقِّه أن يأخذ من رب العمل ما يكفيه ، وتسقط الديون عن المحتاجين في أيام المجاعة والجفاف ، إلى أن يستقيم أمر المعاش ، ولا يجيز لموسر أن يُجْبِرَ مُعسراً على أداء دينه ، لأنه لا يملك ذلك ، وإجباره بذلك هو إكراه لا يملك المُعسِر الرضوخ له ، ويملك الفقراء من مال الأغنياء ما يكفيهم لحياة كريمة .

ومن آرائه في القواعد الأصولية أنَّ الأحكام تُستمد من ظاهر النصوص ، ولا مجال للتأويل في آيات الأحكام إلاَّ بما أكَّدته النصوص من دلالاتها اللفظية ، والسيرة مصدر مُهمٌّ للأحكام ، وما يصدر عن الرسول ﷺ فهو حجَّة دامغة ودليل قاطع ، ولا فرق بين ما كان من آرائه الشخصية واجتهاداته

البشرية ، وبين ما كان من أحكام التشريع ، فما يصدر عن الرسول ﷺ حجَّة ويجب الأخذ به ، ولا يسع مسلماً محبّاً لرسول الله أن يخالف أمراً من أوامره أو نهياً من نواهيه ، فعاداته الشخصية يجب اتباعها ، فمن أحب الله أحب رسوله ، ومن أحب رسوله أحب كل ما يحبه وما يلتزم به ، ولا يأخذ بفكرة اجتهادات الرسول ﷺ لأنه لا ينطق عن الهوى ، وكل ما يصدر عنه فهو وحي من الله يؤمر به ، أو يوجه إليه ، أو يشرح صدره له ، ولم يكن يحب الحيل الشرعية والأخذ بها دليل على الجهل بحقيقة الإسلام ، ومن علامات الغفلة ، فالمسلم يفعل ما يؤمر به ويمتنع عما ينهي عنه ، ولا يتحايل على حكم شرعي لا لتماس التيسير والإباحة ، وكان يأخذ بسد الذرائع فكل ما يؤدي إلى الحرام أو يفضي إليه يمنع عنه ، ويدعو لاجتنابه .

وتمسَّك البعض بسلوكياته التي كان يدعو فيها إلى الكمال وهو لم يحرِّم حلالاً أو يتشدَّد في أمر إلا لمنع ما يمكن أن يفضي إليه ذلك من آثار سلبية على السلوك ، وكان يحترم الأعراف ويأخذ بها إلا إذا أفضت إلى مخالفة شرعية أو أدَّت إلى ظلم واضح ، وبخاصة في العلاقة بين الأغنياء والفقراء ، وكان يخالف ما ذهب إليه الفقه من تضمين الإجراء ثمن ما يتلفون بسبب تقصيرهم ، ويعتبر أن الأجير الضعيف سواءً كان أجيراً عاماً أو خاصاً لا يجوز تضمينه ولو ثبت تقصيره انطلاقاً من قواعد الفضيلة في ضرورة الإحسان إلى الضعفاء والتماس العذر لهم فيما تسببوا في إتلافه من أموال .

وكان يحترم إجماع الصحابة ويعتبره حجَّة ، كما يأخذ باجتهادات التابعين احتراماً لهم وثقة بسداد اجتهاداتهم .

وفي الوقت ذاته كان يكره الخوض في القضايا الخلافية ويأخذ بالرأي الراجح ، في الفقه ، وما قال به جمهور الفقهاء ، ولم يكن يحب الاستشهاد بالآراء الشاذة المخالفة لرأي الجمهور ، كما كان يكره الخوض في المسائل التاريخية التي وقع الاختلاف فيها بين الصحابة وأدت إلى الحروب في مسائل الحكم والخلافة كما كان لا يحب الحديث في الاختلافات المذهبية بين الشيعة والسنة .

تلك هي ملامح فكر الشيخ واختياراته ، وهو فكر متميز بأصالته وبأخلاقيته وبالبعد الإنساني فيه ، وهذا البعد كان واضحاً في كل اختياراته الفكرية التي كانت سلوكاً له . . ولم ينفصل فكره عن سلوكه ، وسلوكه هو المصدر الأهم لفكره .

وإنني لا أسجل ملامح هذا الفكر من خلال كتبه ، فلم يؤلف كتباً ، وإنما أسجله واستنتجه من خلال أقواله وأفعاله ، وهي المصدر الأصدق لفكر المفكرين .

وفي كل رأي أو اختيار استذكر موقفاً من مواقفه ، واستمد منه معالم ذلك الرأي وملامح ذلك الاختيار .

وما سجَّلته في الباب الأول من تاريخ حياته هو مصدري الأهم للباب الثاني الذي اخصصه للحديث عن فكره واختياراته ومواقفه ، وهي مواقف ليست غائبة أو مجهولة ، فكل من عرف الشيخ عرف تلك المواقف والسلوكيات ، ومن لم يعرف الشيخ سمعها ممن عرفه ولازمه حتى أصبحت معروفة بدقائقها وأحداثها .

ويجب أن اعترف أن الشيخ قد ترك بصماته الواضحة فيما أكتبه من بحوث ودراسات ، وأنا مدين له بترسيخ تلك القيم الإنسانية في فكري ، من خلال ما رضعت في طفولتي من غذاء أسْهَم في إغناء فكري . . ومن الإنصاف أن أعيد الأمر إلى نصابه ، وأن أشيد بفضل الشيخ في صياغة تلك التصورات والآراء .

* * *

الفصل الأول

مصادر فكره

لابدّ لكل فكر من مصادر أمدّته بالتصورات وأغنته وأثرت في صياغة ملامحه ، والمصادر كالينابيع التي تسقي الفكر وترويه منذ الطفولة إلى أن يكتمل تكوينه .

ومعرفة المصادر تيسر لنا فهم الأفكار بطريقة أفضل ، وتعطي لتلك الأفكار نسقاً منسجماً معبِّراً عن ملامح تربط الفروع بأصولها ، بحيث لا يرى في تلك الأفكار ذلك الانقسام والتناقض ، وإذا جاءت الأفكار متناقضة دلّ ذلك على تشوّش في الرؤية وذهول عن إدراك الغايات المرجوّة .

ولا يمكن أن تجتمع التناقضات في فكر منسجم وملتزم ، فالتناقض دليل على أنَّ الشخصية ليست مؤهَّلة لتكوين رؤية ذاتية لها ، فتأخذ من ملامح غيرها على غير هدى ومن غير قاعدة ، فيأتي نسيج فكرها مفكَّك العرى ، مترهِّلاً في تكوينه ، وهذا لا يلغي خصوصية التجديد والتطوير ، فلا بد في التجديد من التماس قاعدة له ، تربط الجديد بالقديم في نسق منسجم يقبله العقل ويقتنع به .

وتختلف المصادر في حجم تأثيرها وفي مدى قوَّتها ، فمن المصادر من يسهم بطريقة جادة وعميقة في تكوين الملامح ، ومنها ما يكون ضعيف الأثر في هذا التكوين .

ولا بدّ عند دراسة فكر الشيخ من البحث عن مصادر فكره ، منذ طفولته الأولى إلى أن نضجت شخصيته ، ومن المصادر ما يكون فطريّاً يستمدُّ قوَّته من

الجود الإلهي الذي خلق البشر باستعدادات متفاوتة ، ومنها ما يكون تربوياً تسهم البيئة في صياغته .

وهناك مصادر أخرى يكتسبها الإنسان من محيطه الثقافي ، فيتأثر بها ، ويستجيب لها ، ولاشكَّ أنَّ التربية الدينية هي المصدر الأهم الذي يوجِّه الطاقات الفطرية ويتحكم في تكوين البيئة الاجتماعية ، وهذه التربية بمكوِّناتها وتجلِّياتها تحدِّد مسارات الفكر ودروبه ، وتدفعه إلى أهداف مرجوَّة تحقِّق كمال الإنسان في تطلُّعه إلى الأسمى .

ولو تتبَّعنا أحاديث الشيخ لاستطعنا اكتشاف مصادر فكره ، وهي التي يشير إليها في كل مناسبة ويستشهد بها ، وهي ثلاثة :

ـ تدبُّر آيات القرآن .

ـ التأثُّر بسيرة الرسول ﷺ .

ـ التعلُّق الفطري بالكمال .

المصدر الأول : تدبُّر آيات القرآن :

يشعر كل مسلم بعظمة القرآن الكريم وأنَّه كتاب هداية ورشد وهو عظة ورحمة ، قال تعالى :

ـ ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٨] .

ـ ﴿ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجاثية : ٢٠] .

ـ ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ﴾ [البقرة : ٢٣١] .

ـ ﴿ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ [الجن : ١ ـ ٢] .

ـ ﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصّلت : ٤٢] .

ـ ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال : ٢] .

وقال النبي ﷺ من حديث سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي رواه البخاري: «خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه».

وقال أيضاً في حديث أخرجه النسائي وابن ماجه عن أنس رضي الله عنه: «أهل القرآن أهل الله وخاصَّته».

والقرآن هو كلام الله المنزَّل على رسوله ﷺ وهو المدد الإلهي الذي تتجدد به حياة البشر وترتقي بفضل هديه قيم الخير في المجتمع، وهو يعلِّم الناس المكارم والفضائل، وتهتدي بنوره العقول، وتزكَّى بتوجيهاته النفوس وتحيا بتلاوته القلوب.

وأول ما يجب أن يلتزم به القارىء للقرآن أن يستشعر عظمته بقلبه، فهو كلام الله المعجز، وأن يستحضر كل معاني الاحترام والإجلال لله تعالى، وأن يتدبر ما يقرأ بالفهم العميق والأدب الرفيع، وأن يحسن القراءة والأداء.. وأن يتذكر أنه بين يدي الله تعالى يقرأ كلامه.

وأول ما يدعو إليه القرآن هو الفرار إلى الله قال تعالى:

﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠ ـ ٥١].

والخطاب القرآني موجَّه لرسول ﷺ لكي يدعو قومه ويقول لهم: فرّوا إلى الله إني لكم منه نذير مبين، واختلف المفسِّرون في معنى هذا الفرار وما يراد به.

قال ابن عباس: فروا إلى الله بالتوبة، وفروا منه إليه واعملوا بطاعته.. وقال غيره: احترزوا من كل شيء دون الله فمن فرَّ إلى غيره لم يمتنع منه، وقال ذو النون المصري: فروا من الجهل إلى العلم ومن الكفر إلى الشكر، وقال سهيل بن عبد الله: فروا مما سوى الله إلى الله إني لكم منه نذير مبين[1].

وقف الشيخ طويلاً وهو يتأمَّل هذه الآية، دعوة إلى الفرار إلى الله، والله

---

(١) انظر تفسير القرطبي ج ١٧ ص ٥٣ ـ ٥٤.

لا يدعو إلا لهدى وحكمة وخير ، وكان يكررها في مجالسه وينادي أصحابه فروا إلى الله ، ولا ملجأ لكم إلاّ الله. . لا لكي تحصلوا على المال والزعامة والجاه ، ولكن فروا إليه من كل ما سواه ، وليس هناك غيره. . فروا إليه بفقركم إليه وفروا إليه بضعفكم وذلّكم ، ولا تفروا إليه بتعاليكم وتفاخركم بالأموال والأولاد.

ويقرأ الشيخ قوله تعالى :

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾.

ويتأمّل معنى العبادة ، وهي مأخوذة من العبودة والعبودية ، والمراد بالعبودية الخضوع والذل ، والتعبيد هو التذليل ، والعبادة هي الطاعة ، والتعبُّد هو التنسُّك ، والقيام بالطاعة ، وذهب مجاهد إلى أنَّ المراد بالعبادة هو المعرفة ، فمن عرف الله عرف كيف يعبده ويوحِّده ، وكان الشيخ يرجِّح هذا الرأي ، ويقول من عرف الله أحبه ومن أحبه قام بما توجبه تلك المحبة من الطاعة فيما أمر ، والعصاة لو عرفوا الله لما كفروا به. . ولو عرفوه لما أشركوا به. .

وما أريد منهم من رزق ، لا أن يرزقوا أنفسهم ولا أن يطعموا غيرهم فالله هو الرزاق ذو القوة ولا يحتاج لغيره. . أمّا الذين ظلموا وكفروا وخرجوا عن طاعة الله فإنَّ لهم ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم السابقين ممَّن نزل بهم العذاب من الأمم القديمة ، والذنوب هو النصيب ، وهو الدلو المليء بالماء ، ونصيبهم من العذاب سيأتيهم فلا يستعجلون.

ويبتدىء القرآن باسم الله الرحمن الرحيم ، وهو القَسَمْ الذي أقسمه الله لعبادة في بداية كل سورة من القرآن أنَّ ما تضمَّنته تلك السورة هو حق ووعد من الله تعالى لعباده بأن يفي لهم بكل ما وعده لهم في قرآنه الذي أنزله على رسوله ، بسم الله تعني الاستعانة بالله عند افتتاح كل عمل لكيّ يضمن له البركة ، ويحفظ صاحبه ، والأصل أن تحذف كلمة اسم ، ويبقى اللفظ «بالله الرحمن الرحيم» ، وزيدت لفظة الاسم للتبرك ويصبح تقدير الكلام «أبدأ باسم

الله» أو بدأت باسم الله ، والاسم مشتقٌّ من السموّ وهو العلوّ والرفعة أو مشتق من السمة وهو العلامة الدالة على صاحبه ، ولفظة «الله» هو اسم الله الأعظم وهو أكبر أسماء الله ولذلك لا يثنّى ولا يجمع ، وهو يدلُّ على الجامع لصفات الألوهية المنعوت بأوصاف الربوبيّة المتفرِّد بالوجود الحقيقي الذي يستحق العبادة ، والفرق بين الرحمن والرحيم اسم عام يشمل جميع أنواع الرحمة ويختص بالله تعالى ، فهو الرحمن بكل خلقه والرحيم خاص بالمؤمنين لمن تاب وأطاع.

كانت البداية التأمل في كلام الله وتدبر معاني القرآن ، فهو البحر الذي تجري فيه سفن المعرفة ، وتقف على شواطئه العقول حائرة تنهل من معين ذلك الحوض الرباني المليء بكنوز المعارف والعلوم ، وتلك المعرفة لا تتوقف عند حدود مدركات العقول التي خلقت لكي تدرك عن طريق حواسها ما يتعلَّق بشؤون العبودية ، ولم تخلق لكي تدرك المعارف والإشراقات التي تنبثق في أعمال القلوب التي استعدَّت لكي تنطبع فيها حقاق الكون.

ولا حدود للمعرفة ، والعقل غريزة يتهيأ بها الإنسان لقبول العلوم الحسية والنظرية ، ولا يمكنه أن يتجاوز ذلك ، والعقول متفاوتة في قدراتها على الفهم ، وقد يتناقض ما تفهمه العقول فقد تقود صاحبها إلى النور أو الظلام ، وإلى السكينة والقلق ، وإلى السعادة والشقاء ، مما يدلُّ على أنَّ النفوس تشتاق لمعرفة اسمى وأعلى ، تشرق في القلوب فتمنحها الشعور بالطمأنينة والسكينة.

كيف يمكن للعقول المجرَّدة المظلمة العاجزة عن إدراك ذاتها وحركتها ووجودها أن تدرك المعارف المتعلِّقة بالله تعالى ، وأن تؤمن أنَّه ليس كمثله شيء في الأرض ولا في السماء وأنَّه نور السموات والأرض ، وأنَّه ليس بِجِرْمٍ ولا جوهر ولا يماثله موجود ، وهو رفيع الدرجات ، وقريب من الخلق ، يحبُّهم ويحبُّونه ، وهو رحمن رحيم ، باسمه يبتدىء الإنسان حركته ، ويستعيذ به من الشيطان الرحيم ، ويحمده ويعبده ، ويستعين به ، ويطلب الهداية منه في كل كلمة من كلماته.

فكَّر الفلاسفة قديماً وحديثاً ولم يصلوا إلى كنه الحقيقة ، وضلُّوا طريقهم

وأضلُّوا غيرهم ، فلم يتفقوا على رأي ، ولم يصلوا إلى غاية ، واختار الصوفية طريقاً مغايراً ، فاستنارت به قلوبهم ، وسكنت نفوسهم ، وفهموا من كلام الله ما أَدْخَلَ السعادة إلى قلوبهم ، وكانوا سعداء بمواجيدهم ومجاهداتهم وأحوالهم ، ووجدوا في كتاب الله الهداية التي يطلبون والطمأنينة التي يأملون.

ولم يندم أحد ممن اختار القرآن الكريم طريقاً لسعادته ، وينبوعاً لمعرفته ، وإذا ضلَّ البعض أو انحرف فليس بسبب مااختاروه من هذا الطريق ، وإنما بسبب ما انحرفوا به عن كتاب الله ، فجعلوه مطيّة لأفكارهم الخاطئة ، وجسراً لشهواتهم وملذَّاتهم الدنيوية.

واختار الشيخ طريق القرآن فعكف على تدبُّر آياته والتزام آدابه ، فلم ينحرف عن الطريق ، وكان إذا قرأ القرآن بكى وتأثَّر ، واستشعر أنَّه أمام ربه ، واستغرق في تدبُّره ، وابتعد عن التأويل الفاسد والتفسير الخاطىء ، والتزم بمعايير الشرع وضوابطه ، وحكَّم القرآن في أمره ، ولم يحكِّم عقله في القرآن ، فأمَّده القرآن بثمرات القراءة النافعة فهماً ومعرفة.

أشْعَرَهُ القرآن بالطمأنينة والسكون ، وأغنى فكره بدفء المعرفة التي غذَّاها التأمل في الآيات خلال مدة تأملاته ومجاهداته ، فكان فكره مستمدّاً من القرآن ، من آياته المحكمات ومن ومضات إشاراته إلى عظمة الربوبية ، وما تَحْمِلُهُ من معاني محبّةَ الله للخلق المتمثِّلة في رحمته بهم والإحسان إليهم ، وهذا يتطلَّب الشكر لله ، وشكر الله حال يقتضي نسبة النعمة إلى المنعم ، والقيام برعاية حقوق الله ، وهذا هو معنى التوحيد والتقديس ، فالله هو الأحد والصمد وقيُّوم الأرض والسماء ، ولا أحد معه ، والكلُّ منه ، ومن كمال القدرة الانفراد بالخلق والتدبير ، وإذا شعر العبد بنعمة الله عليه فَرِحَ بالمنعم وأحبَّه وتعلَّق به وخضع له وسجد ، لكي يكون شكره صادقاً.

كان الشيخ يقول من تمام الشكر لله أن تفرح بالمنعم لا بالنعمة ذاتها ، فالنعمة صفة زائلة ، أما المنعم فهو خالق النعمة وموجهها ، والفرح بالمنعم هو غاية النعمة ، وإذا أعطاك الله شيئاً فأنت تحب الله الذي أعطاك وأنعم عليك ولا تتعلَّق بالنعمة ذاتها ، أما النعمة فيجب أن توجَّه لخدمة المنعم ، فإذا

أعطاك الله مالاً أو جاهاً فأنت تشكر المنعم وتفرح بالنعمة وتوجِّه تلك النعم إلى حيث يريد المنعم أن تتوجَّه إليه .

ثقافة القرآن هي الثقافة الأغنى والأعظم ، ومن تأمَّل وتدبَّر فسوف يشعر بعظمة معاني القرآن التي تمنحه القوة والمعرفة بالله تعالى ، وتجعل فكره مستنيراً بهدي الله .

لم تكن معاني القرآن قاصرة على ما ذكره المفسِّرون من شرح الألفاظ وبيان الدلالات وبيان النكت البلاغية والأوجه النحوية ، وإنَّما هي أشمل وأعمق ، إنَّه كلام الله المعجز الذي لا حدود لإعجازه في مجال الفهم والتأمل ، ومن أراد أن يفهم القرآن فعليه أن يفهمه بقلبه المستنير ، بهدف القرب من الله تعالى ، فاللذات ليست سواء ، فمن الناس من يستلذُّ الطعام والشراب ومنهم من يستلذُّ المعرفة والحكمة ، وكلمَّا ارتقى الإنسان ارتقت مستويات لذَّته من اللذَّات الحسيَّة التي تشاركه الحيوانات بها إلى اللذَّات المعنوية التي ينفرد بها الحكماء والعلماء .

ولذَّة الفهم هي أشرف اللذَّات وأعظمها مكاناً ، لأنَّ القلب يتغذَّى كما تتغذَّى الأجسام ، ويشعر الإنسان بالسمو والعلو ويحلِّق في الفضاء الفسيح الذي لا يحدُّه حد ولا تحيط به الأبصار .

المصدر الثاني : السيرة النبوية :

ترتبط السيرة النبوية كل الارتباط بالقرآن الكريم ، وهي الترجمة الحية لما يدعو إليه القرآن من التعلق بالكمال الإنساني والالتزام بقيم الفضيلة في السلوك الإنساني .

والسيرة هي المدرسة التربوية الأولى التي يتعلم فيها المسلم كيف يكون مسلماً في عقيدته وفي سلوكه وفي معاملاته ، والذين يجهلون السيرة يجهلون دروب الإسلام ومسالكه .

وكل الآداب المرتبطة بالعبادات والعادات يتعلمها المسلم من دروس السيرة ، فالسيرة ليست مجرد روايات تاريخية تسجِّلُ حياة النبي ﷺ ومراحل

الدعوة ، وإنما هي مسالك تربوية غنية بالقيم والمفاهيم والآداب ، فمن جهلها فقد جهل حقيقة الإسلام.

والإنسان في سعيه إلى المعرفة لابدَّ له من هداة يرشدونه إلى طريق الحق والنور ويحذِّرونه من الجهالة والضلالة ، ولابد من النبوة الهادية إلى طريق الله ودروب الفضيلة في السلوك ، وكان الوحي هو الظاهرة الأولى التي تحقق ذلك التواصل بين الله وأنبيائه ، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢].

وزوِّد الله الإنسان برسولين هاديين:

أولهما: العقل ، وهو طريق الهداية والنور ، وبه يميز بين الصواب والخطأ ، ويكتشف النور من الظلام ، فهو مزودٌّ بالبصر والحواس الأخرى التي تمكِّنه من التمييز الحسي المدرك ، والتمييز خطوة أولى نحو المعرفة ، والذين لا يميِّزون سرعان ما يضلُّون ، ولابدَّ من التمييز لكي يكون الاختيار صحيحاً وسليماً.

ثانيهما: الرسول ، وهو الهادي والمعلِّم والمرشد ، هو الذي يمسك بالمقود ويقود إلى الفضيلة بأقواله وأفعاله ، وعلى كل مسلم أن يقتدي به وأن يطيعه وأن يتبعه.

ولابدَّ من الاستعانة بالعقل في دعوة الرسل الذين يحتكمون إلى العقول ويخاطبونها ويرشدونها ، والعقل الذي حافظ على صفائه سرعان ما يستجيب لدعوة الأنبياء والرسل ، لأنها دعوة حق ، ولا يمكن للعقل الذي زوَّد الله به الإنسان لهدايته أن يضلَّ طريقه إلا إذا حجب عن العقل بما سيطر عليه من غرائز الرغبة الملحة التي تحجب عنه شمس النهار ، فلا يبعد ذلك النور ، ولا يرى ذلك الضياء بسبب ذلك الضباب المظلم الذي يحجب نور الشمس.

والإنسان العاقل يستفيد من عقله ويجب عليه أن يستفيد من تلك الموهبة التي يدرك بها الأمور الحسية ، فهو غريزة يتهيأ بها للإدراك الصحيح لكل المعقولات ، والعقل هو المنبع الداخلي للمعارف ، والعلم يصقل العقل

ويزوده بآلات المعرفة كالعين آلة للرؤية ، فهو كالنور الذي خلقه الله للإنسان لكي يمشي به في الأرض فلا يضل طريقه .

وأكرم الله الإنسان بالعقل لكي يمتاز به عن سائر المخلوقات فهم يملكون ما يملك من غرائز وقدرات تعينهم على دفع الأخطار عنهم وتوفير أسباب الحياة لهم ، وتمدُّهم بالحواس التي ينظرون بها ويسمعون ، ولكنهم لا يملكون قدرة التمييز التي تجعلهم متميزين عن بقية المخلوقات .

والإنسان عاقل ويوصف بالعقل سواء استخدم عقله أو لم يستخدمه ، لأنه يملك تلك الغريزة الفطرية التي زُوِّدَ بها ، ولكن تلك القدرة تميز المحسوسات ولا تدرك ما هو خارج عن نطاقها من شؤون الخلق . .

ولابد من النبوة كوسيلة للهداية والإرشاد ، فمن الناس من يؤمن بها ويستهدي بهديها وتكون نوراً له يمشي بها في الأرض ومن الناس من تزيدهم رجساً إلى رجسهم ويموتون وهم كافرون .

قال تعالى :

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٤ ـ ١٢٥] .

وتُجَسِّدُ السيرة النبوية عظمة الهدي القرآني ومقاصده ومناهجه ، ولا يمكن فصل القرآن عن السيرة ، فالسيرة هي التجسيد الحي لذلك الكمال الذي يدعو إليه القرآن ، وهي البيان الذي لا يمكن الاستغناء عنه ، ولذلك ارتبطت دعوة القرآن لطاعة الله بدعوته لطاعة الرسول ﷺ .

دَرَسَ الشيخ السيرة النبوية ، لا دراسة رواية وتوثيق ، وإنما دراسة دراية وتحقيق ، وتعلّق بحب النبي ﷺ وأخذ يتّبعه في كل ما أمر به وما نهى عنه ، يفعل ما فعل ويحب ما أحب ، ويبغض ما بغض ، ويترك ما ترك .

كان يتحدث في مذاكراته عن ذلك الحب والتعلق ، ويرى أن الحقيقة المحمدية تمثّل الكمال الخلقي في كل السلوكيات ، وكان يحضُّ على

الإتِّباع ، والإتِّباع هو الأخذ بالسنة والتمسك بدروس السيرة النبوية ، كان لا يترك شيئاً أحبه الرسول الكريم وتمسك به وحافظ عليه إلا أخذ به ، ولو كان من العادات التي لا تدخل ضمن الأحكام التشريعية.

لم يقل بأن الأحكام المندوبة هي واجبات ولم يقل أن السنن والنوافل هي فرائض ، ذلك أمر مفروغ منه ، والخلط فيه يؤدي إلى ضلالة ويعبِّر عن جهل بقواعد الدين ، ولكنه كان يريد أن يتمسك المسلم بالسنن والنوافل التي تمسك بها النبي ﷺ ، ويأخذ بكل ذلك ، لأن ما يصدر عن النبي الكريم هو كمال ، ولا يجدر بأحد أن يترك ذلك الكمال.

وكان يقول بأنه لا يريد أن يفعل «خلاف الأولى» فالكمال يتجلى بذلك الأولى ، وليس بخلافه ، فخلاف الأولى هو أخذ بالأقل كمالاً ، ويجدر بالعاقل أن لا يترك الكمال ويأخذ ببعضه.

لم يكن يتكلف ذلك ، ولو تخلَّى عن هذا المنهج لَشَعَرَ بالتكلّف ، والذين يتعشقون الكمال لا يتكلفونه ، ولو تكلفوه لكان حبهم للكمال وهماً من الأوهام.

كان يدعو عقب كل صلاة بدعاء النبي ﷺ: «اللهم ارزقني حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربني إلى حبك واجعل حبك أحبّ إليّ من الماء البارد على الظمأ».

وحب النبي ﷺ يرتبط بحب الله تعالى ، فمن أحب الله أحب كل من يحبه الله ، وأحب الخلق إلى الله هو نبيه ورسوله الذي اختاره لكي يحمل الرسالة ويؤدي الأمانة ، وهو الذي وصفه الله تعالى بأنه على خلق عظيم ، والخُلق العظيم صفة جميلة ، والجمال محبوب للنفس تستلذُّه وتأنس به وتتقرب منه وتجاريه في صفات جماله وتقلده في كل مظاهر ذلك الجمال ، وليس الجمال قاصراً على الأمور المحسوسة كالجمال المظهري ، بل هو شامل لكل ما هو جميل من الأمور المعنوية التي لا تُدرَك بالبصر ، وإنما تدرك بالبصيرة الداخلية العميقة التي تدرك بها جماليات الباطن الذي لا يظهر ، فجمال الظاهر سرعان ما يزول بتأثير الشيخوخة ومظاهر المرض ، أما جمال الباطن فلا يزول أبداً ،

لأنه ارتبط بالصفات التي تستلزُّها النفوس ، وأهمها حسن الخلق ، ومن فقد البصر لا يدرك الجمال الظاهري لأنه لا يراه ، ومن فقد البصيرة لا يدرك الجمال الباطني لأنه لا يراه أيضاً.

لم يتحدث الشيخ عن النبي ﷺ بما ينافي صفة العبدية فيه ، وأعظم أوصافه هي تلك الصفة التي خاطبه الله بها ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ للإشارة إلى انتفاء أي صفة تخالف ذلك الوصف الذاتي الذي يجب أن يتحقق العبد به . . حتى في مناجاته لربه في لحظات الرجاء ، فالعبدية صفة ملازمة للعبد حيثما كان.

فمن أحب الله أحب رسوله ، ومن أحب رسول الله اتبعه في كل ما أمر به ونهى عنه ، وكان يتلو هذه الآية في كل مجلس ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١] وقوله: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤] كانت السيرة النبوية هي المصدر الأهم لفكره ، ومنها كان يستمد معالم تصوراته وآرائه واختياراته السلوكية والتوجيهية ، وكان هذا المصدر واضحاً في أقواله وأفعاله وأحواله ، وكانت هذه السيرة هي مرشده وموجهه ، وكان يستمد منها المثل الذي يقتدي به.

ومن الكلمات الاصطلاحية التي كان يرددها لفظة «الإتِّباع» ، وينصح أصحابه بالاتِّباع ، والاتِّباع هو الاقتداء بالنبي ﷺ في أفعاله وأخلاقه وحلمه وصبره وشجاعته وزهده ، حتى الأمور الشخصية كان يوصي بأن يقتدي به فيها ، وكان يقول في تعريفه لمنهجه وطريقته بأنَّ منهجنا هو الاتباع والاقتداء برسول الله الذي يمثل الكمال في شخصيته وخصاله.

المصدر الثالث: التعلق الفطري بالكمال:

يتميز الإنسان عن غيره من المخلوقات بما أُوجد فيه من خصوصيات وأهمها التطلّع للفضائل والتشوّق للكمال والتمسّك بعلو الهمة ، وعلو الهمة

من مقومات الكمال ، فمن علت همته وصحت إرادته وقويت عزيمته أحب الفضائل وتخلق بالخلق الحسن ، لا لمنفعة يرتجيها ولا لثروة يحرص على كسبها ولا لشهرة يريد تحقيقها ، وإنما يحب الكمال لذات الكمال ، ويحب الفضيلة حباً بالفضيلة ، ولا يهمه ما يكسبه من ذلك .

وبعض الناس تستهويهم الغرائز الحيوانية فتنصرف هممهم لتحصيلها ، من الطعام والكساء والسكن والمال والمرأة ، وكلما كبرت الهمة كبرت المطالب وشرفت الغايات ، وكلما صغرت الهمة انحطت المطالب وتضاءلت وهزلت .

والإنسان بطبيعته يندفع إلى فعل الفضائل لأسباب ثلاثة :

أولها : الرغبة في الثواب والابتعاد عن العقاب ، وهذا مما تدفع إليه الشهوات ، وهذا ما يفعله معظم الناس الذين يرغبون في الثواب عند الطاعة ، ويخافون من العقاب .

وثانيها : وهو الرغبة في الجاه وحسن السمعة وارتفاع المكانة والمنزلة عند الخلق ، وهذا ما يفعله الطامعون في الزعامة والسيادة ، فيفعلون الفضيلة لاستجلاب عواطف العامة .

وثالثها : وهو حب الفضائل لذاتها ، رغبة في الكمال واستحياءً من الله تعالى ، لأن الإنسان الذي يحب الكمال لا يرضيه إلا الكمال ، ولا يرضى أن يصدر عنه إلا ما يمثل الكمال ، فيفعل الفضائل تعلقاً بها ، ولو لم يعلم بأمره أحد ، ويتجنب الرذائل ولو لم يطَّلع عليه أحد ، وهذا هو الطريق الذي ترجى فضائله وتحمد أفعاله ، لأنه يفعل ذلك لا لخوف ولا لرغبة ولا لجاه ولا لزعامة ولا لمحمدة عند الخلق ، وإنما لحب الفضائل وتعشُّق الكمالات .

وأهل الكمال من الأنبياء والأولياء والصالحين يفعلون الفضائل لوجه الله تعالى ابتغاء مرضاته ، وهذه هي الصفة المحمودة التي يعود الفضل فيها إلى الجود الإلهي ورعاية الله .

وقال بعض العلماء :

ـ مخالطة العلماء تقربك من الله وترغبك في ثوابه وتخوفك من عقابه .

ـ ومخالطة الحكماء تقربك من الحمد وتبعدك عن الذم .

ـ ومخالطة الكبراء تزهدك فيما عدا فضل الله .

كان الشيخ يؤكد في مذاكراته على أهمية الهمم العالية التي تدفع صاحبها إلى عمل الخير حباً في الخير وعمل الفضيلة حباً في الفضيلة ، وطاعة الله مرضاة له وتقرباً منه ، لا طمعاً في الجنة ولا خوفاً من النار ، فمن قام بحق الله عليه إرضاءً لله تعالى ومحبة له كان محباً للكمال ، وكان أهلاً لمحبة الله له .

ويندد بأجير السوء الذي لا يفعل الخير إلا عند الرغبة والرهبة ، والكمال يتحقق بأحد أمرين :

الأمر الأول: التكوين الفطري الذي يمنُّ الله تعالى به على بعض خلقه ، فيجعل بعضهم في موطن القابلية الفطرية للكمال ، فيحبون الكمال ويكرهون ما ينافي الكمال ، يحبون الصدق ويكرهون الكذب ، يحبون الأمانة ويكرهون الخيانة ، يحبون الاستقامة ويكرهون الانحراف .

الأمر الثاني: التربية والتكوين والتخلق والصحبة الحسنة واتباع الصادقين فمن اعتاد الكذب يحمل نفسه على الصدق إلى أن يصبح الصدق من خصاله ومن اعتاد الجبن يحمل نفسه على الشجاعة إلى أن تصبح الشجاعة خلقاً له ، وهكذا بالنسبة لكل الفضائل ، ولهذا كانت التربية ضرورية لتغيير الطبائع الشاذة والمستقبحة لكي تصبح طبائع استقامة وأمانة وشجاعة .

ومن اعتاد على الكمال أحبه وتعشقه وتمسك به ، ومثله في ذلك كمثل من يعتاد النظافة فلا يحتمل القذارة أبداً ، لأنه اعتاد الكمال ، ومثله كمن يعتاد الطعام اللذيذ فلا يستعذب غيره ولا يطيقه .

فالصادق لا يستطيع أن يكذب ولو حمل على الكذب وأجبر عليه ، والأمين لا يستطيع الخيانة ولا يحتملها ولو أجبر عليها ، والنظيف لا يحتمل القذارة ولو فرضت عليه ، فلا يطيقها ولو ساعة من نهار . . وهؤلاء لا يفعلون هذه الفضائل طمعاً في أجر أو خوفاً من عقوبة ، ولكن يفعلون ذلك تمسكاً بفضيلة الكمال .

كان الشيخ يضيق صدره بمن يفعل الخير لأجل الثواب فقط ، كان يريد أن يأخذ الناس بالفضائل لأنها فضائل محبوبة لذاتها ، ومرغوبة لكمالها .

وكان يردد بيتين من الشعر :

ومنذ كنت طفلاً فالمعالي تطلبّي وتأنف نفسي كل ما هو واضع

ولي همة كانت وهاهي لم تزل على أن لي فوق الطباق صوامع

ولم تكن المعالي التي يقصدها ما اعتاد الناس أن يعتبرها من المعاني الدنيوية المتمثلة في طلب المال والجاه العريض ، وإنما هي معالي الفضائل وحب الكمالات ، وأهمها التزام حسن الخلق الذي يعتبر الكمال الأسمى ، ولا كمال يجاريه في مكانته ، فحسن الخلق من الصدق والأمانة والوفاء بالوعود والسخاء والحلم هي المعالي الحقيقية التي تشعر صاحبها بالسمو والتفوق والتميز .

والاستقامة هي رأس الفضائل ، وقد أمر الله تعالى بها في قوله ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢] ، وأهل الاستقامة هم أهل المعالي ، فلا شيء يشعر الإنسان بالعلو كالاستقامة ، ولذلك يدعو العبد الله تعالى أن يهديه إلى الطريق المستقيم ، ولا حدود للاستقامة ، فالاستقامة قمة يتطلع إليها العبد ويحرص على الصعود إليها ، إلى أن يبلغ قمتها أو ما يقرب من القمة .

وأهم العوالم التي تهدي صاحبها إلى الاستقامة أن يتعلم العبد الفضائل من عيوب غيره ، فإذا وجد عيباً في الآخر تجنبه ، لأنه مناف للكمال ، فما يصدر عن غيرك وتراه قبيحاً منه فهو قبيح إذا صدر عنك ، ولذلك فإن العاقل يتعلم الكمال من عيوب غيره ، وهذا شأن العلماء والحكماء .

والإنسان بفطرته يحب الكمال ويتعشقه ويتعلق به ويتمنى أن يفعله لأن الكمال مطلوب ومحمود ، ويتمثل الكمال في كمال الفطرة التي خلق الله الناس عليها ، والفطرة بيضاء نقية ، تحب الكمال ولا تميل إلى النقص ، إلا إذا اعتادت على ذلك وحادت عن أصل الفطرة قال تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ

ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ [الروم: ٣٠] وقوله: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ﴾ [البقرة: ١٣٨].

والقرآن الكريم بآياته المحكمات الهاديات يعلِّم المسلم معنى الفضيلة والكمال، ويدعوه للتمسك بهما، والقرآن كينابيع الماء العذب التي تسقى القلوب لإحياء مواتها، وإخراج ثمراتها، فكلما جفَّت القلوب جاء الهدي القرآني ليسقي تلك الأرض ويعيد إليها النضارة والحياة والخضرة والجمال، والذين ابتعدوا عن القرآن واعرضوا عنه جفّت ينابيعهم وقست قلوبهم، فحادوا عن التطلع للكمال، واكتفوا بعوائد الغفلة ومخلفاتها، من البحث عن الملذات في الشهوات الدنيوية التي تميت القلوب وتجعلها أكثر قسوة، لا تلين لكلمة الحق ولا تنصت لدعوة القلوب إلى التطلع إلى الكمال.

ولا شيء كالكمال يسعد النفوس، فما تسعى إليه النفوس هو كمالها الفطري، وما تشتاق إليه تلك النفوس هو شعورها بذلك الكمال، وكما تبحث كل الكائنات عن كمالها الفطري فإن الإنسان يبحث عن كماله، فالنبات يبحث عن كماله في النمو ويشتاق لأسباب ذلك الكمال وهو الماء، فإذا سقت الماء التربة الخصبة امتدت الأغصان باحثة عن كمالها في فضائها، حتى إذا حققت ذلك الكمال أعطت ثمارها المرجوة منها.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤ ـ ١٢٥].

ويتحقق الكمال برسول داخلي يعمقه ويدفع إليه وهو العقل، وبرسول خارجي يصححه ويغذيه وهم الرسل الذين اختارهم الله لحمل الرسالة ودعوة الناس إلى الكمال الخلقي، فالعقل يهدي بنوره الذي يتمكن به الإنسان من التمييز، وبغير نور السراج لا يتوهج الظلام ولا تبين معالم الدروب، والرسول يعلم ويغذي ويهدي إلى طريق الله وهو طريق الاستقامة «فاستقم كما أمرت» والاستقامة على أمر الله، ولا استقامة خارج هذا الأمر، فالله لا يأمر بأمر إلا إذا كان فيه الصلاح والمصلحة والرشاد، ولا ينهى عن أمر إلا إذا كان

فيه الصلاح والمصلحة والرشاد ، ولا ينهى عن أمر إلا إذا كانت فيه المفسدة والمضرّة والهلاك .

ولا شيء يسيء للفضيلة والتطلع للكمال كاستكبار النفوس المعبر عن غفلة القلوب وقسوتها ، فالاستكبار دليل جهل وغفلة ، والجاهلون لا تخشع قلوبهم ولا تسجد للرحمن ، ويدفعهم جهلهم إلى التكبر على الناس وينسوا عبوديتهم لله تعالى الذي خلقهم من تراب ومن نطفة أمشاج فإذا هو بعد ذلك خصيم مبين ، يتعالى برأسه ويستكبر في الأرض بغير الحق ويمشي مرحاً ولا يدري أنه لن يخرق الأرض ولن يبلغ الجبال طولاً .

تلك هي الغفلة الكبرى التي تنتاب القلوب ، فتبعدها عن كمالها الفطري وعما خلقت به من صبغة الله تعالى التي جعلها في موطن الاستقامة ، تجد سعادتها في عمل الصالحات التي تخدم عيال الله في الكون وتسعى لإسعادهم .

لا أنانية بغيضة كأنانية المعرضين عن الله الذين تُزيُّن له نزواتهم وعقولهم المحجوبة عن ربهم سوء عملهم فيرون ذلك حسناً وجميلاً ، ويجدون كمالهم فيه ، وسرعان ما يكتشفون حقيقة أمرهم فلا يجدون سبيلاً لإصلاح ما أفسدوه وبناء ما هدموه ، وذلك هو الخسران المبين .

كان الشيخ رحمه الله يتحدث عن الكمال في مجالسه ويدعو إليه ، ويندد بالذين لا يشعرون بكمال الكمال ولا بجمال الكمال ولا بحلاوة ذلك الكمال ، فالكمال له وجمال وحلاوة ، فمن رأى جماله وذاق حلاوته أحبه وتعلّق به .

لقد خسر الفلاسفة وتاه الحكماء وهم يبحثون عن الكمال من خلال نظريات سطحية وتعريفات لفظية وقوالب فلسفية وكلامية يحكمها الجدل والنظر العقلي المجرد ، ولو بحثوا عن الكمال في حقيقة ذاتهم ومرآة قلوبهم لأضاءت أنواره ظلمات نفوسهم ، وأنارت مشاعله ليالي حيرتهم ، فشعروا بدفء الكمال وهو يطارد ذلك الصقيع الذي يشعر أجسادهم برعشة التيه والضياع .

والكمال بحر متلاطم الأمواج عميق الأغوار ماؤه عذب ، فمن شرب منه فسرعان ما يعتاد عليه ويستلذه وينهل منه ما يحتاج إليه في نهاره وليله من عميق الأفكار ورفيع القيم .

الفصل الثاني
ملامح فكره

لكل فكر ملامح خاصة به تعبر عنه وتَصِفُ دقائقه ، وتعطيه التميز عن غيره ، بحيث يكون واضح الأهداف ، منسجماً مع ذاته ولا تفهم جزئياته إلا في إطار أداته المرسومة له .

وفي ظل هذه الملامح ينتفي التناقض في المواقف ، ويزال سوء الفهم ، وتصبح الغايات المرجوة هي المحطات المطلوبة ، هنا يكمن حسن الفهم من خلال ربط الجزئيات بالكليات ، واستمداد الفروع من الأصول ، وإعادة اللحمة إلى ما تفرق من الكلمات والمواقف والاختيارات .

والإنسان كلٌّ قائم بذائه ، تدفعه مقاصد وتشده أهداف ، وتسيره قضايا يبحث عنها ، ويجد نفسه منساقاً لتحقيقها ، فإذا انصرف عليها حيناً فسرعان ما يرتد إليها لأنها جزء من تكوينه ، تلوح له من بعيد ، وتومىء له بإشارات خفية ، يراها ببصيرته ولا يراها غيره ، ويسمع همسها وهي تخاطبه ليل نهار فيستجيب لها من غير تردد ، لأنها حقيقته التي يؤمن بها .

وهذا هو قدر الإنسان ، فهو وليد اختيارات تسكن كيانه ، تناديه وتستصرخه ، فلا يملك أمر الفكاك منها ، ويرى فيها الكمال الذي ترتجيه .

وعند البحث عن شخصية للتعرف عليها لابدَّ من محاولة فهم طبيعتها واختياراتها ، وهذا جزء من مهمة الباحث ، يرى أمامه الشخصية كما يتخيلها أو كما رآها أو عايشها أو سمع عنها ، وسرعان ما ترتسم في مخيلته صورة لها بطريقة عفوية .

وعندما أردت أن أكتب ملامح فكر الشيخ جلست متأمِّلاً أبحث عن تلك الملامح ، وهي مهمة ليست يسيرة ، لأنها تعتمد على الاجتهاد الشخصي ومحاولة استنتاج تلك الملامح من مجمل المواقف والآراء ، ومن الطبيعي أن يقع الاختلاف في الاستنتاج ، فكل الأمور التي تحتاج إلى اجتهاد عقلي لابدّ فيها من اختلاف الرأي بحسب طبيعة الرؤية .

وأستطيع أن أذكر أهم الملامح التي لاحظتها وتتمثل بما يلي :

أولاً : عمق المعاني الإيمانية والروحية .

ثانياً : رسوخ القيم الإنسانية والأخلاقية .

ثالثاً : إصلاح المفاهيم التربوية والاجتماعية .

ومن اليسير إضافة ملامح جديدة ، إلا أنَّ هذه الملامح هي الأهم والأوضح في فكره ، وهي واسعة وتتسع لكل ما كان يدعو إليه ، ويحرص عليه في مذاكراته ، وفي مجالسه التربوية .

وهذه الملامح متكاملة ومنسجمة ، ويقود بعضها إلى البعض الآخر ، وكل واحدة منها تثمر ثمرة مرجوة ، فالمعاني الإيمانية لابدَّ لها من ثمرة ، وثمرتها رسوخ القيم الإنسانية ، فالإيمان الذي لا يقود إلى إنسانية متراحمة متكافلة على الخير متناصرة على مقاومة قوى الشر لا يمكن أن يكون إيماناً كاملاً ، فالإيمان مرجوٌّ لثماره ، ولا إيمان بغير ثمرة ، والثمرة هي نتاج غرس أصيل في أرض خصبة ، والإصلاح التربوي والاجتماعي هو غاية الغايات ، لأنه المقصود بذاته لتكوين مجتمع الفضيلة الذي يحمي الحق ويقاوم الباطل ، ويناصر المستضعفين في الأرض الذين ما جاءت دعوات الإصلاح إلا للدفاع عن حقوقهم الإنسانية في الحرية والكرامة .

أولاً : عمق المعاني الإيمانية والروحية :

المراد بالإيمان هو التصديق ومحل التصديق هو القلب ، والتصديق يستدعي التسليم والانقياد ، وهذا هو الإسلام ، فالإسلام تسليم ومحله اللسان والإيمان تصديق ومحله القلب ، فكل تصديق بالقلب لابدَّ من أن يتبع تسليم

باللسان ، ولهذا لابدَّ في الإسلام من تصديق يسبقه فكل مؤمن بقلبه يتبعه تسليم بلسانه.

قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤].

وعندما يؤمن الإنسان أي يصدِّق بقلبه يثمر هذا الإيمان ثمرات في سلوكه الظاهري ، وأهمها أن يسلِّم أمره لله تعالى ويقوم بكل ما أوجبه عليه ، ويستشعر عظمة الله في قلبه ، فتنمو قيم الفضيلة في سلوكه ويخشى الله ويخافه ، ويحسُّ بأثر ذلك في نفسه ، فيطمئن قلبه وتسكن سريرته ، والإيمان يولِّد اليقين ، ويدفع صاحبه إلى المجاهدة بالنفس والمال في سبيل الله.. قال تعالى في وصف هؤلاء: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

وأول واجبات المؤمن أن يقوم بأمرين:

الأمر الأول:

أن يعبد ربه ، فيما أمره به من العبادات المختلفة وهو دليل الإيمان ، فمن ادعى الإيمان ولم يقم بعبادة الله فليس صادقاً في دعواه.

الأمر الثاني:

أن يفعل الخير ، ولا حدود لعمل الخير ، فكل عمل يخدم به الآخرين فهو خير ، وكل جهد يبذله لخدمة مجتمعة فهو خير ، وأكد الله تعالى هذا المعنى بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩﴾ [الحج: ٧٧].

وقال أيضاً: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤].

وتتجلى المعاني الإيمانية فيما يقوم به الإنسان من التزام الأدب في أداء عباداته بحيث يعرف أدب كل عبادة ، ويلتزم بتلك الآداب ، في الطهارة

والصلاة والزكاة والحج والصوم وتلاوة القرآن ، فمن التزم بآداب الصلاة ولم يلتزم بآداب الحج والصوم فقد أخلَّ بما يقتضيه الإيمان من أداء الواجبات عليه بكيفية صحيحة .

وتظهر المعاني الإيمانية في طبيعة الاهتمامات وكيفية معالجتها وتوجيهها ، وبحيث تكون منسجمة مع تلك المعاني التي يؤمن بها الإنسان وتوجِّه سلوكه ، وأهمها إخلاص النية لله تعالى وتصفية العمل من كل الآفات والتوجُّه إلى الله تعالى في كل خطوة بحيث يكون الله تعالى هو الغاية والمقصد ، ولا يكون هناك أي حظ للنفس فيما يقوم به الإنسان .

والإخلاص ألا يجد الإنسان نفسه فيما يعمل ، فإن وجد نفسه فقد خرج عن دائرة الإخلاص ، ولهذا فقد عرَّفوا الإخلاص بأنَّه فَقْدُ رؤية الإخلاص وألا يشاهد العبد نفسه في إخلاصه ، أو أنه نسيان رؤية الخلق فيما يقوم به ، فإن فعل الخير لأجل رؤية الناس له فقد خرج عن دائرة الإخلاص ، وأخطر ما يتعرض له العابد أو السالك أن يلتفت إلى الخلق فيكون مرائياً ويدخل ضمن الرياء المذموم .

ولا يتحقق الإخلاص إلا باستشعار رقابة الله على العبد ، فلا يلتفت في عمله إلا لله ، وتثمر هذه الرقابة الهيبة من الله تعالى ، فمن لم يشعر بهذه الرقابة في قلبه التفت إلى الخلق وحاول التقرب منهم ، بما يفعله من عبادات وأعمال ، والرقابة تثمر المحاسبة ، بحيث يكتشف العبد مواطن الخطأ والغفلة في سلوكه ، فيصلح ذلك ويتغلَّب على عيوب نفسه .

والعمل الصالح هو أهم القربات إلى الله ، يقوم به العبد مخلصاً لله فيه ، يبتغي مرضاته ، ولا يبتغى أن يحمد في المجالس ، وأن يذكر فيما قام به ، فإن التفت قلبه إلى ذلك الحمد فَقَدَ صفة الإخلاص ودخل في دائرة الرياء المذموم .

ولا يتحقق الإخلاص في العمل إلا بمجاهدة النفوس وتزكيتها فالمجاهدة هي محاولة التحكم في الغرائز لكي تكون في قبضة الشرع ، تفعل العمل الصالح لإرضاء الله تعالى ، وإذا قصرَّت في أمر فسرعان ما تحاسب على ذلك التقصير إلى أن تستقيم الطباع وتُكبح جماحها .

كان الشيخ رحمه الله شديد الاهتمام بهذه المعاني الإيمانية ، ويركز على أهمية إخلاص النية لله تعالى وعدم الالتفات إلى الخلق ، ولو بخواطر القلب ، لأنَّ ذلك يُفقد العمل روحيَّته ، ولا يكون مثمراً ، ولا تنشرح القلوب له ، فتفقد النصيحة قيمتها ، وتنغلق النفوس وتنكمش ، فلا يستجاب لكلمة الحق .

ثانياً : رسوخ القيم الإنسانية :

والمراد بالقيم الإنسانية هي تلك القيم التي تمثِّل الفضيلة في السلوك الإنساني التي تراعي حقوق الإنسان في الحرية والكرامة ، ولا يمكن إغفال هذا الجانب الإنساني في تربية الفرد والمجتمع ، فالأنانية مظهر بغيض ، ويقود إلى التنافس والخصام ، لأن النفوس تتدافع وتتغالب ، وعندما يقع احترام إنسانية الإنسان يرضخ القوي ويتراجع لكي يكون السلوك الإنساني معبِّراً عن الفضيلة .

وأهم قيمة إنسانية هي احترام حق الحياة بكل امتدادها وشمولها ، فحق الحياة لا يتجزأ ولا ينحصر بالطعام والشراب واللباس ، وإنما يمتد ليشمل كل ما يرتبط بالوجود الإنساني من كرامة وحرية ، للكبار وللصغار ، للأقوياء والضعفاء ، للحكام والمحكومين ، فمن أطعم الآخرين وأذلَّهم بما أطعمهم به فقد اعتدى على الكرامة الإنسانية ، ومن تكبَّر وتجبَّر من الأقوياء على الضعفاء فقد اعتدى على كرامة أولئك الضعفاء ، ومن حكم فاستبد فقد ظلم واعتدى ، ومن أدب طفله الصغير بالإذلال والقهر فقد أذلَّه واعتدى على حقه في الكرامة ، من استذلَّ مستضعفاً لأي سبب فقد أساء لإنسانيته .

والتربية الروحية إذا لم تَعْنَ بكرامة الإنسان وحريته فلا قيمة لها ، ولا تحقق الهدف المرجو منها ، فالإسلام الذي لا يُعلي مكانة الإنسان في الحياة لا يجسِّد قيم الإسلام المستمدة من القرآن ، وما جاء الجهاد إلا لكي يكرس الكرامة الإنسانة لكل الأفراد والشعوب ، وكل من فرّط في كرامته وحريته فهو آثم لأنه أساء للإنسانية كلها بتنازله عن كرامة الإنسان ، والشعوب التي ترضى بالذل والهوان وتقبل بالعبودية لغير الله هي شعوب مقصِّرة ومذنبة ومفرِّطة ، ولا تستحق الاحترام .

ولم يكن الشيخ يحب مظاهر الذل ، ويحض على تحرير النفوس من عبودية الطمع التي تدفع بصاحبه إلى قبول السلوكيات التي تنافي الكرامة وليس المراد من الزهد ألا تملك المال ، وإنما ألا يَذلَّك ذلك المال بطمعك فيه والتعلق بالدنيا ، وكل من تعلق بالدنيا أذلَّته بالطمع ، والطامع مستذل بسبب ما طمع فيه ، ومن تعلق بالحياة قَبِلَ بالذل والهوان.

وليس الصبر أن تصبر على الظالم ومن صبر على ظالم فقد أعانه على ظلمه وقصَّر في حق نفسه ، أما الصبر المحمود فهو أن تصبر على الابتلاء إذا جاءك ولا تملك دفعه من مرض وفقر ومحن ، وكل ما يثير الغم في النفس ، والإسلام يعلمك الصبر ويحثك عليه لكيلا تيأس من روح الله ، وهذا الصبر لا يعفيك من واجبك في حماية كرامتك وحقوقك الإنسانية ، فمن صبر على ظالم خوفاً على حياته فقد رضي بحياة الذل بسبب طمعه في الدنيا وتعلّقه بها.

والتربية الإسلامية تنمي الشعور بالكرامة وتعلم الإنسان حقوقه وتحثه على الدفاع عنها بالحكمة والمطالبة والإلحاح في طلبها ، ولا تشجع التربية الإسلامية على العنف فذلك أمر مكروه ما دامت طرق الحوار مفتوحة ، فما يحققه الإنسان من حقوقه بالحكمة هو أكثر مما يحققه بالسلوكيات الخاطئة والانفعالات الغضبية.

ولابد في التربية من رسوخ القيم الإنسانية وتأكيدها في أعماق النفس ، فالتربية التي تنمي هذه القيم ولا تغذيها سرعان ما تفقد الإنسان رشده في المواقف العصبية ، وينفلت الزمام تحت تأثير الغرائز الحيوانية المسيطرة ، وتفقد النفوس رشدها.

وكان الشيخ يدعو إلى هذه الفضائل الإنسانية في السلوك ، وإلى التزامها في المواقف وكان يقول في مذاكراته : «المسلم الحق هو الذي يقاتل في النهار دفاعاً عن حقوقه المشروعة ويداوي في الليل جروح أعدائه ويمدُّ لهم يد المساعدة أداء لحقهم الإنساني واعترافاً بما تفرضه قيم الفضيلة في التعامل الإنساني ، فواجبنا في القتال لا يلغي إنسانيتنا ، وإنسانيتنا لا تلغي حقنا في الدفاع عن حقوقنا المشروعة . . ليس هناك تداخل أو تناقض فحق الإنسان في

الحياة ثابت ، والواجب لا يلغي الرحمة في النفوس .

تلك قاعدة عظيمة تستحق أن تسجَّل بإعجاب . . تمثِّل ذلك الانسجام والتكامل بين ما هو واجب وما هو إنساني ، فالواجب يؤدي بإخلاص وأمانة ، والروابط الإنسانية باقية ومستمرة . . ولا يلغيها اختلاف في الدين أو تباين في الرأي .

وهذا هو المنطلق المستمد من السنة النبوية الشريفة التي تدعو إلى احترام حق الحياة للأبرياء في أيام الحروب ولو كانت حروباً مشروعة ، فالأبرياء من الشيوخ والأطفال والعجزة الذين لم يشاركوا بقتال لا يجوز الاعتداء على حياتهم ، احتراماً لقيم إنسانية سامية ، فشرعية الحرب لا تلغي شرعية حق الحياة لغير المقاتلين ، لكي تظل الإنسانية صافية نقية ، لا تلوثها دماء الحروب ، ولا تعبث القلوب القاسية بمعاني الرحمة بالخلق أجمعين ، والراحمون يرحمهم الرحمن في كل زمان ومكان ، لكي يستظل الخلق بقيم الدين العظيمة .

ثالثاً : إصلاح المفاهيم التربية والاجتماعية :

والإصلاح التربوي هو المنطلق الأهم لكل إصلاح اجتماعي ، ولابد من تصحيح المفاهيم التربوية وتجريدها من المخلفات السلبية التي تراكمت على مرآتها ، فجعلتها غير نقية .

والدين بقيمه الأخلاقية هو الأساس لهذا الإصلاح ، والمجتمع يبحث عن الأفضل والأكمل ، ولكن ما هو الأفضل والأكمل .

قد تتعدد الرؤى والاختيارات ولكن الدين من خلال التوجيه القرآني والتوجيه النبوي يحدد ذلك الأفضل ، الذي يمثل الخلق الرفيع .

ولابد من إصلاح الباطن لينعكس ذلك على الظاهر ، فالباطن يثمر السلوك الظاهري بإيجابياته وسلبياته ، فإذا وقع إصلاح ذلك لباطن انعكس أثره على السلوك .

والخُلُقْ هو الهيئة الظاهرة للنفس بما يصدر عنها من حسن وقبيح ، فإذا

استقامت تلك الهيئة النفسية صدر عنها الفعل الحسن ، وإذا انحرفت صدر عنها الفعل القبيح ، ولا تستقيم تلك الهيئة إلا بتزكية النفوس ومجاهدة الغرائز والتحكم في اندفاعاتها لكي تكون في قبضة ما أَمَرَت به الشريعة من التزام الفعل الحسن والبعد عن الفعل القبيح وأول ما يحتاج إليه الإنسان هو معرفة الميزان الذي تعرف به تلك الأفعال من أوصاف الحسن والقبح ، وهذا هو دور المربي والمرشد الذي يستمد معياره من الشرع الحكيم.

والاستقامة هي الهدف والغاية من التربية ، وقد أمر المسلم بالاستقامة والتزام الطريق الصحيح الذي لا أنحراف فيه ، قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ [هود: ١١٢] ، ولا تتحقق الاستقامة إلا بمجاهدة النفس ومقاومة أمراضها وأمزجتها الفاسدة المرتبطة بسيطرة الغرائز على النفوس ، فإذا تزكت النفوس أصبحت مهيأة للاستقامة ، والقرآن يدعو إلى الإيمان والعمل الصالح ، والمراد بالعمل الصالح هو خدمة الآخرين وعدم إيذائهم والاعتداء عليهم ، وكلمانمت إرادة الخير في المجتمع أثمر هذا الخير العمل الصالح.

والخلق الحسن يثمر العمل الصالح الذي يدعو إليه القرآن ، والتربية هي أداة تكوين ذلك الخلق وتكوين قابليات الخير ، ولابد في التربية من مجاهدة غرائز النفوس والسيطرة عليها ، والتحكم في حركتها ، ودفعها نحو الاعتدال الذي يمثل الفضيلة السلوكية.

كان الشيخ يحض في مجالسه على تزكية النفوس ومجاهدتها ، ويعتبر ذلك الشرط الضروري للإصلاح الاجتماعي ، فالتربية الإسلامية تهدف إلى تصحيح السلوك والارتقاء بمستوى الإنسان إلى أن يكون المثل الأعلى والأسمى للشخصية الإنسانية ، وأول ما يبتدىء به المربِّي هو أن يجاهد نفسه ويصحح عيوب نفسه بمحاسبة الذات عن كل ما يصدر عنها ، فمن لم يصحح عيوب نفسه فلا يمكن أن يتصدى لمهمة الإرشاد والتربية ، والعاجز عن إصلاح عيوبه لا يُقْبَل نُصْحُه ولا تصل كلمته التوجيهية إلى الآخر ، والصديق الصادق هو الذي يكون مرآة لصديقه لا يكذِّبه ، ويدلُّه على مواطن الخطأ في سلوكه ،

والنفس التي تكون أسيرة الشهوات والملذات لا يمكن أن يستقيم سلوكها ، لأن الشهوات تزين لها العمل السيء .

والطريق إلى الآخرة يبتدىء بتزكية النفس عن الآثام وتصحيح العادات السلوكية ، ولا تتحق التزكية إلا بالمجاهدة وإخماد الغرائز لكيلا تتغلب على الإنسان ، وإخماد الغريزة لا يعني إماتة الغرائز ، فالغريزة كمال ، فمن ماتت غرائزه فلا كمال له ، وهذا يدفعه إلى سلوكيات خاطئة .

وأهم خطوة في طريق التصحيح التربوي عدم التعلق بالدنيا والأعراض عنها وهذا لا يعني عدم الاشتغال بالدنيا ، وإنما يعني عدم الانشغال القلبي بها ، ولا يستقيم سلوك الإنسان إلا بالتزام الأخلاق الحسنة ، وأهمها كف الأذى عن الناس ، ومحاسبة النفس عن الأخطاء ومعرفة عيوب النفس وصدق اللسان والعفة والنزاهة والتواضع والابتعاد عن الصفات المذمومة .

والاتِّباع هو المنهج التربوي الأصح والمفيد ، والمراد بالاتِّباع هو التزام منهج النبي ﷺ الذي يمثل الكمال الإنسان في أروع صوره ، والاتِّباع لا يكون إلا بمحبة النبي ﷺ والتعلق به ، فمن أحب الله أحب رسوله ، ومن أحب رسول الله اتَّبعَه واقتدى به في كل حركاته وسكناته .

والمربي الكامل هو الذي يأخذ بيد الإنسان إلى الطريق الصحيح والتزام المنهج الإسلامي ، والمربي الذي لا يبدأ بنفسه وإصلاح عيوبه لا يصلح للتربية والإرشاد ، وكان سلوكه حجَّة عليه .

وغاية التربية تصحيح صورة الباطن لكي يصدر عنها السلوك الحسن ، فمن حسن باطنه حسن سلوكه الظاهري ، والطريق إلى الله هو الطريق الذي يعتمد على تصحيح صورة الباطن ، فلا يصدر عن النفس إلا العمل الصالح الذي ينفع الناس .

كانت صفة المربِّي واضحة في شخصية الشيخ ، كان يربي بأقواله ويربي بأفعاله ، ويدعو إلى التزام الأدب في العبادات والمعاملات ، ويحضُّ على الإحسان والتسامح في الحقوق والعفو عند المقدرة ، والتزام الصدق مع الله

ومع الناس والعفة والنزاهة وإصلاح عيوب النفس المذمومة وإصلاح الباطن من كل الصفات المنافية للكمال.

وكان يضيق بمن يتصدى لإصلاح المجتمع قبل أن يبدأ بإصلاح نفسه، فذلك إصلاح ترفضه النفوس ولا تستجيب له، ولابدَّ في التربية من القدوة الصالحة والصحبة الصالحة، والمربي الذي لا يلتزم بآداب الشريعة لا يمكن أن تنشرح القلوب لكلماته.

والمرأة هي منطلق الإصلاح التربوي، لأنها تمثِّل الأسرة وتنهض بأمورها، وهي التي تشرف على تربية الأولاد وتنمي فيهم العادات السلوكية الحسنة، وكان يندد بالمرأة التي تُهمل واجباتها التربوية استجابة لحياتها الاجتماعية، ولم يكن يحب عوائد الترف في التربية ويعتبرها ضارة بالأولاد ومفسدة للطبائع.

والرجل هو المسؤول عن الأسرة واستقامة أمورها، وعليه أن يتحمل مسؤوليته في توجيه شؤون الأسرة، وألا يستجيب لما يضر أسرته من عادات مخالفة للشريعة، والكمال في نظره يتمثل في التزام أحكام الشريعة ولا كمال غيره، فما أقرته الشريعة فهو الكمال الذي يجب الاقتداء به وما نهت عليه الشريعة يجب تجنبه والابتعاد عنه.

وأهم ما كان يحذر منه أن تخضع التربية للمعايير المادية المتعلقة بالبحث عن المستقبل وتوفير أسبابه على حساب المبادىء والقيم الإسلامية، فالمستقبل بيد الله وهو الذي يتولى أمر الصالحين من عباده، والعمل واجب مقدس، امتثالاً لأمر الله بالبحث عن الكسب والسعي، وهو أخذ بالأسباب الظاهرة.

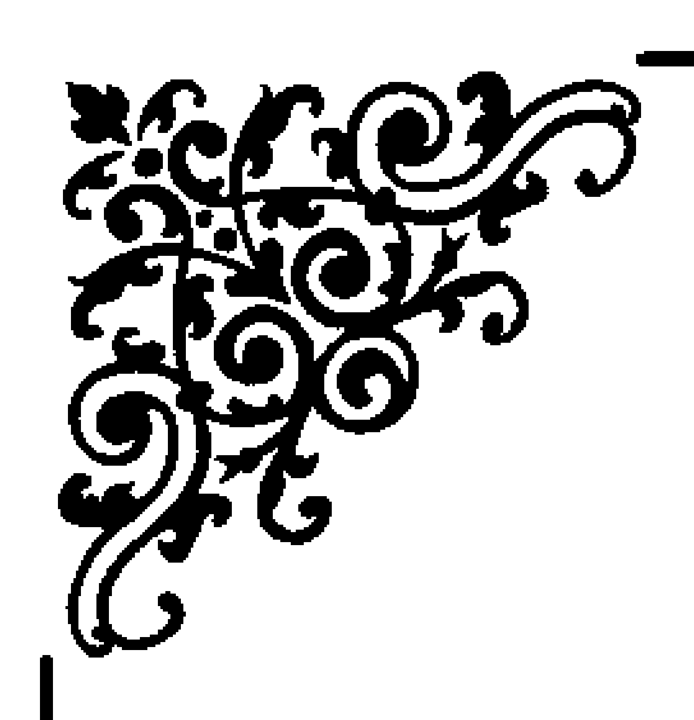
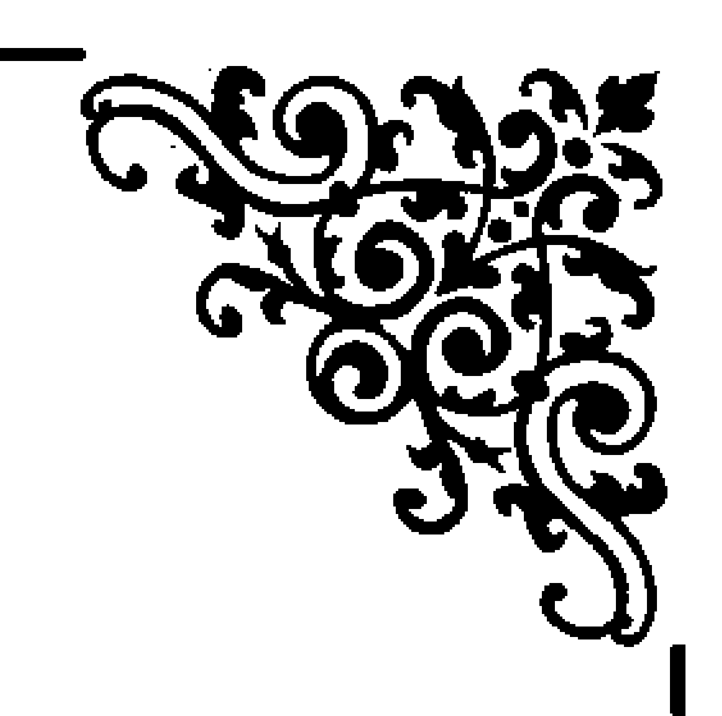
ولا ينبغي الاستجابة لمطالب الأولاد فيما يغضب الله أو يعارض التربية الإسلامية، ويعتبر الأبوان مسؤولين أمام الله عن كل تقصير بواجبهما، فهما موجهان ومتحكمان بشؤون الأسرة، وما يقدمانه من توجيه يجب أن يكون نافعاً، ولا يقدمان إلا النافع من الغذاء والتعليم والترفيه، وإذا انْفلَتَ الزمام فسرعان ما ينفلت أمر الأسرة كلها.

ولم يكن يحب عوائد الترف في التربية لأنها ضارة بتكوين الأطفال ، ويحذر الآباء من خطورة الترف على أولادهم ، وأول ما يتوجَّه إليه الطفل المترف أن يُسهم في شقاء أبويه فيما بعد ، وإذا رأى أباً متعلقاً بولده أو أمّاً متعلقة بولدها فسرعان ما يغضب ويحذرهما من خطورة ذلك التعلق المذموم ، ويعتبر ذلك من تعلق القلوب المذموم الذي يضر بصاحبه ، ويشعر صاحبه بالشقاء.

والتربية الصحيحة لا تعني القوة والصرامة واستعمال العنف ، وإنما تعني أن يمسك الأب بمقود التوجيه الهادىء من غير قسوة وعنف وكان من أرحم الناس بالأطفال ، كان يألفهم ويألفونه ، يداعبهم ويداعبونه ، يدخلون مجالسه فيفرح بهم ويمازحهم ويلبي لهم رغباتهم ، ويكره ضرب الأطفال أو استعمال القسوة معهم ، فالشدة لا تعني القسوة ، والجدية لا تعني مصادرة الطفولة والتضييق على الأطفال.

وكان يعجبه في الأطفال قوة الشخصية والهمة العالية ، يعجبه الطفل الذي يغضب لكرامته ، الطفل الذي يرفض الإهانة والمذلة ، ويضيق بالطفل الذي لا شخصية له ولا طموح ، ويشجعه ويعلمه أن يكون عزيز النفس رافع الرأس.

ولم يكن يتحدث كثيراً في منهجه التربوي عن الحلال والحرام والثواب والعقاب والجنة والنار ، وإنما كان يتحدث عن الكمال والنقصان فهذا كمال إنساني ، وهذا نقص لا يليق بالإنسان أن ينسب إليه ، والذنوب في نظره كالنقاط السوداء في الثوب الأبيض ، فالنظيف من الرجال الذي يحرص على نقاء ثوبه ونظافته يضيق بما يلحق ثوبه من أوساخ وقذارات ويسعى في إصلاحها لئلا يراه الناس في ثوب ملطَّخ بالسواد يخجله أمام الناس ، والمسلم كذلك شديد الحرص على نقاء ظاهره وباطنه ويخجل من عيوبه ، ومن يفخر بعيوب نفسه فلا خير فيه ، لأنه اعتاد على الأوساخ وأصبحت مألوفة له ، ومن اعتاد ذلك فلا يسرع في إصلاح نفسه ، لأنَّ اعتياد السلوكيات الخاطئة أمر خطير في مجال التربية ، والاعتياد يمنع من إصلاح العيوب..

الفصل الثالث
آراؤه الفكرية

المبحث الأول: خصائص منهجية.

أولاً: تأصيل المعرفة بالقرآن.

ثانياً: عدم الخوض في الغيبيات الجدلية.

ثالثاً: ربط المعرفة بالتزكية.

رابعاً: عدم الالتزام بالطقوس الصوفية.

المبحث الثاني: آراؤه في المفاهيم الاصطلاحية

رأيه في المعرفة

رأيه في النفس

رأيه في العقل

رأيه في القلب

رأيه في الدنيا

رأيه في الموت

رأيه في صفة المؤمنين

رأيه في التوبة

رأيه في الزهد

رأيه في المحبة




آراؤه الفكرية

كانت للشيخ رحمه الله آراء في النفس والعقل والقلب والتربية والمجاهدة وتزكية النفوس والإنسان والغريزة والأخلاق والعادات ، والأحوال والمقامات والشطحات والزهد والشكر ، وهي آراء تنسجم مع التصور الصوفي لهذه المعاني ، وأحياناً كان ينفرد بتعريف يراه أكثر دقة أو بتحقيق أكثر ملائمة أو بتفسير أكثر دلالة .

وهذه المعاني كانت ترد خلال مذاكرته في مجالسه ، وأحياناً كانت تستنتج من خلال منهجه التربوي ، ومن اليسير استنتاج معالم هذا المنهج التربوي من خلال النظرة الكلية والشمولية لآرائه ، ولا يمكن فهم هذه المنهجية إلا من خلال تتبع مجمل الآراء والتوجيهات التي يلاحظ فيها الانسجام بين أجزائها ، لتكوين معالم مدرسة تربوية لها خصوصياتها الروحية ولها أخلاقياتها المتميزة ، وهي ذات صفة ملتزمة بظاهر الشريعة ، وليس فيها ذلك الخوض غير المحمود في دلالات المصطلحات الصوفية وذلك الاستغراق المبالغ فيه في المعاني الغيبية .

والبارز في هذه المهجية البعد التربوي والتوجيهي الذي يستهدف تزكية النفس وطهاراتها عن طريق الالتزام بحفظ السمع والبصر ، لكي يظل القلب بعيداً عن الكدورات التي تعكّر صفاءه .

خصائص منهجية :

وأهم ما يميز هذه الآراء ما يلي :

أولاً: تأصيل المعرفة بالقرآن الكريم من غير تكلف لاستيلاد معاني غير ملائمة للدلالات اللفظية:

فالقرآن واضح الدلالة على معانيه المستفادة، والخوض في أعماق الدلالات بما يناقض ظاهر القرآن قد يدفع إلى الانحراف، والمعرفة المستمدة من القرآن هي المعرفة التي لا تقبل الانحراف ولا تؤدي إلى متاهات الضلال، ولابد في الدلالة من وضوح انتمائها للألفاظ، وإلّا تحوَّلت المعرفة إلى ألغاز لا يمكن التحكم فيها، وكان الشيخ يُكثر من الاستشهاد بالقرآن الكريم والسنة النبوية، ويجد ذلك الترابط المحكم بين ما جاء في القرآن والسنة، ولا يمكن أن يقع التباين بينهما وإذا ظهر شيء من الاختلاف فالاختلاف ناتج عن عدم الفهم ولقصوره في القدرة على ربط الفروع بالأصول الثابتة.

ويقف الشيخ طويلاً عند تفسيره قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤] ودعوة القرآن للاستجابة لله وللرسول هي دعوة إلى الحياة، ولا حدود لتفسير ما يراد بالحياة، فكل ما يحقق الحياة من كرامة وسمو ورقي فقد جاء القرآن به ومما يفسد الحياة إتِّباع الهوى فإنه يُضل عن سبيل الله، ولذلك لابد من تزكية النفوس لكيلا تفسدها الأهواء والشهوات، وقد أنكر القرآن على من اتَّخذ إلهه هواه في قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الجاثية: ٢٣] وقوله أيضاً: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠ ـ ٤١].

والاستشهاد بالقرآن هو تأصيل للمنهج لكي يكون قوي الدعائم مرتبطاً بأصوله القرآنية، وما ضلَّ من ضلْ في الأفكار والمناهج والمعارف، إلا بسبب الابتعاد عن المنهج القرآني في وضوح دلالاته ولا يحتاج القرآن لذلك الإيغال المذموم في المعاني الدفينة، فذلك هو بداية الطريق نحو الدروب غير المعبَّدة والتي تقود إلى الضلال.

من حق الفكر أن يطل على المعارف المختلفة وأن يجول في ساحات

معرفية واسعة إلا أن من الضروري أن يكون واضح الصلة بأصوله القرآنية ، فلذلك يكفل له الالتزام ويمنعه من الانحراف .

ثانياً : عدم الخوض في القضايا الغيبية ذات الطبيعة الجدلية :

وهذا منهج سليم في اعتماده على ظاهر الشرع ، فالغيب لا يدرك بالوسائل الحسية لأنه غيب ، والغيب وسيلته الخبر الصادق ، وما ليس فيه الخبر فلا مجال للخوض فيه بوسائل الحس لعدم إمكان إحاطتها بالغيبيات ، فلا جدوى من الحديث في قضايا الروح والقرآن قد ربط ذلك بعلم الله ، فمن خاض في ذلك فقد خاض في بحر مظلم لا تدرك سواحله بالبصر ، وكان الشيخ لا يحب الخوض في أمور الغيب وأمر المكاشفات والكرامات ، ويضيق بذلك ، لأنها أمور ذوقية ، والذوق فيها حجة لصاحبه وليس للآخرين ، فما يدركه أحد بذوقه لا يعني أنه الحق ، وهو أمر متوهَّم تتحكم فيه الأمزجة والاستعدادات والقدرات الذاتية ، وغاية الدين الطهارة والتطهير بهدف الارتقاء والرقي ، وما جعل الدين لغير ذلك من الأهداف الموهمة التي يتعلق بها أهل الجهل .

قال تعالى : ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ [المائدة : ٦] .

ولا فائدة من الخوض في الأمور الجدلية من الغيبيات غير المدركة بالحواس ، والتعلق بتلك الغيبيات دليل على الجهل بحقيقة الدين ، ولابد من إصلاح النفس بالعلم ، لأنَّ العلم نور ، ولا إصلاح مع تكريس الإيمان بما لا يفيد من أنواع المعتقدات التي نهي القرآن عن الاهتمام بها قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات : ١٥] .

ثالثاً : ربط المعرفة بتزكية النفوس :

والمراد بالمعرفة إدراك الشيء في ذاته على ما هو عليه ، وتختلف عن العلم في أن العلم يقتصر على الأشياء التي تدرك بذاتها ، أمَّا المعرفة فتطلق

على الأشياء التي تدركَ بآثارها ولهذا تحتاج المعرفة إلى التدبُّر والتفكُّر ومركز المعرفة هي نفس الإنسان ، وتدرَك هذه المعرفة بالفطرة ، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] والفطرة هي مصدر المعرفة لأنها مصدر العلم ، كالنخلة في النواة والماء في الأرض إلا أنَّ استخراج ذلك الماء يحتاج إلى جهد وتعب لاستخراجه ، وكذلك المعرفة تحتاج إلى تبصر ونظر لاستخراجها والتوصل إليها ، وبعض الناس يحصل على تلك المعرفة عن طريق الفطرة من غير جهد وتعلم كالأنبياء والأولياء الذين تفيض تلك المعرفة على نفوسهم من معدن النفس والفطرة ، ومن غير تأمل ونظر ، لأنهم أقروا على أنفسهم ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ أشهدتهم على ذلك ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] فإذا نسوا أن الله تعالى قد أخذ عليهم العهد وأشهدهم على أنفسهم وأقروا بذلك خاطبهم الله بما يدفعهم للتذكر ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ولهذا فإن الحقيقة كامنة في أعماق الذات الإنسانية ولا يمكن أن تكون خارج الذات فالإنسان لا يستمد معرفته من خارج ذاته ، ولابد في هذه الحالة من تنقية ذلك الباطن لكي تظهر صورة الحقيقة فيه كما تظهر الصورة في المرآة بعد طهارتها ونقاوة وجهها ، ولهذا فإن الدعوة إلى طهارة النفس هي الطريق إلى المعرفة الكامنة في أعماق الفطرة الإنسانية ، وهي كالماء في باطن الأرض وكالذهب في أعماق الصخور ، ولابد من الجهد المتواصل لكي تنطبع الحقيقة في القلوب المؤمنة ، انطلاقاً مما أودعه الله في النفوس من تلك المعرفة.

ومعرفة الله لا تدرك بالبصر كما تدرك الأشياء المحسوسة وإنما تدرك بالبصيرة النقية الطاهرة ، عن طريق ما يُشرق في القلوب من شعاعها المبشِّر بالطمأنينة والذي يؤدي إلى السكون.

ومن اليسير تصحيح المعتقدات الفاسدة الناتجة عن الغفلة ، إذا كان أصحابها من أصحاب الطبائع السليمة الذين يتقبّلون الحق ، فإذا جادل هؤلاء بالباطل دفاعاً عن باطلهم فهذا جدال مذموم يمنعهم من الانصياع للحق

والرضوخ له ، وهو نوع من أنواع الاستكبار المذموم الذي يلوِّث الفطرة ويبعدها عن حقيقتها الإنسانية ، والغاية من تزكية النفوس إزالة ماران عليها من أدران الجهل والاستكبار فجعلها بعيدة عن الحق مكذِّبة بما سبق أن أقرت به من الإيمان بالله .

كان الشيخ في مجالسه يتحدث عن المعرفة وهي الغاية المرجوة وهي الماء الكامن في أعماق الأرض ، والأرض هي الذات الإنسانية ، وكل العلوم والمعارف موطنها ذلك الكائن الذي اجتمع فيه الوجود كله وهو العالم الأكبر بكل ما فيه من عجائب المعرفة ، ولابد من استكشاف ذلك الكنز الدفين ، عن طريق تزكية النفوس بالمجاهدات النفسية للتغلب على الغرائز الفطرية الجامحة التي تسيطر على الإنسان فتدفعه بعيداً عن كماله الفطري إلى منزلقات خطيرة .

وتتكامل مهمة الأنبياء مع مهمة العقول البشرية في الدعوة إلى الحق ، فالأنبياء يدعون إلى الحق ويبيِّنون طريق الهداية بالنصح والإرشاد والتعليم ، والعقول البشرية تميِّز بين الحق والباطل وتعرِّف الإنسان بالمسالك المضيئة ، لئلا يضل طريقه ، فهم دعاة الباطن ييسرون مهمة الأنبياء بتعبيد طرق الهداية ، ولا تستقيم دعوة الأنبياء إلا بقيام العقول بدورها في الإقناع الداخلي وهو الحوار الداخلي الضروري الذي يُمهِّد لقبول الهداية .

والعقول إذا لم تكن مؤهلة للسماع ولم تُعَبِّد الطرق لدعاة الهداية فلا يمكن لمهمة الأنبياء أن تؤتي ثمرتها المرجوة ، ويقاوم الجهلة هذه الدعوة بالجدل والاستكبار ، ويطلبون من الأنبياء أن يأتوا لهم بالمعجزات المتلاحقة التي تقنعهم مما يدل على أنَّ الجهل قد سيطر على عقولهم ودفعهم إلى مستنقعات الضلال .

كان الشيخ يؤكد على أهمية تزكية النفوس لقبول كلمة الحق وكلمة الحق لا تحتاج إلى جهد لقبولها لأنَّ إشراقة الحق تنير القلوب إلا أن الظلمة التي تسيطر على النفوس بتأثير السلوكيات العزيزية تمنع النور من أن يتسرب إلى القلوب ، فلا تضيء أنواره ، ولابد من المجاهدة أولاً لتزكية النفوس ، فإذا

زكت النفوس أصبحت مستعدة لقبول الحق بسرعة انطلاقاً من سلامة الفطرة التي أقرَّت عند الخلق بالربوبية.

رابعاً: عدم الالتزام بالطقوس الصوفية:

كان الشيخ رحمه الله يتحدث في مجالسه عن كثير من القضايا التي اشتهرت الصوفية بها، وهناك قضايا أخرى لم يكن يتحدث عنها، وأهم ما كان يتحدث به هو الأدب والصحبة وأخلاق الصوفية وتزكية النفوس والمعرفة وأحوال القلب والواردات التي ترد عليه والشريعة والحقيقة، والتحقق بصفة العبدية لله تعالى ومقامات الزهد والتوكل ومحاسبة النفس ومراقبة الله والإيمان والإحسان وثمرات العبادة وآداب المريد ويقظة القلوب.

وهناك قضايا أخرى لم يكن يتحدث عنها، وإذا سئل عنها أجاب بما يفيد عدم انصراف القلب إليها، لئلا ينشغل القلب بالقشور عن اللب المقصود من التربية.

ولعلَّ اهتمامه بالقرآن هو الذي جعله أكثر التزاماً بالمنهج القرآني في مسلكه التربوي والروحي، وما لا يجد سنداً له في القرآن كان يبتعد عنه ويقلل من أهميته.

ومما كان يدعو إليه الحب في الله والبغض في الله، فمن أَحَبَّ لله لابد إلا أن يُبْغِضَ في الله والسبب في ذلك أنَّ الحب ارتبط بسبب وهو الله، فمن أحب لذلك السبب أبغض لنفس السبب، ويمكن للإنسان أن يحب ويبغض في نفس الوقت، يحب لصفة في المحبوب ويبغض لصفة أخرى فيه، ولا يتعارض الحب والبغض، لأنَّ كلاً منهما لا ينصبُّ على أمر واحد فيحبه لشجاعته ويكرهه لمعصيته، ويظهر الحب في سلوكيات الإقبال ويظهر البغض في سلوكيات الإعراض فأنت تُقبل عليه بالحب، تعبيراً عن حبك لله، وتُعرض عنه بالوسائل المعبرة عن الإعراض لما فيه من صفات المعصية، إلا إذا شعرت أنه مقبل على التوبة والإقلاع عن الفعل، فتأخذ بيده لكي تساعده على التوبة.

ولم يكن يشجع مجالس السماع التي اشتهرت بها مجالس الصوفية، لم

ينكرها عليهم وفي الوقت ذاته لم يشجعها في مجالسه ، وكانت مجالسه خالية من ذلك ، ويعتبرها من الغفلة التي لا تليق ، ولا يحبِّذ ما تثيره في النفس من مواجيد ، فإن ارتبطت بمنهي عنه شرعاً فلا يقرها وينكرها ، ويحض على اجتنابها ، وإذا وجد من يحب مجالس السماع من أصحابه كان يبعده ، ولعلَّ سبب نفوره من ذلك أنَّ النفوس تركَن لمجالس السماع وتأنس بها لأنها من اللهو الذي ينمي في القلب التعلق بالشهوات ، وكان معظم العلماء يكره ذلك ، لما تعبِّر عنه هذه المجالس من غفلة ولما تقود إليه هذه العوائد من انزلاقات ، والوجد المتولَد من السماع يحرك مافي القلوب ، ولا يُوجد شيئاً جديداً ، فما في القلب من خير أو شر يتحرك بالسماع ، فإن كانت المحبة لشيء دنيوي تحركت كوامن هذه المحبة بالسماع ، والصادقون الذين تعلقت قلوبهم بالله لا يحتاجون إلى ذلك السماع إذا كانوا في لحظة اليقظة ، وإذا كانوا في لحظة الغفلة فالسماع لا يوقظ الغافلين ولا خير في قلب يحتاج لمن يوقظه بالألحان والمواجيد.

كان الشيخ يجد في التربية الصوفية سمواً في الهمة وصدقاً في اللهجة ، ولا يرى فيها ذلك الانفعال المتكلِّف بسبب وجد من أحد أصحابه وكان يضيق بذلك ، إلا إذا كان صادقاً فيه غير متكلِّف ، ولعل سبب ذلك تعلق الشيخ بالكمال وتعهد ذلك الكمال في تربيته لأصحابه في مجالسه ومذاكراته وتوجيهاته ، وكانت مجالسه خالية من هذه الظواهر ، تمثلاً بمنهج الشرع في كراهية ذلك ، لئلا تصبح التربية الصوفية مجرد طقوس محفوظة ومجالس سماع تتحكم فيها الأهواء وتسيطر عليها الشهوات.

ولم يدعُ الشيخ إخوانه إلى التزام العزلة عن الناس والأخذ بما اعتادت الطرق أن تأخذ به من الدعوة إلى الخلوة ، فذلك أمر يعود تقديره إلى طبائع السالكين ، وليس المهم العزلة عن الناس ، وإنما المهم ألا يشغل السالك قلبه بقضايا الناس ، فالعزلة وسيلة لغاية ، والغاية هي الثمرة المرجوة ، وهي الإعراض عما يشغل القلوب ويكدِّر صفاءها ، والانصراف إلى الله تعالى بكامل الهمة.

والعزلة قد تكون مطلوبة لبعض المساكين ممن لا يقدرون على التحكم في أنفسهم ، فيلجؤون إلى العزلة لفترة من الزمن للتخلص من علائقهم الدنيوية ، وهي كالحِمْية بالنسبة للمرضى ، وليست هي العلاج ، فلابد من الاختلاط بالناس والسعي في الأرض بالعلم أو الكسب ، ولا مجال للقول بالتزام التوكل على الله فالتوكل مرتبة قلبية وهو حال يعتري السالك في لحظة ما ، يدرك معها معنى التوحيد الخالص لله ، ويشعر في حاله هذا ألا فاعل في الوجود إلا الله وألا رازق إلا الله وألاّ محرِّك لهذا الوجود إلا الله ، وإنَّ الله هو المتفرِّد بالخلق والرزق والعطاء والمنع والقهر والملك ، وهذا حال يعتري السالك ، وليس مجرد اعتقاد فالاعتقاد موجود لدى السالكين كلهم ، أما الحال فهو أخصّ من الاعتقاد وهو شعور داخلي يأتي كالبارقة التي تحل بالقلب وتسكن فيها ، وتترك أثرها في كيان السالك ، فيرى أن الله تعالى هو الرزاق والفعال لما يريد ، ومن ادعى هذه الحال ولم يشعر بها فلا يحسنُ به أن يدَّعي التوكل وأن يتوقف عن السعي والكسب ، فالأمور مرهونة بأسبابها الظاهرة ، فمن ادَّعاها وهو غير صادق فيها كسلاً عن السعي وادعاءً كاذباً فهذا ليس من السلوك الحميد.

والعزلة ليست محمودة في جميع المواقف ، ومخالطة الناس مع مراعاة آداب المخالطة والصحبة والخلوة هو المنهج الأقوم والأقوى ، وهو المنهج الشرعي الذي رجَّحه كثير من علماء السلف ، وكيف يستقيم أدب المحافظة وأدب الصداقة والأخوّة مع العزلة ولابد من التخلق بحسن الخلق ، ولا يبرز حسن الخلق إلا بالمخالطة ولا تبرز الفضائل السلوكية إلا بالتواصل الإنساني ، فالفضيلة ليست إعداماً للإنسان وإفناءاً لغرائزه الفطرية ، وإنما هي تحكم في الغرائز وتوجيه لها لكي تكون أكثر سمواً وعلواً.

وعندما نريد الحديث عن آراء الشيخ رحمه الله يجدر بنا أن نُسلِّط الضوء على بعض مفاهيمه وسلوكياته ، ومن الصعب استخلاص مواقف محددة ثابتة ، ذلك أمر عسير فالشيخ في موطن التربية والإرشاد قد تصادفه حالات تستدعي مواقف مختلفة ، ولابد من مراعاة طبيعة السالك وما يتطلبه من إرشاد يلائم شخصيته ، وهو كالطبيب في تشخيصه للأمراض لا يصف دواءً واحداً

لكل المرضى ، ولو كانوا يشتكون من أعراض مرضية واحدة ، فالمعالجة ترتبط بطبيعة المرض وحالة المريض ومدى استعداداته البدنية والنفسية فقد يصف دواء لمريض ثم يصف دواءً أخر لمريض يشكو من نفس الأعراض ، وذلك لمراعاة حالة المريض ، لأن الغاية هي الثمرة وهو المطلوب من مهمة الموجه والمرشد.

بالنسبة للسالك يرى كل سالك جوانب في شخصية المرشد لا يراه الآخر ، لا للتناقض في مواقف الشيخ ولا لاضطراب في توجيهاته ، وإنما لاختلاف في طبائع السالكين ، فهناك الصادق وغير الصادق ، وهناك من تغلب عليه شهواته وغرائزه ، وهناك من يسيطر عليه عقله وتأملاته ، وهناك من يعتقد ومن لا يعتقد ، وهناك من يتراءى بما ليس فيه طعماً في حسن السمعة ورفعة المكانة.

والمرشد المؤهَّل للإرشاد يدرك جيداً طبيعة كل سالك ، ويوجهه إلى ما يفيده وما يلائمه ، ومن الطبيعي أن تتعدد مسالك التربية وتختلف أساليبها ، في إطار نسق متكامل ، يحدد الثوابت ويضع ملامحها ، ويتحكم في التوجيهات بما يكفل سلامتها.

وما يستفيده السالك من شيخه إنما يستفيده بفضل أدبه وصدقه مع الشيخ ، وألا يلتفت قلبه إلى غير شيخه ، فإن التفت قلبه إلى الغير توقفت الصلة وانقطع التواصل ، ولا يكون الالتفات مع صدق المحبة فالمحبة هي سر التواصل وهي أداة التعارف وتولِّد الأحوال التي يرتقي بها السالك.

أراؤه في بعض المفاهيم الصوفية :

أولاً : رأيه في المعرفة :

المعرفة هي الغاية المرجوة في التربية الصوفية ، وكثيراً ما تستعمل لفظة المعرفة في المصطلحات الصوفية ، ويوصف المرشد بالعارف ، والمراد بالمعرفة هي معرفة الله ، والمعرفة بالله هي صفة من عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته.

وعرَّف الإمام القُشيري المعرفة بقوله :

«هي صفة من عرَفَ الحق سبحانه بأسمائه وصفاته ، ثم صَدَقَ الله في معاملاته ثم تنقَّى عن أخلاقه الرديئة وآفاته ، ثم طال بالباب وقوفه ، ودام بالقلب اعتكافه ، فحظي من الله بجميل إقباله ، وصدق الله تعالى في جميع أحواله وانقطع عن هواجس نفسه ، ولم يصغ بقلبه إلى خاطر يدعوه إلى غيره ، فإذا صار من الخلق أجنبياً ومن آفات نفسه بريأ ، ومن المساكنات والملاحظات تقياً ، ودام في السر مع الله مناجاته ، وحق في كل لحظة إليه رجوعه وصار محدَّثاً من قبل الحق سبحانه بتعريف أسراره ، فيما يجريه من تصاريف أقداره ، يسمى عند ذلك عارفاً وتسمى حالته معرفة» .

وتختلف المعرفة عن العلم ، وأحياناً تأتي المعرفة ويراد بها العلم ، والعلم هو إدراك الشيء على حقيقته وعلى ما به ، والمراد به حصول صور المعلومات في الذهن كما هي في حقيقتها ، وتطلق لفظة العلم على المعلومات التي تدرك بذاتها من غير حاجة إلى تدبر فيها ، وتدرك على وجه اليقين من غير حاجة إلى تفكير فيها ، ولذلك يوصف الله تعالى بالعلم لأنه يعلم الأشياء بحقيقتها وكما هي في تكوينها ، بخلاف المعرفة فلا تدل على العلم الحقيقي بالأشياء ، فلا يوصف الله تعالى بالمعرفة ، لأن المعرفة تحتاج إلى دراية وإلى تفكر وإلى تدبر ، فالعلم يقابله الجهل أما المعرفة فهي العلم الذي يتولد في الذهن من خلال الدراية القاصرة بالأشياء ، ولهذا تتعدد المعرفة ولا يتعدد العلم ، وتوصف المعرفة بالله بالعرفان ، فلا يقال فلان عالم بالله ، وإنما يقال فلان عارف بالله ، أما صفة العلم فهي من صفات الله تعالى .

والعقل هو أداة المعرفة ، وهو الأساس في اكتساب المعارف وتحتاج المعرفة العقلية إلى مقومات وهي الذكاء والفطنة والنظر والتدبر ، إلا أن العقل يمكن له إدراك المحسوسات ، ولا يمكن إدراك حقائق الأشياء الإيمانية مهما ارتقت قدراته ، فالذكاء العقلي لا يوصل إلى المعرفة اليقينية بالله ، إلا بقدر من الظن والارتياب ، ولهذا احتاجت هذه المعرفة إلى النور الإلهي الذي ينبثق في أعماق الذات ، والذي هو معرفة لا ريب فيها لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾ [الحجرات: ١٥] ، والنور الإلهي الذي هو مصدر المعرفة بالله ينبثق في القلب بعد طهارته وإزالة الحجب المانعة من انبثاق ذلك النور فيه ، ولهذا لابد للوصول للمعرفة من تزكية النفوس والارتقاء بها ، لكي تكون مرآة صادقة للحقائق المتعلقة بمعرفة الله تعالى ، والعقل مهما ارتقت مداركه فهو عاجز عن إدراك تلك المعرفة إلا بمقدار ، ولذلك كانت الحاجة إلى الأنبياء لإكمال دور العقل في المعرفة ، وتتمثل مهمة الأنبياء في التربية والتكوين والتهذيب لكي يكون الباطن مستعداً لفكرة الإيمان ، تترسخ في أعماق الذات الإنسانية.

كان الشيخ يركز على هذه المعرفة ، وفي دعوته إلى تزكية النفوس إنما كان يحرص على نقاء ذلك الباطن المتمثل في الفطرة الإنسانية التي خلقها الله صافية نظيفة نقية لا تقبل الزيغ والضلال فإذا زاغت وضلت فهذا بتأثير التربية والغفلة ، والغفلة هي أداة قسوة القلوب وانحرافها عن الفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها.

ومن آثار المعرفة حصول الهيبة مع الله تعالى ، فمن ازدادت معرفته بالله ازدادت هيبته منه ، إلى أن تظهر آثار هذه الهيبة في سلوكه ، فيكون أكثر أُنساً به ، وأكثر ذكْراً له ، يطيعه حباً فيه ، وشكراً له على نعمه ، وعندئذ يزداد قرباً من ربه ، ويرتفع من قلبه الخوف من البشر مهما كبر طغيانهم ، ويتحرر من التعلق بالدنيا ، ويشعر بالسعادة والسكون النفسي.

المحبة ثمرة المعرفة:

من عرف الله أحبه ، ومن أحبه زادت معرفته به ، فالحب هو الطريق إلى تعميق المعرفة ، وهو الباعث الذي يقود إلى معرفة الله ، وتبتدىء المحبة بذلك الميل الذي لا يدرك العبد سببه ، ولا تأتي المحبة بالتكلف ، وإنما هي عطاء إلهي وهبي يشعر العبد به ، فيندفع بغير إرادة منه نحو ذلك المحبوب الذي ملك عليه قلبه ويتحول ذلك الميل الداخلي إلى حب ، ويجسد ذلك الحب الإيثار ، وهو أن يؤثر المحب محبوبه بكل عواطفه وتفكيره ، فينساق وراءه باحثاً عنه ، باذلاً في سبيل ذلك المال والنفس والحياة ، ولا يجد سعادته إلا

في ذلك الإيثار ، إرضاءً لصوت خفي يهمس في كيانه يناديه في كل لحظة ، ويستجيب بغير تردد لذلك النداء.

ما أروع ذلك الشعور العميق في أعماق الذات الإنسانية . . ما أروع أن يجد الإنسان ذاته وسعادته واستقراره ، إنه ذلك النور الذي يشرق في أعمال النفس فيجد الإنسان دفء السعادة وسكون الحياة . . . إنه الأفق الجميل الذي يشرق في أعماق القلب.

العلاقة بين المحبة والمعرفة:

كان الشيخ يشرح العلاقة بين المحبة والمعرفة ، هل المحبة تثمر المعرفة ، أو أن المعرفة تثمر المحبة ، وهي معادلة صعبة ، لعل الأمر يختلف بحسب السالكين ، أهل العناية وأهل المجاهدة ، أليس الحب هو عناية ورعاية . . إذا وقعت المحبة بدأ الالتفات . . . والالتفات هو بداية المعرفة . . . إذا أحبَّ بدأ الإيثار ، ثم كانت المعرفة.

ومن أحب غير الله فذلك دليل على قلة معرفته بالله ، فمن أحب الله أحب كل محبوب لله ، وأحب كل من يوصله إلى ذلك المحبوب ، أحب رسول الله لأنه محبوب لله ، وأحب كل من أحب الله من عباده ، وأبغض كل من عصى الله ، وهذا هو مفهوم الحب في الله والبغض في الله.

ومحبة الله هي تعبير عن محبة العبد لذاته ، فالإنسان يحب ذاته ، ويحب كل من يحسن لتلك الذات ، والله هو الخالق المتفضل بالإيجاد ولا وجود للذات إلا بالله ، فمن أحب ذاته أحب مُوجِدَه ، وخالقه والمحسن إليه ، ولا قوام له في الوجود إلا بالله ، والله هو المنعم ولا حدود لِنِعَم الله ، ونِعَم الله لا تحصى ، والعبد محب لمن أحسن إليه وأكرمه ، فمن عرف ذلك أحب الله ، لإحسانه إليه.

ومعرفة الله هي أسمى غاية وأعظم هدف ، ولا حدود لما يشعر به العبد من لذة المعرفة ، وكلما شرفت المعرفة ازدادت لذاتها ، وكلما تعلقت همم العبد بالمعالي زادت لذته بالحصول على تلك المعالي ومعرفة الله هي أسمى المعالي وأرقاها ، فإذا عرف العبد ربه شعر بلذة لا تدانيها لذة ، لشرف تلك المعرفة.

كان الشيخ يتحدث عن المعرفة ، وأول طريق المعرفة أن يعرف العبد ذاته ، ويتحقق بعبديته لله تعالى وأن يدرك أنه لم يخلق عبثاً وإنما خلقه الله للاختبار في الأمر والنهي والطاعة والمعصية وأن يدرك منذ البداية عيوب نفسه وأن يسعى في إصلاحها بالتزكية والمحاسبة ، وفي الطاعة والامتثال لما أمر به ، ولابد من التقوى لبلوغ المعرفة ، والتقوى ثمرة الورع.

والمعرفة الذوقية هي أساس اليقين ، ولا يقين عن طريق المعرفة الاستدلالية ، لأن العقول متفاوتة في قدراتها ومداركها ، فقد يقود العقل إلى الهداية أو إلى الضلال ، والدليل على الله هو الله ذاته ، ويستدل به على الأشياء ، ولا يستدل بالأشياء عليه ، ولهذا فإن المعرفة موطنها الفطرة النقية غير الملوثة بالمؤثرات الخارجية ، وشتان بين من يستدل به ومن يستدل عليه ، والعارفون لا يحتاجون إلى الاستدلال ، والمحجوبون يطلبون الدليل ، لأنَّ النور الإلهي لم يشرق في قلوبهم ، ولو أشرق النور في قلوبهم لاستدلوا به على آثاره ، وعرفوا به أسرار خلقه ، ولهذا لابد من محبة الله ، فالمحبة تكشف للسالك كمال المحبوب وهو الله ، وتعرفه بذلك الكمال.

والمعرفة الذوقية موطنها القلب ، ومن ذاق عرَف ، ومن عَرِفَ لَزِمْ ، ولا شيء يضعف هذه المعرفة ، لأنها أشرقت في القلب ، وذاق العبد حلاوتها ، وأخذ يشتاق إليها ويصورها في مخيلته وتتردد ملامحها في نفسه ، وكلما زاد حبه لها زاد شوقه ، إلى أن تملك عليه كل قلبه ، فلا يفكر إلا فيها.

وجاءت آيات القرآن الكريم مؤكدة لمحبة الله للخلق ، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

كان الشيخ يرى أن محبة الله للعبد تتمثل في إشعاره بالأنس بالله والشعور بالوحشة من الخلق ، وهذا لا يتحقق إلا بتسليط الابتلاء عليه ، لكي ينصرف إلى ربه ، فلا يجد غيره ، فإذا التفت إلى ربه بقلبه وكليته وأعرض عما سواه تولى الله أمره بالتدبر والتسيير ، فجعل باطنه مطمئناً وبذلك يكون الله أنيسه في وحدته ، فتكون عبادته مناجاة لله تعالى ، خلوته مؤنسة ، يشعر فيها بأن الله

تعالى هو وليه الذي يدبر شؤونه بحكمته .

ومن أهم ثمرات الابتلاء في نظر الشيخ التحقق بصفة العبدية لله ، فلا يبق في القلب إلا الله ، لأن الابتلاء هو تسليط الآخر على العبد ، فلا يجد أمامه إلا اللجوء إلى الله ، لدفع ذلك الابتلاء .

وهذه مراتب ذوقية من الصعب على أصحاب العقول قبولها ، لأنهم مرتبطون بالأسباب والوسائط وهذا عالم مختلف له قوانينه وموازينه ومفاهيمه ، ويجب أن يترك أمره لأهله .

رأيه في النفس :

حظي موضوع النفس باهتمام الشيخ رحمه الله ، وكانت لفظة النَفْس تتردد كثيراً في أحاديثه ومذاكراته ، وذلك لأن النفس هي موطن التزكية ، وهي المنطلق لأي إصلاح تربوي ، وكل الفضائل الإنسانية ترتبط بطهارة النفوس .

والمعرفة وهي الغاية من التربية الصوفية لا تتحقق إلا بعد رياضة النفوس وتهذيبها ، ولا يمكن إصلاح الباطن إلا بإصلاح الظاهر ، وهو التحكم في الغرائز والميول الفطرية والمكتسبة .

وليس بإمكان الإنسان أن يسوس غيره من الناس إلا بعد سياسة نفسه والتحكم فيها وإحكام قبضته على نزواتها واندفاعاتها ، والسيطرة على أهوائها وشهواتها ، والذين يحرصون على تهذيب غيرهم عليهم أن يبدؤوا بسياسة أنفسهم وتهذيب طباعهم ، فذلك هو الطريق الطبيعي والخطوة الأولى للإصلاح ، وكيف يستقيم أمر الإصلاح إذا لم يبدأ الإنسان بنفسه ، فالصادق يدعو الناس إلى الصدق بحاله ، والشجاع يدعو الناس للشجاعة بالاقتداء به ، وهكذا في كل الفضائل السلوكية .

والنفس لفظ مشترك يدل على معان كثيرة ، وهي ليست البدن فالبدن مدرَك بالبصر وهو جسم حي يمكن رؤيته ويمكن لمسه ، أما النفس فشيء آخر يختلف عن البدن ، وليس جزءاً من ذلك البدن ، لا يرى بالبصر الحسي ، وإنما يدرك بالبصيرة ، يقبل الأشكال المتغايرة ، ويقبل التغيير بالمجاهدات وأنواع التربية

ويمكن أن توصف هذه النفس بالفضيلة أو بالرذيلة ، بخلاف الأبدان فلا يقبل التغيير إلا بزوال الصورة الأولى.

وتبحث النفس عن كمالها الفطري وتميل للنقص بحكم الغرائز ، وتستلذ الرذائل بحكم الاعتياد عليها ، وتطلق لفظة النفس على الذات الإنسانية وأحياناً يراد منها الذات التي تعتبر موطئاً للغرائز الفطرية ، الشهوانية والغضبية ، وهذا هو المعنى المذموم الذي يحتاج إلى تهذيب وطهارة وتزكية.

تزكية النفوس:

والنفس بعد تزكيتها يمكن أن تكون ممدوحة ومقربة إلى الله ومخاطبة ، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٢٨] ويمكن أن تكون أمَّارة بالسوء قبل تزكيتها ، ولهذا لابد فيها من التزكية لكي تنتقل من الأمَّارة بالسوء إلى النفس اللوّامة والمُلْهَمَة والمطمئنة ، والراضية والمرضية إلى أن تبلغ درجة الكمال.

كان الشيخ يحذِّر من النفس الأمَّارة بالسوء ، لأنها مصدر الرذائل والتي تقود صاحبها إلى الشهوات المحرَّمة ، فإذا لم تُلجَم بالمجاهدة ويُكْبَح جماحها فمن المؤكد أنَّ صاحبها سينزلق في مهاوي الشهوات ، والغفلة تشجع الإنسان على الاستجابة لداعي الشهوات والملذات الدنيوية التي تنافي الكمال.

ولا يمكن للنفس أن تأخذ بالفضائل إلا بأمرين:

أولهما:

أن ترى الجمال في الفضيلة وأن تترسخ هذه الرؤية عن طريق العقل ، فمن رأى في الصدق جمالاً وفي الكذب قبحاً فسرعان ما يتعلق بذلك الجمال ويترك ذلك القبح ، قناعة منه بجمالية ذلك الوصف وقبح عكسه ، وعندئذ ترتبط الفضائل بسلوكيات الكمال ولا تصبح مجرد فضائل متكلفة ، فالتكلف في الفضائل يضعفها ولا يجد اللذة فيها ، فإن رأى الجمال في الفضائل أحبها واشتقاق إليها وتعلق بها ، شوقاً إلى الكمال ، فالكمال محبوب بالفطرة ، والقبح مرفوض بالفطرة ، فالإنسان يكره القبيح لقبحه.

ثانيهما :

أن يُعَوِّدَ نفسه على حب الفضيلة لارتباطها بالجمال والكمال ، وفي الوقت ذاته أن يُعَوِّدَ نفسه على بغض الرذائل لارتباطها بالقبح ، فالاعتياد وهو حمل النفس على الشيء يولِّد في نفسه حب الفضائل ، فلا يجد تكلفاً في الأخذ بها والتخلق بمقتضاها.

والغاية من تزكية النفس التوصل إلى حسن الخُلق ، وقد وصف الله تعالى نبيَه محمداً ﷺ بأنه على خلق عظيم ، وحسن الخلق أن يلتزم الإنسان بالفضائل ، والدين هو حسن الخلق ، وما لا خلق له فلا دين له ، وجاءت الأحاديث الكثيرة بالدعوة إلى حسن الخلق وأفضل المؤمنين أحسنهم خلقاً ، وأحب الناس إلى رسول الله وأقربهم منه مجلساً يوم القيامة أحاسنهم أخلاقاً ، ويتمثل حسن الخلق في بسط الوجه وكف الأذى عن الناس وعدم المخاصة واجتناب المحارم.

والخلق هيئة في النفس راسخة تصدر الأفعال عنها بسهولة وتلقائية وعفوية من غير تكلف ولا روية ، فإن صدرت الأفعال الحسنة عن النفس فهذا حسن الخلق ، وإن صدرت الأفعال القبيحة عن النفس فهذا دليل على سوء الخلق ، فإن تكلفت النفس في صدور الفعل الحسن فلا يسمى خلقاً ، لوجود التكلف ، ومن شروط الخلق أن يكون راسخاً في النفس ، فمن تكلف فعل السخاء فليس سخياً ، ومن تكلف فعل الشجاعة ، فليس شجاعاً ، لانتفاء صفة الرسوخ في هذا الفعل ، ومن لم يستطع القيام بفعل الشجاعة أو السخاء لأسباب خارجة عن إرادته فلا تنتفي الصفة فيه ، لأنَّ الخلق مرتبط بهيئة النفس وليس مرتبطاً بالفعل بحد ذاته ، ولو فعل السخاء مع عدم رسوخ هذه الصفة فيه فليس سخياً ، فربما يفعل ذلك عن تكلف ورياء.

فالخلق هو ما تميل إليه النفس بطريقة فطرية وما هي قادرة عليه ، وليس ما تفعله ، فالفعل قد يرتبط بأسباب خارجية ، أما الميل فهو الذي يعبر عن رسوخ الصفة في النفس.

وهنا تبرز مهمة المربي والمرشد والمؤدب ، فهو الذي يقوم بمهمة التربية والتأديب ، لترسيخ الصفات الحسنة ، فإذا رأى صفة في النفس قبيحة كالبخل والجبن والوقاحة والتكبر والحقد والحسد والغرور والرياء والمكر والخداع والحمق فإن مهمته أن يقوم بالتأديب الذي يضعف الصفات القبيحة وينمي الصفات الجميلة ، وذلك عن طريق بيان الجمال في الصفات الحسنة والقبح في الصفات السيئة ، والنفس بطبيعة تكوينها تميل إلى الجمال والكمال بحسب الفطرة الأصلية وتنفر من القبح في الصفات الخلقية لابتعاد هذه الصفات عن الإعتدال الذي يمثل الفضائل ، فصحة النفوس تتمثل في اعتدال أمزجتها وتعلقها بالصفات الجميلة كالشخص الذي يحب الطعام الطيب النظيف ويكره الطعام المر التي تظهر عليه آثار القذارة.

مجاهدة النفس:

ومجاهة النفس هي مقاومة الغرائز الشهوانية والأهواء والعادات السيئة في السلوك والتي يدفع إليها الاعتياد عليها والاستمتاع بها ، إلى أن تصبح صفة راسخة في النفس ، وتكون هي الحجاب الذي يحجب النفوس عن النور الذي يشرق في النفوس الصافية ، والمجاهدة هي حمل النفس على فعل الصفات المحمودة ، ومقاومة الصفات المذمومة ، ولابد في المجاهدة من المشقة ، والمجاهدة مشتقة من الجهد ، ولابد من بذل الجهد لحمل النفس على ترك ما تستلذه من الشهوات ، فالشهوات مستلذة في الطبع ، وتحبها النفس وتميل إليها ، لأنها ممنوعة أولاً وكل ممنوع مرغوب فيه ، ولأن النفوس تميل بحكم الغريزة إلى الشهوات ثانياً ، وأحياناً تعتادها النفس بسبب قرناء السوء الذين يزينون للنفس تلك الملذات ويشجعونه عليها.

كان الشيخ رحمه الله واسع المعرفة بطرق المجاهدة ومسالكها وقد عاش هذه المجاهدة لمدة عشر سنوات ، قضاها في رياضات نفسية متواصلة ، كان يتحدث عن مجاهداته لنفسه في كل ما كانت نفسه تحبه وتشتاق إليه وتطلبه ، في الطعام واللباس وفي التحكم في غرائزه وفي حمل نفسه على ترك الصفات المذمومة والتحلي بالصفات المحمودة ، وأهمها الزهد والتواضع والإيثار

والسخاء والاحتمال والحلم وكظم الغيظ والقناعة والورع والسماحة والالتزام بالآداب الإسلامية في العبادات والمعاملات والعادات اليومية في الطعام والشراب وأدب الحديث وأدب المجالس وأدب الصداقة .

وقد اشتهر الشيخ بخصاله الرفيعة وأدبه المتميز واحترامه لأصدقائه وأصحابه ، ومساعدته للضعفاء والفقراء ، وسعة حلمه ونزاهته وصدقه وإخلاصه ، وترفعه عن الصغائر وعلو همته وحسن ظنه بالناس وإعراضه عن الدنيا وشموخ شخصيته ودفاعه عن الحق ، كان يحب في الله ويبغض في الله ، ولا يغضب إلا إذا انتهكت حقوق الله ، ولا حدود لرحمته بالمستضعفين .

عندما يتحدث عن المجاهدات والرياضات النفسية فكأنه يصف تجربته الذاتية ، كان يعرف دخائل النفس وأسرارها ، والخواطر الدقيقة والمزالق التي تعتري طريق السالكين ، وإذا وجد مرشداً تصدى للإرشاد من غير معرفة بخفايا المجاهدة ومسالكها نبّه إلى خطورة ذلك ، فالمجاهدة لابد لها من معرفة بكل المسالك والمزالق الصعبة .

وأهم ما يجب أن يأخذ به المرشد في نظر الشيخ عند تربيته لإخوانه أن يكون قدوة لهم فيما يدعوهم إليه ، فلا يدعوهم إلى السخاء وهو بخيل ، ولا يدعوهم إلى الشجاعة وهو جبان ، ولا يحضُّهم على الصدق والنزاهة والعفة وهو غير ذلك ، وأن يعلمهم بحاله لا بمقاله ، وبصدقه فيما يقول ، وأن يعف عن أموالهم ، وأن يكون قريباً منهم ، لا يتعالى عليهم بترفع ومكانة ، وأن يساوي بينهم في المنزلة ، وأن يُنْزِلَ الناس منازلهم كما هم يعتقدون في أنفسهم ، لا كما يراه الآخرون ، وأن يراعي ما هم فيه من ضعف وتقصير وكسل فلا يكلفهم ما لا يطيقون ، وأن يتعرف على أمراضهم ومواطن علتهم فلا يلزمهم برياضة واحدة فهم مختلفون في أشخاصهم وقدراتهم وأمزجتهم واستعدادتهم وفي مدى صدقهم ، وأن يكلفهم بما هو واجب عليهم من معرفة مبادىء الحلال والحرام ، وأن يساعدهم على التغلب على رعونات النفس التي تحجبهم عن الحق .

ويتميز منهج الشيخ في تزكية النفوس بعدم التزام منهج الصوفية في إلزام

إخوانه بسلوكيات المجاهدة ، وأهمها إخماد الغرائز الفطرية بما يعتادها من سلوكيات القهر لتلك الغرائز ، فلم يطلب ذلك أمراً ، كان منهج البيان والتوضيح والحض على تزكية النفس وبيان سبل المجاهدة ، ثم يترك لإخوانه حرية الاختيار من غير إلزام أو إجبار ، على مجاهدة أو أوراد أو سلوكيات.

وإذا سئل أجاب ، وإذا استنصح نصح.

لم أجده يوماً يطلب من أحد إخوانه أن يذل نفسه للتغلب على تطلع النفس للرياسة والجاه ، أو يطلب من صاحب مال أن يوزع أمواله أو يطلب من طالب علم أن ينقطع عن الدراسة أو يطلب من تاجر أن يتوقف عن تجارته ، ولم يكن هذا منهجه قط ، كان يكتفي منهم ألّا يتعلق قلبهم بما اتجهت إليه نفوسهم ، ويقول لهم إن أحسنتم النية وأتقنتم عملكم كان عملكم في سبيل الله وأنتم مأجورون ، لأنكم قمتم بما أمركم الله به من العمل والدراسة والكسب ، ولا أجر لمن قعد عن العمل ولو تفرغ للعبادة.

المجاهدة طريق التخلق:

كان الشيخ يدعو إلى التخلق ، والتخلق يحتاج إلى مجاهدة النفس ومكابدتها وحمل النفس على ما تستثقله من الأخلاق المحمودة ، فالنفس التي اعتادت الأخلاق المذمومة والسيئة يصعب عليها أن تخرج عما اعتادت عليه ، إلا بقدر من التكلف والاستثقال ، وهذه هي مجاهدة النفس وهذا هو المراد بالتزكية ، فتزكية النفوس تحتاج إلى مجاهدة ومكابدة.

وطريق المجاهدة هو التشبه بأهل الأخلاق الحميدة وتقليدهم ومحاكاتهم فالعلم بالتعلم والخلق بالتخلق والحلم بالتحلّم ، والسخاء بالتسخي وهو حمل الناس على الفعل الحسن ، ولابد لتحقيق ذلك من الصحبة الحسنة والقدوة الصادقة ومجالس العلم والابتعاد عن الغفلة واتِّقاء مواطن الريب ومقاومة الأهواء والشهوات ، والأخلاق السيئة كالأمراض والعلل ، ولابد من التغلب عليها بالعلاج المضاد لها ، فالطمع صفة مستقبحة وهي هيئة راسخة في النفس تنمو بقوة الشهوات ، وهي دليل على التعلق بالشيء المطموح ، فإن كان مالاً يعالج بالزهد في المال والابتعاد عنه وتحرير النفس من التعلق به ، وكما تعالج

البرودة بالحرارة وتعالج الحرارة بالبرودة فإن الطمع يعالج بالتخفيف من التعلق بالشيء المطموح ، إلى أن تتحرر النفس من ذلك التعلق ، وهذا يحتاج إلى تكلف الخُلُق المطلوب بحمل النفس على ضده.

ويشترط في التخلق المحمود أن يكون الدافع إليه هو إصلاح النفس وتهذيبها للانتقال من السيء إلى الحسن ، ومن المذموم إلى المحمود من الصفات ، أما إذا كان الدافع إليه هو حب المراءاة والتشبه الظاهري بالصالحين وتكلف ذلك في المجالس العامة ، فهذا من الخلق المذموم الذي يضر صاحبه ، وسرعان ما ينكشف له سوء عمله وهو نوع من أنواع النفاق المذموم الدال على غفلة القلوب ، وسرعان ما ينفضح أمر التخلق المذموم عندما ينكشف أمره أمام الناس ، لأنَّ النفس لا تطاوع صاحبها فيما يريد إلا إذا استطاع أن يرتقي بأخلاقها ويروضها ، وهذه صفة المنافقين الذين يقولون ما لا يفعلون ، ويعلنون ما لا يسرون ، إرضاءً للعامة وتزلفاً لهم.

وتختلف قابليات الناس للتخلق بحسب استعداداتهم النفسية ، فمنهم من تكون له قابلية فطرية لقبول الخُلق الحسن ، فلا يحتاج إلى تكلف كبير ولا يستثقل ذلك ، بل يجد استعداداً في نفسه لقبول ذلك الخلق المحمود ، لوجود انسجام بينه وبين الكمال ، ومنهم من يحب الكمال المتمثل في الصدق والأمانة والنزاهة والعفة والترفع والشهامة والمروءة وحسن المعاشرة وحب الخير ، إلا أنه يحجب عن هذا الكمال بتأثير الشهوات عليه ، فلا يظهر الكمال فيه ، فإذا سمع نداء الحق استجاب له بسرعة وخشع قلبه لله وانتقل من ضفة الشر إلى ضفة الخير ، لوجود استعداد ذاتي في كيانه لقبول الحق.

وهذه استقامة فطرية بفضل الجود الإلهي الذي يمنُّ الله به على بعض خلقه ، فيجعل قلوبهم خاشعة لله متعلقة مُحِبَة للاستقامة ، والأنبياء أكرمهم الله بالاستقامة الفطرية ، وجعل قلوبهم صافية نقية مهيأة بحكم تكوينها لقبول الكمال من غير تكلف أو استثقال ، وبعض الخلق يحتاجون إلى المجاهدة والرياضة والتخلق بحمل النفس على الصفات المحمودة إلى أن تصبح الاستقامة خلقاً وطبعاً وسجية.

وهؤلاء يحسن حالهم بالمجاهدة وترتقي سلوكياتهم إلى الأفضل والأكمل والبعض الثالث لا يجد في نفسه قابلية للكمال ، وإذا ما تكلفوا التخلق بالخلق الحسن سرعان ما ارتدُّوا عنه ، بسبب سيطرة الشهوات عليهم ، إمَّا بسبب قوة شهواتهم وسيطرتها عليهم أو بسبب صفة النفاق التي تدفعهم للتخلق بما ليس فيهم من صفات الكمال ، فيتظاهرون بالقناعة وهم طامحون ، وبالسماحة وهم حاقدون ، وبالطاعة وهم عاصون وبالتقوى وهم لا يتورعون عن الآثام.

والمجاهدة ليست مطلوبة لذاتها ، فهي كالعلاج يراد به صحة الأبدان ، والمجاهدة طريق لصحة النفوس ، فالنفس التي تشعر بميولها المنحرفة واستعداداتها الضارة يجب أن تعالج بالمجاهدة ، والغاية منها إعادة التأهيل والتكوين لكي تكون السلوكيات أقرب للفضيلة ، والمجاهدة هي أداة الترقية وهو المنهج الذي يقود إلى الارتقاء السلوكي نحو الكمال.

المجاهدة والارتقاء:

كان الشيخ يربط بين المجاهدة والرقي في عالم الكمال ، فالمجاهدة هي أداة ذلك الارتقاء ووسيلته ، وغاية الارتقاء هو معرفة الله ، وهو الغاية المرجوة ، وأول خطوة في ذلك الطريق هو التوبة عن المعاصي والآثام ، وتبتدىء التوبة بمعرفة تُولِّد شعوراً بالندم ، وألماً داخلياً ، ويتولد الألم من الإحساس بارتكاب ما هو ناقص من السلوكيات ، وهذا الشعور يحتاج إلى يقظة ، فالغافل لا يشعر بذلك العالم ، بل يعتاد ذلك السلوك ويجد لذته فيه ، فإذا سمع كلمة الحق استجابت القلوب الصافية لذلك النداء وتأثرت به وسكن في أعماقها ، فيولد الشعور بالندم على كل ما هو ناقص لأنَّ الأصل في الفطرة الصفاء والنقاء والطهارة ، فإذا جاءت الظلمة طاردت النور وطوقته وحاصرته.

والندم الذي يولده العلم والحال الناتج عن العلم يورث التوبة ، وهي الثمرة المرجوة. . والتوبة هي بداية الرقي والارتقاء ، فالنفس عندما تتخفف من ذنوبها تتحرر من قيودها ، فتشعر بالرقي الداخلي ، لأنها تقترب من الكمال ، والكمال هو مصدر السعادة الدائمة ، وأعظم لذَّات النفس ارتقاؤها نحو الكمال ، فإذا أحست النفس بكمالها كانت مهيئة لقبول الأوامر الإلهية

بالفعل والترك ، فهي طائعة لله ، مسارعة لكل ما يرضي الله ، وهذا الفريق من الناس هم الذين وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء : ٦٩] .

هذه النفس عندما تحس بكمالها وتقبل على الله طائعة ساجدة تقوم بمهمتين :

الأولى :

المسارعة إلى أداء العبادات المفروضة عليها من غير تكلف ولا جهد ، بل تجد سعادتها في ذلك ، ولا يسعها إلا أن تقوم بذلك ، وأداء العبادة هو تعبير ذاتي عفوي عن اعتراف الفطرة الإنسانية بالعبودية لله تعالى في الأزل في سؤال الله تعالى لها ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ﴾ .

الثانية :

التخلق بالخلق الحسن ، من غير تكلف ، لأنَّ الكمال ينافي الخُلق المذموم ، فلا تألفه النفس ولا تميل إليه ، ولو خُيِّرت لاختارت الاستقامة والنزاهة والإيثار والصدق والأمانة ، تلك صفات محمودة لذاتها ، والنفس الكاملة تحبها وتشتاقها وتجد لذتها فيها .

رأيه في العقل :

العقل لفظ مشترك يطلق على معاني عدة ، ويراد به النور الذي تدرك به الأشياء ، وهو مصدر العلم والمعرفة والإدراك والتمييز ، قال تعالى : ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام : ١٢٢] .

وهناك أحاديث كثيرة تحدثت عن العقل وأنَّ أول ما خلق الله العقل ، قال له : أقبل فأقبل ، ثم قال له : أدبر فأدبر ، وهذا الحديث ضعيف الإسناد ورواه بعضهم في الأحاديث الموضوعة ، وروى أنس قال : أثنى قوم على رجل عند النبي ﷺ حتى بالغوا ، فقال : كيف عقل الرجل ، فقالوا نخبرك عن اجتهاده في العبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله ، فقال : إن الحمق يعيب بصاحبه أكثر

من فجور الفاجر ، وإنما يرتفع العباد غداً في الدرجات الزلفى من ربهم على قدر عقولهم أخرجه الترمذي مختصراً.

وروت عائشة قالت: قلت يا رسول الله ، بم يتفاضل الناس في الدنيا قال: بالعقل ، قلت: وفي الآخرة ، قال: بالعقل ، قلت: أليس إنما يجزون بأعمالهم ، فقال ﷺ: «يا عائشة وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم عزَّ وجل من العقل ، فبقدر ما أعطوا من العقل كانت أعمالهم ، وبقدر ما عملوا يجزون» الحديث أخرجه الترمذي في النوادر.

دلالة العقل:

ووصف الإمام الغزالي العقل بأنه يدل على أربعة معاني:

أولها: الوصف الذي يفارق به الإنسان سائر البهائم وهو الذي استعد به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية ووصفه الحارث المحاسبي بأنه غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية وكأنه نور يقذف في القلب به يستعد لإدراك الأشياء ، والغافل والنائم يسميان عاقلين باعتبار وجود هذه الغريزة فيهما.

ثانيهما: العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات والعلم بأنَّ الاثنين أكثر من الواحد والشخص الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد.

ثالثهما: العلوم التي تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال ، فيوصف صاحب التجربة التي تعلم منها بالعاقل ، ويوصف عديم التجربة بالغبي والجاهل.

رابعها: العلم بعواقب الأمور ، والسيطرة على الغرائز الداعية إلى الشهوات واللذات العاجلة ، والعاقل يدرك أخطار تلك الشهوات والأهواء ، فيقمعها ويسيطر عليها ، لئلا تقوده إلى الهلاك ، فيقدم ويحجم بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب ، وهذه الخاصة من خواص العقل الذي يدرك به الإنسان خصائص الأشياء.

كان الشيخ يصف العقل بأنه قد يكون محموداً وقد يكون مذموماً ولا يُذم العقل لذاته ، ولكن لما يؤدي إليه أحياناً من غفلة وضلال ، فقد يهدي صاحبه وقد يضلّه ، وكثيرون أضلهم عقلهم وحجبهم عن إدراك الحقيقة ، ومنهم الفلاسفة الذين أضلتهم عقولهم عن المعرفة فكان العقل حجاباً ، ولابد للعقل من نور يبصر به وبصيرة يعرف بها حقيقة ذلك النور ، والفلاسفة حُجبوا بعقولهم الكثيفة عن المعرفة ، ولو استنارت قلوبهم لاستنارت عقولهم ، ولو كانت لديهم البصيرة النافذة الصادقة الملهمة لما ضلوا الطريق .

والعقل لا يوصف بالذم لذاته ، فهو نور ، وإنما يذم إذا حجب صاحبه عن المعرفة الحقة ، والعقل هو أداة المعرفة وهو بهذا المفهوم يعني القلب التي تدرك به الأشياء ، فإذا أظلم العقل بسبب حجابه الكثيف فلا يدرك الحقيقة والعقل النوراني يدرك بالنور الإلهي الذي تجسده البصيرة المعارف والعلوم على حقيقتها ، ويكون هذا العقل هو منبع الإيمان واليقين ، وقد يحجب العقل إذا اقتصر على معاييره الغريزية ، فالعقل الغريزي تدرك به العلوم البديهية المرتبطة بالحواس ولا تدرك به ما تدركه الفطرة النقية من أنواع المعارف الإشراقية .

فالعقل الذي لا يقود صاحبه إلى حب الكمال والتعلق بالفضائل هو عقل قاصر ومحجوب وتسيطر عليه الظلمة ، والعقل الذي لا يقود صاحبه إلى الإيمان بالله هو عقل محجوب تحكمه مدركات الحواس .

والعقل النوراني لا يحب المجادلة والمخاصمة بل ينصاع للحق ويبحث عنه ، ويستجيب لدعوة الحق ، ويكره الأهواء والشهوات ويميز بين القبيح والجميل من الأفعال، ويضيق بالأخلاق المذمومة لأنه يكره ما ينافي الاستقامة .

العقل :

والأصل في لفظة العقل أنها تدل على القيد ، يقال عَقَلَ البعير أي جمع قوائمه والعاقل هو الذي يحبس نفسه عن هواها ، وسميَّ العقل عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك ، ويقال فلان له قلب عقول أي قلب يتصف

بصفة الفهم ، والعقال هو الرباط الذي يربط به .

والعقل هو الذي يمسك صاحبه عن ارتكاب السلوكيات المنحرفة والاستجابة للغرائز الشهوانية ، فمن دفعه عقله إلى طريق الاستقامة فهو عاقل ، ومن قاده عقله إلى النور والهدي فهو عاقل ، أما الذين لا يمسكهم عقلهم عن الاستجابة لهواهم فهم ليسوا عقلاء ، لأن العقل له ثمرة واضحة وهي الاستقامة ، فمن لم يلتزم بالاستقامة فلا يوصف بالعاقل .

ولهذا جاء الخطاب القرآني للعقلاء يستعين بعقولهم عن التماس صحة العقيدة والتوصل إلى الإيمان ، والاستنتاج العاقل ، والجهلة لا يعقلون ، تأتيهم الآيات والعبر لعلهم يعقلون .

قال تعالى :

﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٤٤] .

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٢٤٢] .

﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران : ١١٨] .

﴿ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٦٩] .

﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٦٧] .

﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [القصص : ٦٠] .

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك : ١٠] .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ [الحج : ٤٦] .

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يس : ٦٨] .

والقرآن الكريم عندما يقرر حكماً من الأحكام المتعلقة بالعقيدة والإيمان يستعين بالعقل لكي يدرك الحقيقة ، انطلاقاً من قدرة العقل على حسن التدبر وجودة الفهم في كل ما يتعلق بالمعقولات ، وكل معقول يدرك بالعقل ، كما أن كل محسوس يدرك بالحواس ، فالبصر يرى المرئيات ويدركها ، ولا يرى

ما هو خارج عن نطاق هذه المرئيات ، والقرآن يدعو إلى التأمل والنظر في الأشياء المدركة بالعقل .

العقل النوراني :

والعقل هاد للمعرفة ويقود إلى الحق ، وهو كالرسل فهم هداة للحق ودعاة إلى الله ، يعرِّفون الإنسان بربهم ، ولا يمكن الانتفاع بالرسل إلا بواسطة العقل ، لأنه المخاطب بالدعوة ، فهو الذي يعقل دعوة الأنبياء ، فإذا لم يعقل هذه الدعوة فلا مجال لقبول دعوة الرسل .

والعقول المحجوبة عن الحق لا تنير الحق ولا تهدي إلى الله لأن العقل نور ، فإذا حجب النور لم يدرك الإنسان الحقيقة ، ومما يتميز به الإنسان عن البهائم هو ذلك العقل الذي يهديه والذي يمكنه من التمييز بين الحق والباطل ، كما يميز أصحاب البصر بين الليل والنهار ، فإذا حجبت العين لم تبصر ولم تميز .

والإنسان يستعد للرؤية ببصره ويستعد للتمييز بعقله ويستعد للفهم بقلبه ، ويستعد لشهواته بغريزته الفطرية ، فإذا انعدمت هذه القوى تعطَّل استعدادها للبصر والتمييز والفهم .

والعقل هو مصدر كل المعارف الإنسانية سواء ما ارتبط من هذه المعارف بالعلوم العقلية والاستدلالية التي لا تحتاج إلى البراهين ، والعقل بالنسبة لهذه المعرفة يراد به القلب وهو الحقيقة الإنسانية ، ولا يراد به مجرد أداة التمييز ، والعقل النوراني تشرق المعرفة فيه ، فيكون معنى القلب الذي يعتبر مصدر المعرفة بالله ، ولا تدرك الحكمة إلا بالعقل المستنير .

والصوفية لا يذمون العقل المؤهل للمعرفة ، فهذا عقل محمود ، وإنما يذمون العقل الذي يستخدمه صاحبه للجدال والمخاصمة ، ولا خير في الجدال لأنه يطفىء نور القلب ، وقد ذمَّ القرآن الكريم الذين يجادلون في الله بغير علم في قوله تعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴾ [الحج : ٨] .

وهذا الجدال غير محمود ، وبخاصة الجدل المؤدي إلى التفرقة بين الأمة ، وتحكيم العقل فيما هو خارج عن نطاق المعقولات المرتبطة بالحواس المدركة ، والجدل في أصول العقيدة مما يؤدي إلى التبديع والتكفير وإشاعة المعتقدات الفاسدة .

قال ابن عطاء الله الاسكندري في حكمه :

العقل آلة للعبودية لا للإشراف على الربوبية .

ونقل عن أحد الصوفية قوله :

من لحقته العقول فهو مقهور من جهة الإثبات ، ولولا أنه تعرف إليها بالالطاف لما أدركته من جهة الإثبات .

كان الشيخ يتحدث عن العقل النوراني الذي يفهم الأشياء ويعقلها ، لا بقوته الذاتية وإنما بالنور الإلهي الذي يشرق فيه ، وهو في المعنى مرادف للقلب ومعظم العقول محجوبة بموازينها وقوالبها المرتبطة بالمشاهدات الحسية ، وعندما يصف أحداً بأنه من أصحاب العقول كان يقصد بذلك الإشارة إلى التوقف عند حدود ما تدركه الحواس ، وعدم إدراك المعاني الإشراقية ، ويطلق هذا المعنى على الفلاسفة الذين أدركوا ظاهر الأمور وحجبوا عن الحقيقة والعقل كالبصر يدرك المدركات الحسية ، ولابد للمعرفة من بصيرة هادية إليها ، وأصحاب العقول هم الذين وقفوا عند حدود المدركات الحسية ورفضوا ما عداها ، ولذلك كانوا في موطن الذم بسبب حجابهم عن الحق والعقل ، ولا يدرك الحقيقة وإنما يدركها بالنور الذي يشرق فيه ، وكذلك العين لا تبصر إلا بالنور الذي ينير ما حولها ، فإذا انطفأ السراج توقفت العين عن الإبصار .

رأيه في القلب :

ليس المراد بالقلب هو القلب الحسي المدرك بالبصر ، وإنما هو ذلك السر الإلهي المودع في الإنسان ، والذي يدرك بالبصيرة النافذة ، وهو المخاطب والمطالب بالفهم .

كان الشيخ يفرق بين العقل والقلب والنفس ، ويعتبر القلب هو مصدر المعرفة بالله ، وبه استعد الإنسان للمعرفة ، بشرط طهارة ذلك القلب ، بحيث تظهر في مرآته الحقيقة كما هي واضحة جلية ، والقلوب الوسخة بالمعاصي والمخالفات تعتبر غافلة وتوصف بالزيغ والضلال وهي قلوب مريضة ، لأنها لم تؤد مهمتها في المعرفة ، وكل عضو لا يؤدي مهمته فهو مريض ، ويحتاج إلى علاج ، وعلاج القلوب من أمراضها بحفظها مما يرد عليها من الحواس من خواطر السوء وأهم حجاب لتلك القلوب هو التعلق بالدنيا ، فالدنيا ليست مذمومة ، والمذموم فيها هو تعلق العبد بها تعلق النهم الذي يكدر صفاءه.

قد يختلط لفظ العقل والقلب ويدلاّن على معنى واحد ، فيطلق على القلب لفظ العقل ويطلق على العقل لفظ القلب ، وكل منهما يكون موطناً للعلم وللفهم ، والعقل يدرك العلوم الاستدلالية التي تعتمد على البراهين الجدلية ، وأما القلب فيدرك المعرفة بالله ، ويدرك ذلك لا بمقاييس العقول وإنما بنقاء الفطرة وطهارتها ، وما يدرك بالفطرة يفيد اليقين ويؤدي إلى الطمأنينة والسكون.

ولا يوصف العقل بالمرض إلا عندما يعجز عن التمييز ، أما القلب فيوصف بالمرض عندما يصاب بالزيغ ، ووسائل كل منهما في العلاج مختلفة عن الآخر فالقلوب عندما تطهر تجعل العقول أكثر فهماً لحقائق الأشياء ، ولا يكون تمييزها قاصراً على الألوان والأشكال الهندسية وإنما تميز بين الحق والباطل ، وتختار الرشاد على الضلال.

مفهوم القلب :

والقلب ليس له مفهوم محدد ، ولا يدرك بالبصر وليس محسوساً فما يدرك هو القلب الصنوبري الذي يدفع الدماء في الشرايين ، وليس هو المراد بالقلب الذي وصفه القرآن بالصحة والمرض وجعله أداة للفهم أو الجهل ، والقلب هو الخصوصية الإنسانية بكل نقائها وصفائها ، وتشمل النفس والعقل والروح ، فالنفس إذا استقامت وتحكمت في غرائزها الفطرية واستولت على ميولها وأهوائها كانت نفساً ملهمة ، والعقل يستنير بأثر طهارة النفوس ، فترتقي

إدراكاته الحسية ، ويرى الجمال في الحق والاستقامة والقبح في الباطل والظلم والضلال.

هذا العقل وهذه النفس هما قوام القلب ، فالقلب يقوم على دعامتين ، العقل والنفس ، فإذا استقاما تولد عنهما ذلك القلب النوراني الذي يرفض الزيغ والضلال ، ولا وجود لقلب منفصل عن دعاميته ، العقل والنفس ، فإذا اعتدلت الغرائز واستنارت العقول كانت القلوب مهيأة للمعرفة بطريقة حتمية ، وانعكس ذلك على صحة القلوب الحسية التي تحتضن كل هذه المعاني الراقية.

ولا يمكن للقلوب أن تستنير إلا باستنارة العقول واستقامة النفوس ، واستقامة النفوس هي الخطوة الأولى لاستنارة العقول فلا يمكن لعقل أن يستنير إلا باستقامة الحواس الظاهرة وحفظها فإذا التزمت بالاستقامة استنار العقل وارتقت مدركاته ، والاستنارة العقلية بمفهومها الأشمل المرتبط بالاستقامة تؤدي إلى حسن الفهم الذي تحققه اليقظة الدائمة المنافية للغفلة.

والقلب ليس شيئاً منفصلاً عن العقل والنفس ، ولا يمكن تحقيق الاستنارة القلبية إلا بحفظ الحواس ، وأهمها البصر والسمع ، ومجاهدة النفوس غايتها تحقيق التزكية النفسية ، وهذه التزكية هي شرط للاستنارة القلبية.

الطريق إلى الله :

كان الشيخ رحمه الله يؤكد على أن الطريق إلى الله مدخله الاستقامة ، والمعرفة بالله تبتدىء بحفظ السمع والبصر ، فلا يصل إلى القلب عن طريق الحواس إلا ما هو طاهر ونقي من أنواع الخواطر ، والتعلق بالدنيا هو إشغال القلب بما يدركه من أنواع التعلقات ، والزهد ليس ترك الأموال وإنما هو التحرر منها وعدم التعلق بها ، بل ألا يشغله زهده عن ربه.

فإذا انشغل الزاهد بزهده حجبه ذلك الزهد عن غاية الزهد . .

كان الشيخ يحذر من خطورة الانشغال بالوسائل عن الغايات ، فالغاية من كل ذلك المعرفة ، فمن حجب عن الله تعالى بالمجاهدة والخلوة والعزلة

والزهد والكرامات حجب بالوسائل وتوقف عند حدود الظاهر ، وهذا من الجهل والغفلة بحقيقة التصوف .

والقلب كالمرآة الصافية تنطبع فيه الحقيقة كاملة كما هي ، لا كما يتخيلها العقل بقوانينه الاستدلالية ، فما يتخيله العقل هو وليد تراكم صور مختلفة ، ذات أشكال متغايرة ومتنافرة وتتعدد مدركات العقول ، لا لتعدد الحقائق ، ولكن لتعدد المتخيلات وتنافرها وعدم انسجامها ، ولهذا تعددت العقائد وتنافرت المعقولات وتكاثرت الرؤى ، بسبب كثرة ما يرد على العقول من صور ، وعندما تتوقف هذه المتخيلات تنطبع في المرآة صورة ما هو موجود في الفطرة النقية التي فطر الله بها الناس عليها ، فالعوارض الخارجية تأتي من الهواء والميول ، فتولد الخواطر السيئة في العقول ، وتعتاد العقول بتأثير الأهواء على قبول ما هو للفطرة ، ولهذا نجد أن مدركات العقول تختلف بحسب الأمزجة الشخصية والمؤثرات التربوية والعوامل الجغرافية ، فطبائع الغضب تنتج سلوكيات معبرة عن الغضب كالحقد والحسد ، وطبائع الشهوات تنتج سلوكيات معبرة عن الأهواء كالطمع وحب الجاه والتعلق بالدنيا .

والإنسان هو أفضل مخلوقات الله ، وهو الأفضل بسبب ما فضله الله به من استعداده للمعرفة وقابليته لتزكية النفس وطهارة القلب ، وهذه الأفضلية ليست صفة ثابتة ودائمة إذا لم يحترم الإنسان خصوصية هذه الأفضلية ، وتتمثل هذه الخصوصية في قابلية الإنسان لأمرين ، **الأمر الأول** هو قابليته للشهوات البهيمية التي يشترك فيها مع الحيوان ، في شوقه الفطري للطعام والشراب والجنس وكل ما تشتهي النفوس من أنواع المطالب والرغبات ، **والأمر الثاني** هو قابليته للعلم وقبول المعارف والتطلع للكمالات ، وهو في هذه الصفة يشبه الملائكة الذي لا يعصون الله فيما أمرهم ، لاتصافهم بصفة الكمال النسبي وهم بطبعهم كاملون ، لا يقبلون النقص ، إلا أن كمال الإنسان أكثر كمالاً لأنه يملك الاختيار .

فمن غلبت على طباعه الصفات الشهوانية فهو كالأنعام بل هو أضل منهم ، لأن الحيوانات لا يملكون قابلية الكمال ، بخلاف الإنسان فيملك قابلية

الكمال ، فإذا اختار الصفة البهيمية فهو أضل من الأنعام وإذا غلب عليه الكمال وانصرف بكليته إلى ما يحقق فيه هذا الكمال فهو ملكي.

ووصف الله تعالى الذين كفروا بأن مثلهم كمثل الذي ينعق بما لا يسمع ، فهم صم بكم عمي لأنهم لا يعقلون ، ولو عقلوا معنى انسانيتهم ولماذا خصهم الله بصفات الكمال لاختاروا الكمال لما في الكمال من جمال ، والإنسان بطبيعته يحب الجمال لأنه يرى فيه الكمال ، ويحب الكمال لأنه يرى فيه معالم خصوصياته الإنسانية ويحب إنسانيته لأنها سبب تميزه عن البهائم التي تشاركه في قواه الحيوانية وشهواته الدنيوية واستمتاعه بالملذات.

ووجه التفرقة بين الذين آمنوا والذين كفروا أن الله تعالى وليّ الذين آمنوا ، وثمرة هذه الولاية أنه يخرجهم من الظلمات إلى النور والطاغوت هو ولي الذين كفروا وثمرة هذه الولاية أنه يخرجهم من النور إلى الظلمات ، وشتان ما بين الولايتين ، من حيث الأثر ، فالرحلة من الظلمات إلى النور هي رحلة من النقص إلى الكمال.

والرحلة من النور إلى الظلمات هي رحلة من الكمال إلى النقص ، وأصحاب العقول يرحلون من الظلمة إلى النور لأنها رحلة إلى الأفضل ، والجهلة يرحلون من النور إلى الظلمة ، وهي رحلة خاسرة ، ولذلك فهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً.

قال تعالى في وصف هاتين الولايتين:

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وهنا تكون أداة الفهم هو القلب بكل مقوماته ومكوناته النفسية والعقلية ، فإذا زكت النفوس ارتقت مدارك العقل وانتقل العقل من الصفة اللغوية الضيقة التي تدل على القيد والربط إلى عالم النور واللطافة ، فأشرق النور في العقول ، وأصبحت مهيأة للتمييز بين الحق والباطل والخير والشر والفضيلة والرذيلة والكمال والنقص ، هذا النور يشرق في قلب الإنسان ، فيجعله مستعداً للفهم ومؤهلاً للمعرفة التي لا يحجبها ظلام غفلة أو قسوة.

هذا الإنسان بنفسه التي طهرت بالتربية وبعقله الذي يميز به بين الحق والباطل وقلبه الذي جعله الله موطناً لخطابه الإلهي لأنه أداة الفهم هو الذي استخلفه الله تعالى في الأرض ، لكي يعبده أولاً ، ولكي يعرفه ثانياً ، ولكي يعمر هذه الأرض بأسباب الحياة ثالثاً ، وهذا الإنسان مكرم عند الله ، والأكرم عند الله هو الأصدق في تقواه الذي يبدأ بإصلاح نفسه قبل أن يبدأ بإصلاح الآخرين ، فمن أراد إصلاح غيره قبل إصلاح نفسه فهو غير صادق في دعواه ، وهو أمر منهي عنه ، وكبر مقتاً عند الله أن يقول المؤمنون ما لا يفعلون ، وندد القرآن الكريم بمن يأمر الناس بالبر وينسى نفسه ، تلك هي الغفلة عن الله ، والعقلاء لا يفعلون ما يفعله الجاهلون.

وأصحاب القلوب هم المخاطبون بالقرآن الكريم ، وهم المعاتبون إذا لم يفقهوا ، فالقلب هو موطن الخشية وموطن الزيغ ، فإذا صلح القلب صلح أمر البدن كله ، ليس في صحة أعضائه الحسية بل في صحة إدراكه لما يريده الله تعالى من الإنسان من فعل الخير وعمل الصالحات والتنافس في الأخلاق الحميدة ، والتمسك بالكمالات الخلقية ، فما جاء به الإسلام هو دعوة للحياة ، بكل ما تحتاجه الحياة من صحة العقيدة والتزام بالعدالة والحق في مجالات والحقوق وارتقاء بمستوى السلوك إلى درجة الكمال الذي يتمثل في حب الخير.

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال : ٢٤].

﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ [المائدة : ٦].

رأيه في الدنيا :

يراد بالدنيا ما هو قريب ، وهي من الدنو وهو القرب ، ويقابلها الآخرة وهو المتأخر ، وهو ما بعد الموت ، فما قبل الموت قريب هو الدنيا ، ومابعد

الموت بعيد وهو الآخرة والدنيا والاخرة مرحلتان متكاملتان ، فلا دنيا بغير آخرة ولا آخرة بدون دنيا ، والموت هو لحظة الانتقال والعبور بين عالمين ، عالم الشهادة وعالم الغيب .

وفي رحلة الإنسان من الحياة الدنيا إلى الآخرة ، هناك ما يمكن اصطحابه في هذه الرحلة ، وهناك ما لا يمكن اصطحابه فما يمكن اصطحابه هو العلم الصالح ، ولا يكون العمل الصالح إلا بصحبة العلم ، فالعلم يثمر العمل ، فمن علم بما عمل ولا فائدة في علم لا يثمر عملاً ، والعلم المفيد هو الذي يثمر ما يمكن حمله في رحلة الانتقال من الدنيا إلى الآخرة ، لأنه يحتاج إليه .

وهناك ما لا يمكن اصطحابه من حظوظ الدنيا ، وقد يحمله معه ويكون عبئاً ثقيلاً عليه ، فيحاول أن يتخلص منه فلا يستطيع ، فيحاسب على كل ما حمله معه مما ارتبط بحقوق الله وحقوق العباد ، أما حقوق الله فتتمثل في مخالفته لأوامر الله تعالى ، فهو مكلف ومخاطب ، فإذا لم يقم بما كلف به فهو مقصر ، ولابد من محاسبته على ذلك التقصير .

والدنيا ليست مذمومة بذاتها ، لأنها مزرعة ضرورية يثمر العلم فيها عملاً ، فإن كان العمل صالحاً كان رصيداً لصاحبه في الآخرة يجزى به ، وإن كان العمل سيئاً كان عبئاً على صاحبه في الآخرة يحاسب عليه .

كان الشيخ يردد في مجالسه :

كل من تلقاه يشكو دهره . . ليت شعري هذه الدنيا لمن . . .

فيجيب : هذه الدنيا لمن أعرض عنها .

مفهـوم الأعـراض عن الدنيـا :

والأعراض عنها ليس بالهروب منها ، فلا سبيل إلى ذلك الهروب ، وإنما التزود بما يفيد من عمل الصالحات ، ولا يكون العمل الصالح إلا بالتحرر من التعلق بالدنيا بالزهد فيها والتحرر من قيودها .

قال تعالى :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ

ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٤].

﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحديد: ٢٠].

وما يأخذه العبد من الدنيا لا يتجاوز حدود ما يحتاج إليه ، من الطعام والشراب والملبس وما هو ضروري لاستمرار الحياة ، واللذات ليست مرتبطة بالشهوات فقط ، وإنما هي مرتبطة بالحصول على الشيء الذي يجد الإنسان لذته فيه ، والذي يتشوق إليه ، وتنبعث النفس للحصول عليه.

واللذات الدنيوية ثلاث:

لذة عقلية وروحية ، وهي اللذة التي ينفرد بها الإنسان عن الحيوان ، فالحيوان لا يدرك اللذة العقلية ، وهي مختصة بالإنسان وهذه اللذة هي أشرف اللذات لأنها مرتبطة بأشرف ما في الإنسان وهو العقل ، فمن وجد لذته في المعرفة فقد دل ذلك على سمو تكوينه.

لذة جسدية ، وهي اللذة التي يحصل عليها الإنسان من الشهوات المرتبطة بالأبدان كالمآكل والمشرب والملبس والمنكح ، وما هو مرئي من أنواع الجمال وما هو مسموع من أنواع السماع والطرب ، وهذه اللذة يشترك فيها كل من الحيوان والإنسان.

لذة الغلبة والرياسة ، وهذ لذة مرتبطة بالغريزة ، وتوجد لدى الحيوان والإنسان ، وإذا تحكمت في الإنسان سيطرت عليه وجعلته متطلعاً للتغلب والعدوان.

وكلما ارتقى الإنسان في مستوى إدراكاته بتأثير التربية والتكوين ارتقت مستوى لذاته من لذات حسية إلى لذات فكرية وعقلية ، فيجد لذته في المعرفة العقلية وفي المعرفة الروحية ، ويشتاق لأسباب هذه اللذة ويأخذ بأسبابها وتسعده مجالسها ، فيصبح تعلقه بالطعام والشراب والملبس أقل ، ويتحكم في شهواته وتكون علاقته بأسباب هذه اللذات أضعف ، فيقل طمعه في المال

واقتناء الأشياء ، ويضعف لديه النهم المذموم الذي يعبر عن تعلقه بالدنيا ، فيصبح أكثر اعتدالاً في طعامه وشرابه وملبسه ، ويكون شوقه للشهوات واللذات الدنيوية شوقاً فطرياً لا يتجاوز حدود الاعتدال.

ولا أحد ينكر جمال الدنيا وما فيها من متع ولذات ، فهو أمر فطري والنفس البشرية تألف ذلك وتشتاقه ، إلا أن المذموم هو ذلك التعلق المبالغ فيه والذي يهبط بمستوى اهتمامات الإنسان ، فينمو في النفس حب اللذات الحسية والجسدية وتنقص اللذات المعنوية والروحية التي يتميز بها الإنسان عن غيره من المخلوقات.

ولم يحرم الإسلام الاستمتاع بالدنيا فتلك زينة الحياة الدنيا ، وإنما حرم الاستمتاع بالشهوات الضارة التي لا تليق بالإنسان لأنها تنافي الكمال ، والكمال أمر مرجو في الإنسان ، والسلوكية التي تنزع إلى الكمال هي أسمى وأعلى وهي التي تليق بالإنسان الذي خلق الله لكي يكون خليفته في الأرض في تطلعه للكمالات ، وتعلقه بالفضائل.

والمقتنيات الدنيوية من مال وطعام وملبس أما أن تكون علاقتها بالبدن لتحقيق أسباب وجوده وتلبية حاجاته الضرورية وإما أن تكون علاقاتها بالقلب ، فتشغله عن معرفته ، فإذا انشغل القلب وتعلق بها وأحبها كانت هذه العلاقة مذمومة لآثارها السلبية ، وإذا بقيت علاقة هذه المقتنيات بالبدن فهذه علاقة طبيعية ، ولا خطر منها ، ولابد من تزويد البدن بحاجاته الدنيوية التي خلقت لتحقيق كماله البدني.

هذه هي نظرة الشيخ إلى الدنيا ، نظرة الإنسان إلى ما هو مسخر له ، وهي نظرة من الأعلى إلى الأسفل ، من الإنسان إلى الدنيا ، والإنسان هو السيد والدنيا هي المتاع وهي الزينة ، وإذا تحكم المتاع بالإنسان فذلك هو المذموم.

والمراد بالإعراض عن الدنيا هو التفات القلب عن الدنيا إلى مرغوب أسمى وأعلى يليق بالإنسان ويصلح له زاداً له في رحلته من الحياة الدنيا إلى الحياة الأخرى ، ولابد إلا أن يكون الزاد مفيداً ونافعاً في هذه الرحلة ، وزاد التقوى

هو خير ، أما المقتنيات التي لا تحمل مع الإنسان فتظل في هذه الدنيا يحمل العبد أعباءها ويحاسب عليها.

التحرر من الدنيا :

والمتحررون من التعلق بالدنيا أكثر قدرة على الاستمتاع بالملذات ، لأنهم لا يخافون من سيطرتها عليهم ، فينامون وهم سعداء بما يأكلون ويشربون ، فإذا زالت الدنيا عنهم فلا يشقيهم زوالها ، أما الذين يزداد تعلقهم فهم خائفون وجلون من غدهم المجهول ، أن تذهب الدنيا عنهم ، فيشقون بمجرد هذه الخواطر ، ويخافون من الغد ، وكأنه كابوس يتجدد في كل لحظة يلوح لهم بالفقر ويخيفهم بأشباح تؤرق ليلهم ، فلا يستمتعون بلذة خوفاً من زوالها ، إذا أعرضت الدنيا عنهم ولو بالقليل أعرضت السعادة عنهم ، وعاشوا في تعاسة وشقاء.

فالدنيا مسخرة للإنسان بطعامها ومتاعها ولذائذها لكي يستقيم أمر الحياة ، وليست هي الغاية والهدف ، والدنيا وسيلة لغاية ، فمن شغل بالوسائل عن الغايات فهذا دليل على الجهل.

رأيه في الموت :

الموت انتقال من عالم الكثافة إلى عالم اللطافة ، وهو نهاية الحياة الدنيا ، وبداية لحياة أخرى ، وهو رحلة لابد منها ، ومن تعلق بالدنيا وأحبها وذاق لذاتها ثقل عليه أن يغادرها ويترك ما بناه فيها ، ولا سبيل للبقاء في الدنيا ، وكمال ازداد التعلق بالدنيا ازداد الخوف من فراقها والحزن عليها.

كان الشيخ يدعو إلى الاستعداد للموت بالإعداد له ، واليقظة الدائمة ، فما يحمله العبد معه هو عمل الصالحات ، ومن كان زاده كثيراً لا يخاف من رحلته هذه.

وكلما زاد تعلقه بهذه الدنيا زادت الخشية من الموت ، لأن الإنسان لا يحب مفارقة ما يحب ، ولذلك يكره الغافلون المستأنسون بالدنيا

المستمتعون بلذائذها ذكر الموت ، ولذلك يفرون منه ، بالإعراض عن ذكره وكراهية الحديث عنه .

قال تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجمعة : ٨] .

والإنسان لا يكره الموت لذاته ، وإنما يكره ما يشعر في نفسه من تقصير بحقوق الله فيخاف من لقاء ربه لأنه مقصر في ذلك ، أما من استعد لذلك بعمل الصالحات فإنه يشتاق للقار ربه ، وكلما كان الإيمان أعمق وأصدق كان الشوق أكبر إلى لقاء الله .

وذكر الموت فضيلة ، لأنه يذكر العبد بربه ، ويعيد للعبد شعوره بعبديته لله ، فمن غفل عن الموت زادت غفلته عن ربه ، وأخذ بأسباب الشهوات إلى أن يفاجئه الموت على غير استعداده منه .

والذاكرون للموت هم أكثر استعداداً له وأوفر مؤونة ، وهي رحلة لابد منها ، ومن ذكر الآخرة أعد نفسه لها بذكر الموت .

ومن أسباب الغفلة عن الموت طول الأمل ، فالإنسان يحب أن يعيش طويلاً ويعمل لما يفكر فيه ولما يعتقده من طول الحياة واستمرارها ، فيتبعد عن ذكر الله ، ويغفل عن ربه ، ويزداد تعلقه بالدنيا ويأنس بها ، وهذا هو الجهل بعينه .

وانطلاقاً من منهجية الشيخ في ايقاظ القلوب من غفلتها ، وإحياء معاني القرب من الله ، والتحكم في الشهوات والملذات فقد كان يتحدث عن الموت ، لإيقاظ القلوب ، ويدعو أصحابه لزيارة المقابر للعبرة والتغلب على قسوة القلوب ، فلا شيء يضر الإنسان ويبعده عن إنسانيته مثل القسوة التي تجعل القلوب معرضة عن الحق .

والناس يطمعون في الحياة ويأنسون بها ، وكلما ذكروا الموت حزنوا

وخافوا ، ولا سبيل إلى نسيان الموت ، فهو قريب ، في يوم أو ساعة أو دقيقة ، يقبل من غير مقدمات .

ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره ذلك كره الله لقاءه ، كما جاء في حديث عبادة بن الصامت ، قال : قال رسول الله ﷺ «ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، فقالوا : كلنا يكره الموت قال : ليس ذاك بذاك ، إن المؤمن إذا خرج له عما هو قادم عليه أحب لقاء الله وأحب الله لقاءه» متفق عليه .

كان الشيخ يحض على كل عمل يذكّر بالله ، كالموت وزيارة القبور ، وزيارة المستشفيات ورؤية المرضى وزيارة دور العجزة والأيتام ، لكي يستيقظ القلب من غفلته ، ويخفف من قسوته ، ويكون أكثر رحمة بالخلق ، فهذا هو الطريق إلى الله .

والغاية من زيارة القبور هي يقظة القلوب والعبرة ، ولذلك لابد من التزام الأدب مع هذه الزيارة ، ليس مع الميت وإنما مع الموت والعبرة والاستفادة .

الروح والموت :

والموت يرتبط سره بالروح ، وأمر الروح لا يدرك ، ولا أحد يمكنه الحديث عن أمر الروح ، لأنها تدخل في عالم الغيب والملكوت ، والروح لا تتوقف مع الموت ، وإن اعتقد البعض ذلك ، وإنما يتوقف أمر البدن ، ويفني بالموت ، وتبقى الروح قائمة ومخاطبة ، وتسمع ما تخاطب به وهي التي تثاب ، وتعاقب ، إلا أن علاقتها بالبدن تنقطع بالموت ، وتفارقه ، والروح هي التي تحرك الأعضاء والحواس فإذا مات العبد انقطعت صلة الروح بالبدن ، وتوقفت الأعضاء عن أداة عملها ، وخصوصية الموت أن انقطاع صلة الروح بالبدن يحررها فينكشف لها من أمر الغيب ما تكون عاجزة عنه في الحياة ، فالبدن قيد للروح ، فإذا تحررت انطلقت الروح في عالم الملكوت ، وتكشفت الأسرار ، وأضيئت الأنوار ، وهنا تبحث الروح عن زادها في الدنيا من خير أو شر ، وتدرك ما كان خافياً عليها من أمر الخير والشر ، وتعرف الحق من الباطل .

ويؤكد هذا ما رواه عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ أنه خاطب كبار مشركي قريش بعد غزوة بدر ، وناداهم فقال : يا فلان يا فلان قد وجدت ما وعدني ربي حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ، فقيل يا رسول الله : أتناديهم وهم أموات ، فقال ﷺ : والذي نفسي بيده ، أنهم لأسمع لهذا الكلام منكم إلا أنهم لا يقدرون على الجواب . رواه مسلم .

وبعد الموت ينكشف لقلب المؤمن الطائع من الأنوار والمعارف ما يعرف به حقيقة نفسه وحقيقة ما وعده الله به من أنواع الشعور بالسعادة والطمأنينة ويكتشف أن الدنيا ما هي إلا كالسجن المظلم الذي تحبس في الروح فلا تحلق في الفضاء الفسيح من ملكوت الله .

والذين يتعلقون بالحياة الدنيا ويأنسون بها إما لأنهم يائسون من الآخرة بسبب ما اقترفوه من سيء الأعمال فيخشون منها وإما لأنهم متعلقون بالدنيا وبمتاعها وشهواتها ومقتنياتها ، وإما لأنهم جاهلون بحقيقة الآخرة ، فلا يعرفون من أمرها ما يدفعهم للشوق إليها ، ولهذا يستقبل الرجل الصالح الطائع الموت مستبشراً سعيداً غير خائف ولا وجل .

والنفس التي تزكت تشتاق للموت ، وتستقبل بالرضى انطلاقاً من حسن الظن بالله ، وما يُضفيه الإيمان على القلوب من سكون وطمأنينة ، وهذه ظاهرة مرئية في موت الصالحين الذين يستقبلون الموت بالفرحة بلقاء الله .

وما أجمل أن يودع العبد حياته الدنيا بالفرحة والابتسامة وكأنه في رحلة جميلة إلى ما هو أفضل وأكمل ، ذلك شعور يريح الراحلين في لحظات وداعهم لأحبائهم .

رحلة الموت :

ما أروع ما تضفيه هذه المعاني الروحية على النفس من شعور بالسرور والسكون ، ألسنا جميعاً سنرحل تلك الرحلة الحتمية ، ألا نشعر بالخوف من سكرات الموت وقبل أن يتوقف نبض الحياة .

ألا يشعر من حولنا هول ذلك اليوم المخيف المرعب الذي سيفارقون فيه

من يحبون من آباء وأمهات وأبناء وأخوة وأصدقاء.

روعة هذه التربية أنها تهيىء النفوس لتلك الرحلة، فلا تكون رحلة إلى المجهول المخيف.

ليست الرحلة من عالم النور إلى عالم الظلمة ومن عالم الأنس إلى عالم الكآبة.

ليست رحلة من الوجود إلى العدم لو كانت الرحلة إلى العدم والظلمة والوحشة والفناء لمّا أشرقت وجوه الراحلين بالبهجة والفرحة، ولما انبسطت أساريرهم وهم يودعون أحبائهم المقربين، رفقاء الأمس الذين عاشوا معهم وسعدوا بهم.

لو كانت الرحلة إلى القبر الموحش من غير ذلك الأمل الجميل لما احتمل الأبناء وداع آبائهم وأمهاتهم، ولما استطاع الآباء وداع أبنائهم وهم يرحلون.

لابد من العمل.. إنها النافذة المطلة على النور والضياء ويجب أن تبقى هذه النافذة مفتوحة على الدوام تبشر بالأمل لكيلا تكون الحياة كئيبة حزينة مخيفة.

موت بغير أمل... يميت البسمة في وجوه الراحلين، ويطفىء النور في قلوب المحبين والمودعين.. فلا يقوون على الصبر والتحمل.

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٠].

في هذه الرحلة تبرز أهمية الاستعداد لها، فمن أنس بهذه الدنيا وتعلق بها صعب عليه ذلك اليوم الذي سيغادر فيه هذه الحياة، ومثله في ذلك كمن اعتاد أن يعيش في قرية منعزلة في بادية فإنه يصعب عليه بحكم الاعتياد أن يغادر هذه القرية إلى مدينة واسعة جميلة، لا لأنها جميلة، ولكن لاعتياده على دروبها وبيوتها وعاداتها، ولو أعد نفسه للرحيل، فلم يانس بها، ولم يألف ما فيها لما صعب عليه فراقها، ولو عرف أنه يملك الزاد الذي يكفيه لما خاف من

السفر ، ولما شعر بأخطار الطريق وصعوبة المقام .

وما يجب على العبد فعله أن يتذكر دائماً أن الموت آت ولابد منه ، وأن الرحيل قادم ولا خيار فيه ، وهذا هو الاستعداد المطلوب ، ولذلك إذا وقع منه ما يؤاخذ عليه سرعان ما ندم على هذا الفعل وسارع في إصلاحه ، وإذا فاته الرزق قنع بما فيه الكفاية ، فلم يشغل نفسه بما لا يحمله من الزاد الذي ينفعه في الآخرة .

لم يكن الشيخ رحمه الله في دعوته إلى العبرة من الموت وعدم الانشغال بأمر الدنيا والقناعة بما رزق فيها والمسارعة في عمل الصالحات يهدف إلى التخويف والترغيب ، وإلى إشاعة روح الكسل ، وإنما الغاية من ذكر ذلك التذكير بما هو قادم ودعوة إلى اليقظة الدائمة وعدم استرسال النفس في الشهوات والملذات ، فهناك من اللذات المعنوية ما يكون أكثر إسعاداً للإنسان ، وقد ذم القرآن الكريم الذين يفرحون في الحياة الدنيا بغير الحق ، والله لا يحب الفرحين الغافلين .

قال تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾ [الإسراء : ٧٢] .

ولا يخلو سبب الخوف من الموت وما يخلفه في النفس من غم وحزن أن يكون بسبب فقد ما يشتهيه من الدنيا ، أو بسبب معصية وإثم ارتكبها ويخشى أن يحاسب عليها أو بسبب خوفه على مصير ما يقتنيه من مال وثروة يخشى أن تفلت منه ، فإذا أعد نفسه للموت قلت شهواته ، واستقام سلوكه وزهد فيما يملكه .

رأيه في صفة المؤمنين :

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾ [الأنفال : ٢ ـ ٤] .

والمراد بالإيمان هو التصديق ، وموطن التصديق هو القلب ، فمن صدق بقلبه فهو مؤمن ، ومقتضى هذا التصديق هو الانقياد والتسليم ، والإسلام هو التسليم بالقلب واللسان ، وأحياناً يكون التسليم ظاهراً ولا يرافقه التصديق القلبي.

وفي رأي الشيخ أن الإيمان يدرك من خلال ثمرته ، وثمرة الإيمان هو ظهور آثاره على العبد ، وأول أثر لذلك أن يعرف المؤمن عند ذكر الله بما يشعر به قلبه من وجل واستشعار للهيبة والخشوع ، والمراد بالوجل هو الخوف ، فالمؤمن إذا ظلم أو فعل فاحشة وذكر الله شعر بالخوف وتراجع عن ظلمه ، فإذا لم يشعر بالخوف عند ذكر الله فلا يوصف بالمؤمن.

الخشية من صفات المؤمنين :

وجاء وصف المؤمنين في القرآن في مواطن كثيرة ، وكلها تؤكد على أن من صفات المؤمنين إذا سمعوا القرآن اقشعرت جلودهم لذكر الله وما جاء من الحق ، وفاضت أعينهم من الدمع مما عرفوا من الحق.

قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ .

وقال أيضاً : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ .

فالخشية وليدة المعرفة ، والمراد بالخشية هي الخوف المقترن بالتعظيم للمخشي منه والذي تنتجه المعرفة ومن ثمراته اليقين ، ويختلف هذا المفهوم عن مجرد الخوف الذي يفيد معنى الفزع ، فالخوف من الله كما يقول الشيخ ، ليس ذلك الخوف من توقع شيء مكروه ، وإنما هو خوف مقترن بالهيبة ، ويولد ذلك الوجل الخاشع الذي تفيض منه الدموع عند سماع ذكر الله ، وهذا الشعور يطلق عليه الخشية ، والخشية وليدة المعرفة ، والعلماء بسبب معرفتهم بالله هم أكثر الناس خشية من الله.

والخوف صفة من صفات المؤمنين ، لأن الخوف إذا سيطر على القلوب امتنعت عن التطلع للشهوات ، وكفت عن الملذات المحرمة والمؤمن يخاف

من المعاصي وأحياناً يكون خوفه ناتجاً عن محاسبته لنفسه ، فيخشى ألا تقبل طاعته ، ويكون عمله خالياً من الإخلاص.

ولا يمكن أن يشعر المؤمن بالوجل الذي يعتري القلوب عند ذكر الله إلا أن يكون القلب طاهراً ونقياً ، وهذا القلب يطمئن بذكر الله ، والخشية هي وليدة اليقظة ، وأهل الغفلة لا يشعرون بالخشية ولا بالوجل عند ذكر الله ، لأن قلوبهم قاسية ، وقد طبع الله على قلوبهم ، فلا يخشعون لذكر الله ، وينصرفون إلى الدنيا ويستهينون بأمر الآخرة ، وقلب المؤمن هو القلب الذي يطمئن بذكر الله ، وهذا القلب لا يعرف الغش ولا الطمع ولا الحسد ولا الرياء ولا الحقد.

والقلب هو موطن البصيرة عند المؤمن ، وطهارة القلوب هي أهم صفة من صفات المؤمن ، فمن طهر قلبه وزكت نفسه فإن خواطر الخير تنقدح في كيانه ، ويندفع العقل للتفكير فيها والتأمل في ملامحها ، فترتاح النفس إلى ما انقدح في القلب من فعل الخيرات ، ويشرق حب الصالحات بالنور والضياء ، فيندفع الإنسان من خير إلى خير من غير تكلف ، فإذا جاءت وساوس الشيطان بخواطرها المذمومة فسرعان ما يتمكن القلب من التغلب عليها بما يملكه من الاستعداد للخير الميسر له ، وأحياناً يقع التدافع والتغالب في خواطر الخير والشر ، ودواعي العمل الصالح والميل الغريزي للأهواء ولكن القلب المعمر بالتقوى سرعان ما يكون قادراً على تغليب الخير على الشر ، فلا تقوى الأهواء على مغالبة قوى الخير في القلوب المؤمنة التي تستشعر الخشية عند ذكر الله.

وهذا ما يؤكده القرآن الكريم في وصفه الدقيق لقابليات الخير والشر في القلوب ، في قوله تعالى:

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

والطريق إلى يقظة القلوب هو تزكية النفوس بالتحكم في غرائزها وميولها بحيث تكون منسجمة مع حسن الخلق الذي هو صفة من صفات المؤمنين ، ولا إيمان بغير حسن الخلق ، فالخلق هو صورة الباطن ، وكما يحسن بالعبد

أن يحرص على حسن ظاهرة بالتجمل والنظافة والعناية بالأبدان لكي تكون معتدلة في أشكالها ، فكذلك يجب عليه أن يحرص المؤمن على جمال الباطن المتمثل في الأخلاق ، فيتغلب على الصفات المذمومة فيه والتي يخجل من إظهارها كالطمع والحسد والحقد والأنانية وشدة الغضب والانقياد للشهوات .

ويحصل حسن الخلق ، عن طريقين ، إما عن طريق ما يخص الله به بعض عباده من رعاية وتكريم فيخلقهم بطبائع الاستقامة والتعلق بالمكارم ، وهذا هو الأصل في الفطرة الإنسانية ، فالفطرة خلقت صافية طاهرة بيضاء نقية ليس فيها ذلك الزيغ وليس فيها ذلك الميل نحو الضلال والانحراف ، إلا أنها قد تنحرف عن مسارها السليم بتأثير التربية والبيئة غير الأخلاقية التي تزين للناس سوء عملهم وتحببهم فيما يكرهون بحكم الفطرة ، وهذه النفوس هي المهيأة ليقظة القلوب وهي التي ترسخ القيم الإيمانية السليمة التي تجعل القلوب خاشعة وجلة لذكر الله وما نزل من الحق .

وأما الطريق الثاني لحسن الخلق فيتمثل في رياضة النفوس ومجاهدتها بتكلف المحمود من الصفات والابتعاد عن مذمومها ، بالتأمل في أوصاف الصفات المذمومة ، ومراقبة آثارها السيئة على صاحبها ، ومخالفتها لصفات الكمال ، ولا يكون الخلق المحمود إلا بالتخلق وهو بذل الجهد للتغلب على الأهواء والغرائز ، لأن هذه الأهواء يستلذها الطبع في البداية ، وتميل إليها الغريزة ، واللذات الحسية أمور مرغوبة لما تخلفه من لذة عاجلة .

وقلب المؤمن في لحظة اليقظة يضيق بالأهواء والشهوات ، لأن الشرع قد منعها ، وما يرفضه القلب تبتعد عنه الحواس بطريقة تلقائية ولا تلتفت إليه .

المؤمن على مراد الله :

ويؤكد الشيخ رحمه الله أن المؤمن يختلف عن غيره بأن مراده الله تعالى ، وأنه لا مراد له غير الله فينصرف اهتمامه إلى ما هو محبوب إلى الله من الأفعال ، ولا تخرج أفعال العباد عما هو محبوب ومكروه ، فالمؤمن يفعل ما هو محبوب ويترك ما هو مكروه ، وهذا هو معيار صدق الإيمان .

وغير المؤمن يفعل ما يمليه عليه هواه ، لأنه خاضع لشهواته ، ولا يبحث عن مراد الله ، فما يسعده هو ما يوفر له اللذة العاجلة والمصلحة الآتية ، وهذا هو معيار اختياره لأفعاله.

ويتميز المؤمن بالتزامه لمعيار اختياره ، وهو ما هو مطلوب منه وما هو محمود وما هو محبوب ، والمحب لا يحب إلا ما يحبه محبوبه ، فمن أحب الله أحب مراد الله ، فما يأمره به يفعله ، وما ينهاه عنه بتركه ، وهذا هو مفهوم الطاعة لله تعالى ، ولا يختار ذلك خوفاً أو رغبة ، وإنما يختاره حباً لله تعالى الذي أنعم الله عليه بنعم كثيرة.

ووسيلة المؤمن لمعرفة مراد الله تعالى هو التفكر والتدبر والتعلم وطريق ذلك هو مصاحبة الصالحين الذين يدلونه على الحق ويساعدونه على تعرف طرائقه ، لئلا يضل طريقه ، والغاية من مصاحبة الصالحين عمارة الباطن وهو القلب بالمجاهدة والتزكية المستمرة والتغلب على حظوظ النفس لكي يصل إلى الإيمان الصحيح الذي يثمر في قلبه النور ويساعده على العمل الصالح ، وأول ما يجب أن يبدأ به هو إصلاح عيوب نفسه والتخلق بالخلق الحسن المحمود ، وهو الغاية التي يريدها الدين في تربيته وتعاليمه.

ولا غاية للدين إلا إصلاح العبد لكي يكون عبداً لله ملتزماً بأحكامه وأوامره ، يحب ما أمره الله به ، ولا يأمره الله إلا بما هو أحسن وبما فيه الصلاح والاستقامة.

والمؤمن الحق هو من يكون ذلك النموذج الحي للإنسان الملتزم الذي يسعى بكل جهده للعمل الصالح ، بادئاً بإصلاح نفسه ومنتهياً بمساعدة الآخرين على إصلاح نفوسهم ، والنهوض بأمر مجتمعهم ، وليست هناك غاية أخرى للدين.

رأيه في التوبة :

حظي موضوع التوبة باهتمام الشيخ رحمه الله ، وكان يعتبر ذلك هو البداية لإصلاح النفس وهو الخطوة الأولى الدالة على إرادة العبد في الانتقال من

الظلمة إلى النور ومن الضلال إلى الهدى.

والتوبة في اللغة الرجوع ، والمراد بها الرجوع من طريق مذموم إلى طريق محمود والرجوع إلى حيث الاستقامة التي تنسجم مع الفطرة الأساسية للعبد ، فالفطرة تحب الكمال وتميل إليه ، إلا أن النفس قد تدفع العبد تحت تأثير الغريزة إلى سلوكيات خاطئة ، والنفس تميل إلى الشهوات والملذات ، وقد تعتادها وتأخذ بها ويصعب عليها أن ترجع عنها.

وفي الرجوع مشقة ، لأن الاعتياد يوجد الألفة والتعلق ، ولابد للرجوع والإقلاع من جهد مضاعف ، ولذلك يحتاج الأمر إلى مجاهدة النفس ، وأول خطوة في مقاومة الذنوب أن يعرف العبد حقيقة الذنب ، وما يؤدي إليه من أضرار ، فالعلم ركن ضروري في التوبة ، ولا يتوب ألانسان عن فعل إلا بعد اكتشاف ضرره عليه فإذا لم يقتنع بضرره فلا يقلع عنه ، ولذلك تحتاج التوبة عن الذنوب إلى معرفة تلك الذنوب وما تلحقه من ضرر.

والذنوب هي مخالفات لأمر الله ، ولابد من معرفة الأوامر والنواهي ، وما جاء الأمر بها إلا لفائدتها ، وما جاء النهي عنها إلا لضررها ، ولهذا كانت المعرفة ضرورية في التوبة ، فلا يقلع العبد عن صفة إلا بعد معرفته بضررها.

النفس موطن الذنوب:

والذنوب مصدرها النفس ، والنفس هي موطن الغريزة ، فالعقل لا يرتكب الذنب لأنه يعقل ضرره ، والعقل هو القيد ، إلا أن العقل لا يملك القدرة على التحكم في الحواس بتأثير الغريزة التي تتمرد على أوامر العقل وقيوده ، والعقل يدرك ضرر الذنوب إلا أنه لا يستطيع كبح جموع الغريزة إلا بتوفير قوة نورانية تعينه على ذلك.

وأحياناً تقوى النفس وتطغى بتأثير ما ينمى فيها قوة الغريزة ، إلى أن تصبح الغريزة كالأنياب الحادة يصعب التغلب عليها ، بتأثير البيئة التي تنمى الغرائز الشهوانية والغضبية ، فالسلطة تنمي الغرائز والمال كذلك والشهوة إلى أن تصبح الغريزة متمردة على كل القيود ، فلا تسمع إلا ما تريد ولا ترى إلا

ما يشبع تلك الغرائز ، ولهذا يضعف دور العقل ويصبح أسير الغرائز ، ويسعى لإشباعها ، ويوظف كل طاقاته لخدمة الغرائز النفسية.

ويندفع العبد تحت تأثير الغرائز وبخاصة الغريزة الشهوانية لإشباع رغباته ، لا يوقفه شرع ولا عقل ، فيغرق في مستنقعات الشهوات ، ويبحث عن الملذات حيثما كانت ، يأكل كل ما يجد فيه لذته من طعام وشراب ويلبس كل ما يشتهيه من أنواع الملذات ، ويبحث عن لذاته الجنسية حيث كانت ، محمودة أو مذمومة ، ولابد أنه يصطدم بحقوق الآخرين فيعتدي عليهم بقوته ، وسلطانه ، فإذا وقف أحد في طريقه فسرعان ما تستيقظ غريزة الغضب لديه ، فينفلت زمام لسانه بالشتم والقذف وزمام يده بالاعتداء على الضعفاء الذين لا يقدرون على مقاومته.

نور التوبة :

ولابد من الرجوع إلى الحق والكف عن هذا السلوك المذموم الذي قادته إليه الغريزة الطاغية ، وقلما يكون الرجوع ممكناً ، إلا بقوة غالبة وبنور إلهي يجد العبد نفسه متعلقاً به ، يمسك بيده وينقذه ويخرجه من ذلك البئر الموحش المظلم القذر.

ذلك النور الذي يتراءى من بعيد كشمعة مضيئة في نفق مظلم ، سرعان ما يصبح كمثل المصباح أو كذلك النور في النفق المظلم ، تلك هي الرعاية والعناية الإلهية ، أنها تجد في قلب ذلك العبد نوراً خافتاً مغلفاً بغلاف كثيف من الغفلة الناتجة عن البيئة غير الطاهرة التي يتحكم فيها رفقاء السوء.

ذلك النور الخافت إذا سمع كلمة الحق ازداد ضياءه ، فأشرفت في جنبات القلب شعلته ، ذلك هو الحال الذي يعتري العبد المذنب فيصحو من رقاده ، وكأنه في كابوس مخيف ، ويرفع ما تراكم عليه من أثقال ، ويقف على رجليه قوياً شامخاً يبحث عن سر ذلك الوهج الذي أشرق في قلبه ، ويمسك به وكأنه القمر الذي وجد نفسه في مرآته ، ما أروع ذلك الشعور . . . يقظة بعد غفلة ، نور بعد ظلمة ، هداية بعد ضلال ، سكون نفسي يخيم عليه . ويلفه بأثواب نقية بيضاء معطرة.

إنه الدفء الجديد الذي يجده التائه بعد ضياع طويل في صحراء موحشة ، دفء الإيمان واليقين ، دفء الطمأنينة والسكون . . دفء الصفاء والاستقامة .

وتتحرك الأرض الخصبة وتهتز بعد أن غمرها الماء بما يحييها ، وترتفع أغصان الشجرة التي زرعها العلم ورعتها المعرفة ، وتظهر ثمرات تلك الشجرة عملاً صالحاً طيباً .

وأول ثمرات ذلك الشعور العميق ندم وحزن وألم ، دموع تنهمر تعبر عن ذلك الشعور العميق ، هذه الدموع ليست دموع حزن فقط وإنما هي دموع فرحة أيضاً بذلك النور الذي أشرق في النفس ، ويطوى هذا العبد ذكريات تلك الفترة المظلمة ، يريد أن ينساها لكيلا يتألم ، يريد أن يعيش يومه الجميل ، لا يريد أن يشغله ذنبه عن ربه ، ذلك الانشغال حجاب جديد ، وما بقي من العمر قصير ، وينسى أيامه القديمة ويطل من النافذة على الغد ، إنه عهد اليقظة والنور .

كان الشيخ يحذر من خطورة الإصرار على الذنب ، فالإصرار على الذنب دليل الغفلة ، وهو مؤشر على وجود الزيع ، والمذنب الذي يصر على ذنبه ويبرره لنفسه لا ترجى توبته ، وتكبر الذنوب بالإصرار عليها والمواظبة على فعلها ، ومن استعظم ذنبه زاد ندمه عليه ، ودل ذلك على نقاء قلبه وكان بذلك أقرب للتوبة والإنابة .

التوبة والعناية :

ويرى الشيخ في التوبة معنى العناية ، فمن شرح الله صدره للتوبة فهذا دليل على أن الله قد أراه حقيقة الذنب فلم يجد فيه تلك الحلاوة التي يراها المذنب في الشهوات والملذات ، وهذا يؤدي إلى أن يضيق صدره بهذه الذنوب ، ويستحي من الله تعالى أن تصدر منه ، وهذا بسبب النور الذي يشرق في القلوب ، فتشعر بقربها من الله ، وتشتاق إلى هذا القرب .

وهذا المعنى دقيق في مفهوم التوبة ، فالتوبة هي توبة عن الآثام والمحرمات ، وهذه هي توبة العوام ، وهناك توبة الخواص وهي التوبة عن

الغفلة ، فلا يغفل المؤمن عن الله ، ولا يكون في السر إلا الله.

والإصرار على الذنب إما بإنكار فعله كذباً أو بتبرير ذلك الفعل دليل على عدم الشعور بخطورة ذلك الفعل ، ولو شعر بالندم عليه لما اندفع لتبريره ، والتبرير دليل الإصرار عليه ووجود حلاوته في القلب ، ولابد من الندم في التوبة ، والندم يورث شعوراً بالألم والحزن في القلب ، وكلما أحس العبد بقسوة ألم الذنب في قلبه كان عزمه أصدق في الإقلاع عنه ، فالتوبة تحتاج إلى إرادة وعزم هما ثمرة الندم والألم ، وعندئذ يكون ترك الذنب يسيراً والتغلب عليه ممكناً.

والذنوب أفعال مشتهاة للنفس ولذائذ عاجلة مستحبة ، ولها حلاوة في النفس ، والندم يزيل حلاوتها ، فتكون التوبة ، فإذا استمرت الحلاوة كان الامتناع عنها صعباً ، لوجود الحنين إلى كل ما له حلاوة في النفس.

والشهوات سلوكيات مرغوبة في النفس ، ولا يمكن الامتناع عنها إلا بوجود مرغوب أقوى ، فإذا رغب العبد في شيء زهد فيما يخالفه ، وإذا أحب العبد شيئاً كره ما ينافيه ، ولذلك كان الشيخ رحمه الله يحض على التعلق بالكمال لكي يكون الزهد فيما هو ناقص ، فمن أحب الكمال رغب فيه وزهد فيما ينافيه من أنواع السلوك ، ومن أحب الله أحب طاعته فيما أمر به ، وكره كل ما نهاه عنه ، رغبة منه في القرب ممن يحبه وهو الله ، ولذلك فلابد من العناية المتمثلة في رعاية الله لخلقه ، لكي يحبوا الله ويكون أحب إليهم من كل ما عداه.

كان الشيخ يتحدث عن نور الطاعة وظلمة المعصية ، فالطاعة تولد نوراً في القلب وفرحة وسعادة ، والمعصية تولد في القلب ظلمة وكدراً وحزناً ، ومن استنار قلبه يدرك ببصيرته نور الطاعة وظلمة المعصية ، وما في الباطن يظهر أثره على الظاهر ، والتائب عن الذنب أما أن تكون توبته بنور إلهي يشرق في قلبه أو مجاهدة نفسية يقاوم بها نزعات شهواته ، فأهل النور الإلهي عليهم أن ينسوا ذنوبهم التي ارتكبوها لئلا تذكرهم تلك الذنوب بما يدخل الظلمة والكدر إلى نفوسهم ، فهم أهل صفاء وإشراق ، وتذكر الذنوب يكون حجاباً لهم

وانشغالاً لقلوبهم ، أما أهل المجاهدة فعليهم أن لا ينسوا ذنوبهم ، لكي تعينهم ذكريات الذنوب على تجديد مشاعر الألم والندم في قلوبهم ، ولكيلا يضعفوا أو يستسلموا ، أما الشهوات فتكون ذكرى الذنوب مثيرة لعواطف الكراهية لها ، تجدد عزمهم على استمرار الكف عن الذنوب .

والمذنبون ليسوا سواء في الاستعدادات والقابليات ، وأسباب التوبة ليست واحدة بالنسبة لهم ، فهناك من يتوب توبة نصوحاً لأن الله تعالى كره إليه المعاصي فأخذ يجد في قلبه ظلمتها وكآبتها وكدرها ، وهناك من يتوب بسبب الخوف من الذنوب أن تنفضح ، فيخشى على نفسه من أخطار الفضيحة ، ولو ضمن الستر لما تاب ، وهذه توبة في الظاهر ، وليست توبة في الباطن ، لانعدام الندم والألم القلبي ، وصاحبها سرعان ما يعاودها ، وهناك التائب بسبب خوف من العقاب عند الله ، ولابد من تجديد الحديث عن عقوبة المذنبين ، لتخويفهم من عقاب الله الذي ينتظر المذنبين الذين يفعلون المحرمات التي أمر الله باجتنابها .

محبة الله للتائبين :

والمهم في أمر التوبة هو الكف عن الذنوب ، والالتزام بطاعة الله فيما أمر به ونهى عنه ، ولا يسأل العبد عن سبب توبته ، فذلك أمر خاص بالعبد ، والتوبة كلها خير ، والتائب يستحق التشجيع ، لكي يقدر على مفارقة شهواته وعوائده ، ويقبل من التائب أن يتوب على مراحل متعددة ، وأن يتوب عن بعض ذنوبه ، ما يقدر عليه أولاً ثم يتدرج في التوبة خطوة خطوة .

ويجب أن تفتح أبواب الأمل أمام التائبين مهما فعلوا من آثام وارتكبوا من جرائم ، لأن الغاية هي الإصلاح ، وليست هناك ذنوب لا تقبل التوبة ، فما كان لله فالتوبة مقبولة ، وما كان للخلق فلابد من مراعاة حقوق الخلق ، لئلا يقع الظلم عليهم .

قال تعالى في الحض على التوبة :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] .

﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور : ٣١].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [الشورى : ٢٥].

وهناك أحاديث كثيرة تحض على التوبة ، وتفتح الأبواب أمام التائبين ، ولا حدود لقبول التوبة ، والتوبة الصادقة النصوح مقبولة ومحمودة ، والتائبون مقربون إلى الله ومن تاب عن الذنوب كمن لا ذنب له ، والتوبة لها نور يضيء القلب ، ويشعره بالسعادة والطمأنينة .

وليس هناك يأس ولا إحباط فالتوبة بداية عهد جديد ، لأنها رجوع إلى الله ، ورجوع عن الطريق المبعد عن الله إلى الطريق الذي يقود إلى الله . . . طريق الكمال والاستقامة .

ولولا رعاية الله للتائبين لما وجدوا حلاوة التوبة في قلوبهم ، ولا وجدوا نورها يضيء طريقهم إلى الله . . فالتوبة يقظة بعد غفلة ، وهي يقظة رعاية في لحظة نورانية هبت نسائمها على قلوب استعدت لقبول ذلك النور بما اختزنته في أعماقها من تعلق بالكمال وكراهية لكل ما يناقض ذلك الكمال الذي أمر الله به للارتقاء بمستوى السلوك الإنساني إلى الأفق الذي ارتضاه الله لعباده .

شؤم الذنوب على المجتمع :

ويربط الشيخ رحمه الله بين شيوع الذنوب وما يحل بالأمة من نكبات ، فالله تعالى لا ينصر إلا من نصره وامتثل لأمره ، والأمة التي تتخلى عن ربها فلا تأخذ بما أمرها به سرعان ما تفقد النصرة والمؤازرة ، فتدعو فلا يستجاب لها ، فالله لا ينصر من عباده إلا من امتثل لأوامره ، فالذنوب لها شؤم وسرعان ما يحل هذا الشؤم في الأمة ، فيتكالب عليها أعداؤها ، ويضعف أمرها ، وتحل بها الكوارث والنكبات ، والمذنبون يلاحقهم الشؤم في أرزاقهم وأولادهم وأعمالهم فيقل رزقهم في الغالب ، ولا يوفّقون فيما يعملون .

ونصر الله وتوفيقه لا يكون إلا لمن حفظ الله في أسرته وعمله ، وظلمة المعصية كما تكون في القلوب فإنها تنعكس على الوجوه ، فلا ينشرح القلب في مجالس المذنبين ، ولا تقع الطمأنينة لأعمالهم ، وأحياناً يمد الله المذنب

بأسباب شقائه ، فإذا كسب مالاً فلكي يزداد شقاؤه وإذا نصر في موقف فلكي يكون نصره وبالاً عليه ، ويبتليه الله بالمعصية ، فلا يخرج من معصية إلا لكي يقع في معصية أخرى ، في رحلة الشقاء التي تحل بأصحاب الذنوب .

ويأتي الابتلاء للأمة التي غفلت عن ربها لكي تستيقظ من غفوتها وتعود إلى ربها ، فإذا لم يوقظها الابتلاء ازدادت وطأته عليها ، إلى أن تعود إلى ربها صاغرة .

والابتلاء الذي يحل بأمة الإسلام ابتلاء إيقاظ لكي تعود إلى الله ، تطلب منه النصر والمؤازرة ، والله لا يناصر إلا من يأخذ بأسباب النصر من الاستعداد للنصر لطاعة الله أولاً ، وبالإعداد المادي للنصر ثانياً ، وطالما كان الإصرار على الذنوب قائماً ومستمراً كان الشؤم ملازماً للأمة ، فالشؤم كالمرض ، لا يزول إلا بمعالجة أسبابه ، وأهمها الانقطاع عن الذنوب المولدة للشؤم ، كانقطاع المريض عن الغذاء الذي يسبب له الصداع والغثيان والآلام ، فإذا لم يتمكن من التحكم في شهواته استمرت آلامه وتضاعفت أمراضه .

رأيه في الزهد :

الزهد نقيض الرغبة ، يقال زاهد وراغب ، والزهادة ضد الرغبة ، والتزهيد في الأشياء نقيض الترغيب والشيء الزهيد هو القليل .

ويراد بالزهد انصراف الرغبة عن الشيء ، ولابد في الزهد من وجود مرغوب فيه ، يراه الزاهد أولى بالاعتبار والاختيار ، ولا يطلق لفظ الزهد إلا فيما يرغب فيه ، فالمال مرغوب فيه والدنيا مرغوبة ، ولا زهد فيما لا يرغب فيه .

وسبب العدول عن المرغوب فيه أصلاً هو وجود ما هو مرغوب فيه آخر ، اسمي بالاعتبار والاختيار ، والمرغوب فيه أمر محبوب وإلا لم تكن الرغبة فيه ، فإن وقع الزهد فيه فهذا دليل على وجود محبوب آخر أولى بالمحبة استأثر بالاهتمام وتوجه إليه القلب .

كان الشيخ يتحدث عن الزهد ويربطه بالمحبة ، فلا زهد في مرغوب فيه إلا

بالتعلق بما هو أحب إليه ، فإذا أحب العبد الآخرة زهد في الدنيا ، لا لأنها غير محبوبة ، ولكن لأن القلب أحب الآخرة أكثر ، والزهد ليس مجرد التجرد عن الدنيا وترك زينتها ، وإنما الزهد هو عدم التعلق بها والتعلق مصدره القلب فإذا أحب العبد الله أحب كل ما يريده الله ، وزهد في كل ما يحجبه عن ربه ، لأن القلب له وجهة واحدة ولا يحتمل أكثر من تعلق واحد فإذا تعلق بالله زهد فيما عداه.

الزهد درجة قلبية :

لم يكن الزهد في نظر الشيخ مرتبطاً بوجود المقتنيات المرغوبة التي تستلذها النفس أو عدم وجودها ، وإنما هو مرتبط بعلاقة القلب بتلك المقتنيات ، هل هي علاقة تعلق أم هي علاقة تسخير ، فعلاقة التعلق علاقة إذلال وتبعية ، ويصبح القلب مشغولاً بما تعلق به ، فالقلوب منشغلة دائماً بما تحب ، فإذا أحبت المقتنيات شغلت بها ، وكانت حجاباً لها يحجبها عن أي محبوب آخر ، ولا يمكن لمن أحب الدنيا أن يدعى أنه محب للآخرة ، ولا يمكن لأي محب للمال والمنصب أن يدعى أنه محب لله تعالى ، فالحب الأول حجاب عن أي حب أخر.

وإذا لم يوجد المرغوب فيه فمن الصعب تحقيق الزهد بالمجاهدات ، لأن النفوس بطبيعتها تميل إلى المشتهيات الدنيوية لأنها لذيذة ، ويستلذها الطبع ويميل إليها ، وتشتاق إليها النفس ، وكلما ارتقى المرغوب فيه كانت النفس أكثر تعلقاً به ، فقد يكون المرغوب فيه هو الكمال الذاتي ، وتميل النفس بطبيعتها إلى هذا الكمال ولذلك فإنها تتكلف تخفيف التعلق بالأشياء ، تخلصاً من الصفات المذمومة التي يولدها الطمع ، وهذا الزهد يختلف عن زهد العارفين ، لأنه يدخل في إطار التربية النفسية وتزكية النفوس من الصفات المذمومة ، وهذه خطوة أولى لطهارة القلوب للتخلص من أمراضها.

ولعل الشيخ كان يريد التفريق بين زهد المعرفة وزهد الكمال ، فزهد المعرفة أسمى وأعلى ، وطريقه البحث عن المرغوب فيه فإذا تعلق القلب بذلك المرغوب فيه كان الزهد أمراً حتمياً لانصراف القلب إلى المرغوب فيه ،

أما زهد الكمال فطريقه المجاهدة والرياضة النفسية ، ومن آثار هذه الرياضة أنها تخفف التعلق بالمطموعات إلى درجة الاعتدال ، ومع استمرار علاقة القلب بتلك المقتنيات ، يصبح الزهد في هذه الحالة داخلاً في نطاق معالجة أمراض النفوس والقلوب بإعاداتها إلى حد الاعتدال بإخماد الطبائع الشهوانية للتمكن من التحكم فيها ، لكي تكون في قبضة العقل والشرع.

قال تعالى :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى : ٢٠].

وقال أيضاً:

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف : ٧].

ولابد من تجريد القلب عن أي محبة أو تعلق بأي شيء ، فالزهد وليد الرغبة والتعلق ، ولا يتحقق الزهد إلا بوجود المحبة ، والمحبة تولد التعلق بالمحبوب ، والزهد في كل ما يحول بين القلب وما يحب ، ومحبة الله هي الأسمى ، فمن زهد في الأشياء التي تحجبه عن ربه فهو محب من جهة وزاهد من جهة أخرى لوجود المرغوب فيه.

والزهد حال يعتري العبد في لحظة نورانية ، يعرض فيها عن كل ما يحول بينه وبين محبوبه الذي تعلق به ، والتفاضل هنا ليس تفاضلاً عقلياً بين مرغوب فيه ، ومزهود فيه ، وبين الدنيا والآخرة ، وإنما هو ميل القلب إلى ما يحبه ، ويقع الزهد في هذه الحالة من غير مجاهدة وإعراض ، فمن تكلف الزهد بالمجاهدة فهو عاجز عن ذلك ، لأن القلب لا يمكن التحكم في حركته ، ولهذا يدعى البعض الزهد من باب المجاهدة والتكلف ، وهذا دليل على عدم وجود المقتنيات والمشتهيات ، وعدم التعلق بها ، فلو كان فقيراً ، ولا يملك شيئاً منها وكان قلبه معلقاً بها فليس زاهداً ولا يوصف بالزهد ، وقد يكون فقد المال من أسباب التعلق به ويكون المرغوب الأول فيه.

والزاهد في نظر الشيخ هو الذي لا يشغله زهده ، أي ألا ينشغل بزهده عن

محبوبه ، فمن شغله زهده فهو محجوب ، بالوسيلة عن الغاية ، وهذا هو زهد العارفين المقربين ، وهؤلاء لا يرون زهدهم ، لانشغالهم عنه بما يرغبون فيه ، والطريق إلى الزهد ليس حمل النفس على الزهد ، فهذا زهد في الظاهر مع التعلق بالمزهود في الباطن ، وهذا الزهد لا يفيد صاحبه في مجال المعرفة والقرب من الله ، وقد يكون مفيداً في مجال تزكية النفس بالمجاهدات والرياضات النفسية التي تقوم على أساس معالجة الأمراض بنقيضها ، للتخفيف من حدة التعلق بالأموال والمناصب بطريق مذمومة تعبر عن النهم والطمع الضار بصاحبه الذي يدفعه للمهالك .

الزهد والإعراض :

ويفرق الشيخ بين الزهد والإعراض ، فالزهد أن تزهد فيما تملك ، وتشعر بزهدك ، لأنك تركت ما تطمع فيه النفس ، فأنت تشاهد زهدك ، وقد تنشغل به ، وقد يكون دافعك إلى الزهد هو الخوف من النار أو الطمع في الجنة أو الثواب ، أما الإعراض ، فأنت لا ترى المزهود فيه لانشغالك بالمرغوب فيه ، والعبد يعرض عن الدنيا ، لأنها لا شيء في نظره وما يعرض عنه العبد هو الشيء الذي لا يستحق أن يهتم به ، ففي الأعراض لا شيء يزهد فيه لإنعدام الرغبة فيه ، والتدافع بين المزهود فيه والمرغوب فيه .

ولا يكون الزهد حقيقياً إلا عندما يقع استغراق القلب في المرغوب فيه ، بحيث ينعدم المزهود فيه ، وكأنه لا شيء يستحق الزهد فيه فإن زهد العبد وقلبه متعلق بالمزهود فيه فهذا ليس من الزهد في شيء لأن الالتفات إلى الدنيا قائم ، وهذا الالتفات هو الحجاب الشاغل الذي يشغل القلب .

ولا يتنافى الزهد مع العمل والسعي والكسب ، وغاية العمل ليس مجرد الكسب ، وإنما القيام بما يجب لتوفير أسباب الحياة ، فليس الزهد نقيض العمل ، ولا يتنافى العمل مع الزهد ، وفائدة الزهد أنه يحرر الإنسان من التعلق والانشغال ، ولا يمنعه من العمل ، فإذا تحرر التاجر من التعلق بالمال كان أقدر على التجارة يتحكم بها كما يريد ، لا يفرحه الكسب ولا تحزنه الخسارة ، وإذا تحرر الموظف من التعلق بالمناصب كان أقدر على القيام

بواجبه ، فلا يشعر بالخوف من كلمة الحق ، وإذا تحرر السياسي من التعلق بالجاه والرياسة كان سيداً في أقواله وأفعاله ، لا يتملق العامة في أقواله ، ولا يلحق بهم ، بل هم الذين يلحقون به ، لأنه صادق اللهجة ، ولا يحتاج إليهم ، وهذا ما كان الشيخ يقرره في مفهوم الزهد ، فالزهد ليس الكسل وليس الاحتياج إلى الناس ، وإنما هو درجة تعنى التحرر من قيود التعلق إلى فضاء التحرر من الخوف والمطامع الدنيوية والمصالح الشخصية .

الزهد ليس نقيض التنعم ، فمن زهد لا يعني أنه يعدم نفسه ، ولا يشعر بلذة الطعام والشراب والملبس والمسكن ، فقد يملك الكثير وهو زاهد غير متعلق بما يملك وغير ملتفت في قلبه إلى ما يملك وليس من الزهد التلذذ بالخشونة والفقر والحاجة ، فهذه المظاهر قد يراد بها الرياء لاكتساب حسن السمعة عند الناس والمكانة المتميزة ، وهذا هو عين التعلق بالملذات ، وهذا هو التفات القلب المذموم إلى الدنيا ، لأن الاهتمام بما يقوله الناس مناف للزهد .

والزاهد الحق يزهد فيما يقوله الناس عنه ، فلا يلتفت إلى مدحه إذا مدحوه ، ولا يلتفت إلى ذمه إن ذموه ، مكتفياً بما يعلمه الله فيه ، فإن أسعده ما يقولون فيه من حسن الظن فهذا ليس من الزهد فالقلوب تتعلق بما يقوله الناس .

ومن الزهد الزهد في الناس وفيما يقولون ، لأنه منشغل بما يرغب فيه عن الناس ، فإذا التفت قلبه إلى الناس شغل بهم عن الحب الذي سكن قلبه .

والزهد في نظر الشيخ صفة إيجابية وليست صفة سلبية ، هي تعني الحياة ولا تعني الفناء ، تعني العمل ولا تعني الكسل ، تعني الرقي في الاهتمامات ولا تعني إماتة الرغبات ، فالزاهد قد يكون الأفضل في عمله وتجارته ومظهره وملبسه ، ويجب أن يكون الأفضل على الدوام ، لأنه متحرر من الخوف من الفقر ومتحرر من الشهوات ومتحرر من صفة النهم في طلب الأشياء ، فهو دائم الفرحة لعدم وجود ما يدفعه للطمع والخوف . . . فالدنيا موجودة في حياته وليست موجودة في كيانه ، تخاف منه لتحرره منها ولا يخاف منها لزهده فيها ، تلاحقه فلا تلحق به لأنه معرض عنها ، تبحث عنه فلا تجده لأنه راغب في

غيرها ، تريد أن تأنس به وهو يأنس بغيرها مما تعلق قلبه به لا يفرح بموجودها من لذائذها ومتعها وشهواتها ولا يحزن على مفقودها ، يستوي عنده مادحه وذامه ، لأنه يعلم أن الله تعالى يعلم مافي قلبه ، والمدح والذم سيان عنده لأنه لا يفرح بما ليس عنده ولا يحزن لما سلب منه .

رأيه في المحبة :

حظيت فكرة المحبة باهتمام الشيخ رحمه الله في مذاكراته وأحاديثه ، وكان يركز على المحبة وشرح معناها وبيان آثارها ، وكان يعتبرها الخطوة الأولى في السلوك ، والغاية المرجوة من كل إصلاح ، ولو تحاب الناس لاستقامت أمور المجتمع ، والمحبة تعني التضحية ، لأن المحب يعطي ويحسن ، وبفضل المحبة تزداد المودة بين الناس .

والمحبة تعني الميل ، فمن أحب شيئاً مال إليه ، والميل هو بداية الطريق إلى المحبة ولا يميل الإنسان إلى شيء إلا بعد معرفته أولاً ووجود لذته فيه ثانياً ، والإنسان يحب الجمال لأنه يجد لذته في النظر إليه ، ويبتدىء ميله إليه ، وهنا تكون المحبة ويكون هذا الميل هو بداية المحبة .

والكمال شيء جميل ، ولذلك يميل الإنسان ويحبه ومن أحب الكمال أبغض ما ينافي الكمال من السلوك ، فالإنسان يحب الصدق لأنه كمال ويكره الكذب لأنه مناف للكمال ويجد القبح فيه .

المحبة ثمرة المعرفة :

ومن عرف الله أحبه وتعلق به ، ويعرفه بكماله الذاتي ويعرفه بإحسانه إلى خلقه ، وهذه المعرفة تولد الحب ، وهذا هو الأصل ، وقد يقال بأن الحب يولد المعرفة ، فمن أحب الله عرفه وكانت المعرفة هي ثمرة الإقبال على الله والتعلق به وإيثاره على ما سواه ، ومن أحب الله أطاعه وامتثل لأوامره ، فكان مراده موافقاً لمراد الله .

وكان الشيخ يفرق بين محبة العوام لله ومحبة العارفين ، فمحبة العوام ترتبط بإحسانه إليهم بالنعم ، وهؤلاء يحبون الله لما أنعم به عليهم ، فحبهم لله هو

حب لتلك النعم ، لأنه المنعم عليهم ، وهذا الحب ليس حباً ذاتياً لذات المحبوب ، وإنما هو حب مرتبط بسبب كحب المتعلم للمعلم وحب المريض لطبيبه ، فهو حب ليس لذات المعلم ولذات الطبيب ، وإنما هو حب لما قام به من إحسان ، ولولا ذلك الإحسان لما كان الحب ، وهذا الحب هو أقل درجة من الحب الذاتي ، فهناك محبوب لذاته ومحبوب لغيره ، فالمال محبوب لغيره وليس لذاته .

أما محبة العارفين والمقربين فهو حب ذاتي تولده المعرفة بذات المحبوب ، ولابد لهذا الحب من المعرفة ، فمن عرف الله أحبه لذاته ، لا لإحسانه إليه ، وهو حب الكمال ، ويجد المحب لذة في حبه ، لوجود نسبة بين المحب والمحبوب ، وهو حب الكمال ، وهذا الحب فطري وتلقائي ، لأن القلب تشرق فيه هذه المحبة ، وهذا هو الأصل في كل القلوب ، إلا أن القلب قد يحجب عن النور الإلهي فلا يشرق فيه ذلك النور ، بسبب ذلك الحجاب الكثيف ، إما بسبب المعاصي والآثام التي تؤدي إلى قسوة القلوب وإما بسبب تعلق القلب بالدنيا والتفاته إليها فيحجب بسببه عن ذلك النور .

ويرى الشيخ أن محبة الله لها علائم وقرائن يمكن لكل محب أن يراها ، ويعرف طبيعة حبه ، فمن أحب الله طمعاً في جنة أو خوفاً من نار كان حبه لهذا الغرض ، وهو حب محمود ومن آثاره الكف عن المحارم والإتيان بالأوامر ، ومن أحب الله لذاته شعر بالأنس به واستوحش من الخلق ، فلا يشغله عن حبه شاغل ، ويرتقي هذا الحب إلى درجة الفناء في الله ، فيكون الله في سره ، ويشعر بالسكون والطمأنينة ، ومن آثار هذا الحب أنه يرضى بما اختاره الله له ، ويسلم أمره لربه ، ويتوكل عليه .

ومن أحب الله أحب كل ما يحبه الله ، أحب أنبياءه وأولياءه وأحباؤه ، وأحب الصالحين الذين يعملون الصالحات ، وأحب في الله وأبغض في الله ، لأن المحبة تنتقل من المحبوب إلى كل ما يرتبط به ويحيط به ، وتتسع دائرة هذه المحبة ، فيكون كل محبوب لله محبوباً ، وتصبح المحبة رابطة قوية بين المؤمنين يجمعهم حب الله ، وما يحبه الله من عمل الصالحات .

وتكون هناك أسرة إنسانية متسعة ، يجمعها شعار واحد ، الحب في الله ، والبغض في الله ، وينقسم العالم كله إلى معسكرين ، معسكر الخير الذي يعمل الصالحات ، ومعسكر الشر الذي يسعى في الأرض فساداً ، ويثير الفتن والحروب ، ويهدر القيم الإنسانية الرفيعة .

شعار محبة الله ليس مجرد علاقة خاصة بين الإنسان وربه معزولة عن قضايا الناس ، وإنما هي إعادة تأسيس لعلاقات إنسانية راقية ، غايتها تعزيز قيم الخير ومطاردة رموز الشر ، فالحب في الله هو رابطة جديدة لعلاقات إنسانية بين شعوب مختلفة ، والبغض في الله هو مطاردة رموز الشر بإظهار العداوة لهم ، لأنهم خرجوا عن الاستقامة ونشروا الفساد في الأرض ، فإظهار الكراهية للظالم والفاسق والكافر والقاتل والمفسد هو تنبيه له وتحذير وتخويف من مغبة تحدي قيم الخير التي أمر الله بها ، ومثل هؤلاء يجب إشعارهم بأن الله تعالى يبغض أفعالهم القبيحة ويدعوهم إلى التوبة والرجوع إلى طريق الله وهو طريق الخير.

وحب الله هو حب للكمال ، والارتقاء بمستوى سلوكها ، فمن أحب الله فقد اختار طريق الاستقامة ، واختار مواقف الخير وتحصن داخل حصون الدفاع عن القيم الإنسانية ، وأقام معسكراً للخير في مواجهة رموز الشر الذين يحاربون الله ورسوله في سلوكهم ومواقفهم وطغيانهم .

والذين يفعلون الخير انطلاقاً من حبهم لله تعالى ولمن يحبهم الله تعالى من أنبيائه وأوليائه والصالحين يحدوهم أمل كبير ويدفعهم حافز قوي وهو أنهم سيلاقون ربهم في الآخرة ، وهم يعتقدون أن الله شهيد على ما يفعلون ، وأن الكلم الطيب يصعد إليه والكلمة الطيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، ولابد إلا أن تؤتي ثمرها بإذن ربها وتكون محبة الله هي الماء الذي تسقى به أشجار الخير التي تجسد الإنسانية في تطلعها إلى الكمال لعمران هذه الأرض التي استخلف الله الإنسان وسخرها له ليعبد الله ويقيم فيها شريعته وتهتدي البشرية إلى طريق الحق والنور والهداية .

محبـة الله رسالـة إنسانيـة :

ومحبة الله في نظر الشيخ هي رسالة إنسانية ودعوة مفتوحة للخير ، لكي يطارد الشر من خلال هذه المحبة التي تجمع البشر على الساحة الإنسانية التي ترفع فيها شعارات الاستقامة في السلوك والتعلق بالكمال والسمو في مستوى التصورات والابتعاد عن الشهوات والملذات المذمومة ، والتحكم في علاقة الإنسان بالمال والجاه والمقتنيات الدنيوية بحيث يصبح الإنسان متحرراً من القيود المذلة لإنسانيته .

ومحبة الله هي تجسيد لتلك المعاني السامية ، وهي الشعار الذي يجمع المتقين والصالحين لكي يكونوا نواة لمعسكر الخير في مواجهة رموز الشر من الطغاة والمفسدين والظالمين الذين ما جاءت الأديان السماوية إلا للتضييق عليهم ومقاومة ما يفعلونه في الأرض من فتنة وفساد .

فإذا تعلق القلب بالله كان أكثر ثباتاً على قيم الخير ، وأكثر صعوداً في مقاومة الشر ، والذين يزهدون في الدنيا ولا يتعلق قلبهم بملذاتها لا يخافون ولا يرهبون ، لأنهم لا يحزنون على مفقود ولا يطمعون فيما يذل الجباه من متاع الحياة وزينتها .

والذين يحبون الله ويجدون أنسهم في ذلك الحب ، فتسكن نفوسهم وتطمئن قلوبهم ، فهم راضون بما أكرمهم الله به من نعمة ، شاكرون لما أفاءه عليهم من فضله ، قانعون بما فيه لا يذلهم الطمع ولا يحني رؤوسهم الخوف .

هؤلاء أحبوا الله وأحبهم الله ، فكان الله أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم وإخوانهم وعشيرتهم ، وأموالهم وتجارتهم وهؤلاء هم المؤمنون حقاً .

قال تعالى :

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٢٤] .

وقال أيضاً:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ [المائدة: ٥٤].

ولذلك فالمعرفة هي أساس المحبة، فمن عرف الله أحبه، ومن أحبه أقبل عليه بالتوبة أولاً وبعمل الصالحات ثانياً، وكان الشيخ يدعو إلى الإقبال على الله والصدق في هذا الإقبال، ولابد من الصدق في الإقبال، ومن علائم الصدق في الإقبال، الإعراض عن الدنيا وعن متاعها وزخرفها، فمن ادعى الإقبال من غير إعراض عن الدنيا فهذه دعوى والمدعي لا يجد حلاوة الإقبال في قلبه، فيكون إقباله متكلفاً، ولا حدود لحلاوة الإقبال، وهو أمر ذوقي، ومن ذاق حلاوة الإقبال زاد صدقه وازداد إعراضه عن المشاغل التي تحجب القلب عن الدنيا.

وهذا المعنى هو ما عبرت عنه الأبيات التالية:

كانت لقلبي أهواء مفرقة ... فاستجمعت منذ رأتك العين أهوائي

فصار يحسدني من كنت أحسده ... وصرت مولى الورى منذ صرت مولائي

تركت للناس دنياهم ودينهم ... شغلاً بذكرك يا ديني ودنيائي

ومن أحب الله اشتاق إليه، وهو شوق يختلف عن شوق العبد للأشياء، والشوق إلى الله هو التعلق بالكمال، والبحث عن ذلك الكمال بالاستزادة من المعرفة بالله، فإدراك العبد إدراك قاصر ومحدود، ولا يتجاوز ما تدركه العقول القاصرة، ولذلك فالشوق إلى الله هو شوق لمعرفة ما لم تدركه العقول من أنواع المعارف التي تشرق في القلوب، فتمنحها الأنس بالله والأنس هو أثر من آثار المحبة الناتجة عن معرفة الله، ولا حدود لشوق الأبرار والصالحين والمقربين إلى لقاء ربهم، ومن علائم الأنس بالله التوحش من الخلق والابتعاد عنهم وعن مجالسهم، والشعور بالسكون والطمأنينة القلبية التي تولد في النفس الرضا عن الله وعما اختاره الله له، فلا يتبرم ولا يضيق بما قدره الله له.

* * *




الفصل الرابع
مواقفه من بعض القضايا

المبحث الأول : موقفه من العلم

المبحث الثاني : موقفه من المال

المبحث الثالث : موقفه من المرأة

المبحث الرابع : موقفه من السياسة والحكام

المبحث الخامس : موقفه من الطرق الصوفية

المبحث السادس : موقفه من الفقهاء




الفصل الرابع
مواقفه من بعض القضايا

كان الشيخ رحمه الله صاحب مدرسة تربوية متميزة بخصوصيتها الفكرية والسلوكية وبمواقفها الثابتة من القضايا العامة ذات البعد الاجتماعي والوطني والثقافي ، ومن اليسير تتبع ملامح هذه المدرسة من خلال أفكار وسلوكيات المنتمين إليها ، وهي أفكار واضحة لا لبس فيها في ملامحها ، وقد يقع الاختلاف في فهم تلك المواقف ، إلا أنَّ من اليسير التغلب على هذه الظاهرة من خلال النسق العام لأراء الشيخ وتوجيهاته في المواقف المختلفة.

والتعددية في فهم تلك الملامح دليل على خصوبة ذلك الفكر وقابليته لمواكبة المواقف المستجدة ، فلم يكن فكر الشيخ منغلقاً وضيقاً ، ولم يكن فكراً تقليدياً جامداً ، ولم يكن يرفض المعاصرة والتجديد ، وكنا نجده في المواقف المختلفة يملك إمكانات خصبة من الثراء والغنى ولعل التركيز على جانب واحد من الملامح أعطى الانطباع بعزلة هذه المرسة وجمودها. . .

وربما نستطيع فهم طبيعة هذه المدرسة التربوية من خلال خصوصيتها ، فهي ليست مدرسة فقهية تعنى بشؤون الاجتهادات الفقهية لكي يكون لها اختياراتها التأصيلية في مجال الفقه والأصول ، ولم تكن مدرسة تفسير وحديث لكي يكون لها منهجها في التفسير والتعليل الحديثي والحكم على الرواة والأسانيد ، ولم تكن مدرسة كلامية تعنى بشؤون العقائد والجدل للدفاع عن عقيدة أهل السنة في مواجهة المدارس الكلامية والفلسفية ، ولم تكن طريقة صوفية بمفهوم الطرق الصوفية ذات أوراد وطقوس وأحوال ، وإنما كانت

مدرسة تربوية ذات خصوصية روحية تعتمد على تزكية النفوس وإصلاح القلوب ، ولها مفاهيمها المعرفية في مجال السلوك التربوي ، وهي مرتبطة كل الارباط في سلوكيتها بأحكام الشريعة ولا تخرج عنها وتلتزم بها ولا تجتهد في مجال الأحكام الفقهية بما يخرج عن نطاق المذاهب الفقهية السائدة ، وتلتقي مع الفكر الصوفي في مجال التربية الروحية والمجاهدات والإلتزام بالآداب الشرعية وتهذيب النفوس وطهارة القلوب ، وتختلف في أسلوبها عن المدارس الطرقية التي تعتمد الأوراد والأذكار التي تعتبر العمود الفقري للطرق الصوفية وتدين مزالق تلك الطرق وما تحفل به مجالسها من طقوس الطرب والسماع وحالات الوجد والاستغراق ، وهي بالرغم من ابتعادها عن السياسة ونفورها من مجالس السلطة فهي ذات مشاركة هامة في المواقف العامة التي تعبر عن الانتماء الوطني والمشاركة في القضايا العامة التي تعبر عن دور العلماء الإيجابي في دعم قيم الخير في المجتمع ، وتعبئة المواطن ضد الأخطار التي تهدد وحدة الأمة وسيادتها للدفاع عن الهوية الثقافية والدينية للمجتمع .

ورسالة هذه المدرسة هي رسالة تربوية تهدف إلى إصلاح المجتمع عن طريق التربية الصحيحة المستمدة من القيم الإسلامية ، والأهم من ذلك أنها تعيد للفكر الصوفي صفاءه الروحي البعيد عن الطقوس السائدة ، وتعيد ربط هذا الفكر بأصوله القرآنية وبمنطلقاته السلوكية المستمدة من السيرة النبوية ، بحيث تصبح الحقيقة هي ثمرة للشريعة ، ويقع التواصل والتكامل بين الظاهر والباطن لتكوين شخصية إسلامية ملتزمة بآداب الشريعة في سلوكها الظاهري وفي خواطرها الوجدانية .

ذلك هو المنهج الذي توصلت إليه من خلال تتّبعي الدقيق لأحاديث الشيخ ومذاكراته وتوجيهاته ، وهو منهج قابل للعطاء في امتداد رؤيته ، ويهدف إلى تكوين شخصية إسلامية مشبعة بروح الإسلام ، قوية بتكوينها التربوي ، مطلة على عالمها الخارجي إطلالة المؤمن الواثق من صحة الطريق متحررة من قبضة الشهوات الغريزية مستمدة قوتها من الله تعالى ، يدفعها إيمانه بالله إلى السعي في الأرض بما يرضي الله وبما يشعرها بقوتها من الله تعالى ، يدفعها إيمانه بالله

إلى السعي في الأرض بما يرضي الله وبما يشعرها بالطمأنينة والسكون.

مدرسة إسلامية ذات منهج عميق روحي ومعرفي ، تلتقي في أصولها مع الفكر الصوفي وتجسد قيمه ومفاهيمه وتعبر عن أخلاقياته واهتمامه في تصحيح صورة الباطن وتختلف عنه في تمسكه ببعض المظاهر الطرقية التي ليست من حقيقة التصوف والتي أساءت إليه ، فالتصوف في حقيقته صفاء وطهارة وتهذيب ، واهتمام بطهارة الباطن ويقظة دائمة وهمة عالية ومعرفة بالله تعالى وخشية منه ورجاء في عفوه ومغفرته ، وإيثار الله تعالى على كل ما عداه ، والزهد في الدنيا وعدم التعلق بها ، وافتقار دائم إلى الله تعالى ، وخدمة لعيال الله ، وأدب متميز في الأقوال والسلوكيات ، والتماس العذر للخلق فيما هم فيه ، والتزام بالأوامر والنواهي ، ومحبة لله دائمة وشوق إليه . . .

ومن مظاهرها التحقق بصفة العبدية لله تعالى ورفض كل عبودية للخلق مهما علت مرتبتهم ، والتواضع في معاملة المستضعفين والتكبر على المتكبرين والمعجبين بأنفسهم ، واستشعار الله تعالى في كل عمل من الأعمال ، والإعراض عما يشغل الخلق من شؤون دنياهم والإقبال على الله تعالى وإيثاره على كل شيء.

وذلك منهج في تجديد الفكر الصوفي وتجريده مما علق به من مخلفات عصر التخلف والركود من مفاهيم خاطئة وسلوكيات ظاهرة ، وإذا لم نقل أنه تجديد فهو تصحيح لذلك الفكر لكي يعود كما كان في نقائه وصفائه وروحانيته وأخلاقياته.

وهذه الصوفية ليس فيها أوراد ثابتة تؤدَّى بمواعيد محددة وإنما فيها يقظة دائمة وتصفية مستمرة لكي تكون مرآة القلب نظيفة من الأكدار والشوائب ، تتجلى فيها أنوار الحقيقة ، وتشعرها بالسكون والطمأنينة.

وصوفية كهذه لا يتبارى أتباعها بالكرامات ولا يتفاخرون بالمكاشفات ولا يدعون ما لا يملكون من الأسرار ، ولا يلازمون مجالس المجذوبين بحثاً عن استكشاف المستقبل ، وإنما يتبارون بالاستقامة السلوكية واتباع الأوامر الشرعية ويحرصون على طهارة باطنهم كما يحرصون على طهارة ظاهرهم ،

ويحاسبون أنفسهم على كل ما يصدر عنهم ، ويستبدلون صفاتهم المذمومة بالصفات المحمودة ، ويؤثرون الله تعالى على كل شيء ولا يسمحون للدنيا أن تحجب قلوبهم عن النور الإلهي الذي ينبثق في القلوب الطاهرة. . . .

ولابد في المواقف من أن تعبر عن هذه المدرسة لكي يكون النسق العام منسجماً ، والمواقف هي المصدر الأهم للفكر ، والمفكر لا يستمد معالم فكره من خلال كتابته وأقواله وإنما من خلال مواقفه ، فالفكر المستمد من الأقوال والكتابات فكر نظري يفتقد العمق ولا يعبر عن الحقيقة ، ولا قيمة له ، بخلاف الفكر الذي يستمده صاحبه من المواقف فهو أكثر صدقاً وانسجاماً ولا يتناقض أبداً لأنه يصدر عن صاحبه من غير تكلف.

* * *

موقفه من العلم

تعريف العلم :

العلم نقيض الجهل ، ويراد به معرفة الشيء على ما هو به ، والعلم محمود والجهل مذموم ، ولا يمكن للعلم أن يكون مذموماً إلا إذا استخدم فيما هو مذموم وضار ، ويكون الذم لا للعلم ولكن لما تركه من ضرر لصاحبه أو بصاحبه بالمجتمع ، والإنسان هو الذي يستخدم العلم لما فيه الضرر ، كمن استخدم العلم لاختراع وسائل التدمير والعلم سلاح ولا يجوز أن يسلم إلا لمن يحسن استخدامه ، ويقدر مسؤولية ذلك ، والعلم لابد فيه من الأخلاق فإذا انتفت صفة الأخلاق عن العالم استخدم العلم في غير ما أعد له .

والجهل مذموم لذاته ، ولا يمكن أن يكون محموداً بحال من الأحوال ، والعلم كالبصر والجهل كالعمى ، والذين يخشون من العلم إنما يخافون من نوره أن يكشف عوراتهم ، فيسترهم ظلام الجهل .

والإسلام نور وهداية ، وهو نقيض الظلمة التي يقود إليها الجهل ، والعلم أوسع من معناه الشائع وأشمل ، ولا يرتبط العلم بمعرفة العلوم وإنما هو وعي بحقيقة الإنسان ومعرفة بطبيعة النفس ، وغاية العلوم أن تقود إلى تلك المعرفة الحقيقية ، والعلوم التي لا تقود إلى تلك المعرفة هي علوم غير مفيدة ، قد تفيد الإنسان في أمر معاشه ولكن لا تفيده في إنارة دروبه إلى المعرفة الحقيقية .

والعلم المحمود هو الذي يقود إلى الفهم ، وغاية العلم هو الفقه بالمفهوم اللغوي وهو الفهم ، فإذا أوصل العلم صاحبه إلى الغرور والتكبر فهذه ثمرة غير

طيبة ، ولم يوصل إليها العلم ، وإنما قاد إليها الجهل ، فالغرور جهل ، وليس ثمرة للعلم وإنما ثمرة الجهل .

وكان الشيخ يحض على العلم الذي يعتبر نقيض الجهل بمفهومه الأشمل ، لكي يثمر المعرفة بالله والحكمة ، وأما العلوم المعاشية فهي تفيد الناس في معاشهم ، وتساعدهم على توسيع نظرتهم إلى الحياة وفهم الأمور بطريقة أفضل .

أخلاقيات العلم :

وكثيراً ما كان يتحدث عن أخلاقيات العلم ، وينصح أصحابه من المشتغلين بالعلم أن يتخلقوا بأخلاق العلم ، فلا فائدة في علم لا يثمر خلقاً ويحذر من الغرور الذي يصيب المشتغلين بالعلم وهو جهل حقيقي بحقيقة العلم فمن لا يتخلق بأخلاق العلم فسرعان ما يسيطر عليه الغرور وعندئذ ينقلب علمه عليه .

وتتمثل أخلاقيات العلم في توجيه العلم والتحكم فيه لكي يؤدي الغاية المرجوة منه وهي ثمرة العلم وإذا افتقدت أخلاقيات العلم ووجهت طاقاته وقدراته نحو أهداف ضارة بالإنسانية فالعلم يولد القدرة والإمكانية الفعلية وليست من مهمة العلم أن يدرك المسالك الصالحة والمفيدة فهذه هي مهمة العلماء الذين يمسكون بالمقود فلا يسمحون لعلمهم أن يخرب القيم الإنسانية أو أن يدمر الحياة البشرية أو يسعى في شقاء الإنسان .

والعلم له ثمرة مرجوة منه وهي المعرفة والمعرفة تؤدي إلى العمل فمن علم وجب عليه أن يعمل بما علم ومن عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم في رحلة لا متناهية من الرقي من الجهل إلى العلم إلى العمل فإذا لم يثمر العلم الثمرة المرجوة منه كان غير مفيد فمن علم أن هذا الشيء ضار به ومفسد لصحته وجب عليه أن يعمل بما عمل ويتجنب ذلك الضار والمفسد .

وإذا تعلم العلم من لا خلق له استخدم علمه في الإضرار بالمجتمع وأساء لعلمه فإذا كان عالم الذرة لا أخلاق له سخر علمه لاختراع أدوات التدمير لإثارة

الرعب في نفوس الأبرياء وإذا تعلم الطب من لا أخلاق له ، سخر علمه لا لعلاج المرضى ولكن للعبث بالأبدان رغبة في الربح المادي وإذا تعلم الفقه من لا أخلاق له سخر علمه للعبث بأحكام الشريعة وتوسع في الاستدلالات الباطلة وتفنن في الحيل الشرعية فأفسد الدين بفتاويه الباطلة التي تحركها الأهواء والأطماع خدمة للحكام الذين اشتهروا بالظلم وأكل أموال الناس بالباطل وأخذ يبرر لهم المظالم ويشجعهم على ارتكاب الآثام ، وهكذا يصبح العلم بيد السفهاء من العلماء أداة لإفساد القيم الأخلاقية وكان الشيخ يحذر من تعليم العلم لمن لا أخلاق له من السفهاء ، و يوصي كل من يريد تعلم العلم أن يلتزم بأخلاقيات العلم وألا يجعل العلم مطية للكسب المادي أو الجاه الاجتماعي ، فمن سخر العلم للكسب أذل العلم بوقوفه على أبواب الأغنياء ، ومن سخر العلم للحصول على المناصب الدنيوية أذل العلم بوقوفه على أبواب الحكام.

وكان يندد «بعلماء المعاشات» ويسميهم بهذا الاسم ، ويقصد بهم أولئك الذين يتعلمون العلم لأجل الحصول على المعاش المادي ، وهؤلاء العلماء يفرطون في كرامة العلم ويسيئون لسمعة العلماء ، لأنهم يتملقون الحكام بأقوالهم ، وخطبهم ، ويتملقون الأغنياء بتبرير مظالمهم والسكوت على معاملاتهم غير المشروعة في الكسب ، ويتملقون العامة في خطبهم للتقرب إليهم ، طمعاً في السمعة والجاه والمكانة الاجتماعية وينسون أنهم بذلك يبيعون دينهم بدنياهم ، ويرضون لأنفسهم المذلة ولو أنهم أعرضوا عن الدنيا لكانوا سادة مجتمعهم ، لأنهم يحملون كرامة العلم ومكانة العلماء.

مكانة العالم في المجتمع:

والعالم في نظره هو سيد في مجتمعه ، يرفعه علمه إلى المكانة الرفيعة ، لأنه يعرض عما يطمع فيه الناس ، ويزهد فيما بأيدي الناس ، ويرتفع عن الصغائر ، ويقول كلمة الحق في المجالس ، ويناصر الضعيف والفقير ، ويواجه رموز الظلم في المجتمع ، ينهاهم عن الظلم ، وأكل أموال الناس بالباطل.

ويدعو في مجالسه إلى أن يكون طلاب العلم من الذين تربوا على الشعور بالكرامة وممن اشتهروا بقوة الشخصية وصفات الرجولة والنزاهة والشجاعة لكي يمثلوا شخصية العالم المسلم المشبع بقيم الفضيلة الذي لا يبيع كرامة العلم بثمن بخس ويدافع عن الحق بشجاعة ولا يساوم ويفرط في مكانة العلماء.

ومما كان يغضبه أن يرى عالماً فرط في كرامته أو رضي بالذل والخضوع لرموز القوة في المجتمع أو سكت عن قول الحق خوفاً على وظيفته أو ناصر الأقوياء على الضعفاء ويدعوهم إلى أن يرفعوا رؤوسهم في المجالس احتراماً لعلمهم ، وأن يتكبروا على المتكبرين إشعاراً لهم بسوء ما يفعلون ، وأن يتواضعوا أمام المستضعفين.

ومن عاداته في مجالسه أن يكرم العلماء ويجلسهم إلى جانبه ويحض أصحابه على أن يكرموهم ويرفعوا مكانتهم نظراً لما يحملونه من علم ، ويدعو إخوانه من العلماء إلى النزاهة والعفة لكي تظل مكانتهم رفيعة في المجتمع ، وألا يمدوا أيديهم إلى الأغنياء والحكام ، وأن تكون يدهم هي العليا في العطاء فإن لم يجدوا ما يعطون فعليهم ألا يقبلوا العطاء من غيرهم ، فكرامة العلم هي رأس مال العالم ، ومن فرط في هذه الكرامة فسرعان ما تسقط مكانته في أعين الناس.

والعلم في نظره هو العلم بمفهومه الشمولي ، وكان يشجع على تعلم كل العلوم العلمية والإنسانية ، وينصح الشباب من إخوانه أن يتوجه كل منهم إلى العلم الذي يحبه في الطب والهندسة والعلوم أو في العلوم الإنسانية أو العلم الشرعي ، ولم يكن يرجح العلم الشرعي على غيره إلا إذا اختاره الإنسان لنفسه ، ويردد: إن العلم كله خير بشرط أن يلتزم الإنسان بأخلاقياته ، ويقول: ليس هناك علم مذموم ، إلا إذا استخدمه صاحبه للإضرار بالناس.

ولم يكن هناك شيء يحظى باهتمامه كالعلم وتكوين العلماء وإنشاء المدارس العلمية والالتزام بأخلاقية العلم والنهوض بمستوى العلماء وتوفير

أسباب الكرامة لهم ، لكي يؤدوا رسالتهم في التعريف بالإسلام وتغذية القلوب بمعاني الإيمان.

علماء السوء:

وكان يحذر من علماء السوء الذين يسخرون علمهم وذكاءهم لتحقيق مصالحهم الشخصية وطموحاتهم المادية ، فيفرطون في كرامة العلم ويتملقون الحكام ويبررون المظالم في المجتمع ، ويضللون العامة باسم الدين ، والدين منهم براء ، وكان يلتمس العذر لكل المخطئين ، إلا أنه لا يلتمس العذر لعلماء السوء لأنهم يجهلون أنهم يجهلون وجهلهم أخطر على المجتمع من جهل العامة ، فالعامة يعلمون أنهم يجهلون ويبحثون عن الحق لدى من يدرك الحق ، أما علماء السوء فهم جاهلون بحقيقة الدين ، تحركهم الأهواء والشهوات والمطامع ، ويسكتون عن كلمة الحق وهم يعلمون ، بل يدافعون أحياناً عن الباطل والظلم.

والمراد بعلماء السوء هم الذين لا يلتزمون بأخلاقية العلم وما يتطلبه العلم من وجوب الدفاع عن قيم الفضيلة في المجتمع ومواجهة الباطل بإلتزام الحق وبيان حكم الشرع ، ومن علامات علماء السوء أنهم يحبون الدنيا ويتمسكون بها ويطمعون في المال والجاه والمناصب فيفرطون في حقوق الله عليهم ، بالسكوت عن الباطل أو بتبريره باسم التسامح. والعامة تدرك بفطرتها الصافية الصادق من غير الصادق من العلماء ، وتعرف علماء السوء الذين تنقبض القلوب لما يقولون ، ويعبر ظاهرهم عن سوء باطنهم وما تنطوي نفوسهم من تعلق بالدنيا وطمع في متاعها ، وعلماء السوء يسيئون للإسلام ويسيئون لمكانة العلماء في المجتمع ، وسرعان ما ينكشف أمرهم ويفقد العامة الثقة بهم.

العالم رمز للحق:

والعالم في نظره هو رمز للحق يدافع عنه ، ورمز للفضيلة يتمسك بها ، ومهمته في المجتمع أن يطارد الظلام فهو كالسراج في الليل يضيء الدروب ، وينصح ويعلم ويربي ، ويمسح دموع المستضعفين ويساعدهم ويمد يده إليهم ، ويقف في الضفة التي يقفون عليها يؤازرهم ويدافع عنهم ويشعرهم

بإنسانيتهم والعالم لا يستمد قوته من حفظه للأحكام ولا من سعة ثقافته ولا من عدد كتبه ومؤلفاته ولا من بلاغة أسلوبه في التعبير ، إنما يستمد قوته من تمسكه بالحق ودفاعه عنه ، ومن رعايته لحقوق الله فيما يقول ومن إخلاصه الذي تفتح القلوب له لكي تزهر كلماته في القلوب فتوقظ المعاني الإيمانية في كيانه ويستشعر عظمة الله تعالى ومراقبته له ، في كل حين.

وكان يحذر من الغفلة التي يولدها الغرور في نفسية العلماء فيشعرون أنهم الأفضل في المجتمع ، وأنهم رموز الهداية ويمنون على الله بما يفعلون ، فيحجبهم علمهم عن معرفة الله وتظلم نفوسهم بسبب تلك الغفلة ، فلا تصل كلمتهم إلى قلوب العامة.

وإذا تحدث عن العلم أشاد بأهميته وأن العلم الحقيقي هو الذي يقودك إلى المعلوم ويعرفك بالله تعالى ، ولا خير في علم لا يقودك إلى الله.

هذا هو العلم في مفهوم الشيخ رحمه الله وهذا هو موقفه منه وهو موقف يعبر عن سمو رؤيته لدور العلماء في المجتمع ، إذا أكرم العالم علمه أكرمه علمه ورفع من مكانته في القلوب ، وإذا أراد علمه لكسب مادي أو لمنصب معاشي فمثله في ذلك كمثل كل الأعمال التي ترتجى منها ثمراتها المادية كالتجارة والفلاحة والصناعة ، ويفقد بذلك العلم مكانته وتهبط مكانة العلماء في المجتمع.

* * *

موقفه من المال

المال نعمة من الله :

المال من نعم الله تعالى ، وهو محمود لحاجة الإنسان إليه وهو مذموم إذا تعلق به صاحبه وأصبح فتنة له يلهيه عن ذكر الله ويصرفه إلى الملذات والشهوات وقد وصف القرآن الكريم المال بأنه فتنة بقوله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢٨] والمراد بالفتنة هنا هو الاختبار والامتحان ، فمن الناس من ينجح في هذا الاختبار ومنهم من يفشل ، فإذا تحكم المال في صاحبه وأصبح صاحبه عبداً له يسعى في تنميته بكل وسيلة مشروعة وغير مشروعة أصبح المال عبئاً على صاحبه يحمل وزره وإذا تحكم العبد في ماله كما أُمر بذلك وأنفق منه على نفسه وعلى عياله والمحتاجين ونماه بالطرق الشرعية الصحيحة فقد نجح في هذا الاختبار.

والمال ليس مذموماً لذاته وإنما المذموم عندما يتعلق به مالكه ذلك التعلق الضار الذي يفسد عليه حياته ويضعف فيه مشاعره الإنسانية ، ويدفعه لسلوكيات خاطئة.

كان الشيخ يردد قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [المنافقين: ٩] ويحذر من أخطار ما يفعله المال في نفسية الإنسان من غفلة عن الله وقسوة في القلب بتأثير عوائد الترف والانصراف إلى العوائد الضارة التي تفسد النفوس وتجعلها أكثر قسوة ، فلا تتألم لآلام الآخرين ولا تخشع لذكر الله لانصراف الهمة إلى جمع المال.

لم يذم الشيخ المال لذاته وإنما كان ينكر أن تنصرف الهمة إليه ، فيكون سبباً في غفلة القلوب وقسوتها ، فإذا تحكم العبد في ماله وتصرف فيه تصرف المالك فيما يملك ، وجعله خادماً له يوفر له الكرامة والكفاية ويلبي له حاجاته فهذا أمر حسن .

المذموم هو حب المال :

وحب المال هو المذموم ، وليس المال ، فالمال نعمة من الله ووسيلة لتوفير الحاجة فإذا تعلق به صاحبه أذله وأصبح خادماً له يسعى في تنميته ، ويشقى بسببه ، وكلما زاد التعلق زاد الإحساس بالشقاء عند زوال المال .

والمال لا ينبغي أن يحب لذاته فإذا أحبه العبد لذاته بخل به ولم ينفقه في مصارفه وإنما ينبغي أن يحب المال لما يؤدي إليه من الإنفاق على الحاجات الضرورية ، ومن أحبه لفائدته كان سخياً في الإنفاق منه ، وسعيداً بما ينفقه ، أما كنز المال فهو أمر مذموم ، لأنه يؤدي إلى تعطيل دور المال في تلبية الحاجات .

ولم يدع الشيخ إلى تفضيل الفقر على الغنى بالرغم من أن بعض الصوفية يقولون بذلك ، والغني الشاكر له أجر كبير لأنه استطاع أن يسخر ماله لخدمة الآخرين ، وهو مختار في هذا بخلاف الفقير الصابر فلا خيار له إلا الصبر ، ولو امتحن بالمال فربما كان الغنى فتنة له ولعل هذه الفكرة تنسجم مع شخصية الشيخ الذي كان يفضل اليد العليا على اليد السفلى ، انطلاقاً من علو الهمة .

رأي الشيخ في المال يرتبط برأيه في الدنيا ، ويتحدث عن المال في مجال حديثه عن الدنيا ، وحب الدنيا مذموم كحب المال ، فالمال هو أبرز ما يمثله حب الدنيا ، والدنيا ليست هي المذمومة وإنما المذموم هو حب الدنيا والتعلق بها ، والدنيا في مقابلة الآخرة ، فمن تعلق بالدنيا زهد بالآخرة ، لأن الدنيا مغرية ومشتهاة والنفس تألفها وتميل إليها ، فمن استلذها أحبها وتعلق بها ، ثم ما لبث أن استسلم لها وأمسكت به وقادته إلى حيث يكون به هلاكه من الملذات والشهوات ، ولابد من التحرر من قبضة الدنيا بعدم الاستسلام لها .

قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

ولم يكن المال مذموماً، وإنما يتعلق الذم بحب المال والاستكثار منه وعدم إنفاقه في مصارفه الضرورية، ومن أحب المال حرص على الاستكثار منه بكل الطرق ولو كانت غير شرعية، ويدفعه ذلك الحب إلى الغش والاحتكار والتعامل بالربا والإضرار بالناس واغتصاب الحقوق، وكلما غلب حب المال على الإنسان تفنن في وسائل جمعه لا يفرق بين حرام وحلال، وضار ونافع، ولا حدود لسيطرة المال على صاحبه، فالحب يقود صاحبه إلى حيث يريد ولا يريد، وإلى حيث يجوز ولا يجوز، أما التحرر من حب المال فهو تحرير للإنسان من عبودية المال، وعندئذ يملك الإنسان القدرة على التمييز بين أنواع المعاملات ويلتزم بالضوابط الأخلاقية والشرعية في كسب المال.

والمال خلق لخدمة صاحبه، يوفر له أسباب عيشه الكريم وينفق منه على المحتاجين، ولا يبخل في إنفاقه، فالبخل يرتبط بحب المال، فمن أحب المال اقتناه واكتنزه وادخره ووجد صعوبة في إنفاقه، والبخل صفة مذمومة في الإنسان فما خلق المال إلا ليكون في خدمة صاحبه، يكسبه وينفقه ولا شيء أخطر على الإنسان من الطمع، فالطمع مذل لصاحبه مذل لإنسانيته، يدفعه إلى المسالك الخاطئة ويضعفه في المواقف التي تتطلب منه الكرامة، لأنه ينظر من طرف خفي إلى كسب المال الذي يحبه ويتعلق به فتضعف إنسانية الإنسان بسبب الطمع ويرضى لنفسه من المواقف ما لا يجوز أن يرضى منه، ويسكت إن ظلم طمعاً في المال، ولا يدافع عن كرامته في مواجهة رموز القوة طمعاً في المال لئلا يفقد الربح الذي يتراءى له من بعيد ويدفع ثمنه من حريته وكرامته.

المال في حياة الشيخ:

كانت علاقة الشيخ بالمال واضحة وتمثل هذا المعنى بطريقة عفوية وتلقائية لم يتكلفها يوماً، كان يملك المال ويعمل بجد ويكسب ولكن لم يكن المال

يمثل هماً لديه ، ولا غاية مرجوة ، كان يكسب الكثير وينفق كل ما يكسب ، لم يتردد في إنفاق ضروري ، ولم يبخل على نفسه أو أسرته رغبة في الادخار ، ولم يكتنز مالاً لأجل المستقبل ولم يدخر لتأمين مستقبل أسرته ، ذلك أمر لم يفكر فيه وكان يضيق بمن يتحدث عن المستقبل ، ويؤمن بأنّ الله تعالى هو الرازق ، وأن السعي والكسب واجب شرعي مأمور به .

كان ينفق كل يوم ما يملكه وما يفيض عن حاجته ، وإذا كان يملك المال لم يكن يتردد في إنفاقه على من يطلب منه ذلك ، ولم أسمع منه يوماً كلمة الادخار» لأجل الغد ، ولم أجده يمسك المال أو يجمعه قط . . . فما عنده نفقه ويقول هذا المال وجد لخدمة صاحبه وعلينا أن ننفقه في مصارفه الضرورية على أنفسنا أو على من يحتاجه من الفقراء .

وكان يؤثر غيره من المحتاجين على نفسه ، وإذا لم يجد المال استدان من يره وأعطاهم ما يحتاجون ، وكان يكتفي بالقليل للانفاق على نفسه وأسرته ، يعيش حياة زهد واضحة وكأن المال لا يساوي شيئاً في حياته .

كان الشيخ سخياً إلى درجة أنه ينفق كل ما زاد عن حاجته وكان يؤثر محتاجين على نفسه ويستدين إذا لم يكن لديه مال ليساعد محتاجاً لتلبية حاجاته الضرورية لأجل الطعام أو العلاج ، ولم يكن يتصرف ذلك بتكلف ، يجد أن مال الأغنياء يجب أن يتسع لكل حاجات الفقراء ، فإذا لم تكف أموال زكاة لذلك اتسعت دائرة الصدقات إلى أن تتحقق الكفاية .

والإيثار أمر مطلوب وهو منهج إسلامي أخذ به الصحابة وأثنى القرآن كريم عليهم به في قوله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ لحشر : ٩] .

المال العام :

كان الشيخ يتورع عن المال العام ، ولا يجيز الأخذ منه إلا بمقدار حاجة ، ولا يشجع العمل في الوظائف العامة ، إلا لمن لم يجد العمل

الخاص ، وما يأخذه الموظف من عمله لا ينبغي أن يتجاوز مقدار حاجاته الضرورية .

ويشجع الكسب عن طريق العمل الخاص ، ويفضل الزراعة على الأعمال الأخرى ، ويجد فيها الراحة والطمأنينة والسكون ولا يتحقق الربح إلا عندما تصفو النية وعندئذ يبارك الله في الكسب ، وينمو المال بفضل ذلك .

ومن اختياراته أنه كان يعتذر عن الموائد الرسمية فلا يقبل دعوة أي مسؤول على طعام أو ضيافة أو إقامة ، ومن عاداته أيضاً أنه لا ينزل في ضيافة الدولة في أي سفر من أسفاره ، لا لأن ذلك لا يجوز ولكن لأنه لا يحب ذلك ، ويختار الإقامة في ضيافة شخصية ، ولم يكن يمنع أصحابه عن ذلك ، ذلك اختيار شخصي كان يرتاح إليه في حياته الشخصية .

ورأيته في مواقف كثيرة يبتعد عن الدعوات الرسمية في الطعام أو الإقامة ، كما كان في الوقت ذاته يرفض التبرع من الجهات الرسمية للجامع الذي شيده بالكلتاوية أو للمدارس التي أسسها ، ولم يذكر أسباب ذلك ، هل بسبب أنه مال عام لا يملك المشرف عليه أن يتصرف فيه أو لوجود شبهات أخرى فيه .

ولعله كان ينظر للمال العام على أنه أمانة بيد من أؤتمن عليه ولا يحق لذلك المؤتمن عليه أن يتصرف فيه إلا ضمن ضوابط دقيقة ، أهمها الإنفاق منه على حاجات الناس الضرورية أو المصارف العامة التي لا يمكن الاستغناء عنها .

ذلك هو سلوك شخصي واختيار كان يطمئن إليه ، ولم يمنعه أو يحرمه ، وإنما كان يتورع عن المال العام .

* * *

موقفه من المرأة

مكانة المرأة:

حظيت المرأة بمكانة متميزة في نظر الشيخ ، وكان يقدر دورها التربوي ويهتم بإصلاح المرأة ويعتبر ذلك من أركان الإصلاح الاجتماعي ، ولا يتحقق صلاح المجتمع إلا بصلاح المرأة ، فهي نقطة البداية في الإصلاح ، فإذا صلحت المرأة صلحت الأسرة ، والأسرة هي الخلية الاجتماعية الأولى.

ولم يفرق الإسلام بين الرجل والمرأة في الحقوق الإنسانية كحق الحياة وحق الكرامة وحق الاختيار وجميع الحقوق التي يملكها الرجل. . . . والمرأة هي أولى بالرعاية والاهتمام والتكريم لأنها تشعر بضعفها.

ولا نجد في التوجيه القرآني خطاباً خاصاً بالرجل أو المرأة ، إلا في قضايا محددة ترتبط بطبيعة التكوين النوعي لكل منهما ، وما عدا ذلك يظل التوجيه القرآني عاماً يخاطب الإنسان بخطاب واحد ، يجعل المسؤولية متبادلة بين الرجل والمرأة لتكوين مجتمع متماسك متكافل يؤدي كل من الطرفين أعماله الموكلة إليه بطريق صحيح.

قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١].

وقال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

لم يتحدث الشيخ عن حقوق المرأة ، فالإسلام قد أعطى المرأة حقوقها

كاملة غير منقوصة كما أعطى الرجل ، من حيث المجال الإنساني ، ولا مجال للخروج عن مقتضى أحكام الشرع ، وذلك أمر لا يقبل المناقشة والجدال ، وإذا وقع انتقاص لحقوق المرأة فيجب الاحتكام لأحكام الشرع ، وفي ظل التربية الأخلاقية الراقية يبحث كل من الرجل والمراة عن مجالات المخالفة الشرعية ، فعلاقة الرجل والمرأة علاقة تكامل وتكافل ، وليست علاقة تصادم ، والقوامة للرجل ، وهي قوامة مسؤولية وإنفاق وليست قوامة سلطة ونفوذ ، وعلى الرجل أن يكون حسن المعاشرة وهذا من باب حسن الخلق ، وخيركم خيركم لأهله.

وقاعدة الاختيار في الزواج الدين وحسن الخلق ، وكان يحذر من الاختيار السيء ، لقول النبي ﷺ: إياكم وخضراء الدمن قيل: وما خضراء الدمن يا رسول الله قال: المرأة الحسناء في المنبت السيء» ، وكان يحض على حسن الاختيار والظفر بذات الدين والخلق والتربية الصالحة.

وكان يضيق بمن يتساهل في أمر الشرف والمروءة والسلوك الحسن ، والبيئة النظيفة الصالحة تنبت المرأة الصالحة التي تدخل السعادة والطمأنينة إلى قلب زوجها.

اختياراته فيما يتعلق بالمرأة:

كانت له اختيارات خاصة فيما يتعلق بسلوكيات المرأة تعبر عن اعتزازه بقيم الشرف والمروءة ، ولم يكن يتسامح في هذا الأمر ، واشتهرت سلوكيات إخوانه بالتزامهم بهذه الاختيارات ، وأهمها ما يلي:

أولاً: موقفه من الحجاب:

كان يرى وجوب الالتزام بالحجاب كاملاً ، ويعتبر جسم المرأة كله عورة ، ولا يحب كشف الوجه واليدين ، ويحب أن يكون لباس المرأة كاملاً وساتراً ولا يكشف أي شيء من جسمها ، سواء كانت المرأة مدعاة للفتنة أم لا ، ويرى أن صوت المرأة عورة ولا يحب لها أن تكلم الرجال ولا أن تتكلم بالهاتف مع الرجال الأجانب إلا في حدود الضرورة ، ولعله من باب سد الذريعة لكيلا

يؤدي التساهل في ذلك إلى مفاسد اجتماعية عند ذوي النفوس المريضة.

ثانياً: موقفه من الاختلاط:

لم يكن يسمح باختلاط الرجال بالنساء، ولا يحب كذلك، ولم يحدث أي اختلاط في مجالسه، ولم يجلس في أي مجلس فيه اختلاط، ولم يكن يسمح بهذا الاختلاط في نطاق الأسرة، وبخاصة اختلاط المرأة بزوج أختها أو اختلاط الرجل بزوجة أخيه.. ولم يكن يسمح باختلاط الرجل بالمرأة في المدارس أو الجامعات إلا في نطاق الضرورة ومع احترام الحجاب الشرعي الساتر.

ثالثاً: موقفه من تعليم المرأة:

لم يكن يعارض تعليم المرأة إذا توافرت فيه شروط الالتزام بالأخلاقيات الإسلامية، فالعلم أمر محمود، بشرط أن تتوافر فيه الشروط التي تمنع من الانزلاق السلوكي، وكان يشجع الفتاة التي يجد في سلوكها الاستقامة والحشمة أن تتابع دروسها في الكليات الجامعية من غير تردد، ما دامت الثقة قائمة بالتزام الضوابط الشرعية.

رابعاً: موقفه من تعدد الزوجات:

لم يكن يمنع التعدد إذا توافرت الحاجة إليه، وطالما أن الشريعة أباحت التعدد ووضعت ضوابطه وشروطه فليس هناك ما يمنع منه، ولم يمنع أحد أصحابه منه، ولكنه لم يعدد، ولم يتزوج على زوجته ويعتبر ذلك من الأمور الأخلاقية التي يجب أن تراعى فيها معاني الوفاء، وهي أمور يرجع تقديرها إلى الشخص نفسه، وإلى مدى شعوره بالحاجة إلى ذلك.

خامساً: موقفه من الطلاق:

لم يكن يشجع الطلاق ويعتبره اختياراً مذموماً إلا إذا تعسرت الحياة الزوجية فعندئذ لا خيار فيه... وهذه قضايا أباحها الشرع وترك أمرها للشخص نفسه ليقدر ما ينفعه وما يوفر له السكينة، وكان يشجع كلاً من الزوجين على الصبر والتحمل.

ولم يكن يحب الحديث في الأحكام الفقهية للزواج والطلاق والمهور والتعدد والنفقات ، فذلك أمر يدخل في النطاق الأخلاقي حيث ورد الأمر القرآني بالمعاشرة بالمعروف ، ولا حدود للمعروف ، ولا حدود لسمو الخلق ، فالرجال لا يضيقون بما تفرضه حسن المعاشرة من وجوب البذل المادي والإحسان إلى المرأة واحتمال ما يصدر عنها من سلوكيات الانفعال ، ولا حدود للإحسان ، ويتفاضل الرجال في حسن معاشرتهم لأسرهم.

والرجولة تقتضي أن يلتزم الرجل بما يفرضه خلق المروءة عليه من الإحسان لأسرته ولزوجته وأبنائه ، وألا يضيق عليهم بنفقة وألا يسيء إليهم ، وألا يكلف زوجته بما لا تطيق ، وأن يحترم إنسانيتها ، وفي الوقت ذاته يجب على المرأة أن تكون وفية لزوجها في أيام الشدة وألا تكلفه ما لا يطيق ، وألا تجرح مشاعره وأن تقف معه وأن تؤازره في المحن وأن تكون عوناً له على أيامه الصعبة وذلك هو ما تقتضيه الأخلاقيات المتبادلة بين الزوجين.

ويضيق بما كان يسمعه من وقائع وأحداث حول خلافات غير لائقة على أمور مادية تتعلق بالنفقات والمهور ، وذلك أمر غير لائق ، وما جاءت التربية إلا لكي ترتقي بمستوى سلوكيات الإنسان.

ولابد في العلاقات الأسرية وبخاصة بين الزوج وزوجته من روح الإيثار والابتعاد عن التعلق بالدنيا ونبذ الأنانية والتخلق بالأخلاق الحميدة التي تقرب بين القلوب ، وتقيم جسوراً للتلاقي في إطار المحبة والإخلاص لله ، ومن الضروري تغذية القلوب بمعاني الرحمة المتبادلة والإحسان والإيثار لكي تنشرح القلوب وتشرق فيها أنوار الخير.

وعلاقة الرجل بالمرأة تحكمها القيم الأخلاقية أكثر مما تحكمها الأحكام القانونية ، ففي ظل القانون يبحث الإنسان عن الحق ويتمسك كل فريق بحقه الذي يعطيه إياه القانون ، أما في ظل الأخلاق فإن الإنسان يبحث عما يليق وما لا يليق من أنواع السلوك ، فلا يليق بالرجل أن يتصرف التصرف الذي لا يليق بقيمه الأخلاقية ، بل يجب عليه بصفته الطرف الأقوى أن يتنازل عن جزء من حقه لصالح زوجته ، فالإحسان يفرض عليه أن يعفو ويتنازل ويتسامح ، فلا

يطلقها وإن ضاق بحياته معها ولا يتزوج ثانية احتراماً لإنسانيتها ، وأن يكون معها كما يجب أن تكون معه في الأزمات والمحن يتبادلان التضحية والإيثار ويسعى كل فريق لإسعاد الطرف الآخر من غير منة يمن بها القوي على الضعيف.

وأول ما يجب على الإنسان أن يتوجه إليه بحسن الخلق الزوجة فهي أحق بحسن الخلق ، ويجب على الزوج ألا يظلمها بحق مادي ولا نفقة وأن يعاملها بالمعروف والإحسان ، وأن يشعرها بحقوقها الإنسانية ، وأن يرفق بها في الكلام والعبارة ، وألا يشعرها بتميزه عليها بقوة أو مال وأن يلتمس لها العذر فيما عجزت عنه من أداء أعمالها المكلفة بها ، وأن يعاملها بالأدب المطلوب ، فالتربيـة التي لا تهذبها الطبـاع ولا تصقلها ليست تربية ، ومن لا أدب له لا خلق له.

ولا شيء يفسد الحياة الزوجية كالغضب والحدة ، والرجل الغضوب الذي لا يكظم غيظه سرعان ما يدفع زوجته إلى مواجهة غضبه بغضب مماثل فيؤدي ذلك إلى المخاصمة.

ومن صفات المؤمن الرحمة ، وأول ما يجب أن تتوجه إليه تلك الرحمة أن يكون الرجل رحيماً بأسرته بزوجته وأولاده ، وقساة القلوب سرعان ما تفتك القسوة بحياتهم فتدفعهم إلى سلوكيات العنف والمخاصمة.

وفي ظل التربية الأخلاقية تستقر حياة الأسر ، وتحظى المرأة باحترام زوجها ، فلا يسيء إليها بقول أو عمل ، ولا يحقرها في خطاب ولا يسيء لمشاعرها ، ومن الطبيعي أن تقابل ذلك بما يماثله من الاحترام المتبادل المعبر عن حسن الأخلاق.

* * *

موقفه من السياسة والحكام

لم يشغل الشيخ نفسه في قضايا السياسة ولم يكن يحب الحديث في شؤون السياسة ، فكان بعيداً كل البعد عن الحكام وعن مجالسهم ، ولا أذكر أنه زار مجالس الحكام أو زار مسؤولاً سياسياً في مقره.

كان يكره أحاديث السياسة وما يدور فيها من جدل ، ويكتفي بسماع الخبر ولا يعلق عليه ، إلا إذا كان له صلة بما يسيء للدين وللعقيدة وللأخلاق الإسلامية فكان يتدخل بقوة دفاعاً عن العقيدة والأخلاق ، ولا حدود لغضبه إذا غضب للحق ، ولا يتراجع عن موقفه ولا يساوم ولا تنازل ، فقضايا الدين مقدسة ، ولا يجوز أن تمس بسوء.

وإذا غضب للحق كان الحكام يخشون غضبه ، ويتراجعون عن مواقفهم ، وكانت له مواقف مشهورة في تاريخ حلب ، وكان الشعب يثق به ويؤيده ، فإذا غضب للحق غضبت المدينة لغضبه ، وأيدته في مواقفه.

لم يكن في مواقفه هذه دفاعاً عن القيم الإسلامية يبحث عن جاه أو مكانة اجتماعية ، كان زاهداً في كل أنواع الجاه ، يعمل لله وفي سبيل الله.

كان يحب في الله ويبغض في الله ، يحب من الحكام ورموز السلطة من كان يحترم قيم الإسلام ويعتز بسلوكية المسلم ويكره منهم من كان يسيء للإسلام أو يتحدى مشاعر المسلمين ، أو يعلن موقفاً معادياً للإسلام.

لم يكن منعزلاً عن قضايا الناس ، كان مجلسه اليومي في داره أو في الكلتاوية حافلاً بالزوار والضيوف من علماء وتجار ووجهاء ورجال سلطة وأصحاب مهن علمية وحرفية وزعماء عشائر وطلاب. . كان يوجه الجميع

بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويسمع منهم قضاياهم ويسمع لشكاويهم ويساعد المحتاج ويمسح الدمعة عن العيون الباكية .

وفي أيام الانتخابات كان السياسيون يتقربون منه ويلتمسون منه تأييدهم ، كان مع الحق ، لم يؤيد شخصاً لقرابة أو صداقة كان الأفضل عقيدة وسلوكاً وحكمة هو الأجدر بالتأييد .

والكل كان يحترم نزاهته ويقدر مواقفه في القضايا العامة ، ولم تصدر منه كلمة نابية بحق أحد بسبب شخصي ، فإذا وجد من أحد موقفاً يسيء للدين أو للأخلاق تصدى له بقوة .

الزهد في السياسة :

ويحذر من ارتياد مجالس أهل السلطة والحكام ، وبخاصة من أهل العلم ، فلا يجوز لعالم أن يقف على أبواب الحكام ، ويردد الكلمة المأثورة «نعم الأمراء على أبواب العلماء وبئس العلماء على أبواب الحكام» ومن يقف من العلماء على أبواب الحكام فلا يوثق بدينه ولا تقع الطمأنينة إلى ما يفتي به ، ولا يتورع عن المال العام ، وارتياد هذه المجالس تمنع العلماء من قول كلمة الحق ، والعالم الذي يخاف من كلمة الحق في مجالس الحكام هو عالم خائن لأمانة العلم .

لم يزر مسؤولاً حكومياً في مقره ، ولم يلب أي دعوة رسمية لحضور احتفالات أو مناسبات سياسية ، ولم يهنىء حاكماً بمنصبه ، كان يستقبل كل من يريد زيارته من الحكام والمسؤولين ، وكانوا يزورونه باستمرار ، فينصحهم بالكلمة الطيبة ويدعوهم إلى الدفاع عن الإسلام ، ويقول لهم بأننا معكم ما دمتم على الحق نشجعكم ونؤيدكم ولا نريد منكم شيئاً إلا أن تكونوا من أهل الأمانة والنزاهة في أداء أعمالكم ، فإن كنتم على الحق وأديتم حقوق الله فالله معكم وينصركم . .

كان يتصدى لأقرب الناس إليه إذا خرج عن الحق وأساء للدين وتحدى

مشاعر الأمة ، ويحب ويثني على كل المخلصين والصادقين ممن يراعون حقوق الله .

عرفته مدينة حلب بشجاعته في الدفاع عن كلمة الحق فإذا غضب لله خرجت المدينة تناصره ، وتغلق الأسواق تعبيراً عن تأييد المدينة له .

لم يكن يريد من الحكام والمسؤولين الإداريين إلا أن يؤدوا حقوق الله في أعمالهم ، وأن يدافعوا عن الحق ، وأن يلتزموا بالنزاهة والأمانة ، هذه كانت النصيحة التي كان يقدمها لهم .

كان زاهداً فيما عندهم من جاه وسلطة ونفوذ ، لم يفخر يوماً بصديق صاحب مركز سياسي ، كانوا في الانتخابات يلتمسون تأييده ، فيدعو أصحابه إلى اختيار الأصلح والأفضل ممن يطمئن المجتمع إلى استقامة سلوكه وسداد رأيه عندما كان يتحدث عن السياسة والسياسيين ، كان يفرق بين السياسة التي تعنى خدمة المجتمع والنظر في شؤونهم وتحقيق العدل بينهم فهذه سياسة محمودة ، ومن يقوم بحقها كما أمر الله به فله أجره عند الله بمقدار ما يخدم فيها المجتمع ويدافع عن الدين والعقيدة ويحمي القيم الأخلاقية ، أما السياسة ألتي تعتمد على الخداع والنفاق وتملق مشاعر العامة بالوعود الكاذبة طمعاً في السلطة والجاه والمكانة الاجتماعية فهذه سياسة مذمومة ، ولا تليق بالعلماء ، فالعالم لا يليق به أن يكذب وأن ينافق وأن يخلف الوعود وأن يبحث عن الجاه المتولد عن السلطة .

وعندما كان يزوره أحد السياسين كان ينصحه بأن يخلص النية لله تعالى وأن يعمل لخدمة الناس بإخلاص وأن يسعى بكل جهده للإصلاح ، فإن حصل ذلك تولى الله أمره بالتسديد والتوفيق .

وكان يحذر من يعمل بالسياسة من الطمع في الأموال العامة وأن يأخذ ما يكفيه وما يسد حاجته ، وأن يكون عفيفاً نزيهاً عن أموال الناس ، ولا يطمع في مال ، يدافع عن الحق ويتعاطف مع المستضعفين .

وفي مجالسه كان يثني على السياسيين الذين اشتهروا بالشجاعة والأمانة

والنزاهة ، ويقول لابدَّ ممن يريد العمل بالسياسة أن يكون قوي الشخصية عالي الهمة يعطي ولا يأخذ يمد يده لأصحاب الحقوق مدافعاً عنهم ، ولا يغلق بابه دونهم .

ولم يربط صلته برجال السياسة أو يحضر مجالسهم ، وعندما تكون هناك قضية عامة كان يطلب منهم أن يدافعوا عن عقيدة الأمة وأن يرفعوا شعار الفضيلة في السلوك ، وإذا وقف أحد السياسيين موقفاً معارضاً للدين ، كان يغضب لله ولا حدود لغضبه ، ويهاجم من يفعل ذلك في مجالسه العامة .

وكانت له مواقف شجاعة في الأيام العصيبة ، وبخاصة عندما يحتدم الخلاف حول قضية عامة ، مثل قضية دين الدولة في الدستور أو التعرض للعقيدة الإسلامية في وسائل الإعلام أو الإساءة لتاريخ الإسلام وثقافته في الكتب المنشورة فكان يرفع صوته بالاحتجاج القوي ، وقد يقود تجمعاً شعبياً في الشوارع أو المساجد ، معلناً عن احتجاج الأمة على كل ما يخالف عقيدتها أو ثقافتها أو قيمها الإسلامية .

ولم يكن يعجبه العلماء الذين يتزلفون لرموز السلطة ويتقربون منهم بالمديح والثناء ، طمعاً في الجاه الذي يحصلون عليه بسبب تقربهم من الحكام ، وكان يسميهم «علماء السوء» الذي يبيعون دينهم بدنياهم ، ويبحثون عن مناصب إدارية طمعاً في مغريات السلطة ، وإذا رأى عالماً وقف على أبواب الحكام طلب منه أن يقدم النصيحة في مجالس السلطة وأن يرعى حقوق الله وأن يساعد المظلومين وأصحاب الحقوق ، فإن فعل ذلك وكانت هذه نيته فإن الله يجازيه خيراً ومثوبة .

وعندما بنى جامع الكلتاوية ومدرسة دار نهضة العلوم الشرعية رفض أي إسهام من الدولة في بناء الجامع والمدرسة ، لأن المتبرع لا يملك حق التصرف في الأموال المودعة بين يديه ، ويرى أن بعض هذه الأموال تدخلها الشبهة وكان علماء السلف يكرهون وقوف العلماء على أبواب الحكام ، ولهم أقوال كثيرة تعبر عن هذه الكراهية ، وذلك لأن العلماء أمناء على الحق يدافعون عنه حيث كان ، وهم رموز للصدق والأمانة والنزاهة ، فإذا دخلوا مجالس الحكام

وأصبحوا من روادها فلابد لهم من السكوت على المظالم وتبريرها والتقرب للحكام بالأقوال والأفعال والنفاق والتملق ، وهذا أمر ضروري ، ولا يمكن لعالم أن يقدم النصيحة في هذه المجالس ، وبخاصة إذا كان العالم يطمع في منصب أو مال أو جاه ، وقال أبو ذر: لا تغش أبواب السلاطين فإنك لن تصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينك أفضل منه «وقال الفضيل : ما ازداد رجل من ذوي سلطان قرباً إلا ازداد عن الله بعداً» وقد يتساءل متسائل :

ألا يمكن للعالم أن يدخل إلى مجالس الحكام لتقديم النصح لهم وبيان أوجه الحق لهم؟

ألا يمثل الابتعاد عن مجالس الحكام خطأ لأنه يقصي العلماء عن مراكز السلطة؟

ويكمن الجواب أن الحاكم بطبيعته قوي بسلطته ، ولا يحتاج للعالم إلا لكي يسخره لما يريد ، أو لكي يدعم مركزه بالتفاف العلماء حوله .

والأمر يختلف بين حاكم وآخر وعالم وآخر ، ولا يعرف تاريخ الإسلام إلا القليل من المواقف التي وقف العلماء فيها موقف الناصح من الحاكم ، ومما يضعف موقف العالم هو طمعه بالسلطة والمال والجاه ، فإن زهد في هذه المطامع كان قوياً في موقفه محترماً لدى الحاكم ، موثوقاً من الأمة ، وهذا قليل ونادر .

* * *

موقفه من الطرق الصوفية

نشأ الشيخ في ظل تربية صوفية ، وتربى في أحضان الطريقة النقشبندية ، ولازم شيخها والتزم بأورادها وآدابها ، وأخذ نفسه بكل رياضاتها ومجاهداتها ، وكانت له أحوال خاصة ، واشتهر بعلو الهمة والإقبال على الله بصدق .

لم أعش تجربته تلك ولم أشهدها . . . . ولكنني سمعته يتحدث عنها فيما بعد ، كانت غايته أن يسقط مراده بمراد الله تعالى ، وأن يلغي ذاته ، أحب الله بكليته وبكل همته ، لا لأجل الثواب ولا لأجل الخوف من العقاب ، وإنما أحب الله لأجل القرب منه . . .

والصوفية في نظره صفاء في القلب ونقاء في النفس وطهارة ظاهره وباطنه ، وخلق محمود وشعور بالافتقار إلى الله وإيثاره على كل ما عداه ، ونصح صادق ، وابتعاد عن الآثام وإقبال بالقلب على الله والتزام بأوامر الشريعة ، وسمو في السلوك ، وعدم انشغال القلب بالدنيا وترفع عن الصغائر ، وارتقاء بمستوى الهمة إلى أعلى درجات السمو الخلقي وتحكم بالغرائز الفطرية .

ولا يمكن للصوفية أن تكون صوفية المظاهر وصوفية الملبس وصوفية الكسل والإحباط والحاجة إلى الناس ، فالخشونة ليست من صفات الصوفي ، صوفية السلوك هي الارتقاء بمستوى السلوك إلى الأكمل وصوفية الباطن هي نقاء الباطن من الخواطر المذمومة كالحقد والطمع والعجب والكبر والرياء والحسد واستبدال ذلك بالخواطر المحمودة التي تؤدي إلى الحمد والشكر والتواضع والزهد والنزاهة والعفة والترفع والإيثار ومحبة الله والتعلق بالمكارم .

كان الشيخ يتحدث عن الصوفية في حقيقتها لا كما أصبحت عليه ، ولا كما اشتهرت به ، تلك صوفية محببة إلى النفوس لصفائها وعلو همة القائمين بها ، وما عداها فليست صوفية ، وإنما هي طقوس وعادات وتقاليد ومجالس غفلة ولهو ومتعة وتلذذ بالطعام والسماع وغرور وكبر وعجب وتفاخر وتحاسد.

مفهوم الصوفي :

والصوفي هو تنقية دائمة لظاهره ولباطنه ، وتصفية لخواطره وسلوكياته ، يحاسب نفسه على كل سلوك ذميم ويراقب الله في سره وعلانيته ، يفعل الخير لأنه خير ، لا لدنيا يصيبها ، ويبتعد عن الذنوب والآثام لمخالفتها للكمال ، لا يتحدث عن الكرامات وخوارق العادات ولا يفاخر بها ، ولا يجد كرامته في غير استقامته ، افتقاره الدائم لربه ولا افتقار لغيره ، يؤثر الله على كل شيء ، ويتواضع للضعفاء ، ولا يغتر بطاعته ولا تحجبه عبادته عن ربه ، يفر من دنياه إلى ربه ويجد أنسه في مجالس ذكره لله تعالى.

هذه هي صوفية الشيخ ولا صوفية غيرها ، وهذه هي طريقته ولا طريقة غيرها ، كان يردد في مجالسه: طريقتنا محمدية ، منهجها هو اتباع سلوكية الرسول ﷺ الذي يمثل أعلى درجات الكمال وحسن الخلق ، والمجاهدات النفسية غايتها تزكية النفوس للتحقق بالسلوكية المحمدية التي تمثل الهدف والغاية ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ والصوفية خلق محمود فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف.

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١].

أهم صفات تربية الصوفي :

وأهم صفة في تربية الصوفي هو التواضع والمراد بالتواضع هو الخضوع للحق والانقياد له وخفض الجناح للضعفاء والمحتاجين ومعرفة عيوب النفس ، والتواضع ليس هو الضعة ، فالصوفي عظيم التواضع ولكنه رافع الرأس يستمد عزته من الله العزيز. ومن صفات الصوفي حسن الظن بالله والمسارعة إلى الطاعات وإلى الخيرات والانصراف إلى الله تعالى بكل هيبة والإقبال عليه بقلب متجه إليه وعدم انشغال القلب بما يعكر صفاء القلوب من

أكدار الدنيا ومتعلقاتها من مال ومتعة وجاه والمداومة على تزكية النفوس مما علق بها من الصفات المذمومة.

لم يكن للشيخ أوراد خاصة يلتزم بها أو يأمر اتباعه باتباعها ولم يدع إلى عزلة أو خلوة ولم يكن ذلك من منهجه التربوي، وكان يضيق بما يلزم الصوفية أتباعهم به من طقوس ثابتة وبما كان يظهر على بعض اتباعه من أحوال تخرجهم عن جادة الالتزام بالسلوك الأكمل وكان لا يحب شطحات الصوفية المتكلفة في الأقوال والأفعال ويعتبر ذلك من النقص والضعف والأقوياء لا يضعفون بتأثير الأحوال ولا ينساقون وراء الشطحات المخالفة لمنهج الاستقامة وإذا وجد أحداً من أتباعه يستسلم لحال يخرجه من الاستقامة بين له أن الشريعة تمثل الكمال ولا كمال خارج نطاق الشريعة وينقد من كان يتكلف تلك الأحوال بمواجيد غير صادقة ويقول ويؤكد أن أهل الكمال لا يبحثون عن الكرامات، ولا يحبون أن تنسب إليهم خوارق العادات، فتلك الخوارق لا تظهر من المربين الكاملين، فالمربي الكامل يظهر بكل خصائص بشريته ولا يريد أن تظهر خصوصيته لمخالفة ذلك للتربية المحمدية التي تقوم على أساس الشريعة.

ولم تكن تشغله الطريقة وأورادها وطقوسها وتقاليدها، ذلك أمر كان يعرض عنه فلا يتحدث عنه في مجالسه، ويدع أهل الطرق فيما هم فيه، خائضون ومنشغلون لا ينتقدهم ولا يثني عليهم، ذلك طريقهم الذي اختاروه لأنفسهم، وهذا هو طريقنا الذي اخترناه، بيان ومعرفة وتربية وتزكية ولا يجوز أن تشغلنا الشكليات عن الغايات، ولا الأوراد عن أهدافها المرادة بها ولا الأذكار عن معرفة المراد بالذكر وهو معرفة الله والتقرب منه واستشعار عظمته في القلب وإشراق نور اليقين فيه.

لم ينقد الشيخ الطرق الصوفية وإنما كان ينقد ما فيها من تجاوزات وانحرافات وادعاءات، ومخالفات للشريعة، وهذه أمور تتفاوت بين طريقة وأخرى ويختلف الحكم على هذه الطرق بحسب التزامها بضوابط الشريعة وتعاليمها، كانت معظم الطرق غافلة عن أهدافها الروحية وكان هذا يؤلمه ويحزنه لأن النقد يوجه من خلال تلك الانحرافات إلى الطرق كلها وإلى الفكر

الصوفي بمجمله ، والفكر الصوفي الأصيل لا يمكن أن ينقد لسلامة منطلقاته فهو فكر يهتم بتزكية النفوس وإحياء القلوب ، وهذا منهج إسلامي أصيل ولا حدود للانحراف في الطرق الصوفية فقد يبدأ الانحراف بخطوة صغيرة يحسبها الإنسان لا قيمة لها وبخاصة في مجال العقيدة والسلوك ثم تكبر هذه الخطوة وتتسع وتبتعد عن المعايير الشرعية إلى أن يصبح الطريق مليئاً بالانزلاقات الخطيرة التي تزيل الملامح المضيئة من هذا الفكر وتطفىء مشاعله وتكدر صفاء غاياته وتصبح المجاهدات طقوساً ضارة بصحة النفوس والطبائع وتنقلب المفاهيم الرائعة إلى مصطلحات جامدة تتردد ألفاظها بغباء وجهل ، وتصبح مجالس الذكر منتديات للطرب والسماع والمتعة وتمنح لمشايخ الطرق قداسة دينية وعصمة مذمومة ، وتسيطر سلوكيات الغرور على العباد والزهاد فيتطاولون على الضعفاء بالإذلال والقهر وتسود أخلاق الحسد والتنافس والعجب والتنابذ في مجالس الذكر ، كل ذلك قد يقود إلى نهايات خاطئة وانتكاسات لقيم تربوية عالية .

لم تكن تزكية النفوس بإخماد غرائزها الفطرية إذلالاً للسالكين ، ولا يمكن للتواضع أن يعبر عن ضعة النفوس ، ولا يمكن للإيثار أن يكون مطية لتحقيق المطامع ، ولا يجوز لسلوكيات الأحوال الشخصية أن تكون دالة على تميز في المقامات وسمو في الأحوال ولا يمكن إطلاق مصطلحات الواردات المحمودة على الخوطر الشيطانية الضارة المعبرة عن غفلة القلوب ، فالصوفية شجرة طيبة في أرض خصبة تسقى بماء عذب من التربية الصادقة لكي تثمر تلك الشجرة ثمرات طيبة من السمو الخلقي والالتزام بالآداب الإسلامية .

كانت صوفية الشيخ مختلفة كل الاختلاف عن صوفية الطرق السائدة لعلها دعوة إلى التجديد الصوفي ، تجديد الهياكل المتآكلة بتأثير مخلفات قرون الجمود والسكون والإحباط ، وهي دعوة إلى رفع الركام عن حقيقة الصوفية لكي يعود بريقها كما كان لامعاً ومضيئاً ومعبراً عن حقيقة التصوف ، إنها دعوة إلى إلغاء تلك الطقوس التي ليس لها مرجعية شرعية ثابتة من قرآن أو سنة ، إنها دعوة صادقة للتصحيح ، لإيقاظ الفكر الصوفي بعد ذلك الليل الطويل التي

كانت أشباح الجهل والأمية والتخلف تعبث به إلى أن أصبح شاحب اللون قاتم الملامح تعلوه تغضنات الشيخوخة اليائسة.

قدم الشيخ صورة مضيئة للتصوف الإسلامي تحمل ملامح التصوف الشرعي الأصيل الذي يهدف إلى تخليق الظاهر بتزكية النفوس وتخليق الباطن بإحياء قيم الفطرة الأصيلة التي خلقها الله نقية صافية محبة للخير نافرة من الشر والقبح والانحراف، ذلك التصوف ليس فيه بدعة مذمومة وليس فيه طقوساً غير محمودة، إنه منهج تربوي أصيل يوقظ القيم الروحية ويغذيها ويعلي من شأن الفضائل في السلوك ويلاحق الشر من جذوره ومحابسه الدفينة في أعماق الذات، لكي يقضي عليه بالمجاهدات النفسية المحمودة التي تهدف إلى تزكية النفوس والنهوض بالسلوك إلى حيث الأكمل والأجمل والأصدق.

لم يتحدث الشيخ يوماً عن التجديد أو التصحيح وإنما كان من خلال منهجه التربوي والسلوكي يمارس منهج التصحيح في الفكر الصوفي بتجاوز سلبياته والتركيز على ثوابته وأهدافه ذلك منهج في التصحيح سليم وعظيم لأنه ينشىء قيما جديدة وثقافة صوفية راقية ونقية وصافية ترتدي الثوب الأبيض النظيف الذي لم تلوثه تقاليد المجتمعات التي غفلت عن حقيقة الإسلام بسبب ما يسيطر عليها من ظلام الأمية والتخلف.

طريقتنا محمدية:

كان الشيخ رحمه الله عندما يسأل عن طريقته يردد في مجالسه «**طريقتنا محمدية**» منهجها هو اتباع ما جاء عن النبي ﷺ من أقوال وأفعال وتوجيهات وإرشادات ويردد قوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ** ﴾ [آل عمران: ٣١] ويضيف: الشريعة كمال والإتباع هو قمة الكمال ومن تطلع إلى الكمال فلا يفعل خلاف الأولى.

وقد يتساءل متسائل: لماذا لم يلتزم الشيخ بطريقة صوفية خاصة وقد بدأ حياته بذلك؟

لماذا كان يقول «طريقتنا محمدية» ولم يقل قط : إنها شاذلية أو نقشبندية أو قادرية أو غير ذلك؟

لماذا لم يلتزم بالأوراد والطقوس الطرقية والدعوة إلى الخلوة؟

لماذا كان يركز على تزكية النفوس بالتهذيب وحفظ الحواس كالسمع والبصر؟

لماذا أسقط في مجالسه الحديث عن الكرامات وربط البحث عن الكرامة بالنقص؟ وأهل الكمال لا يعنيهم أمر الكرامات.

لماذا كان يحذر أصحابه من مصاحبة المجاذيب ولو كانوا من أهل الكرامة والولاية ، لأن المجذوب فيه نقص وليس مكلفاً بالأحكام ، ولا يمكن اعتباره قدوة لافتقاده كمال العقل الذي ارتبط به التكليف.

ذلك منهج متميز ، ليس فيه صوفية الطريقة ، وإنما فيه صوفية الشريعة ، والشريعة أسمى وأكمل من الطريقة ، والشريعة هي الأصل والمنبع والطريقة هي ثمرة للشريعة ، ولا يمكن للشريعة أن تثمر ما يناقضها في التكوين ، كما لا يمكن للطريقة أن تخالف أصولها ، فالفرع لا يناقض أصله.

صوفية الشيخ ليس فيها جذب يومىء لضعاف العقول باللحاق به وليس فيها تتبع لخوارق العادات بمتاهات الضياع التي تعبث بالعقول وتهبط بمستوى القيم الإسلامية والفضائل فتجعل الخوارق معيار التفاضل والتميز ، فيسقط العوام في متاهات الضلال.

والمنهجية الصوفية التي التزمها الشيخ تلتقي مع صوفية الصفاء الروحي المستمدة من سلوكيات السلف وتستقي تصورها من ينابيع القرآن والسنة ، رياضاتها النفسية تهدف إلى تزكية النفوس ومجاهدتها تسعى نحو التحكم في الغرائز الفطرية لا لإماتة تلك الغرائز بالقهر والإذلال إنما للتحكم في اندفاعاتها لكي تكون في قبضة الشرع فذلك هدف مشروع وغاية مرجوة.

واشتهرت الصوفية من خلال الطريقة بسلوكيات خاصة تتمثل في المبالغة في كل شيء ، مبالغة في العبادات ، ومبالغة في المجاهدات ، ومبالغة في

الزهد والابتعاد عن الدنيا ، ومبالغة في استعمال المصطلحات المبهمة التي تفهم أحياناً ولا تفهم تارة ، تدل على كل شيء ولا تدل على شيء ، ولم تكن في منهجية الشيخ تلك المبالغات ، فالعبادة تؤدى بكل أركانها وشروطها وآدابها ولا مجال للمبالغة فيها خارج نطاق الفروض والسنن والنوافل وغايتها فهم غاية العبادة وهي إخلاص النية لله تعالى وأداء ما أمر الله به ولا مجال للمبالغة في الزهد ، فغاية الزهد هو عدم تعلق القلب بالدنيا فإذا انصرف القلب إلى الله تعالى زهد فيما عداه والزهد لا يتحقق إلا بوجود مزهود فيه ومرغوب فيه فإذا تعلق السالك بالمرغوب فيه زهد فيما عداه والزهد هو عدم الالتفات إلى غير المرغوب فيه ، والعمل في الدنيا لا ينافي الزهد ، فالزاهد أقدر على العمل والسعي والكسب ، لأنه متحرر من قيود التعلق ، واليد العليا هي خير من اليد السفلى ، فصوفية اليد العليا صوفية الكرامة والهمة ولا كرامة لصوفية اليد السفلى التي ترضى بالمذلة والمسكنة .

والصوفية وضوح في الرؤية والمصطلحات دالة على معانٍ واضحة لا غموض فيها ، فليس في الصوفية ذلك الغموض ، ولا تلك الظلمة التي تفسح المجال للتأويلات التي لا تدرك معانيها ، فعالم النور يضيء العقول بالمعارف ويرفع من الهمم ، بخلاف عالم الظلمة ففي دروبه تضل القوافل ويتيه السائرون ، وتعبث الشهوات والغرائز بصفاء القلوب ويبحث السالك عن الكنز الدفين في المجاهل المظلمة ، فلا يجد سوى السراب الذي يتراءى له من بعيد ، ثم لا يلبث أن يكتشف أن الأوهام قادته بعيداً عن سلوكيات الاستقامة التي رسمت الشريعة معالمها .

* * *

موقفه من الفقهاء

الفقه هو الفهم ، والفقه في الدين هو فهم حقيقة الدين أولاً ثم معرفة أحكام الدين ثانياً ، ولا يمكن أن تفهم أحكام الدين إلا بعد فهم حقيقة الدين ، وحقيقة الدين تفهم بصفاء الفطرة ونقاء القلب ومراعاة حقوق الله في السر والعلن .

قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ [التوبة : ١٢٢].

وقال أيضاً : ﴿ فَسْـَٔلُوٓا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٤٣].

كان الشيخ يشيد بدور العلماء ويثني عليهم ، لأنهم مكلفون بالبيان والإرشاد وهم السراج الذي يضيء في المجتمع وينير الدروب ، والعلم نقيض الجهل قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٣].

وقال أيضاً : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء : ٨٣].

وجاء في الحديث المروي عن معاوية رضي الله عنه : «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ويلهمه رشده» متفق عليه ، ولم يختلف الصوفية مع الفقهاء في أمر الأحكام ، فهم أهل العلم والاختصاص في الأصول والفروع ، ويجب الأخذ عنهم والاستفادة من علمهم في الأحكام ، ومعرفة الأحكام الفقهية على وجه الإجمال فرض عين لحاجة المكلف إلى معرفة أحكام الحلال والحرام .

إلا أن الشيخ كان يرى أن الفقه في الدين هو أعم واشمل من الفقه في

الأحكام ، وإن الفقيه عليه أن يهتم بأفعال الجوارح كما يجب عليه أن يحسن فهم أهداف الدين ومقاصده وغاياته.

فالفقه يشمل فهم العلم الذي تدرك به كيفيات العمل وآداب العبادة وآفات النفوس ، ولا يجوز الجهل بطبائع النفس وأمراض القلب.

واجب الفقهاء:

وأول ما يجب على الفقهاء أن الالتزام به هو أن يطهروا باطنهم وأن يهتموا بإصلاح أنفسهم ، فذلك هو الفقه الأكبر ، فإذا صلح الباطن صلحت الأعمال واستقامت ، وأعطى العلم ثمرته المرجوة منه.

ولم ينتقد الشيخ الفقهاء ، وإنما كان ينتقد اهتمامهم بالظاهر ووقوفهم عنده ، وعدم الاهتمام بإصلاح النفوس ، فالإصلاح هو المطلوب والعمل هو ثمرة العلم ، ولا ثمرة لعلم إذا لم يلتزم صاحبه بأدب العلم وأخلاقيات العلم.

غاية الفقه العلم بحقيقة الأشياء كما هي عليه ، والعلم هو أداة الارتقاء من الجهل إلى العلم ومن الظلمة إلى النور ومن الكثافة إلى اللطافة ، ومن الرذائل إلى الفضائل ، وأول آثار الفقه أن يرتدع الإنسان عن المآثم وأن يضيق بها وأن يندم عليها ، وأن يأخذ نفسه بالصفات المحمودة وأن يلتزم بها ، وأن يعمل صالحاً يرضي ربه ، فلا يحقد ولا يطمع بل تراه متطلعاً إلى الأفضل والأحسن على أن يظهر أثر ذلك على صفاته الظاهرة.

ذلك هو الفقه الأكبر الذي لا يجوز لفقيه أن يجهله أو يتجاوزه ، فالفقه هو فقه النفوس ومعرفة نوازعها الضارة ، ومن أحكم سيطرته على آفات النفوس فقد ارتقى في معارج الكمال وأثمرت أغصان علمه الثمرات المرجوة من معرفة الأحكام.

وأول آثار الفقه يجب أن تظهر على الفقهاء نضرة في الوجه وصحة في الملامح ورقياً في السلوك وترفعاً عن الصغائر ، فالفقه هو الفهم ، ولا فهم مع رسوخ السلوكيات الضارة التي لا تليق بمكانة العلماء.

وللفقه آداب في كل أحكامه من عبادات وعادات ، وأول من يجب عليه أن

يوجه الاهتمام إلى أهمية تلك الآداب هو الفقيه نفسه ، فإذا جاءت الأحكام الفقهية خالية من آدابها لم تحقق الغاية المرجوة منها ، وهو تهذيب السلوك والارتقاء بمستوى القيم الاجتماعية لكي تكون أقرب إلى الكمال .

الفقه هو الفهم الحقيقي للدين :

كان الشيخ يريد للفقه أن يكون فهماً شاملاً لحقائق الدين ، وألا يتوقف عند حدود معرفة الأحكام ، فمعرفة الحلال والحرام أمر يسير ، ويدرك بالعلم ، أما الالتزام بالحلال والحرام فذلك هو الفقه المطلوب ، وهو غاية المعرفة ، وهذا يحتاج إلى تكليف وتربية وتهذيب وحمل النفس على الأخذ بالفضائل ، فمعرفة أحوال القلوب والاهتمام بصفائها يؤثر على سلوكية الإنسان ويحدد له مزاجه ، والسلوكيات الظاهرة التي تعبر عن أفعال الجوارح والحواس هي ثمرة لما يحصل في القلب من انفعالات وخواطر . . .

وتطلق لفظة «علماء الظاهر» على الفقهاء لأنهم يهتمون بما يصدر عن الحواس الظاهرة من أفعال ، ولا يلتفتون إلى خواطر القلوب التي تولد السلوكيات الظاهرة ، وألحق الإمام الغزالي الفقه بعلم الدنيا ، وسمى الفقهاء بعلماء الدنيا لأنهم تكلفوا بالبحث عن الأحكام التي تنظم شؤون الدنيا ، أما ما يتعلق بعلوم الآخرة فقد تكفل به علماء أحوال القلوب ، فالفقيه هو العالم الذي يهتم بالأحكام التي تنظم أحكام الخلق في منازعاتهم وخصوماتهم وشؤونهم ، ولذلك ارتبط عمل الفقهاء بالسلطان لأن السلطان مكلف بتنظيم شؤون الخلق بما يكفل إقامة العدل بينهم ، ولذلك يحتاج السلطان إلى الفقهاء ليبينوا له طرق العدل ووسائل إقامته بين الخلق في معاملاتهم وعقودهم وعلاقاتهم فيما بينهم ، وهو عمل مرتبط بأحكام الدين ، لأن الفقيه يبين أحكام الحلال والحرام ، والدين أصل والسلطان حارس وما لا أصل له فمهدوم وما لا حارس له فهو ضائع ، والفقه هو وسيلة السلطان لمعرفة الأحكام وإقامة العدل بين الناس ، وما يتعلق بالقلب وخواطره فخارج عن نطاق الفقه والفقهاء .

فالفقيه يبحث في أركان الصلاة وشروطها ، وما يجعلها صحيحة

وما يجعلها فاسدة وهذا هو نطاق اختصاصه ، ولا يبحث عن باطن الأعمال ، وما يجري فيها من غفلة ورياء ، فذلك من أعمال الآخرة وهذه هي مهمة علماء الآخرة الذين لا يبحثون في ظاهر الأعمال وإنما يبحثون فيما هو مقبول عند الله منها .

لم يكن الشيخ ينتقد عمل الفقهاء ، فتلك مهمة مقدسة وضرورية ، والفقه هو أداة معرفة الحقوق وضبط قضايا الخلق بما يكفل تحقيق العدل بما شرعه الدين من أحكام ، إلا أن الفقه الأعظم هو الفقه بحقيقة الدين والتزام الورع في المعاملات والابتعاد عن الحرام وعدم البحث عن الحيل الشرعية التي تخرج الفعل عن دائرة الحرام إلى دائرة الحلال بالتحايل عليه والالتفاف على أحكام الدين ، فتلك مهمة تناقض حقيقة الدين ، فالعدل لا يتحقق إلا باحترام أحكام الشرع والورع عن الحرام بالابتعاد عن دروبه المؤدية إليه فإذا التزم الفقهاء بما يفرضه عليهم الدين من وجوب مراعاة حقوق الله في السر والعلانية كانوا فقهاء في الدين ، وحرّاساً لأحكامه ، وإذا استخدموا علمهم لتبرير المظالم والتحايل على شرع الله بما يناقض حقيقة الدين كانوا علماء سوء ، استخدموا علمهم في غير ما أمرهم الله به . . . . .

وليست الغاية التقليل من أهمية الفقهاء ، وإنما الغاية أن يقع التواصل بين الفقه والفقهاء ، وبين علم الدنيا وعلم الآخرة لكي يحقق الفقه غاياته المرجوة في الدفاع عن العدل وإحقاق الحق ، فلابد للفقيه من الالتزام بالورع الذي يحصنه من الزلل ، ولابد له من نقاء الفطرة واستقامة العقيدة لكي يكون استنباطه للأحكام الفقهية سديداً ورشيداً ولابد له من التخلق بأخلاقيات العلماء والفقهاء من الزهد والتواضع والترفع عن الصغائر والصدق والنزاهة والابتعاد عن الصفات المذمومة كالطمع والحسد والحقد والعجب والكبر فتلك صفات مذمومة لا تليق بالفقهاء .

والفقيه الحق هو الحصن القوي للحق يقاوم الباطل ويتصدى للمظالم ويقول كلمة الحق في كل المجالس ، وهو مصدر النور والضياء في المجتمع فإذا استقام الفقهاء في سلوكهم حملوا الأمانة بنزاهة وشجاعة وإذا ضعف

ورعهم وتعلقت قلوبهم بالدنيا ومتاعها ضعفت إرادتهم وضلوا الطريق وأساؤوا للدين . . .

إذن لابد للفقهاء من فقه الإخلاص والصدق ومحاسبة النفس والورع وإصلاح علاقتهم بربهم واستشعار الهيبة من الله في كل آرائهم وفتاواهم ولابد للفقه من فقهاء يغنون أحكامه باجتهاداتهم التي تجسد عظمة القيم الإسلامية التي تدافع عن الحق والفضيلة .

ذلك هو المنهج الذي كان الشيخ يدعو إليه ، فقهاء متخلقون ، يحسنون الفهم والاجتهاد ، لا يساومون ولا يفرطون ، لا تغرهم الدنيا ولا تدفعهم إلى التمسك بمتاعها علماء الظاهر لا يتوقفون عند حدود الظاهر بل يتخلقون بالخلق الإسلامي الرفيع ، فيكون باطنهم كظاهرهم نقياً صافياً . . .

والتخلق هو المطلوب ، فلا علم بلا خلق ، والعالم الفقيه المتخلق هو القدوة وهو الذي لا تشغله الدنيا عن الدين ولا يفرط في مقدسات الدين ، وهذا هو الفقه الأكبر . . .

وليس هناك فقهاء للدنيا وفقهاء للآخرة ، فالدنيا هي المزرعة وهي البداية ، والآخرة هي الثمرة وهي النهاية ، والفقيه الذي يرعى شؤون آخرته في فتاواه واستنباطاته واجتهاداته واختياراته هو الفقيه الحق الجدير بالاحترام وهو المثل الأعلى للفقيه الذي يُقتدى به في آرائه وتقع الطمأنينة إلى اجتهاداته .

أما الفقيه المذموم فذلك الذي يسخر علمه لخدمة مآربه الشخصية لا يرعى حقاً لله يبحث عن الحيل الشرعية لإباحة الحرام ويحوم حول مواطن الريب يسخره الأقوياء لتبرير مظالمهم ويرضى لنفسه أن يقف على أبواب الحكام طمعاً في إرضائهم للوصول إلى مناصب مطموحة أو أعطيات ممنوحة لا يردعه ضمير يحاسبه في الليل ولا يستشعر مراقبة الله بأعماله طيلة النهار ، يطمع فيما يجب أن يزهد الفقهاء فيه ويسعى بالفتنة لإلحاق الضرر بالصادقين من العلماء لإبعادهم عن منافسته .




الباب الثالث
آثاره

الفصل الأول : جامع الكلتاوية

موقع الكلتاوية

محبة الشيخ للكلتاوية

بناء الكلتاوية الجديد

ما يميز حياة الكلتاوية

أولاً : التزام الأدب

ثانياً : الاهتمام بالنظافة الظاهرة والباطنة

ثالثاً : حسن الخلق

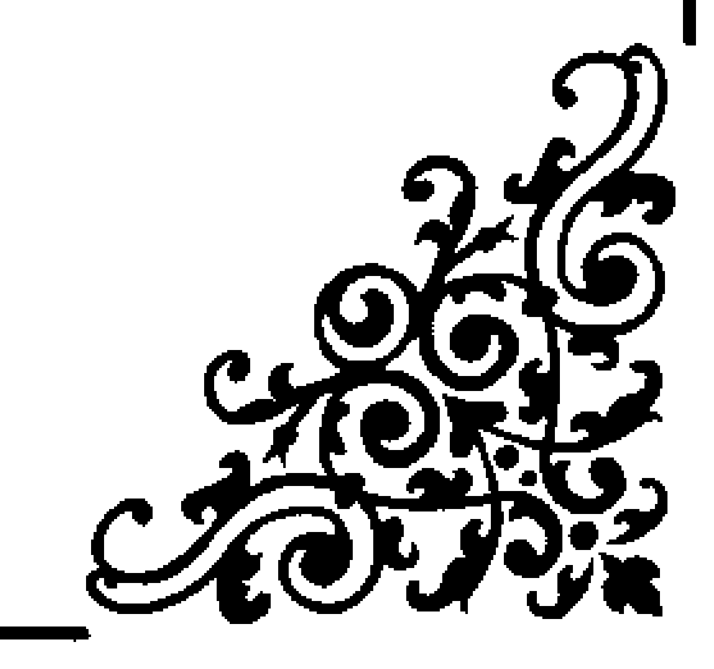
رابعاً : كراهية الجدال والعصبية

خامساً : الابتعاد عن الطقوس المذمومة

مجلس الذكر في الكلتاوية

الجمعة في الكلتاوية

الكلتاوية بعد رحيل الشيخ

الباب الثالث
آثاره

من أهم آثاره : تلامذته

أهم أثر تركه الشيخ رحمه الله هم تلامذته واشتهروا باسم الإخوان ويقال إخوان الشيخ وأتباعه كما كانت تستعمل أحياناً لفظة المريدين ولفظ المريد أحد المصطلحات الصوفية ويقال أدب المريد مع الشيخ كما يقال أدب الصحبة .

لم يترك الشيخ كتباً مقروءة سواء كان مطبوعة أو مخطوطة كما أنه لم يترك أي وثائق أو رسائل ، لكن أفكاره وآراؤه محفوظة في صدور إخوانه يتناقلونها ويرددونها في مجالسهم وبعض دروسه العامة وبعض مذاكراته مسجلة في شرائط ويتم تدارسها بعناية وتنقل عنه كما تعقد مجالس لسماع هذه الدروس بوضوح عبر آلات النقل والتسجيل .

ولم تكن هذه الدروس والمذاكرات تسجل في البداية وكان بعض إخوانه يسجل بعض آرائه وأفكاره وأقواله أثناء مجالس الشيخ أو بعد ذلك . . .

وبدأت في الفترة الأخيرة محاولات لكتابة هذه الأقوال والآراء نقلاً عمن سمعها منه مباشرة ومن أبرز من عكف على كتابة هذه الآراء والأقوال الشيخ هشام عبد الكريم الآلوسي أحد إخوان الشيخ في العراق وهو أحد علماء العراق إذ بذل جهداً طيباً ومشكوراً في كتابة ما سمعه من قدماء إخوان الشيخ بحلب ، وكان يكتب ما ثبت لديه من هذه الأقوال ويذكر اسم راوي الخبر ممن سمع من الشيخ مباشرة كما كان الشيخ محمود مهاوش الكبيسي من العراق يكتب في مجالس الشيخ ما كان يسمعه مباشرة وسماها فيوضات الشيخ النبهان وربما ما كتبه ما زال محفوظاً لدى أبنائه في بغداد . . .

والجزء الأكبر من أقوال الشيخ محفوظ في صدور علماء الكلتاوية وهم نخبة طيبة من علماء حلب تربوا في الكلتاوية وفي المدرسة التي أنشأها الشيخ والجيل الأول من علماء هذه المدرسة حضروا مجالس الشيخ وسمعوا منه مباشرة وتربوا على يده أما الأجيال اللاحقة من خريجي هذه المدرسة فلم يحضروا مجالس الشيخ وإنما سمعوا دروسه المسجلة .

كان الشيخ يريد أن يكون إخوانه وتلامذته هم كتابه المفتوح والمقروء وكان يشجعهم على أن يكونوا ناقلين لفكره بحالهم وبسلوكهم وبأخلاقهم وأن يجسدوا بأخلاقياتهم منهجه التربوي والروحي فكان كل واحد منهم يأخذ من الشيخ بمقدار استعداده وبحسب فهمه ، فتعددت الآراء إلا أنها ظلت مرتبطة بالنبع الأصيل لها ، وحافظت على تلك الرابطة التي تمثل مدرسة الشيخ التربوية والروحية . .

وأهم خصوصية لهذه المدرسة أنها تستوعب الواسع من الأفكار والضيق من الآراء والأفكار ، والفكر الرحب يجد فيها امتداده وسعته كما يجد فيها المرونة والفهم العميق والرؤية الإنسانية التي تستوعب طموح الإنسان إلى الأفضل ، والفكر الضيق يجد فيها نفسه وعزلته واهتماماته الجانبية ، والشيخ كان واسع الرؤية يخاطب الرجل المتعلم والرجل الأمي ، ويصل بخطابه إلى القلوب ، وكان يؤكد في مجالسه أن الكلام كالبذور يخرج من الفم ويلقى في الأرض فإذا كان هذا الكلام معبراً عن الأهواء تصادمت النفوس وفسد البذر ، والبذر الفاسد الذي لا ينبت إطلاقاً ولو كانت الأرض خصبة ولهذا لابد من الصدق في الأقوال لكي تنمو وتنفتح وتنبت بذورها في القلوب وتورق وتزهر وتثمر ، وأهم ما يجب على الشيخ أن يلتزم به في أقواله أن يكون صادقاً وأميناً وأن ينطق بالحق بياناً للحق وهذا الكلام لابد إلا أن يجعله الله في موطن الحلاوة فيجد السامع لذته فيما يسمع ، ومن استلذ شيئاً أحبه وتعلق به وحرص على أن يسمع هذا الكلام ويردده لكي يشعر بلذته في قلبه . . .

أما الكلام الذي لا يلتزم فيه صاحبه بالحق فسرعان ما تنقبض القلوب لسماعه وتضيق به، ولا يحدث الأثر المطلوب في النفس ولو كان صاحبه من

أكثر الناس بلاغة وفصاحة ، فالحق هو الذي يعطي حلاوة للأقوال لكي يستلذها الطبع وتميل إليها النفس . . .

وأهم ما كان يحرص عليه الشيخ في مجالسه مع إخوانه التزام الآدب ، فما يحصل عليه المريد بفضل أدبه هو أكثر مما يستفيده من أنواع العلوم بالإلحاح في السؤال واستعجال الجواب فالأدب له بركة والفائدة في هذه البركة .

ولا تتحقق الصحبة بين الشيخ والمريد إلا بوجود التجانس بوجود ميل من المريد إلى الشيخ وهذا الميل لا يتحقق إلا بوجود نسبة من الانسجام والتوافق فإذا حدث التنافر انعدمت الصحبة فالميل هو الذي يقرب المريد من الشيخ ويجعله متعلقاً به محباً له مستأنساً بمجالسه ملتزماً الأدب معه والإنسان يميل لما يماثله في الطبائع والتكوين والاستعدادات ويضيق بمن يخالفه في ميوله ، فمن صحب أهل الاستقامة فهذا دليل على حبه للاستقامة ومن أحب أهل الكمال فهذا دليل على حبه للكمال ومن أحب الله أحب كل من يحب الله ، ومن أحب الله أحب كل ما يقربه من الله ومن صحب شيخه فهذا دليل على وجود نسبة بينه وبين الشيخ ، وهذا مما يسعد المريد فإذا تطلع المريد من خلف النوافذ إلى شيخ أخر فهذا التفات يحجبه عن الشيخ ويبعده عنه وتنقطع الصلة بين الشيخ والمريد ويتوقف التواصل بينهما لعدم وجود التجانس المعبر عن التوافق ولو وقع التوافق لما توقف التواصل . . .

ومن خصوصيات الشيخ رحمه الله أنه كان في قمة الأدب في علاقته بإخوانه ، يحبهم في الله ويأنس بمجالسهم ، ويخاطبهم بأحب الأسماء إليهم ، ويتلطف في معاملتهم ، ويشاركهم في همومهم ويكلمهم على قدر عقولهم ، ولا يكلفهم بما لا يطيقون ، ويصف لكل واحد منهم ما ينفعه وما يكون قادراً عليه ، ولم يحرج أحداً قط من إخوانه بما يكرهه ، ولا ينتقده ، ولم يقصر بحق أي من إخوانه في مرض أو في فرح ، كان يفرح لفرحهم ويشعرهم بمكانتهم في نفسه ويتألف قلوبهم ويعاملهم باللين والمودة . . .

ولم يترك الشيخ كتاباً لكي يكون أثراً من آثاره يعرف به وإنما ترك في نفس كل أخ من إخوانه كتاباً يحفظه في صدره ويقرأه على أبنائه وأحفاده فكان الأبناء

هم حملة هذه الوديعة من الأقوال والأفعال ، وذهب الأباء وبقي الأبناء والأحفاد وهم جلساء الشيخ بعد رحيله في مجالسه التي لم تتوقف في الكلتاوية أو في المدارس التي أنشأها فكانت وفية لفكره وتراثه .

وآثار الشيخ الأكثر أهمية هي آراؤه وأفكاره التي حملها إخوانه وتتمثل في تلك السلوكية التي أخذ كل منهم بحظ منها سواء كان هذا الحظ وذلك النصيب قليلاً أو كثيراً وكل منهم أخذ ما يلائمه ، فليس هناك نموذج خاص يمكن أن ينسب إلى الشيخ فقد كانت تلك الأراء والأفكار كماء النهر الذي تسقى به الأرض فتخرج كل أرض ما سبق أن زرع فيها من أنواع النبات ، فمن انصرفت همته إلى العلم وجد في تلك الآراء سعة في الأفق ورحابة في التفكير ورعاية لقيم إنسانية سامية ، ومن انصرفت همته إلى العمل والكسب وجد فيها الدعوة إلى الترفع عن الدنيا والاستقامة والتحرر من قيود الدنيا والتوكل على الله في الرزق ، ومن اتجهت استعداداته للعبادة والطاعة لله تعالى وجهت اهتمامه إلى التزام الأدب مع الله في العبادات وتصحيح صورة الباطل بحيث يتجه القلب بكليته إلى ما اتجهت إليه الجوارح من أفعال الظاهر . . . .

لم يكن الشيخ يهدف لإلغاء الخصوصيات الذاتية التي تختص بها كل شخصية وإنما كان يهدف لتهذيب تلك الخصوصيات والارتقاء بمستوى سلوكها واهتمامها وإيقاظ معاني الخير في القلب باليقظة الدائمة واستحضار الله تعالى في كل عمل من الأعمال والترفع عن الصغائر والزهد في القليل الزائل المرتبط بالدنيا والرغبة في الكثير الدائم المرتبط بالآخرة .

إنها دعوة للتصحيح لكي تكون علاقة العبد بربه قوية وراسخة ومتينة ودعوة لتجديد مفاهيم الدين ، لكي يكون الدين عقيدة صحيحة واستقامة وخلقاً ، فليس الدين مجرد انتماء ظاهري وإنما هو التزام بأن يكون العبد على مراد ربه يفعل ما أمره الله به من سلوكيات الكمال وطريق ذلك محبة الله . . .

ولا يمكن لأحد أن يقول هذا ما أراد الشيخ وأن يدعي بأنه يسير على طريق الشيخ وإنما يستطيع أن يقول هذا ما فهمه من الشيخ بحسب استعداداته فكل يأخذ حظه ونصيبه من ذلك الرصيد الروحي الذي يغذي النفوس بثمار الإيمان .

الفصل الأول
جامع الكلتاوية

موقع الكلتاوية :

الكلتاوية هي الهضبة المرتفعة المطلة على باب الحديد أحد أهم أحياء مدينة حلب وهو الباب الأثري القديم الذي ما زال قائماً وكأنه حصن من حصون المدينة القديمة ، وهذا الباب يقود إلى حي البياضة وحي المستدامية وكل منهما يؤدي إلى قلعة حلب قلب المدينة القديمة ، والكلتاوية هي الهضبة التي تعلو القبو الأثري المعروف بقبو النجارين وأصحبت هذه الهضبة حياً شعبياً كبيراً يطل من جهته الغربية على قبو النجارين والبياضة ومن جهته الشرقية على الساحة التي تقع خلف الباب والمعروفة باسم بانقوسا والأحياء الشعبية المتفرعة عنها . . .

في قمة هضبة الكلتاوية يوجد جامع صغير منعزل وتقع خلفه مقبرة مهجورة وهناك درب ضيق يمتد من أسفل الهضبة إلى أعلاها وهو درب لا يتسع لمرور العربات لضيقه ولوجود درج فيه .

اختار الشيخ هذا الجامع الصغير النائي الذي لا يطمح أحد في الإقامة فيه لأنه قديم جداً ومنعزل وليس فيه سوى مسجد صغير للصلاة لا يتسع إلا للقليل من المصلين وليس فيه مئذنة وله باب قديم تقود إليه عدة درجات خارجية فإذا وصلت إلى الباب كان من الضروري صعود بقية الدرجات الحجرية الكبيرة التي تقود إلى ساحة المسجد ، وتطل نوافذ المسجد الأمامية على المقبرة التي تقع خارج أسوار المسجد من الجهة الجنوبية وتقوم المقبرة على مغارات وكهوف قديمة . . . .

ـ لماذا اختار الشيخ هذا المكان النائي . . . ؟

ـ ومتى اختاره للإقامة فيه . . . ؟

لا أعرف جواب ذلك . . ربما اختاره لهذه الأسباب لأنه ناء عن الناس ولا أحد يقصده ولا أحد يطمع فيه فاختاره مكاناً لخلوته وتأملاته . . .

وكان يقضي فيه معظم نهاره وليله . . . ويؤدي فيه عبادته بعيداً عن أعين الناس .

محبة الشيخ للكلتاوية .

كان يحب هذا المكان ويراه الأجمل ، كان يجد فيه راحته وأنسه ، لو رآه موحشاً لما أقام فيه ولو رآه منعزلاً لما أنس فيه ، أقام مدة طويلة من مقامه هذا في مجاهدات ورياضات نفسية أحياناً كان يتحدث عنها ، كان سعيداً بحياته هذه . . وكان يجد لذته بل ويجد نفسه .

لا أعرف الكثير عن هذه المرحلة لأنني لم أشهدها ، بل عاصرت المرحلة الأخيرة منها حين كنت في الخامسة من عمري حيث رافقت والدي في زيارته لوالده في مكان خلوته في الكلتاوية ، إذ لم أكن أعرف ماذا يعني هذا المكان وكل ما أعرفه أنني سأرى جدي . . .

لم يلفت نظري المكان . . . كانت ساحة الجامع الخارجية جميلة جداً كانت حديقة غنّاء مليئة بالأزهار والورود ، كما أن المياه تتدفق في الأحواض المائية ، عبر ممرات حجرية بين أحواض الأزهار ، أشجار السرو الباسقة تلقي بظلالها على المكان ورأيت الشيخ يمسك بيده مقص الأزهار ويقطع اليابس منها وينمي الأغصان الضعيفة ، ويزرع الأحواض بأجمل الأزهار .

لأول مرة اكتشفت جمال الحدائق وروعة ما تثيره في النفس من شعور بالسكون والطمأنينة ، كانت المياه تجري في الممرات والسواقي وأروع ما لفت انتباهي ذلك الصفاء النفسي ، الماء والأزهار والأشجار ونسمات المساء كل ذلك يولد شعوراً عجيباً بالبهجة .

الأحجار الكبيرة الناتئة في الأطراف أعطت المكان روعة متميزة وكأنها

أعدت بعناية من فنان أراد أن يضفي على المشهد الجمالي لمسة التراث العظيم ، ولم تكن أحجار الممر الرئيسي القديمة مجرد أحجار وإنما هي لوحات طبيعة رائعة.

لابد أن الشيخ رأى ذلك الجمال الطبيعي ، كان كل شيء في المكان ينطق بالحياة ، كانت هناك غرفة صغيرة وجميلة ونظيفة ، وأنيقة تضم مكتبة صغيرة وإلى جانبها حمام صغير. . .

في مساء ذلك اليوم امتلأت رحاب ذلك المكان بإخوان الشيخ ، مدت البسط وفرشت السجاجيد وجلس إخوان الشيخ وكأنّ على رؤوسهم الطير يسمعون كلام الشيخ بأدب وهو يحدثهم. . . وهم لكل كلمة منصتون والكل يسعى لخدمة الكل في حديث روحي ومناجاة الله تعالى.

تلك هي الكلتاوية كما رأيتها لأول مرة. . ما زالت روعة هذا المكان في ذاكرتي ، ولم أشعر بأنس بعد ذلك كذلك الأنس الذي أحسست به في ذلك اليوم. . ما زالت نسائم الربيع تداعب خيالي ، ابحث عنها فلا أجد لذة أروع منها. . .

وزالت الكلتاوية القديمة ولم يبق لها من أثر ، وبقيت في نفس طفل وفي مخيلته ، ومضت الطفولة وبقيت الصورة في الذاكرة ، ولم تزل وكأنها وليدة أمس قريب ، وزادت إشراقات الصورة وبخاصة بعد أن اكتشفت النفس الجديد مما كان غائباً عنها من أسرار الحياة وأسباب السعادة.

كانت أمسيات الكلتاوية القديمة من أروع الأمسيات ، كان اللقاء اليومي فيها ، لقاء الأحبة الذين اجتمعوا على محبة الله ، ليس فيها حديث عن دنيا تشغل أصحابها ومحبيها وتكدر صفاء نفوسهم ، كان الكل يترك أحماله وأثقاله خارج أسوار ذلك الحصن الروحي ، وكأنه في إجازة يريد أن تطول ساعاتها لكي تنعم النفوس بصفاء طويل. . .

سكن الشيخ في دار قريبة من جامع الكلتاوية ، في مدخل الكلتاوية ، كان يقضي بعض وقته في داره وبعضه الآخر في الجامع يلتقي إخوانه وأصدقائه ،

وفي يوم الجمعة يكون الجامع مكتظاً بإخوان الشيخ من الصباح إلى المساء ، لم تعد الكلتاوية مجرد مسجد للعبادة ، وإنما أصبحت مقراً للشيخ ، عشرات الشباب من إخوان الشيخ يقيم فيها ، وبخاصة طلاب العلم ، كانت تعقد فيها مجالس العلم وحلقات الدروس ، لم يعد المكان نائياً وبعيداً ، أصبح الحي كله يعج بالحياة ، عشرات الأسر من إخوان الشيخ سكنت في هذا الحي ، دروس ولقاءات واجتماعات يومية . . .

ازدادت حدائق الجامع جمالاً وروعة ، والإنسان هو مصدر الحياة والبهجة ، فلا حياة بغير الاجتماع الإنساني ، ولم يعد الجامع يتسع لرواده من مختلف طبقات المجتمع ، كلهم كان يزور الشيخ ويرتاد مجالسه المتواصلة ، من الصباح إلى المساء ، أصبحت الكلتاوية هي المكان المحبب لمئات من الإخوان ، وهو المكان الأجمل في نظرهم ، عندما يسافر الشيخ تتوقف الحياة فيه ، وعندما يعود تعود الحياة إليه . . فالحب يدفع القلوب لكي تلتفت حيث تحب ، وتجد أنسها في المكان الذي تحب . . .

أحببت هذا المكان كما أحبه غيري ، كنت أجد ذاتي فيه في تلك السن المبكرة من طفولتي ، هناك رفاقي وأصدقائي ، كنت في موطن الحب والرعاية من الجميع ، ألست حفيد الشيخ المقرب إليه . . .

أصبحت الكلتاوية بالنسبة لي مدرسة، في كل يوم برنامج دراسي خاص بي، دروس متتابعة خاصة بي ، في التفسير والفقه والنحو والصرف والخط العربي والحساب . . هناك كانت طفولتي الأولى لذا كنت أضيق بأي مكان أخر .

كان الشيخ يشجعني على الدراسة ، ويحضني على ملازمة دروسي الخاصة التي كان يشرف عليها ، كان يسعدني ما يسعده من غير تكلف . . .

وكنت ألازمه في مجالسه ، ويصحبني معه في زياراته ، ولم أعش طفولتي العادية ، هذه هي طفولتي . .

لم تعد الكلتاوية مكاناً مجهولاً ، أصبحت لفظة الكلتاوية تعنى الشيخ ومجالس الشيخ وإخوان الشيخ والذاهب إلى الكلتاوية هو ذاهب إلى الشيخ ،

وإخوان الكلتاوية هم إخوان الشيخ وهم قوم متميزون بسلوكيات تربوية وروحية ، وهم في الأغلب أهل استقامة وورع ودين ، منهم علماء وتجار وعمال وطلاب وأصحاب مهن خاصة ، وكل منهم له مكانة متميزة في مجتمعه . .

أصبحت الكلتاوية تعني الانتماء وليس المكان ، وتعني تلك الخصوصية التي ربى الشيخ أتباعه عليها ، وأهمها الاستقامة والنزاهة والخلق المحمود . . . أتباع الشيخ ومحبوه يرون في هذا الانتماء مصدر فخر واعتزاز وفرحة . .

كان الشيخ يستقبل في الكلتاوية شخصيات علمية زائرة ورجال فكر وشخصيات سياسية ورؤساء أحزاب وزعماء وقيادات روحية مسيحية ، كان الصعود إلى الكلتاوية أمراً مرهقاً ، ولكن لم يكن حائلاً دون الزيارة لمن أراد ذلك . . .

كان الشيخ بابتسامته الدائمة يستقبل كل زواره بالمحبة ويحيطهم بالرعاية ، ويردد في مجالسه أنزلوا الناس منازلهم كما هي في نفوسهم وكما يعتقدون بأنفسهم ، وليس كما تعتقدون أنتم فيهم ، فهذا من حسن الرعاية ، لكي تنشرح قلوبهم لكلمة الحق . . . .

لم يكن الشيخ يحب السياسة ، ولم يفكر في زعامة سياسية ، ولم يجامل سياسياً بزيارة مودة ، ولم يرد زيارة لسياسي ، كان يزور العلماء ويحسن مجاملتهم ويزور المرضى والمقعدين والمسنين . . . .

اشتهر الشيخ بنزاهته وورعه واستقامته وشجاعته في دفاعه عن المقدسات الدينية ، يحب في الله ولا حدود لحبه ، ويبغض في الله لمن أساء للدين والعقيدة ، وهذه المصداقية اكتسبها الشيخ من موقفه ، فهو لا يريد شيئاً إلا أن تحترم عقيدة الأمة وأخلاقها ، فمن أساء للدين فيجب التصدي له بكل شجاعة ، دفاعاً عن هذا الحصن المنيع التي تحتمي به الأمة من أخطار الضلال والانحراف . . . .

وفي فترة الخمسينيات وقعت حادثة بمدينة حلب اهتزلت لها المدينة ، وذلك أن صحفياً اسمه أبو شلباية كتب مقالة بإحدى الصحف اليومية الشهيرة هاجم فيها الإسلام وأساء فيها لشخصية الرسول ﷺ ، ولما أطلع الشيخ على ما كتب غضب عضبته التي هزت المدينة بأكلمها ، وخرج من الكلتاوية مع نفر من إخوانه باتجاه دار الحكومة محتجاً على ذلك الصحفي المستهتر ، وسمعت أحياء المدينة وأسواقها بخروج الشيخ غاضباً ، وسارعت المدينة بكل رجالها للانضمام للشيخ وأغلقت الأسواق أبوابها ، وما أن وصل الشيخ إلى دار الحكومة أمام باب قلعة حلب حتى كانت المدينة كلها تسير خلفه في تظاهرة شعبية غاضبة لم تشهد لها المدينة مثيلاً من قبل . . . .

وهناك عشرات الوقائع التي خرج فيها الشيخ غاضباً لله ، فكانت المدينة تخرج معه وتؤيده وتسانده ، حتى أصبحت الكلتاوية أحد أبرز القلاع الإسلامية ، للدفاع عن خصوصية مدينة حلب الحصن الصامد للقيم الإسلامية . . . وما زال الجيل الحفيد يروي ما سمعه من الآباء والأجداد عن مواقف الشيخ وجهاده المتواصل لكي تظل أعلام الإسلام شامخة في هذه المدينة العظيمة بقيمها الأخلاقية وبخصوصياتها الروحية ، وبمساجدها التي تعدّ من أهم قلاعها الصامدة التي تجسد عظمة هذه المدينة ورسوخ قيمها الإنسانية . .

حملت الكلتاوية بفضل جهاد شيخها مسؤولية التعريف بالإسلام والدفاع عن العقيدة الإسلامية ، والقيام بمهمة التوعية والتربية والتكوين ، أرادها الشيخ أن تكون شعلة مضيئة في الدروب المظلمة ، لتطارد ظلامها بنور المعرفة والثقافة والعلم ، وكان الشيخ يتحدث عن الظلمة والنور ، ويؤكد أن النور هو الأساس والظلمة عارضة والفطرة هي مصدر النور ، والظلمة تأتي من الغفلة والجهل . . .

ولابد من مقاومة الظلام بالنور الذي يولده العلم والمعرفة ، فالعلم هو أداة المعرفة ، والمعرفة هي طريق النور ، والنور يحتاج إلى زيت يضيء السراج الذي هو البصيرة ، ولا خير في علم لا يقود إلى نور وهداية . . .

كان الشيخ يتطلع عبر نافذة المسجد الصغير في الكلتاوية القديمة ، فيرى الهضبة الموحشة المهجورة بحفرها العميقة ومغاراتها المظلمة وتلالها المتعرجة المغطاة بالأوساخ ويطرق رأسه متأملاً شارداً حزيناً . . .

أليست هذه قصة الإنسان من العدم إلى الوجود ، ويردد قوله تعالى ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان : ١ ـ ٣] .

لا شيء كان يسعد الشيخ كما كان يسعده أن يرى ابتسامة الحياة على الوجوه ، كان يريد أن يرى الأمل ، لأن الأمل هو الحياة ، يرى الأطفال فيأخذ بيدهم ويداعبهم ويحبهم ويتلطف في معاملتهم ، ويرى الضعفاء فيفتح صدره لهم ، ويسمع منهم ما يؤلمهم ، ويواسيهم بالكلمة الطيبة والعطاء ، ويرى المرضى فيؤنسهم بالمعاني الروحية ، ويقفون وقد انتصبت هاماتهم بالأمل والأنس .

ويطل من جديد على تلك الهضبة الموحشة ، فيسمع أصوات المشردين والتائهين من البؤساء والمنحرفين ، وهم يتبادلون الشتائم ويتنابذون بالألقاب ، إنهم في حيرة وضياع ، لم يكونوا شريرين في أصل تكوينهم وفطرتهم ، كان يمكن أن يكونوا رموز خير وصلاح ولكن لم يجدوا الكلمة الحانية التي تبعث في قلوبهم دفء الحياة ، فاختاروا حياة التشرد والتيه والضياع . .

أحياناً كان يحاورهم ويسمع آلامهم ويدخل إلى نفوسهم الأمل ، فيأنسون وتدمع عيونهم ويعودون إلى طريق الاستقامة . . .

كانت الهضبة الموحشة المنعزلة خلف المسجد تؤرقه وتقض مضجعه ، ألم يكن فناء المسجد الداخلي موحشاً من قبل ، ألم يكن مكاناً مهجوراً ، فأصبح فيما بعد حديقة جميلة رائعة مليئة بأنواع الأزهار . . . .

صحا الشيخ يوماً من نومه ، كان سعيداً ومبتهجاً ، ارتدى ملابسه ، وذهب إلى تلك الهضبة المهجورة يرافقه بعض إخوانه ، وأخذ يطوف في أرجائها ،

ويصعد تلالها ويهبط في منحدراتها ، رأى من هناك قلعة حلب الشامخة تطل على تلك الهضبة ، ورأى المدينة العريضة بأحيائها القديمة من تلك الهضبة التي بدت وكأنها قلعة ثانية في ارتفاع موقعها المطل على المدينة القديمة كلها . .

وقال لإخوانه : «أرى في هذه الهضبة المظلمة نوراً يضيء ، وأرجو أن يوفقنا الله تعالى لإيقاد تلك الشمعة . . . » .

وأشرقت الابتسامة في وجهه ، كان سعيداً ومبتهجاً ، وكأنه رأى ضالته المنشودة بعد أن أقلقه غيابها الطويل . .

في ذلك المساء جلس الشيخ كعادته في ساحة المسجد الداخلي الجميلة ، كان الماء يترقرق في بحيرة صغيرة ، وينساب بهدوء عبر ممرات ترابية ليسقي الورود المتفتحة التي كانت مشتاقة لأسباب ونموها واكتمالها ، وتحلق إخوانه حوله يشربون الشاي الأحمر بأكواب صغيرة وجميلة . .

قال الشيخ لإخوانه :

سنبني الكلتاوية الجديدة . . . لكي تكون منارة علمية ومَعْلَمة ثقافية . . . سنبنيها بأيدينا وبجهدنا لكي تؤسس على تقوى من أول يوم ، سنضم الهضبة ، المهجورة إلى الكلتاوية . . . وسنقيم مدرسة للعلم والمعرفة والسلوك لتكوين علماء يعملون بما يعلمون ، لا تلهيهم دنياهم عن أخراهم ، لكي يكونوا قدوة لغيرهم، يبدأون بإصلاح أنفسهم ، يعملون لله لا لدنيا يطمعون في حظوظها ، يدافعون عن الحق ولا يخشون في الله لومة لائم . . .

وسرى همس بين الحاضرين ، كل يسأل صاحبه عما سمعه من الشيخ ، ويتساءلون في سرهم هل يمكن أن يتحقق هذا الحلم الجميل . . .

ووقف الشيخ أمام النافذة المطلة على تلك الهضبة المكتظة بالأكوام الترابية المبعثرة في ذلك الفضاء المهجور منذ عشرات السنين ، وأخذ يشير بيديه إلى حدود تلك الهضبة التي ليست لها أسوار تفصلها عن الدور السكنية العتيقة . . .

وانتشر الخبر بين إخوان الشيخ ، وأخذوا يتوافدون على الكلتاوية ،

ويطلون من خلف النوافذ على ذلك الفضاء الذي لم يثر اهتمامهم من قبل . . ويتساءلون هل يمكن أن يتحقق ذلك . . .

واستدعى الشيخ أهل الاختصاص في مجال البناء من مهندسين وخبراء ، واستشارهم في الأمر ، فأكدوا له صعوبة ذلك لأمرين ، الأول هو صعوبة البناء في تلك الأرض المليئة بالكهوف التي سرعان ما تنهد لوجود فراغات واسعة تحت الأرض ، مما يستدعي متابعة الحفريات إلى الأرض الصلبة لإقامة الأعمدة التي يقوم عليها البناء ، والسبب الثاني هو عدم إمكان نقل الحجارة والإسمنت والحديد عبر الأزقة الضيقة الموصلة إلى أعلى الهضبة ، لعدم إمكان وصول سيارات النقل ، وهذا يتطلب جهوداً مضاعفة ومصاريف باهظة . . .

واقترح بعض إخوان الشيخ أن يقع اختيار قطعة أرضية واسعة في منطقة سكنية خارج أسوار المدينة القديمة لبناء هذا المشروع عليها ، وهي مناطق أكثر جمالاً والمواصلات إليها أكثر يسراً . . .

سمع الشيخ ما قاله أهل الاختصاص والخبرة ، ولم يعقب على ذلك . . . كان من عادة الشيخ أن يسمع بهدوء كل الآراء ، ولا يناقش ، وتأكد أن الأمر ممكن ، بجهد أكبر ، وتكلفة أعلى . . . .

مضت أيام . . . كان الكل يترقب ما سيقوله الشيخ ، وجاء يوم الجمعة ، واجتمع إخوان الشيخ الذين اعتادوا أن يصلوا الجمعة في الكلتاوية ، وبعد الصلاة خرج الشيخ من المسجد وتبعه إخوانه ، وذهب إلى الهضبة التي تقع خلف الجامع ، كانت الأرض مليئة بالأوساخ والحجارة ، وسرعان ما مهدت الأرض وأزيل ركام الأوساخ وجمعت الحجارة ، وأصبحت الأرض صالحة للجلوس ، كان الجو ربيعياً والشمس دافئة ، وأطل الجميع على المدينة القديمة بمآذنها الجميلة وقباب مساجدها الرائعة ، وظهرت قلعة حلب التاريخية بمئذنتها العالية وأسوارها الصامدة .

وانتقل مجلس الشيخ من الساحة الداخلية للجامع التي تحيط بها الأسوار العالية إلى الهضبة المطلة على المدينة القديمة ، وبنى سوراً من الجهة الشرقية

يمنع دخول أحد وفتح باب من الجامع إلى هذه الهضبة ، وبذلك أصبحت جزءاً من الجامع ، والساحة الخلفية له . .

كانت هذه هي الخطوة الأولى في بناء الكلتاوية الجديدة ، بدأت بخطوات ضرورية وسريعة وجادة ، لم يكن الشيخ يفكر في الجهد المطلوب أو يخشى منه ، أما التكلفة فالله سيتولى تيسير ذلك ، ومهمة العبد أن يأخذ بالأسباب وأن يعتمد عليه ، وأن يعمل بقدر استطاعته . . . .

لم يكن أحد يتصور أن الشيخ يمكنه أن يختار مكاناً أخر غير الكلتاوية ، مهما كان ذلك المكان ، كانت معايير الشيخ مختلفة ، الكلتاوية فقط ، هذا هو المكان الذي أحبه الشيخ وتعلق به واختاره لخلوته وتأملاته . . وهو المكان الذي ينشرح صدره فيه لا يأتيه إلا من قصده ، ولابد للوصول إليه من مشقة ، مشقة الطريق إليه ومشقة الصعود إليه ، ليس هو المكان الذي يدعوك موقعه إليه ، وليس هو المكان الذي تأنس النفوس بجماليته المادية ، فمن أحبه فقد رأى فيه خصوصياته ، ومن شهد هذه الخصوصيات ببصيرته تعلق قلبه به ، وهو الفرق بين الصادق وغيره . . . فالصادق يذهب حينما يجد محبوبه ومقصوده ولو كان في أقصى مكان ، وغير الصادق ليس لديه ما يدفعه لصعود القمة العالية .

ما زالت الكلتاوية حتى اليوم لا يذهب إليها إلا من أحبها وتعلق بها وقصدها ، وهناك رجال ونساء لم ينقطعوا قط عنها يأتون من أقصى مكان وأجمله ، ولا يجدون أنسهم إلا في الكلتاوية .

لعل هذا ما أراده الشيخ . . خطاب مستمر ، ليعرف به الصادق من غيره فمن رأى الخصوصية أحب المكان وتعلق به ، ومن حجب عن الخصوصية فهو محجوب وعذره مقبول في التماس العذر لنفسه .

وفي الكلتاوية خصوصية أدركها الكثيرون وحجب عنها الكثيرون ، والخصوصية تدرك بالبصيرة والسريرة ، ولا يدركها العقل ولا يراها البصر . . .

بناء الكلتاوية الجديدة:

عندما انتقل الشيخ رحمه الله إلى الهضبة المهجورة وأقام حولها الأسوار، أدرك إخوان الشيخ أن عهد الكلتاوية الجديدة قد بدأ، وأن الخطوة الأولى قد بدأت، وساد شعور من الفرحة والبهجة والحماس لم تشهده الكلتاوية من قبل..

لم تعد الهضبة مهجورة وموحشة كما كانت من قبل، ومهدت أرضها، وأزيلت تلالها الناتئة المبعثرة، وأصبح ترابها نقياً نظيفاً، وأزيلت بقايا الأشجار اليابسة، وأصبحت نسمات هوائها عليلة، وكان يمكن أن تزرع أرضها بأنواع الأزهار لولا أن البناء كان يتطلب غير ذلك، اشترى الشيخ الدور السكنية القديمة المحيطة بالهضبة وضمها إليها، وأصبح المكان واسعاً جميلاً، كي يتسع لكل الطموحات، وابتدأت الحفريات في كل مكان تبحث عن الأرض الصلبة، كان الشيخ يأتي في الصباح ويمضي يومه في الإشراف على البناء....

في يوم الجمعة كان إخوان الشيخ يسرعون للحضور إلى الكلتاوية منذ الصباح المبكر وكل فرد منهم يحمل معه ثوبه الخاص بعمال البناء، يرتديه فخوراً به، ويمتد صف طويل من الرجال من أسفل الشارع إلى أعلى مكان في مسافة تزيد عن مائتي متر ينقلون الحجارة والإسمنت في جسر بشري متواصل، يعمل لله تعالى بصدق وحماس ونشاط، وليس فيهم من عمل في هذا من قبل، وكلهم في أعمالهم مخدومون ومكرمون، كانوا يريدون أن يبنى هذا الصرح بجهودهم الفعلية، وبمشاركتهم العضلية، وهم سعداء بهذا العرق الذي يتصبب من جباههم، وينشدون أروع الأناشيد وكأنهم في رحلة نهرية عبر الحقول الخضراء وكان فيهم الكبير والصغير والشيخ والشاب والطفل، والتاجر والعامل والطبيب والمهندس، اجتمعوا لحب كبير، وقد زالت بينهم الفوارق، وجمعتهم إرادة مشتركة أن يكونوا بناة لبيت من بيوت الله، وأكرمهم الله بهذا الشرف والتكريم، وهذا شرف لهم وجهاد في سبيل الله، كان الشيخ يقف بينهم، ويعمل معهم فيزداد نشاطهم، وتشرق وجوههم بالفرحة

والسرور ، كانوا يجدون لذة الدنيا في هذا الجهد الذي يبذلونه طائعين مختارين . . .

تظاهرة إيمانية صادقة ، مئات الرجال ومن كرام الرجال هم سادة في مجتمعهم ، ومن أهل الوجاهة والتميز والمكانة ، ما أروع ما كنت ألاحظه على وجوه هؤلاء من فرحة وسعادة كانوا يتنافسون أجمل التنافس ويتسابقون أروع التسابق وهم يختارون العمل الأشق لأنفسهم ، كل منهم يأخذ بيد أخيه ، فإذا وجد أخ أخاً له في الله قد أصابه التعب أخذ مكانه ، فكان الأول يدفعه برفق ومحبة ويقول له : دعني لكي اجهد نفسي في سبيل الله ولا تحرمني مما أكرمني الله به . .

كان الشيخ سعيداً بما كان يراه على الوجوه من سعادة وبهجة ويطلب من إخوانه أن يرفقوا بأنفسهم وألا يكلفوا أنفسهم ما لا يطيقونه ، وأحياناً يمسك بيد أحد إخوانه برفق ، ويجلسه في مكان مريح إذا وجد فيه ضعفاً ، ويطلب منه أن يرفق بنفسه ، فالمشاركة تتحقق بالقليل الذي يطيقه الإنسان ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها . . . .

لم يكن بناء الكلتاوية مجرد بناء لمسجد ومدرسة ، وإنما هو جزء من تربية روحية ومجاهدة نفسية ، يقبل فيها العبد على ربه بالسلوكيات التي تعبر عن صدق الإقبال ، ولو كانت الغاية هي مجرد العمل لقام عمال البناء بهذا الجهد ، وهو أيسر عليهم وإنما الغاية أن يروض السالك نفسه لكي يكون في خدمة الله . . . .

لم تكن تربية الشيخ لإخوانه تعتمد على تلك المجاهدات القاسية المتمثلة في إخماد الطبائع البشرية وإذلالها وسيطرة معاني الحزن والخوف الدائم عليها ، فهذه مجاهدات سرعان ما تؤدي إلى إدبار القلوب وإعراضها ، فالقلوب تقبل وتدبر ، وليس هناك أشق من إدبار القلوب ، فالإدبار يؤدي إلى القطيعة ، ولابد من مراعاة النفس بالترويح عنها لكي يكون إقبالها دائماً ومستمراً ، وحظوظ النفس مطلوبة ، ولو في المجاهدات ، وهذا مما يؤدي إلى الطمأنينة والسكون ، فالنفوس القلقة سرعان ما يدفعها القلق إلى الإعراض والقطيعة . .

وبناء الكلتاوية أضاء شمعة في النفوس ، فكانت الفرحة واسعة وظاهرة حلم يتحقق وقلعة تشاد ، أقبلت النفوس راضية مطمئنة تبذل أفضل ما عندها من جهد لكي يكون البناء لله وفي سبيل الله .

ما أروع عطاء الإنسان عندما يقبل بقلبه ، فعندما يكون الإقبال بالقلب يكون الإنسان في قمة سعادته ، يعمل في الليل والنهار ، لا يشعر بتعب ولا إرهاق ، يعطي ويبذل ولا حدود لعطائه وبذله ، وعطاء الأبدان هو قمة العطاء . . .

أصبح يوم الجمعة يوم عيد ويوم فرحة ، فمنذ الصباح الباكر كانت أفواج الإخوان تتوافد فرحة متبهجة ، يعدون طعام الإفطار الجماعي ويتحلقون حول المائدة الكبيرة ، وسرعان ما يرتدي كل منهم ملابس العمل دون أن يتخلف أحد عن ذلك ، إذ كل يعمل بقدر استطاعته ، فهناك الشباب وهناك الشيوخ ، وهناك الحب والإيثار ، عمل جماعي في سبيل الله .

ليس المهم مقدار ما يعملون وإنما المهم هو رمزية هذه الظاهرة الإيمانية ، ورمزية ما تدل عليه ، تلك الرابطة القوية بين الإنسان والمكان ، رابطة البناء والتشييد ، سينتهي البناء يوماً ولكن ستظل رابطة التواصل قوية بين الإنسان والأشياء ، سيجد الإنسان ذاته في ذلك الصرح الذي أقامه بجده ، سيحدِّث أطفاله وأحفاده فيما بعد عن ذكريات شبابه ، في هذا المكان وقفت ، وفي تلك الزاوية جلست استريح من عناء التعب .

سوف يحنّ الشيوخ فيما بعد لزيارة مرابع الشباب ، وفاءً منهم لذاتهم ، إنهم يجدون أنفسهم في ذكريات أمسهم . . .

أليست هي «**الجذور**» ، والبحث عن الجذور هو بحث عن امتداد الذات عبر الزمان . . . لماذا يشتاق الإنسان لوطنه ، إنه يجد في مرآته ذاته وكيانه ، حيث الدفء والحياة .

بعد نصف قرن من ذلك اليوم . . . ما زلت أرى عشرات الرجال من ذلك الجيل معظمهم يتوكأ على عصاه ويذهب لصلاة الجمعة في الكلتاوية ، يصعد درجاتها الحجرية ، ويمشي في دروبها الضيقة ، وهو سعيد برحلته هذه ،

وعندما يصل إلى قمة ذلك المرتفع يشرق وجهه بالفرحة والبهجة والسرور ، إنه يتنسم ذلك الهواء النقي ، ويخاطب أولاده وأحفاده ، بالأمس كنت هنا قوي البنية ، هنا ذكرياتي الجميلة. . . إنها الأجمل في حياتي. . ويعود إلى داره وقد استعاد ابتسامته وأشرق النور في قلبه فأضاء ملامحه الشاحبة. . .

لم تكن الكلتاوية بالنسبة لإخوان الشيخ مجرد جامع شاركوا في تشييده ، وليس مجرد مدرسة أحبوها وتعلقوا بها ، إنها أكبر من ذلك ، إنها انتماء بل هوية ، لقد رضعوا منها ثقافتهم وفكرهم وقيمهم ، تعلموا فيها حقيقة الدين ، وارتبطوا بشيخهم برباط متين من المحبة والوفاء ، وذهب الشيخ وبقيت الرابطة كما هي لم تتغير ، واستمر الحب والوفاء. .

عندما ارتفعت أعمدة المسجد عالية كانت الفرحة كبيرة ، إنه الأمل الذي انتظروه طويلاً ، وعندما بنيت قبة المسجد الخضراء رأوها الأجمل بين القباب ، لأنهم أحبوها ومن أحب شيئاً رآه الأجمل في عينيه ، وعندما ارتفعت المئذنة تعلقت أحداقهم بها ، وكأنها تدعوهم إليها حيثما كانوا ولو سكنوا في أبعد الأحياء.

كان الشيخ خلال فترة بناء الجامع يتابع كل شيء بنفسه ، يشرف على العمل ويحض على إتقانه ، كان سعيداً كل السعادة ، ونشيطاً كل النشاط ، وأسعده ما رآه من إخوانه من حماس وغبطة ومشاركة جادة في كل شيء ، واستمر البناء ثلاث سنوات ، وعلى مراحل ، زال البناء القديم كله ، ولم يبق له أي أثر. .

لم يكن الشيخ يحب الزخارف في بناء المساجد ، كان يضيق بذلك ويحب البساطة في البناء ، لكي لا ينصرف القلب وهو في رحاب الله إلى ما يشغله من أنواع الزخارف ، ويكون ذلك الانشغال حجاباً له ، فلا ينبغي للبصر أن يسبق البصيرة أو يتغلب عليها ، وهذا من أدب العبادة ، فمن انشغل عن ربه وهو في حضرته فهذا من قلة الأدب ، والمساجد هي أماكن للعبادة ويكون العبد فيها في حضرة ربه فلا يجوز أن ينشغل بمكان العبادة عن العبادة ، والقلوب لا تقبل على الله إلا عندما تُدبر عن كل ما عداه. . .

ومن شروط قبول الصلاة حضور القلب وخشوعه. . . فلا ينصرف القلب

عن غير الصلاة ، إلى النظر في الأشياء التي تشغله ، والانشغال يمنع الفهم ولا يدرك المصلي ما تعنيه الصلاة من مناجاة لله تعالى وشعور بالتعظيم له ، وهذا هو الذي يولد الهيبة والشعور بالأمل فإن انصرفت الهمة إلى ظاهر الأشياء كالبناء والزخرفة والألوان والأشكال الهندسية الجميلة التفت القلب إلى الدنيا ، وليس هذا هو المقصود من الصلاة ، والالتفات القلبي يولد الخواطر المذمومة ، وهو سبب للغفلة ، ومن أحب الله انشغل به عن كل محبوب يحجبه عنه ، فلا يتعلق قلبه بالزخارف والأشكال.

كان الشيخ في كل خطوة من خطوات البناء يقف في زاوية ويشرح لإخوانه ما تعنيه الصلاة وما يراد بالخشوع ، ومعنى التفات القلب ، ولابد من توجيه الهمة إلى الغاية المرجوة ، لتحصيل الفائدة من العمل ، ولكل عبادة ثمرة ، ولابد من الحصول على الثمرة المرجوة ، والخواطر الدنيوية لابد منها لانصراف همة بعضهم إليها ، ولذلك من الضروري التخفيف من أسبابها المولدة لها..

ارتفع البناء وظهرت معالم الكلتاوية الجديدة وكان الشيخ سعيداً بكل خطوة ، انتقلت مجالس الشيخ من داره إلى الكلتاوية ، وأصبحت مجالس الكلتاوية هي الأهم ، بناء المسجد وبناء الإنسان ، وتسابق الإخوان للعمل ، ليس المراد العمل وإنما هو التعبير عن المشاركة والإسهام في بناء هذا الصرح ، سواء أكان هذا الإسهام بالرأي أو بالجهد أو بالمال ، وكان تسابق الإخوان رجالاً ونساء كبيراً على الإسهام في هذا البناء كل بحسب وسعه ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

لم يقبل الشيخ إسهاماً من الدولة ، كان يرفض ذلك ويرفض مشاركة أي جهة رسمية مهما كانت ، لا بالمال ولا بالخبرة ، ولا يقبل مشاركة أي أحد من خارج إخوانه ، كان يريد أن يكون هذا المكان له خصوصية في بنائه.

لماذا لم يكن يقبل أي تبرع من الآخرين؟؟

ذلك تساؤل كان مطروحاً والشيخ يتمسك بهذا الموقف ولا يجيب عن ذلك التساؤل ولا يعلله ، وأحياناً كان يرفض إسهام بعض إخوانه المتثاقلين.

كان يردد في مجالسه أن الله تعالى سوف يتولى الأمر وليس لنا من الأمر شيء فالله هو المدبر ويخلق ما يشاء ويختار ما يشاء والتدبير مع الله هو من الجهل والغفلة ، ومن آداب العبودية ألّا ينسب الإنسان لنفسه شيئاً.

وإذا سمع أحداً ينسب الأمر لنفسه أو ينسبه لأي أحد كان يعلمه بألا ينسب الأمور إلا لله ، وعلى الإنسان أن يأخذ بالسبب لأن الله تعالى أمره بذلك ، أما أن يطمع في الوصول إلى النتائج فهذا من الجهل بحقيقة العبدية لله تعالى والعبد لا حول له ولا قوة ، وما يحققه فهو من الله وبفضل الله ، والله هو الذي يشرح القلوب لما يريد في الوقت الذي يريد.

عندما كان يصادفه أمر على خلاف ما يريد لم يحزن قط ولم يشعر بالإحباط ، ويقول: علينا أن نفهم عن الله ما يريده منا ولو فهمنا عن الله ما يريد لأراحنا ذلك ولسلمنا الأمر إليه تعالى فهو أرحم بنا وأعلم بما يصلح لنا والله تعالى فيما يبتلينا يريد أن يكشف لنا سر العبودية فلا نلجأ إلا إليه ، ولا نعتمد إلا عليه ويؤكد في مجالسه أن الله تعالى ما عودنا إلا حسن الاختيار لنا ، ولو شهدنا حسن الاختيار لزال ما بنا من ألم المحن والابتلاءات.

في كل خطوة كان الشيخ يقف ويتحدث ويبيّن ، وشهدت ساحة المسجد الداخلي ، وفضاءاته الخارجية أروع مجالس الشيخ كان يتكلم وهو واقف وهو جالس ، ويتكلم وهو يعمل أو يمشي ويتكلم وهو يأكل أو يستريح ، كان حديثه متصلاً وكأنه يؤدي أمانة النصح والبيان باستمرار في كل مكان.

رأيته مرة يحدث عامل بناء وهو يضع لبنة حجرية فوق أخرى ، فلا يستقيم أمرها ويعيد العامل تركيزها بشكل أخر فلا ينجح في محاولته ، كان الشيخ يرقبه من بعيد ويبتسم ويتابعه وهو حائر لا يدري ما يفعل ، اقترب منه الشيخ وأخذ يحاوره بهدوء وقال له:

لا يا ولدي لابدَّ في المجاورة من المجانسة فإذا وقعت المجاورة من غير مجانسة كانت متكلفة وقبيحة ولا يستقيم أمرها ، ألا أدلك على أمر ييسر عليك عملك وهو أن تختار لبنة أخرى مجانسة للأولى كي يقع التودد والتآخي بينهما

ويكونان جداراً قوي البنيان يقاوم أعتى العواصف والتفت إلى إخوانه وقال لهم:

يا أولادي المجانسة شرط لحسن المجاورة ولحسن الصداقة والأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف. . .

وفسر ذلك بأنه إذا حسن التعارف في الأرواح وقع التآلف في الدنيا، وإذا وقع التناكر في الأرواح وقع الاختلاف في الدنيا.

اكتملت الكلتاوية التي أصبحت تضم الكلتاوية القديمة وهضبة الكلتاوية والدور السكنية المجاورة لتلك الهضبة وأصبح المسجد يتوسط المكان بقبته الخضراء ومئذنته العالية وهناك فناء أمامي يضم المدخل الرئيسي الذي أصبح واسعاً وجميلاً وأزيل المدخل الحجري القديم ويضم الفضاء الأمامي غرفة الشيخ وغرفة مجاورة للضيوف وتطل غرفة الشيخ ـ التي دفن فيها فيما بعد ـ على الساحة الخليقة الجانبية المتصلة بالساحة الخلفية الجنوبية التي بنيت فيها الأبنية التي أصبحت فيما بعد مدرسة النهضة.

كان الشيخ يقضي نهاره كله في الكلتاوية ويستقبل إخوانه من الصباح إلى المساء وسكن في دار مجاورة للجامع وأصبحت الكلتاوية مكتظة على الدوام، بإخوان الشيخ وضيوفه، وكان من عادته أن يتناول طعامه في الجامع مع ضيوفه فيأكل ما هو موجود من غير تكلف، ويدعو من معه لمشاركته طعامه من غير تكلف أيضاً.

ويقدم لضيوفه الشاي الأحمر بالكاسات الصغيرة المذهبة مع قطع من الليمون الحامض، وهذا هو المشروب المفضل لدى الشيخ ولا يقدم غيره وتسهر مجموعة متخصصة من إخوان الشيخ على خدمته وهم متفرغون لذلك.

ويدخل ضيوفه إليه عندما يكون في غرفته من غير استئذان يستقبلهم بالمحبة والرعاية ولا يحتاج الزائر إلى موعد سابق إلا إذا كان لأمر خاص، فعندما يجلس في غرفته يستقبل الجميع ويجلس من الصباح حتى الظهر وفي المساء من العصر حتى المغرب أو العشاء، ولا أحد يمنع من زيارته مهما كان ذلك

الشخص ، ويحظى الأطفال برعاية خاصة منه ويكرمهم ويتلطف بهم ويبادلهم الحديث وإذا شكى له أحدهم من سوء معاملة أبيه أو أمه دعاهم واوصاهم بالأولاد خيراً.

ما يميز حياة الكلتاوية :

تتميز الكلتاوية بخصائص ، ومن اليسير ملاحظتها من خلال تتبع حياة الذين يلازمونها في نهار أو ليل ، فلا يذهب إليها إلا من يأنس بها ولا يأنس بها إلا من يجد مجانسة لأهلها والمقيمين فيها ، والإنسان عندما يذهب إلى الأسواق يشتري ما تشتهيه نفسه من أطيب الأطعمة ، والكلتاوية مكان بعيد وناء ولا يذهب إليه إلا من يقصده ويبذل جهده في الوصول إليه .

ليس في الكلتاوية ما تشتهيه الأنفس من الملذات والتجارات والأموال وليس فيها مطامح دنيوية كالرياسات والزعامات ، وكل ما فيها قوم يحبون أن يتطهروا بتزكية نفوسهم من الآثام وطهارة قلوبهم من الأخلاق المذمومة ، ومن الطبيعي أن تقع المجانسة بين كل من كان فيها ، فغايتهم واحدة وإن اختلفت دروبهم .

إخوة في الله صادقة ليس فيها مصالح وإذا انتفت المصالح انتفت التدافعات والمغالبات ، وليس هناك من يريد احتكار شيء لنفسه وحرمان الآخرين ، كل من فيها يستمع القول فيتبع أحسنه . هؤلاء هم الذين هداهم الله إلى طريق الإيمان ويتفاوت الناس في السماع وفي الأخذ ، كلٌ يأخذ بحسب استعداده ، وكلٌ تنبت أرضه بعد سقيها ما هو مخبأ في أحشائها من أنواع النبات ومعظم ما تنبته الأرض الخصبة المعطاء أجمل أنواع الزهور .

والخير في هذه الأمة إلى يوم القيامة ، والفطرة الإنسانية هي موطن الخير والصفاء والاستقامة ، وكل مولود يولد على الفطرة ، فمن انحرف فهذا بسبب عوائد الشر التي يقتبسها الإنسان من الأشرار ، ولابد من أطباء القلوب الذين يعالجون النفوس بالتزكية المستمرة لكي تعود الفطرة إلى صفائها الأول ، تصبح وتمسي وليس فيها غش أو حقد أو طمع .

والقلوب التي اجتمعت على محبة الله وتواصت بالحق وبالصبر ، ينزع الله ما في صدور أصحابها من غل مذموم فتلتقي على محبة الله وتقواه ، وتأنس بذكره وتخشى منه وتعتصم به ، وتشعر بصدق الافتقار إليه ، وتدعو الله في صباح ومساء ، ألا يكلها إلى نفسها وهواها طرفة عين ، هؤلاء قوم رأوا لذتهم في غير ما اعتادت النفوس أن تجد لذتها فيه من أنواع الاهتمامات والطموحات ، من حقهم أن نعترف لهم بما اختاروه لأنفسهم وألا ننكر عليهم ذلك وألا نتعالى عليهم بمزيد فهم وواسع معرفة ، فمعرفتهم بدنياهم أوسع من غيرهم وإدارتهم لشؤونهم أحكم من إدارة غيرهم إلا أنهم تميزوا بأخلاقيات سمت بهم عن غيرهم وارتقت بمستوى اهتمامهم إلى أفق رحب من حب الخير والتعلق بالفضائل.

والكلتاوية هي اسم مكان ، ولكن ليس المراد بها المكان ، فالأمكنة ليس لها خصائص ذاتية إلا من الناحية الجغرافية ، فقد تكون مرتفعة أو منخفضة ، حارة أو باردة ، جافة أو رطبة ، جميلة أو قبيحة ، وما نريده من إطلاقها ليس المكان وإنما خصوصيات الرجال ، وخصائص التميز السلوكي فيمن اختاروها وتعلقوا بها وانتسبوا إليها والتزموا بمنهجها.

كان الشيخ هو الرمز الذي يجسد الكلتاوية وما زالت هذه التسمية قائمة بعد رحيله، وإخوان الكلتاوية هم إخوان الشيخ وأهم ما كان يميز الكلتاوية ما يلي:

أولاً: التزام الأدب:

شعار الكلتاوية هو الأدب ، واللوحة الأقدم في غرفة الشيخ مكتوب عليها بخط كبير «**أدب يا هو**» «ما زالت اللوحة معلقة حتى الان في ضريح الشيخ ومنذ وعيت الحياة رأيت هذه اللوحة. ولم أكن أحسن قراءتها ، رأيت اللوحة بحروفها الكبيرة ولم يكن مفهوم الأدب عند الشيخ هو انحناء الرأس في المجالس والطاعة المطلقة للشيخ وامتثال أوامره بغير مناقشة ولا تردد.

وإنما يتمثل الأدب في طهارة الباطن ، فمن حسن باطنه ، انعكس ذلك

على سلوكه الظاهر فكان أكثر استقامة في معاملاته وأكثر مودة لإخوانه والتزم بسلوكيات الأدب في علاقاته مع الأخرين.

والأدب هو ثمرة لحسن الخلق فمن حسنت أخلاقه ازداد أدبه ومن أحب الله أحب عباده ومن أحب الخلق عاملهم بالأدب وتلطف بهم ، والأدب هو معيار التفريق بين الصادق وغير الصادق من السالكين ، فالصادق يعرف صدقه بأدبه وغير الصادق يعرف من خلال عدم التزامه بالأدب ، وليس الأدب في نظر الشيخ هو حسن الخلق مع الآخرين فقط وإنما يتمثل الأدب في أدب العبد مع نفسه في خلوته وتأملاته وخواطره ، فلا يسيء لأحد فيما يفكر فيه وأن يؤدي ما وجب عليه بكل صدق ونزاهة وإتقان وأن يحفظ سمعه وبصره فلا يسمع ما يعكر صفوه ولا يرى ما يثير خواطر السوء في سره ، والأدب صفة ملازمة للسالك لا تفارقه في إقامة أو سفر ولا في ليل أو نهار ولا في اجتماع أو خلوة ، فمن حسن أدبه في عباداته حسن أدبه في معاملاته . . .

كان الشيخ يوصي أصحابه بالأدب ، ولا حدود للأدب، والأدب مرتبة قلبية لا يقع التكلف فيها ، ومن لم يلتزم بالأدب فلا يستفيد شيئاً لأن الأدب هو الذي يوجد الرابطة القلبية والتواصل الروحي ، ويوصيهم أن يكونوا كما شاؤوا في مظاهرهم الخارجية ، والمهم ألا يقع الالتفات في قلوبهم والتفات القلب هو دليل الغفلة ، فمن التفت قلبه لغير الله في صلاته فلا يشعر في صلاته بذلك النور الذي ينبثق في القلب بعد العبادات والطاعات ، ومن علائم الأدب خضوع الحواس لله تعالى فتتحرك بحركة القلب وتشعر بالخشية والهيبة فلا يكون للنفس حظ فيما يؤديه العبد من العبادات ، فيكون عمله لله تعالى خالصاً له . . .

ومن هنا لم يدع الشيخ أصحابه إلى التزام الأدب بأقواله وإنما يعلمهم ذلك من خلال أدبه معهم وتلطفه بهم فهم يفعلون ما يفعل ويقتدون به فالأمر بالتزام الأدب يثير النفوس وتأباه ولا ترضاه وسرعان ما تقع القطيعة ويتوقف التواصل ، ولابد من الرفق والتلطف ، لكي تقبل النفوس ، ففي لحظة الإقبال يكون الاستعداد بقبول النصح والتوجيه ، وفي لحظة الأدبار لابد من المداراة لتأليف القلوب بالمحبة والرعاية . . .

ثانياً: الاهتمام بالنظافة:

كان الشيخ شديد الاهتمام بالنظافة الظاهرية ، نظافة المكان ونظافة اللباس ونظافة الطعام ، واشتهر الشيخ بحرصه على النظافة الظاهرة ، فمن حسن باطنه حسن ظاهره ، والنظافة من حسن الظاهر ، فكان الأكثر نظافة في ملبسه ومكان إقامته ، وإذا رأى شيئاً وسخاً غضب لذلك وإذا دخل مكاناً ووجد فيه أوساخاً أزالها بنفسه وكان من عادته إذا رأى شيئاً مرمياً في الطريق أزاله وكان إذا أراد الجلوس بمكان بدأ بتنظيفه وإزالة الأوساخ منه . . .

ويقول في مجالسه: الصوفي هو الأكثر نظافة في باطنه وظاهره ولا يألف الأوساخ ، ومن احتمل الأوساخ الظاهرة فهذا دليل على احتماله للأوساخ الباطنة.

كان الأكثر نظافة في ملابسه والأكثر أناقة وجمالاً ولم أجده يوماً يرتدي ثوباً «مكرمشاً» أو فيه بقعة وسخة ولو في غرفته الخاصة ويفعل ذلك من غير تكلف ، كان يلبس الملابس البيضاء من الثوب إلى الحذاء إلى العمامة وفي الشتاء يلبس الملابس الداكنة ولم أجده مهملاً في ملابسه قط ولم يخرج على الناس إلا في أحسن صورة من غير تكلف ، وكانت غرفة إقامته في داره نقية نظيفة بسيطة تشمل ما هو ضروري ، ولا شيء آخر.

وكان يحب الشاي الأحمر ولا يشرب غيره من المشروبات ويشربه بأكواب خاصة ولا يشرب الشاي بغيرها وترافقه أدوات الشاي في زياراته ورحلاته ويستمتع في الشاي بأكوابه الخاصة مع قطع صغيرة من الليمون ، ولا يشرب الشاي إذا لم يكن متقناً في صنعه وإعداده.

ويحب الحدائق النظيفة المورقة المزهرة ، فإذا وجد غصناً يابساً أسرع لقطعه أو وردة ذابلة أسرع لإزالتها ولا يحتمل أرضاً عطشى وسرعان ما بسقيها بنفسه حيث كان فكان له إحساس متميز بالجمال الطبيعي جمال الكون وجمال الصحراء وجمال الأشجار وجمال الأزهار وجمال الأنهار ، وكانت مجالس الشاي تقام في هذه الأماكن الجميلة وكانت هو تعبير عن حبه للنظافة التي تمثل

الكمال والتعلق بذلك الكمال ومن تعلق بالكمال ، فلا يحتمل القذارة والأوساخ لا في الأخلاق ولا في الملابس ولا في الأماكن ، وإتقان العمل في نظره هو حب للكمال لأنه يعبر عن رغبة الإنسان بإعطاء العمل حقه من الكمال فمن لم يتقن العمل فقد أساء الأدب بسبب ذلك النقص الذي تسبب فيه ، ورأيته مرة يعاتب ضيفاً له لأنه غسل يده المتسخة بالصابون وترك الصابونة وسخة وقال له : لقد أسأت إليها وما أنصفتها لقد كانت السبب في نظافتك وكنت سبباً فيما خلفته فيها من أوساخ ولو أنصفتها لأعدتها نظيفة كما كانت ، كان يقول : إن الأشياء الجامدة والأشياء الحية كالنباتات لها حقوق علينا وأهم حقوقها أن نتعامل معها بأدب ، لأنها سخرت لنا لإسعادنا ومن واجبنا أن نستخدمها الاستخدام الأمثل لنحافظ على وجودها وأدائها لمهمتها في خدمة الإنسان . . .

لم يكن يطمح أن يتميز إخوانه في الكلتاوية بمزيد علم وبمزيد مال أو جاه أو رئاسة ولا بكثرة صوم وصلاة ، وإنما يريدهم أن يتميزوا بصفاء قلوبهم وسمو سلوكهم والتزام الآداب الإسلامية في أداء عباداتهم وأن تنصرف همتهم إلى إرضاء ربهم بالقيام بما أمروا به من الطاعات .

قال تعالى : ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة : ٦] .

ثالثاً : حسن الخلق :

كان الشيخ يعلم إخوانه أن على الإنسان أن يسوس نفسه وأن يزكيها وأن يعلمها الفضائل قبل أن يسوس غيره ويدعو لإصلاح الآخرين ، ومن لا يسوس نفسه لا يكون قادراً على سياسة غيره ، انطلاقاً من التوجيه القرآني في قوله تعالى : ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٤٤] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ ﴾ [المائدة : ١٠٥] .

وكثيراً ما كان يأتيه شباب متحمسون يقولون له بأنهم تفرغوا لإصلاح

المجتمع ، وينتقدون الآخرين لأنهم لم يسمعوا منهم دعوة الإصلاح ولم يستجيبوا لهم فيصابون بخيبة الأمل ، ويتساءلون عن سر إعراض الناس عن الاستجابة لهم ، فيسألهم عما إذا بدأوا بإصلاح أنفسهم ، لأن الناس لا تتأثر بالكلمة المسموعة ، وإنما تتأثر بروح الكلمة ، فتكون الكلمة ناطقة صادقة حية ، إذا دخلت القلوب استقرت بها ونمت وأخصبت ، وذاق الآخرون حلاوتها ، فإذا لم تكن صادقة فلا تترك أثرها ، والنصيحة التي تخرج من اللسان لا تؤثر ولا تفيد ، لانعدام الصدق منها وليست الكلمة هي التي تفيد وإنما الصدق فيها . .

وأداء العبادات هي الأساس والمنطلق ، ولابد من الفضل وهو الزيادة المتمثلة بالإحسان الذي يتجاوز العدل ، وهذا هو معنى التسابق في الخيرات الزائدة عن الواجبات ، ولا حدود لأفعال الخير ، وكان يضيق بمن يتصدى للدعوة الإسلامية ، ويتجاهل ما عليه من واجبات وفرائض أساسية ، وسياسة النفس هي الأساس لسياسة الغير ، والصادق يسوس نفسه بالتزكية والطهارة ثم يبدأ بعد ذلك في إصلاح غيره ، ولابد إلا أن تسمع كلمته ويقبل نصحه لأنه صادق في سعيه .

وحسن الخلق هو صورة الباطن ، فإذا حسن الباطن أثمر وأزهر ، وكانت المحبة والإيثار والأخوة والتواضع والصدق ، ولا يحصل الخلق الحسن إلا بالتخلق وتكلف الخلق المحمود إلى أن يكون طبيعة وسجية تصدر عن النفس من غير تكلف ولا روية ، ولا يعرف حسن الخلق إلا في الشدائد وفي لحظات الغضب والانفعال ، حيث يصدر عن النفس ما هو كامن في أعماقها وكيانها من طباع وسجايا ، ولا يعرف الصديق إلا بعد الشدة ، ففي الشدة يعرف باطنه وما تنطوي عليه نفسه من صفات محمودة أو مذمومة .

كان الشيخ يلخص كل ما تدعو إليه التربية الإسلامية وما يحض عليه الدين ، وما تجسده الفضائل السلوكية بكلمة واحدة أن يكون الإنسان صالحاً ، ولا شيء غير ذلك ، فالصلاح هو المطلوب ، والصالح لا يصدر عنه إلا الفعل الصالح ، ولا حدود لفعل الصالحات والقلوب الصافية تسيل فيها أودية الخير

التي أمد الله بها الكون ، لكي يستقيم أمره وينهض بعمارة الأرض الصالحون من خلقه. . . .

ما كان الشيخ يريد أن تتميز الكلتاوية بعمران يبهر الأبصار ولا بأعمدة رخامية رائعة الانسياب ولا بزخارف في السقوف والجدران وإنما أرادها أن تكون متميزة بأخلاق رفيعة وسلوكيات محمودة ، وأن يكون المنتمون إليها سواء كانوا علماء أو تجار أو مزارعين أهل استقامة ونزاهة وثقة ، يقع الاطمئنان إليهم ، ويكونون رموز خير وفضيلة وصلاح. . . يسهمون في تحقيق نهضة مجتمعهم ، وترسيخ القيم الإنسانية والمعاني الروحية ، فإذا تحققت التربية السليمة حققت ثمارها في مجال العلم والعمل. . .

رابعاً: كراهية الجدال والعصبية:

كان الشيخ يكره الجدل في قضايا العقيدة ، ويذم منهج علماء الكلام والفلاسفة في الاستدلال ، وذلك لأن الجدل يولد العداوة والبغضاء ويثير الأحقاد ، ويجب على المسلم أن يبحث عن الحق ، وأن يلتزم به ، وأن يكون كناشد ضالة أينما وجدها أمسك بيدها ، والتزم بمضمونها ، وعاد إلى الحق والصواب.

والجدل لا يفيد ، وهو دليل غفلة ، ومن واجب المسلم الإعراض عن الجدل وعدم الخوض فيه ، لأنه أمر مذموم ، ويولد الشبهات في النفس ، ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور ، ومن استنار قلبه ابتعد عن الجدل لا سيما في مسائل العقيدة.

كان الشيخ يفرق بين الفقه في الدين والفقه في أحكام الدين ، فالفقه في الدين هو فهم حقيقته ، وهذه الحقيقة تدرك بالفطرة الطاهرة التي لم تلوث ، وهؤلاء لا يجادلون في الله ، لأن الله تعالى أنار قلوبهم فاستنارت عقولهم واطمأنت والذين يجادلون في الله بغير حق يتبعون أهواءهم ، وجعلوا هذه الأهواء هي ما يعبدون من دون الله. .

لم يكن الشيخ يحب الجدل في مجالسه أو بين إخوانه ، ويعرض عمن

يحب الجدل ، ويعتبر الجدل من أنواع العلم المذموم الذي يضر صاحبه ولا يفيده ، ويدعو إلى الالتزام بالسنة وبمنهج السلف الصالح في العقائد ، وعدم الخوض في الخلافات ويدعو إلى تنزيه اللسان عن الحوار والجدل في الخلافات التي نشأت بين الصحابة بشأن الخلافة وكذلك الانقسامات الطائفية والمذهبية.

كان يحب أهل البيت وأئمة أهل البيت ويعدّهم قدوة لغيرهم إلا أنه لم يتحدث عن الخلافات بين المذهب السني والمذهب الشيعي ، كما أنه لم يتعصب قط للمذهب الشافعي الذي كان يأخذ بآرائه الفقهية ، ولم يميز بينه وبين المذاهب الأخرى في المكانة والاعتبار. . .

وأهم ما كان يكرهه الاستكبار عن سماع كلمة الحق ، والإصرار على الرأي من غير نظر ، ويعتبر ذلك من الجهل المطبق الذي يمنع صاحبه من الرضوخ للحق ، فالحق أحق أن يتبع أينما كان ، وهذا دليل على قوة شخصية صاحبه ، فالعودة إلى الحق فضيلة ، والإصرار على الباطل رذيلة. . .

ويحذر أصحابه من العصبية والتعصب الأعمى ولو فيما بينهم ، فلا عصبية مناصرة على الباطل ويتمثل حق الأخ على أخيه والصديق على صديقه أن تنصره على نفسه إذا كان مخطئاً ، وأن تحضه على الرضوخ للحق ، وأن تبين له فساد رأيه ، فإذا ناصرته على الباطل فقد خنت الأمانة ، ومن حق الأخ على أخيه أن يساعده على التزام الحق. . .

كان يحب البيان وليس الجدال ، فالبيان يعلم ويذكر ويشرح القلوب للحق والجدال يثير العداوة والبغضاء والشحناء ، لأنه يعتمد على الرغبة في التغلب على الخصم وإحراجه ، وهذا دليل على ظلمة القلوب وغفلتها ، ويجب على الإنسان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

ولم يتدخل الشيخ في خصوصيات أصحابه ، واختياراتهم الفكرية والمذهبية ، كان يحترم التنوع في الأفكار والثقافات والسلوكيات ، ومن اليسير أن تجد في مجلسه المتشدد والمتزمت والمتعصب ، وأن تجد المتساهل والمتفتح والمتسامح ، ولم يفضل منهجاً على آخر وإنما يفضل من كان أكثر

صدقاً واستقامة ، فالأكثر عبادة لا يعني أنه الأكثر تقوى عند الله ، والأكثر تزمتاً لا يعني أنه الأقرب إلى الله ، والملازم لمجالس الشيخ لا يعني أنه الأحب إليه من البعيد الذي لا يحضر مجالسه ، وكان يقول: الأقرب إلينا من كان معنا بقلبه .

خامساً: الابتعاد عن الطقوس المذمومة:

كان الشيخ يعرف بطريقته بأنها طريقة محمدية تقوم على أمور ثلاثة:

الأول: الالتزام بأحكام الشريعة في كل أصولها وفروعها في العقائد والأحكام والأخلاق والآداب ، فمن أخل بهذا الالتزام فقد خالف منهجنا ، ومن التزم به فهو منا وأخ لنا .

الثاني: اتباع الرسول ﷺ في كل ما صدر عنه من أقوال وأفعال وأخلاق ، نحب ما يحب ، ونكره ما يكره ، سواء فيما صدر من سنن شرعية أو ما أحبه وأخذ به في حياته الشخصية ، وذلك لأن النبي ﷺ يمثل في شخصيته النموذج الأسمى للكمال الإنساني ، وكان خلقه القرآن ، فإذا أردنا أن نعرف القرآن عرفناه من خلال الخلق النبوي الشريف .

الثالث: حفظ السمع والبصر واللسان من كل ما نهى الشرع عنه فلا يصل إلى القلب عن طريق الحواس ما يعكر صفاء القلوب ، وغاية تزكية النفس هو التحكم فيما يرد على القلب عن طريق السمع والبصر من أنواع الخواطر المذمومة التي تشوه صفاء القلوب وتمنع النور الذي يشرق فيها فيضيء جوانبها بمعاني اليقين .

وبناء على هذه المنهجية فقد خلت الكلتاوية من تلك المظاهر المذمومة من العادات والطقوس التي ارتبطت بالطرق الصوفية التقليدية ، والصوفية في أساسها خالية من تلك الطقوس والشطحات التي عكرت صفاء الأذكار وشوهت صادق الأحوال ، فقد كان الذكر يهدف إلى حضور القلب في لحظات الذكر لكي يكون العبد يقظاً على الدوام ويأنس بالله في لحظات تأمله وأصبح فيما بعد عادة مألوفة يرددها اللسان ولا يأنس بها الجنان ، لالتفات القلب إلى غير

الذكر ، وكانت الأحوال معبرة عن انفعالات بما يرد على القلب من واردات وإشراقات تبتهج لها النفس وتأنس بها ، فيظهر عليها من آثار ذلك الانفعال سلوكيات غير معهودة ، أصبحت تلك الأحوال مطية لانفعالات غير صادقة وسلوكيات مذمومة وأقوال منافية لمبادىء العقيدة ، وأصبحت هذه الشطحات في نظر العوام من الناس مظنة الولاية ، يبنون عليها قصور الوهم ، ويأخذون في تفسيرها واستكناه مقاصدها ما يجعل العاقل مذهولاً أمام ذلك الجهل الفاضح بحقيقة الإسلام . .

ما كانت الشطحات مطية للتميز الروحي ، إلا في مجتمعات الجهل المركب الذي يصدقه العامة ، ويوحي به المنحرفون من غلاة الصوفية الذين ما أنارت التربية الإسلامية قلوبهم بالمعرفة الحقة التي تنهض بمستوى وعيهم وإدراكهم .

لم يكن الشيخ يحب هذه السلوكيات المتكلفة المنحرفة التي تدل على جهل أصحابها وجهل من يؤمنون بهم ممن يتعلقون بهذه المظاهر ، ولم يجد هؤلاء المنحرفون في مجالس الكلتاوية الأرض الخصبة لقبول سلوكياتهم ، فكان الشيخ يؤكد في كل مجالسه أن كرامة الصالحين والمقربين من ربهم تتمثل في استقامة سلوكهم ، ولا تتمثل فيما يصدر عنهم من كرامات خارقة للعوائد ، ولو أراد الله إكرام هؤلاء لأكرمهم بالاستقامة فهي الكرامة التي يكرم الله بها عبده ، فينقله من مذموم الخلق إلى محموده ، ومن المعاصي إلى الطاعات ، ومن الضلالة إلى الهدى ، ومن الظلمة إلى النور ، هذه هي الكرامة الأسمى والأعلى ، ومن تطلع إلى كرامة أخرى مع انتفاء استقامته ، فهذا تطلع مذموم يدل على عدم صدق صاحبه في دعواه .

وأهل الكمال لا تخرق لهم العادات ، لكي تبرز فيهم خصوصيات البشرية ، والاستقامة هي أعلى درجات التميز بين البشر .

ولعل سبب اهتمام الشيخ بالاستقامة بدل اهتمامه بالكرامة هو أن منهج الشيخ في التربية يقوم على أساس البيان والمعرفة ، والبيان خطاب عقلي يمكن إدراكه بالعقل النوراني وليس بالعقل الاستدلالي ، فالعقول التي تدرك الحقائق

بالاستدلال والبراهين تتناقض المعرفة فيها ، لأن العقول متفاوتة في تكوينها ، أما العقول التي تدرك الحقائق بالنور الإلهي فلابد فيها من صفاء القلوب وطهارتها ، والخطاب العقلي يضبط الجوارح ويتحكم في حركتها ، فيكون وجدها ساكناً ، فإذا فاض القلب بوجده تحكمت الشريعة في حركته ، فلا يخرج عن نطاق قيود الشريعة فيما يصدر عنه من أقوال وحركات .

كان الشيخ يعلل ظاهرة الشطحات بالضعف في تحمل حالات الوجد الذي تحدثه الواردات في القلب ، ولو وقع الالتزام بالشريعة لما تجاوزت سلوكيات الواجدين حدود السلوكيات المقبولة التي لا تقود صاحبها إلى الانحراف وادعاء أحوال فاسدة لا يجوز القبول بها .

ومعظم الذين يدعون الوجد يتكلفونه بالتواجد الظاهر إلى أن يبلغ الوجد عندهم مداه البعيد، فيستلذونه ويبالغون فيه، وقد تصدر الشطحات عن هؤلاء، جهلاً منهم بالحقيقة ، وكان الشيخ يسميها بالرعونة ، والرعونة صفة مذمومة في السالك ، لوجود صفة فيها وهي الدعوى التي تتمثل في رؤية الذات فيها .

والشطحات في جميع الأحوال لا تصدر عن أهل الكمال من السالكين ، فأهل الكمال لا يصدر عنهم إلا ما هو شرعي من الأفعال لأنهم رموز كمال ، والشريعة تمثل ذلك الكمال ، وما يخالف الشريعة فهو نقص ، ولا يصدر النقص عن أهل الكمال .

وكان من عادة الشيخ أنه إذا رأى من إخوانه ما ينافي الكمال من سلوكيات الوجد كالحركة والزفير والصوت أعرض عنهم وتجاهلهم ، والوجد الصادق لابد إلا أن يشهد له كتاب أو سنة لكي لا يؤدي ذلك الوجد إلى سلوكيات خاطئة .

ذكر الكلتاوية :

لم تعرف الكلتاوية القديمة حلقات الذكر أو ما يسمى «بالختم» أو مجالس الذكر وكان في مرحلة مجاهدته الأولى يدير ختم الطريقة النقشبندية في جامع

باب الأحمر ، واشتهر هذا الختم في حينه بسبب ما كان فيه من صدق وإخلاص.

وكان بعض إخوانه يحب مجالس الذكر لما فيها من السماع والنفس تأنس بالسماع وتستلذه لأنه يثير الوجد ، ويحرك ما في القلوب فمن أحب الله تحرك قلبه بمحبة الله ، ومن أحب شيئاً آخر حرك السماع ما في القلوب ، والسماع لا يوجد شيئاً من عدم ، وإنما يثير ما في الباطن.

لم يمتنع الشيخ عن حضور مجالس الذكر والسماع ، ولكنه لم يكن متحمساً لها ، ولم يكن يحرص عليها ، وكنت أشعر أنه يفضل عليها مجالس المذاكرة ، وهي أحب إليه.

كان أحد إخوانه يملك صوتاً جميلاً ويتشوق أن يطلب منه الشيخ أن ينشد في مجالسه ولكنه لم يطلب منه ذلك ، وأحياناً كان يستأذن الشيخ في أن يقول شيئاً فيأذن له.

ولم أشعر أن الشيخ يحب السماع ويسعده ذلك ، وقلما كانت مجالسه الخاصة تنشد فيها الأشعار الغزلية التي تميل النفس إليها ويستلذها السمع ، لعل سبب ذلك أن من شروط السماع ألا تستروحه النفس ، فإن مالت النفس إلى ذلك، فالسماع يضر بصاحبه ولابد من صدق النية في السماع والإخلاص لله فيه ، والتزام الأدب في مجالس السماع ، وقلما يكون ذلك في هذه المجالس التي غالباً ما تكون مجالس لهو وبهجة وغفلة ، ويألفها العوام وتحرك ما في نفوسهم من رغبات وشهوات فكل واحد يذكر ليلاه التي أحبها وتعلق قلبه بها ، والأدب في مجالس السماع مطلوب لإحداث الوجد المراد والمحمود والمفيد ، وليس الوجد من النغمات المثيرة للأهواء والمحركة للميول ، وإنما من الأثر الذي تثيره المعاني الروحية في النفس ، فتتحرك تلك النفوس بما التفتت إليه القلوب وانشغلت به.

وكان بعض إخوان الشيخ يرجوه أن يقيم حلقات الذكر في الكلتاوية ولكنه لم يفعل ذلك ولما اكتملت الكلتاوية الجديدة أذن الشيخ بأن تعقد جلسة ذكر وإنشاد ومدائح بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع ، وكان الشيخ يدير هذه

الجلسة التي كانت تبتدىء بالاستغفار والرابطة الشريفة (بين الشيخ والمريد) والصلوات الشريفة وقراءة ما تيسّر من القرآن ثم حلقة الذكر والأمداح النبوية التي ينشدها المنشدون وتنتهي جلسة الذكر هذه بالدعاء الصالح إلى الله تعالى ، وكان الشيخ يحضر الجلسة في حياته ، وما زالت مستمرة حتى الآن في الكلتاوية وأهم ما كان يحرص عليه في هذه الجلسة التزام الأدب والخشوع بين يدي الله واستشعار الهيبة منه .

لم يكن الشيخ يريد ذكراً محدداً في وقت من نهار أو ليل ، وإنما كان يريده ذكراً دائماً مستمراً ، ذكراً ليس باللسان ، وإنما ذكر بالقلب ، فالمحبة تولد دوام ذكر المحبوب ، ليكون الأنس به دائماً ، والذكر تختلف أشكاله ووسائله لكي تكون النفس مستعدة له ، تجد فيه راحتها ، تستلذه وتفرح به ، ويحدث أثره في النفس نوراً ويقظة .

والذكر الدائم للشيخ هو أذكار ما بعد الصلاة ، بعد انتهاء صلاة الفرض وقبل صلاة السنة ، كان يذكر الله بالتسبيح والحمد والاستغفار ، بالإضافة إلى الدعاء ، فإذا انتهى من الذكر والدعاء صلى السنة . . . وكانت مجالسه هي مجالس ذكر دائم . تحفها دروس المذاكرة المستمرة .

وأهم ما كان يحض عليه في مجالس الذكر حضور القلب ، والمراد بحضور القلب أن يتوجه القلب بكليته إلى الله تعالى ، فلا يجول الفكر في غير ذلك ، فإذا حصل ذلك التوجه وذلك الحضور وجب التفهم لمعنى كلمة الذكر ، وليس لمجرد إيراد ألفاظها ، فالغاية من الكلمة هو معناها وما تدل عليه ، ليحصل بذلك التفهم الثمرة المطلوبة وهو تعظيم الله في القلب واستشعار الهيبة منه ، ولا يمكن تحقيق معنى الحضور والتفهم إلا بانصراف الهمة إلى الله ، فمن انصرفت همته إلى الدنيا فلا يحصل له بالذكر ذلك الحضور القلبي ، لانصراف الهمة إلى شيء آخر .

كان الشيخ يعلم إخوانه في مجالس الذكر أن يغمضوا أعينهم دفعاً للخواطر التي ترد على القلب وتشغله فيفكر فيها ، سواء فيما كان يشغله من قبل من أمر دنياه كالتجارة والمال والأولاد ، وهذه الخواطر لا تدفع بإغماض العين

لوجودها في القلب ولانشغاله بها ، وإنما تدفع بالتغلب عليها بتركيز الذهن في معاني الذكر وينفع إغماض العين لمنع البصر والسمع من التقاط ما يشغل القلب مما يتراءى أمام الحواس من المرئيات والمسموعات ، وهذه يمكن التغلب عليها بانصراف الحواس عنها. . .

لا شيء كان يزعج الشيخ في الكلتاوية مثل مجالس المسامرة بين الإخوان حيث يدور الحديث فيها عن الآخرين بالغيبة ، وهذا انشغال بما هو غير مفيد وهو ضار ، فمجالس المسامرة يجب أن تكون مجالس يقظة وليست مجالس غفلة ، فاليقظة تثمر العمل الصالح ، أما الغفلة فلا تثمر إلا ما هو ضار ومذموم من الصفات ، لأن النفوس تستلذ ما تألفه الغريزة من أنواع الشهوات.

كان الشيخ يريد للكلتاوية أن تكون النموذج التربوي الأكمل ، وأن تكون المكان الذي ترتقي فيه النفوس إلى الأفضل وتصفو فيه القلوب وتتطهر ، وألا يكون في القلب إلا الله.

ولن يكون الله في قلب العبد محبة وشوقاً وإيثاراً ما لم يرتحل كل ما سوى الله عن ذلك القلب ، وعندئذ فقط تشرق المعرفة في القلوب التي تهيأت لتلك المعرفة بالطهارة النفسية. وكان يأمر أن يُفرغ القلب من الأغيار كيما يُم بالمعارف والأسرار.

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

الجمعة في الكلتاوية:

معظم إخوان الشيخ كانوا يصلون الجمعة في الكلتاوية ، وكان يوم الجمعة يوماً حافلاً ممتداً ، في صباحه ومسائه ، كان الإخوان يحضرون في وقت مبكر ، وفي أيام بناء الكلتاوية كانوا يتناولون طعام الإفطار في الكلتاوية بطريقة جماعية ، ويقضون النهار كله ، وكان الشيخ يحضر قبل الصلاة ، ويجلس في غرفته الخاصة ويستقبل ضيوفه وإخوانه ، وفي وقت الصلاة كان ينتقل إلى المسجد ، حيث يصلي الجمعة ، ثم يعود إلى غرفته.

كان خطيب المسجد هو الشيخ بشير الحداد وهو الخطيب الأول والأقدم

منذ كانت الكلتاوية القديمة ، كان يكتفي بخطبة قصيرة ، يعتمد فيها على إيراد آية أو حديث وشرح المعاني المستفادة منهما ، كان المشرف على الكلتاوية وهو الإمام والخطيب ، وكان رجلاً فاضلاً محباً للشيخ ، هو وأسرته ، كان الشيخ يحبه ويلاطفه في الحديث ، وهو حافظ للقرآن ويحسن القراءة.

ولما بنيت الكلتاوية الجديدة أراد بعض الإخوان أن يستبدله الشيخ بمن يحسن الخطابة وبخاصة بعد أن أصبحت الكلتاوية تمتلىء بالمصلين الذين يقصدونها من كل مكان ، والتمسوا من الشيخ ذلك ورفض الشيخ وفاءً لذلك الرجل الذي صاحب الشيخ في أيام مجاهدته الأولى واستمر في ادائه لخطبة الجمعة إلى أن خلفه أحد أبنائه وهو الشيخ منير الحداد الذي أصبح خطيب الكلتاوية خلفاً لأبيه ، ثم خلفه الشيخ محمود الحوت الخطيب المفوه المتمكن من الخطابة.

هكذا كان وفاء الشيخ لإخوانه ، كان وفاء عجيباً ، ولم يرض أن يستغني عن رجل رافقه في أيامه الأولى ، لئلا يشعره بما يجرح مشاعره. كانت سعته لا حدود لها ، ولم يكن يعنيه أن يرضي الآخرين بالإساءة المعنوية لأحد إخوانه الأوفياء.

الكلتاوية بعد رحيل الشيخ:

عندما رحل الشيخ إلى الرفيق الأعلى أصبحت الكلتاوية في قمة عطائها ، حيث كانت مركز إشعاع علمي بمدارسها التابعة لها وأهمها دار النهضة الشرعية ، وجمعية النهضة الإسلامية التي توسعت نشاطاتها الاجتماعية في مساعدة الأسر الفقيرة بالمواد الغذائية وتوفير العلاج للمرضى ، والتكوين المهني للفتيات الفقيرات.

لم تتوقف مجالس الشيخ بالرغم من الظروف الصحية والعوارض المرضية ، بل إن إخوان الشيخ قد ازداد عددهم ، وتعددت المجالس ، وخصص الشيخ لكل مجموعة متجانسة وقتاً يجتمع بهم ، فهناك مجلس لطلاب العلم الشرعي ، وهناك مجلس للمهندسين والأطباء وأصحاب الاختصاصات العلمية والثقافية المتعددة وهناك مجلس للتجار وأصحاب المهن الصناعية ،

ودروس خاصة للنساء ، وبالإضافة إلى المجالس العامة للجميع .

في السنوات الأخيرة وجه الشيخ اهتمامه لأهل الريف وبخاصة بعد أن أقام فترة في قرية التويم في المنطقة الجنوبية من مدينة حلب ، وأصبحت «التويم» والقرى المحيطة بها من أهم المناطق التي انتشرت دعوة الشيخ فيها ، إذ يتميز سكان القرى بالفطرة النقية والقابليات للخير ، وهم أوفياء لما يؤمنون به ، فإذا أشرق الإيمان في قلوبهم فسرعان ما يستجيبون لما يؤمنون به ، ويظهر ذلك على سلوكهم .

واشتهر الشيخ بحبه للريف وإعجابه بقيم أهل الريف ، وبخاصة قيم الشجاعة والسخاء والشرف ، وهذا ما جعله يأنس بحياة الريف ، فقد كان يحب بساطة العيش ويضيق بقيود المدينة وتقاليد المدنية .

في سنواته الأخيرة كان الشيخ أكثر صفاء وروحانية ، كان يغلب عليه الشعور بالرضا والاستغراق بحب الله ، كان راضياً بكل ما يختاره الله له ولو كان ذلك الشيء مؤلماً ، كان يرى كل شيء من الله ولذلك كان راضياً بقضاء الله وقدره .

كان يريد أن تحافظ الكلتاوية المباركة على وجودها ، وأن يستمر إشعاعها كما كان ، وبقيت الكلتاوية بعد رحيله كما كانت ، كل شيء بقي كما كان ، إخوانه ظلوا كما كانوا أوفياء للكلتاوية لم ينقطعوا عنها ، إذ أن مجالسه بقيت كما كانت في مواعيدها ، دروسه المسجلة استمرت لم يتوقف شيء مما كان .

رحل الجيل الأول من إخوان الشيخ وبقي الجيل الثاني والثالث ، جيل الأبناء والأحفاد ، بعضهم لم يجتمع بالشيخ ، أو رآه في طفولته الأولى . . . لكنهم راحوا يسمعون أحاديث الشيخ المسجلة ويستوعبون ما يروى عنه من آراء وتوجيهات وحكم ووصايا .

جلس ابنه الأكبر السيد أحمد في الكلتاوية بعد وفاة أبيه ، وتفرغ لخدمة الكلتاوية لا يخرج منها في نهار أو ليل ، وسكن في دار مجاورة لكي يتمكن من

الإشراف على تراث أبيه ، إنه فخور بذلك التراث الروحي الكبير الذي ما زالت آثاره مستمرة .

وما زالت المدرسة الشرعية كما كانت ، حيث أصبح أبناؤها علماء يؤدون رسالتهم العلمية ، زاد عددهم عن الألف ، وهم في كل مكان ، يفخرون بانتمائهم لمدرسة الشيخ (النبهاني) التي عرفت بهذا الاسم على كل لسان .

توقفت جمعية النهضة بعد عشر سنوات من رحيل الشيخ ، واستمر عمل الخير قائماً ، والخير مستمر في هذه الأمة إلى يوم القيامة .

وعظماء الرجال عندما يرحلون يبقى تراثهم حياً ، تذكره الأجيال اللاحقة ، وهو كالشجرة الطيبة الذي يتجدد ثمرها في كل عام ، وتعلو أغصانها وتمتد في الفضاء الفسيح ، لكي تؤكد أن ما ينفع الناس يمكث في الأرض ، يورق في كل موسم ويزهر في كل ربيع .

لم تكن الكلتاوية مجرد جامع رفعت أعمدته الرخامية لكي يؤدي الناس صلاتهم فيه ، وإنما كان مركز إشعاع روحي ، نظيف الغاية نبيل الهدف ، يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويرفع شعار الإصلاح الأخلاقي ويهتم بتزكية النفوس وإصلاح القلوب ، ولا يطمع في سياسة ولا جاه ولا تحركه الأهواء والشهوات ولا تشتته كل الإغراءات الدنيوية .

هذا ما كان يريده الشيخ وما يدعو إليه ، والذين أحبوا هذا المكان وتعلقوا به إنما أحبوا فيه نقاءه وصفاءه ، ورأوا في مرآته قيماً إنسانية رفيعة ، تدعوهم إلى التعلق بالكمال والترفع عن الصغائر والتحلي بالصفات الأخلاقية المحمودة .

والذين أحبوا الكلتاوية أحبوها لأنهم عرفوها ، ومن عرف الأمر على حقيقته أحبه ، والذين أبغضوا الكلتاوية جهلوا حقيقتها ، وهم معذورون في ذلك .

وأهل الكلتاوية بعد رحيل الشيخ مؤتمنون على تراث الشيخ ، أن يقدموه في صفائه ونقائه ، كما كان الشيخ يقدمه لا كما تصوروه هم ، وأن يبرزوا فيه

بعده الأخلاقي والإنساني ، وألا يقدموه مشوهاً أو ضيقاً في آفاقه ، وأن يسهموا في إغنائه وإثرائه بالفهم العميق لدلالته ، فالتراث ثروة يجب الحفاظ عليها وذلك بفهمها المتجدد والمتفتح ، وهذا جهد لا يحسنه إلا من كان مؤهلاً له بالمعرفة الحقة.

والفكر يجب أن يفهم في إطار زمانه ومكانه ، فإذا قرأ الفكر في غير إطاره المكاني والزماني لم يفهم الفهم الصحيح ، ولابد من القراءة الجديدة لكي يعطي الفكر أبعاده الحقيقية ، ولكي يسهم في إغناء التجربة الإنسانية ، فالفكر يغني واقعه بدلالة ظاهره ويغني مستقبله بدلالة مقاصده وغاياته ، ودلالة الظاهر يجب أن ترتبط بدلالة المقاصد والغايات ، لكي يمتد إشعاع الفكر إلى المستقبل ويغنيه بعطاء الأجيال السابقة.

ولا يمكن لأحد أن يدعي أنه يملك القدرة على فهم تراث الشيخ ، فذلك ادعاء خاطىء ، لأنه يجعل ذلك التراث أسير رؤية شخصية محدودة ، وهذا تقييد لمطلق في إطار فهم ضيق ، والفكر الإنساني عندما تغلق النوافذ عليه سرعان ما يصاب بالشحوب فلا تبرز ملامحه المضيئة.

* * *



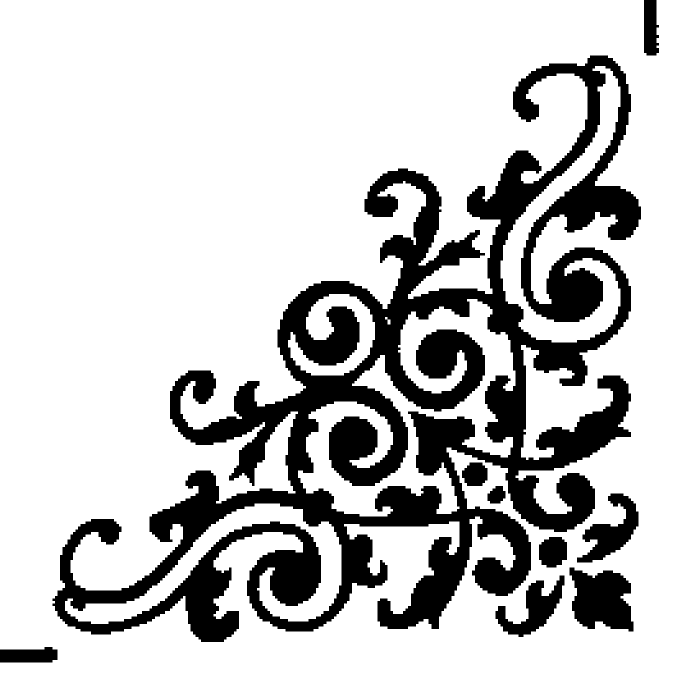

الفصل الثاني
مدرسة النهضة الشرعية

المبحث الأول : افتتاح مدرسة النهضة

المبحث الثاني : ماذا يريد الشيخ من المدرسة ؟

المبحث الثالث : المدرسة والهدف

المبحث الرابع : المدرسة والمستقبل

مدرسة دار النهضة الشرعية

كانت المدرسة هي الهدف التي كان الشيخ يريد تحقيقه من وراء بناء الكلتاوية ، وكانت لفظة المدرسة تتردد على لسانه في كل مناسبة ، انطلاقاً من إيمانه بدور العلم في المعرفة ودور العلماء في التعريف بالإسلام الحق ، إسلام السلوك والعمل ، إسلام الإخلاص والنقاء ، إسلام المحبة والأخوة .

لم يكن يريد المدرسة لذاتها ، ولا لكي تكون واحدة من المدارس الشرعية الأخرى ، كان يريدها أن تكون متميزة بطلابها وأساتذتها ومناهجها وأسلوب تعليمها ، كان يريدها لغاية وهدف .

كلماته الأولى عن هذه المدرسة كانت تحدد ملامحها ، لم يكن يريد أن يكون علمائها علماء معاش ووظيفة ، يبحثون عن المناصب بالتقرب من الحكام والتزلف لهم ، وإنما يريدهم أن يكونوا علماء يدافعون عن الحق ويناصرون المستضعفين من الناس الذين لا يجدون من يدافع عن حقوقهم الإنسانية .

أرسل مرة إلى بعض شيوخ القبائل وهم أمراء في مناطقهم ، وقال لهم : أرسلوا لي أبناءكم لكي أعلمهم وأعيدهم إليكم ليكونوا رموز العلم ، وأريد للأمراء أن يكونوا علماء لكي تصلح بصلاحهم قبائلهم ، فإذا صلح الأمير صلحت رعيته .

لم يكن يحب أن يتقرب العالم بعلمه إلى الأمراء وأن يقف على أبوابهم ، فإذا ذل العالم أذل معه علمه ، وسقطت مكانة العلماء في المجتمع ، وانقطعت بذلك أسباب الاستفادة من علمهم ، وهذا ما كان يحذر منه .

كان يريد للعالِم أن يشتغل بالعمل الحر ، وأن يكسب من جهده ، حتى يتحرر من قبضة الارتباط الوظيفي الذي يذل العلماء ، ويجعلهم في خدمة من يوظفهم ، إرضاءً لهم ، فلا يملك القدرة على مناصرة الحق ، خوفاً ورهبة ، وهذه من مقاتل العلماء.

إذن كانت الغاية من المدرسة تكوين ذلك النموذج من العلماء ، فإذا عز العالم باستغنائه عن الآخرين عز العلم وارتفعت مكانته في النفوس ، وكان الشيخ يندد بعلماء المعاشات الذين يتدافعون أمام المسؤولين للتقرب منهم بحثاً عن الوظائف الرفيعة ، وقلما يقودهم الذل إلى العز ، فمن ارتضى الذل لنفسه فقد ارتضى المهانة لعلمه ، ولا كرامة لعلم أذله حملته.

والعلم هو معرفة الشيء على ما هو به ، وهو نقيض الجهل ، والعلم فضيلة بذاته وهو محمود في كل الأحوال ، ولا يمكن للعلم أن يكون مذموماً ، وليس هنالك علم مذموم ، والذم يكون بالنسبة لاستخدام العلم فيما لا ينفع أو غير مفيد ، فإذا استخدم العالم علمه للإضرار بالآخرين ، فهذا الاستخدام مذموم وذلك للضرر الناتج عنه.

ولهذا رفع الله تعالى مكانة العلماء في المجتمع بسبب ما يتميزون به عن غيرهم من معرفة الخير والشر والتمييز بين الحق والباطل.

قال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ﴾ [المجادلة: ١١].

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ﴾ [الزمر: ٩].

وقال النبي ﷺ في رواية معاوية: «ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» حديث متفق عليه.

والعلماء هم ورثة الأنبياء في أداء رسالة التعريف والهداية ، والعالم يتميز عن الجاهل في كل شيء ، والعلم فضيلة ولا يمكن للجهل أن يكون فضيلة والعالم أرفع درجةمن العابد ، بفضل ما أكرمه الله من الفقه والفهم.

ويتميز الإنسان على غيره من المخلوقات بما أكرمه الله به من علم ، والعلم

نور وبصيرة ، ولذلك يتميز العلماء بالبصيرة ، وهم خير الناس إلا إذا أذلّوا علمهم بالطمع في الدنيا ، فكانوا على أبواب الحكام والأغنياء يطلبون منهم ما يملكون من الدنيا ، فيذلّ العلم بذلّ العلماء .

كان الشيخ يبين فضائل العلم وهي لا تحصى ، وأهمها : المعرفة والنزاهة وحسن الخلق ، ويرفع من مكانة العلم في أحاديثه ويرفع من مكانة العلماء في مجالسه، إلا أنه كان يضيق بالعالم الذي لا يعتز بعلمه ولا يرتقى سلوكه ولا يكون أكثر نزاهة وأقل طمعاً ، فالطمع مذلّ لأصحابه ، ولا شيء يذل العالم كالطمع في الدنيا والتعلق بها ، فإنه يذل علمه فيما يطمح فيه ، ويناصر الظلم محاباة للظالمين لأنهم أقوياء ، فهو يهابهم خوفاً على ما يمكن أن يفقده من مطامعه .

الفرق بين العلماء الصالحين وعلماء السوء :

ولذا كان الشيخ يفرّق بين العلماء الصالحين وعلماء السوء ، فالعلماء الصالحون هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الأعمال فكانوا رموز خير وفضيلة في مجتمعهم ، يفتحون قلوبهم للفقراء والمستضعفين ويناصرون الحق أينما كان ، يحبون في الله ويبغضون في الله ، يؤثرون الآخرين على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، لا يسكتهم خوف عن كلمة الحق ، ولا يطمعون في الدنيا فيذلهم الطمع ، ولا يقفون عند الأبواب الموصدة في وجوه الخير رغبة في أن يصيبهم من زينة الدنيا ما يشبع نهمهم ، أما علماء السوء فهم رموز سيئة ، تبيع الدين بالدنيا ، وتفتي بما يرضي الظالمين طمعاً في عطائهم ، حتى يكونوا سيوف الأقوياء التي تجلد بها أجساد الضعفاء ، يستخدمون سلطان الدين لتحقيق مصالحهم الشخصية لا يناصرون الحق وإن عرفوا به ، ولا يقاومون الظلم وإن تأكدوا منه ، وهؤلاء هم شرار الناس الذين أساؤوا لمكانة العلم وافقدوا العلماء ثوب الهيبة والوقار والاحترام .

ولعل ما أراده الشيخ رحمه الله عندما أراد أن ينشىء مدرسته الشرعية لتكوين العلماء ، هو أمل كان ينشده وحلم يريد له أن يتحقق ، وما كان يريد أن يضيف مدرسة جديدة وإنما يريد أن يجسد أملاً ويصوغ نموذجاً .

ما زلت أذكر ملامح الفرحة على وجهه وهو يعد العدة لإنشاء المدرسة ،

وكانت فرحته بالمدرسة أكثر من فرحته ببناء الكلتاويّة ، ولعل المدرسة هي المراد من بناء الكلتاويّة ، ولهذا كان البناء الأول للمدرسة يحظى باهتمامه ، فخصّص له الجزء الجنوبي من الكلتاويّة ، والفناء الممتد في الجزء الغربي والذي يطل على المدينة القديمة والقلعة.

لم يكن اهتمام الشيخ بالتربية الروحية التي تعتمد على تزكية النفوس وطهارة القلوب لتشغله عن اهتمامه بتكوين العلماء وتزويدهم بالعلم النافع الذي هو عماد الإصلاح الاجتماعي ، فالعلماء هم أقدر الناس على الفهم بحسب ما أكرمهم الله به من علوم الشريعة كالتفسير والحديث والفقه والأصول وعلوم اللغة والأدب ، ولم يكن هناك علم أفضل من علم فالعلم خير كله ومحمود كله بشرط أن يوجهه صاحبه لما هو مفيد ونافع ، وأن يتخلق بأخلاق العلم.

لذا فإنه بالرغم من اهتمامه بعلوم الشريعة نظراً لشرف مكانتها وسمو منزلتها لارتباطها بالقرآن والسنة فقد كان يوجه بعض إخوانه لدراسة الطب والهندسة وسائر العلوم ، ويقول: العلم خير كله وكل العلوم تقود إلى الله وإلى طريق الآخرة إذا أخلص العبد في تعلمها وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، والاهتمام بمصالح الخلق في معاشهم وأبدانهم من الدين ، ولا يصلح الدين إلا بصلاح الدنيا واستقامة أمرها ، والمهم في العلم أن يُعرِّف العبد بربه ويقربه منه ويقوده إليه ، والعلم هو أداة الفهم ولا حدود للفهم ، فكل ما يعرِّفك بربك فهو محمود ، وكل ما يبعدك عنه فهو مذموم ، فإذا قادك علم الكلام إلى الجدل والمغالبة والمخاصمة والبحث فيما لا يفيد فهو مذموم والعلم الذي لا يضيء قلب صاحبه بالمعرفة فلا حاجة إليه ، وأهم ما كان ينصح به الشيخ طلاب العلم أن يقصدوا وجه الله في علمهم ، فإنهم إذا فعلوا ذلك حفظهم الله في علمهم ، وأسبغ عليهم نعمة الفهم ، وكانوا موفقين ومسددين ومحفوظين ، ولا خوف عليهم ما داموا يقصدون وجه الله ويخلصون النية في ذلك ، فلا يصيبهم الغرور الذي يعدّ من أكبر آفات العلم ، فضلاً عن الاستكبار الذي يدفع صاحبه لعدم الرضوخ للحق.

افتتاح مدرسة النهضة

افتتحت مدرسة دار نهضة العلوم الشرعية عام ١٩٦٤ بعد تأسيس جمعية النهضة الإسلامية للأعمال الاجتماعية والخيرية والتي كان الشيخ يشرف على أعمالها ونشاطها.

وكانت المدرسة تقبل طلاب العلم وتسهر على تعليمهم وتربيتهم وهي مدرسة شرعية داخلية لها نظام صارم في الدراسة والسلوك ، وتستمر الدراسة فيها ست سنوات وتؤهل المتخرج منها للالتحاق بالأزهر ، ويعيش الطالب مدة الدراسة داخل المدرسة ، ولا يخرج منها في ليل أو نهار ، ويمكنه مغادرة المدرسة في العطلة المحددة ، وتتكفل المدرسة بكل ما يحتاجه الطالب من إقامة ولباس وطعام ، وعليه أن يرتدي ملابس العلم ويلتزم بذلك ، داخل المدرسة أو خارجها.

وتقع المدرسة في الكلتاوية ، ويقوم بالتدريس في المدرسة أساتذة مؤهلون من إخوان الشيخ ، وكلف الشيخ أحد إخوانه الذين يثق بكفاءتهم لإدارة هذه المدرسة ، وهو الشيخ محمد لطفي وتعاقب على إدارتها عدد من المديرين منهم الشيخ منير الحداد والأستاذ أحمد المهدي الخضر والشيخ علاء الدين علايا والشيخ محمد رشواني والشيخ محمود الحوت.

واختار الشيخ بنفسه أول فوج من الطلاب التحق بالمدرسة ، وكان سعيداً في ذلك اليوم ، لقد حقق الأمل الذي كان يعمل له لتكوين هذه النخبة من الطلاب الذين توسم فيهم الأهلية لمتابعة الطريق العلمي ، حيث كان يخصص لهم وقتاً في كل أسبوع ليحدثهم وينصحهم ويبين لهم مسؤولية العالم في المجتمع ، وكان يعتبرهم مثل أبنائه وأحفاده ، وينصت إليهم ويقربهم منه.

وقد جلست إلى جانبه وهو يختار هذه المجموعة الأولى ، لم يسألهم في تلك الجلسة عما يحفظون من قرآن وسنة ومتون ومختصرات ، ولم يطلب منهم أن يحدثوه عن أحكام فقهية أو يعربوا له كلمة نحوية أو يصرفوا له كلمة لغوية ، لم يفعل ذلك ، وإنما كان يسألهم عن القيم التي نشأوا في ظلها وعن سلوكيات البيئة التي أسهمت في تكوينهم ، ولماذ اختاروا طريق العلم ، وما هو العلم الذي يريدون تعلمه .

ماذا كان يريد الشيخ من المدرسة ؟

كان رحمه الله يريدهم أن يتعلموا العلم حباً بالعلم لا لأجل البحث عن وسيلة مريحة للعيش ، وكان إذا وجد شاباً يحني رأسه طلب منه أن يرفع رأسه اعتزازاً بالعلم ، فالعالم لا يحني رأسه إلا لله ، وإذا وجد شاباً ضعيف الهمة أبعده ، فالعلم لا ينهض به إلا من كان صاحب همة وإرادة وعزم ، كان يريد أن يختار الشخصية التي تحمل مسؤولية العلم ، والشخصية التي تبحث عن الكمال ، فالعلم سلاح قوي ولا يجوز أن يسلم إلا لمن كان يملك السواعد القوية التي تحمل مسؤوليته ، فالعلم ينهض بالعلماء إذا اعتزوا به ورفعوا مكانته ، ويذل بذل العلماء إذا ارتضوا لأنفسهم الخنوع والتبعية .

هكذا كان منهج الشيخ في الاختيار ، الشخص أولاً ، فصاحب الشخصية يحمل المسؤولية ويعز العلم ، ومن هزلت شخصيته وضعفت همته فالعلم لا يرفع مكانة الخانعين الذين أذلهم الطمع ، فجعلهم عبيداً لما تطمع فيه نفوسهم من مال وسلطة .

كان يريد للعالم أن يكون رافع الرأس بعلمه قوي الشخصية بالحق ، يرفع شأن العلم في المجتمع وفي المجالس ، لا يذل لقوي ولا يضعف أمام إغراءات المال والسلطة ، يتحكم في ميوله واختياراته ولا تتحكم فيه الأهواء ، إذ مواقفه تعرف به ، يتميز عن غيره بخصال النزاهة والشجاعة والتواضع والسخاء ، وفي كل مجالسه كان طيّب الله ثراه يتحدث عن أهمية تكوين الشخصية في التربية ، والشخصية هي موهبة وتكوين واستعدادات فطرية للكمال ، وإذا كانت الشخصية هي شرط في كل إنسان ، سواء كان تاجراً أو

عاملاً أو مزارعاً فهي في العالم أشد ضرورة لأن العالم قدوة لغيره ، والناس تقتدي بما يصدر عنه ، ويأتي العلم لكي يصقل الشخصية ويهذبها ويجملها بالفضائل لتستقيم طباعها ، والعلم الذي لا يظهر أثره على سلوك حملة العلم لا خير فيه ، فالعمل هو ثمرة العلم ، والعلم الذي لا ثمرة له كالشجرة اليابسة .

وكان يشبه العلم بالوجبة الغذائية الدسمة التي تحتاج إلى معدة قوية تحتمل ذلك الغذاء الدسم ، فإذا كانت المعدة مريضة ، هزيلة ، أو عليلة فسرعان ما تنهكها تلك الوجبة ويظهر الشحوب على ملامح أصحابها ، فلا تقوى على هضم ما بداخلها من أنواع الأطعمة الثقيلة .

والعالم يحمل مسؤولية العلم ولابد له من شخصية قوية متوازنة قادرة على القيام بما يفرضه العلم على صاحبه من وجوب الالتزام بالحق والدفاع عنه ، والتحلي بصفات الكمال والتخلق بالفضائل .

كان طلاب العلم هم الثمرة التي كان الشيخ ينتظرها من شجرة الكلتاوية ، ومن المدرسة الملحقة بها ، كان طلاب المدرسة صغاراً وأرادهم الشيخ أن يكونوا كباراً من أول يوم ، كان ينظر إليهم ويرى فيهم جيل الأمل وجيل الغد ، أليسوا هم الذين كان يحلم بهم منذ زمن بعيد ؟ أليسوا هم الامتداد الطبيعي لتعاليم الشيخ ومنهجه ؟ كل جهد ينسى بعد حين ، ما عدا الجهد الذي يبذل في الأرض الخصبة ، فلابد أن يؤتي ثمره بعد حين. . . فالأشجار تنمو وتكبر ولابد من الانتظار لكي تعطي الثمرات المرجوة منها ولو بعد رحيل من غرسها وكأنه يقول: الكلتاوية بنيت ، ورفعت أعمدتها ، ولكنها لابد لها من شجرة مثمرة ، تعطي بإذن ربها في كل عام عطاءها من العلماء .

وصية الشيخ لطلاب العلم :

خصص الشيخ رحمه الله جزءاً كبيراً من وقته لأبنائه الطلاب ، فكانوا حقاً مشروعه العلمي والثقافي ، لأن هذا المرشد الكبير أحبهم من كل قلبه ، فكان يحدثهم في كل لقاء عن آداب العلم؛ ولا خير في علم لا يتسلح علماؤه بآداب العلم .

ولا حدود لآداب العلم ، ولا يعطي العلم ثمرته إلا لمن يتأدب بأدب العلم وأهم آداب العلم ما يلي :

أولاً : أن يتعلم العلم لله لا لشيء آخر ، فمن تعلم العلم لله تعالى ألبسه الله ثوب عزّه وهيبته ، فأعزه العلم ونهض بأمره ، فمن تعلم العلم لأجل دنيا يصيبها في معاش أو منصب أو جاه فقد جعل العلم مطيته لما يريده ، والعلم ليس كذلك ، والعلم نور ولا يمكن أن يكون حجاباً لصاحبه أو مطية لمآرب أخرى ، فإن أراده لغير الله كان حجاباً له عند ربه ، لأن غاية العلم المعرفة وهي ثمرة العلم ، فإذا كان العلم لغير الله لم يثمر تلك المعرفة .

ثانياً : أن يتعلم العلم ليعمل به أولاً ، وطريق العمل به أن يبتدىء بمحاسبة نفسه عن كل العيوب التي تصدر منه ، والمحاسبة هي بداية الطريق لتزكية النفس من الآثام والسلوكيات الخاطئة والعمل هو ثمرة العلم ، فلا علم بغير عمل ، فمن تعلم العلم لله تعالى ظهرت أثاره على سلوكه وملامحه الظاهرة ، فالباطن لا يدرك بالحواس ، ولكن يدرك بما يظهر على الظاهر من آثار ما يحدث في الباطن ، والظاهر هو مرآة الباطن ، فإذا كان الباطن نظيفاً وطاهراً كانت أفعال الظاهر كذلك ، كالطعام الذي يوجد في القدر لا يدرك لوجود غطاء القدر ولكن يدرك من خلال الرائحة التي تصدر من القدر ، فإن كان ما في القدر نظيفاً وطيباً كانت الرائحة طيبة يستلذها الطبع .

ثالثاً : أن يبتعد عن الجدل المذموم ، والجدل ليس هو الحوار ، فالحوار غايته البحث عن الحق ووسيلته الأدلة والمنطق العقلي والاستدلال السليم ، أما الجدل فغايته الانتصار للرأي والدفاع عنه ، عناداً وإصراراً وهذا يؤدي إلى المخاصمة والمنازعة والأحقاد ، وطالب العلم يحاور ولا يجادل ، ويتحرى الحق ولا يتجاوزه ، ويكون أخلاقي الغاية والكلمة واللهجة ، لا يتحدى ولا يسيء إذا انكشف له الحق والتزم به ، وطالب العلم هو طالب المعرفة ، فمن جادل فهو لا يريد المعرفة ، وإنما يريد الانتصار لإشباع رغباته وأهوائه ، وهذه هي أخطر آفات العلم والعلماء ، فمن تزكت نفسه لم يجادل ، لئلا ينطفىء النور في قلبه .

رابعاً: أن يحسن الاستفادة من العلم ، وذلك بالحرص على اقتناء المعارف وحسن اختيار الأفضل منها الذي يفيده في دنياه وفي آخرته ، وليس هناك شيء مذموم في العلم ، والمذموم هو كيفية التصرف في العلم وتوجيهه بطريقة خاطئة ، ومن الاستفادة من العلم أن يساعد صاحبه على معرفة الأشياء كما هي في حقيقتها ، لا كما يصورها الجهل ، فالجهل يغير معالم الأشياء ، فما يكون حسناً يجعله الجهل قبيحاً ، والقبح ناتج عن التصور الخاطىء للأشياء ولا يمكن للعالم أن يحسن العطاء إلا أن يحسن الفهم أولاً ولا يحسن الفهم إلا بحسن التلقي ، فمن تلقى العلم وهو صادق في ذلك فهم الأشياء وأدرك حسن ما هو حسن وما هو قبيح من الأمور ، والعلم مرآة تنطبع فيها حقيقة الأشياء كما هي ، ولابد من النور لكي تظهر الحقيقة صحيحة في المرأة من غير ما يكدر صفاءها.

ولا حدود لآداب العلم ، والعلم لابد فيه من حسن التفكر فيه ، لكي تنكشف الحقيقة المرجوة من العلم ، والعقل هو النور الذي تدرك به المعلومات ، وغاية العلم هو إصلاح النفوس بالتزام الفضائل والابتعاد عن الرذائل ، فمن قصد بالعلم هذا الهدف فهو مطوق بالرعاية ومحفوف بالعناية ، لأن الله تعالى يتولاه في رحلته العلمية ، من ظلمة إلى نور ، وإن أراد بعلمه الدنيا وزينتها طمعاً في مكانة أو جاه أو مال فقد حجبه الظلام الذي يطوقه عن النور الذي يقذفه الله في قلوب العلماء ، فكان علمهم مطية لضلالهم.

هذا ما كان الشيخ ينصح به طلاب العلم من أبناء المدرسة ، كان يجد في ملامحهم ما كان يطمح فيه، كان يريدهم أن يكونوا أثره الباقي وكتابه المقروء.

وفي الوقت الذي كان الشيخ يحضهم على الالتزام بأداب العلم كان يحذرهم كل التحذير من أن يكونوا من علماء السوء الذين لا يخشون الله فيما يقولون وفيما يفعلون ، أو يقولون ما لا يفعلون.

وقد قال الله تعالى في وصف هؤلاء الذين يحسنون القول ولا يحسنون العمل ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا

﴿يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝٢٠٥ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٦].

وكما أن السفهاء يجب ألا يمكنوا من أموالهم ما لم يؤنس منهم الرشد لئلا يسيئوا في استعمال الأموال ويصرفوها في غير مصارفها الصحيحة فكذلك لا يجوز أن يتمكّن السفهاء من العلم لئلا يستخدموه في غير موضعه ، كي لا يبيعوا دينهم بدنياهم ويبررون المظالم والمفاسد ، ويدافعون عن الباطل ويتحالفون مع رموز الشر في المجتمع ، فيصدرون الفتاوى الباطلة ويستخدمون سلاح العلم لتشويه قيم الإسلام العادلة.

وعلماء السوء هم هؤلاء ، يكتمون ما أنزل الله من الكتاب وقال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٤] وقال أيضاً: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وكتمان العلم هو إخفاؤه وستر حقيقته ، وإبراز صورة أخرى مغايرة لتلك الحقيقة ، إما للتقرب من صاحب سلطة ونفوذ تملقاً له أو خوفاً منه ، والتملق صفة مرتبطة بالطمع فيما عند الآخر ، فمن طمع في مال تملق صاحب المال للتقرب منه رغبة في الحصول على الشيء المطموع ، ومن طمع في سلطة تقرب من صاحب السلطة للحصول على الشيء المرغوب ، والتملق هو صفة المنافقين الذين يكتمون الحق لكي لا يغضبوا من يخشى من الحق ويتهيب منه ، فمن زهد في الشيء المرغوب فيه فلا يجد المبرر لكتمان الحق الذي أنزله الله في كتابه.

ومن أراد الحياة الدنيا وزينتها من أهل العلم فلابد له من كتمان الحق للحصول على ما يطمع فيه ، وهو آثم في ذلك خائن للأمانة ، لأن كتمانه للحق هو تغرير بالناس ، والعامة تفترض الصدق والأمانة والنزاهة في العلماء وتثق بما يقولون.

كان الشيخ في لقاءاته بطلاب العلم يحدثهم عن مسؤولية العالم في عدم كتمان الحق الذي أمر الله أهل العلم ببيانه للناس ، فالعلم ليست غايته التباهي به في المجالس ومجاراة السفهاء من الناس بمدحهم والتقرب إليهم ، وإنما غايته معرفة الحق الذي أمر الله به ، فمن فعل ذلك فهو من العلماء الصالحين الذين يعملون بما يعلمون ومن لم يفعل ذلك فهو من علماء السوء الذين يكتمون الحق ولا يبيّنونه للناس.

لم يكن الشيخ في مجالس التربية يهدف إلى نقد أحد أو الإساءة إليه ، وإنما كان يهدف إلى التعليم والتكوين ، فهو في موطن المرشد ، والمعلم ، ولا يجوز لمرشد في موقف النصح والإرشاد أن يكتم الحق ، ولابد له من التحذير والتنبيه ، تلك كلمات تلقى في القلوب كما تلقى بذور الأزهار في الأرض الخصبة ، وسرعان ما تنبت الزروع والأغراس الخضراء التي تورق وتزهر وتثمر ، وكذلك دور المرشد أن يلقي كلمته الصادقة والناصحة في قلوب طلابه وتلامذته ومريديه ، ولابد إلا أن تنبت يوماً عندما يحين موعد الربيع وهو الفصل الذي تزهر فيه الزروع وتثمر.

في مجلس الإرشاد لابد من التشجيع والتحذير ، فغاية التشجيع هو أن يزداد التعلق بالفضائل الأخلاقية لكي تكون محبوبة ، فإذا أحبها المتعلم تعلق بها ، وغاية التحذير أن يبتعد المتعلم عنها ولا يمكن أن يبتعد عنها ما لم يجد صفة القبح فيها فإذا رأى قبح الأفعال القبيحة كرهها ، والمكروه تنفر منه النفوس ولا تستلذه ولو كان لذيذاً.

وهنا يبرز دور المربي والمرشد في تكوين القابليات وفي صياغتها ، لكي تكون منسجمة مع قيم الكمال التي تجسدها التربية الإسلامية وطلاب العلم هم أولى الناس بالتكوين ، لأنهم علماء الغد ، إذا صلحوا صلح المجتمع بصلاحهم وإذا فسدوا أفسدوا القيم وانحدروا بها وزينوا للناس سيء الأعمال.

تساؤلات ملحة :

كان هناك سؤال يتردد على الأفواه ويعبر عما في القلوب من تساؤلات.

ماذا كان الشيخ يريد أن يحققه عن طريق هذه المدرسة؟

هل يمكن بهذه المدرسة الصغيرة أن يصلح المجتمع وأن يتحكم في مساره. . . ؟

ويكمن الجواب في مسلمات أولية لابد من معرفتها لفهم منهج الشيخ في الدعوة والإصلاح.

وأول هذه المسلمات ما يلي:

أولاً: لم يكن الشيخ رجل سياسة يعمل لإعداد تنظيم حزبي يحقق له مطامحه في السلطة والنفوذ، لم يكن هذا وارداً في ذهنه، ولا مستحباً، هذه نظرة دنيوية ومصلحية عاجلة، كان الشيخ رجل دعوة وتربية، يريد أن يلقى بذور الخير في الأرض لكي تنبت، فيجني المجتمع قطوفها ويأكل من ثمرها.

ثانياً: لم يكن الشيخ يعمل وفق مخطط مدروس محكم، تنفذ مراحله بدقة، ويسهر الساهرون على تنفيذه للوصول إلى النتائج المرجوة، وإنما كان يعمل من منطلق الإيمان بأن الله تعالى هو الخالق والمدبّر، وأن الله تعالى قد «اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة»، وأن العبد لا يملك أمر نفسه، ولا يملك أمر التدبير والتخطيط، فالله هو قيوم الأرض والسماء، وتتمثل مهمة العبد بالقيام بما هو مكلف به بالأمر والنهي مما يجسد معنى العبدية لله تعالى، والتدبير ينافي التسليم لله تعالى والرضا بما يختاره للعبد، والتدبير المحمود هو الذي يشغل القلب عن ربه، فمن شغل بالتدبير عن الله تعالى فقد شغل بالدنيا وهي دار ابتلاء وامتحان ولابد في أي عمل من إغفال حظوظ النفس، لكي يكون العمل لله وليس لإرضاء النفس، لأن العبد في رعاية الله ما دام مفوضاً أمره لله تاركاً أمر التدبير لما اقتضته الحكمة الإلهية. . ذلك هو منهج الشيخ في أي عمل من أعماله ولا يمكن تصور أي منهج مغاير لهذا المنهج الذي كان يعبر عنه في كل موقف في مسيرته المباركة، في حياته الشخصية أو في عمله العام، لم ينسب لنفسه أي عمل أو نجاح، كان يؤمن أن الله تعالى هو المتولي لأمر مملكته بالتسيير والتدبير.

ثالثاً: لم يكن الشيخ يريد من العلم الحصول على الإجازات العلمية للتفاخر بها والتباري بقيمتها العلمية ، وما يمكن أن تحققه للنفس من شعور بالفخر والتميز ، وإنما كان يريد العلم لذاته ، العلم الذي يقود إلى المعرفة ، والمعرفة التي تثمر محبة الله وإيثاره على كل ما عداه ، وعدم الانشغال بكل ما يشغل القلب عن الله ، وكان يقول نحن نريد العلم لكي نحسن الأدب ، والعلم الذي لا يعلم صاحبه الأدب لا ينتفع به ، وقليل من الأدب خير من كثير من العلم ، فلا خير في علم لا يثمر أدباً ، والأدب الذي يثمره العلم يدفع صاحبه لإصلاح باطنه ، فمن أصلح ظاهره ولم يصلح باطنه فهو جاهل بما يهدف إليه العلم ، والعلم هو ذكرى لمن كان له قلب يستمع لكلمة الحق ، وأول آثار العلم خشية الله ، ومن صفة العلماء أنه إذا ذكر الله وجلت قلوبهم.

كان الشيخ يشبه العالم بالشمس تضيء ما حولها وهي مضيئة لأن ضوءها مستمد من ذاتها ، بخلاف القمر فهو يضيء ما حوله وهو مظلم ، فإذا انقطع النور الذي يمده أصبح مظلماً ، والعالم يجب أن يكون ذا بصيرة ذاتية لكي يتمكن من تبصير غيره.

لم يكن الشيخ يريد زعامة أو رئاسة أو شهرة ، بل كان زاهداً في كل ذلك ، حيث لم يشغله الزهد في هذه الأشياء ، وإذا ما سمع أي حديث في هذا كان يعرض عن ذلك الحديث ، وكأن الأمر لا يعنيه شيئاً ، ولابد من الإعراض ، والإعراض لا يتحقق إلا بالزهد الصادق ، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

وكبرت المدرسة واتسعت وكبر الحلم الكبير ، كان الشيخ يرى في ملامح هؤلاء الطلاب السواعد القوية التي ستحمل المسؤولية يوماً لإعلاء كلمة الحق ، كان يرعاهم ويأخذ بيدهم ، إذا ضاقت السبل كانوا يجدون في صدره ذلك الحب الذي يعيد إليهم الابتسامة والفرحة وأصبحت الكلتاوية هي المدرسة بكل الآمال المعقودة عليها.

وبدأت مواكب الخريجين من أبناء المدرسة تملأ رحاب الكلتاوية تجمعهم ألفة ومحبة ومودة ، فأصبحوا هم العمود الفقري للكلتاوية بل صاروا امتدادها

التربوي والروحي خارج نطاق موقعها الجغرافي ، لغتهم واحدة ، فقد يختلفون في الاستعدادات والقابليات والاهتمامات إلا أن من اليسير أن يدرك الملاحظ اللغة التي تجمعهم وتوحدهم.

تخرجت الأفواج الأولى من المدرسة في حياة الشيخ ، كانت سعادته بهم كبيرة، أرهقه المرض في أواخر حياته ، ولكن لم يمنعه من لقاء أبنائه من طلاب العلم الذين كانوا بالنسبة له الشعلة التي ستظل مضيئة وسوف يزداد توهجها، ومن الطبيعي أنهم سيتفرقون ، إلا أن قلوبهم سوف تبقى مشدودة إلى الكلتاوية وسوف يظل وفاؤهم كما كان ، يحنون إلى ذلك الصدر الذي كان يضمهم ويرعاهم.

كلمات الشيخ ما زالت في صدورهم، إنها البذور في الأرض لا تموت أبداً وستخرج كل بذرة غرسها في موعده ، فما زالوا يذكرون في مجالسهم ذكريات الأمس ويقرأون كتب الشيخ المخزونة في قلوبهم والمستودعة في ذاكرتهم، إذ كل فرد منهم يحتفظ بما سمعه وبما رآه ، ذلك هو كتاب الشيخ. . .

وهذا هو فكره وتلك أراؤه. . . وكل منهم يفسرها كما فهمها ، فمنهم من يرى فيها ظاهر دلالتها اللفظية ، ويتمسك بما سمعه من أقوال وما شاهده من أفعال ، ومنهم من يرى فيها روحها ومقاصدها ودلالاتها فيتمسك بما فهمه وما وصل إليه من معان ودلالات ، وكل على حق فيما أخذه واستنتجه ، وكل مصيب فيما نقله ورواه والشيخ هو هذا وهذا ، وكل قد أخذ منه ما فهمه ، وليس من حق أحد أن يدعي أنه يمتلك الحق وحده دون غيره ، فذلك تقييد وتحديد وتضييق ، ولا تدرك الحقيقة إلا بالإحاطة بكل أطرافها.

المدرسة والهدف:

عندما رحل الشيخ إلى رحاب الله كانت المدرسة في بداية عهدها ، كانت الأفواج الأولى قد تخرجت ، ثم تتالت بعد ذلك مواكب الخريجين بحيث لم تتوقف مسيرة المدرسة ، ولم تضعف إرادتها ، وهذا ما يميز العمل العلمي عن غيره ، فكل بناء يتقادم مع الزمن ، وكل شيء لابد إلا أن تعتريه ملامح الشحوب والهرم ، ما عدا الجهد العلمي وتكوين الأجيال ، إنه يثمر

باستمرار ، والغصن الذي يشيخ يسقط بنفسه ، لكي ينبت غصن جديد ، فتي قوي ، يصعد في الفضاء الفسيح وكأنه يتحدى الزمن.

في كل عام جيل جديد يأتي ، ولابد إلا أن تكون مقاعده خالية ، والجيل الشاب تنمو عضلاته ويشتد عوده ، وينتقل من مقاعد الدراسة إلى مقاعد التدريس ، يؤدي المهمة التي أُعدّ لها ، إنها المهمة التي تنتظر كل طلاب العلم بعد أن يستكملوا تكوينهم.

سيفرقهم الزمن ، وسوف يباعد بينهم في المكان ، وقد يشغلهم ما هم فيه من أمور دنياهم وشؤون معاشهم ، إلا أنهم يجب ألا ينسوا المهمة التي أعدوا لها فأمر المعاش اهتمام مشروع ، إلا أنه يجب ألّا يشغلهم ذلك الانشغال الذي ينسيهم الأمل المعقود عليهم والغاية المرجوة منهم.

ووفاؤهم للشيخ هو وفاء للعهد الذي قطعوه على أنفسهم أن يسيروا على الطريق الذي رسمه لهم وربّاهم عليه ، وهو أن يخلصوا النية لله تعالى وأن يكونوا المثل الأعلى الذي يقتدى به ، فإنهم لن يستطيعوا أن ينافسوا الآخرين بعلمهم ولا بفصاحتهم وإنما يستطيعون أن ينافسوهم فيما اختصوا به من رعاية حقوق الله والالتزام بآداب الشريعة والتميز بحسن الخلق وطهارة باطنهم وما تنطوي عليه قلوبهم من محبة الله وإيثاره على كل شيء ، وإنهم بذلك سيكونون أوفياء لشيخهم يحيون مدرسته بالفكر المتميز الذي اختصت به تلك المدرسة إذ لم تكن مدرسة الشيخ مدرسة تقليدية ، ولو كانت كذلك لما تميزت عن غيرها ، ولم تكن مدرسة الشيخ مدرسة جامدة منغلقة منعزلة ، ولو كانت كذلك لما استطاعت أن تخاطب المجتمع وأن تنجب رجال الفكر ورموز العلم والمعرفة ، وإنما هي مدرسة ذات خصوصيات متفردة ، سواء على مستوى السلوك الأخلاقي أو على مستوى الوعي الإنساني الذي يتطلع إلى الكمال ، ويجد في ذلك الكمال الأفق الأسمى للتربية الإسلامية.

إن العلاقة التي تقررها مدرسة الشيخ بين الإنسان والكون هي علاقة تكامل وتسخير ، فقد خلق الله الإنسان لكي يكون خليفته في الأرض ، يقيم فيها حكم الله الذي يدعو إلى إقامة العدل بين الإنسان وأخيه الإنسان والتراحم بين الخلق

ومقاومة الظلم والطغيان والفساد عن طريق التغلب على الأهواء والميول الغريزية ومجاهدة طبائع النفس الأمارة بالسوء بالتخفيف من تعلق الإنسان بالدنيا وزينتها والتعلق بالآخرة لكي تكون هي المرغوب فيه الذي يستأثر بقلب الإنسان، ومن استأثر حب الله في قلبه آثره على كل ما عداه مما يحرر الإنسان من التعلقات التي تنمي فيه روح الأنانية وتدفعه لمغالبة المستضعفين في الأرض من عباد الله الذين أقر الله لهم بحقوقهم الإنسانية كاملة غير منقوصة، فمن اعتدى على هؤلاء المستضعفين بالقهر والإذلال والظلم فقد تحدى إرادة الله وخالف أحكامه.

ولا يمكن أن يتحقق السلام في الأرض إلا بالعدل بين البشر ، ولا يتحقق العدل إلا بإصلاح فساد النفوس بالتزكية والمجاهدة ، وتزكية النفوس لا تتم إلا بطهارة القلب عن الخواطر المذمومة التي تعدّ الباب الرئيسي للشرور والآثام والمطامع والأحقاد ، ولا يستقيم سلوك الظاهر إلا بصلاح الباطن ، فمن صلح باطنه استقام ظاهره ومن استقام ظاهره كان الخير مرجواً منه.

إن طبائع التغالب والتدافع بين البشر أمر غريزي وهو حتمي ، ولا يستقيم أمر البشر إلا بالتحكم في تلك الطبائع بتحرير النفوس من الغرائز والأحقاد والمطامع ، وذلك بتحرير القلب من التعلق الغريزي بالدنيا ومغالبة المستضعفين في حقوقهم الإنسانية بالقهر والإذلال والتنكر لما هو مشروع من حقوقهم في الكرامة والحرية والمساواة.

لم يكن الزهد في الدنيا صفة سلبية إلا عند الجهلة الذين لا يفهمون ولا يعقلون ، فالزهد قوة للزاهد وتحرير له من العبودية التي تدفعه للذل تحت تأثير الطمع والتعلق بالدنيا ، فمن زهد في المال فهو الأقوى لأنه يرفض الذل الذي يدفع إليه الطمع ، ومن زهد في المناصب فهو الأقوى لأنه يرفض المنصب الذي يذله ، ومن زهد في الدنيا وآثر الأخرة فهو المقاتل الأقوى الذي لا يخشى الموت ، ويؤثر الله على ما عداه ، والشعوب التي تزهد في الحياة هي شعوب لا تستسلم أبداً ، لأن الاستسلام مبعثه الحرص على الحياة ، والذل مبعثه الحرص على الدنيا ، فيقبل الذل طمعاً بالمال أو المنصب أو الجاه.

والتاجر الزاهد هو الأعز بتجارته ، لأنه لا يدفعه الطمع لإذلال نفسه

والسياسي الزاهد تأتيه المناصب طائعة مستذلة لأنه معرض عنها إذا أذلته والمقاتل الزاهد في الحياة هو الأكثر شجاعة وإقداماً ، والزهاد لا يقبلون الذل لأنهم غير طامعين ، ولا يرضخون لباطل لأنهم ليسوا خائفين.

وكان الشيخ يقول إننا بحاجة إلى مزيد من الفهم أكثر من حاجتنا إلى مزيد من العلم ، والفقه هو الفهم ، ومن لم يفهم حقائق الأمور فقد جهل الكثير.

وأخشى ما أخشاه ألا يفهم كلام الشيخ على حقيقته فيحتج بظاهر كلامه على ما يخالف روح أقواله ، والأقوال لا تفهم إلا من خلال النظرة الشمولية التي تجسد الرؤية الإنسانية العميقة ، فما يخاطب به العامة يختلف كلياً عما يخاطب به العلماء ، ومن الضروري فهم الأقوال والأفعال في إطارها الزمني الذي يتحكم فيها ، فالكلمة تقال لكي تفهم ، ولا تفهم ما لم تستوعب طبيعة المخاطبين وتراعي خصائصهم في إطار القيم الاجتماعية السائدة.

المدرسة والمستقبل:

أنشأ الشيخ المدرسة لتحقيق أهداف محددة ، وهي تكوين العلماء القادرين على أداء دورهم الثقافي والتربوي في المجتمع لتمكين القيم الإسلامية في النفوس والارتقاء بمستوى السلوك الإنساني وتصحيح المفاهيم الإسلامية الخاطئة وإعطاء العلماء دوراً في تأصيل العادات الاجتماعية وتصحيحها عن طريق المناهج العلمية السليمة ، فالجهل لا يقاوم إلا بالعلم والثقافة وأمية المجتمع لا يمكن التغلب عليها إلا بإعادة الاعتبار لدور الثقافة والفكر في تصحيح العادات والسلوكيات والقيم السائدة.

ليست الغاية من بناء مؤسسات العلم الشرعي تكوين خطباء وواعظين وأئمة ومفتين ، وإنما الغاية تكوين الإنسان المؤهل للقيام بهذه المهمات ، والإنسان هو المنطلق لكل إصلاح فالتخلف في المجتمع ليس وليد نقص أعداد العلماء والخطباء وإنما هو وليد تخلف الإنسان الذي توكل إليه مهمات التكوين والتربية ، فالإنسان هو الذي يرتقي وينحدر فإما أن يرتقي بإدراكه السليم لمعنى العلم وإما أن ينحدر بعلمه ، فيستخدمه في غير المهمة التي جاء العلم لتحقيقها وهي تعزيز القيم الإنسانية في المجتمع ومقاومة العادات والسلوكيات الخاطئة

وتحرير المجتمع من قبضة الجمود والتخلف والجهل ، فليست الأمية هي الجهل بالقراءة والكتابة وإنما الأمية هي الجهل بأهمية دور الفكر والثقافة في نهضة المجتمع من القيم الجاهلية وتتمثل جاهلية هذا العصر في رفض التصحيح والتنوير والتغيير ، والمعرفة هي الخطوة الأولى في التصحيح ولا تصحيح بغير معرفة ، والعلماء هم المؤهلون لدور التصحيح والتنوير ، فإذا كرس العالم القيم الفاسدة ودافع عنها فقد قام بدور التجهيل وليس التنوير ، والتصحيح يحتاج إلى إرادة ويتطلب التضحية ولابد إلا أن يقاوم لأنه يتصدى لعادات راسخة وقيم متحكمة في المجتمع .

وتميز الإنسان عن الحيوان بما خصه الله به من أسباب التميز الفكري والإدراك وقابلياته غير المحدودة لتمييز الأشياء النافعة والضارة والصالحة والفاسدة، ومعرفة الحق والباطل والأصل في العالم أنه الأقدر على الفهم والإدراك والتمييز لأن العلم الذي اكتسبه ينير له الطريق ويمكنه من اكتساب المعارف الجديدة .

فالعقل الغريزي يملكه الأطفال والكبار والجهال والعلماء والحكماء والسفهاء ، أما العقل المستنير القادر على التميز فيختص بالعلماء والحكماء ، ولذلك تميزوا به عن غيرهم فهم في مواقف الغضب حكماء وفي مواقف الطمع نزهاء لا يحقدون إذا حقد الجهلاء ، ولا ينحدرون في سلوكهم إلى مستوى السفهاء ، يدافعون عن الحق في المواقف الصعبة ويتحالفون مع المستضعفين ممن أذلهم الظلم وأدمت القوة الطاغية قلوبهم .

ليس العالم من تحالف مع الأقوياء ضد الضعفاء وليس العالم من استخدم خصائصه للدفاع عن الباطل ، أو استخدم قلمه وبيانه لتبرير المواقف الخاطئة ، وإنما العالم هو الذي يدفعه علمه للدفاع عن الحق والعدالة والحرية والمساواة لكي تكون حقوق الإنسان محترمة ومقدسة ومحصَّنه ، فلا إنسانية لمن لا كرامة له ، ولا كرامة لمن لا حرية له ، ولا حرية للمستذلين بسبب الفقر والحاجة ولا يمكن للعالم أن يقول كلمة الحق التي يؤمن بها إلا أن يتحرر أولاً من ذلك القلق المذموم بالدنيا وزينتها ، فلا يطمع في مال أو منصب أو جاه ، فإذا تحرر

من هذه القيود زال الخوف من قلبه ، فالخوف مصدره الطمع ، ومن تحرر من طمعه فلا يخاف مما يمكن له أن يفقده ، وعندئذ يتحيز العالم لمحور المستضعفين والمستذلين ويدافع عن حقوقهم في الكرامة والحرية ، وما جاءت الدعوة إلى العلم إلا لمقاومة الجهل في المجتمع ، والعلم الذي لا يقاوم الجهل ليس علماً ، والعالم الذي لا يقاوم الجهل ليس عالماً ، والعالم الذي لا يؤدي رسالته العلمية في التنوير والتصحيح لا يعدّ عالماً ، ومن أهم وسائل التنوير أن يفرق المجتمع بين الصادقين وغير الصادقين من العلماء ، فمن عامل الله تعالى من غير تطلع لمصلحة ذاتية فهو صادق ، ومن عمل لنفسه لتحقيق منفعة شخصية فهو غير صادق ، ولا يجوز لمؤسسات العلم أن تنعزل عن المجتمع وأن تعيش في أبراجها العالية المقفلة ، فالجندي الذي لا يقف في ساحة المواجهة لا يؤدي مهمته التي أُعِدَّ لها ، والطبيب الذي لا يعالج المرضى لا يقوم بعمله، والعامل الذي لا يقف في مصنعه كل صباح لا يؤدي مهمته والأم التي لا ترعى أطفالها لا تقوم برسالتها ، وكذلك المؤسسات العلمية لابد أن تقوم بدور التعريف والتنوير ومقاومة الجهالة في المجتمع ولا شيء يسيء إلى الإسلام كجهل المسلمين بحقيقة دينهم فالإسلام رسالة إنسانية ذات قيم عالية تستهدف عمارة الأرض بأسباب الحياة سواء ما تعلق بها بالجهد والعمل وإحياء الأرض المَوَات واستخراج ثرواتها وكنوزها وما تعلق منها بنظام الحياة في هذه الأرض وإقامة العدل بين الخلق واحترام حقوق الإنسان في الحياة والكرامة.

والدين ليس مجرد عبادة يؤديها العبد لربه ، وإنما هي صلة روحية تحقق مشاعر الإيمان في النفس لكي ترتقي النفوس في مستوى وعيها الإنساني ، فتكون أكثر رحمة وأكثر أدباً ، وتحب الخير وتتعلق بالفضائل ، وتتكافل الإنسانية لإقامة العدل بين البشر وتتعاهد على مقاومة الظلم والعدوان.

هذا هو مفهوم الدين وهذا هو دوره في التربية والتكوين ويأتي العلم كي ترتقي مدارك الإنسان واختيار السبيل الصحيح لتحقيق هذه الأهداف الإنسانية ، والعلم الذي لا يحقق هذه المعرفة ليس علماً ولابد من تصحيح مفهوم العلم لكي يؤتي الثمر أُكَله الذي ينفع الإنسان وينهض بأمره.

وأهم هدف لمؤسسات العلم أن ترسخ القيم المرتبطة بحقوق الإنسان ، فلن ينهض مجتمعنا الإسلامي إلا بالإنسان ، ولن ينهض الإنسان إلا عندما يشعر بحريته وكرامته ، والثقافة التي لا ترسخ قيم الحرية والكرامة ليست ثقافة وإنما هي جهالة ولا جهل أخطر على الإنسان من الجهل بحقوقه الإنسانية ، فكرامة الإنسان هي امتداد لوجوده الإنساني ، ولا وجود مادي مع انعدام الوجود الإنساني بأبعاده المرتبطة بالكرامة والحرية .

وعندما تصبح مؤسسات العلم الإسلامية معاقل إنسانية تدافع عن الإنسان وتحمي حريته وتوفر له كرامته ستكون جديرة بالرسالة المنوطة بها ، وستكون عندئذ مصدراً للتنوير تضيء ما حولها ، هذه هي رسالة المؤسسات العلمية في إخراج الناس من الظلمات إلى النور ومن عبادة الطاغوت إلى عبادة الله ومن مذموم الصفات إلى محمودها ومن سيطرة الأهواء والشهوات إلى تزكية النفوس ومن الأنانية إلى الإيثار ومن العجب والكبر إلى الألفة والتواضع ، ومن الأحقاد والأطماع إلى السماحة والنزاهة والعفة .

ويجب أن تكون مؤسسات العلم في قلب المجتمع تحركه وتوجهه وتقوده ، تشعر بألامه ومشاكله وتقف إلى جانبه لتمسح دموع البؤساء بالعدل الاجتماعي والتوزيع العادل فتعيد البسمة إلى وجوه المستذلين والمستضعفين بالانتصار لهم ومقاومة الظالمين .

وبفضل هذا يكون العلم رسالة عظمى ، غايتها تكوين إنسانية متكافلة متناصرة ، تحمي الضعفاء وتؤازرهم وتقاوم رموز الشر في المجتمع الإنساني ، ومنابر العلم هي منابر للحق والعدل والفضيلة فما رفعت إلا لأن الله رفع مكانة العلماء في القلوب بشرف رسالتهم ، والعلم الذي لا يحقق هذه الغاية لا يختلف عن الجهل في شيء فليس العلم مجرد معرفة بالحق وإنما هو عمل بما تقتضيه تلك المعرفة ، فمن لم يعمل بما يعلم فلا فائدة من علمه ، بل علمه حجة عليه ، ويعذر الجاهل بالتقليد ولا يعذر العالم .

ومدرسة الشيخ في الكلتاوية بين خيارين ، أما أن تكون مدرسة مثل بقية المدارس الشرعية وهي كثيرة ، تكتفي بدور تقليدي من التعليم والتكوين

وتحافظ على تراث الشيخ كما كان ، لكي تبقى أثراً من آثاره ، وأما أن تختار دوراً أكثر أهمية وتتميز عن غيرها بمنهجية رائدة تجسد من خلالها طموح الشيخ وآفاق فكره في شموليته واتساع رؤيته ، وهذا خيار شاق وصعب ، لأنه يحتاج إلى إرادة جادة وسعة في الرؤية والأفق وانفتاح على الفكر والثقافة ويحتاج هذا لجهد مضاعف في تلمس الطريق وتحقيق المطامح .

لعل الخيار الثاني هو الخيار الوحيد للاستمرار المفيد ، كي تتميز هذه المدرسة بخصوصيتها حتى تكون مركز إشعاع ثقافي ، فمؤسسات العلم تبقى باستمرار بأداء دورها في المجتمع ، وتغني عندما تنطفىء شعلة العطاء فيها ، فلا تجد من يستظل بنورها عندما يجد أن نورها خافت لا ينير ما حوله .

ما زال الأمل قائماً في أن تجد هذه المدرسة طريقها إلى الغد لتطل معه على واقعها ومحيطها ، ولابد إلا أن تفتح النوافذ المغلقة لكي يطل أبناء المدرسة على الحقول الخضراء المحيطة بها ، ففي تلك الحقول أزهار وورود ونسمات مساء عليلة والنفوس وإن تطلعت إلى الكمال فهي تستلذ ما تأنس به النفوس من جماليات الربيع الحسناء ، ونفحاته الدافئة .

لا ينبغي أن نخاف من الهواء العليل أن يحمل معه بقايا غبار الحقول ، فالصدور التي تعتاد على مقاومة الغبار لا تخشى من أخطاره ، ويكمن الخطر في الصدور التي لم تعزز مقاومتها باللقاحات المعتادة لها ولمحيطها الخارجي وهو خيار صعب لأجل البقاء والاستمرار .

التجديد في المناهج والتفتح على الأفكار والثقافات ، والفهم العميق لرسالة العلم في إغناء المعرفة الإنسانية تلك هي مقومات الحياة ، فالحياة نمو دائم وتطلع مستمر إلى الكمال ، لأن الحياة مستمرة ، ولابد من التجدد والانفتاح مع الثبات والعزيمة لأجل استمرار الحياة .

* * *




الفصل الثالث

جمعية النهضة الإسلامية

المبحث الأول : بداية فكرة الجمعية

المبحث الثاني : إنشاء الجمعية

المبحث الثالث : دلالة عمل الخير

المبحث الرابع : مدارس الجمعية




الفصل الثالث

جمعية النهضة الخيرية الإسلامية

البعـد الإنساني لـدى الشيـخ :

أهم ما تميزت به شخصية الشيخ رحمه الله هو ذلك البعد الإنساني الذي كان يدفعه دائماً لحب الخير للآخرين ، والشعور بآلامهم وأحزانهم فقد كان صدره رحباً بكل الضعفاء والفقراء والأيتام والمسنين والعجزة والأطفال ، وكان يفكر فيهم ويسعى بكل جهده لكي يمسح قلوبهم بالكلمة الطيبة والمساعدة المادية والصدر الرحب الذي كان يستقبلهم به .

اشتهر الشيخ بهذه الخصوصية ، وكان يخصص الجزء الأكبر من وقته لهؤلاء المحتاجين ، لا يردهم عن بابه ، وإن أثقلوا عليه ، ولم يكن في ذلك متكلفاً ، لم يكتف بالعطاء المادي ، وإنما كان يسألهم عن أحوالهم ، ويقف معهم حتى النهاية ، وكأن قضيتهم هي قضيته ، فمن كان مريضاً أشرف على مرضه وتابع أمره ، ومن كان فقيراً بحث له عن عمل يكسب منه رزقه ، ومن كان يريد قرضاً أقرضه ، ومن كان في خلاف مع الآخرين بسبب مال تحمل من الأعباء ما يدفع ذلك الخلاف .

كان يحب الناس ، من أحسن إليه ومن أساء ، من كان قريباً منه ومن كان بعيداً عنه إذ لم يحمل في قلبه حقداً قط على آخر ولو أساء إليه ، ولم يتكلم بسوء عن أحد ، وكأنه كان يلتمس العذر للناس فيما هم فيه .

ويقول فيمن خاصموه وأظهروا له العداء ، لو عرفوني لما خاصموني ، إنما يخاصمون من يتصورون فيه السوء ، وهم يعادون ذلك الشيء السيء الذي

اعتقدوه ، ومن واجبنا أن نفتح قلوبنا لهم لكي يكتشفوا الحقيقة ، وعندئذ سوف ينتقل عداؤهم إلى صداقة ومحبة .

وكان يحب أن يكسب أعداءه بالإحسان إليهم والترفق بهم لكي يزيل ما في نفوسهم من كدورة وأوهام ، حتى يصبحوا إلى أصدقاء ومحبين ، ويردد في مجالسه أن القلوب الطاهرة والصافية يجب أن تصدر عنها الأفعال المحمودة ، ولا تصدر عنها إلا ما هو موجود فيها ، فإن كانت صافية أخرجت الحب والمودة ، وإن كانت مملوءة بالأوساخ أخرجت الروائح الكريهة .

ولم تكن الفضائل في نظره مجرد سلوك فردي في إطار علاقة الإنسان بذاته ، وإنما هو سلوك اجتماعي يتمثل في إطار علاقة الإنسان بمجتمعه ، فالفضائل تظهر في إطار الاجتماع الإنساني وتتمثل في محبة الآخرين والتعاطف الفعلي معهم ومعاونتهم على التغلب على آلامهم .

وفعل الخير يجب أن يكون محرّكه حب الخير ، ولأجل الخير ، وليس لما ينتج عنه لصاحبه من مصلحة أو لذة ، فإذا كان الخير لأجل مصالح تعود على فاعل الخير فهذا لا يختص به الأخيار من الناس ، وإنما يشارك فيه الأخيار والأشرار لوجود النفع الذي يعود منه على فاعل الخير ، أما فعل الخير لمحبة الخير فهذا فعل لا يقوم به إلا الأخيار ، لأنهم يعبرون به عن طبيعة الخير في نفوسهم ، فهم لا يألفون غير الخير ولا يصدر عنهم إلا ما يليق باستعدادهم للخير ، فليس النفع هو مسبب الخير ، وإنما الخير لأجل الخير ، وهذه درجة أخلاقية عالية يختص بها من أشرق نور الله في قلبه فحبب إليه الخير ووجهه إليه ، وجعله مطية للأعمال الصالحة .

والخير مطلوب لذاته لأنه محبوب للفطرة ويستجيب لما في النفس من استعداد لفعل الخيرات ، فمن صدر عنه الخير بتكلف فلا يوصف بالخيرية الذاتية ، ومثله في ذلك كمثل السخي الذي يتكلف السخاء والشجاع الذي يتكلف الشجاعة والعفيف الذي يتكلف العفة فهؤلاء ليسوا من أصحاب الفضائل لوجود التكلف فيما يصدر عنهم ، والفضيلة صفة راسخة في النفس تصدر الأفعال عنها بعفوية غير متصنّعة .

والأخيار من الناس هم الذين يحبون الخير لأجل الخير ولا يتكلفونه ، لوجود صفة الخير في نفوسهم بطريقة راسخة وحب الخير عطاء إلهي تستلذه النفوس المحبة للكمال .

هكذا كان الشيخ محباً للخير من غير تكلف ، يصادق ولا يعادي ، يعطف على المحتاجين ، ويعامل الجميع بالمحبة والمودة ، يواسي كل فرد بما يسعده ، لا يمن إذا أعطى ، يحافظ على كرامة الآخرين ، يقبل أعذارهم ولو كانوا غير صادقين .

* * *

بداية فكرة الجمعية

لم يكن العمل الخيري منفصلاً عن الدعوة والتربية في نظر الشيخ ، كان عمل الخير سلوكاً يومياً مألوفاً ، ولم يكن بإمكان الشيخ أن يردّ من جاء إليه يطلب مساعدته في أمر سواء في مساعدة مالية أو علاج أو دَينْ أو البحث عن عمل.

كان يعدّ نفسه مسؤولاً عن كل هؤلاء ، فإذا كان قادراً على المساعدة بنفسه قام بذلك ، وإذا كان غير قادر أبلغ المَعْني بالأمر بأنه لا يقدر.

هناك أشياء كان يمكن للشيخ أن يقوم بها وبخاصة ما كان يتعلق بعلاج المرضى وشراء المؤونة للأسر الضعيفة ، وهذا أمر يومي ومتواصل.

ولاحظ إخوان الشيخ أن بعض هؤلاء الذين يدعون الحاجة والفقر ليسوا صادقين ، ويستغلون حب الشيخ للخير لأخذ مساعدات لا يستحقونها ، وبخاصة وأن أعداد المحتاجين بدأ يتزايد ، ولم يكن بالإمكان تلبية هذه الرغبات ، فضلاً عن وجود أسر فقيرة هي أَوْلَىٰ بالمساعدة.

وكلف الشيخ أحد إخوانه أن يتكلف بالبحث عن هؤلاء الذين يطلبون المساعدة ، فإذا تبين أنهم صادقون فيما يدعون من الحاجة تقدم لهم المساعدة الممكنة من علاج وسفر وتعليم ومؤونة ، وإذا تبين أنهم غير صادقين فلا يستجاب لهم ، وبفضل هذا الأسلوب من البحث والتحري أمكن تنظيم عمليات المساعدة ، وتخفيف العبء عن الشيخ الذي كان يتحمل معظم المساعدات من ماله الخاص.

ثم تطورت الفكرة من عمل فردي يرتبط بشخصية الشيخ إلى عمل جماعي

منظم ، تتم بموجبه مساعدة الأسر الفقيرة على مستوى مدينة حلب وأحيائها النائية ، ويسهم الأغنياء في تمويل هذا المشروع الخيري الواسع ، بحيث يخفف العبء على الأسر الفقيرة ويساعدها على توفير حاجاتها الضرورية .

❊ ❊ ❊

إنشاء الجمعية

هذه هي البداية . .

أشرف الشيخ على إنشاء جمعية النهضة الخيرية التي كانت تعمل تحت توجيه الشيخ ، ويشرف عليها عدد من إخوانه المقربين الذين كانوا يديرون هذه الجمعية ويشكلون مجلس إدارتها واللجان العاملة فيها ، وكان معظمهم من التجار الذين خصصوا جزءاً من وقتهم لخدمة العمل الخيري الذي كلفهم الشيخ به لخدمة المحتاجين من الأسر الفقيرة في الأحياء النائية التي لا يعلم بمأساتها أحد ، فكانت الجمعية من خلال لجانها المختلفة تزور تلك الأحياء وترى بنفسها مأساة هؤلاء الذين يعيشون في كهوف كالقبور المظلمة ، تفترش الأرض الجرداء ولا يأكل أطفالها إلا بقايا الطعام الهزيل ، يمرضون فلا يجدون العلاج ، ويجوعون فلا يجدون الطعام ، ويختارون الجهل والأمية لأنهم لا يجدون مصاريف الدراسة ، ويبحثون عن العمل فلا يجدون ما يعملون .

بدأت الجمعية خطواتها الأولى على طريق العمل الإنساني الذي يوفر أسباب الكرامة للفقراء ، وكان الشيخ سعيداً بهذه الخطوة التي سرعان ما اتسعت الآمال المعقودة علهيا ، وتولى إخوان الشيخ القيام بهذه الجمعية يدفعهم شعورهم بأنهم يعملون في سبيل الله .

اختيار الإدارة لهذه الجمعية :

اختار الشيخ مجموعة من إخوانه لكي يكوّنوا الهيئة التأسيسية والمجلس الإداري لهذه الجمعية ، ومن أبرزهم الحاج فوزي شمسي والحاج محمد عجم والحاج ناصر الناصر والشيخ محمد الشامي والحاج محمد محمود بادنجكي والحاج أحمد الصغير والحاج عبد اللطيف أبو دان والحاج محمود الناشد والسيد حسان فرفوطي ، واجتمعت هذه الهيئة في أول اجتماع لها تحت

إشراف الشيخ الذي كلف الحاج فوزي شمسي برئاسة الجمعية ، واختارت الجمعية الكلتاوية مقراً لها لكي تكون قريبة من الشيخ ، ووضعت قانونها الأساسي الذي حدد مهمات الجمعية واختصاصاتها ، والغايات المرجوة من إنشائها .

كانت الجمعية كما يدل على ذلك نظامها التأسيسي تهدف إلى تحقيق نهضة اجتماعية وعلمية وثقافية واسعة على مستوى مدينة حلب والمنطقة الشمالية من سوريا ، حيث لا تتوقف عند حدود إنشاء مؤسسات التأهيل المهني للفقراء ومراكز اليتام ودور العجزة والمستوصفات الصحية ومساعدة الأسر الفقيرة بالمواد الغذائية والأدوية ومصاريف التعليم ، وإنما كانت تطمح لإحداث مدارس علمية ومراكز ثقافية ورياض الأطفال لتربية الأجيال على اساس الإيمان بالله والاعتزاز بالثقافة الإسلامية والتمسك بالقيم الروحية والأخلاقية ، لتحقيق النهضة الاجتماعية المرجوة .

بدأت الجمعية أعمالها عام ١٩٦٠ في مقرها بجامع الكلتاوية ، كان الشيخ سعيداً بهذا الإنجاز الكبير ، وسعيداً بجهود إخوانه الذين اندفعوا بحماس لا نظير له لكي تكون هذه الجمعية هي أول ثمار الكلتاوية بعد اكتمال بنائها الجديد الذي أصبح يتسع لخطوات جديدة .

وصايـاه للإدارة فـي أول اجتمـاع :

في أول اجتماع لمجلس إدارة الجمعية أوصاهم الشيخ بأمور ثلاثة :

الأمر الأول : نية الطاعة لله تعالى ، فمن نوى في عمله طاعة الله تعالى سدد الله خطاه وأثابه على عمله وشرح القلوب له ، ومن نوى في عمله الجاه والرياسة والسمعة حرم من ثواب الطاعة ، وانقبضت القلوب عن قبوله .

الأمر الثاني : الإخلاص لله تعالى ، وذلك ألا يعكر صفوه ونقاءه شيء يناقض قصده وهو أن يكون العمل لله تعالى ، وليس لهدف آخر ، فما كان لله كان صاحبه مخلصاً والفعل خالصاً ، وما كان لغير الله انتفت صفة الإخلاص فيه ، فمن أراد العمل لله والتقرب إليه فهذا هو سبيل ذلك ، ومن أراد غير ذلك فقد خرج عن دائرة الإخلاص .

الأمر الثالث: صدق العزم في العمل ، والعزم ثمرة الصدق ، فالصادق في نيته وعمله لابد إلا أن يحقق النجاح ، لوجود العزم الذي يولده الصدق ، والصادقون موفقون ، لأن صدقهم يؤثر في الآخرين فتنشرح الصدور لهم.

وبدأت مسيرة الجمعية قوية ، وانشرحت القلوب لأعمالها ، وحظيت بثقة واسعة ، فقد كان القائمون عليها من الرجال الذين اشتهروا بالنزاهة والاستقامة وحسن السيرة ، وكانوا الأوائل في تمويل الجمعية ، وعمل الخير تنشرح له القلوب ، بشرط أن يقوم به أهل النزاهة والاستقامة ، لكي تكون الثقة بهم قوية.

كان الشيخ ينصح إخوانه القائمين على هذه الجمعية أن يأخذوا بالأسباب ، والله هو المتولي لأمور الفقراء والأيتام وأعمال الخير ، ولابد إلا أن يصل الرزق المقسوم لأصحابه حيثما كانوا ، وعلى العبد أن يأخذ بالسبب ، والله يشرح القلوب لأعمال الصادقين والمخلصين. . .

وكان يحذرهم من الالتفات إلى حظوظ النفس في عمل الخير ، فالنفس التي ترى في نفسها الإخلاص سرعان ما يشغلها الالتفات إلى الإخلاص عن الإخلاص ، فتجد ذاتها فيما تفعل ، وتمنّ على الآخرين بما تقوم به من جهد وهذه من الآفات الضارة بصاحبها التي تحرمه من لذة العمل لله ، فالإخلاص في العمل يولد في النفس شعوراً بالغبطة والسعادة ، ولا يمكن أن يدرك هذه السعادة إلا من أكرمه الله بصفة الإخلاص ، وهو خلوص العمل لله تعالى فلا تكون فيه أية شائبة تعكر صفوه. . .

ولا شيء يفسد العمل الصالح كالرياء ، فالرياء نقيض الإخلاص ، فمن يعمل العمل الصالح للتقرب من قلوب الخلق فهو من الرياء المذموم ، فإن كان دافعه لعمل الخير هو مجرد السمعة والجاه والمكانة حرم من الثواب ، وهو أمر ممقوت ، لأن الباعث على فعل الخير ليس هو طاعة الله ، ومن خصائص الرياء أن له شؤماً في أعمال الخير سرعان ما يتضح هذا الشؤم في انقباض القلوب عنها.

كان الشيخ يعلل انشراح القلوب وانقباضها بالصدق والإخلاص ، فالصدق يحمل صاحبه ويحميه ويدفعه ويوفر له أسباب النصرة والاستمرار ، والإخلاص يشرح القلوب ، لأن الإخلاص هو الصفاء والنقاء والعمل لله .

حققت الجمعية نجاحاً كبيراً في أداء عملها ، وكان أعضاؤها يخصصون الجزء الأكبر من تفكيرهم وعملهم لكي تحقق هذه الجمعية الهدف الاجتماعي والإنساني المطلوب منها ، إذ كانت لجنة البحث والتحري تذهب إلى الأحياء الفقيرة لكي تكشف عن أحوال المحتاجين وتدرس متطلباتهم وتتأكد من حاجتهم للمعونة التي كانت تخصص للفقراء ، فإذا تأكدت من وجود الحاجة فكانت تكتب تقريراً لمجلس الإدارة توصي فيه بتقديم الدعم المطلوب للأسر الفقيرة ، سواء كانت إعانة مادية أو مخصصات غذائية شهرية أو علاج مريض أو مساعدة تعليم أو تكوين أولادهم من الناحية المهنية لكي تتمكن الأسرة من مواجهة ظروفها القاسية .

لم ينفصل الدين في نظر الشيخ عن الثمرة المرجوة منه ، ولا يمكن الاكتفاء بمجرد العبادة للوصول إلى الله ، فالعبادة لها ثمرة مرجوة وهي تزكية النفوس أولاً لكي تكون مهيأة للعمل الصالح الذي يخدم الناس ، ومن فهم أن الدين هو مجرد عبادة قاصرة لا علاقة لها بالعمل فقد أساء فهم الدين ، ولابد من العمل الصالح ، فكل ما يخدم خلق الله فهو من الصالحات ، ولا يفعل العبد العمل الصالح إلا أن يحب الآخرين ، فمن أحب الله أحب خلقه ومن أحب الخلق سعى في إسعادهم بكل الوسائل ، فالكلمة الطيبة عبادة والصدقة عبادة والأخذ بيد محتاج عبادة ومعالجة المرضى عبادة .

وهكذا تحيا الأرض بأودية الخير التي تسيل في الأرض الجافة العطشى إلى أسباب الحياة ، فالدين هو مصدر الحياة بأبعادها الإنسانية ، وهو أداة التواصل بين الإنسان وأخيه الإنسان ، في رحلة الحياة الشاقة ، ولابد من التكافل والتناصر بحيث يحمل القوي الضعيف ، ويخفف عنه آلامه ، وهذا هو الدور الحقيقي للدين في تحقيق ذلك التواصل ، لكي تستمر المسيرة في رحلتها عبر الجبال والوديان ، والدين الذي لا ينمي قيم التكافل في المجتمع سرعان

ما يفقد قداسته في النفوس ويستغني الناس عنه ، والإسلام هو رسالة إنسانية غايتها تحقيق ذلك البعد الإنساني في نفسية المؤمنين به ، عن طريق ربط السلوكيات الصالحة بالعبادة ، فالعمل الصالح هو عبادة ، والعبادة تثمر العمل الصالح وهو الغاية المرجوة.

كان الشيخ يريد لجمعية النهضة أن تجسد ذلك البعد الإنساني في عملها ، في نصرة المستضعفين وتوفير أسباب الحياة للفقراء والعناية بالأيتام والمشردين والعجزة والمسنين وتكوين أبنائهم العلمي والثقافي والمهني ، لكي ينهضوا بأسرهم.

لم يفكر الشيخ بنفسه ، وإنما كان يفكر في أولئك الذين يحتاجون إلى المساعدة والمناصرة ، كان يقوم بهذه المهمة بقدر طاقته ، لم يدخر لنفسه شيئاً ، ولم يفكر في ذلك ، ثم كانت الجمعية التي امتد عطاؤها إلى تلك الأسر الفقيرة التي لا يعلم بمأساتها أحد ، ويمنعها التعفف من أن تمد يدها.

وعندما كان يسأل عن مقدار الصدقة يقول ، هو الفضل والفضل ما فضل عن الحاجة ، ويردد في مجالسه: نحن لا نملك شيئاً ، نحن وما نملك لله تعالى ، والمال مال الله والعبد مسخر فيما يملك ومؤتمن عليه أن يعطيه لمستحقيه من المحتاجين ، ويضيق بمن يقول: هذا مالي ، فلا يليق بالعبد أن يدعي ملكية شيء مؤتمن عليه.

وبفضل توجيهات الشيخ استطاعت جمعية النهضة أن تحقق الكثير من الأعمال الاجتماعية في مجال العناية بالفقراء ، أو في مجال العناية بالصحة وتوفير الدواء والعلاج للمرضى ، أو في مجال توفير المواد الغذائية.

وأشارت إحصائيات الجمعية إلى أن عدد المستفيدين في مجال الإعانات الشهرية تجاوز خمسة آلاف مستفيد ، وأكثر من ألف وخمسمائة أسرة فقيرة ، كانت الجمعية توزع عليهم المواد الغذائية وتشرف على علاجهم وتقدم لهم اللحوم من مشروع الأضاحي الذي تبنته الجمعية.

وبالإضافة إلى هذا العمل فقد أنشأت الجمعية معهداً للتدريب المهني

للإناث لكي تتعلم بنات هذه الأسر الفقيرة المهنة التي تمكنهن من العمل بما يتلاءم معهن ، واستطاع هذا المعهد أن يسهم في تكون المئات من البنات الفقيرات ، وأن يوفر لهن العمل الملائم الذي يشعرهن بالكرامة .

وحظيت هذه الجمعية بثقة المجتمع الحلبي الذي أمدها بالدعم المادي السخي الذي ضمن لها النجاح والاستمرار ، وعمل الخير إذا قام به المخلصون والصادقون تنشرح له القلوب ويتولاه الله بالرعاية وضمن له النجاح .

كان الشيخ يتابع أعمال الجمعية بفرحة وغبطة ، يجتمع بإخوانه القائمين على أمرها ويحثهم على مضاعفة جهدهم ، وكانوا عند حسن ظنه جنوداً في معركة جهاد لأجل الفقراء والمستضعفين ، وهذا هو الجهاد الحق الذي يتمثل في حمل النفس على التضحية في سبيل الخير والفضيلة ، وهذا هو الإحسان الذي أمر الله تعالى المؤمنين به .

والإحسان هو الفريضة الدينية التي هي من دعائم الإسلام ، بل هي من الفروض العينية الواجبة على كل مكلف ، كل بحسب طاقته واستعداده ، ويتمثل الإحسان بكل أنواع العطاء للآخرين ، عطاء الكلمة وعطاء السماحة وعطاء الأخوة وعطاء التواصل الإنساني وعطاء الرفق بالضعفاء والمسنين وعطاء المحبة والإيثار وعطاء التواضع وعطاء التضحية ، ولا حدود للعطاء ، فكل جهد يبذل لأجل الآخر فهو عطاء ، وكل عطاء فهو إحسان ، والمحسنون هم رموز الخير في المجتمع ، ولا يقوم بالإحسان إلا من تأدب بأدب الإسلام وتخلق بخلق القرآن .

والإحسان هو ثمرة المحبة ، فمن أحب الخَلْق أحسن إليهم ، فإذا قست القلوب لم تحسن ، وإذا توقف الإحسان في مجتمع سرعان ما عمت الكراهية فيه ، والكراهية هي مصدر الشرور في المجتمع ، لأنها تولد الأحقاد والحقد هو العامل الأهم في الجرائم والحروب والعواطف الغاضبة هي التي تقوض المجتمعات وتسعى في خرابها .

لا يمكن لمجتمع أن يعيش بسلام وأمن ما لم يشعر الجميع بكرامته وحريته ، ولا تتحقق الكرامة إلا بتوفير الكفاية وعدم الإذلال ، والفقر مذل

لأصحابه والإذلال هو مصدر الحقد ، والإحسان ليس مجرد التصدق على الفقير ، وإنما هو أعم من ذلك ، ويشمل كل السلوكيات التي يتمثل العطاء فيها ، فعطاء الكلمة الطيبة لا يقل أهمية عن عطاء الصدقة ، وعطاء التواصل بين الأقرباء والجيران والأصدقاء هو الذي يوجد المحبة المتبادلة ، ويحقق الطمأنينة والسكون.

* * *

عمل الخير

وكثيراً ما كان الشيخ يتحدث عن الثمرة المرجوة من كل عمل من أعمال العباد وتعرف فضيلة العمل بشرف ثمرته ، وما لا ثمرة له من الأعمال لا فضيلة له ، فالعبادة لها ثمرة ، وثمرتها أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر في السلوك ، والمجاهدة لها ثمرة وهي تزكية النفوس والارتقاء بها ، والعلم له ثمرة ، وثمرته المعرفة ، والعلم الذي لا يثمر المعرفة لا فضيلة له ، والتربية لها ثمرة وأول ثمارها حسن الخلق .

والإيمان له ثمرة ، وثمرته العمل الصالح الذي يسعد الناس ، ويخفف من آلامهم ، فمن أكرمه الله بالإيمان فعليه أن يوجه طاقته لمساعدة المستضعفين ، وهذا هو مفهوم الشكر لله ، فالله قد أنعم على الخلق بنعم كثيرة ، والله هو المنعم والعبد هو المنعم عليه ، والشكر نسبة النعمة إلى المنعم وهو الله ، ومن تمام الشكر لله تعالى أن توجه النعمة التي أنعم الله بها عليك فيما يحبه الله ، فإذا أنعم عليك بالصحة فعليك أن توجه هذه النعمة لخدمة خلق الله ، وإذا أنعم عليك بالجاه والرياسة فعليك أن تستخدم هذا الجاه لما يحبه الله منك ، فمن استخدم قوته البدنية وهي نعمة من الله لما يكرهه الله من الاعتداء على الآخرين وإذلالهم فقد كفر بنعمة الله ومن استخدم ماله ورياسته في غير ما أمره الله به من إشباع شهواته فقد كفر بنعمة الله ، وعلى العبد المنعم عليه أن يثبت أنه أهل للنعمة بتوجيه هذه النعمة لما يرضى المنعم وهو الله .

فالعمل الصالح هو تعبير عن شكر المنعم عليه للمنعم وهو الله تعالى ، فمن عمل صالحاً في هذه الدنيا بإدخال السرور على الآخرين من خلق الله فقد فعل ما يحبه الله منه ، وهذا مؤذن بدوام النعمة واستمرارها ، ولا تدوم النعمة إلا أن

يدوم الشكر عليها بأداء حقوق الله في هذه النعم ، لكي يسعد العبد بنعم الله عليه.

ومن نوى أنه يفعل الخير لإرضاء الله وقياماً بشكره فإنه يقبل على فعل الخير بحماس ونشاط فلا يتثاقل ولا يتكلف ولا يضيق بالصعاب والمشاق.

وانطلاقاً من هذا الفهم العميق لقيام العبد بأعمال الخير ينبعث العزم في النفس لفعل ذلك الخير ، ويجد في ذلك الجهد متعته وسعادته ، فلا يضيق بجهد ولا يتكلف السماحة في صدره ولا يبخل بالكلمة الطيبة ولا ييأس بسبب جهد ضائع ، فما يكلف به العبد هو القيام بالأسباب ، والله يتولى الأمور بالتوفيق والتسديد.

وعمل الخير يدفع البلايا أو يخفف منها ، ولابد له من ثمرة مرجوة ، فمن سعى في خدمة الضعفاء تولى الله أمره ، ومن الجهل ألا يدرك العبد أثر ذلك في صحته وماله وأسرته فيظن أن ما هو مبذول له من صحة ومال وبنين ليس من النعم التي تستحق الشكر ، لأنها مبذولة لمعظم الخلق فلا يراها خاصة به ولا يشعر بفضل الله عليه فيها ، فيدفعه الجهل إلى الاستخفاف بهذه النعم ، فإذا زالت عنه أدرك فضل الله عليه فيها ، فالنعمة ليست مبذولة على الدوام لكل الخلق ، ولو كانت مبذولة للجميع لما كان هناك فقير أو يتيم أو مشرد أو عاجز ، وكم من نعمة كانت مبذولة لعبد ثم أزيلت عنه ، وأصبح فقيراً بعد غنى ومريضاً بعد صحة ومستذلاً بعد عز ، مما يدل على أن النعم لا تدوم لصاحبها ، وكأن القلوب خيم الجهل عليها فجعلها لا تفقه ولا تفهم ، وكأن أقفالاً قد حجبتها عن المعرفة الحقة فقست وزالت الرحمة منها ، ولابد من التغلب على غفلة القلوب بالتذكير المستمر بفضل الله ونعمه وبيان حقوق الله على العبد ، والذكرى تنفع المؤمنين ، الذين ما زالت شعلة الإيمان تتوهج في قلوبهم ، فإذا انطفأت تلك الشعلة بالإعراض عن ذكر الله انطفأت معه شعلة الخير وأصبحت القلوب أكثر قسوة وأشد ظلاماً.

مدارس الجمعية

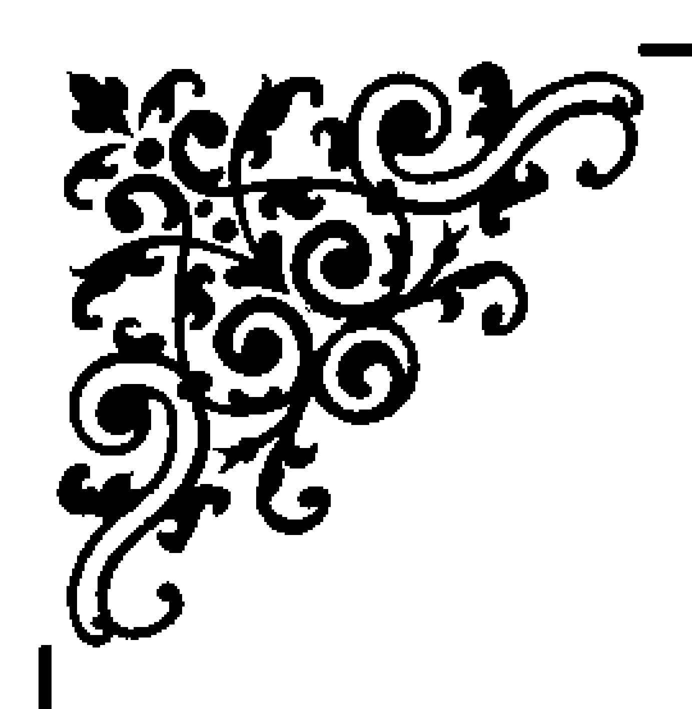
أسهمت الجمعية بتأسيس مدارس ومعاهد متعددة ، وأهمها «**مدرسة دار النهضة الإسلامية**» التي أنشئت بالكلتاوية ، وكانت الجمعية تشرف عليها من الناحية الإدراية ، وتوفر لها إمكانيات الاستمرار ، كما أشرفت الجمعية على عدد من المدارس التربوية والمهنية .

ولما رحل الشيخ عام ١٩٧٤ استمرت الجمعية لمدة عشر سنوات في أداء رسالتها الثقافية والاجتماعية ، وكانت لها مشروعات طموحة في مجال العمل الإنساني والخيري ، ونأمل أن تعود من جديد وفاءً لمؤسسها .

وما زالت مدينة حلب تذكر هذه الجمعية التي حظيت بالثقة واشتهرت بالصدق والإخلاص وعرف القائمون عليها بالورع والنزاهة .

ولابد من قيام المجتمع المدني بواجباته الاجتماعية في دعم المؤسسات الخيرية ، سواء في مجال الصحة العامة أو في مجال التوعية الثقافية أو في مجال العمل الاجتماعي ، فالمجتمع المدني يتحمل مسؤولية المشاركة في تطوير المجتمع من خلال إسهاماته الخيرية في المجالات العامة .

وإرادة الخير موجودة في المجتمع ، والشعور الديني هو العامل الأهم في تغذية هذه المعاني الطيبة ، لتخفيف المعاناة التي يعاني منها الفقراء ولا يمكن أن يتحقق السلام الاجتماعي إلا بتوفير أسباب الكرامة لكل الأفراد وتيسير الحصول على الكفاية ، والفقراء محتاجون للمساعدة لكي يتمكنوا من مقاومة ظروفهم القاسية .




الباب الرابع
في صحبة الشيخ

الفصل الأول : مقومات الصحبة

أولاً : القرابة

ثانياً : المجانسة

الفصل الثاني : دروس الصحبة

البداية

الجد . . والحفيد

أثر الحب في التربية

القابلية للاستفادة

بداية التأمل

تساؤلات الآخر

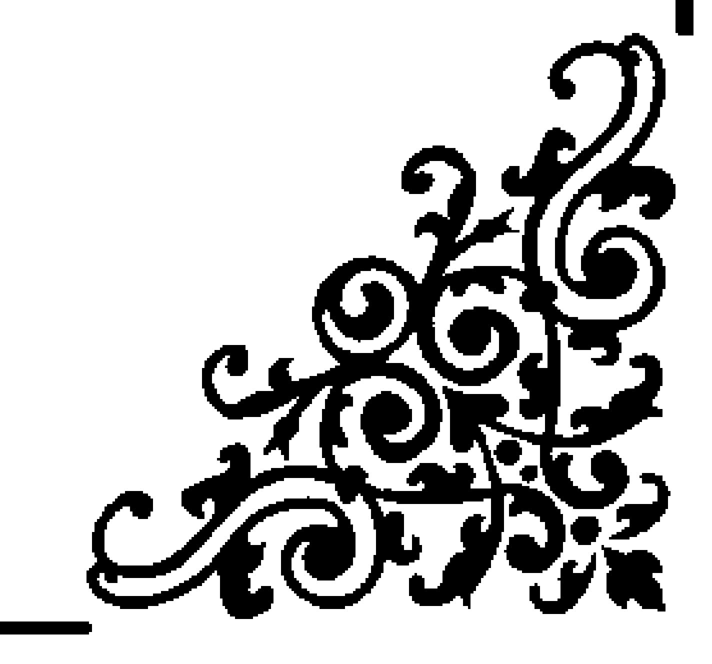
أخلاقية العلم

التصرف . . والاختيار

الفصل الثالث : آثار الصحبة

ـ أثرها من تكوين النزعة الروحية

ـ أثرها في السلوك العام

الباب الرابع
في صحبة الشيخ

صحبت الشيخ رحمه الله منذ أن وعيت الحياة إلى أن بلغت الرابعة والثلاثين من عمري ، أمضيت عشر سنوات متواصلة كنت معه في نهار وليل ، لم أنقطع عنه قط ، كان ذلك في طفولتي الأولى ، ثم سافرت بعد ذلك لمدة خمسة عشر عاماً لم أنقطع فيها عن صحبته ، كنت أشعر أنه معي في سفري ، كنت أراه خلال عودتي ، وامضى معه معظم وقتي . . .

كنت أحب صحبته . . لا أدري لماذا . . هل لأنني أحبه أم لصلة القرابة ، أم لصلة روحية لا أعرف سرها . . ؟

كل ما أعرفه أنني اشتاق لمجالسه حيثما كنت . . وكانت كلماته في أذني اسمعها وكأنني معه ، كان له تأثير كبير في حياتي منذ طفولتي الأولى كنت معه على الدوام . . . أصلِّي معه الصلوات الخمس جماعة .

استيقظ قبل الفجر بساعة ، كان يوقظني بنفسه ، أصلي أربع ركعات قبل الفجر كما كان يفعل . . ثم ينتظر أذان الفجر ، فإذا حان موعد الأذان أذن بنفسه ، ثم يصلي ركعتين سنة الفجر ، ثم يؤمّ الأسرة كلها في صلاة الفريضة . .

كنت أقف إلى جانبه في الصلاة ، وتقف نساء الأسرة خلفه ، وكنت أرافقه في كل مكان . . . في سفر أو زيارة أو عيادة مريض ، كما كنت استقبل ضيوفه وأقدم لهم الشاي المعتاد . . . لم أكن أفارقه أو أتخلف عن مجلسه ، ويخصني بعنايته وحبه . . وكان يفرحني ذلك . .

ترك أثاراً كبيرة في شخصيتي وتكويني وفكري وطبائعي ، بل كل الصفات الحميدة التي اعتز بها كانت أثراً من أثاره ، وقد تعلمت منه حقاً ما لم أتعلمه في الجامعات من القيم.

كنت أشعر أنني مدين له بالكثير مما اعتز به ، لا أقول هذا مبالغة ، وإنما أقوله وفاء لحقه علي ، عندما انتقل إلى الرفيق الأعلى شعرت كأن ركناً قد إنهد في كياني لأنني كنت أشعر بوجوده في حياتي ولو كنت بعيداً عنه . . .

* * *

مقومات الصحبة

الصحبة ثمرة المحبة ، ولا تتحقق الصحبة إلا بوجود الألفة ، والصحبة تحقق ذلك التواصل الإنساني المحمود الذي يربط بين الأفراد ، ويؤدي إلى التلاقي ، والصحبة قد تكون اختيارية وهي التي تعبر عن التجانس في الأفكار والاستعدادات ، وقد تكون غير اختيارية كالصحبة في الأسفار ومقاعد الدراسة وفي الجوار ، حيث تكون ولا تكون الألفة .

والصحبة هي مصاحبة الآخر الذي يمكن أن تستفيد منه ، والكلمة مستعملة في الفكر الصوفي كمصطلح دال على مصاحبة المريد لشيخه ، ولذلك توسعوا في البحث عن أدب الصحبة ، فالصحبة بالنسبة للمرشد هي مصاحبة للاستفادة منه ، والصحبة بالنسبة للإخوان هي الصداقة والألفة .

ومن أدب الصحبة حفظ الأسرار وحسن العشرة ولين الجانب وعدم التكلف والملازمة الدائمة ، وألا تكون الصحبة لغاية دنيوية أو لمصلحة مادية ، فإذا كانت الصحبة لغير الله تعالى كانت صحبة صورية سرعان ما ينكشف أمرها .

لم تكن صحبتي للشيخ بمفهوم الصحبة عند الصوفية ، كان هناك شعور آخر أسمى وأعلى ، كانت صحبتي للشيخ وليدة محبتي وثقتي به وإعجابي بخصاله ، فهناك جانب عاطفي هي علاقة القرابة ، وهناك جانب عقلي وهو إعجابي بشخصيته وصفاته ، وكنت أعتبره المثل الأعلى الذي يقتدى به .

لم تتغير نظرتي إليه ، ما زلت بعد رحيله أنظر إليه بنفس المنظار الذي كنت أنظر به في حياته ، وربما زاد إعجابي به بعد أن اكتشفت الجديد من طبائع البشر في المواقف المختلفة .

أولاً: القرابة:

القرابة سبب مباشر للصحبة ، وهي سبب غير اختياري ، فالابن يصاحب أباه في طفولته ويقلده ويأخذ عنه ، ولا خيار له في ذلك في مرحلة الطفولة ، حيث تنتفي الإرادة والاختيار.

ولا شك أن علاقتي النسبية بالشيخ كانت من أهم أسباب هذه الصحبة وما تولد عنها من آثار ، فالجد بالنسبة لأحفاده هو رمز الكمال والقوة ، وما يفعله هو الكمال ، هذا ما يعتقده الأطفال في طفولتهم ، ثم يكتشفون فيما بعد صفات الكمال كما تربوا عليها ، والآباء والأجداد هم مصدر المعرفة الأولى في مجال القيم وأنواع السلوك . . .

عندما يكبر الأطفال يميزون ويختارون ، ويعيدون النظر فيما رأوه سابقاً من أنواع السلوكيات والمواقف ، إلا أن ، الركيزة الأولى التي تربوا عليها تبقى ثابتة وراسخة ، سواء كانت حسنة أو سيئة ، فإذا كانت القدوة الأولى حسنة كانت الفضائل السلوكية هي الغالبة على السلوك ، وإذا كانت القدوة الأولى سيئة كانت المفاهيم والقيم منحدرة ، إلى أن يتمكن الإنسان فيما بعد من تصحيح نظرته للأمور.

في طفولتي الأولى كان الشيخ هو الجد الذي تشدني إليه عاطفة المحبة والاحترام ، كل ما يصدر عنه فهو حسن وجميل ، وكنت أقلده وأحاكيه في أفعاله ، ما يمدحه من أنواع السلوك فهو جيد وحسن وما يذمه من الأفعال كنت أراه سيئاً وقبيحاً.

ذلك هو السلوك الفطري الطبيعي في الطفولة ، ما زالت بعض أفكاره في ذاكرتي ، حتى في السلوكيات الشخصية ، كنت أحب من يحب وأكره من يكره ، ما زلت أحتفظ بالكثير من الذكريات.

ما زلت أذكر ذلك اليوم الذي وقفت فيه معترضاً على أستاذ كبير في الجامعة لأنه امتدح الإمام ابن تيمية واعتبره من أعظم مفكري الإسلام ، اعترضت على الأستاذ ببراءة وعفوية ، لأنني سمعت الشيخ يعترض عليه ، لأنه وصف الشيخ

محي الدين بن عربي الصوفي الكبير المدفون بدمشق بالإلحاد والمروق عن الدين ، سمع الأستاذ هذا الاعتراض وطلب مني أن أعد له بحثاً علمياً عن ابن تيمية ، واكتشفت علمه وفكره ، ولم يعترض الشيخ على آرائه الفقهية وإنما اعترض على هجومه على ابن عربي ، بالرغم من أن الشيخ كان ينصح بعدم قراءة كتب «ابن عربي» وبخاصة الفتوحات المكية إلا لأهل الاختصاص.

فالقرابة هي سبب مباشر لوجود هذه الصحبة في الطفولة ، فكنت أصحب الشيخ وأفعل ما يفعل ، وكان هو القدوة بالنسبة لي ، في السلوك أحب ما يحب وأجده جميلاً وأكره ما يكره.

ما زلت أحتفظ بالكثير من عباراته وآرائه ومواقفه ، كان ذلك هو الركيزة الأولى لذلك الرصيد المعرفي الذي أسهم في تكوين ثقافتي الأولى ، بعض العبارات ما زلت أرددها ، لأنني حفظتها في الطفولة.

هذا هو العامل الأهم في تكوين الشخصية ، وهو القدوة الأولى في حياة الإنسان ، الأب ، الأم ، الجد ، المعلم ، المدرسة ، الرفقاء ، وإذا صلح هذا العالم صلحت التربية كلها ، واستقام السلوك.

ما زالت بعض الألفاظ المستعملة في لغة التخاطب اليومي لا أستطيع سماعها أو النطق بها. لأنني في تلك الفترة من حياتي كنت أراها سيئة ، وما زالت في نفسي سيئة.

كان من عادته أن يشرب جالساً ولا يشرب واقفاً إلا لماء زمزم ويشرب الماء بامتصاص هادىء ثلاث مرات ، ويغسل الصابون بعد استعماله ، ولا ينفعل في غضبه ولا تصدر منه كلمة نابية في لحظة الانفعال ، ويحترم كل صغير وكبير في عباراته ، كل ذلك أذكره في المواقف المشابهة ، وكأنني أسترد ما رأيته في الطفولة من سلوكيات بقيت في نفسي حية.

ثانياً : المجانسة :

الصحبة الدائمة لابد لها من المجانسة ، وهو بحث الإنسان عن تمامه الآخر ، فالإنسان يبحث بطريقة غريزية عن تمامه فيمن يصادفهم من الناس ،

فإذا وجد تمامه في أي آخر تعلق قلبه به ، وانشدت حواسه إليه ، فالعين تتجه إلى حيث يتجه القلب . فإذا اتجه القلب إلى شخص ما فهذا دليل على وجود المجانسة ، ولا تكون المجالسة ممتعة إلا بالمجانسة .

والمجانسة هي سبب الألفة التي نراها بين الأصدقاء ، ولولاها لما كانت الصداقة ولما استمرت ، وعندما يكتشف الإنسان أن ذلك الصديق ليس تمامه سرعان ما تتوقف الصداقة لانعدام الألفة التي لا تدرك العقول أسرارها العميقة .

وهذا ما أكده الشعراء في شعرهم الذي يحثهم خلال بحثهم عن أخلاق المرء أن يبحثوا عن صديقه ، لأن الطيور كما يقول المثل تبحث عن أشكالها وما يماثلها ، لكي يحدث التجانس الروحي ، والأرواح تتعارف وتتناكر بحسب تكوينها واستعدادها .

هذا ما كان يقرره الشيخ ويعلل ذلك بأن التعارف بين الأرواح في الأزل يؤدي إلى التعارف في الدنيا ، والتناكر بينهما في الأزل يؤدي إلى التناكر بينهما ، وهذا التعليل قد يكون مقنعاً ومريحاً لأنه يخضع العلاقة الإنسانية بين الأفراد إلى وجود علاقات روحية سابقة ، وليس لمجرد الصدفة العابرة .

ولا شك أن صحبتي للشيخ في المرحلة اللاحقة للطفولة لابد لها من تعليل منطقي ، ففي أيام الطفولة لم يكن هناك اختيار كأي طفل لا يختار ما يريد ، ثم وقع الاختيار بعد ذلك ، وكنت سعيداً عندما أكون في مجلس الشيخ ، لأنني أحبه أولاً ولأنني أستأنس بحديثه ومذاكرته ثانياً ، وهذا هو مفهوم المجانسة القائم على علاقة روحية ونفسية .

تعلمت من الشيخ أدب الصحبة ، وقد أفادني هذا فيما بعد في علاقاتي الاجتماعية وكنت أذكر ما تعلمته في الطفولة من أدب الصحبة ، فأعمل بما أقدر عليه ولو كان قليلاً ، وكان هذا القليل كافياً .

ومما تعلمته أن احترم حق الصحبة ، ومن أهم حقوقها احترام الصاحب وعدم إحراجه في أي أمر من الأمور مما يغضبه فالنفوس بطبيعتها لا تحب من ينتقدها أو ينصحها ، ومن أدب النصيحة أن يختار الناصح الوقت الملائم الذي

يتوقع فيه أن يكون الآخر مستعداً للسماع والقبول ، لأن الغاية من النصيحة هو وصولها إلى الآخر وقبول الآخر بها ، فإذا اختار الناصح الوقت غير المناسب ضاعت النصيحة ولم تؤد الغرض المرجو منها ، كما يستحسن في النصيحة أن يراعى فيها حال المخاطب ، فالنفوس ليست سواء في قبول النصيحة ، وكثيراً ما كان الشيخ يحدث عن أهمية المجانسة في الصحبة. وأول ثمرات المجانسة الشعور بالأنس ، فإذا شعر الإنسان بالأنس مع الآخر من غير تكلف فهذا دليل على وجود المجانسة ، ويمكن لهذه الصحبة أن تدوم.

ولا تدوم الصحبة إلا بمراعاة أدب الصحبة وأهمها احترام حقوق الآخر ومراعاة خصوصياته وحفظ أسراره وعدم إحراجه في المواقف وإشعاره بالحب والمودة والألفة وحسن المعاشرة في المجالس والوقوف إلى جانبه في الشدائد.

وإذا أراد الإنسان أن يعرف نفسه فعليه أن يبحث عن صديقه الذي يميل إليه ، ولابد من وجود المجانسة ، فإذا كان ميل الإنسان إلى صديق اشتهر بالاستقامة وحب الكمال وحسن الخلق فهذا دليل على استقامة هذا الشخص ، وينبغي أن يفرح بذلك ، وإذا شعر أنه يميل إلى شخص سيء الخلق فهذا دليل على وجود تجانس في الطبائع بينهما ، ومن واجبه أن يحاسب نفسه عن أسباب ذلك الميل. . .

* * *

دروس الصحبة

البداية :

عرفت الشيخ رحمه الله في طفولتي الأولى . . . لا أدري متى تم ذلك ، كما لا أدري متى عرفت أبي وأمي وإخوتي . . كانوا جزءاً من حياتي الأولى ، وهم يبتسمون . . . وانمحت تلك الذكريات ولم يبق إلا القليل .

أذكر ذلك الشيخ الوقور . . بملامحه المهيبة يدخل بيتنا ، يقف الجميع له احتراماً وإجلالاً ، كنت أحبه وأهابه ، أحبه لأنه يحبني ويلاطفني ويبتسم لي وأهابه لأن الكل يهابه . . .

أناديه بدلع «جدو» كان يبتسم لي . . . يجلسني في حضنه أو يمسك بيدي ، أو يطعمني قطعة حلوى ، انمحت تلك الصور من ذاكرتي ، لم يبق منها إلا القليل .

صورة واحدة بقيت . . . لا أدري لماذا بقيت ولم تمحِ ، وهي الصورة الأقسى في حياتي عندما رأيت نظراته الحزينة تحدق بي ، أداعبه فلا يستجيب لي ، وأضحك له فلا يضحك لي . . رأيت دموع أبي ودموع نساء الأسرة . . . وهي تتساقط على الخدود بغزارة . . . .

حزنت ولا أعرف لماذا أحزن . . . ؟ وبكيت ولا أعرف لماذا أبكي ؟ كان الكل ينظر إلي . . أخافتني نظراتهم الحزينة وأدهشتني دموعهم السخية . . . . كانت أمي غائبة عن ذلك اللقاء العائلي . . وما كان لها أن تغيب ، لو رأيتها بعد ذلك اليوم لعاتبتها ، سأقول لها : لماذا تركتني وحيداً في ذلك المساء ، وما اعتادت أن تفعل ذلك .

وانتظرتها طويلاً ولم تعد. . . ونمت حزيناً. . ولما استيقظت لم أجدها تعد لي طعام الإفطار كما اعتادت أن تفعل. . . رأيت الرجل المهيب يأخذ بيدي يمسح دموعي ويلا عبني. . .

شكوت له أمي التي لم تَعُدْ من زيارة أهلها. . وعدتني أن تعود فلم تفعل. . طلبت منه أن يأخذني إليها لأنني أحبها. .

منذ ذلك اليوم بدأت علاقة جديدة مع جدي الرجل المهيب الذي أصبح قريباً مني وصديقاً ورفيقاً ، فلم أعد أخافه أو أهابه. كنت ألعب معه ، وأذهب معه إلى السوق ، وأجلس في حضنه.

كنت في الخامسة من عمري ، وكان جدي في الخامسة والأربعين ، وبدأت الصداقة بين الجد والحفيد منذ تلك الأمسية الحزينة التي انطفأت فيها شعلة الحياة في أسرتنا الصغيرة ، ورحلت أمي ولم تعد. . . لقد اختطفها الموت في تلك الليلة الحزينة. . . .

لم أحزن على أمي. . . ولم أكن أدري معنى الموت. . ولما عرفت معنى الموت وما يعنيه غياب الأم حزنت الحزن الذي يزداد ألمه كلما امتدت أيامه.

ذات مساء امتلأ فناء الدار الواسع بأطفال الأسرة يلعبون ويضحكون ويتدافعون ، ووقفت بعيداً عنهم أتأمل ملامحهم لا أضحك كما يضحكون ، ينادونني أن أشاركهم ألعابهم فلا أجيبهم ، رأيت «جدي» خلف زجاج النافذة يتأملني ، أشار إلي أن أذهب إليه. كنت شارداً حزيناً ، جاء إلي وأمسك بيدي ، وقال لي: لم لا تلعب مع الأطفال. . .

قلت له: أريد أمي أن تمسك بيدي ، كما تمسك الأمهات بأيدي أطفالهن. . . وانهمرت الدموع من عيني كما انهمرت من عينيه.

قال لي: ألا تريد أن أكون كأمك أمسك بيديك عندما تلعب وتكون صديقي وصاحبي ، وقادني برفق وحنان إلى غرفته ، وأخذ يحدثني كما يحدث الصديق صديقه ، وبدأ يصحبني معه في كل زياراته وأسفاره وأحضر معه كل مجالسه. . .

كبرت بسرعة.. لم ألعب مع الأطفال في الشوارع، ولم أصادق زملائي في المدرسة، لم ألعب كرة القدم في النوادي الرياضية. كان أصدقائي هم أصدقاء الجد، أحضر مجالسهم، وأسمع أحاديثهم، وأرى نفسي كبير السن مثلهم... كان هذا يرضي كبريائي، ويسعدني ويشعرني بالمكانة والمنزلة الرفيعة.

كان يسعدني أن أرى نفسي كبير المنزلة في الأسرة، كنت صديق الجد صاحب الكلمة النافذة، والشخصية المهابة، وكنت أتوسط لأصحاب الحاجات، فيستجيب الجد لوساطتي، فما أريده يكون بفضل محبة الجد ورعايته لأمري...

الجد والحفيد:

لم أُغضب «جدي» في أمر من الأمور، ولم يغضبني قط، ما يريده مني أفعله طائعاً مختاراً، وما لا يريده لا أفعله مختاراً إرضاءً له، فكان بالنسبة لي هو الجد الذي أُحبُه، وكنت بالنسة له الحفيد الذي يحبه.

كان هناك شيء أكبر من العلاقة العاطفية المألوفة بين الجد والحفيد، شيء ما لا أعرف حقيقته، يشدني إليه ويشده إلي، أشعر أنه قريب مني، كنت سعيداً بهذه العلاقة والصداقة... في السابعة من عمري أدخلني الكتاب القرآني لكي أتعلم القرآن ومبادىء القراءة والكتابة عند حافظ كتاب الله الشيخ بشير الحداد، في حي باب الحديد، كان الشيخ يعتني بي عناية فائقة، وهو من إخوان الجد، كان يعلمني قراءة القرآن والكتابة والخط، ولم يدخلني جدي الروضة أو المدرسة الحكومية، ولم اعترض على اختياره، كنت على يقين أن اختياره هو أفضل من اختياري، وهو سيختار لي الأفضل، إذ لم يكن يحب المدرسة الحكومية بل يريد أن أدرس في الكتاب القرآني لحفظ القرآن، ثم نقلني إلى كتاب قرآني آخر للشيخ الصالح العلامة أديب حسون، وهناك ختمت القرآن وتعلمت مبادىء القراءة والكتابة. بالإضافة إلى الاهتمام بالأخلاق والتربية الحسنة...

ولما أنهيت حفظ القرآن في الكتاب القرآني انتقلت إلى مدرسة الخالدية في حي العدسات قرب سوق السويقة ، وهذه المدرسة خاصة ، ومديرها رجل متدين ، ويختار لها الأساتذة ممن اشتهروا بالتدين والأخلاق ، والتحقت فيها بالصف الثاني الابتدائي ، وبسبب تكويني في الكتاب القرآني كنت متفوقاً في القراءة والكتابة ، وأمضيت السنة الثانية والثالثة . . . وانتقلت مباشرة إلى معهد العلوم الشرعية المعروفة بمدرسة الشعبانية ، كانت هذه المدرسة تضم كبار علماء مدينة حلب ، كان الشيخ سعيداً بالتحاقي بها ، كان معظم أساتذتها من أصدقائه ، وتعلمت فيها علوم الدين واللغة ، ودرست التفسير والحديث والفقه والأصول وعلم النحو والصرف وعلوم اللغة والآداب والعروض والتاريخ والجغرافيا .

وفي الوقت الذي كنت أتابع دراستي في هذا المعهد الشرعي كان الشيخ قد أعد لي مدرسة خاصة في الكلتاوية لمدة ثلاثة أشهر في الصيف ، وكان هناك برنامج يومي متواصل أتابع فيه دراستي الخاصة على يد أساتذة مختصين ، في مختلف العلوم ، كانوا يعكفون على تدريسي مواد النحو والفقه والحساب والأصول والخط واللغة . . .

كان الشيخ يتابع كل ذلك ، ويشجعني عليه ، ويستفسر الأساتذة عن دراستي ومتابعتي ، كنت سعيداً بهذه الدراسة أكثر من سعادتي بدراسة المعهد ، فهذه الدراسة خاصة بي ، وتتيح لي الفرصة أن أتحكم في برامج الدراسة ، فما أريده يكون ، وما لا أريده لا يكون ، وهذه الدراسة تشعرني بذاتي . .

وفي الوقت ذاته كان الشيخ يشجعني على حفظ القرآن الكريم وحفظ بعض الأحاديث النبوية ، كما يشجعني على حفظ المتون وألفية ابن مالك والحكم العطائية ، ويخصص لي حوافز تشجيعية ، وعند المساء اسمعه ما حفظته في ذلك اليوم . ويسلمني المكافأة المالية المخصصة .

كنت أحفظ الكثير بسرعة ، ولكنني كنت أنسى بسرعة أيضاً ، كنت أقلب كتب الشيخ في مكتبته الخاصة ، التي كانت تضم أمهات كتب التفسير

والحديث والفقه والأصول واللغة ، وكان يفرح عندما كان يراني أقلب في الكتب واستخرج ما أريد قراءته ، فيساعدني على الاختيار ، ويشرح لي خصائص كل كتاب . . . .

المرشد والمربي :

منذ طفولتي علمني قدسية العلم ومكانة العلماء ، وحبّب إليّ الكتب والقراءة ، وعندما كنت أسأله سؤالاً في العلم كان يجلسني إلى جانبه ويشرح لي الجواب بطريقة ميسرة ومحببة .

وبفضل تشجيعه المستمر لي حبب إلي العلم وكرهني في الجهل ، وحذرني من علماء السوء الذين يتاجرون بعلمهم للتقرب من أصحاب السلطة والنفوذ ، أو الذين يتملقون العامة بالتقرب إليهم بما يرضيهم ، وكان يحدثني عن ثمرات العلم وأهم ثمراته العمل به ، فمن لم يعمل بما علم فلا فائدة من علمه ، وعلمه حجّة عليه ، ويقول لي تعلم كل شيء ، فالعلم بالشيء خير من الجهل به ، ولكن لا تستخدم العلم فيما هو ضار أو غير مفيد .

كان من عادة الشيخ أن يسألني : ماذا درست هذا اليوم ، فأجيبه بما درست ، فيناقشني ، ويسألني ، فإذا قلت له : درست «الفقه ، قال لي : ما حقيقة الفقه . . . ومن هم الفقهاء ، وكيف يمكن للإنسان أن يكون فقيهاً . . ؟

ومما كان يحذرني منه الجدل ، والجدل هو محاولة التغلب على الآخر «بقصد الانتصار للذات» ، وهو صفة مذمومة ، ودليل على غفلة القلوب ، فالقلب الطاهر يميل للحق ويكره الجدل ، فمن مالت نفسه إلى التغلب ولو بالباطل فهذا من صفات النفس التي تحب الظهور والمكانة في نظر الناس ، والجدل يميت القلب لأنه ينمي قوى النفس الغريزية . . .

كان يقول لي : لابد للعلم من خُلُق ، فمن تعلم ولم يتخلق فلا فائدة من علمه ، وعلمه حجة عليه ، فقد يعذر الجاهل بسبب جهله ولا يعذر العالم ، لأنه علم الحق وخالف الحق ، فهو مسؤول عن هذه المخالفة ، والعلم له نور يضيء ، فإذا لم ينشر العلم ضوءه فلا فائدة منه ، ويبقى الظلام مخيماً على

القلوب ، والظلام يحجب النور ، وبخاصة إذا كانت القلوب ملوثة .

والاستكبار عن الحق من صفات المنافقين ، فالمنافق يعلم الحق إلا أنه لا ينصاع له ولا يستجيب لدعوته ، ومن خصائص العلم أنه يعلم صاحبه الالتزام بالحق والخضوع له ، وهذا هو العالم الذي يشرق العلم في قلبه نوراً ، ولابد للعلم من ثمرة وأهم ثمرات العلم أن يتخلق العالم بالأخلاق المحمودة وأن يترك الأخلاق المذمومة ، لأنها قبيحة ، والعلم يمكنه من رؤية القبح فيها لكي يتحاشاه .

وكان يحذر من علماء السوء ، وهم الذين يتعلمون العلم للتكسب به ، وليس للعمل به فمن تعلم العلم لكي يكون أداة لمعيشته أذل علمه والعلم ليس أداة للتعيش به ، فلا يقبل من العالم أن يكون ذليلاً ولا متملقاً ولا منافقاً ، فالعالم رمز للنزاهة والاستقامة والترفع عن الصغائر .

كنت أسمع كل ذلك في كل خطوة ، وقلّما كان يمرّ علي يوم لا أسمع فيه كلمة ناصحة مفيدة ، ربما لم أكن أستوعب كل ذلك وأحياناً لا أفهم ما تعنيه تلك الكلمات من دلالات ، إلا أن من المؤكد أنها كانت تختزن في الذاكرة ، كحبات زرع ترمى في الأرض ، أو كقطرات مطر تتجمع في أعماق الأرض ، أصبحت هذه الكلمات التي أسمعها كل يوم جزءاً من تفكيري وجزءاً من ثقافتي حيث تمثل الرصيد الذي أحتفظ به في ذاكرتي .

وهناك مئات الكلمات هي مصطلحات لمعان معينة ، خرجتْ من معناها الأصلي وأصبحتْ لها دلالات معينة ، وهذه المصطلحات هي الأرسخ في ذاكرتي ، لأنني سمعتها في طفولتي حيث كانت الذاكرة قادرة على الحفظ ، واصبحتُ فيما بعد أستخدم هذا الرصيد من الكلمات بمعناها الأول الذي ترسخ في ذهني ، فكانت هذه المصطلحات تأتيني عفواً وبطريقة تلقائية ، وكنتُ أجد صعوبة فيما بعد لربط هذه الكلمات بمعناها اللغوي الأصلي ، ولكل علم مصطلحاته الدالة على المعاني المرادة في ذلك العلم ، وعندما تترسخ هذه المصطلحات في الذاكرة تتحكم في اللغة المتداولة . . . .

وبفضل تلك الفترة من حياتي أصبحت المصطلحات المستعملة في الفكر

الصوفي جزءاً من ثقافتي العامة ، وكنت أفهمها جيداً وبطريقة عفوية ، وأستخدمها في مظانها ، وربما أثرت في أسلوب كتابتي ولو في مجالات الفكر الإسلامي الحديث. . . .

في تلك الفترة لم تكن القدرة على التأمل كافية للتمييز وذلك لعاملين :

أولاً : لعامل السن حيث يكون الطفل في مرحلة القابلية للأخذ والاقتباس فما تتلقاه النفوس تأنس به ويترسخ فيها من غير جهد .

وثانياً : بسبب الثقة المطلقة بمصدر التوجيه ، فقد كان الشيخ بالنسبة لي ليس مجرد الجدّ العزيز الذي تربطني به صلة القرابة ، وإنما كان بالنسبة لي هو المربي والمرشد والناصح والموجه ، فما أسمعه منه فهو حق لا يحتمل التردد .

وهناك سبب آخر هو لهجة الصدق في المرشد والناصح ، وهي لهجة مؤثِّرة ، فالكلمة تنتقل بسرعة من المعلم إلى المتعلم وتحدث الأثر المطلوب ، لوجود الصدق فيها ، والصدق هو العامل الأهم في التأثير ، والصدق والإخلاص ركنان مهمان في التربية والتوجيه والإرشاد وسر الإخلاص هو روح الكلمة الناصحة ، ولا روح للكلمة التي فقدت معنى الصدق والإخلاص فيها .

والمتعلم في مرحلة التعليم يمر بمرحلة الاستفادة وهي حالة القابلية لاكتساب الجديد من الأفكار والقيم ، ومرحلة الاستفادة تتمثل في تخزين المعلومات وتجميعها لكي تكون في الذهن ثم يجري بعد ذلك التأمل في تلك المعلومات ، واختيار ما يلائم الإنسان منها . وأهم مرحلة من مراحل الاستفادة هي الطفولة حيث تكون قابليات الأخذ كبيرة ، وبخاصة إذا أحب المتعلم معلمه ووثق به ، وعندئذ تكون نفس المتعلم مهيأة لقبول كل التوجيهات ، والمحبة ضرورية بين المعلم والمتعلم ، وإذا أحب المتعلم معلمه وتعلق به كانت النفس مهيأة لقبول كل شيء ، وفي ظل الحب يكون كل شيء جميلاً وحسناً ومستحسناً .

أثر الحب في التربية :

وإن أثر الحب واضح في التربية ولابد من الحب في التربية ، فالطفل يأخذ كل شيء عمن يحبه ، ولا يجد صعوبة في قبول كل شيء ، ويشعر بسعادة

كبيرة وهو في حال التلقي والاستفادة ، لأنه يرى الكمال وتشتاق النفس لذلك الكمال ، ولذلك تأخذ بما تراه كاملاً . . .

وكنت أحب الشيخ حباً حقيقياً ، وأجد الكمال فيه بعقلي وعاطفتي ، وأحب كل ما يصدر عنه من أفعال من غير تأمل فيها ، ومن خصائص الحب أنه يولد قابليات غير محدودة للاستفادة فتقبل النفس على الأخذ بغير حدود.

والحب عاطفة إنسانية رائعة ، ولا تستقيم الحياة بغير الحب ، ولا تتوهج شعلة السعادة في كيان الإنسان إلا بالحب ، فالحب يجعل الحياة جميلة ، لأن المحب يعطي ، وسعادة الإنسان في العطاء. . والعطاء المتبادل هو سر السعادة. . .

لماذا أحببت الشيخ ؟ هذا سؤال لم أوجهه لنفسي في مرحلة الطفولة ، كان من العبث أن أسأل نفسي هذا التساؤل ، كنت أحبه وهذا كل ما أعرفه. . .

هل أحببته لأنه الجدّ الذي يحبه كل أبنائه وأحفاده. . . أم هل أحببته لأنه يمثل الكمال بالنسبة لي ، أم أنني أحببته لأنني أحببت نفسي ، وأحببت كل من يحب هذه النفس. . .

لا أستطيع أن أجيب عن هذا التساؤل ، ولا أعرف الجواب ! ربما كل هذه الأسباب صحيحة ، أحببته لعاطفة القرابة وأحببته لما وجدت فيه من خصال الكمال والفضيلة ، وأحببته لأنني أحب نفسي ، وهذه من طبائع النفس البشرية ، إنها تحب كل من يحبها ، والأطفال تتجلى فيهم هذه الطبيعة ، فقد كان حب الشيخ لي حباً متميزاً واضحاً ، وكنت سعيداً به. .

هذا الحب لم يضعف عندما كبرت وأصحبت أكثر إدراكاً ومعرفة ، بل زاد هذا الحب في نفسي ، واكتشفت فيما بعد أنني أحببت فيه كماله الذاتي ، والعقول عندما تدرك معنى الكمال تزداد تعلقاً به. . .

هذا الحب المبكر الذي شدني إلى الشيخ كان له تأثير مباشر وكبير في حياتي في تلك الفترة الزمنية التي تعدّ الأهم في حياة الأطفال ، لأنها تمثل المنعطف الخطير في حياة الإنسان ، بسبب جموح النفس في مرحلة المراهقة ،

ولابد في الحب من المجانسة وهي شرط في كمال الحب واستمراره ، فالإنسان سواء كان صغيراً أو كبيراً يحب من يجانسه في الطبائع والاهتمامات ، لأنه يرى فيه صورة ذاته المحبوبة لديه ، وهذا مما ينمي علاقة الصداقة والمودة والألفة بين الأفراد ، والمجانسة قد تكون مدركة من خلال التقارب في الاهتمامات الظاهرية والأفكار والميول ، وقد تكون غير مدركة وغير ظاهرة ، فيقع الميل إلى شيء ما أو إلى شخص ما وترتاح النفس لما لا تعلم سره من أنواع العلاقات الإنسانية.

فيقع الإنجذاب القلبي لا لسبب ظاهر مدرك ، وإنما لسر خفي يتمثل في تقارب الأرواح وتعارفها وتلاقيها ، وهذا هو السر الحقيقي في مشاعر الألفة والصداقة ، حيث ينجذب القلب إلى شخص ما بغير سبب ظاهر ، ويرتسم في المخيلة صورة ذلك المتخيل المحبوب الذي تتراءى ملامحه بالشكل الذي يتصوره المحب.

والإنسان في الأغلب لا يرى صورة الآخر كما هي في حقيقتها وإنما يراها كما يريد هو أن يراها ، فإذا وقع التوافق الروحي رأى الإنسان في الآخر الصورة التي يحبها والتي يرى فيها الكمال والجمال ، وإذا وقع التنافر الروحي رأى في الآخر الصورة التي تعبر عن ذلك التنافر وتؤكده ، فلا يرى الجمال فيه ولا الكمال.

والإنسان بطبيعته الفطرية وغريزته يحب الكمال ويتعلق به ، فلا يحب إلا ما يراه كاملاً ولا ينفر إلا مما يراه ناقصاً ، إلا أن مفهوم الكمال ليس واحداً في نظر الناس ، بعضهم يرى الكمال في الجمال الحسي الذي يستلذّه الطبع وتميل إليه النفس ، وبعضهم الآخر يرى الكمال في حسن الخلق والاستقامة ، فإذا رأى حسن الخلق أحبه ولو كان صاحبه قبيح الشكل وإذا رأى صورة السوء كرهه ولو كان صاحبه جميل الشكل..

والأم ترى الكمال في ولدها وترى فيه الجمال ، فهي تنظر فيما تراه جميلاً فيه ، ولا تنظر فيما تراه قبيحاً ، والكمال ليس له صورة واحدة ، والحب هو تعلق بالكمال الذي يحبه الإنسان.

والمعلم يحب أن يكون محبوباً ، ولا يتأكد الحب إلا بما يراه المتعلم في معلمه من كمال في السلوك والمعرفة والتمسك بكل ما يجسد ذلك الكمال . .

رأيت الكمال في الشيخ ، ولذلك أحببته ، ولم يكن بالإمكان ألا أحبه ، أحببته بعاطفتي ، الأطفال يحبون بعاطفتهم لأنهم لا يملكون القدرة على التأمل العقلي ، والحب بالعاطفة هو الأقوى ، لأنه لا تردد فيه ، وهو حب أكثر صدقاً ، بخلاف الحب العقلي فهو حب متردد ، يزداد وينقص ، كالإيمان العقلي ، أما الإيمان الذوقي فهو أكثر توهجاً ، وليس فيه ذلك التردد الذي يعتري أصحاب العقول .

كان الشيخ بالنسبة لي هو المعلم والمربي والمرشد ، لم أجد صعوبة في الأخذ عنه والاقتداء به ومحاكاته في أفكاره وسلوكه بسبب تعلقي به ، ما ضقت يوماً بما كان يلقيه على سمعي من نصائح وأفكار وتوجيهات ، وما تطلعت لصداقة غيره ممن كانوا في مثل سني من الأطفال ، وشعرت بقدر من التميز عنهم ، كنت أحب أحاديث الكبار واهتماماتهم ، ولا تثير اهتمامي القضايا التي كانت تسعد الأطفال عادة . . .

أستطيع القول بأنني لم أعش طفولتي كما يعيشها الأطفال ، لم ألعب كما يلعبون ، ولم أقفز في لحظات الانفعال كما يقفزون ، ولم اسلك سلوك الأطفال في لحظات الغضب والتمرد .

لا أدري هل كان ذلك شيئاً إيجابياً في حياتي ، كل ما أذكره أنني اجتزت تلك المرحلة ولم أندم على طفولتي ، ولا أظن أن النظريات التربوية التي عالجت قضايا الطفولة قد أصابت الأهداف المرجوة من التربية ، فالتربية أمر نسبي وليست هناك قوانين ثابتة ، وليس هناك طريق واحد يمكن اعتباره الطريق الصحيح .

والواقع التربوي شيء يختلف عن النظريات ، ولو كانت موثقة بالاختبارات الميدانية والمقاييس المنهجية ، وليس هناك ثوابت في السلوكيات الإنسانية ، لتداخل العوامل الذاتية والزمان والمكان والمحيط الاجتماعي في توجيه المسارات التربوية ، والثابت منها هو الذي يدعمه الواقع ويؤكده .

القابلية للاستفادة:

أهم ما تميزت به تلك الفترة من حياتي هو أنني كنت في موطن القابلية المطلقة وغير المحدودة للأخذ عن الشيخ والاستفادة منه وبخاصة في مجال القيم والأفكار والسلوكيات أحببت ما يحب وكرهت ما يكره، وما زال أثر ذلك في نفسي حتى اليوم، فما كنت أكرهه في تلك الفترة ما زلت حتى الآن لا أستسيغه بسهولة، وأشعر بأثر تلك التربية والتلقين في نفسي...

في الفترة الزمنية اللاحقة للفترة الأولى والتي سافرت فيها إلى دمشق والقاهرة للالتحاق بجامعاتهما، وجدت أثر ذلك التكوين الفكري والتربوي عندما كنت أصطدم بواقع مختلف وأعبر عن ذاتي الأولى من خلال مواقفي الفكرية ورأيت أن أشياء كثيرة قد اختلفت، ولعلي قد اصطدمت بالواقع ورأيته على حقيقته.

على مستوى القيم كان الأمر صعباً، فما تلقيته من الشيخ كان يمثل قمة السمو في المفاهيم، وذلك أفق تربوي من الصعب تلمس آفاقه في عالم الواقع فما كان الشيخ يدعو إليه يختلف كلياً عن تلك المفاهيم.

لم تكن قدراتي الفكرية الأولى تمكنني من إيجاد ذلك التوازن بين عالم الشيخ بآفاقه الروحية وعالم الواقع كما هو في حقيقة الأمر، عالم الشيخ كان متفرداً ومتميزاً بوجود تلك اللحمة بين الفكرة والواقع، بين الدعوة والتطبيق، فالزهد في عالم الشيخ هو زهد حقيقي يتمثل في الإعراض بالقلب عن الانشغال بالدنيا، والعبادة تواصل متجدد بين الله والعبد، والمال أداة لخدمة الإنسان وتوفير أسباب استمراره ووجوده والصداقة مشاركة ومسؤولية ولا تكلف فيها.

والإنسان في عالم الشيخ مكرم ومحترم بسبب إنسانيته والأفضل هو الأتقى والأصفى، في هذا العالم لم أجد النفاق والتملق للأقوى ولصاحب السلطة، فالسلطة أمر مزهود فيه ولا وجود لذلك الشعور المتكلف بالتقرب من رموز السلطة.

هذا ما رأيته في عالم الشيخ، أو ما يدعو إليه الشيخ، مجتمع متحرر من

القيود الظاهرة ، متحرر من التعلقات المذلة ، متحرر من السلوكيات المتكلفة ، على الأقل خلال مجالس الشيخ ، ولو ساعة من الزمان في يوم أو أسبوع ، وساعة تكفي لتزويد النفس بهواء نظيف ، حتى إذا ما طلع شمس يوم جديد عاد الكل إلى عمله وكأن شيئاً لم يكن ، إلا بقايا ذلك المجلس ، ذكريات ونسمات ، تعطي إشراقه حلوة لملامح الوجوه.

لم يكن الشيخ يريد أكثر من ذلك الأثر في ترويح النفوس بلحظات مضيئة ، لابد إلا أن تنعكس على السلوكيات ، ولو بقدر يسير من يقظة القلوب وصلاح خواطرها ، من مذموم إلى محمود. . .

في تلك الطفولة لم أكن أميز بين الأفكار والقيم ، كنت بعيداً عن عالم الواقع كما هو ، وأعيش في عالم خاص أجد جماله ، أحس فيه بدفء مجالسه ، والدفء شيء محبب للنفس وعندما تركت مجالس الشيخ وارتحلت طلباً للعلم شعرت بالصقيع والفراغ ، كان ذلك أول أثر لذلك الانتقال.

ليست القضايا الروحية مجرد عبث ولهو ، ولو كانت كذلك لما بقيت في مواجهة تحديات النزعة المادية الجارفة ، إنها شعور قوي دافىء تحس النفس بالحاجة إلى ذلك الشعور وقد تحس بالظمأ إذا ابتعدت عنه ، والنفس تشتاق لتلك الرحلة من المادة إلى الروح ، ومن المحسوس إلى عالم الصفاء الذي تشرق أنواره في القلوب المظلمة. . . .

عالم الروح فيه غموض ، وغموضه يزيده جمالاً وإشراقاً ، والنفس تشتاق إليه ، وتجد فيه الدفء والسعادة والسكون ، ومن أهم خصائصه أنه ينمي في الإنسان القدرة على تحمل الآلام ، وكأنه محمول على الأكتاف ، فلا يشعر بشيء مما يجري حوله ، سواء كانت آلاماً نفسية أو آلاماً بدنية ، ويكون أكثر انبساطاً وتفاؤلاً وأملاً ، لا يخيفه الموت ولا يخشى الفقر ولا تسيطر عليه المخاوف الوهمية ويتحرر من قبضة التعلق بالدنيا.

وأهم ما يسيطر عليه هو الشعور بالرضا والأنس والاستغراق بما يشغله من مجاهداته وعباداته واهتماماته والزهد فيما يعكر صفو أيامه ، ولا شيء يكدر كالطمع والخوف والحقد ، فالطمع وصف مذموم لأنه يجعل صاحبه في حركة

دائمة بحثاً عن المطامع ، فإذا لم يحصل عليها فسد مزاجه وساءت حالته ، وإذا حصل عليها انتابه الخوف أن يفقدها وعاش أيامه وهو يقابل الخوف المسيطر عليه ، وإذا فقد ما يطمع فيه وما تعلق قلبه به فسرعان ما يسيطر عليه الحقد ، ويدفعه للحزن والغضب ، ويكدر عليه حياته ، فلا يشعر بالسكينة في لحظات أنسه ، ولا يستغرق في نومه لأن الكوابيس تلاحقه بملامحها المخيفة ، فيستيقظ مرعوباً وجلاً . . . .

عالم الروح فجر يطل من خلف الأفق يبشر بإشراق نور الشمس في يوم جديد ، يرى ذلك العالم بالبصيرة ولا يرى بالبصر ، من رآه أحبه وتعلق به وذاق حلاوته ، ومن أغلقت الأبواب في وجهه فلا يرى منه شيئاً ، ومن يراه يحسبه كالسراب ، يتراءى ولا وجود له ، ليس المهم أن يكون أو لا يكون ، وإنما المهم أن من أشرقت أنواره في قلبه تعلق بتلك الأنوار وذاق حلاوتها ، ووجد أنسه بها فاطمأنت نفسه وسكنت جوارحه ، وهذا المقدار من الشعور كاف للتعلق به . .

ليس المهم أن نرى المصباح وإنما المهم أن نرى ضياء ذلك المصباح ، فالضياء هو المطلوب والآثار هي المرغوبة ، وما تشعر به النفس من سعادة هو الغاية ، ولا يعنينا بعد ذلك أن نبحث عن حقيقة الأشياء ، فذلك أمر لا تملكه العقول ، ولا تقدر عليه ، لأنها تدرك ما هو مشاهد بالحواس ولا تدرك ما خلف ذلك من أسرار الكون .

والجمال ليس له معيار محدد ، فما يراه الإنسان جميلاً فهو جميل وما يراه قبيحاً فهو قبيح ، وما يراه الإنسان نافعاً ومفيداً فهو مطلوب لتحقيق النفع المرجو منه ولو كان وهماً . . .

والعقل المحمود هو العقل الذي يميز الإنسان به بين الأشياء ، لكي يكون الإنسان سعيداً بهذا التمييز ، والعقل الذي يشقي صاحبه هو عقل مذموم ، لأنه قاد صاحبه إلى الشقاء .

لابد من إعادة قراءة الأشياء ، وفي كل قراءة يفهم الإنسان أشياء جديدة عن الحياة ، وتتراءى له الأشياء بصورة مغايرة لصورتها الظاهرة ، ويتساءل الإنسان

عن سر الإنسان والحياة والكون ، هل ما اكتشف حتى الآن يكفي للمعرفة ، وهل اتضحت الحقيقة أمام الإنسان.

في الطفولة الأولى يرى الإنسان الأشياء وفق معايير محددة ثم تتسع المعرفة ، ويكتسب الإنسان معارف جديدة عن تجربته الذاتية ، ليست هي المعرفة الأولى على وجه اليقين ، وليست نقيضها على وجه التأكيد ، وإنما هي معرفة ذات طبيعة نسبية ، فما كان بالأمس في دائرة الخطأ لا يعني أنه خطأ ، فالألوان ليست هي الأبيض والأسود ، فقط ، وليست الأحكام هي إما الخطأ أو الصواب ، وإما الحق أو الباطل ، ولابد من مراعاة النسبية بالنسبة للأشياء ذاتها وبالنسبة للأشخاص بحسب المتغيرات الزمانية والمكانية.

ليست هناك أحكام ثابتة ، الحقيقة كامنة في أعماق الذات الإنسانية ، ولابد من البحث عنها ، ولكل فرد حقيقة خاصة به ، حقيقة نسبية ، هي بالنسبة له حقيقة وقد لا تكون كذلك بالنسبة للآخرين.

ولذلك لابد من التزام الأدب في كل شيء ، الأدب في تعامل الإنسان مع ذاته والأدب مع الجمادات والأدب مع النباتات ، كل شيء يمثل الكمال ولا شيء من ذلك خلق عبثاً ، والإنسان هو جزء من الكون وليس هو الكون كله ، هو مستخلف لأجل عمارة الأرض ، كل مخلوق مسخر لما خلق له ومستخلف على المهمة التي سخر لها.

أثناء صحبتي للشيخ كنت أملأ خزانتي العقلية بكل ما أسمع ، كنت أجد الشيخ كالبحر المحيط في سعة رؤيته ، مفاهيمه للأشياء كانت مختلفة كلياً عن المألوف من أمثاله ، رأيت سعة في الفهم لم أجدها في معاصريه ، رأيت أفقاً يتسع لكل فكر ولكل ثقافة.

هناك سلوكيات واختيارات التزم بها كمنهج يعبر عن الكمال الذي أحبه وارتضاه لنفسه وفي الوقت ذاته كان يحترم خصوصيات الآخرين في اختيارهم لمنهج كمالهم.

كان يعنيه الباطن ولا يعنيه الظاهر ، وكان يقول: [كونوا كيف شئتم في

ظاهركم ، والمهم هو ما انطوت عليه القلوب ، وهذه الكلمة بحد ذاتها تلخص منهجه الشمولي في بحثه عن حقيقة الأشياء . .] .

أشياء كثيرة ، أقوال وسلوكيات ومواقف كنت أفهمها في سن الطفولة بطريقة ضيقة ، وربما فهمها الكثيرون بهذه الدلالة ، وبنوا عليها نتائج خاطئة ، وعندما اتسعت زاوية الرؤية قرأتها بطريقة مغايرة وفهمتها في إطار النظرة الشمولية الواسعة .

لم يكن يهتم بالسلوكيات الظاهرة التي يمكن لأي فرد أن يحسن أداءها ، وقد يؤديها رغبة في مراعاة الناس وطمعاً في حسن السمعة ، وإنما كان يهتم بما وراء ذلك من مراعاة الأدب في الأداء والإخلاص في العمل والصدق في النية .

والنص ليس في ذاته وإنما فيما يقرأ ، فقد يقرأ بطريقة حرفية ضيقة وقد يقرأ بطريقة شمولية واسعة ، والمشكلة ليست في النص وإنما في كيفية قراءته ، والقارىء متعدد ومتجدد ومتنوع ، ويفهم القارئ من النص ما يريد فهمه مما يوافق استعداده الذاتي ، ولذلك لابد من الانتقال من النص إلى قارىء النص ، والمشكلة تكمن فيه ، فهو أداة الفهم وهو النص الناطق والجمود لا يكون في النص ، وإنما يكون في قراءة النص ، وهو الإنسان ، والضيق لا يكون في النص وإنما يكون في التفسير ، وإذا نظرنا في نص فعلينا أن نفتح الأبواب والنوافذ لكي يدخل الهواء النقي إلى الغرفة ، فالمكان المظلم المكتئب لا تقرأ النصوص فيه بوضوح ، لأن الظلام يلقى على النص شحوبه فلا تبين حروفه .

كل شيء يمكن أن يكون واسعاً وضيقاً وكل فكر يمكن أن يكون منفتحاً ومنغلقاً وكل ثقافة يمكن أن تكون أنانية وإنسانية ، والعبرة في الإنسان فهو ثمرة المكان والزمان ، وهو أداة الفهم والاستنتاج ، ولابد من العناية بالإنسان وتعهده بالفهم العميق وتزويده بأدوات الرؤية ، لكي ينظر إلى بعيد ، من خلال نافذة إنسانية يرى فيها الكون بشموليته واتساعه ، فالأرض بكل ما فيها لا تتجاوز حجم القرية الصغيرة بأحيائها المتناثرة على أرضها .

بداية التأمل :

لاحظ الشيخ أن الطفل الصغير لم يعد كما كان ، بعد سن السادسة عشرة بدأت ملامح شخصية جديدة ، ليست هي الأولى ، وليست غيرها ، هي امتداد للمرحلة الأولى بخصوصيات ذاتية ، بدأ الاختيار والتمييز ، حوار داخلي مع الذات ، حوار يتجدد في كل صباح ، تساؤلات ملحة وبحث عن الذات ، أين موقعها في هذه المسيرة . . . . ؟!

الحوار مع الذات بدأ يتفاعل ، ويؤتي ثمراته في سلوكيات متميزة ، إنها رغبة في معرفة كل شيء ، محاولة للاستكشاف ومعرفة الآخر ، الآخر هو جزء من الواقع ، وهو حقيقة لا مجال لإنكارها . . .

واتجه اهتمامي إلى القراءة ، لأجل المعرفة ، قراءة كل شيء وكل الآراء وكل الفلسفات وكل النظريات ، ذلك هو الآخر الفكري وأصبحت من رواد دار الكتب الوطنية بحلب من الصباح إلى المساء ، وقراءة كل شيء بنهم عجيب ، في مجال الفكر والثقافة والأدب والرواية وأصبحت صديقاً لمفكرين كبار ولأدباء لامعين ، عرفتهم من خلال كتبهم وآثارهم ، وأحببتهم وأعجبت بما يكتبون .

اكتشفت عالماً جديداً من المعرفة ، متعة عقلية ومعرفة بفنون المعرفة وآفاقها ، رأيت الفضاء الفسيح بامتداده اللانهائي ، عبر الكون رأيت ضوءاً خافتاً خلف الجدران ، ولابد من اكتشافه والاستنارة بنوره . .

كان الشيخ يتابع كل ذلك باهتمام ، ويوصيني أن أحسن اختيار ما أقرأ في المرحلة الأولى ، حيث تكون القابليات قوية للاستفادة وادخار المعلومات ، فالنفس في بداية انطلاقها قد لا تحسن الاختيار إلا إذا كان تكوينها قوياً وراسخاً .

في هذه المرحلة التي امتدت لفترة سنتين كان البحث عن الذات واضحاً من خلال تلك الجولة الثقافية في عالم الكتب والمعرفة والثقافة ، وأصبحت أكثر

قدرة على فهم آراء الشيخ ومتابعة أحاديثه ومذاكراته ، اكتشفت البعد الإنساني في هذه الأفكار . .

أسلوب التلقي لم يعد كما كان ، أصبح التلقي أداة للفهم ، واكتشفت أن عالم المعرفة واحد لا يتجزأ ، وأن المعرفة لا تقود إلى ضلال أبداً فالضلال هو نتاج الجهل بالمعرفة ، ضلال المعرفة لا يخرج عن إطار التدافع للبحث عن الحق والصواب ، أما ضلال الجهل فهو ضلال مظلم ، وهو كالكهف المهجور الذي لا يدخله النور أبداً . . .

تذكرت كلام الشيخ وهو يقول لي : العلم كله محمود والمعرفة كلها نور ، فما يذم العلم لذاته ولا تذم المعرفة لذاتها ، وإنما يذم الاستخدام السيء للعلم بما لا يفيد الإنسان أو بما يضره ، فالذم يرتبط بالإنسان والإنسان الكامل يرتقي بمستوى فهمه لدور العلم في تكريس قيم الخير في المجتمع ، والمعرفة هي التي تعطي للفضائل السلوكية أبعادها الإنسانية لكي تكون في مستوى وعي الإنسان .

ولأول مرة بدأت أتأمل سلوكيات البشر كما هي ، فأرى فيها الجميل والقبيح ، وأميز فيها بين الحسن وغير الحسن ، واكتشفت أن الظاهر ليس هو الباطن ، وما يتراءى للناس من أنواع السلوك ليس هو الحقيقة ، وأن الدين له ظاهر مرئي وله باطن يدرك بالبصيرة ، وغاية الدين هو إصلاح الحياة والارتقاء بمستوى وعي الإنسان وسلوكه .

واكتشفت أن الشيخ على حق في توجيه اهتمامه إلى الأمراض الاجتماعية المتفشية في المجتمعات الإسلامية الملتزمة بأداء الفرائض الدينية ، وأهم هذه الأمراض الاكتفاء بالظاهر وإغفال الثمرة المرجوة ، والتي تحض على المحبة والألفة والإيثار والصدق والإخلاص . والابتعاد عن الأحقاد والأطماع والحسد والعجب والاستكبار ، فالعبادات في الإسلام هي فرائض عينية وهي في الوقت ذاته وسائل تربوية لتهذيب النفوس وتزكيتها والارتقاء بمستوى سلوكها ، لكي يكون الخير هو ثمرة الدين في المجتمع والعمل الصالح هو أداة التمييز والتفاضل بين الإنسان والإنسان ، وبين الشعوب والحضارات والثقافات . . . .

ما سمعته من الشيخ كان يمثل الركيزة الأساسية بالنسبة لي ، كل فكرة جديدة كنت أنظر إليها عبر التراث التربوي الذي ترسخ في كياني ، وكلما تفتحت لي فكرة جديدة أو لاحت لي من بعيد بارقة غير معهودة نظرت إليها من خلال القيم التي ترسخت في ذهني ، كنت مشدوداً إلى ذلك الموروث الروحي وكأنه يمسك بي بقبضته ويعيدني إليه ، كنت أسافر في رحلات بعيدة عبر تلك الفضاءات الثقافية وسرعان ما يشدني الحنين إلى وطني الأول حيث ولدت وعشت طفولتي الدافئة.

لا أدري هل كان ذلك شيئاً حتمياً بالنسبة لي أم إنني اخترت ذلك المسلك بمحض إرادتي ، لأنني أحببته ووجدت فيه ذاتي ، رحلاتي لم تنسني ذلك الحي الدافىء الذي أمضيت فيه طفولتي ، ذلك الصخب والضجيج الذي رافق حياتي الجديدة كان ممتعاً إلا أنني كنت أشتاق في أحيان كثيرة إلى ذلك السكون الروحي ، هو شوق إلى شيء ما لا أدري حقيقته.

عندما غادرت مدينة حلب في رحلتي الدراسية إلى دمشق والقاهرة كان الأمل يدفعني إلى اقتحام ذلك المجهول ، وبدأ التدافع والتغالب بين إرادتين إرادة البقاء وإرادة الرحيل ، وفي الحقيقة كانت الإرادة واحدة هي الرحيل في مواجهة الدفء الروحي والسكن النفسي ، إرادة الرحيل كانت هي الأقوى ، لأن الطموح لم يكن لأجل العلم ولا لأجل الشهادة ولا لأجل الشهرة والجاه وإنما هو طموح إلى الكمال ولا حدود للكمال. فالتعلق بالكمال يدفع صاحبه إلى المجهول حيث كان ، لأنه يرى في ذلك المجهول بحثاً عن الذات وهي رحلة شاقة إلا أن النفس تستعذبها وتميل إليها وتنساق وراءها.

في دمشق عالم جديد ، وفضاء فسيح ، كنت أحاول أن أجد ذاتي في تلك الفضاءات العلمية الواسعة ، أحببت العلم وتعلقت به ، وطرقت أبوابه واقتحمت حصونه ، أسعدني ذلك لأنني وجدت ذاتي من خلال الانصراف إلى العلم ، كنت أنهل من ذلك البحر الواسع وكأنني في حالة نهم مرضي..

لم يتوقف حنيني إلى أمسي القريب في مجالس الشيخ الروحية ، وبحثت عن ذاتي الأولى من خلال بحثي عن مظان هذه المجالس في البلدان التي أقمت

فيها ، ورأيت الجديد في أشكال مختلفة ، رأيت طقوساً منقولة ومكررة ، واكتشفت أن عالم الروحيات هم العالم الأكثر غموضاً والأقل استقامة ، والصادقون فيه قلائل ، والمخلصون فيه نوادر ، كلهم يدعون وصلاً بليلى ، طمعاً في دنيا يصيبونها أو جاهٍ يلتمسونه عند عوام الناس ، والجهل فيه فاش بين الأتباع والطمع فيه ظاهر بين أدعياء الولاية ، والاستقامة فيه قليلة . . .

رأيت مخلصين صادقين هم مظان الصلاح والولاية ، إلا أن ظاهرهم لا ينبىء عن حقيقتهم ، تراهم وتعجب باستقامتهم ودينهم ، إيمانهم عميق وعبادتهم صادقة ، ليسوا بأهل دعوة وطريقة ، قلوبهم معلقة بالله ، إذا رأيتهم رأيت إشراقة النور في وجوههم ، هؤلاء ممن يرجى دعاؤهم يعملون الخير لأنهم لا يحسنون غيره .

ومن المؤسف أن تختلف الأمور وأن يدعي الجهلة انتماءهم للتصوف ، ومعرفتهم بأسراره وأحواله ، ويتكلمون بما لا يفهم من الأفكار والأحوال ، فيغتر العامة بما يسمعون ، طمعاً في رزق يبشرون به ، وجاه يبحثون عنه ويرجون أن يسمعوا من أخبار الغيب ما ترتاح إليه نفوسهم ، وهذا دليل على الجهل بالإسلام ، وليست هناك آفة تقود المجتمع إلى التخلف مثل الجهل بأمور الدين .

كنت في مثل هذه المواقف استحضر شخصية الشيخ ، وأقارن ما أسمعه بما كنت أراه قبلاً من حياة الشيخ وصدقه في كلامه فتعود لي الثقة بأصالة هذا النهج ، ولولا ما كنت أعلمه وأراه واشاهده لأنكرت حقيقة هذا الأمر وحذرت من خطره ، بسبب ما أصاب هذا المنهج الصوفي من تشويه وتضليل على يد من ادعوا المشيخة الصوفية وهم عنها مبعدون بسبب تعلقهم بمطامعها الدنيوية ، واستغلالهم جهل العامة للتحكم في عقولهم . . .

ابتعدت كلياً عن هذا الطريق الذي اكتشفت الجديد من أمره ، لم أنكره لأنني نشأت في رحابه النظيفة وآفاقه الأخلاقية وقيمه الأصيلة ، ولم أقبل صورته القاتمة كما بدت لي من خلال ما رأيته ، وأقبلت على العلم لعلي أجد

فيه الصورة المثلى النقية الصادقة ، ولا يمكن للعلم إلا أن يكون مضيئاً للعقول. . . .

طريق العلم. . . وتساؤلات الآخر :

أحببت العلم بكل عواطفي ، وشغلت نفسي به ، رأيت فيه الصباح الذي يبشر بالحياة ، فالعلم خير كله ، لأنه أداة المعرفة ، ولم أفرق بين علم وعلم ، ولم أميز بين علوم شرعية أو قانونية أو أدبية ، فالمعرفة واحدة ، وكلها تفتح آفاق الرؤية أمام العقول ، وتعلقت بالعلوم التأملية والاستدلالية التي تعتمد البراهين والأدلة والمرتبطة بالأحكام الواقعية ، وليس في مجال العلوم الكلامية ، ذلك منهج جدلي لا يفيد في مجال العقيدة ، ولا يؤدي إلى مزيد إيمان ، لأن أصحابه لا يريدون به ترسيخ العقائد وإنما يريدون به تأكيد براعتهم في الجدل لكسب المكانة في عيون الخلق والتفوق على الآخرين.

في كل خطوة من خطواتي العلمية التي استمرت لمدة طويلة كنت أشعر بذلك الاخر الذي يسير معي ويرافقني ، ويراقبني ويحاورني في كل خطوة ، كان ذلك الآخر هو ذلك الموروث القديم الكامن في كياني ، إنه الصديق الذي كان يلازمني ولا ينفك عني ، كان معي في كل خطوة ، أهرب منه فينتصب أمامي فجأة ، أخاصمه حيناً فلا يخاصمني ، أراه في كل زاوية أمشي فيها ، في دروبي وطرقاتي ، في صحوي ونومي ، في لحظات الصفاء وفي لحظات الكدر ، أحياناً أضيق به فلا يفارقني ، في لحظات ضعفي ألجأ إليه راضياً وبإرادتي واختياري فيريحني بكلماته الحانية ويمسح دموعي في لحظات حزني وألمي ، وفي لحظات قوتي يقف في دروبي يراقبني ويهمس في أذني ، لا أدري لماذا أحببته بالرغم من كل قسوته علي ، ولا أدري لماذا أحبني ، من المؤكد أنه أحبني أكثر مما أحببته ، كان وفياً لي ، لم يتخل عني قط عندما أحتاج إليه ، وربما كنت في أعماقي أحبه كما يحبني ، عندما يكون بجانبي كنت أشعر بالسكون والطمأنينة ويمنحني القوة الذاتية في مواجهة الواقع ، كان يحاورني بهدوء ويريحني.

وذلك الآخر لا أعرف من هو ، هل هو شيء مني أم هو خارج عني ، هل

هو أنا أم غيره ، هل ما أراه هو صورتي كما أراها في المرآة ، هل هو ذلك الموروث من القيم والمفاهيم ، هل هو ضميري الذي رافقني منذ طفولتي ولم يغادرني .

في كل خطوة كان ذلك الآخر في حياتي وفي كياني ، لم يتوقف الحوار بيني وبينه قط ، كان حواراً دائماً ومتصلاً ، وكان دائماً هو الأقوى في حججه وأدلته ، كان يغيب أحياناً فاحسب أنه ذهب ولن يعود ، فاشتاق إليه وآنس به ، وفجأة ينتصب أمامي بملامحه المعهودة لم يكن متجهماً أو عابساً ، كان دائم التفاؤل والابتسام ، لم يضيّق عليّ الخناق في حياتي وإنما كان يوقظني إذا غفوت ، ويشد من عزيمتي إذا ضعفت ، وأروع ما فيه أن له فلسفة خاصة به ، ولغة متفردة ذات دلالات غير معهودة ، كنت أفهمها جيداً عنه ، كان يفسر لي الأمور بطريقة غير مألوفة ولا مفهومة ، ومع ذلك كنت أفهم لغته وكانت تريحني وتمدني بالقدرة على مواجهة الأزمات العارضة ولو كانت قاسية ، وكنت في أشد المواقف صعوبة أجده إلى جانبي مسانداً ومعاضداً بابتسامته المعهودة فيمنحني القدرة على التفاؤل . . . لغته متفردة في تفسير الأحداث والوقائع ، وكأن كل شيء معدّ بدقة وإحكام ، فكل ما يصادفني من خير أو شر فهو وليد حكمة ، والعقبات والأزمات هي ابتلاءات مكتوبة غايتها الترقي من حال إلى حال ، والذنوب أفعال مستقبحة لكي تعيد أصحابها إلى ربهم بالذل والانكسار ، والأبواب إذا أقفلت فما أقفلت إلا لحكمة مرجوة ، ولكي تفتح على رحاب أوسع مكاناً وأكثر جمالاً ، والشعور بالغربة والوحشة بعد النكسات هو عناية لكي تشعر بالأنس بالله ، والفرحة بالعطاء غفلة واستدراج إلا إذا رأيت النعمة من المنعم رعاية لك ، والتعلق بالأشياء طريق للشقاء وهو دليل الغفلة ، والدنيا لمن أعرض عنها بقلبه ، ولا يمكن الزهد في شيء إلا إذا وقع التعلق بما هو أدوم وأبقى ، والدنيا مذلة لمحبّيها ما لم يعرضوا عنها بقلوبهم لا بأبدانهم .

كانت هذه اللغة غير مفهومة لدى الآخرين ، وكنت أرتاح لهذه المعاني ، وأجد فيها ذاتي ، وكان صاحبي الذي يلازمني يمدني بهذه التلميحات ، في لحظات معينة كنت أرفضها وسرعان ما أركن إليها ، لأجل نفسي لا لأجل

الآخر ، وكنت كلما اكتسبت جديداً في مجال العلم والمعرفة ترسخت هذه المعاني في كياني وتأكدت في أعماقي . . .

شكوت إلى الشيخ يوماً من أمر ذلك الطيف الذي يلازمني في كل أسفاري ورحلاتي واهتماماتي فابتسم طويلاً وكأنه يعرف أمره ، لم يسألني عنه ، ولم يستفسر عن أحواله ، أجابني بكلمة قصيرة ، ذلك هو حبك لي ، تلك هي الرابطة بيني وبينك حيثما كنت .

أسعدني هذا الجواب . . . شعرت كأن المسافة بيني وبين الشيخ قصيرة ، بل ليست هناك مسافة ، لا زمان ولا مكان ، «فالأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» .

الزمان والمكان وهم وحجاب ، فإذا انتفت الحجب فلا زمان ولا مكان ، فما استودع في الطفولة في القلوب والعقول قلما يزول ، كحبات الزروع والزهور التي ترمى في الأرض ، لا تموت ، عندما يحين موعد نمائها تتحرك داخل التربة ، تدافع التراب ، وتخترق كل الحجب التي تغطيها ، وتبحث عن الحياة .

لم يكن ذلك الآخر بالنسبة لي وهماً أو خيالاً أو حلماً ، كان حقيقة ، كان الحوار دائماً بيني وبين ذلك الآخر في أعماقي ، كل فعل من أفعالي . . كل خطوة من خطواتي يسبقها حوار داخلي ، فما يظهر في العلن هو ثمرة لذلك المكنون في الباطن ، محاكمة مستمرة لا تتوقف ، كل أنواع السلوكيات والمواقف يسبقها حوار داخلي مع الذات ، والذات الخفية بمقوماتها وبالمخبوء فيها وبالمستودع في خزائنها هي الآخر بالنسبة للذات الظاهرة التي لا تملك حرية الاختيار فيما تختاره من سلوكها ، هي مدفوعة إلى ذلك بقوة داخلية فإن كان الآخر حسناً وجميلاً ونظيفاً كان الظاهر مرآة له ، وإن كان مملوءاً بالعفونات الفاسدة والمتخيلات السيئة كان الظاهر كذلك . .

عندما أخذت مكاني في مقاعد التدريس في الجامعة وأخذت أنصت لأعلام الفكر وهم يتحدثون عن القضايا العلمية في علوم الشريعة وعلوم القانون والعلوم الإنسانية ، كنت أحاور نفسي في لحظات التأمل عن معنى العلم ،

وعن دور العلم في مقاومة الجهل. كنت أكره الجهل وأجده المرض الذي لا ينفع معه أي علاج ، فلا شيء كالجهل ينحدر بمستوى الإنسان ولابد من التصدي للجهل بكل الأسلحة الممكنة.

ولكن ما هو المراد بالجهل؟ وما هو العلم الذي يقاوم الجهل؟

العلم هو معرفة الشيء على ما هو عليه في حقيقته ، وهم أعم وأشمل من مفهوم العلم المقرر في المناهج الدراسية ، ولابد في العلم من ظهور ثمرته وهي المعرفة بالأشياء ، فإذا أظهر العلم ثمرته فهذا هو هدفه المرجو منه ، وإذا لم يؤد هذه الثمرة فلا رجاء في هذا العلم.

تذكرت كلمة الشيخ وهو يقول لي: أول ثمرات العلم أن يثمر في ذات الإنسان ، وأن يزهر في كيانه معاني الخير والفضيلة ، فإذا لم يثمر في ذات الإنسان فلا خير في هذا العلم ، وغاية العلم العمل فإذا لم يثمر العلم العمل فهو جهد ضائع . . .

ودفعني الفضول إلى التأمل والتتبع أبحث عن الثمرة المرجوة في ذات العالم والمتعلم فلم أجد الثمرة ، كانت الأشجار جرداء صفراء ، أغصانها عالية وأوراقها شاحبة ، وجدت مؤسسات للعلم ولم أجد قدسيات العلم ، وجدت الاهتمام بفروع الأحكام ولم أجد اهتماماً بحقائق الأحكام وما تهدف إليه من الارتقاء بمستوى سلوكية الإنسان ، رأيت الجامعات والمعاهد كأنها مؤسسات لتكوين الكفاءات المهنية في مختلف العلوم الشرعية واللغوية والعلوم الإنسانية والمهن العلمية ، ولم أجد الجامعات التي تعني بتكوين إنسانية الإنسان وتلقينه بالمعرفة التي تعمق في كيانه حب الكمال والتعلق بالفضائل الإنسانية.

كان الآخر في كياني يرقب ذلك ويوجه اهتمامي إلى ذلك البعد المهجور والمنسي والمتجاوز ، كان الكل في سباق متواصل ، وكل فرد يبحث عن ليلاه في ذلك الفضاء الواسع ، ولم يكن أمامي أي خيار ، لابد من مواكبة المسيرة في سيرها ، أو الانسحاب منها ، لم يكن الانسحاب ممكناً ، ولابد من

الاندماج في هذا المجتمع ، فهذا هو الممكن ، ولابد من التماس العذر للناس فيما هم فيه.

وخضت ذلك البحر المحيط أتأمل ملامحه العجيبة ، وارى أمواجه المتصارعة ، واجد أسماكه القوية تلاحق الأسماك الصغيرة الضعيفة وتبتلعها بشراهة ، الأقوياء يحكمون ، والضعفاء يقاومون فيلقون حتفهم في أحشاء الكبار ، وسرعان ما يتعلمون كيف يستسلمون ، لا لكي يدفعوا الموت عنهم ولكن لكي لا يساقوا إلى الموت قهراً وذلاً.

ليس عجباً أن تتجه الجامعات إلى تكوين الكفاءات العلمية في مجالات الحياة المختلفة وإنما العجيب أن ينصب الاهتمام على تكوين المهارات والكفاءات وليس على تكوين الإنسان ، فالإنسان هو أداة التقدم والتخلف ، فالطبيب الإنسان هو المؤهل لحماية الأرواح والدفاع عن الحياة ، والمهندس الإنسان هو الذي يتقن عمله ويعمل بصدق وإخلاص ، وعالم الشريعة المتخلق بأدب الإسلام هو الذي يعطي القدوة لطلابه ولمجتمعه ، فتكون كلمته صادقة ومؤثرة ، ولا شيء يسيء للإسلام كما يسيء إليه علماء الدين عندما يتنافسون على الدنيا ويتزاحمون على أبواب الحكام طلباً للجاه والمنصب والرياسة فيدفعون ثمن ذلك من كرامة العلم ويفرطون فيما أؤتمنوا عليه من كلمة الحق.

والعلم ليس نقيض الجهل بمفهومه المرتبط بالأمية ، وإنما هو نقيض كل ما يفعله الجاهلون مما لا يليق بكرامة الإنسان من الطمع والحقد والحسد والكبر والنهم فالجاهل يفرط بكرامته في سبيل ما يطمع فيه ، ولا يفعل العالم ذلك ولا يليق به أن يفعل ذلك ، لأن ذلك من أفعال الجاهلين.

العلم والأدب:

وعلم الشريعة هو العلم الوحيد الذي لا ينفصل فيه العلم عن الأدب ، ولا تتناقض فيه الحقوق مع العدل والفضيلة ، وعلماء الشريعة هم رموز للاستقامة والنزاهة ، يتميزون عن غيرهم بنقاء الباطن وصفائه ، يعملون لله ويخلصون في أداء رسالتهم ، إذا ضل المجتمع طريقه كانوا الأمل في هدايته ، وإذا فسدت النفوس كانوا رموز الصلاح والإصلاح.

وفوجئت وأنا أتابع دراساتي الجامعية أن دراسة الفقه لا تختلف عن دراسة القانون من حيث الموضوع ، وأن الأحكام متقاربة ومتشابهة ، والفقيه وهو يعرض مادته العلمية لا تجد فيها روحية الأحكام وتميزها عن غيرها ، وهي علم ولا علاقة لها بالعمل ، ويدرس الدارس ظاهرها بما تدل عليه الأدلة والبراهين العقلية وينسى ما تتضمنه من أداب وما تريد تحقيقه من غايات ، وهذه المنهجية تزود الباحث بالعلم ولا تعلمه أخلاقيات العلم ، فالعمل ليس ثمرة للعلم وحده ، وإنما هو ثمرة للتربية والتكوين السليم ، وهذا هو الخلاف الجوهري بين منهجية السابقين من علماء السلف ومنهجية اللاحقين ، منهجية السابقين كانت تثمر العمل الصالح ولذلك ارتبط العلم بالعمل ، وكان العالم رمزاً للوطنية والاستقامة والنزاهة ، وإذا تحرك تحركت الأمة بحركته ، وإذا غضب دفاعاً عن الحق والفضيلة اهتزت الأرض وجلاً من غضبه.

لم يعد الأمر كذلك في مؤسساتنا الدينية ، ضعفت رموزها واهتزت مكانتها ، وفقدت رصيدها في المجتمع ، وأصبح العلماء يبحثون عن دنياهم كما يفعل غيرهم ، ويفرحون فيما أوتمنوا عليه من مساندة المستضعفين والدفاع عن الحقوق.

ما تعلمته من الشيخ كان شيئاً مختلفاً ، كان يريد تكوين العالم العامل بعلمه ، الذي يدافع عن الحق ، ذلك هو العالم الذي يستحق لقب العالم ، تلك هي الحوارات الداخلية التي كنت أخاطب فيها ذاتي ، مجرد حوار ، كان هاماً وهادئاً ، وسرعان ما هدأت العاصفة في كياني ، وصمت ذلك الصوت الداخلي ، وتوقف الحوار.

ما زالت تلك البذرة في كياني ، لم تمت ، ولا يمكن أن تموت ، فبذرة الخير إذا زرعت في الأرض الخصبة لا تموت أبداً ، أصبحت هذه البذرة هي الآخر بالنسبة لي ، الذي يحدثني وينتقدني ويحاسبني فيما بعد ، سرت فيما سار فيه غيري ممن كنت أنتقده ، لم أتميز عن أسلافي بشيء ، اخترت الطريق الذي اختاروه ، شغلت نفسي بالعلم وكتبت مؤلفات عدة في الفكر الإسلامي.

كان الآخر يقول لي فيما بعد ، ليس هذا هو الطريق ، وعندما كنت أقلب

صفحات كتبي الأولى أجد ما كتبته لا يختلف عما كتبه غيري ، العلم ولا شيء آخر مما لم أجد فيها روحية العلم ، بل أجد فيما كتبته تكريساً لواقع قديم وليس تصحيحاً له ، فنحن نكتب عن فكر العلماء المسلمين كما صوروه وسجلوه ولا نكتب عن فكر الإسلام كما يجب أن يكون ، فكر المسلمين هو مرآة لواقعهم وقد سجلوه كما هو ، وفكر الإسلام لم يسجل في حقيقته ، وإنما سجلت الأجيال ما أخذته من الإسلام بعد أن صاغوه بلغة حاجاتهم ومتطلباتهم ، فكر الإسلام متجدد في كل عصر ، كشجرة تعطي ثمرتها في كل عام ، والثمرة الجديدة ليست هي الثمرة القديمة ، هي شيء جديد في طعمه ومذاقه وشكله.

أخلاقية العلم:

في خريف العمر رأيت ذلك الآخر في كياني يصحو بنشاط ويسيطر على تفكيري ويزاحمني ، ويقتحم معاقلي العلمية ، ويكاد أن يقتلع حصوني التي بنيتها على امتداد سنوات طويلة ، أصبحت أنا الهدف من حركته ، أخذ يحاسبني عما قدمت من أعمالي العلمية ، ويسألني بإلحاح عما إذا التزمت بما كنت أطالب به غيري.

قلت مرة أمام طلابي في الدراسات العليا في المغرب: «لقد فشلنا في مهمتنا ، لقد أعطيناكم العلم ولكننا لم نعطكم أخلاقية العلم». كنت صادقاً في كلمتي ، وشعرت أن من واجبنا أن نعيد النظر في مناهجنا العلمية وأساليبنا التربوية ، لكي نسهم في تكوين شخصية العالم قبل أن نزوده بسلاح العلم ، فالجندي قبل أن يحمل السلاح لابد من استكشاف قوة عضلاته وصلابة أعصابه.

فالعالم الذي يحمل العلم وليس مؤهلاً له يسيء للعلم ، لأنه ينحدر بمستواه لكي يكون وسيلة للمعاش ، وليس العلم هو الغاية.

وتذكرت كلمة الشيخ وهو يتحدث عن اليقين ويتساءل: كيف يصنع أصحاب العقول إذا اكتشفوا في خريف عمرهم أنهم كانوا على خطأ فيما اختاروه ، ولابد من اليقين لكي لا يضيع العمر في البحث عن الحقيقة التي تتوهمها العقول.

ولابد من ذلك الآخر في كياننا ، لأنه يوقظنا من الغفلة والنوم العميق ، ذلك الآخر قد يقلقنا بإلحاحه ومراقبته إلا أنه المنقذ الذي يمسك بيدنا عندما نخوض الأنهار العميقة ونشعل ضوءه في دروبنا الضيقة والمظلمة .

ليس المهم من يكون ذلك الآخر ، قد يكون الضمير الحي الذي أودع في كياننا في أيام الطفولة ، ووجد الرحم الدافىء الذي احتضنه ووفر له شروط الحياة والنماء ، وقد نطلق عليه اسم الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وهي كامنة وفي أعماق ذاتنا لا تموت أبداً ، ولكن يمكن أن تكون شاحبة عليلة بتأثير البيئة الفاسدة والتربية السيئة ، ويمكن لهذه الفطرة أن تستقيظ فجأة في لحظة ما في حياة الإنسان .

في لحظة صفاء روحي ، تسمع كلمة ناصحة صادقة مخلصة فسرعان ما تدخل إلى الأعماق ، فتحرك ما هو كامن من إرادة الخير .

في الطفولة الأولى تكون الفطرة نقية طاهرة نظيفة ، ثم تتلون باللون الذي يحيط بها ، فقد تصبح قاتمة وكئيبة بتأثير الذنوب التي تألفها ، وقد تظل كما هي في لونها الأبيض الصافي ، فإذا لم يلامس التشويه جوهرها فسرعان ما تعود إلى صفائها الأول ، عندما تسمع صوت المنادي يذكرها بما جبلت عليه من حب الخير .

ويصبح التصحيح هدفاً مرجواً ، وتكون النفس مستعدة له مهيأة لرحلة العودة إلى ربها ، كما هو الشأن في كل المخلوقات ، تنجذب إلى الأصل ، كما تنجذب الكواكب إلى الشمس ، والتوبة هي الخطوة الأولى في التصحيح ، والمراد بها الرجوع إلى الطريق الذي أراده الله ، بعد الضلال عنه بتأثير الغرائز والميول الشيطانية ، ولا يتحقق هذا الرجوع إلا عندما ينير الله البصيرة فيدرك بها الغافل مواطن الطريق ، فيشرح الله صدره لهذا الطريق ، فيلتزم به ، ويجد لذته فيه ، والتوبة ليست كلمة تقال وإنما هي شعور وجداني داخلي يحرك القلب ويدفع الجوارح ويوجد الاستعدادات لما يريده الله من عباده من الأعمال الصالحة . .

قبل أن نعلم الآخرين الإسلام علينا أن نتمثله في حياتنا كفكر وسلوك ، وقبل أن نلقنه لأطفالنا علينا أن نشعرهم بأنه في قلوبنا وقبل أن نكتب عنه في الكتب والمجلات علينا أن نتخلق به في سلوكنا ، ذلك هو طريق البداية ، وليس هناك أحد خارج نطاق المسؤولية عما يفعل ، فالكل محاسب ، وعليه أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسبه الآخرون .

هذا ما كان الشيخ يردده في كل مجالسه ، وهذا ما أودعه في قلوبنا ، ليس المهم أن نتجمل في ظاهرنا ، وإنما المهم أن يكون الباطن نظيفاً ، والذين يعملون لأجل الخلق طلباً في جاه ومنزلة في قلوب الناس سرعان ما تمحى كلماتهم من القلوب ، فلا تنشرح لها وقد تضيق بها .

في كل موقف كنت أقارن بين ما تربيت عليه وما لُقّنْتُه في الطفولة وما أواجهه في كل يوم من وقائع وأحداث ، وما أتعلمه في الحياة من دروس ، ولاحظت أن الواقع شيء آخر يختلف كلياً عن المثالية المطلقة ، ليس فيما هو جديد ، وإنما فيما هو قديم ، فما نقرأه في كتب التاريخ يؤكد لنا أن الإسلام في حقيقته ليس هو الإسلام في واقعه ، فالواقع يخضع لطبائع البشر وسنن الكون وقوانين الحياة ، والحياة الإنسانية ليست خارجة عن سلوكيات البشر المعتادة في المعاملات والحروب والتدافع بين الشعوب والتغالب بين الأقوياء والضعفاء .

وعندما كنت أقرأ الفكر الإسلامي كنت أجد أثر الإنسان في توجيه هذا الفكر والتحكم في مساره ، لكي يكون واقعياً وممكناً ، إلا أن سلطة الإنسان في التوجيه قد تشوه صفاء هذا الفكر ، وهي لا تريد التشويه وإنما تريد أن تقربه من الواقع ، وأن تقنع المجتمع بواقعيته من خلال التحكم في مساره ، وهذا منهج قد يفيد على المدى القصير ويغنيه بالأسرار والاجتهادات ، إلا أن ذلك قد يبعده عن ينابيعه الأصلية وقد يجعل ملامحه مختلفة عن ملامحه الإنسانية المتميزة ، ولابد من العقل البشري لإغناء الفكر وتفسير نصوصه ، إلا أن ذلك يجعل المقود بيد العقل ، وتخضع النصوص لما يريده الإنسان مما يلبي له حاجاته التي يراها ضرورية لواقعه .

والتساؤل الذي يطرح نفسه باستمرار ، ماذا يريد الإسلام أن يحققه في المجتمع ، وكيف يمكن معرفة ذلك المراد . .

ومن اليسير أن نقول ما يريده الإسلام هو ما يريده الله ، ومراد الله هو ما يجب أن يتجه إليه الإنسان وأن يحب ذلك المراد ، فمن أحب الله أحب كل ما يريده الله .

ولكن كيف يمكن للإنسان أن يعرف مراد الله ؟ وإرادة هذه المعرفة هي الإنسان نفسه بقدراته العقلية ، وهل يعرف ذلك المراد بعقله أم بقلبه ؟ ولا يمكن للعقل البشري أن يتحرر من طبيعته الغريزية التي تزيّن له الأشياء التي يميل إليها الطبع ، والعقول تختلف بحسب مكوناتها الغريزية .

ومراد الله هو ما تطمئن إليه القلوب الصافية الطاهرة التي تتعلق بحب الله ، وتؤثر الله على كل شيء ، فلا تتعلق بأي شيء يشغلها عن الله ، تقبل على الله وتعرض عن كل شيء آخر ، ويتمثل مراد الله في تصحيح العقيدة بالإيمان بالله وعدم الشرك به وعدم اتخاذ أرباب من دون الله ، وهذا هو معنى التوحيد واستشعار معنى الربوبية في القلب ، لكي يتحرر من الخوف والعبودية لغير الله ، ثم يكون الركن الثاني ، وهو عمل الصالحات التي تنفع الآخرين من خلق الله ، فلا يكون في ذلك ظلم ولا تجاوز وهذا يحتاج إلى إصلاح الباطن الذي يهيء الإنسان لعمل الخير أو الشر .

ومهمة العالم أن يعلم الإنسان معايير الخير والشر وضوابط الحق والباطل ، لكي يتمكن الإنسان من معرفة ما يجب عليه سلوكه لكي يفعل ما يريده الله . . .

هذا هو العلم النافع والمفيد ، وما عداه لا يفيد الإنسان ويمكن الاستغناء عنه .

التصرف . . . والاختيار :

كنت أسأل نفسي عن حقيقة التصوف ، هل هو شيء محمود أم مذموم ، ولا أدري إذا كنت أحبه أو لا أحبه ، أنتمي إليه أو لا أنتمي إليه . . أدافع عنه أو انتقده .

لم أكن أنتمي إلى السلفية المتطرفة ، كما لم أكن أنتمي للصوفية المتزمتة ، كنت أشعر في كياني بحب للقضايا الروحية ، وكنت أحياناً استعمل لغة أهل التصوف ومصطلحاتهم ، إلا أنني كنت أقف عند خطوط حمراء لا أتجاوزها ، لأنني أجدها ، منطقة غامضة غير مقنعة ، وبخاصة ما تعلق منها بالطقوس الصوفية التي تشوه صفاء القلوب . .

كنت أحب صفاء القلوب ، ولكن لا أحب تلك المبالغات والشطحات والسلوكيات المنحرفة ، أحببت نقاء الصوفية وما أحببت طقوسها التي تحرص على التمسك بها الطرق الصوفية للحفاظ على وجودها . . .

لم أجد في معظم الطرق ذلك الصفاء الروحي ، وإنما وجدت سحباً كثيفة من الحجب التي تشغل القلوب عن التعلق بالله ، رأيت الدنيا في هذه الطرق ولم أجد الآخرة ، رأيت الظاهر ولم أر الباطن ، رأيت القشور ولم أر الحقيقة ، ورأيت الغرور والرياء ولم أجد الصدق والإخلاص . .

ومن خلال رحلاتي في هذه الدروب رأيت رجالاً صادقين مخلصين لا يعرفهم أحد ، ولا يريدون أن يعرفهم أحد ، أهل استقامة ونزاهة وورع ، يحاسبون أنفسهم في كل صباح ومساء ، ويفعلون الخير لأنهم يحبون الخير ، قلوبهم معلقة بالله وأبصارهم شاخصة نحو السماء ، ليسوا أهل طريقة ، ولا يعرفون ذلك العالم الكثيف الذي ينطوي على انحرافات خطيرة في المعتقدات والسلوكيات . . . وتذكرت كلمة الشيخ وهو يقول : بأن الصادقين يقودك صدقهم إليهم وينشرح صدرك للقائهم ، ولا تجد فيهم غروراً ولا إدعاء ، تحجبك بشريتهم عن خصوصيتهم ، لا ينسبون لأنفسهم شيئاً مما يفعلون بل ولا يجدون أنفسهم فيما يفعلون ، قلوبهم شاخصة لله تعالى . . .

وأدركت أن الصوفية ليست مجرد انتماء والتزام بالطقوس ، وإنما هي خُلُق ، فمن تميز عليك بخُلُق فقد تميز عليك بالمكانة ، وهذا هو الأساس في الصوفية الحقة ، صوفية التربية والخلق الحميد ، وهذا التزاحم في الطرق على الجاه والسمعة والمكانة هو مناقض لحقيقة التصوف ، وكيف تستقيم دعوة التصوف إلى الإعراض عن الدنيا بالإقبال عليها والبحث عن أسبابها . .

والصوفية في حقيقتها سمو في الهمة وبحث عن الكمال ، وارتقاء بمستوى التعلقات إلى أفق رحب من قيم الخير ، وتتميز الشخصية الصوفية بشفافية روحية رائعة لا نجد مثيلاً لها في الشخصيات العلمية المحجوبة بتأملاتها العقلية عن إشراقات القلوب في لحظات أحوالها ، وقدم لنا التاريخ لمحات من تاريخ هذه الشخصيات التي أنارت مجتمعها بآثارها الإيجابية ، فكانت المثل الأعلى في سلوكها وفي قيمها وفي دفاعها عن القيم الإنسانية .

وتأثرت الصوفية بالواقع الاجتماعي المحيط بها ، وبخاصة في فترة التخلف العلمي والثقافي والحضاري ، فكانت هي نتاج ذلك الواقع الذي شوه نقاء الصوفية الأولى بسلوكيات خاطئة ومنحرفة ، ولابد من تصحيح هذه الصورة بالبحث عن حقيقة التصوف . .

إن صوفية السلوك والوجدان والتزكية أعطت خلال التاريخ عطاءها المتميز وأثمرت فكراً أخلاقياً راقياً ، أما صوفية الطقوس والمبالغات والشطحات فقد شوهت الصوفية الحقة وأساءت إليها وانحرفت بعض الطرق عن أهدافها الأخلاقية إلى تكوين عصبيات متصارعة ومتنافسة تبحث عن الدنيا وتستغل عوام الناس وعواطفهم باسم الدين . .

* * *

الفصل الثالث

آثار الصحبة

لكل صحبة أثر في حياة الإنسان ، قد لا يدرك المرء ذلك الأثر في أثناء الصحبة ، ولكن لابد له من إدراك ذلك فيما بعد ، وصحبة الطفولة هي الأكثر أثراً ، لأنها تمثل المرحلة الزمنية التي يكون فيها الطفل في مرحلة القابلية للاستفادة ، مرحلة الادخار والاكتناز ، كل شيء يراه يطبع في ذاكرته ، ويبقى طويلاً في تلك الذاكرة ، إلى أن يأتي الوقت الملائم لاستخراج ما في الذاكرة مما اختزن فيها في زمن الطفولة من مشاهدات وأقوال وأفعال. . .

كلمات كثيرة سمعتها وظننت أنها ماتت في كياني ، لأنها لم تترك في نفسي أثراً في حينها ، وقد أكون قد قبلتها على مضض ، وقد أكون قد نسيتها ، ثم فجأة اكتشف بعد عشرات السنين أنها موجودة ، أستعيدها ، أخرجها من مخبئها ، أراها ما تزال حية قوية ، أقوى مما كانت ، تلك مرحلة الادخار وقد مضت ، ثم تكون مرحلة الإنفاق ، حيث تخرج ما ادخرته من مستودعه ، لكي يلهمك موقفاً أو يعلمك حكمة.

ذلك هو الإنسان ، ما كان في عالم الطفولة لا ينسى أبداً ، بكل مكوناته وبكل تفاصيله ، وكأنه ادخر ليوم ما في مستقبل الإنسان ، يستعيد ذلك الموقف أو تلك الكلمة ، يكررها في ذاته ، يرددها ، يتلذذ بدلالاتها التي لم تكن مفهومة في حينها ، وكأنها قيلت للغد وللمستقبل ، لكي تنفع صاحبها في ذلك الليل المظلم الذي يحتاج فيه الإنسان إلى شمعة تضيء ليله ، قد يكون وحيداً وقد يكون حزيناً وقد يكون بحاجة إلى كلمة تواسيه وتفرحه ، هذا هو الإنسان

يدخر ثم يستهلك وينفق مما ادخره لنفسه ، من ماله لا من مال الاخرين ، هو الوحيد الذي يمكنه أن يعرف ما يحتاج إليه ، هو يعرف جيداً داءه وآلامه ، ويعرف الدواء الذي يريحه ، كلمة مواساة قد تريحه ، كلمة أخرى قد تميته ، هو الذي يعرف ولا أحد غيره يعرف ، هو صاحب التجربة ، هو الذي يختار من مستودع ذاكرته مدخرات الطفولة ، مواقف ، ذكريات ، جراح ، كل ذلك هو رصيده الباقي ، هو ثروته التي يمكن أن يحافظ عليها ، وهي ثروة لا تنضب أبداً ، قد تفتح له باب الأمل وباب الغد وباب المستقبل .

الإنسان لا يتعلم من غيره أبداً ، وإنما يتعلم من ذاته ، من تجربته الخاصة ، من آلامه ، كل شيء يمكن أن يكون ثروة ، ليست الثروة هي المقتنيات فقط ، هذه قد تزول وقد تسرق وقد تشوه ، أما ما في النفس فلا يزول ، يستعيدها الإنسان لكي تمده بأمل جديد ، وتفسر له غامضاً من المواقف ، تعلمه كيف يحيا ، وكيف يوقد الشمعة في ليلة مظلمة ، وكيف يقف على رجليه بعد سقوط كبير ، تعلمه أنه محمول على الأكتاف بفضل العناية الإلهية التي تطوقه في الأوقات العصيبة ، تعلمه أن الحياة لا تتوقف أبداً ، ليل يعقبه نهار يعقبه ليل ولولا الليل لما عرف الإنسان فضل النهار عليه وانتظر قدومه لكي يشرق في قلبه . . . ليس المهم الليل والنهار ، وإنما المهم أن يشرق النور في القلب المظلم ، وأن يضيء ظلمة اليأس وأن يحيي الأرض بعد مواتها ، ذلك هو أثر ذلك الرصيد المدخر في مستودعات الذاكرة ، ذلك هو الموروث الذي ينتقل من الآباء إلى الأبناء ومن المعلم إلى المتعلم ، ومن المرشد إلى المسترشد .

تذكرت كل ذلك . . الطفولة بكل ذكرياتها استيقظت ، وكأنها أمس قريب ، تخاطبني ، تعلمني ، تنصحني ، تسدد خطاي ، نسيت الأمس القريب وأصبح بعيداً ، وتذكرت الأمس البعيد وقد أصبح قريباً مني ، أصبحت اشتاقه واستلذه . . بعدما كنت زاهداً فيه ، مفرطاً بكل ما ارتبط بذلك الماضي . . . تذكرت الشيخ وأنا أحدثه عن المستقبل وكيف يجب على الإنسان أن يفكر فيه ويخطط له ، كنت أظن نفسي سأسعده بما أقول ، أردته أن يكتشف في

شخصيتي وعياً مبكراً وطموحاً محموداً إلى الأفضل ، غضب الشيخ وأعرض ، وحسبته أنه يريد لي المستقبل الأكبر.

قال لي: **لا ولدي. المستقبل بيد الله وليس بيدك ، بجهدك الشخصي وبنباهتك وذكائك لن تحصل على شيء ، فكثيرون من أمثالك خططوا لمستقبلهم بطريقة أفضل ، وكانوا يملكون كل مقومات النجاح من الذكاء والعلم والطموح ، ولكنهم لم يحصلوا على ما يريدون ، دع الأمر لله تعالى ، هو الذي سيختار لك المستقبل وسيشرح صدرك لما هو مقدر لك ، فإن كنت صالحاً فالله سيتولاك ، وسيعطيك أفضل مما تطمح فيه ، وسيسدد خطاك وسيفتح القلوب لك وسيجعل لكلامك حلاوة ، تدخل بها القلوب ، فيألفك من لم يعرفك ، ويحبك من كان يكرهك ، ويظهر الله حسنات أفعالك ويستر ما ساء من خصالك..**

ولاحظت فيما بعد أن كل ما أخططه لنفسي لا يعطي ثمرته المرجوة ، وكل ما أسلم أمري فيه لله تعالى كان يجري على أحسن ما يكون من السداد والتوفيق ، وكأن يداً خفية تخطط لي وتقودني إلى الأفضل..

فإذا جاءتني محنة كانت جسراً ضرورياً لمنعطف جديد هو الأفضل ، فأصبحت أتفاءل بالمحنة والابتلاء ، شعوراً مني بأن ذلك هو الطريق إلى الأفضل.

وتذكرت كلمة الشيخ وهو يقول لي: **ما أراده الله لك يحمله عنك ويسدد خطاك به ، وما تريده لنفسك يسند أمره إليك وتمتحن فيه ، فالله هو المدبر لشؤون الكون وأمر العباد... وهو الأعلم بما يصلحهم والأرحم بهم ، فعطاؤه عطاء ، ومنعه هو عطاء ، ويجب أن نشهد العطاء في المنع كما نشهده في العطاء.**

أثره في تكوين النزعة الروحية:

كان أثر الشيخ عميقاً في تكوين النزعة الروحية في كياني ، بالرغم من وضوح ميلي إلى الاستنتاج العقلي والاعتماد على البراهين المادية... وكنت

أحب العقل وأعجب به ، وما زال يغلب علي ذلك ، فالعقل هو سراج ينير الطريق ، ولا يجوز أبداً إغفاله وتجاوزه ، وهو دليل على وعي في التكوين وقدرة على التمييز ، والأمم تنهض بعقولها والثقافة هي جهد عقلي ، والحضارة المادية هي ثمرة لعطاء العقول . . والعقل هو أداة التمييز وأداة التكليف ، ولا يجوز لثقافة أن تقلل من دور العقل في اكتساب المعرفة ، والذين اغفلوا دور العقل في المعرفة الإنسانية ضلوا الطريق والتبست عليهم الدروب ، لأنهم لم يميزوا بين الحق والباطل .

والمناهج العقلية هي الأكثر عطاء ، ولا تستقيم المعرفة إلا بالاحتكام إلى العقل ، والاستنارة به ، وثقافة الإسلام لا تنهض إلا بجهد العقول وباجتهادات عقلية رشيدة ، والمعرفة الإنسانية هي ثمرة جهود العقول البشرية المؤتمنة على القيم الإنسانية والمعارف التي تنير طريق الإنسان في بحثه عن الأفضل والأكمل .

والفكر الإسلامي لا ينهض إلا بالعقل وبالاعتماد عليه والثقة برؤيته ، والعقول لا تضل في مجال المعرفة الإنسانية ، إلا أن العقول لا تدرك إلا ما كان داخلاً في إطار المدركات الحسية ، والعقل يهدي إلى الحق ولكنه لا يمد القلوب بالمعرفة التي تؤدي إلى الطمأنينة والسكون ، فذلك أمر آخر ، يخص عالم القلوب .

ألا أن العقول تحتاج إلى غذاء روحي يقلم أظافرها لئلا تقتحم بموازينها حصون المدركات الكونية المتعلقة بالقضايا الغيبية ، فتلك أمور لابد فيها من صفاء روحي وإشراقات خفية ، ولابد من ذلك التوازن بين القوة العقلية التي زود بها الإنسان لاستقامة شؤون الخلق بنور التمييز بين الأشياء المدركة وبين القوة الروحية التي تهدىء من حدة المعايير العقلية الجافة لكي تكون أكثر إنسانية وارق طبعاً وأقل قسوة ، فالحياة لا تنقاد بقوة المدركات العقلية وإلا وقع التصادم بين الثقافات والمعتقدات والأفراد ، وإنما تنقاد بسيطرة القيم الإنسانية التي تحض على الخير والتسامح والاعتراف بالآخر ، وهذه تحتاج إلى التربية الروحية التي ترتقي بمستوى المدركات العقلية إلى مستوى الوعي بحقيقة

الإنسان وضرورة احترام إنسانيته لأنه من خلق الله ، فليس هناك في الكون تفاوت بين الإنسان وأخيه الإنسان ، وإنما هناك أخوة إنسانية رائعة في تميزها عن المخلوقات الأخرى . . .

التربية الروحية ضرورية لمواجهة أزمة التصادم بين الإنسان والآخر ، وبين الأمم والشعوب والحضارات ، وعلى مستوى المجتمع الواحد بين الرجل والمرأة والغني والفقير والحاكم والمحكوم ، وغاية التربية الروحية هي إيجاد ذلك التواصل الإنساني لمواجهة الشر في المجتمع والقضاء على الحروب والجرائم والتفاوت المذلّ بين الشعوب والتمييز العنصري . وليست التربية الروحية هي ذلك الإنزلاق إلى المجهول الذي ترفضه العقول ، وليست تلك السلوكيات المنحرفة في الطقوس الدينية ، وليست تلك المواجيد المفتعلة التي تدل على جهل أصحابها ، وإنما هي منهج إنساني رفيع المستوى للارتقاء بمستوى الإنسان إلى حيث الفهم العجيب لمعنى الحياة والسمو بالسلوك والتعلق بالكمال ، ومواجهة قوى الشرّ في المجتمع والقضاء على الصراعات الدينية والقومية والطائفية والطبقية ، لتحقيق مجتمع المحبة والألفة والتعايش والتساكن ، ومجتمعنا يحتاج إلى هذه التربية الروحية لكي يتميز عن غيره من المجتمعات بصفاء النفوس وتزكيتها وطهارة القلوب ونقائها ، ولا نريد التربية الروحية لكي نحلق في الأوهام الضارة ، ولا نريدها لأجل الانشغال بها عن عمارة الكون بأسباب الحياة ، نريد التربية الروحية لكي نحترم إنسانية الإنسان ولكي نوفر له أسباب الكرامة المادية والمعنوية ، نريد الروحية التي نقاوم بها طغيان الأقوياء الذين يذلون المستضعفين بقوتهم ، ونريدها حتى تنمو ضمائر البشر فينطلق من أعماق الذات الإنسانية صوت الحق يدعو إلى الخير والفضيلة في المعاملات الإنسانية .

هذه هي التربية الروحية التي نريدها ، ولا نريد غيرها ، نريدها أداة للتقدم لا للتخلف ، نريدها للبناء لا للهدم ، نريدها أن تكون صوت الحق في قلوبنا ، تخاطبنا من أعماق ذاتنا لكي نحاسب أنفسنا عن كل سلوك مذموم ينمي مشاعر الأنانية في شخصيتنا . . أما التربية الروحية التي تشغلنا بالأوهام عن الواقع ،

وتنمي في كياننا مشاعر الغرور ، والتميز ، وتدفعنا إلى الكسل والتواكل والسلبية ، فهذه ليست تربية روحية ، وإنما هي سلوكيات تكرس التخلف في مجتمعنا ، وتضعف تكويننا الذاتي ، وتغتال العقل البشري الذي خلقه الله في الإنسان لكي يكون سراجه المنير الذي يهديه إلى دروب الحق والفضيلة.

التربية الروحية هي أداة لتحرير الإنسان من عبودية المادة ومن سيطرة الغرائز الفطرية الجامحة ، لكي يكون الإنسان الأفضل والأكمل في سلوكياته وخواطره وأفكاره...

ومن المؤسف أن مجتمعات التخلف والجهل جعلت من النزعة الروحية أداة لتكريس الواقع ، واختبأت وراء شعارات التربية الروحية لإحياء قيم مخالفة لحقيقة الدين ، منافية للهدي القرآني الذي يدعو إلى مقاومة الجهالة التي ترفضها العقول السليمة وتشمئز منها الفطرة الصافية التي خلقها الله لكي تكون هادية للنفس البشرية إلى الكمال.

أثرها في السلوك العام:

لا شك أنني قد تأثرت بالشيخ في تكوين ملامح شخصيتي ، نظراً لأنه كان النموذج الذي كنت اقتدي به في طفولتي وهي المرحلة التي يتأثر فيها الإنسان بمن حوله ، من أسرته وأساتذته وزملائه ، وعندما يكون الشيخ بشخصيته المتميزة وبمكانته في النفس فإن من الطبيعي أن يكون التأثير بطريقة حتمية وتلقائية ومن غير تكلف.. لا أدري ما هي الأشياء والأوصاف والطباع التي كان التأثر فيها واضحاً ، ربما يدرك من حولي ذلك أكثر مني ، لأنهم ربما يلاحظون ذلك ، فما يراه الآخرون يكون واضحاً في السلوك العام.

ولكل شخصية إنسانية مصادر تتأثر فيها ، وتصبح تلك المصادر هي مكونات الشخصية ، بكل خصائصها الذاتية.. وأستطيع القول بأن الشيخ كان المصدر الأهم لتكوين ملامح شخصيتي الأولى ، لأنني كنت في مرحلة القابلية للتلقي والاستفادة والاقتداء ، وكنت اعتبره النموذج الأخلاقي الأسمى الذي كنت أحاول تقليده ومحاكاته... ومن الطبيعي أن ذلك التأثير يمكنه أن يصطدم بمؤثرات أخرى أسهمت في تكوين ملامح الشخصية ، وهذا المؤثرات

المختلفة توجد صيغة توافقية يختارها الإنسان لنفسه ، وتمثل ملامحه الذاتية التي تجسد فيما بعد شخصيته المستقلة . . .

والشخصية هي نتاج ذلك التفاعل بين الذات والمحيط الخارجي ، فليست هناك شخصية لا تتأثر بمحيطها ، سواء في الطبائع أو القيم ، والقيم هي الفضاء الأوسع للتأثير ، لأنها تعتمد على ذلك الموروث الذي يتراكم في الكيان الذاتي .

ما زلت حتى الآن أشعر بتأثير ذلك الموروث في ذاتي ، قد يضعف قليلاً وقد يطرأ عليه تعديل ، إلا أنه يبقى ذلك الشيء المقدس الذي يرتاح إليه الإنسان .

أذكر الكلمات التي كنت أسمعها في الطفولة من الشيخ في مجال التربية والتوجيه ، وما زالت حية في نفسي ، إنها تدل على قيم معينة مستمدة من المحيط الاجتماعي ، وليس ما يراه المجتمع حسناً فهو حسن على وجه التأكيد في جيمع الظروف ، إلا إذا كان المجتمع يحسن التمييز بين الحسن والقبيح ، ولهذا تشدد علماء الأصول في الأمر لكي يكون الإجماع دالاً على اختيار الأمة كلها من غير مخالفة أو شذوذ ، لكيلا يصبح القبيح حسناً باختيار الأكثرية التي تتحكم فيها الأهواء والشهوات .

والمجتمع النظيف يرى الحسن في الأفعال الحسنة ، ويرى المصلحة في الأفعال الصالحة والمحمودة ، المجتمع الملوث بالقيم الفاسدة تنحدر قيمه ، لأنها وليدة واقعه ، ولهذا لابد من البصيرة لكي تكون السراج الذي ينير طريق الحق .

ومحاسبة النفس عن الأخطاء ليس ترفاً في التربية ، وإنما هي منهج تربوي للتصحيح الدائم واليقظة المستمرة ، لكي يعتاد الإنسان حياة الطهارة والنقاء والصفاء ، فمن اعتاد النظافة فلا يحتمل نقيضها أبداً ، لأن النقيض يؤلمه ويعذبه ويخاطبه بإلحاح لكي يعود إلى النظافة ، والمحاسبة أداة لمنع الاعتياد ، فالاعتياد مرض خطير في مجال التربية ، والنفس بطبيعتها تحب الطهارة والنظافة في الظاهر والباطن ، فإذا تساهلت في بداية الأمر وتراكمت

الأوساخ فيها فيحدث الاعتياد ، وعندئذ تتوقف المحاسبة ولا تكون هناك رقابة لأجل التصحيح .

ولابد في السلوكيات من الاحتكام إلى العقل والشرع ، والعقل لا يناقض الشرع أبداً ، وإذا ظهر التناقض فهذا دليل على وجود خلل في معايير العقل وموازينه أو جهل بحقيقة الشرع ، وكل من الأمرين دليل على وجود قصور في الفهم . . والاعتدال في الطبائع هو دليل على التحكم في الغرائز ، فالغريزة عمياء لا يصدر عنها سوى ما يعبر عن طموحها في لحظات البهجة والغضب ، ففي لحظة السرور تندفع الغرائز نحو الشهوات المستلذة من الطعام والشراب واللذات الجنسية وتريد أن تنهل منها بنهم وشره ، متجاوزة في ذلك كل العوائق والموانع الشرعية والأخلاقية والاجتماعية ، وإذا وقف أحد في وجه اندفاعها فسرعان ما تستيقظ غريزة الغضب المعتمدة على القوة ، فتسلط قدراتها على الطرف المستضعف ، فتعتدي عليه بالقول والفعل ، متجاوزة في ذلك كل الحدود .

ولابد من التحكم في الغرائز لا للقضاء عليها ، ولكن لإخماد قوتها والتخفيف من اندفاعها لكي تكون في حدود السلوكيات المعتدلة التي تدافع عن وجود الإنسان بتوفير أسباب استمراره ، ولا يتحقق الوجود الإنساني إلا بكمال الغرائز الشهوانية ولا يدافع الإنسان عن حقه في الحياة إلا بقوته الغضبية التي هي أداة الدفاع عن كرامته وحريته . . والتربية الرشيدة هي أداة تكوين خصائص الاعتدال ، للسيطرة على اندفاعات الغريزة بقوة الإرادة الإنسانية ، فالمجاهدة للنفوس ليست وسيلة لإذلالها ولا لمعاقبتها ، وإنما هي وسيلة لتقوية الإرادة بهدف التحكم في سلوكيات الإنسان في مواجهة الغرائز الجامحة .

والاعتدال هو الفضيلة في نظر الشيخ وليس التطرف ، ولا يمكن للتطرف أن يكون فضيلة أبداً ، والتطرف دليل على ضعف الإرادة وعدم القدرة على التحكم فيها ، فتصبح النفس في حالة اندفاع وجموح ، والقوة تكمن في الاعتدال وليس في التطرف ، فالاعتدال يحتاج إلى إرادة ومقاومة لجموح الغريزة ، أما التطرف فهو دليل على سيطرة الغرائز على الحواس ، والغرائز

المنفلتة تلغي دور العقول في التمييز والتحكم والتسيير.

وهناك أشياء كثيرة كان يدعوني إليها الشيخ ويشجعني عليها، وهناك أقوال وتوجيهات لم أكن أفهمها في حينها، وبقيت في ذاكرتي كوقائع، ثم أخذت أفهمها فيما بعد، واستوعب غاياتها التربوية، وهذه هي مهمة المربي أن يقوم بواجب التربية في تصحيح السلوكيات ويوجه الاهتمام إلى خطورة الأخطاء لكي تدرس النفس ما يجب عليها أن تأخذ به وما يجب عليها أن تتجنبه من أنواع السلوك.

ولا يمكن للتربية الدينية أن تنفصل عن أهدافها المرجوة في تكوين الإنسان الصالح الذي يحب الخير لنفسه ولغيره، ويحترم إنسانية الإنسان حيث كان هذا الإنسان، سواء كان صديقاً أو عدواً، في حرب أو سلام، فالحرب ليست عملاً ضد الإنسانية ولا يجوز أن تكون كذلك، وإنما هي جهد مشروع لمقاومة العدوان الذي يباشره الأقوياء ضد الضعفاء.

تذكرت كلمة الشيخ وهو يقول في معرض حديثه عن أهمية القيم الإنسانية واحترام حق الحياة للآخرين: أقاتل عدوي في النهار دفاعاً عن حقوقي المشروعة، وأداويه في الليل إذا كان مجروحاً وأقدم له الطعام إذا كان جائعاً، احتراماً لإنسانيته.

سمعت هذه الكلمة، وما زلت أذكرها، وازداد فهماً لمضامينها الأخلاقية والإنسانية، وأرى فيها قمة الفهم لمعنى القيم الإنسانية، وهذا معنى لم يتوصل إليه فكرنا القانوني المعاصر، بالرغم من منظمات حقوق الإنسان التي تحض على مراعاة القيم الإنسانية، تلك أقوال سمعتها ولم أفهمها في حينها، وأدركت بعد ذلك دلالة هذه الأقوال على منهجية في الفهم العميق لسمو التربية الإسلامية، وهذا ما لفت نظري إلى أهمية الإنسان كفكر وثقافة وحضارة وقيم سامية.

* * *

الفهرس

المؤلفات المنشورة:

- الاتجاه الجماعي في التشريع الاقتصادي الإسلامي ، الطبعة الثالثة ، مؤسسة الرسالة ، عمان ـ الأردن .
- نظام الحكم في الإسلام ، الطبعة الثانية ، مؤسسة الرسالة ، عمان ـ الأردن .
- مبادىء الثقافة الإسلامية ، الطبعة الثانية ، دار البحوث العلمية ، الكويت .
- المدخل للتشريع الإسلامي ، دار القلم ، بيروت ـ لبنان .
- التشريع الجنائي الإسلامي ، دار القلم ، بيروت ـ لبنان .
- أبحاث في الاقتصاد الإسلامي ، مؤسسة الرسالة ، عمان .
- أبحاث في الفكر والحضارة ، مؤسسة الرسالة ، عمان .
- مفهوم الربا في ظل التطورات الاقتصادية المعاصرة ، نشر المغرب .
- محاضرات في الفكر السياسي والاقتصادي المعاصر ، نشر مؤسسة عكاظ ـ المغرب
- قضايا معاصرة ، نشر مؤسسة عكاظ ، المغرب .
- دموع الفجر (رواية) ، نشر مؤسسة عكاظ ، المغرب .
- الفكر الإسلامي والتجديد ، نشر وزارة الثقافة ، المغرب .
- مقدمة في علوم القرآن ، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، المغرب .
- الفكر الخلدوني ، نشر مؤسسة الرسالة ، عمان .
- تأملات في الفكر الإسلامي ، دار القلم العربي ، حلب ـ سوريا .
- الثقافة الإسلامية والنظام العالمي الجديد ، دار القلم العربي ، حلب .
- مفهوم النفس عند ابن مسكويه ، دار القلم العربي ، حلب ـ سوريا .
- بحوث وتدخلات منشورة في إطار بحوث الأكاديمية المغربية .

المؤلفات المعدة للنشر:

- مبادىء الفكر الصوفي ، دار التراث العربي .
- الفكر الاقتصادي عند ابن خلدون ، دار التراث العربي .
- الاستشراق - فكره وآراؤه ومدارسه .
- المنهج التربوي عند الإمام الغزالي .
- دور التربية الإسلامية في تكوين الشخصية .
- القوانين الاجتماعية عند ابن خلدون .
- أحكام الأسرة والقانون العربي الموحد للأحوال الشخصية .
- لا تقتل ولدي (رواية اجتماعية) .
- دراسات فقهية معاصرة .
- ذكريات وأيام (سيرة ذاتية) .
- ربع قرن من المغرب .